

أصول الناجح الأوروبي الحديث

من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية

تأليف

هربرت فيشر

نُقلَّةٌ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ

الدكتور أَحمد عبد الرحيم مصطفى

مدرس التاريخ الحديث
جامعة عين شمس

الدكتورة زينب عصمت راشد

أستاذة التاريخ الحديث المساعدة
جامعة عين شمس

مراجعة

الدكتور أحمد عزت عبد الكرييم

أستاذ التاريخ الحديث
عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثالثة



دار المعرفة بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

فهرس

الصفحة

٥	مقدمة
٧	الفصل الأول : أوربا الجديدة	
٢٩	» الثاني : النهضة الإيطالية	
٤٧	» الثالث : فرنسا وبرجندية	
٥٥	» الرابع : النهضة الألمانية	
٦٣	» الخامس : ملکية جديدة في إنجلترا	
٧١	» السادس : تنافس فرنسا وإسبانيا على إيطاليا	
٨٩	» السابع : خطر الأتراك العثمانيين	
٩٥	» الثامن : الإصلاح الديني في ألمانيا	
١١١	» التاسع : خروج إنجلترا على كنيسة روما	
١٣١	» العاشر : إمبراطورية شارل الخامس	
١٤٩	» الحادى عشر : عقيدة كلفن	
١٥٧	» الثاني عشر : ألمانيا تتفق على الاتفاق	
١٦٧	» الثالث عشر : الإصلاح الكاثوليكي	
١٨٣	» الرابع عشر : الحروب الدينية في فرنسا	
١٩٩	» الخامس عشر : قيام الجمهورية المولندية	
٢٢١	» السادس عشر : إنجلترا وإسبانيا	
٢٣٥	» السابع عشر : حرب الثلاثين عاماً	
٢٥٩	» الثامن عشر : انتصارات مزارُان	

الصفحة

٢٦٩	الفصل التاسع عشر : الثورة العظمى في إنجلترا
٢٩٧	« العشرون : زعامة فرنسا
٣٢١	« الحادى والعشرون : الوراثة الإسبانية
٣٣٩	« الثاني والعشرون : القرن الثامن عشر في إنجلترا وفرنسا
٣٥٣	« الثالث والعشرون : شهاب من السويد
٣٦٠	« الرابع والعشرون : بطرس قيصر روسيا
٣٧٢	« الخامس والعشرون : الترك والعالم المسيحي
٣٨٤	« السادس والعشرون : السلام وبروسيا
٣٩٥	« السابع والعشرون : الحرب في أوربا (١٧٤٠—١٧٦٣)
٤١٩	« الثامن والعشرون : حرب الاستقلال الأمريكية
٤٢٨	« التاسع والعشرون : إنجلترا مصنع العالم
٤٤١	جدالول ترتيب تسلسل الأسر المالكة
٤٥١	الخراط

المواشن من وضع المترجمين

مقدمة الترجمة

أخيراً نقدم لقراء العربية ما تبقى من ترجمة كتاب « تاريخ أوربا » لهربرت فيشر . فقد سبق أن ظهرت ترجمة لكل عصر من عصور التاريخ الأوروبي العام : عصر التاريخ القديم — وقد قام بترجمته الأستاذان الدكتور إبراهيم نصحي والدكتور محمد عواد حسين ؛ وعصر التاريخ الوسيط — وقد قام بترجمته الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العربي . والدكتور إبراهيم العدوى ؛ والتاريخ الحديث والمعاصر — وقد قام بترجمته الأستاذان أحمد نجيب هاشم ووديع الصبع . أما ترجمتنا هذه فتناولت الفترة الواقعة ما بين نهاية العصور الوسطى والثورة الفرنسية ، وهي الفترة التي يطلق عليها الأستاذ فيشر اسم عصر النهضة والإصلاح الديني والاحتكام إلى العقل^(١) . أما نحن فقد شئنا أن نطلق عليها اسم « أصول التاريخ الأوروبي الحديث — من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية » .

وصاحب فكرة ترجمة هذا الكتاب هو المؤرخ الكبير أستاذنا « محمد شفيق غربال » الذي اطمأن — قبل أن نفتقده — إلى أن المشروع قد اكتمل وأن ترجمة الكتاب كله قد تمت . فإلى روحه نهدى هذا الجهد ؛ وكل منا قد تأثر به وبمنهاجه سواء عن طريق التوجيه العلمي المباشر أو خلال تأليفه التي يستشف منها منهاج الأستاذ فيشر وأقربائه : النظرة الكلية الشاملة ، والربط والمقارنة والتراكيز ، مع سمو في أسلوب العرض من الناحيتين الإنسانية وال موضوعية . ومثل هذا المنهاج لا يتأتى إلا من أفق عقلية واعية تميز بين العث والسمين ، وقرأ قراءات واسعة لاترتبط بزمان أو بمكان أو بالشخص من الأكاديمي الضيق .

ولقد صدرت في العام الماضي في إنجلترا طبعة جديدة لكتاب فيشر في « تاريخ أوربا » رأى بعض النقاد الإنجليز أنها لم تعد تتمشى مع الروح الحداثة أو تفہيد القارئ البريطاني . فالكتاب وضع في فترة كانت فيها إنجلترا صاحبة الكلمة العليا في السياسة

العالمية^(١) . والمؤلف ذاته ينتمي إلى ذلك الطراز «الفكتوري» من المفكرين الإنجليز الذين شهدوا أوج الإمبراطورية البريطانية وتحمسوا لها وتأثروا بها والآن ، ونحن نشهد «تصفية» الإمبراطورية ، لم تعد مثل هذه النظرة تتمشى مع الواقع .

أما بالنسبة للقارئ العربي فإن كتاب فيشر لا يزال حيث كان ، لم يفقد طلاوته . فهو يمثل نمطاً من العرض التاريخي قد ينال رضى الصحفة المفكرة وإن لم تتفق معه في كل ما يذهب إليه ؛ وقد يجد عتناً من أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ باعتباره سجلاً لحوادث يتلو بعضها بعضاً . ولكنه لا شك يثير الإعجاب ويدفع القارئ إلى مزيد من التفكير والاطلاع . وترجمتنا هذه تمثل نقلة الأوربي من العصور الوسطى إلى فلسفات ديكارت وكانت وروس وأضرابهم من رواد التأثير في القرن الثامن عشر الذين بشروا بالتسامح والعلمية ونافحوا عن حرية الإنسان وحقه في العدل والكرامة .

وعلى الله قصد المسيل .

المترجمون

نوفمبر سنة ١٩٦١ .

(١) طبع الكتاب لأول مرة في عام ١٩٣٦ .

الفصل الأول

أوربا الجديدة

العصور الوسطى والحداثة - اتساع نطاق العالم - القومية - الرأسمالية - المدنية - الإصلاح البروتستانتي - خصومات الكاثوليك - الانتشار السريع للإصلاح الديني - عصر الحروب الدينية - أثرها في فرنسا مقارنةً بأثرها في ألمانيا - الدبلوماسية الفرنسية ، والحركة البروتستانتية في ألمانيا - خلو إنجلترا من الحروب الدينية - زوال الدافع الديني في الشؤون السياسية إبان القرن الثامن عشر .

ليس من السهل على الباحث أن يحدد تاريخاً فاصلاً بين العصرتين الوسيط والحديث ؛ فالانتقال بينهما حدث بالتدريج ولم يسر على وترة واحدة ؛ ثم هو في بلد ما أسرع وأكمل منه في بلد آخر ؛ هذا إلى أن التحول لم يتم العالم بأسره بحيث تركه خالياً من روابض العصور الوسطى ؛ كما أنه في العصور الوسطى نفسها لمعت هنا وهناك مضارات للعقل البشري يبدو أنها لا تمت للعصر الوسيط بصلة ، بل قد تبدو - في غير ما خفاء - إرهاصاً لتلك النظرة الواسعة ، والمشاعر المعقّدة التي امتاز بها العصر الحديث .

والإنسان على أي حال أبطأ حركة مما يود أن يسلم به دائمًا سكان المدن في ديار الغرب ؛ فأساليب الحياة والفكر التي تستمد أصولها من عصور سحرية لا تزال تفرض سلطانها على بعض البلاد والشعوب : ومن ذلك أن الاعتقاد في السحر ومخاطبة الموتى واليازوجة (التنجيم) والشعوذة لا تزال قائمة لم تختلف تماماً ، ولا تزال بعض الخرافات تحيا في أوساط الفلاحين ؛ بينما امتزج بعضها الآخر بالطقوس الدينية ؛ فالأسرار الأولية التي تحيط بالكون : كاختلاف أشكال القمر وسير الكواكب والقوى الغامضة وراء ظاهرة التكاثر والنمو - كل ذلك شكل مثولوجيات الفلاح الأوروبي منذ عهد سحيق . وفي الكنائس الكاثوليكية لا تزال المبادر - كما كانت من قديم - تتراجح يمنة ويسرة ، مطلقة بخورها حول التابوت لتطارد الأرواح الخبيثة التي تعمل على دفع أرواح الموتى إلى جحيم أبدى ؛ ولا تزال المعجزات التي كانت شائعة في العصور الوسطى قائمة تصنع الأعاجيب وتسهّل النماذج

ليحجوا إليها كى ينالوا على يديها الشفاء مما ألم بهم من روماتزم أو برص أو ساق مكسورة . وإذا كان العصر الحديث قد أصبحت له مزاراته كما أنه طور وسائل انتقاله ، وحلت لورد ^(١) محل كمبوستلا Compostella وكانتربرى ، وإذا كان الحاج لم يعد يجوس الديار معتمداً على عكاشه أو يمتنى صهوة جواده المطهم ، بل أصبح يتنقل في قطارات السياحة أو السيارات إلى مزاره المقدس ، فإن عقایة المتعبدین ظلت كما هي لم تغير . وهكذا لم تفعل وسائل النقل الآلى المريحة التي تخض عنها العلم الحديث شيئاً إلا أن حمات أناساً لا يزالون يعيشون بعقلية العصور الوسطى .

ولا يقل عن ذلك أثراً ما خلفته العصور الوسطى في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد . فشلاً قد لا يوجد بلد في أوربا كان أكثر اطراحاً للعصور الوسطى من بريطانيا ؛ ومع ذلك فقد بقيت نظم العصور الوسطى في المدن الإنجليزية دون أي تغيير حتى عام ١٨٣٥ بما تحمل من مثالب بهيمة خلابة ، لتفسح المجال للنموذج الديمقراطي المأثور الذى يتمشى والانقلاب الصناعي والتسوية بين الناس . كذلك لم تخل الحياة في الريف الإنجليزى من مظاهر العصور الوسطى خلواً تماماً : فإن السائح في إنجلترا لا يزال يصادف هنا وهناك هذه الحقول المكشوفة وقطع الأرض المبعثرة التي كانت تميز الفلاحة في العصور الوسطى – هذا على الرغم من أن إنجلترا كانت أولى الدول التي استبدلت بهذا النظام نظاماً آخر يقوم على إنشاء المزارع الواسعة المسورة التي توافر أصحابها من النساء على تحسينها ، وهو النظام الذى اكتمل في إنجلترا على نحو لم تعرفه البلاد الأخرى . وإذا كانت إنجلترا لا تزال تحمل من رواسب العصور الوسطى ما تحمل ، فما بالكم بالأقطار المختلفة في شرق أوربا حيث غرق رجال الدين حتى أذقائهم في بحر من الجحالة والوحش منذ عهد بعيد ! لم يبدأ الفلاحون المضطهدون في غاليسيا والبلقان يحسون بتغيير ملموس في أوضاعهم أو تحسين لأحوالهم وطرائق معيشتهم إلا في القرن

(١) مدينة في جنوب غرب فرنسا قرب جبال البرانس اكتسبت أهميتها الدينية في منتصف القرن التاسع عشر على أثر الرؤى التي تكشفت لفلاحة شابة اسمها برناديت سوبيرس Bernadette Soubirous

(٢) مدينة إسبانية شهيرة ذات أهمية دينية .

الناس عشر . ولا يزال الناس يذكرون يوم كان أمير الجبل الأسود يقضى بين رعاياه بطريقة أبوية ، جالساً تحت شجرة على نحو ما كان يفعل القديس لويس في زمانه . ولا يزال الرجل الألباني يغدو ويروح مددججاً بالسلاح كشبيه الأفغاني ويحيا حياة لا تختلف عن تلك الحياة التي صورتها الإلياذة . ولا يزال القرويون في بلغاريا يمارسون طقوساً ويعتقدون في خرافات ربما لم سمع بها يوريبيديس^(١) لافتر ثغره عن ابتسامة عريضة . وقد لاحظ كاتب أربيب ملم بأحوال اليونان الحديثة أن قوام الحياة الروحية للشعب اليوناني في الوقت الحاضر لا يزال يتالف من مجموعة الأفكار والخرافات « يستتر بعضها خلف وشاح رقيق من المؤثرات المسيحية » ، في حين أن بعضها الآخر لا يزال « متسلحاً بثواب كلاسيكي لم يتغير » : فلا تزال تقدم القرابين من التقدود والملح واللجز لاسترضاء آلهات الحظ الثلاث ، كما أن التقدود التي كانت تقدم لراكب سفينه الموقى كي يحرس الموقى لا تزال توضع على شفتي من تنتهي حياته . وعلى هذا المثال لا يزال هناك من يعتقد بوجود عرائس البحر والأشباح مصاصه الدماء والأرواح الشريرة والمردة التي تسكن الينابيع والبحار أو تلقي باللاح في قاع اليم^(٢) .

ولا تزال حياة الفلاحين الأوّلين تحمل كثيراً من الأوضاع العتيبة التي لم يعف عليها الزمن أو يغير منها شيئاً . ومع ذلك فكما أن العصور الحديثة لا تقوم تماماً على نور العقل ، كذلك لم تكن العصور الوسطى غارقة تماماً في ظلام الخزعبلات . فقد عاش فيها روجر بيكون Roger Bacon^(٣) ، هذا الراهب الفرنسيسكاني المتخرج من أكسفورد ، الذي وضع قاعدة عدم التسليم المطلق بمعرفة شيء ما دون إخضاعه للتجربة ، والذي كان أول من أصر على ضرورة إمام الطبيب بأصول الكيمياء كشرط أساسى لتكوينه ؛ وعاش فيها تشوسير Chaucer^(٤) الذي سبق بلاحظاته الدقيقة الغريبة من تقلبات الطبيعة البشرية وشنوذها عبقرية

(١) ٤٨٤ - ٤٠٧ ق . م . هو أحد كبار كتاب المأساة في بلاد الإغريق القديمة.

Rennel Rodd, The Customs & lore of Modern Greece

(٢)

(٣) حوالي ١٢١٤ - ١٢٩٤ م . فيلسوف وعالم إنجليزى .

(٤) ١٣٤٠ - ١٤٠٠ . هو أكبر شعراء إنجلترا في العصور الوسطى ، ومن أهم مؤلفاته

قصص Canterbury Tales . The Canterbury Tales

تشارلز دكنز Charles Dickens^(١) ؛ وعاش فيها فيللون Villon^(٢) السارق القاتل والشاعر الذي تبز منظوماته الشعرية اللاذعة (١٤٣١) تلك الصورة التي رسمها فكتور هيوج Victor Hugo^(٣) في «أحدب نوتردام Notre Dame de Paris» في «أحدب نوتردام» لباريس العصور الوسطى بروحها الساخرة المرحة ومشاعرها وإحساساتها وعواطفها الصاخبة ومزاجها المتقلب الذي تختلط فيه الجريمة بالتبوية، والخشونة بالثقافة، والقصوة بالعاطفة. والحق أن الحياة في العصور الوسطى لم تطب لأصحاب العبريات الأصيلة: فقد أمضى بيكون في السجن عشر سنوات، كما حكم بترارك Petrarch^(٤) بإيعاز من أحد الكرادلة باعتباره ساحراً توفر - دون داع - على دراسة فرجيل Virgil^(٥). ولكن بيكون كانت تكمن فيه روح العلم الحديث، كما وجدت في بترارك روح الإنسانية الحديثة. وحتى في القرن الرابع عشر نافى أنسانياً كانت لديهم الشجاعة الكافية ليقوموا بتشريح جسم الإنسان في الحفاء. وكم من باحث مغمور في عصر الإيمان سبق فساليوس Vessalius العظيم (١٥١٤ - ٦٤) الذي يعتبر الرائد الأول لعلم التشريح الحديث.

ولكن على الرغم من أن التحول قد سار حتماً بالتدرج، فإن التباين الكبير بين العصور الوسطى والعصور الحديثة كان واضحاً بما فيه الكفاية. فمن مجتمع موزع بين علمانيين وإكليرicos إلى مجتمع موزع بين أغنياء وفقراء؛ ومن بيئة معادية لحرية البحث إلى بيئة يعيش فيها العلم ويترعرع. كانت الكنيسة في القرون الأولى من العصور الوسطى هي وحدها ملاذ الثقافة والواسطة العليا لضم القبائل المتربرة إلى حظيرة التقاليد العظيمة للحضارة المسيحية والرومانية، كما كانت الكنيسة الوراث الحقيقي للتقاليد السياسية للإمبراطورية الغربية المنهارة. وصحت اللغة والأدب والسياسة والقانون في القوالب التعليمية المألوفة التي تبقيت من حطام الساطة المدنية

(١) ١٨١٢ - ١٨٧٠ . أشهر ، وربما أعظم ، كتاب القصة في إنجلترا .

(٢) حوالي ١٤٣١ - ١٤٦٣ . شاعر فرنسي غريب الأطوار اكتسب شعبية كبيرة واتسمت

أشعاره بالطلاوة وأثرت كثيراً ليس فقط على معاصريه ، بل أيضاً على الشعر الفرنسي الحديث .

(٣) ١٨٠٢ - ١٨٨٥ . شاعر وكاتب قصة فرنسي .

(٤) ١٣٠٤ - ١٣٧٤ . الشاعر والإنسان الإيطالي الكبير .

(٥) ٧٠ - ١٩ ق. م . الشاعر الروماني الكبير ؛ أشهر أشعاره «الإنيةادة» .

الى انهارت . وكان استعمال اللغة اللاتينية شائعاً بين الطبقة المتعلمة في غرب أوروبا فكانت لغة عامة لهم جميعاً ، وظل روح المشرعين الرومان القدماء حياً مؤثراً في قوانين الكنيسة التي كانت المحاكم الكنسية تطبقها في شئ بقاع العالم المسيحي اللاتيني . زد على ذلك أن التفكير الأوروبي ظلت تقوم عليه وتتناقله في داخل المدارس والجامعات وفي خارجها طوائف من الرهبان في نطاق النصوص المقدسة وما يتفرع عنها من آداب . ولقد ضاعت معالم المعرفة القديمة في حين لم تتكون بعد معرفة جديدة ؛ ولما كانت أساليب العلوم الطبيعية لم تزل في حيز العدم ، فقد وقع الذكاء البشري فريسة لاتجاهين متطرفين : التسرع والاندفاع أو التردد والاستكانة . وكانت الكتابة باللغة الدارجة تدنياً يعتذر عنه ، حتى إن بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) كان يفضل ملحمة «إفريقيا» - وهي ملحمة كئيبة نظمها باللاتينية - على القصائد البديعة التي كتبها والتي أكسبته الخلود .

أما النظريات السياسية في العصور الوسطى فقد تأثرت تشكيلاً بالمكانة التي كانت الإمبراطورية الرومانية لا تزال تحتلها ، بالإضافة إلى تلك السلطة الطاغية التي تمنت بها كنيسة روما الكاثوليكية .حقيقة إن الوحدة الأصلية للإمبراطورية الرومانية قد تمزقت أوصالها تحت مطارات المتمردين الذين غزوا العالم الغربي ؛ فقادت إمبراطورية غربية لاتينية وأخرى شرقية يونانية . ولكن فكرة قيام إمبراطورية موحدة وعالم مسيحي موحد ظلت حية ؛ وإذا لم يكن في وسع الناس أن يوفقاً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية - والأمل في احتلال التوفيق بينهما لم يختب على الإطلاق - فإن الكنيسة اللاتينية في الغرب على الأقل قد اعتبرت كلاماً لا ينحل ولا ييفي ، بحيث اعتبر البابا الحارس الأعلى للعقيدة والأخلاق على الأرض ، وأصبحت كلمته - وقد علت فوق أنفاس الفوضى والعنف اللذين غمرا العالم - الصوت الحاسم الذي يدعوا الحكام والرعايا على حد سواء إلى اتباع العدالة والمحافظة على السلام والتحلى بفضائل الدين التي تتكشف لهم . وقد لقيت هذه الفكرة عن حكم البشر قبولاً في ذلك المجتمع الفقير الجاهل الذي كان يتكون أكثره من الجنود والكهنة والفلاحين ، خاصة وأن المسيحيين كان أكثرهم يعيشون داخل وعاء الإمبراطورية الرومانية القديمة ولا يكادون يحسون بوجود بقاع واسعة من الكوة

الأرضية لم يصل إليها اسم روما .

والقرن السادس عشر الذي كان أول قرن اتضحت فيه معالم العصور الحديدة يقدم لنا أقوى تعارض لوجهة النظر هذه الرومانية والكهنوتية التي سيطرت على العالم في العصور الوسطى ؛ فقد استرد التفكير العلماني اعتباره ، يغذيه شيوخ استخدام اللغات الدارجة وبعث اللغتين الإغريقية والعبرية بعثاً كاملاً ، وكذلك بدأت دراسة طبيعة الكون دراسة جديدة ستدى إلى نمو العلم الحديث . درس المصورون جسم الإنسان ، بينما شرحه الجراحون : وكان المثال فيروكيو Verrochio عالماً في التشريح في نفس الوقت . كما اطrod عدد المسلمين باكتشاف كوبيرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٧) ، ذلك الفلكي البولندي الذي أكد أن الأرض تدور حول الشمس . وما لبست تلك الثقافة العلمانية ذات الطابع الأرستقراطي - ولا غرو ، إذ أنها نمت في القصور المترفة لمحكمات الطغاة في إيطاليا - ما لبست هذه الثقافة أن أصبحت مشاعاً للجميع بفضل اختراع الطباعة . وفي الوقت الذي كانت المصالح الكهنةية لا تزال قوية مؤثرة . عادل تأثيرها هذا اللون الجديد المثير من المعرفة التي لا ترتبط بعلوم الدين ؛ ولكنها ثمرة عمليات عقلية لم تقو العلوم الدينية على تسخيرها لمصلحتها . وضاق صدر أوربا ، فتحولت عن ذلك العالم الأدبي الواسع ، عالم التعليقات والشروح التي خطتها العلماء في القرون الأخيرة من العصور الوسطى « بحروف من أفيون على ألواح من رصاص » .

وشغلت الجغرافية قسطاً مهماً من هذه المعرفة الجديدة . فقد كان احتلال البرتغاليين لسيته على الساحل الإفريقي عام ١٤١٥ بمثابة الحلقة الأولى في تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التي أدت إلى دوران فاسكو داجاما Vasco da Gama حول إفريقيا (١٤٩٢) وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية في الشرق ؛ كما أدت إلى اكتشاف العالم الجديد فيما وراء المحيط الأطلنطي على يد الملاح الجنوبي كريستوفر كولومبس Christopher Columbus . ومنذ ذلك الحين لم يعد البحر المتوسط مركز العالم المتقدمين ؛ فقد انتقل التفوق التجاري من المدن الإيطالية إلى الأمم القرية من المحيط الأطلنطي : البرتغال أولاً ثم إسبانيا فالأراضي المنخفضة ففرنسا وإنجلترا ، وترتب على ذلك أن انتقلت على السفن عابرات المحيط

إلى أقصى الأرض تلك الحضارة التي نشأت في وادي الفرات والنيل ثم انتشرت حول سواحل البحر المتوسط ، وأخذت أوربا تدخل مرحلة جديدة من تاريخها ، وهي مرحلة تميز بتأسيس المستعمرات والإمبراطوريات فيما وراء البحار وبالانتشار التدريجي للنفوذ الأوروبي في شتى أنحاء المعمورة .

وقد وافق اكتشاف العالم الجديد انتشار الكتب المطبوعة ، ذلك الاكتشاف الذي علم الأوروبيين — على حد كلمات بيكون السياسية أن « الحقيقة ليست وليدة السلطان ولكنها وليدة الزمن » وكان الأوروبيون قد عرّفوا منذ زمن طوبول أن الأرض كروية ، وأنهم لو أبحروا غرباً بالقدر الكافي فإنهم لابد واصارون إلى الهند . ورغم ذلك فإنهم كانوا خالى الذهن تماماً من وجود كتلة أرضية لاحظ لاساعتها ومواردها تتوسط العالم . وإذا كانت تكهنتهم قد صدقت عن شكل الأرض ، فإن تقديرهم لحجمها قد انهار تماماً ؛ إذ أن العالم كان أكبر بكثير مما كانوا يعتقدون . وفجأة أدرك الناس أن حقائق الجغرافية القديمة التي طالما لقّبها إياهم أهل العلم منذ قرون ، والتي كان يؤمن بها الناس في كل الجامعات ، أصبحت تنافقاً صارخاً مع الحقائق الثابتة .

وكانت النتائج التي ترتبت على ذلك أعمق مما أضافته الكشف عن الجغرافية إلى المعرفة الوضعية ؛ فقد بدا الإنسان — دونوعي — يتخلّد موقفاً جديداً من المعرفة نفسها ، ولم يعد يتورع عن تحدي السلطان ، كما تهافت سيطرت الماضي على الأذهان . وكما تكشف كوكب الأرض عن عجيب خبایاه التي لا نهاية لها ، فقد ظهرت أجيال من الناس لا يسلّمون بأن الحقيقة قد اكتملت واحتواها الكتب القديمة فعلاً ، بل هو سر يبحث عنه في طيات الزمن .

وفي غمرة التكهنت المختلفة بقصد المستقبل التي أثارها رد الفعل الأول لكشف أمريكا ، لم يتوقع أحد أن تصبح القارة الجديدة يوماً ما الإناء الوعي لما تلفظه أوربا . يومئذ بدا أن لأمريكا فوائد كثيرة : فهي ستفتح للكنيسة الكاثوليكية آفاقاً روحية واسعة . كما تقدم للملوك إسبانيا والبرتغال ملكاً عريضاً ، وتجذب رجال البحر والباحثين عن الثروة والتجار والمبشرين عبر الأطلنطي ، وتمكن للسادة النبلاء الإسبان فرصة تنفيذ أحكام القانون والقضاء بين أهل البلاد الأصليين من الهند ،

وتعشل أبهة الناج الإسباني في أملاكه عبر البحار . ولكن لم يكن ثمة في قصص البحارة العائدين من تلك البلاد ، أو في أحوال أوربا الاقتصادية في طلائع النصف الأول من القرن السادس عشر ما يؤيد توقع أن نجد جماعات كبيرة من المهاجرين الأوروبيين مستقرّاً لها في العالم الجديد . وحتى بعد مرور قرن من الرحلات عبر المحيط الأطلسي ، حذر فرنسيس بيكون Francis Bacon^(١) صاحب الطريقة العلمية ورائد الحغرافية ، حذر مواطنيه من استعمار أمريكا ، موجهاً النظر إلى أن أيرلندا تلك الجزيرة المهمّلة عبر مضيق سانت جورج ، أولى من أمريكا باهتمام المهاجرين الإنجليز ، إن كان لابد من الهجرة .

وفي إبان ذلك انهار الكيان السياسي « للإمبراطورية » التي عرفتها العصور الوسطى ، لتتحل محلها الدول القومية الآخذة في النمو . وبالرغم من تعشى فكرة المماكة العامة التي تسندها الكنيسة العامة مع أماني أوربا خلال عدة قرون ، فإن هذه الفكرة لم تشكل تماماً لتفق واحتياجات أوربا ؛ كما أن أوربا لم ترعاها رعاية كاملة . والحق أن الإمبراطورية لم تحظ فقط بولاء عام ؛ فإن الأمراء كثيراً ما تحدوا ادعاءات البابوات . وبينما كانت السلطة المدنية تضي قدمأً في السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطئية مضنية ؛ وقد ظهرت في إنجلترا أولاً حيث كانت الظروف مواتية لظهورها ، ثم ظهرت في الدول المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا ، وفي فرنسا وفي الإمارات الكبرى من مجموعة الدول الألمانية . وما أشرف القرن الخامس عشر على النهاية حتى توطدت دعائم الحكومات القومية في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا ، مستعينة فيما استعانت به لتحقيق هذا المهد بالاختراع الجديد للبارود . وفي إنجلترا كان « انتحار » النبلاء الإقطاعيين في حروب الوردين مقدمة لتوطيد حكم التيودور .

ولأن هذا الطراز من الحكم الذي أخذ إذ ذاك يفرض نفسه قد تشكل على أساس مخالف لنظم العصور الوسطى القائمة على تفتت السلطان ، وأصاب من القوة درجة تدعو إلى الإعجاب ، ولكن لو حكمنا عليه بالمعايير الحديثة لألفينا

(١) ١٥٦١ - ١٦٢٦ - الفيلسوف ورجل السياسة وكاتب المقال الإنجليزي .

ضعيفاً لدرجة تدعوه إلى الرثاء . فإن ما كان يتمتع به أقوى الملوك في القرن السادس عشر من موارد روحية وعقلية ومادية ليبدو تافهًا حقًا إذا قيس بما يسند الدولة الحديثة من الصميم الاجتماعي المذهب والتعليم القوى المنظم والأدوات القوية لتحصيل المعرفة وتركيزها والمنشآت الحربية والبحرية العظيمة والموارد الاهائلة . فالأوراق التي كانت تغذى أداة الحكم الإنجليزي طيلة عهد الملكة إليزابيث قد لا تعدل ما يتجمع خلال شهر في أقل مكتب من مكاتب الحكومة الإنجليزية في أيامنا هذه ؛ وأقوى جيش كان يستطيع فرنسو الأول أن ينزله في ميدان الحرب ليس شيئاً مذكوراً أمام فرقة واحدة من جيش باتان Pétain أو فوش Foche . وحتى في أكثر الدول تقدماً في القرن السادس عشر كانت الحكومة تعيش يوماً بيوم أو — كما يقولون — « من اليد إلى الفم » ؛ فهي تحشد الجيوش والأساطيل لتواجه ظروفًا معينة ، بينما تلجمأ إلى أیاس المحاولات للحصول على المال . ذلك أن تجنيد جيش قوي والإتفاق عليه وإطعامه لم يكن فوق طاقة أية حكومة فحسب ، بل كان أمراً فوق مستوى تصور رجال الحكم وتدبيرهم . فقد طلب شارل السابع ملك فرنسا من كل أيرلندي أن تعد جندياً ضارباً للسهام ، ولما فشل هذا الإجراء اضطر خليفته لويس الحادي عشر إلى الالتجاء مرة أخرى إلى الجنود المرتزقة من الأجانب ؛ وإن الإفلاس الزمن الذي حل بشارل الخامس ، وهو يعد أقوى ملوك زمانه ، لظاهرة عامة للضعف الذي كانت تعانيه كل الحكومات في ذلك العصر .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن ذلك العصر الذي شهد تفكك العالم المسيحي اللاتيني قد شهد أيضاً — بشكل واضح — ظهور ذلك الشكل الأكفاء من أشكال التجمع الاجتماعي والسياسي وهو يتطلب من الأمة ولاء حرّاً وإن يكن صارماً . وفي القرن السادس عشر أخذ الأوروبيون أكثر من أي وقت مضى يفكرون باعتبارهم أمّاً ويعملون في وحدات قومية ، ويقدمون لرأس الدولة القومية قدرًا من الولاء الذي كانوا يقدمونه من قبل للكنيسة العامة الواحدة . ويعد روجر أشام Roger Ascham ناظر المدرسة والمصلح التعليمي الذي علم الملكة إليزابيث ، يعد نموذجاً لاحركات التعليمية العلمانية الجديدة التي دعمت الأدب الشعبي واللغة القومية .

وكان ظهور الملكيات القومية في القارة إيداناً بعصر من التنازع الدبلوماسي

الحاد تحكمه فكرة التوازن الدولي . وفي حين زال ما كان يشعر به الأوروبيون في العصور الوسطى من وجود مصلحة أوروبية عامة ، لم تستطع دولة واحدة أن تقدر قوتها ومواردها الحقيقة . وامتلاك أدمعة الحكم بمعظم رومانтика من تراث الرومان والكارولنجيين ؛ بينما كان من الخير لهم أن يكرسوا نشاطهم للعمل لما فيه خير رعاياهم . وكان فن السياسة لم يكن فجأً ، ولم يكن الاقتصاد السياسي قد ظهر بعد ولا قدر الناس فن «الراحة» المتزلية ولا سعوا إليه . ولعدم توافر الإحصائيات الصحيحة انتشرت معلومات غامضة عن ثروة الدول الأوروبية وسكانها ، وثبتت في يقين الناس أنه ما زال في وسعهم القيام بفتح باهرة والاحتفاظ بها في نطاق الإطار القديم للمجتمع الأوروبي .

أما أن قيام دولة «عامة» (أى تتنظم قوميات متعددة) يقتضى التزامات عامة ، فهذا أمر لم يعن أحد في مسهل القرن السادس عشر بالتفكير فيه . والسفر إذ ذاك كان أمراً شاقاً ، والعلاقات بين الحكومات نادرة ومتقطعة ؛ وكانت كل دولة تحاول أن تبز جارتها وتسعي إلى توسيع حدودها ، وضاعت على أوروبا أكبر فرصة ستحت لها للقيام بذلك العمل العظيم ، وهو إنشاء حضارة تقوم على تعاون بني البشر . وهذا الكشف عن العالم الجديد لو أنه وضع تحت إدارة رشيدة وعالجه الرأي العام بروح أكثر بهجة ، لكان من المحتمل أن يتمخض عن تقسيم القارة الجديدة بالعدل والقسطاس بين الدول التي اهتمت بها . إلا أن الكشف عن العالم الجديد كان – على العكس من ذلك – إيداعاً بانفجار حرب قاسية وانتشار القرصنة في أعلى البحار لعدة قرون . وقد أخذ الناس كل ذلك قضية مسلماً بها ، ولم يرتفع مفكر سياسي إلى مستوى الأحداث الكبرى التي كانت تغير وجه العالم . وفي حين استسلم سير توماس مور Thomas More للأحلام السعيدة من عالم مثالي فاضل ، نرى ميكائيلي Machiavelli المفكر الفلورنسى الكبير ولا شيء أعز على قلبه من إيطاليا وقد تحررت من الغزارة المتبربرين .

وأصبح المال – الذى هو دائمًا قوة يحسب حسابها في شؤون البشر – أكثر توافراً في أواخر العصور الوسطى ، ثم ازداد وفرة قبل أن ينتهي القرن السادس عشر حين تدفقت على أوروبا فضة بيرو . أما التجارة فقد نمت في كل الأقطار

الغربية على أثر الدافع الأول الذي أنعشها أثناء الحرب الصليبية ، وترتب على ذلك ظهور طبقة وسطى ذات نفوذ قوي ومصالح مادية تتعارض مع استمرار فوضى الإقطاع . وفرض رأس المال نفسه على الحياة العامة ؛ وكم من تاجر أو مصرف كبير بز بنفوذه كبار البلاء الإقطاعيين بسيطرته على رأس المال حر التداول ، وقفز إلى مراكز ذات نفوذ سياسي : من أمثال جاك كير Jacques Cœur في بورج ، وفوجر Fugger في أوجز بورج ، ودك وتنجتون Dick Whittington في لندن وروبرتو ستروتزى Roberto Strozzi في فلورنسة . وقد مضى حين من الدهر قامت فيه أوجز بورج على تمويل الإمبراطورية ، بينما كانت مشروعات فرسان في إيطاليا تعتمد على تمويل بنك ستروتزى في فلورنسة في إبون والبنديقية وروما . وهكذا أصبح رأس المال قوة لها حسابها ، تشد من أزر الدول الملكية القومية التي تعتبر سلطانها الوثيق من الحقائق الجديدة التي تميز أوربا في القرن السادس .

وبينما أوربا تستثير بما انبثق لها من معارف وآفاق جديدة ، وتهدف بروح العزة والاستقلال القوى ، انفجرت فوق ربوتها شارة الإصلاح البروتستانتي . وما كان تحدي التعاليم الكاثوليكية بالشيء الجديد ؛ فقد بدأه وكلف Wycliffe (١٣٢٤ - ٨٤) في إنجلترا وهس Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥) في بوهيميا . ومنذ ذلك الانقسام الأول في الكنيسة الغربية امتلأت جنبات العالم المسيحي بالمفكرين الجادين الذين توافروا على البحث عن الطريق الأمثل لإصلاح العيوب الواضحة في الكنيسة . وعقدت المجامع الدينية ، وتناقشت ، ثم انفرط عقدها ولا يصل الناس إلى أى تحسن ملحوظ . أما البابا — وقد بدا له أن لا شيء يهدد سلطانه قدر اعترافه بمعجم ديني عام هيئة نظامية ومقررة لحكم الكنيسة — فقد تكون من التحايل على الحركة الداعية إلى عقد مجمع عام بالاتصال مباشرة بالحكومات القومية في أوربا وعقد اتفاقات دينية معها . ولم يكن بطاقة هذه المجامع العامة ، بمناقشاتها الصالحة دون نظام ، وبتشكييلها من أعضاء متباينين جنساً ولغة ولاء ، لم يكن بطاقتها أن تكون ندّاً للباطل البابوي بما عرف به من حنكة دبلوماسية . وكان اتفاق البابوية والحكومات الزمنية كفيلاً بالقضاء على المحاولات الرامية إلى عقد مجمع ديني عام . وعلى أى حال فإن الإصلاح البروتستانتي لم يبدأ على يد أصول التاريخ الأوربي

الجالس الكنسية أو بتعصيده منها ؛ بل إنه نبع من شعور مخلص بالتناقض القائم بين بساطة المسيحية الأولى والثروة التي كانت تتمتع بها الكنيسة الرومانية ، وما كانت تجبيه من فروض مادية ، وهذه الحركة قد عماها وشد أزراها تعصيده بعض الأمراء العلمانيين وطموحهم . هذا إلى أن حركة الإصلاح البروتستانتي قد نجحت في توطيد أقدامها في تلك المناطق من شمال أوروبا حيث احتمت من هجوم الكاثوليكية عليها بمصادرة مساحات واسعة من أراضي الأديرة وما أدى إليه هذا الإجراء من قيام مصالح مكتسبة في هذه الأراضي التي سلبت من الكنيسة ، رسخت أقدامها في بعض المناطق حتى لم تعد ثورة ولا حرب بقادرة على المساس بها .

وفي غمرة هذا الانشقاق الديني الكبير الذي قطع أوصال أوربا المسيحية كان الأتراك العثمانيون قد وضعوا أيديهم على كل البلقان واحتلوا مصر وأنشأوا أسطولاً مرهوباً بالجانب . حينئذ — في النصف الأول من القرن السادس عشر — كان الدافع المسيحي في توجيه السياسة من الضعف بحيث لم يتورع ملكاً فرنساً فرنسوا الأول وابنه هنري الثاني عن التحالف مع العثمانيين ضد شارل الخامس ، في الوقت الذي تصدى فيه الإمبراطور — رأس أسرة الهاپسبورج — للدفاع عن « الدين الحق » (الديانة الكاثوليكية) ضد « هرطقة » لوثر . والحق أن انتصار الحركة البروتستانتية في أصقاع واسعة من شمالي أوروبا يرجع إلى هذه المنازعات القومية والأسرية التي استعرت أوارها في طلائع القرن السادس عشر على نحو لم يعرف من قبل . وإنه من الخطأ أن نظن أن الاضطهاد لا يشمار على الإطلاق : فهو الذي سحق حركة الإلبرجنسس ^(١) [Albigenses] واللولاردز ^(٢) [Lollards] واقتلع بذور البروتستانتية من إسبانيا وإيطاليا وبوهيميا . ولا داعي لافتراض الفشل الحتمي بجهود الحكومات الأوروبية فيما لو اتحدت للقضاء على الاوثيريين في ألمانيا ، والكلفنين في جنيف . ولكن هذا الاتحاد لم يحدث قط . فلقد سيطر النضال الكبير بين أسرتي القفالوا والهاپسبورج على العصر كله بحيث ارتبك شارل

(١) جماعة من الساخطين على الكنيسة الكاثوليكية ، ظهرت في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ومن الصعب تحديد تعاليمهم بحكم أن معظم مصادرها مستقة من خصومهم .

(٢) أتباع جون وكليف في إنجلترا وكانوا من الساخطين على كنيسة روما .

الخامس أمام حركات المطرقة في ألمانيا التي وجدت ترحيباً من فرنسوا الأول ، فكان أول من استن باتجاهه هذا ذلك المبدأ في تقاليد السياسة الفرنسية ، وهو تشجيع حركات المطرقة في خارج فرنسا مع العمل على إخمام أنفاسها في الداخل . ولو لم تنهنج فرنسا هذه الخطة لكان من المحتمل إعادة ألمانيا إليها إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية .

كذلك تأثر مجرى الإصلاح الديني في إنجلترا بالتنافس الكبير الذي كان قائماً بين دول القارة الأوروبية في ذلك الوقت . في ذلك العام المضطرب ، عام ١٥٢٧ ، حين بات استمرار ولاء إنجلترا للبابوية رهناً بإقرار البابا لطلاق هنري الثاني لكاثرين الأراجونية ، كان البابا أسيراً في يد شارل الخامس ابن أخت كاثرين نتيجة للحرب بين فرنسا والإمبراطورية . وحتى ولو أراد البابا كليمينت السادس التمسي مع رغبة الملك — وقد كانت ثمة سوابق مماثلة في تاريخ البابوية مثل هذه الإجراء الذي يحيثه على اتخاذه البلاط الإنجليزي — فإن البابا كان قد فقد حرفيته ، فلم يعد في وسعه أن يوافق على إجراء الطلاق . وهكذا نجد أن الصراع بين أسرى الهاسبورج والفالوا ، وهو الصراع الذي ساعد على التحول المائي لشمال ألمانيا البروتستانتية ، هو نفسه الذي عجل بانفصال إنجلترا عن روما في عهد هنري الثامن ، ثم هو أيضاً الذي وقى الكنيسة الإنجليزية الناشئة من الآثار في الأيام العصبية من حكم إليزابيث .

ولم يتم ذلك الانفصام الديني في غرب أوروبا دون كفاح مرير . في خلال النصف الأول من القرن السادس عشر استوعب الصراع الكبير بين أسرى الهاسبورج والفالوا جهود أكبر دولتين كاثوليكيتين في أوروبا ، وانتشرت المعتقدات البروتستانتية في وقت قصير ، فاستقرت في الجزء الأكبر من ألمانيا وسويسرا وغزت ممالك اسكندنavia وتسللت إلى إيطاليا وإسبانيا ، وجرفت كل شيء أمامها في ألمانيا نهضة وبوهيميا . وطبقاً لما ذكره كاردينال اللورين أصحاب مس المطرقة الجديدة ثاني سكان فرنسا في إبان حكم هنري الثاني (١٥٤٧ - ٥٩) . وما فتئ ساعد الحركة يشتند طيلة قرن من الزمان ؛ وكما يحدث عادة حين تغدو الحركات الدينية شعبية وتتغذى بمحنة الرجل العادى على بخارج السلطان والثروات التي يساء استخدامها ،

فقد تكونت حول البؤرة الأصلية للحماسة الدينية الحقيقة حالة واسعة من الأذانية والإهمال والخشوع .

ثم جاء رد الفعل — في عام ١٥٥٩ نقض هنري الثاني ملك فرنسا يديه من حلم الفتوح الإيطالية ، وقد رده إلى صوابه دون شك هزيمة جيوشه في معركة سان كرتان ، فوقع معااهدة كاتومبرسيس Gateau Cambrésis مع الإمبراطورية . وصم حيئند على تسخير كل جهوده لاجتثاث جذور المهرطة من فرنسا ، فكان ذلك إيداناً ببداية عهد جديد إذ تأجل الصراع بين الماپسبورج والفالوا . بينما بدأت الحروب الدينية ، وتساءل الناس : هل يصدق اللوثريون في ألمانيا؟ وهل سيتمكن لأتياً كلّهن السيطرة على فرنسا؟ هذا بينما نهضت البابوية في ثبات لتسيرد ما فقدته العقيدة الكاثوليكية من بقاع ، مستعينة في تحقيق ذلك بطائفة الجزويت (اليسوعيين) التي أنشئت حديثاً .

واستمرت الحرب الدينية في فرنسا ، تخللها فترات اقطاع ، من ١٥٦٠ إلى ١٥٩٨ ، حين صدر مرسوم نانت الذي ضمن للهيجونوت البروتستانت تساحماً دينياً وتخويف وضعماً ممتازاً جعل منهم دولة داخل الدولة في المملكة الفرنسية ، واشتعلت الحفاظ أثناء تلك الحروب الدينية التي بلأ الدماء أثناءها إلى كثير من أعمال العنف ، واتسمت خلاطاً أحمال العسكريين بالقصوة . ومع ذلك فإن هذه الحروب لم تختلف ندوياً عميقة من شأنها أن تعرقل رخاء المجتمع الفرنسي ؟ بل إن فرنسا خرجت بعد انتهاء أقوى مما كانت عليه في أي وقت مضى : فأضحت جيشها أقوى جيوش القارة ودبلوماسيتها أقدر في استقاء الأخبار ، وبلاطها أزهى بلاط أوروبا . وفي القرن السابع عشر بلغت الملكية الفرنسية أوج مجدها وعظمتها : فقد وضع ريشيليو وما زران داعم عصر لويس الرابع عشر (١٦٤٣ - ١٧١٥) الذي فرض نفسه أمداً طويلاً .

وعلى العكس من ذلك كان أثر حروب الثلاثين عاماً الدينية في ذلك الشتات من الدول الألمانية . وحين وضع صلح وستفاليا (١٦٤٨) حدّاً للتزاع ، ورسم الحدود بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية (وقد بقي الوضع الديني منذ هذا الصلح قائماً حتى الآن) كانت ألمانيا قد أصبحت خراباً : فقد نقص عدد سكانها

إلى حد كبير وأضمرحت مواردتها فأصيّبت مؤسساتها العلمية والتعليمية بضرر بالغ وتحطم كبرياتها وضاعت ثقتها بنفسها نتيجة لما نزل بها من هرائم متواتلة وإذلال شنيع . فليس إذاً من قبيل المبالغة القول بأن حرب الثلاثين عاماً قد أخرت حضارة ألمانيا لما تبقى عام ، أو أن المسؤولية التي أخضع بها نابليون هذا الشعب إلى الناضج في العقد الأول من القرن التاسع عشر كانت نتيجة للعواقب المهلكة التي تم خضضت عنها هذه الطامة الكبرى .

وبعد سلسلة من الانتصارات الباهرة التي حققتها الحركة الكاثوليكية في محاولتها رد أوربا إلى حظيرتها ، نجدها وقد توقفت فجأة وفي كل مكان ، ولم يعد من الأمور الممكنة أن يرد العالم اللاتيني المسيحي إلى حظيرة البابوية ؛ فقد سالت أنها من الدماء وتكونت ألوان من المصالح ، واستقرت ألوان متضاربة من الولاء . وجاء صلح وستفاليا ثمرة لذلك الصراع الوحشى الذي دفعت أوربا ثمنه غالياً ؛ فلدمغ خريطة أوربا بطابع الانقسام الدينى . ولم تسوه الخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولم تهدأ الأحقاد بينهم ، فظل كل فريق متخفزاً في مراكزه مستعداً للوثوب .

وكانت النتيجة أكثر مداعاة للدهشة . فإن النمسا وإسبانيا – وهي الدول الثلاث التي كانت تهيمن على شئون أوربا – بقيت كلها مخلصة لعقيدة القديمة ، ولو أن هذه الدول القوية ، وكل منها مخلصة لعقيدة ، متوجهة لمحافظة على الكاثوليكية ونشرها ، وقد آثرت الوقوف صفاً واحداً ضد البروتستانية ، فهوئ ثمة مجال للشك في إمكانها فرض نوع من الوحدة الدينية على القارة مهما تكون هذه الوحدة آلية وجفونا ؟ لقد اجتثت المطرقة من جنورها في النمسا وإسبانيا وبولنديا وپولندة – فهوئ كان يقيض لها البقاء في شمال ألمانيا والأراضي المنخفضة أمام جهد موحد تبذل الدول الكاثوليكية في عزم وإصرار ؟ أما الذي حدث فهو أن الدول الكاثوليكية لم تتحدد قط . ففي اللحظة الخامسة وقفت فرنسا نفسها – بتوجيه من الكاردينال ريشيليو – تعرقل المجهودات التي كان يبذلها دعاة الإصلاح الكاثوليكي بتوجيهه من حكام الماسونج في النمسا وإسبانيا . وقد بدأت فرنسا تفعل هذا بطريق غير مباشر ، ثم نجدها بعد عام ١٦٣٥ تنفذه بطريقة سافرة ؛ وفي كلتا الحالتين

كانت مقاومتها لتلك المجهودات مجدهية تماماً ، و «كاردينال الميجونوت» - كما عرف ريشيليو - أحد أولئك النفر النادر من الرجال الذين سلطت عليهم فكره «الدولة» . وجد حدود فرنسا تهددها من كل جانب أملاك أسرة الهايسبورج ، وقد تضامن أماؤها ضد فرنسا ؛ فصمم بكل ما لديه من عزم على إضعاف هذا التضامن والحط منه بمصلحة سيده ملك فرنسا . ولم يكن أى اعتبار ديني أو أخلاقي ليقف في وجه إرادته الحديدية أو يبعث العاطفة إلى قلبه المتجرد . وبرغم أنه حين أصبح وزيراً خارجية الملك لويس الثالث عشر عام ١٦٢٤ لم يكن لديه أسطول ولا جيش نظامي ، ورغم أن نبلاء الميجونوت وأعضاء البرلادات المحلية قد اعتصموا بمنهم المحسنة مكونين بذلك دولة داخل الدولة ، وبرغم أن حياته ذاتها قد تمردت بها المؤامرات الداخلية ، برغم ذلك كله فإن همه لم تفتر لحظة واحدة في مقاومة الأداتين العلمانيتين العظيمتين اللتين كانت تحرّكهما الكنيسة الكاثوليكية . وفي الداخل قضى تماماً على قوة الميجونوت السياسية في الوقت الذي سمح لهم فيه بالتمتع بحريةهم الدينية . وفي الخارج مد القضية البروتستانتية بمال وحارب معها جنباً إلى جنب مما ضمن لها النجاح : فهو آنا يحتمل الثالثين الذي يربط دوقية ميلان التابعة لإسبانيا بالمسا ، وآنا آخر يسند بقوة السلاح ترشيح أحد الأمراء الفرنسيين للدوقيه مانتوا ، وفي الوقت العصيب الذي تعرضت فيه البروتستانتية للأخطار كانت المعونة المالية الفرنسية التي حركت جيش جوستاف أدولف ملك السويد . وإذا كان جزء من قارة أوروبا لا يزال بروتستانتياً حتى اليوم فإنما يرجع ذلك إلى الدبلوماسية النشيطة الداعوب التي اتصف بها هذا الكاردينال الكاثوليكي .

وقدر للمرحلة الأخيرة من ذلك الصراع الطويل المريض بين المذهبين البروتستانتي والكاثوليكي في أوروبا أن يكون لها أثر بعيد في توازن القوى العالمي . فالالميجونوت كانوا من أنشط رعايا لويس الرابع عشر وأولاً لهم بعطفه ، وقد بزوا مواطنهم الكاثوليكي في التجارة وركوب البحر ، كما بزوهם أيضاً في كل فروع الصناعة ، وعلى الخصوص صناعة نسج الحرير التي كانت تحتاج في ذلك العصر إلى قدر كبير من المهارة الفنية . ومع ذلك فقد رفض لويس الرابع عشر وزوجته المتعصبة مدام دي مانتينون أن يكون لهؤلاء الميجونوت - بسبب آرائهم الدينية - مكان في داخل الدولة

الفرنسية الكاثوليكية . فلا مهاراتهم الفنية ولا مساهمتهم في الرخاء المادى للمجتمع الفرنسي شفعت لهم في تلك الخطية الكبرى التي قارفوها باعتنائهم البروتستانتية ؟ فاخصطهدا في أول الأمر ثم طردوا من ديارهم في عام ١٦٨٥ بعد أن سحبت الحماية التي أسبغها عليهم مرسوم نانت ، فهاجروا إلى الدول البروتستانتية المنافسة لفرنسا ولقوا فيها من العطف ما لم يلقوه في وطنهم ، ثم نقلوا إلى أوطانهم الجديدة ثمرات معارفهم ومهاراتهم . ولو قد بقي الهيجوزون في وطنهم لربما أحرزت فرنسا قصبة السبق في حلبة الاستعمار .

وكانت بريطانيا أسعد حظاً من غيرها ؛ إذ توقيت ويلات الانقلابات الدينية التي اكتوت القارة بنارها . قامت في الجزء الجنوبي منها كنيسة إيراسمية^(١) في حكومتها رومانية في طقوسها ، كالفيثية في عقidiتها ، وقد توطدت أركانها في أواخر القرن السادس عشر . حقاً إن ذلك لم يتم دون أن تسفل بعض الدماء وتجري بعض الأضطرابات المحلية ، ولكنها تم على نحو يبعث على الدهشة بطريق التسليم الحادى من جانب الشعب الإنجليزى ، وهو شعب في جوهره لا يميل إلى الجدل الدينى . وبتحطم الأرمادا الإسبانية (١٥٨٨) زالت تماماً فرصة حدوث رد فعل ناجح من جانب الكاثوليك ، برغم أن ذلك المحظر لم يكن بالغ الأهمية بعد أن أشيع النباء وأعيان الريف نهمهم من أراضي الأديرة . وهذه الحرب الأهلية التي نشببت في إنجلترا في القرن السابع عشر لم تدر لتغلب إحدى العقidiتين : الكاثوليكية أو البروتستانتية ، بالرغم مما كان يتسلط على ذوى الرعوس المستبدية^(٢) من الخوف من روما التي كانت في نظرهم قوة خبيثة سيئة الطوية لا ضمير لها للدرجة أن ممارسة أي طقس من الطقوس الدينية قد اعتبرت ذات دلالة منطقية على الشر . وإنما دارت هذه الحرب الأهلية للمحافظة على الحريات البريتانية والرسوم الأنجلوكانية . فلم يعد خطر استرداد الكاثوليكية لجزيرة بريطانيا مرة أخرى عاملاً فعالاً في السياسة الدولية إلا في الجزء الأخير من القرن السابع عشر حين بدأت مرحلة

(١) نسبة إلى توماس إيراستوس (١٥٢٤ - ١٥٨٣) الألماني - السويسري . وتتضمن الإيراسمية إعلاء السلطة العلمانية على السلطة الكهنوتية ، وإن لم تحد العلاقة بين السلطتين .

(٢) أنصار البريتان في الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٠ - ١٦٤٨) .

اضطهاد لويس الرابع عشر للهugenots . وكان كل من شارل الثاني وجيمس الثاني كاثوليكياً ، عمل أوطما في الخفاء بينما أفصح الثاني عن حقيقة نواياه . وقد عمل كلاهما على إعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية بالاستناد إلى جيش فرنسي : فحاول شارل الثاني تحقيق هدفه في دهاء وتحفظ ، بينما أظهر جيمس الثاني حماسة كبيرة مصحوبة بصدق وضجيج . ولكن قضى على المؤامرة . وحتى في حالة اعتماد الكاثوليك الإنجليز على الحرب الفرنسية يحق لنا أن نشك في نجاح مجالدهم للأسطول البريطاني وللبروتستانتية القوية في مدينة لندن وفي المقاطعات الشرقية . وعندما جاء أخيراً وقت الامتحان ، لم يوجد رجل واحد يغامر بحمله في سبيل الملك جيمس .

ثورة ١٦٨٨ التي جاءت بوليم أورنج إلى عرش إنجلترا سميت بالثورة المجيدة لأنها لم تسل فيها قطرة من الدم ؛ فقد وقفت البلاد صفاً واحداً كالبنيان المرصوص دفاعاً عن قضية البروتستانتية — وكان هذا البيان من القوة بحيث لم تخش البلاد أن تجنح إلى التسامح ، فلم تسفل دماء أحد .

وجاءت هزيمة الإصلاح الكاثوليكي في إنجلترا بداية لعصر جديد في التاريخ الأوروبي ، حقيقة استمر التنافس بين إنجلترا وفرنسا طوال القرن الثامن عشر ، ولكن لم تعد القارة الأوروبية وحدها مسرحاً له ، بل إنه انتقل عبر الحيطان إلى كندا والهند . وأصبحت التجارة والمستعمرات أبعد أثراً في السياسة العامة من الروابط الدينية والمخالفات بين الأسر الحاكمة . وكان الجيل الثاني من البيوريتانا من الدهاء بحيث أثر كثير منهم الاتجاه إلى ميدان الأعمال واهتموا بجمع المال ، وأصبح طابع عهد أسرة هانوفر الحافظة في السياسة (أو ما عرف حينئذ باسم وجزم Whiggism) ، وتحكيم العقل في مجال الفلسفة ، وإثمار العافية وراحة العيش في الحياة الاجتماعية . وهكذا بدأت ثروة إنجلترا ورخاؤها وحريتها تسترعى اهتمام الأجانب . ورغم أن عبقرية شكسبيير كانت لا تزال لغزاً تحار فيه الأفهام ، فقد استحوذت على العالم الخارجي فكرة أنه يمكن استقاء الكثير من تلك البلاد التي كانت بمثابة رأس الحربة للعلم البروتستانتي في تحديه للويس الرابع عشر : ففوق تير كان تلميذ بولنجبير وك Bolingbroke ، ومونتسكيو بدا له أن الإنجليز قد ملوكوا

أسرار الحرية السياسية ؛ وانتشرت فلسفة نيوتن ولوك وكان لها أثراً في المفكرين الذين وجهوا فرنسا في القرن الثامن عشر . وهكذا عادت تلك الجزيرة الصغيرة — الجزيرة البريطانية — لعشرات السنين القادمة تلقن أوروبا من جديد ، وأعادت بذلك ذكرى تلك الفترة الذهنية من تاريخ أكسفورد في العصور الوسطى .

* * *

هذا هو الاتجاه العام لتلك القصة التي نعود الآن لنستعرض حوادثها : دين يؤمن به الناس في بقاع شاسعة ، تتغلغل جذوره بعمق كبير في تقاليد غرب أوروبا الاجتماعية والسياسية ، تتحداه قوى روحية جديدة في عنف وفي جانب كبير من القارة الأوروبية ، وترغمه على قبول المزيفة ؛ ونظام اجتماعي قائم على الشمول totalitarian يفقد بريقه وواقعيته ، ومجتمع غربي مسيحي تحلل إلى عدة أجزاء عجز عن امتصاصها من جديد . وجدّت وجهات نظر عن الحياة تستند إلى حرية الفكر وضمير الفرد وحق الدول — بل الطوائف الدينية الصغيرة — في تحرير مصيرها ، استطاعت أن تفرض بالتدريج على جهاز الكنيسة القديم الذي كان ينظم كل شيء ، كما أعانت على الظهور سلسلة طويلة من الأفكار الثورية التي أدت في النهاية إلى تعديل النظم الأوروبية وتشكيل العالم الحديث . وأفانتت بلاد أوروبا الشمالية ذات الحيوية والنشاط المتتجدد من قبضة روما . بينما ثبتت بلاد أوروبا الجنوبيّة ، وهي أقل حيوية ونشاطاً ، على الطرائق القديمة . وذلك برغم ما طرأ عليها من تقلبات داخلية . وفي غمرة هذا النضال الطويل الذي أغرق أوروبا في بحر من الدماء امتزجت أ Nigel الدوافع بـ أحطتها واستحال التمييز بينها . وفي خلال هذا الجدال الديني الكبير بدا عمق العاطفة عند العابقة من المتقدين في كلا المعسكرين في « كتاب الصلوات » لكرانمر Cranmer^(١) و « الفردوس المفقود Paradise Lost » للملتون Milton^(٢) و « الرياضيات الروحية »

(١) ١٤٨٩ - ١٥٥٦ . رئيس أساقفة كانتربري . وقد لعب دوراً في حركة الإصلاح الديني في إنجلترا سياسياً تفصيل الكلام عنه فيما يلي .

(٢) ١٦٠٨ - ١٦٧٤ . شاعر إنجليزي عظيم ، وكان ضريرياً .

لليولا^(١) و«أفكار Pensées» بسكال^(٢) وموسيقى بالستر يا Palestrina^(٣) الكاثوليكية وموسيقى باخ Bach^(٤) البروتستانتية . ورغم ذلك فإن السواد الأعظم من الأوروبيين لم يكن متدينًا حق التدين على الإطلاق . وكانت الشخصيات التي سيطرت على الموقف في أوربا أثناء الحروب الدينية هم رجال السياسة والقادة العسكريون وفئة المغامرين من يستغلون حماسة الدهماء في تحقيق أهدافهم الدنيوية . وهكذا يطفو من العاصفة شخص مثل والشتين Wallenstein في بوهيميا أو موليرا Marlborough^(٥) في إنجلترا : يرسم السياسة ويقود الجيش ويجمع المال ويملاً أوربا بصيته ويعث في أرجائها الخوف من جرأته . ولو أتيح لرجل من أهل الصين ، من عاشوا في هذا العصر ، أن يستعرض أحوال أوربا المضطربة إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . لربما احتشدت في مخيلته الأسئلة التالية : ألا يفهم الشعب خلا من المنازعات الدينية ، لأنه لا دين له ، بل كل ما عنده مجموعة قوانين أخلاقية تنظم سلوك الناس — ألا يفهم هذا الشعب فن الحياة أكثر من غيره ؟ وهل الإصلاح البروتستانتي ، بكل نتائجه التي لا يمكن حصرها في ميادين الفن والموسيقى والعلم والأدب ، وما يترتب عليه من فك عقال القوى البشرية بذلك الشكل الواسع ؟ جدير بالمن الذي دفعته أوربا في شكل حروب وحشية طويلة ؟ وهل تفكير الناس في أسرار الكون القصوى ، هذا التفكير الذي كان أقل قدرة على الإلهام وأقل بطولة وثقة مما كان يسود المسيحيين الغربيين إذ ذاك ، لم يكن في الواقع أكثر تأدية لراحة البشر ؟

(١) ١٤٩١ - ١٥٥٦ . مؤسس نظام الجزوiet (اليسوعيين) - وسيأتي تفصيل الكلام عنه فيما يلي .

(٢) ١٦٢٣ - ١٦٦٢ . الفيلسوف الدينى والرياضي الفرنسي .

(٣) ١٥٢٦ - ١٥٩٤ . المؤلف الموسيقى الإيطالى .

(٤) ١٦٨٥ - ١٧٥٠ . جون ساستيان باخ الموسيقى الألماني العظيم ، وكان يتسب إلى أسرة مبرزة في التأليف الموسيقية .

(٥) جون تشرشل موليرا (١٦٥٠ - ١٧٢٢) - هو أحد كبار القواد الإنجليز ؛ وقد ظهرت مواهبه العسكرية أثناء حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

من الممكن العثور على قائمة ممتازة لعدد قليل من المراجع التي تعطي أكبر حيز في هذا الجزء في الكتب الآتية :

— A.J. Grant, A History of Europe from 1494 to 1610 (1931).

— D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century. (1925)

أما إذا احتاج القارئ إلى قائمة أطول فيستحسن أن يرجع إلى مجموعة Cambridge Modern History والتاريخ القومية المقررة كمؤلفات لا فيس Lavisse فرنسا وفرويد Froude وجاردنر Gardiner وما كولي Macaulay وج. م. تريڤيليان G. M. Trevelyan عن إنجلترا، وكذلك كتب التاريخ المنوعة التي نشرتها تباعاً دار نشر مثنون Methuen ولونجمانز Longmans .

الفصل الثاني

النهاية الإيطالية

أسباب بدء النهاية في إيطاليا - مكانة فلورنسا - تعدد المواهب لدى كبار الفنانين - المؤثرات الدينية والعلمانية في الفن الإيطالي - الحركة الإنسانية - فورنزو فاللا Lorenzo Valla - نيكولو دي نيكولو Niccolo de Niccoli فورنزو دا فلتير Vittorino de Feltre - بابوات النهاية - البندقية - الطابع الأستقرائي الذي ميز الحركة الإنسانية الإيطالية - التناقض الصارخ في الحياة الإيطالية - انتشار الأثر الإيطالي - «الأمير» و «رجل البلاط» - العوامل المحددة للأثر الإيطالي.

على حين تميز القرن الخامس عشر في إنجلترا بالعمق الشديد في الإنتاج الذهني ، فإنه شهد بزوج النهاية في إيطاليا . في خلال المائتي عام ما بين ١٣٤٠ و ١٥٤٠ قدمت المدن الإيطالية نتاجاً من الفن والبحث والأدب لم يشهده العالم منذ أجياد أثينا القديمة . ثم جفت إلى حد كبير ينابيع الخيال الإيطالي الفسيح المسرف الذي كان قد تدفق بقوه هائلة ، وانحصرت في مجرى ضيق بعد أن وقعت إيطاليا تحت سيطرة الإسبان وخضعت للصرامة الدينية التي تميزت بها حركة الإصلاح الكاثوليكي بما توافر لها من أدوات : نظام الجزوiet (اليوسوعيين) ومحاكم التفتيش المقدسة والقوانين الدورية للكتب التي تمنع الكنيسة تداولها . حينئذ أفسح ما تميز به عصر الخلق والإبداع من نضج خلاق نشط المجال لمشاعر مريضة صوفية . ولما ولى الرسامون الكبار الذين وصلوا في البندقية ، أكثر منهم في غيرها ، المحافظة على أسمى تقالييد فنهم ، لم يسد أحد الفراغ الذي تركوه . وانحرفت عن إيطاليا موجة تفوقها بعد الدور الذي قامت به في إثراء الحياة العقلية الأوروبية إلى درجة تفوق الحصر ، فاستحققت عرفة الحسيل الدائم من جانب الإنسانية . منذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر احتفالاً بنشر فرنسا وشعر إنجلترا ومسرحياتها الدرامية وموسيقى ألمانيا منه بكل ما حفلت به البندقية وفلورنسة من مراسم وأكاديميات .

ومن الطبيعي أن يقوم بعث الفنانين بالأدب الأوروبية في بلاد لا تزال تحفظات الماضي من التمايل وغيرها تلمع بين أشجار الدلب والزيتون . كما أن روح العلوم

الإنسانية التي توارثها الناس عن العصور القديمة لم يحدث قط أن أصابها توقف تام . هذا إلى احتدام التنافس بين المدن والبلاطات الإيطالية المختلفة التي ود كل منها لو بز الآخر ، ووجود عدد كبير من رعاة الفنون الذين كان كل منهم على استعداد لدفع ثمن مرتفع لصورة أو مخطوطة ، ولإغدائى على الكتاب والماعدين . وأخيراً وجد في إيطاليا من الأطلال والنقوش والعملات القديمة والمداليل ما اجتذب الباحثين منذ أيام پتراكه ودفعهم إلىمواصلة البحث والتنقيب^(١) :

وأسرعت الحركة الإنسانية ، التي أخذ يشتد ساعدها منذ أواسط القرن الرابع عشر ، أسرعت خطواتها بشكل مثير براق خلال فترة من السلام ندر أن تعكر صفوفها امتدت مدى أربعين عاماً ما بين صاحبى لودى Lodi (عام ١٤٥٤) والغزو الفرنسي لإيطاليا على يد شارل الثامن . وقد تقدمت الفنون والأداب بخطى واسعة حين كان لورنزو دي مدичى Lorenzo dei Medici أميراً فلورنسة ، وحين كانت إيطالية آمنة من الغزو الخارجى نتيجة لقيام تفاهم مجد - وإن لم يكن سهلاً - بين الدول الأربع الكبرى التي كانت تسيطر على مصائر شبه الجزيرة . وتذكر هذا النشاط الفنى والفكري بوجه خاص فى فلورنسة عاصمة لورنزو على ذهر الأربعين ، وهى التى خلدت شهرتها أسماء دانتى وپتراكه وبوكاتشيو Boccaccio وغيرهم من مجموعة الرجال الماجدين الذين جعلوا فلورنسة بحق عاصمة أوروبا فى الفن والإبداع الفكري . وقد انتظمت قائمة عظاماء فلورنسة الذين ولدوا فيها وأنتجوا خلال الأربعين عاماً هذه أسماء ميخائيل أنجلو Michael Angelo ودونا تللو Donatello وفرانچيرو Lippi Fra Filippo وساندرو بوتشيلي Sandro Botticelli؛ كما ينبغي إضافة أسماء مكياڤيلي Machiavelli الناشر وجيتشاردى Guicciardini المؤرخ وفيكتور Ficino الأفلاطونى وپوليسيان Politian المتوافر على دراسة اللاتينية ؛ هذا إلى لوکاديللا روبيا Luca della Robbia ودومنيكو جيرلاندایو Dominico Ghirlandaio^(٢) والكل من الفلورنسيين - وكذلك شأن فيركيتو Verrochio وبروجينو Perugino^(٣) وليوناردو

(١) ١٤٥٤ - ١٤٩٤ . البحاثة والشاعر الإيطالى .

(٢) ١٤٤٩ - ١٤٩٤ . الرسام الفلورنسى .

(٣) حوالى ١٤٥٠ - ١٥٢٤ . الرسام الإيطالى الذى يتسبى إلى بروجيا .

دافنشى Leonardo da Vinci ، كما أن لورنزو دى ميديشى قد أظهر عبقريته كشاعر ورجل دولة وذوقة للفنون . وإننا حين نذكر ذلك نستطيع أن نكون لأنفسنا صورة تقريرية عن ذلك البهاء الأخاذ لجتمع يقوده مثل هؤلاء ويسعون خطاه . وإنه من دواعي قوة النهضة الإيطالية أن فنانيها لم يتقيدوا كثيراً بالشخص . فثلا وجد في فلورنسة تقاشون ونحوه انتبهوا في نفس الوقت إلى فئة الأطباء والصيادلة بعد أن كانوا قد تلقنوا على أيدي الصاغة الذين جمعوا إلى العلم والتجارة معرفة واسعة بالفنون والحرف . ومن هنا لم تكن خوارق تنوع المواهب بالشيء النادر : فكان من الأئم العادية أن يتحول الناس من النحت إلى النحت ، ومن النحت إلى العمارة وأشغال المعادن ، ومن كل هذا إلى الشعر والفلسفة والعلوم الطبيعية . وكان ميخائيل أنجلو وليرناردو دافنشى وألبرتى Alberti دائماً مضرب المثل المتواتر على هذا التنوع في المواهب . فأنجلو لم يشتهر بتمثيله ورسمه على الجدران وحدها ، بل ذاعت شهرته أيضاً لمهارته في تصميم تلك التحصينات التي درأت عن فلورنسة حصاراً مشهوراً ، ولاستحواذه على مشاعر مضيقه في بولونيا بقراءته لدانتى وپترارك وبوكاتشيو ، وأخيراً لأنه – وقد جاوز السبعين – ألف مجموعة من المنظومات الغنائية صيغت في أسلوب عاطفي رفيع لم يعرف في إيطاليا منذ وفاة دانتى . أما ليرناردو فإنه لم يكن مجرد راسم لوحى « مونا ليزا » و « العشاء الأخير » بل كان أيضاً مهندساً ومهندسياً وعالماً . وإن مذكراته تكشف لنا عن عقل شغوف بمقارنة كل أنواع المعرفة والخبرة : فإلى جانب شغفه بدراسة أفلال الشمس والقمر ، كانت له نظريات خاصة بالحرفيات التي عبر عليها بين صخور جبال الأپينى ، تقوم على القياس الرياضى وعلم الأحياء ؛ كما أن له مباحث خاصة بالغياث القصوى في علم الميكانيكا . هذه القدرات الواسعة والشغف الكبير بالمعرفة تمثلت أيضاً في ألبرى الرياضى وفارس عصره ، الذى ألف كذلك مقطوعات موسيقية ورسم صوراً وبنى كنائس وألف ملهأة (كوميديا) وشرح علم العمارة في عشرة كتب كانت صياغتها من اللطف والاتساق بحيث إن قراءتها لا تزال تبعث البهجة حتى وقتنا الحاضر . ولم يكن أى فرع من فروع العلم التطبيقية غريباً على ألبرى الذى صمم عملية لانتشار السفن العارقة والذى يقال إنه قد تنبأ ببعض المكتشفات الحديثة

في طب العيون . على أنه إذا كان البرني في موهبه نسيج وحده ، فإن التطلع إلى المعرفة الشاملة كان ظاهرة من ظواهر العصر شارك فيها الفنانون جميعاً .

وتحتى فن النهضة مع التقاليد المسيحية ، تستوى في ذلك مظاهره المبكرة في فلورنسة والمتاخرة في البنديقية ، بحكم أن الكنيسة كانت أكبر معاشرته ؛ وهكذا نجد عشرين موضوعاً مستقاً من الإنجيل يقابلها موضوع واحد استقام الفنانون من الآداب القديمة . هذا إلى أن بعض المبرزين من الرسامين مثل فرا أنجيليكو Fra Bartolomeo وفرا فلپولپي Fra Filippo Lippi وفرا برتميو وFra Angelico كانوا رهاناً . ولكن بمرور الزمن فقد رسم الموضوعات الدينية كثيراً من مميزاته الروحية التي اتسم بها في البداية ، فأصبحت الشخصيات في اللوحات أقل كهانة وتزمتاً ، وهو ما اصطلاح عليه العرف حينئذ ، واقتربوا كثيراً من واقع الحياة الإنسانية بمحملها ودمها . فثلا « مادونا Madonna » تيسيان Titian^(١) نموذج أنيق أكثر منها صورة مثالية للأمومة المقدسة . وفي هذا المجال — كما هو الحال في أوجه النشاط الإيطالي الأخرى — انطبع الفن بشكل حاسم بالطابع الديني والنقاوى الذي ساد العصر والذي لم يكن في أى مكان أقرى منه في روما ذاتها .

وتميز العصر بالحرى وراء الحد الشخصى . ولکى يخلد الأغنياء أنفسهم خلال الفن ، راحوا يحفزون الرسامين والفنانين إلى إبداع الصور والتماثيل . كذلك اكتسبت العمارة الفلورنسية الفخمة شهرة سريعة . وإذا كان من الإنجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا يشاهدون أنثاعها تمثala من نحت دوناتلو أو ميخائيل أنجلو ، فإنهم يستطيعون تلقى نفس النوع من التذوق في زيارة للكنيسة وستمنستر حيث لا بد أن يستحوذ على إعجابهم قبر هنرى السابع الذى صممه توريجيانو Torregiano^(٢) . وكما طلب الخلود بأعمالهم . اتى عهد المعماريين الجھولين والكاتدرائيات القوطية التى ساهمت في تشييدها أجيال متواتلة من البنائين المغمورين ، بعد أن أصبح

(١) حوالي ١٤٧٧ - ١٥٦٧ . أحد كبار مثل مدرسة التصوير البنديقية .

(٢) ١٤٧٢ - ١٥٢٨ . نحات فلورنسي قضى جل حياته الأخيرة في إنجلترا وإسبانيا ؛ وفي الأولى صمم مقبرة هنرى السابع في وستمنستر وفي الثانية صمم تمثال العذراء في إشبيلية .

العماري في عصر النهضة ، في أسلوبه في فن العمارة المقتبس عن تعاليم فيتروفيوس Vitruvius^(١) ، يتوقع أن يجني ثمرة عمله بعد إتمامه ، وهي شهرة تطير له أناء حياته .

وما يسمى إيطالي عصر النهضة بالقوة والذاتية أن فن عمارتهم ، رغم تأثيره الشديد بكتابات فيتروفيوس ، لم يكن قط مقيداً بالنظريات أو تقليداً أعمى للماذج القديمة . حقيقة لقد رأعوا قواعد أستاذهم الروماني ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستجابة لد الواقع الذوق الشخصي . وهكذا تشكلت قوالب الماضي بحيث تنسقى مع طرائق الحياة الحديثة ، وخفت حدتها لتلائم لطف الحياة ورخاءها . فقد يشمل تصميم العمارات حديقة بها مسطحات مزروعة بالأزهار وأفارييز مستقيمة وبجسور مربعة وخطوط عابسة لا تقوم عليها سوى أشجار الدلب – وبكل هذا تستكمل صورة الواجهة المناسبة للمنزل الريفي حتى بلاديو Palladio^(٢) (من فتشنزا Vicenza) ، الذي أصبحت كتبه الأربع في العمارة حجة يعتد بها كثيراً في ربوع أوروبا ، لم يستطع أن يفرض حدود نسبة ومقاييسه الكلاسيكية الصارمة على خيال مواطنه المسترسل . واصطبدم شغف الإيطاليين الشديد بالزخارف بما تميز به التصميم الكلاسيكي من أوضاع صارمة ، ولكن استطاع أن يفرض نفسه بمرور الزمن ، كما هو واضح في كنائس القرن السابع عشر .

وتدفقت عمارة عصر النهضة من مركبها في روما إلى خارج إيطاليا ، بعد أن وصلت إلى مجدها في كنيسة القديس بطرس الجديدة بروما ، فألات أوروبا في القرن السادس عشر بقصور وبيوت لم تنشأ لأغراض الدفاع بقدر ما أنشئت بحلب الراسحة والمتعدة لأصحابها . وإن قصور إيزايل Rideau Azay le Rideau وفونتيبلو وهانفيلي ونول Knole لتسجل جميعاً بداية عصر بسابقه أبهة وفخامة . فقد حل المنزل الريفي محل القلعة المخصنة ، وأنحدرت مباني المدينة تزحف بلطاف خارج أسوارها ، وتراجع فن العمارة القائم على الخوف من غزوat المتبررين في القرن الثالث أمام الروح

(١) مهندس مهارى رومان ألف كتاباً مشهوراً عن فن العماره . لا يعرف كثيراً عن حياته ، وإن يكن قد عاش في عصر أغسطس .

(٢) ١٥١٨ - ١٥٨٠ . المعمار الإيطالي .

الحداثة والهجة التي تميزت بها الحياة الاجتماعية الحداثة .

وفي مجال الأدب كان الطابع الأساسي للنهاية الإيطالية هو الابتعاد عن الأفق المدرسي والمديني المهيمن على العصور الوسطى ، مع شغف شديد بالحياة الوثنية القديمة وأدابها كما لو كان تعويضاً عن اتجاهات الماضي . وهذا الانطلاق الكبير للروح الإنسانية لم يسر على وتبة واحدة . فالبعض من كانت تسهل لهم الكتابة بلغة بلدتهم التسكانية رأوا ضرورة التعبير عن أنفسهم بمحاكاة سقية مغروبة لشيشرون ؛ بينما اطرب البعض الآخر الأخلاق والدين إلى غير رجعة . وعلى أي حال فقد علق الجميع أهمية كبيرة على التكهن من الفصاحة اللاتينية ، وهذا نجد أن إينياس سليوس Aeneas Sylvius ^(١) الذي وضع كتابه « أصول فن البلاغة Artis Rhetoricae Precepta » عام ١٤٥٦ ، استطاع أن يصل إلى كرسى البابوية ذاته بفضل مقدرته الخطابية باللغة اللاتينية وكان الإنساني من رجال القرن الخامس عشر ، كما كان السوفيسطائي اليوناني أو راهب العصور الوسطى ، عرضة للهجرات التي كانت تستهوي وعاظ الشعوب في كل عصر فيستسلمون لها . وطالما بقيت الآداب القديمة محظوظة في خطوطات ، فإن حياة مفاتيح المعرفة والتصرف في « صندوق الدنيا » بالفتح والقول بحسب الهوية ظل حكراً للإنساني الذي يحوز هذه الخطوطات . وكان الباحثة المتنقل الذي يلقى حاضراته عن أفلاطون أو هوروس ليطالع النص القديم ثم يقدم تعليمه متقدلاً بالسامعين إلى أسرار العصور الخواли بمحض إعمال ذهنه واستخدام صوته . ومنى كان المستمعون أكثر عاطفية واستعداداً للتعلم وأسهل قياداً منهم حينئذ ؟ فقد كان الإنساني خطيباً وشاعراً وبحاثة ومعلماً ، يدعوه القائد إلى مسكنه ليهيب القوات الحاربة بخطبه الشيشرونية ، ومتى تستخدمه الحكومة للقيام بسفارات خطيرة أو تدوين الرسائل أو إلقاء خطب عامة في مناسبات رسمية ، ويستقبله الأمير في قصره ليتمتع بمجلسه وبما يثار فيه من مناقشات عقلية ، ويستخدمه معلماً ومشرقاً على مكتبه ورفيقاً . وكم تكون الناس من جميع الطبقات ، رجالاً ونساء ، لسماع خطب الإنساني وكم أبكتهم بلاغته ، وكم عاشوا على

(١) البابا بيوس الثانى الذى عرف فى تاريخ الأدب بإينياس سليوس . (١٤٠٥ - ١٤٦٤) .

الأفكار التي قدّمها لهم ! وفي ظل أحوال كهذه ما كان من المترقب ظهور أبحاث عميقة شاملة .

وبالرغم مما كانت عليه الكتابات اللاتينية التي وضعها الإنسانيون الإيطاليون من السطحية والضخامة ، فإنها كانت ذات أهمية كبرى من حيث إنها مهدت الطريق لاستكشاف المعنى الحقيقي لحمل العالم القديم . عرف الناس الدراسات الكلاسيكية اللاتينية في البداية ، ومنها تطوقوا إلى الآداب الإغريقية ذاتها . وهكذا تدين أوربا الغربية للإنسانيين بفضل تعرّفها من جديد على أفلاطون ، وبما توصلت إليه من توسيع معرقتها بالنصوص القدّيمة . وبعد أن اكتشف الغربيون أن الماضي شيء له كيانه يقف على قدم المساواة مع الحاضر ، وأن المستقبل سيطبق مثل هذه النظرة على الحاضر ، بدعوا يضعون الأجيال القادمة نصب أعينهم ، ويسرحون النظر في الصورة التي سيبدو بها عصرهم بعد قرون . وتتميز المدرسة الكبيرة من الناشرين والمؤرخين الفلورنسيين بهذا الشعور الجديـد بالاستمرار التاريجـي الذي يتطرق رجوعاً إلى الماضي ويتعلـع قـدماً إلى المستقبل .

وتتدفقـت على أوربا الخطوطـات الجديدة (فثلا أحضر الكاردـinal بـساريـون Bessarion ١٤٠٣ - ١٧٢٠) وحدـة ٨٠٠ مخطوـطة إـغـريـقـية من القـسـطـنـطـيـنـيـة) ، حتى بـداـنـ أنـ لـيـسـ هـنـاكـ حدـلـاـ يـخـبـئـهـ المـسـتـقـبـلـ ، بـحـيـثـ بـاتـ مـنـ المـكـنـ أـنـ تـلـقـيـ الأـصـمـاءـ عـلـىـ كـلـ مـاـ عـنـ عـلـيـهـ الزـمـنـ مـثـلـ كـتـبـ تـاسـيـمـوسـ Tacitus وـمـسـرـحـيـاتـ سـوـفـوكـلـيـسـ Sophocles وـعـشـرـيـاتـ ليـثـ Livy . وـمـاـ زـادـ فـيـ إـثـارـةـ مشـاعـرـ النـاسـ مـاـ وـجـدـوـهـ مـنـ صـعـوـبـاتـ فـيـ تـفـسـيرـ النـصـوـصـ ، بـحـيـثـ أـصـبـحـ لـامـعـدـيـ مـنـ الـبـداـيـةـ عـنـ وـضـعـ منـجـ تـقـدـيـ كـامـلـ لـلـدـرـاسـاتـ إـغـرـيقـيـةـ ، وـمـنـذـ الـبـداـيـةـ تـقـرـيـباـ فـيـهاـ يـخـصـ بـالـلـاتـيـنـيـةـ . أماـ الـأـدـوـاتـ الـفـنـيـةـ الـلـازـمـةـ لـلـثـقـافـةـ مـنـ قـوـاعـدـ الـلـغـةـ وـمـعـجمـاتـ وـأـبـحـاثـ الـتـيـ تـتـصـلـ بـالـفـنـ الـقـدـيمـ وـعـلـمـ طـبـقـاتـ الـأـرـضـ ، وـتـحـقـيقـ الـمـصـطـلـحـاتـ الـتـيـ قـدـ يـطـوـلـ . فقدـ اـمـتـزـجـتـ بـجـمـيعـهـاـ بـرـوـعـةـ جـمـالـ الـأـدـبـ الـجـدـيدـ .

وفي غـمارـ هـنـاـ الخـضمـ منـ الـأـذـواقـ الـجـدـيدـ وـوجـهـاتـ الـنـظـرـ الـولـيـدـةـ انـفـسـحـ

المجال للنقد التاريخي العلمي الذى كان أستاذه لورنزو فاللا Lorenzo Valla (١٤٠٥ - ١٤٥٧) . وقد بدأ فاللا حقبة جديدة في تاريخ البحث الأوروبي بمقالته الجريئة التي انتقد فيها صحة « هبة قسطنطين »^(١) ، مستندًاً أولاً وقبل كل شيء على قواعد عامة يؤيد بها أن قسطنطين لم يمنح الهمة بتأثيث وأن البابا سلفستر Sylvester بالتألي لم يقبلها . ثم تطرق من فرض إلى فرض في محاولته لإبراز وجهة نظره . فلو أن إمبراطورية العالم الغربي قد منحت حقيقة للبابا لأمكن الاستدلال على أن الهمة قد منحت بالفعل بوجود عملة تحمل اسم البابا . ولاحظ فاللا أن يوتروبيوس Eutropius^(٢) — وقد كتب في وقت متقدم بعد الحادث المزعوم — لم يشر إلى هذه الصفة المهمة ، وأن النص الأصلي لم يظهر قط ، وأخيراً أن الوثيقة قد كتبت بلاتينية سقية تحمل طابع الدروان البابوي بدرجة من الوضوح بحيث يمكّن ظاهرها كل دلائل التزييف المفترض . على أنه ليس أولى على التسامح الذي ساد إيطاليا حينئذ من أن مثير هذه الحملة الجريئة ضد إحدى الميزات التي اعتزت بها البابوية قد أصبح هو نفسه سكرتيرًا للبابا نقولا الخامس .

في بيته كهله سادتها الدعة والحرية أخذت حياة الباحثين تجتذب اهتمام الناس الذين كانوا في الماضي شغوفين بمتابعة أعمال الملوك والقباطنة . أما الآن فقد استهونهم « قراءة حياة أولئك الأبطال الذين اجتذبوا العادات الأجيال القادمة بمحض شغفهم بالكتب والخطوطات وهياهم بالمعرفة لذاتها . وهذه صورة رسمها فسيزاريانو Niccolo de Niccoli Vespasiano —^(٣) ليكولا دي نيكلولي — كانت مكتبه الخاصة — وقد حوت ثمانمائة ألف مخطوطه — إحدى مفاخر فلورنسة . قال فسيزاريانو :

(١) طبقاً لما يروى عن هذه « الهمة » منح قسطنطين البابا سلفستر Silvester وخلفاءه من بعده — إلى الأبد — ليس فقط السيادة الروحية على البطريركيات الروحية الأخرى ، في شؤون العقيدة والعبادة ، بل أيضًا السيادة العلمانية على روما وإيطاليا و « الولايات والأماكن والدول Civitates الواقعه في المناطق التربية » .

(٢) مؤرخ روماني عاش في القرن الرابع الميلادي .

(٣) إيطالي شغوف بالكتب عاش في القرن الخامس عشر . ولد في فلورنسة التي أصبح أميناً لمكتبه ، وكان على دراية وثيقة بالعبرية واللغات القديمة . ولد عدة مؤلفات .

« كان مجلسه قبل كل شيء شيئاً للغاية ، يموج بالحركة ؛ فالابتسامة أبداً تراود شفتيه ، وحديثه شديد الإشباع . يلبس ملابس من أرق أنواع النسيج ، مشربة بحمرة داكنة ، تصل في طولها إلى إخلاص قدميه . لم يتزوج قط حتى لا يعوق الزواج دراساته ، معتمداً في قضاء مطالبه اليومية على خادمه . ولقد تميز عن جميع الرجال : فهو أنظفهم مأكلًا وفي شتى نواحي حياته الأخرى . كان في جلوسه إلى الطعام يأكل في أطباق أثرية نوعاً ما . وبهذه الروح كان يضع على مائدته أولى من المور وأخرى ذات جمال خلاب ، وكان كأس شرابه من الكريستال أو من أنواع أخرى من الأحجار الثمينة . وفي الحق إن مجلسه إلى الطعام لمنظر خلاب ؛ وكأنك ترى نموذجاً كاملاً للغابرين . يأمر دائمًا بأن تكون الفوطة الموضوعة أمامه وكل المفاصش ناصعة البياض . وقد يدهش بعض الناس لكثره الأولى التي حفلت بها مائده . ولكنني أجيب بأن مثل هذه الأشياء لم يكن لها من التقدير والاعتبار ما أصبح لها بعد ذلك . ولما كان لنيكولو أصدقاء في كل مكان ، فقد حرص كل من يود استرضاعه على أن يرسل إليه تماثيل من رخام أو أولى أثرية أو نقوشاً ورسوماً وصوراً من عمل الفنانين المبرزين ، كما أهدوه قوالب من الفسيفساء . كانت لديه خريطة رائعة للجمال أشير فيها إلى كل جزء من أجزاء العالم وإلى كل مدينة من مدنه ؛ كما أنه كان يمتلك خرائط أخرى لإيطاليا وإسبانيا كلها بالألوان . ولم تكن في فلورنسة دار كداره حافلة بأسباب الزينة مكتظة بالتحف الجميلة ، بحيث إن كل من قصده وجد عنده ما لا حصر له من الأشياء القيمة التي ترضى كل ذوق » .

وفي هذا العصر أيضًا بدأنا نسمع إشارة من هو أكثر الناس خدمة للمجتمع وأكثرهم استحقاقاً بجزائه (أعني المعلم) . وإذا كان فسيهارياني قد قدم لنا وصفاً للثقافة الواسعة التي ألم بها ذلك الأعزب الفلورنسي الحريص الذي يمثل في صفاته ورقة شمائله العالم القديم ، فقد خطف لنا أيضًا صورة للمعلم . ويمكن اعتبار فتورينو دافلتر (١٤٤٦ - ١٣٩٦)^(١) رائداً للحركة التعليمية التي ترتب عليها وضع أساس معرفة الإنجليز بالعلوم الإنسانية . كان صغيراً ضئيل الحجم ، مرحًا ،

(١) ١٣٧٨ - ١٤٤٦ . أحد الإنسانيين الإيطاليين . افتتح مدرسة في مانتوا لتعليم أبناء الأشراف والقراء جنباً إلى جنب مصطلحنا المساواة في معاملتهم . وشهر بمنهجه الجديد في التعليم .

يبعدوا عن طبيعة تغريه دائمًا بالضحك ، فارسًا ورياضيًّا ماهرًا ، كرس جهده دون كلل أو ملل لتقديم الجسم والعقل والخلق . اكتسبت مدرسته شهرة واسعة في شتى ربوء إيطاليا ، ويعكنا أن ندخل في دائرة من تأثروا به كولت Colet^(١) وولزي Wolsey^(٢) وچون ملدون وشارلز كنجولي^(٣) وكل نظر المدارس المحدثين طالما كان دينهم تقديم العقل والخلق عن طريق الآداب والموسيقى والفن ، مع إضافتهم إلى هذا المنهج الدسم اهتمامًا بكمال الجسم .

ولم يكن حكام روما بقادرين على الوقوف مكتوفي الأيدي إزاء هذه الإشراقات التي أطلت من قصور الأمراء نتيجة لرعايتهم للفنون والآداب . أما منصب البابوية - وهي التي اهتزت هيئتها الروحية إلى حد كبير أثناء فترة الانقسام والأسر في أفينيون^(٤) - فقد عدا أدلة ناجحة لترقية المعارف وجمع الكنوز الفنية وتجميل تلك العاصمة المشهورة التي أهملت ردها طويلاً من الزمن على نحو يعيد إليها طلاوتها القديمة . وقد أنشأ مكتبة الفاتيكان تقولا الخامس (١٤٤٧-٥٥) ، وهو الباحث المنحدر عن أب فقير كان يستغل بدق أجراس الكنيسة ، والذى شجع كلا من فرانجيليكو Benozzo Gozzoli^(٥) وبيرو دل فرنتشيسا Pierro della Francesca^(٦) كما أن إينياس سلقيوس المبدع ، وهو الذي شيد قصر بيكولوميني في سينا ، قد كرس للكرسى المقدس مواهبه كحرفة ورجل آداب ودبلوماسي وذوقة للفن ، حتى إنه حين اعتلى الكرسى البابوى باسم بيوس الثانى (١٤٥٨-٦٤) راح يستعيد الكثير من الحماسة القديمة التي كان يتمس بها الصليبى .

(١) ١٤٦٧-١٥١٩ . جون كولت مرب إنجليزى ومتفقه فى الشؤون الدينية . وهو من زمرة الإنسانيين الذين نظروا إلى المسائل الدينية نظرة تحررية وانتقدوا المفاسد الملمة بالكنيسة الكاثوليكية .

(٢) حوالي ١٤٧٥-١٥٣٠ . كاردينال سياسى إنجليزى لعب دوراً فى الإصلاح الدينى فى عهد هنرى الثامن سياق تفصيله فيما يلى .

(٣) ١٨١٩-١٨٧٥ . رجل دين وشاعر وكاتب قصة إنجليزى .

(٤) إشارة إلى أن مدينة أفينيون الفرنسية التي أصبحت قاعدة للبابوية من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٧ .

(٥) ١٤٢٠-١٤٩٧ . رسام إيطالى .

(٦) ١٤٢٠-١٤٩٢ . مصور إيطالى ، شهر لابتكاراته في فن الرسم المتطور وبراعته في استخدام الضوء . وله كتيب هام في الهندسة .

أما خليفة بولس الثاني (١٤٦٤ - ٧١) الذي جمع القطع المنقوشة من الأحجار الكريمة والبرونز بتلك الحماسة والمعرفة التي يتميز بها ذواقه بناق ، فإليه يرجع الفضل في إعادة معلم أقواس النصر التي بناها كل من سپتموس سقيروس^(١) وتيوس^(٢) . وهكذا توافر بابوات النهضة على البناء والتزيم والتزخرفة والجذع والانطلاق في دنيا المذاالت المترفة ، وهم يتفقدون ويجمعون الضرائب من رعاياهم ، حتى وصلت رعاية البابوية للفنون أوجها حين تولاها ليو العاشر من أسرة مدیتشي في عام ١٥١٣ . وفي عهده أدت التفقات الباهظة التي أنفقت في بناء كنيسة القديس بطرس إلى اهتزاز ولاء نصف العالم المسيحي .

على أنه يشق على زائر روما وهو يستمع بهذه المجموعات الفنية والأبنية التي ترجع إلى هذا العصر أن يتقد بابوات النهضة على ما يبذلوه من جهود مستمرة برغم فداحة تكاليفها . أما الذي يمكن أن يؤخذ عليهم فهو ذلك الجشع السافر الذي حفز بعض بابوات النهضة إلى توسيع أملاكهم العلمانية على حساب غيرائهم من أمراء إيطاليا . وحين نضع نصب أعيننا أن الخطير التركي كان داهماً ملحاً ، وأن الحاجة كانت شديدة إلى التساند السياسي من جانب الدول الإيطالية ، فإن سياسة بابا كسكستوس الرابع ، الذي أدى به طموحه إلى تأسيس مملكة علمانية وإلى تطبيق نظام علنى من المحسوبية وإلى الدخول في الحرب،^{رتين} ، للدليل بارز على الإثم السياسي . وإن الشعور السائد حينئذ في شمال أوروبا بأن البابوات هم أمراء إيطاليون يعملون على توطيد سلطتهم العلمانية أكثر مما يهتمون بالشهر على مصالح العالم المسيحي فيما يمس حياته الروحية – إن هذا الشعور لم يكن أقل العوامل شأنًا في الخروج على روما .

وفي إبان ذلك كله كانت جمهورية البندقية تواجه حقيقة داهمة رهيبة حين استول الأتراك العثمانيون على القدس طينية . في عام ١٤٥٤ تراجعت البندقية توقيع صلح غير مشرف مع الأتراك تلته فترة سلام قصيرة الأجل انتهت في عام ١٤٦٣ ،

(١) ١٤٦ - ٢١١ . الإمبراطور الروماني الذي يعتبر عصره بداية ظهور الاستبداد العسكري .

(٢) ٤٠ أو ٤١ - ٨١ . الإمبراطور الروماني الذي تميز عهده (٧٩ - ٨١) بسلام نبى .

فتشب بين الطرفين قتال مريير خرجت منه البندقية وقد نقدت دلماشيا ولينوس والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولم يكن زلاء البندقية الذين يملؤهم الزهو وحب المخاطرة على استعداد للتسليم بهذه الشروط المذلة عن يد وهم صاغرون ، ففكروا في أن يعوضوا في الغرب ما فقدوه في الشرق بحيث يمكن موازنة الكوارث التي حللت بالبندقية في بحريحة على حساب ميلان وفرارا وزاپولى . وهكذا ذلت البندقية في عزها الملحم على تعويض ما نفقته ، وقد سمعت في النهاية إلى إشارة شهوات فرنسا ومطامعها .

ورغم هذه العواصف فإن النصف الأخير من القرن الخامس عشر خالد في تاريخ النهضة البندقية . فكنيسة القديس مرقص التي بدأئت في عام ٨٣٠ وأكملت في عام ١٤٨٤ لاتزال محتفظة بالخصائص الجوهريّة التي تميز بها الفن البيزنطي بشكل لا نجد له في أي بناء آخر من الأبنية الباقيّة في البلاد التي كانت يوماً ما من أملاك الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أثيل رد على أعمال التخرّب البربرية التي أتتها الترك أن يكتمل على أرض البندقية الحرة بناء يقف كنصب تذكاري خالد لعظمة الإمبراطورية المسيحية الغاربة في الشرق وحضارتها . ومع ذلك فقد وجد جانب آخر من الشاطئ الفني والمعلى في البندقية لم تعبّ عنه الفسيفساء البيزنطية ولا حتى التي تعود إلى الأذهان ما كان قد صممته الصائغ الإسكيني^(١) في قديم الزمان . فالبندقية على حدود عالمين : الإغريقي واللاتيني — وإذا كان الطابع الإغريقي يتمثل في كنيسة القديس مرقص ، فإن فن چون بالييني John Bellini^(٢) الشائق — وبالييني أحد الرواد الأوائل للتصوير في البندقية — ليرتبط تمام الارتباط بالمدارس الإيطالية .

أما اختراع الطباعة ، الذي قدر له في الشمال أن ينشر ثور المذهب في طول ألمانيا وعرضها ، فقد كان برجه خاص أدّاه الشعب الإيطالي في دعم الدراسات

(١) سكان سكينا التي كانت تتدفّق الإستهلاك من جبال الكريبات إلى نهر الدون ؛ وقد ورد ذكرها في تاريخ هيرودوت .

(٢) حوالي ١٤٣٠ - ١٥١٦ . من أشهر المصوّرين البندقية .

الكلاسيكية . وكان أبرز أعلام الطباعة الإيطالية ألدرس مانوتيوس Aldus Manutius الناقد والنحوي ومؤرخ الأدب وعالم الأخلاق الذي أنشأ المطبعة التي عرفت باسمه في البندقية ، والذى لا يوجد في حوليات الحركة الإنسانية الإيطالية من هو أبل منه وأرق حاشية . كأن ألدرس قد كابد أسوأ آفات الطفولة ، على شكل كتاب مدرسى سيء للغاية . ولما كان ألدرس مربياً ومن أتباع فلسفة أفلاطون ، فقد أمكنه الاقتناع بأن تحسين التربية الإيطالية يتوقف في أساسه على تقديم كتب جديدة قليلة التكاليف . لهذا استقر في البندقية وكانت مدينة آمنة من أحطر الحرب ، وهناك استطاع أن يجد مجتمعاً متفقاً وأن يعتمد على تضييد اليونانيين المهاجرين ، وأن ينشئ مطبعة أصدرت في تتابع سريع كتاباً كلاسيكية الواحد تلو الآخر في طبعات من الرخص والبهجة والإتقان وحسن التناول بحيث استطاع السيد البندق وهو ينساب بمندوله في القناة الكبرى أن يتمتع بماهاج هوميروس في مجلد صغير أوضح ما يكون طباعة .

وكانت الحركة الإنسانية في عصر النهضة تتسم بطابع أرستقراطي يخالف طابع العصور الوسطى الذي يمتاز بالتدین والبطولة الذين تعبّر عنهم الكاتدرائيات القوطية والملامح الشعبية Chansons de Geste — فإن الإنساني إنما كان يخاطب الخاصة من الناس . ذلك لأن حماسة الفنان أو العالم لا تستطيع أن تحرّك شعور العامة ؛ فإن الفلسفة والمعرفة والبحث النقدي للنصوص والحماسة في متابعة الفن ستظل جمِيعاً ألواناً من النشاط البشري تختص بها فئة ضئيلة من جمجمة الجنس البشري . هكذا الحال الآن ؛ وكذلك كان في عصر النهضة . وإذا كان الإنساني قد استطاع حيثاً أن يرفع من أذواق الناس ، فإنه استطاع كذلك أن يوسع المسافة بين الأفراد .

وكما هو الحال في الحركات الكبرى المعبرة عن الروح الإنسانية ، اقتصر نشاط النهضة على فئة قليلة نسبياً من الناس هم أولئك المهووّبون الخلاقوں الذين عاشوا وأنتجوا في مجتمع حساس ذكي . ولو لا الحياة الراخمة في قصور إيطاليا ، ولو لا رعاية الكنيسة وشغف الناس في إيطاليا بإمتاع العين والأذن ، لكان ما قام به الإنسانيون في حيز الاستحالة . فلم يحدث في أي بلد أوربي آخر أن تُقفل الحوانيت

حين يرتل الشاعر الشعبي أشعاره ، ولم يحدث كذلك أن سمح لفنان ذوقه بالصفح عن جريمة قتل . ففي إيطاليا وحدها كان يتوقع من نبيل أن يتلوق سوانة أو يقلس لوحة أو يطالع أدباً قدماً . ويتصح ذلك كله بمقارنته بأحوال الأستقراتية الفرنسية كما كانت عليه حتى هذهبوا فرنسوا الأول . فقد كان البلاء الفرنسيون أبلغاً يقصرون همهم على الحرب وبباريات الفروسية والصيد . ولكن ذلك لا يعني أن الحياة الإيطالية ، برغم كل ما بلغته من رقة ولطف ، كانت مريضة أو آمنة . فقد كان الريف خالياً من حراسة الدولة ، وكان الناس يسرون مسلحين ، وأخذون حذفهم من مظاهر الكراهة الحيوانية التي قد تبدو فجأة من جيرانهم . ومهما تألق في قصر الأمير من قطع الرخام والصور ، فإنه لا يعدو أن يكون قلعة أبرد من القبر في الشتاء : فهو لا يحوي من وسائل الراحة إلا القليل الذي يتطلبه أهل السكان تواضعاً في حي إسلنجلتون وبتنى في لندن . وإن مادونه بنقشتو تشلليني Benevento Cellini^(١) (١٥٠٠ - ٧١) عن تاريخ حياته ليصور مجتمعاً شاعت فيه جرائم العنف وأعمال القسوة والخيانة إلى حد أنها لم تعد تثير اهتمام الناس . هكذا كان مزاج الإيطاليين : سرعة غضب ، وثأر قاس ، مع حساسية لألطاف ما يشوق الناس شكلًا وصوتاً .

واستمدت الأستقراتيات المغاربة فيها وراء الألب من هذه المواهب المفتوحة في إيطاليا عناصر جديدة من الاهتمامات . فالبلاء عبر الألب ، بما كانوا عليه من بدأوة ريفية خفت منها الرحلة إلى إيطاليا ، أخذوا أنفسهم بتشجيع الفنون والآداب . كما أخذ يضيق ذلك الفاصل الذي قسم المجتمع الوسيط ما بين كاتب مثقف ورجل حرب بجاهل . وقبل نهاية القرن الخامس عشر نجد الناس - حتى البلاء أنفسهم - يختارون روح العصر : فهم يغشون الجامعات ويتشققون بالقراءة ويزينون دورهم وبيهود عن الأبهة .

فإنجلترا - مثلاً - أثناء حروب الوردين - لم يكن فيها من كرهه الناس قاطبة مثل جون تيفوتفت John Tiptoft ليرل ورستر (١٤٢٧ - ١٥٧١)^(٢) ، وذلك

(١) ١٥٧١ - ١٥٠٠ . فنان وصانع معادن ونحات إيطالي من فلورنسة .

(٢) قائد بارز من أنصار أسرة يورك أثناء حروب الوردين .

لقوته الباطشة حين جعله الملك إدوارد الرابع كيّر ضباط حاشيته ، وأداة لتنفيذ أحكامه الانتقامية الفظيعة ، مما أدى إلى تسميتها « جزار إنجلترا » و « الحlad الشرس ونار زعوس الرجال ». ومع ذلك فإن قسوته ، وهي الموجز الذي كان مأولونا في إيطاليا ، كانت تخالطها درجة كبيرة من القافة ، ولم يكن بإنجلترا إلا نفر قليل من يلمون باللاتينية يمكن أن يقول لهم أكثر ثقافة من هذا الأستقراطي فقط الذي تلقى تعليمه في باليول ثم خالط الإنكليز في بادوا وأفرغ حوانيت بيع الكتب في فلورنسة . كان تبروفت في الطليعة ، ثم ترسم خطاه نفر كبير من الإنجليز من تعلقوا بالدراسات اللاتينية وجرى العرف في عهد الملكة إليزابيث على تسفيتهم « بالمردة المتجمسين » ؛ ولكنهم بتلذذهم على الإيطاليين ، إلى جانب ما اكتسبوه من آفات خلقية كثيرة ، كسبوا فنوناً منوعة من الذوق والمعونة والتجربة عملت دوماً على إثراء ثقافة بلادهم .

وورثت أوروبا عن إيطاليا النهضة فكريتين قييس أن يكون لهما أثر دائم في مجال السياسة والتعليم . أما الفكرة الأولى عن السياسي الخالص أو المنقطع للسياسة فقد احتواها كتاب « الأمير » مكيافيلي ، وهو الكتاب الذي كتب في عام ١٥١٣ ؛ والفكرة الثانية عن السيد المهني الشغوف بالدراسة احتواها كتاب « رجل بلاط » لـCastiglione (١) الذي وضع بعد أعوام ثلاثة من هذا التاريخ . أما مكيافيلي فقد كان دبلوماسيًا فلورنسيًا ووطنيًا إيطاليًا متخصصاً، استغل الفراغ الذي فرض عليه في المنفى في تصوير نوع الحاكم الذي يؤهل خير تأهيل لتحرير أرض إيطاليا من دنس الغزارة ويبعد أمجاد روما القديمة . والمثير في هذا البحث أنه موضوعي ؟ فالـأمير متمرس في سياسة القوة : فهو يلتجأ إلى أساليب القوة والعش دون وازع أو تبكيت ، لا يعبأ بشيء في سبيل توسيع رقعة أملاكه وإحاطتها بالضمانات الكافية . وهو واقعي يرى الحياة كما هي عليه ، ويجذب بالتىارات المعاصرة عن كتب ، ولا يتوقع في الحياة أحسن أو أكثر مما تستطيع هي إعطاءه . وهكذا كان « الأمير » مكيافيلي مختلفاً كل الاختلاف عن أرواح القديسين الذين

(١) بليزار كاستيليون (١٤٧٨ - ١٥٢٩) . دبلوماسي إيطالي :

حفلت بهم مؤلفات القسّس في العصور الوسطى . وإن مبدأ سياسة القوة الذي سفر الناس دون مواربة أو تحفظ ، مثلاً ما هو جار في الواقع في ذلك العصر ، قد جاء بمثابة صدمة للرأي العام – إذ الناس لم يعتادوا أن يطلع عليهم بحث سياسي عار من الأخلاق والدين . ثم إن بطل ميكافيلي كان قيسراً بورجيا ابن أخي إسكندر السادس البابا السفاح . وبالرغم مما قام به قيسراً بورجيا من أعمال شخصية براقة ، فقد عرف في الناس جميعاً بمناجاته في تدبير جرائم القتل وأعمال الغدر والخيانة ، وهذا كلّه مما أضاف صفة الخروأة إلى هذا الكتاب الذي تحدي المألوف عند الناس .

وبقدر ما مثل «الأمير» الروح الإيطالية في ذلك العصر ، مثلها أيضاً كتاب «رجل البلاط» لكاستليوني . وقد استقى المؤلف انطباعاته من بلاط إيطالي على درجة كبيرة من الثقافة ، هو بلاط الدوق جويندو بالدو Guidobaldo في أربينو ، ثم رسم لرجل البلاط الأنموذج صورة نالت شهرة طبقت الآفاق في طول أوروبا وعرضها . فرجل البلاط لا ينبغي أن يقصر تدريبه على مدرسة البلاط ، بل عليه أن يتلقاه أيضاً في المعسكر ؛ فينبغى عليه أن يكون مدججاً بالسلاح ، وأن يكون رياضياً يعني بصححة جسمه ، ومثقفاً ذواقاً للأدب بحيث يتندمج في كل مجتمع – فيقرأ الإغريقية واللاتينية والإيطالية جيداً ، مع بعض الإمام عملياً بالرسم والموسيقى وإظهار إتقان يخيل إلى الناس وكأنه ليس نتيجة مجده وكم من عصره من أذواق وأفانيين . وتمشت هذه النظرة إلى التعليم مع روح العصر ، فترجم كتاب «رجل البلاط» إلى عدة لغات . ويمكننا مطمئنين أن نعزّو فكرة ملتون عن تعليم متعدد الجوانب من شأنه «أن يعد الإنسان للاضطلاع في مهارة وإتقان بكل المناصب العامة والخاصة سواء في الحرب أو السلم ، وفقاً لمقتضيات الظروف» – يمكننا أن نعزّو فكرة ملتون هذه إلى الترجمة الإنجليزية الجاذبة التي قام بها سير توماس هوي Thomas Hoby في عام ١٥٦١ .

ولكن هذا الفيض المفروط من العبرية الإيطالية لم يكن له أى صدى في العالم الإغريقي الأرثوذكسي سواء في أملاك السلطان العثماني أو في أملاك قيسار روسيا . فلم تكن النهضة الإيطالية تعنى شيئاً للروس أو للترك ، وبغض النظر عن بعض

المؤثرات القليلة المتداولة كصورة محمد الفاتح التي رسمها أحد البنادقة ووضعت في قصر السلطان ، أو كبناء الكرملن في موسكوا الذي أخذ عن ميلان ، أو بعض الافتتاحات المتقنة في أكرا ودلهي ، ظل أثر الذوق الإيطالي والعبقرية الإيطالية مقصورةً على العالم المسيحي اللاتيني . أما روسيا فقد كانت عالماً منفصلاً قائماً بذاته ، ولم تكن عاملًا يعتد به في السياسة الأوروبية حتى القرن الثامن عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

Trenchard Cox, The Renaissance in Europe (1400-1600). 1933.

نماذج مأخوذة عن الأعمال الفنية في متاحف لندن

- M. Creighton, History of the Papacy during the period of the Reformation. (1882-94).
- Janet Trevelyan, A Short History of the Italian People. (1929).
- E. Armstrong, Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century. (1896).
- P. Villari, Life and Times of Girolamo Savonarola. Tr. L. Villari. 2 vols. (1897-8).
- G. Vasari, Lives of Italian Painters, Sculptors and Architects. 8 vols. (1900).
- B. Berensen, Central Italian Painters of the Renaissance. (1897).
- B. Berensen, Venetian Painters of the Renaissance. (1894).
- M. Von Wolff, Lorenzo Valla. (1893).
- L.B. Alberti, Opere Vulgari. Ed. A. Bonucci (1843-9).
- L. von Ranke, History of the Popes. Tr. S. Austin. (1847).
- H.A. Taine, Philosophie de l'Art en Italie. (1865).
- Machiavelli, Principe. Ed. L.A. Burd. (1891).
- Vespasiano Da Bisticci, Vite de uomini illustri de Secolo XV. Ed. L. Frati. (1892).
- Cambridge Modern History. Vol. I.
- J. Burckhardt, Die Cuttur der Renaissance in Italien. (1869).
- J. Morley, Machiavelli. Romanes Lecture. (1897).
- J. Zeller, Italic et Renaissance. (1883).
- H. Brown, The Venetian Printing Press. (1891).
- J.A. Symonds, The Renaissance in Italy, Vols. IV & V. (1875-86).
- A.F. Didot, Alde Manuce et l'Hellenisme Venise. (1875).
- The Book of the Courtier. Tr. Sir T. Hoby. Ed. W.R. Raleigh. (1900).
- W. Ormsby-Gore, Florentine Sculptors of the Fifteenth Century. (1930).

الفصل الثالث

فرنسا وبرجندية

لويس الحادى عشر - انتصاره على البابا وشراوه الإنجليز بمال -
حسن حظه - مقارنته بشارل حاكم برجندية - الخدمات التي أداها أدوات
برجندية للأراضي المنخفضة - الفن الفلمتكي في القرن الخامس عشر .

على حين كانت إيطاليا تتخض عن حركة من الإنتاج الفنى ، كانت فرنسا تمر بمرحلة توقف في تطورها الثقافى جاءت نتيجة طبيعية لما ألم بها من كوارث سياسية . فلقد عاصرت أزهى فترات التاريخ الفنى في فلورنسة حقبة طويلة مضيئة مرت فيها فرنسا بدور النقاوه من آثار التخريب التي حلت بها أثناء حربها ضد إنجلترا ، كما عاصرت ذلك الصراع الحاد بين دوقية برجندية والملكة الفرنسية ، وتلك المراحل التي اجتازتها حكومة الملكية الفرنسية حتى استحالـت من دولة ضعيفة منهوكـة القوى إلى دولة تقوم على دعائم قومية سليمة ، وذلك بفضل ذكاء رجالها وغباء خصومها . في هذه السينين القلقة لم يبد الفرنسيون أى رعاية للعقربـية الإيطالية ، ولم يقدموا إلا دليلاً باهتاً على وجود مواهب فنية خاصة بهم . فلم يوجد من يختلف فـة النحاتين العظام من رجال القرن الثالث عشر الذين تحـملـتهمـاـ كـاتـدرـائـيات ريمز Rheims وشارتر؛ أما جان فوكـيه Jean Fouquet المصـور فقد كان من بروكـسل . ولم يحسـقـ الفرنسيـونـ بـعظـمةـ الإـنـتـاجـ الفـنىـ الإـيـطـالـىـ ،ـ وـلـمـ يـسـتـعـدـواـ لـتـقـبـلـ الـنـهـضةـ الإـيـطـالـىـ إـلـاـ حينـ غـزـتـ الـجـيـوشـ الفـرنـسيـةـ إـيـطـالـىـ فـيـ عـامـ 1494ـ .ـ حـيـثـنـذـ كـانـ قدـ مضـتـ سـتـ سـنـوـاتـ عـلـىـ وـفـاةـ ثـرـوكـيـوـ صـائـعـ الفـضـةـ الـمـهـنـدـسـ الرـسـامـ النـقـاشـ الـمـوـسـيـقـىـ النـحـاتـ ،ـ وـهـىـ الشـخـصـيـةـ الـتـىـ رـبـماـ كـانـ أـبـرـزـ الشـخـصـيـاتـ فـيـ قـصـةـ التـطـورـ الفـنىـ الإـيـطـالـىـ فـيـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ .ـ

في عام 1461 توـ شارل السابع بعد أن خلص فرنسا من نكسـاتـ الخـروـبـ الطـوـيلـةـ ضدـ إنـجـلـطـرـاـ ،ـ وـبـعـدـ أـنـ تـرـكـ لـيـلاـدـهـ حـكـومـةـ وـجيـساـ .ـ وـوـاصـلـ ابنـهـ لوـيسـ الحـادـىـ عـشـرـ

(١٤٦١ - ١٤٨٣) ، الذي كان ثائراً ومنفياً ، ذلك الجهد القيم الوئيد . هذا الملك ذو القبعة والملابس القديمة الرثة ، العالم ب المواطن الأمور ، الحريص الحذر ، الذي كان يعتقد أن لكل شخص ثمنه ، ومع ذلك لم يتزدد في قطع رأس من يعارضه من البلاء أو في وضع كاردينال خائن في قفص حديدي — بـدا هذا الملك مزيجاً يحير الألباب من الحدق والقسوة والشر . ولكن أولئك الذين عرموا الرجل من أمثال فيليب دي كومين Philippe de Commines^(١) البرجندى وأدركوا الصعوبات الملمدة به ، قدروا في لويس مجموعة من المواهب التي أنقذت الملكية الفرنسية من أشنع ألوان المهانة ، وإن كانت هي المواهب ذاتها التي كرهت فيه فئة البلاء الحمقى الجهلة المتهورين الذين كانوا وباء المجتمع . أدرك لويس بذلك الفطري أن على السياسي أن يكون حسن الإصياغة نهماً في جميع المعلومات قادرًا بقدر الإمكان على أن يتعرف بنفسه على كل من له أهمية سياسية سواء في مملكته أو خارجها في البلدان المجاورة ، كما أن عليه ألا يدخل وسعاً لكسب عدو ، وألا يحفظ ضغينة لأحد ، وأن يصطنع صبراً بعيد النظر ، وأن يكون دائم الاستعداد للتعلم من خطائه الشخصية ، وألا يقف كبرياً حاثلا دون استرداد الأرض التي يكون قد فقدتها . وبعد أن صب لويس جام غضبه — للمرة الأولى — على البارزين من أنصار العهد القديم ، مما هو متوقع من منفي عائد ، حاول أن ينظر إلى الموقف من زاوية أخرى حتى يستغله لمصلحته ، فسعى لاستعادة ود من أساء إليهم من قبل .

وكم من أزمة معقدة ثارت فأبدى لويس معيناً لا ينضب من الشجاعة والمقدرة . لم يكن قد مضى على توليه وقت طويل حين واجهه تأليب خطير من البلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شاروليه Charolais (البسور) وريث دوقية برجندية ، ويستنه دوق بري Le Duc de Berri ، أخو الملك ، ودوق بريتاني ، وفي الوقت الذي وصلت فيه قوات الحلفاء إلى مشارف باريس كان ولاء العاصمة متذبذباً ، وكان من شأن أي خطأ أن يكفي لتحطيم ذلك الشاب غير المحبوب (الأجنبي حتى ذلك الوقت) الذي كان قد طرد مستشاري أبيه من مناصبهم

(١) حوالى ١٤٤٦ - ١٥١١ . ألم مستشاري الملك لويس الحادى عشر ، وتعبر مذكراته بعد أشعار قانون - ألم ما كتب باللغة الفرنسية في القرن الخامس عشر .

وأحاط نفسه بعصبة من اختياره هو . ولكن لويس لم يتغى على الإطلاق – فبعد أن أسرع إلى باريس يقود قوة كبيرة ، استطاع أن يكسب خصومه في المدينة بما أظهره من دلائل الصفح الحكيم ، وبذلك استطاع أن يعتمد على باريس وأن يواجه جميع أعدائه الذين دبت الفوضى في صفوفهم . ولقد تحاشى الدخول معهم في معركة عامة ، مفضلا إرهاقهم بالمناوشات المستمرة حتى اضطروا إلى طلب الصلح ، وإذا كان لويس في شوقة إلى فرجة يستطيع منها أن يبذل بنور الشقاق بين أعدائه قد منحهم شروطاً (صلح كونفلان Conflans) كانت من السخاء المفرط بصورة لا تتناسب على الإطلاق مع صالح فرنسا ، فإنما كان ذلك جزءاً من ذكائه الأفعواني .

ولو كانت دوقية بريجندية في أيدي قوية أو كان في مقدور إنجلترا أو في عزمه أن تأخذ جانباً فعالاً في الصراع ، لربما كان من الممكن أن تتكرر ظلائع حرب المائة عام . ولعله من حسن حظ أوروبا – ومن الحق أنه كان من حسن حظ فرنسا – أن شارل بهجومه العنيف على السويسريين قد أطاح بالمركز القوي الذي شاده للبيت البريجندي أربعة من أحكم أمرائه ، وأن الحرب بين أسري لانكستر ويورك على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي قد حالت دون قيام إنجلترا بأى تدخل فعال في شئون القارة . حفظاً كان لا يزال في طوق إنجلترا إرسال حملة لقيت ترحيباً من الشعب الإنجليزي ، ضد العدو القديم ، ولكن هدفها لم يعبد الغزو – بل التهديد السافر . وهكذا في خلال عشرين عاماً انتقلت ميزين إلى الأرضية الفرنسية جيوش إنجليزية ، ثم سحببت نظير إزاوه مجزية . واعتبر لويس وولى عهده أن هذا المال الذى تدفعه فرنسا للتخلص من رماة النبال الإنجليز ، الذين كانوا لا يزالون مبعث خطر ، إنما هو ثمن بخس .

وحالف الحظ لويس بتوقيفات أخرى . كان من حسن حظه أن شارل الجسور لم يعقب ذكرأ ، ولهذا فهو فوفاته في عام ١٤٧٧ آلت بريجندية وبيكاردي وآرتوا إلى العرش الفرنسي . ومن حسن حظه أيضاً أن يتوفى رينيه آخر ملوك إكوس دون أن يعقب ذكرأ كذلك ، مما ترتب عليه أن مين وأنجو وإقطاعية برووانس الإمبراطورية أصبحت كلها جزءاً من المملكة الفرنسية في عام ١٤٨٠ . وأخيراً كللت الأقدار

خدماتها للويس حين لم يعقب فرنسوا دوق بريتاني ؛ تلك المقاطعة الكلامية القديمة المعترضة باستقلالها الغنية بالحرف البحري ، ولهذا لم يكن له وريث يستطيع أن يواصل خصوصية جنسه القديمة. وإلى كل هذه السلسلة من حسن الطالع يرجع الفضل — في الدرجة الأولى — في أن تصبّح فرنسا بعد وفاة لويس دولة متّسكة قوية ، مأمونة الحدود من كل جانب ، بعد أن كانت عند توليتها على شفا الانهيار .

وفي ذلك التأليف الباهر الذي كتبه كوبين ، يقف كل من لويس وشارل بارزاً كأنه صورة مجسمة للحكمة يمازجها الموس ، وإن نقض أحدهما الآخر ؛ فلويس — بالتأثير في صبر وأنة وببدل أقل ما يمكن من المال والماء — يتغلب على أعدائه ويترك مملكته أقوى مما كانت عليه عندما تولى عرشها . أما شارل فيبدو إرثه العظيم بطموحة الحربي الذي لا يهدأ والذى دفع ثمنه غالياً . ويلاحظ بوجه الخصوص على لويس أنه كان يفضل العمل مع رجال الطبقة الوسطى ، وأنه كان يمثل طرزاً جديداً من رجال الدولة في تجنبه سفل الدماء وعدم ثقته بالنبلاء وتفضيله للجند المترفة (وقد أدخل السويسريين في خدمة الناج الفرنسي) وفي تشجيعه للتجارة . كان يشبه معاصره إدوارد الرابع ، ولكن بصورة أوضح ، في كونه ملكاً من رجال الأعمال .

وإذا ما أخذنا ما قام به أدوات برجندية بصفة عامة ، لوحدها أيضاً ، رغم ما حمل من طابع الاستعلاء الحشين ، يحمل دلالته على هذا التحول العظيم من إقطاع العصور الوسطى إلى نظام الدولة القومية ، هذا النظام الذي أخذ في القرن الخامس عشر يشكل من جديد الأوضاع السياسية في غرب أوروبا . كان أمراء برجندية مبدرين خشين ملتهبين حماسة ، وضعوا نصب أعينهم تدعيم أسس الملكية وبناء دولة متّسكة في وادي الرين وروافده تضم بعضاً من أغنى المراكز التجارية في أوروبا . ولم تكن التقاليد والولايات القديمة تعنى شيئاً بالنسبة لهم ؛ ولهذا فإنهم صنعوا دولتهم بالفتور العسكرية المصحوبة بالعنف دون كبير اكتراث بما جرى عليه العرف وأهواء الناس في الأجزاء التي تتألف منها . وكانت سياسة التوسيع المطردة التي اتبعتها هذه الأسرة النشطة الحازمة في مدى أربعة أجيال ، كادت توصلها قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها .

ويموت شارل الجسور أمام أسوار نانسي (١٤٧٧) انهار هذا البناء المصطنع برمته كأوراق الشجر . ولكن جهود أدواق بريجندية لم تكن كلها عبثاً – فهم الذين صنعوا بلجيكا ، كما أنهم هم الذين لقنو كونتية الفلاندر – التي هي نواة مملكة بلجيكا الحديثة – معنى جديداً للاستقلال والوحدة ، وإن سياستهم الطدودة وانتصاراتهم الواضحة وتوفيقهم الحكم في المزاج بين ميول الشعب ومقتضيات الأبهة ، لما لهم مدرسة من الكتاب والمؤرخين كانوا فوق المستوى العادي . ولقد جعلوا من بروكسل ، حيث أقاموا بلاطهم ، عاصمة من أشهر عواصم أوروبا ؛ وإن أنوروب تدين بعظمتها التجارية إلى حد كبير لتشجيعهم ولقيود التي فرضوها للحد من منافسة بروج وغنت لها .

وفي غمرة هذا التناقض في المصالح الاقتصادية التي كانت الفلاندر مسرحاً لها في ذلك الوقت المتميز بالتطور السريع ، استطاع أدواق بريجندية دائماً أن يعتمدوا على المصالح التجارية النامية ضد الصناعة التي أصبحت لا تجاري الزمن لما فيها من قيود الاحتكارات والأساليب التي عني عليها الزمن . كانت سياستهم جعل الفلاندر وحدة اقتصادية بقدر الإمكان وتشجيعهم للفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة ، وإزالة العوائق الداخلية التي تتعرض نقل المتاجر وتبادلها . ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين من حيث الأصل واللغة والذوق ، فإنهم توافروا على تعلم اللغة الفلمنكية ، ودفعهم حكمتهم – وقد زادت عن حدتها – إلى أن يحاولوا أمراً كان في الحق مستحيلاً : وهو القضاء على الإنسان التيوتوني الذي كان أداة للكثير من الم辯لات التجارية في الفلاندر .

وإذا كانت الظروف الرئيسية التي أحاطت بالأدواق قد فرضت عليهم أن يجعلوا قاعدة ملكهم في الفلاندر حيث ذكرى زمالة الحرب القديمة مع إنجلترا كانت لا تزال مائلة ، فإنهم من الناحية الأخرى لم ينسوا موطنهم الأصلي . أصبحت العاصمة في بروكسل ، ولكن مدافن الأسرة بقيت في ديجون التي لم تعد تسافر مقتضيات العصر . وانتشر فن الرسامين والنحاتين الفلمنكيين غرباً عبر بريجندية إلى فرنسا حيث كان له أثر كبير . وكما أن الفلاندر قد أثرت في فرنسا ؛ فإن فرنسا بدورها قد أثرت في الفلاندر عن طريق أدواق بريجندية . وإذا كانت

بلجيكا لا تزال اليوم فرنسيّة الطابع ، فإن مرجع ذلك إلى تلك الفترة التي كانت فيها الفلاندر الحاضنة لأسرة فرنسيّة ، قلباً ومركزاً لدولة طموحة ميالة للفتح والتوسيع :

ورغم أن الأدوات قد شجعوا الفن الفلمنكي برعايتها ، فإنه - كالفن البرجندى - استمد أصوله من تراث العصور الوسطى . وعلى حين اتسعت النهضة في إيطاليا بابتعاد حاسم عن أساليب العصور الوسطى وعن الفن القوطي ، وبإشار قوى لخاتم الوثنية القديمة ، لم يوجد لدى فنانى برجندية مثل هذا الشعور الواضح بالتجدد ؛ ولذا نجدهم يمرقون من العالم الوسيط إلى العالم الحديث بهدوء غير محسوس . اعتمد تطور الرسم عندهم على الملاحظة الدقيقة أكثر من اعتقاده على النظريات الأدبية أو على الانتقاء أو الترك المبني على أسس عقلية . وتميز الفن الفلمنكي في القرن الخامس عشر برقة الشعور ومراوغة الحقيقة واتباع الأصول الفنية بدقة ؛ وعن الفلمنكيين الذين كانوا قد اختبرعوا الأصباغأخذ الإيطاليون استعماها ، وإلى تصاوير هذا الشعب الموهوب يرجع أكبر الفضل في شهرة تلك الإمارة الفتية الحشنة الصاحبة .

ويستوى فن الأرضي المنخفضة مع الفن الإيطالي في كونهما ينبعان من حياة مدن تزخر بالنشاط وتقدم على الرخاء المادي . وقد نافس سكان مصبات الأرضي المنخفضة سكان فلورنسا والبندقية في نشاط طوائفهم وتقديرهم للمهارة الفنية وتشجيعهم للجهود الأدبية والفنية . وقد نما نظام حكم المدينة الذي قام في العصور الوسطى - نما في إيطاليا والأرضي المنخفضة ، كل مستقلاب عن الآخر ؛ وكان تدهورهما قميئاً لأن يصيب الحضارة الغربية بحرمان قاتل . ولم يكتج الرسامون الفلمنكيون من رجال القرن الخامس عشر في رسم شكل الإنسان كما رأوه إلى دروس جيوفتو^(١) أو مدرسته ، فقد تحولوا عن التقاليد البيزنطية بفعل مؤثرات واقعية أصلية من وحي بلادهم ، ولقد استمدوا رسومهم من الحياة ، ولكن في أصباغ مشرقة تبدو كأنها تحمل حلوكة السماوات في بلاد الشمال ، وأثروا الموضوعات

(١) ١٢٦٧ - ١٣٣٧ . الرسام الفلورنسي الكبير الذي لعب دوراً مهماً في إرساء القواعد الجديدة لرسومات عصر النهضة .

المنزليّة بوجي رعاة الفن من الأثرياء العلمانيين ، وبجهودها إلّا بارز كل تفصيل مأولف ، وكأنما هو نقش بارز . وانتشر تأثيرهم كما انتشر تأثير الفنانين الإيطاليين في مجال أوسع . وما أشرف القرن الخامس عشر على نهاية حتى صارت كل ألمانيا الشماليّة من أقصاها إلى أقصاها بمثابة مستعمرة فنية للفلاندر .

* * *

كتب يمكن الرجوع إليها

- A.W. Ward, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIII.
- C. de Cherrier, Histoire de Charles VIII. (1868).
- J.F. Firk, History of Charles the Bold. 3 vols. (1863-8).
- C. Legeay, Histoire de Louis XI. (1874).
- Sir W. Scot, Quentin Durward.
- L.E. de Laborde, Les Ducs de Bourgogne. (1849-52).
- C. Petit Dutaillais in E. Lavisse, Histoire de France., Vol. IV.
- P. Fredericq, Essai sur le rôle politique et social des Ducs de Bourgogne dans les Pays-Bas. (1875).
- E.A. Freeman, Historical Essays, First Series (Charles the Bold). (1892).
- L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916).

الفصل الرابع

المهضة الألمانية

تقدّم ألمانيا ثقافياً في النصف الأخير من القرن الخامس عشر - انتشار الطباعة - أثّرها في ازدياد اهتمام الناس بالمسائل الدينية - فشل محاولات مكسيليان إصلاح الإمبراطورية - عظمة ألمانيا الحقيقة في ذلك الوقت - الفنون والحرف - ألبرخت ديرر Albrecht Dürer وبطرس فيشر Peter Vischer . Cusanus كوزانوس

تميز النصف الثاني من القرن الخامس عشر في ألمانيا بتطور ملحوظ في الثقافة والتعليم والتربيّة ، تميّزه بنمو سلطان أمرائها المحليّين على نحو ما حدث في إيطاليا . الواقع أن الشّهرة الحالية التي يتمتع بها الألماّن كقادة لعالم في دراسة الكتب يمكن أن نرجعها إلى ذلك العصر الذي شهد إنشاء ثمانى أكاديميات ألمانية واحتراع فن الطباعة الذي فتح للعالم آفاقاً جديدة والذي يرجع الفضل فيه إلى حنا جوتبرج من ماينز John Gutenberg Meinz . وإن الثورة الصهيّمة في الطاقات العقلية البشرية التي تربّت على هذا الاحتراع الأخير يمكن أن تعزى إلى السرعة التي انتشرت بها هذا الاحتراع في ربع أوروبا في عصر يتقدّم بحقوق الاحتراع . وفي عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معدنية إلى إيطاليا ، وفي عام ١٤٧٠ وصلت إلى باريس ، ووصلت إلى لندن في عام ١٤٧٧ واستوكمّل في عام ١٤٨٣ ووصلت إلى فرانكفورت في عام ١٤٩٩ . وقد قال البعض ، ولو أنه قد يكون تقديريراً متحفظاً جداً ، أنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد في أوروبا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع في مقابل بضعة آلاف قليلة من المخطوطات حول كل ما ورثه العالم من حكمة وشعر حتى ذلك الوقت .

ويينبغى أن يعزى إلى الألماّن الفضل الأكبر في انتشار آلة الطباعة في أوروبا . حينئذ عرفت الطباعة بأنّها الفن الألماني ، وقصدت الطباعون وبائعو الكتب الألماّن كل مكان بحثاً عن العلماء ؛ وما أُولئِك في عام ١٥٠٠ على همّا يتهيّئ حتى كان لهم أكثر من مائة

مطبعة في إيطاليا ولا أقل من ثلاثة مطبعة في إسبانيا . وعمت الأقطار حماسة تبشيرية ضخمة للفن الجديد . وراح الناس يقدرون أهميته بالنسبة إلى الحياة . وعبر عن ذلك أحد المعاصرين — وهو وفلنج Wimpheling^(١) — بقوله : «وكما انتشر رسول المسيح في أقطار الأرض يبشرون بالأنباء السعيدة — أنباء ظهور المسيح — كذلك يتشر في أيامنا هذه رجال الفن الجديد في كل مكان يحملون في أيديهم الكتب وكأنها كتب الرسل وكأنهم الدعاة إلى الحقيقة والعلم ». وليس أدل على صدق فراسة الناجر الألماني عن هذه الاحتمالات «التبشيرية» من أنه في عام ١٤٩٤ ، أى بعد مرور ستين فقط على طرد المسلمين من غرناطة ، كان ثلاثة من الطابعين الألمان قد استقروا في تلك المدينة .

وإن ما قام به الر واد الأول في ميدان الطباعة وتجميل الكتب ليعد مفخرة من مفاحير أوروبا ؛ وإن أوروبا لندين بالكثير لؤلاء التجار الملهجين الذين جمعوا إلى ترسهم في البحث والفن خبرة بتنظيم الأعمال على نطاق دولي ، حتى إن التاريخ ليسجل دون تحريف أسماء الرعيل الأول من بائعى الكتب العظام مثل كوبيرجر Koberger من نورنبرج وزروبن Froben من بال . فإنه يندر حظاً أن نجد ما يفوق الطبعات الأولى من الكتب في ألمانيا جبالاً وروعة . وإذا كان الجانب الأكبر من الأدب الذي أخرجته المطابع الألمانية أدباً دينياً ، وإذا كانت قد ظهرت في خلال الخمسين السنة الأولى من اختراع الطباعة مائة طبعة من الإنجيل وتسع وخمسون طبعة من كتاب ، «ترسم خطى المسيح Imitatio Christi» ، فإنما مرجع ذلك إلى أن رجال الدين في ألمانيا ، مثلهم في أى مكان آخر ، كانوا يكونون أغلبية الطبقة المتعلمة ، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر الناس احتضاناً لتجارة الكتب ورعايتها لها . ورغم أن الكتاب المطبوع قد لعب دوره في نشر الحركات الفكرية والنقدية في القرن السادس عشر ، فإن النتائج الأولى التي تم خصت عنها حركة الطباعة كانت مخالفة لذلك ؛ فقد عملت على إيقاظ اهتمام جماهير الشعب بالعقيدة وزيادة اهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها .

(١) ١٤٤٩ - ١٥٢٨ . أحد فقهاء الدين الألمان ؛ وكان أيضاً متلقها في اللغة . اقترب اسمه بإصلاح التعليم .

ومن هنا يكون من عدم الإنصاف القول بأن الفترة من تاريخ ألمانيا التي سبقت النهاية مباشرة قد اتسمت بدلائل الانحطاط والضعف . حقيقة وجد كثيرون من الأخطاء الفاحشة في جهاز البلاد السياسي والاجتماعي — ومن ذلك أن الكنيسة التي قدر لها أن تمتلك ثالث الأرضي المملوكة أصبحت من الغنى بدرجة لا تعصّ منها من الفساد ، وأن رجال الدين قد أمعنوا في الإسلام لظهور الترف الفارغ والإسراف البالغ . وكانت الحرب الخاصة أمراً مأولاً لم يجد ما يوقفه بطريقة ناجعة حتى عقد مجمع (ديات) ورمز Worms في عام ١٤٩٥ ، ولهذا قاست البلاد مما حل بها من دمار على أيدي أرستقراطية من أشد أرستقراطيات أوروبا آنائة وكسلان . يضاف إلى ذلك أنه لم توجد في داخل الإطار السياسي للإمبراطورية الألمانية أية قوة قادرة على تربية وإعداد هيئة من الرأى العام حازمة منزهة عن الهوى ، بحيث توازن شرور الأنانية الطبقية أو الاتجاهات الانفصالية الصغيرة . وليس أدل على ذلك من عصر الإمبراطور مكسميليان (١٤٩٣-١٥١٩) مؤسس الوحدة النمساوية وحبيب أهل التирول وخير من اصطادوا الشاموا و«آخر الفرسان» . وقليل من الحكماء الألمان من هم أكثر من ذلك العاهم الأنيد النبيل الكريم جداً بما أحبط به من حب . كما أنه لم يكن هناك من هو أكثر منه نشاطاً أو بلاغة أو جاذبية ، أو أشد منه رغبة في المحافظة على ما اعتقاد أنه التقاليد الحقة لمنصبه الرفيع وشرف الاسم الألماني . ورغم كل هذه الخصال المحببة لم يستطع مكسميليان أن يوقظ تلك الهيئة السادرة في غيبوبتها—أعني الريخ الألماني — للقيام بعمل فعال ضد الأتراك في الشرق والفرنسيين في إيطاليا — في المجتمع الإمبراطوري الذي انعقد في ورمز في عام ١٤٩٥ ، ثم في أوجزبورج ، تحطم محاولات القيام بإصلاح كاف للدستور الألماني على صخرة المعارضة الصلبة التي أثارتها المصالح الأنانية ؛ فلم يستطع تكوين جيش إمبراطوري ثابت أو إقامة نظام ثابت لجمع الضرائب الإمبراطورية ، بعد إذ رفض الأمراء التابعون له العمل مع القوات الإمبراطورية ، كما رفضوا دفع «المليم العام^(١)» (وهذه ضريبة تصاعدية على الأماكن) أو التعاون في تكوين جهاز ينفذ قرارات المحكمة الإمبراطورية . وفيما عدا إدخال بعض

. (١) في الأصل The common penny

التحسينات الطفيفة على دوائر القضاء والبولييس بإعلان سلام دائم بين ملاك الأراضي ، وإنشاء محكمة إمبراطورية ثابتة ، وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر دوائر ، فقد فشلت كل المحاولات المضنية التي قام بها هذا الإمبراطور الأرثوذكسي الأفق بجعل مجموعة الدوليات الألمانية قوة فعالة في العالم . لهذا كله بني الإمبراطور ظلاً لا حول له ولا طول ، وظل المركز الحقيقي للقوة السياسية في أيدي المنتخبين والأمراء .

وعلى أي حال فليس ثمة ارتباط بالضرورة بين الحكمية السياسية عند شعب وتقديره الروحي والفكري . فإن ألمانيا لم تكن تتجلّي قيمتها السياسية في إمبراطوريتها أو في كبار الكهنة فيها أو في أمرائها العظام ، وإنما كانت تتجلّي في الآلاف من عمال المدن المهووبين الذين سخروا ذكاءهم في بناء الكنائس والكاتدرائيات القوطية ، وفي إدخال التحسينات على الأرغن ، والذين نبغوا في مجال الحفر والنقوش على الحجر والخشب والبرونز وخلفوا بنقوشهم ورسومهم وصياغتهم المعدنية شهرة عالمية فائقة تشهد بمهارة الجنس الألماني . وإن الرسومات والنقوش التي أبدعها أبرخت ديرر^(١) ، وهذه الصنوف الفاخرة من القطع البرونزية التي أخرجها في مدى خمسين عاماً مصنع الصهر الذي كانت تملكه أسرة فشرفي نورمبرج هي كلها آثار من الفخامة كفّرت بها ألمانيا في الفترة السابقة للنهاية مباشرة عن الفساد الذي حل بالكنيسة والخلط العنيد الذي أصاب حياتها العامة .

وفي العقد الثالث من القرن السادس عشر توقف فجأة تطور فنون النحت في ألمانيا ، وهي التي كان بطرس فشر الأصغر قد سما بها إلى درجة كبيرة من المهارة ، وببدأ أن الشريان الراهن القديم الذي كان يغذي المهارة الفنية الألمانية قد استنفذ طققه . فقد حلّت نماذج وأفكار متواترة مقتبسة عن الإيطاليين محل الفن الألماني الذي – برغم افتقاره إلى الجمال البسيط الذي اتسم به الفن الإيطالي – كان أصيلاً وقوياً ومتمشياً مع الطابع القومي ؛ ولم تعدد نورمبرج – التي كانت في القرن الخامس عشر فلورنسة ألمانيا – المركز الحيوي للفن الزخرفي . وبظهور

(١) ١٤٧١ - ١٥٢٨ . الرسام والمصور والنقاش الألماني .

الإصلاح الديني بدأ تهب على النحاتين والنقاشيين ريح سوم ، ليس فقط لأن ألمانيا باتت أشد فقرًا بسبب الكشف عن الطرق الجديدة عبر المحيطات ، بل ولتحول أذهان الشعب الألماني إلى مسارب أخرى على أثر انغمار ألمانيا في بحر من الفوضى الدينية والاجتماعية . فقد أصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال ؛ وما له دلالة أن هولباين Holbein^(١) قد جأ إلى حماية البلاط الإنجليزي حين وجد أن بال لم تعد بأية حال البيئة المناسبة لرسام ألماني . لم ينفس الألمان عن طاقتهم الفنية في مجالات الرسم أو النحت أو حتى في الفن اللطيف ، فن النقش على الخشب ، وهو الذي كان يوماً هواية عامة من الطبيعي أن تجد مجالها لدى سكان بلاد تنمو بها الغابات ؛ فإن كتابات لوثر — وكأنها التراتيل — قد كشفت عن طريق جديد . وانكب الألمان على الموسيقى ، وما أوف القرن الثامن عشر على نهايةه حتى كانوا قادة أوروبا في هذا اللون من الفن الذي هو أكثر الفنون عالمية ، وهو اللغة الواحدة المشتركة بين الأديان جميعاً .

وعلى أي حال فقد كان ذلك مما يتوقع حدوثه . وإن الحياة الفكرية الألمانية ، قبل أن تهب عواصف النهاية ، لتمثل أصدق تمثيل في نفولاً كربس Krebs (١٤٠١ - ٦٤) الذي عرف بعد ذلك بالكاردينال كوزانوس ، نسبة إلى مسقط رأسه Cues في وادي الموز . في كوزانوس امتنزج اتجاه قوى من الديانة الصوفية ، قد ترجع جذورها إلى تعليمه المبكر في «أخوة الحياة المشتركة» في دفتر Deventer ، بخمسة إنساني وبلاعة السياسي وطلعة بحاثة تيتووني . درس كوزانوس في شبابه الرياضيات وقانون الكنيسة في جامعة پادوا ؛ حيث اختطاط بمجموعة من العلماء النابهين الذين كانوا في ذلك الوقت يحاولون اقتحام المعارف الرياضية والفلسفية واللغافية . ثم أتت بعد ذلك فورة من النشاط في وقتها لفتح أبواباً عددة على جانبي الألب للشباب الطموح : فعين كوزانوس سكرتيراً لأورسini Orsini أحد كبار رجال الدين الذي كان من نخبة المثقفين الإيطاليين ومثلاً للبابا في ألمانيا . وبذلك وجد نفسه في غمرة الأضواء الرئيسية التي أشعات جذوة الحركة الأدبية الإيطالية ،

(١) أنتجت أسرة هولباين (في أوجزبورج وبال) عدداً من الرسامين ، أبرزهم هانز الأكبر

(حوالى ١٤٦٠ - ١٥٢٤) وهانز الأصغر (١٤٩٧ - ١٥٤٣) .

فأصبح من أصدقاء توسكانيلي Toscanelli^(١) الحغراف وفاللا Valla^(٢) بحاثة التاريخ وپوجيو Poggio^(٣) مكتشف تاكيتوس . وبحماسة النحوى الحق كرس كوزانوس جهده للبحث في مكتبات الأديرة في موطنها الأصلى في إقليم الرين . ولم يمض طویل وقت حتى تكللت جهوده بكشف النقاب عن اثنى عشرة مسرحية من مسرحيات پلوتس Plautus^(٤) . ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة تريڤرانوس Treveranus (وقد لقب كربس بهذا اللقب لأنّه كان من مقاطعة تريف Trèves على الرين) في عالم المثقفين . وكوفي ذلك المكتشف المحظوظ لهذا العدد من الكوميديات اللاتينية التي تفيض بالفجور برقيته في سلك الكهنوت ؛ فحين نائب أسقف ثم رئيساً لأسقفية في التيرول ثم كاردينالا . وقد اكتسب كوزانوس بحسن تصرفه ومهما في القراءة وشخصيته السامقة أفكراً ألمعية ، ويصدق ذلك على الفترة التي كان فيها الروح الحرك لمجمع بال صدقه على الفترة التي كان فيها الساعد الأيمن للبابا يوحينيوس Eugenius الرابع . وفي كل الأعمال التي قام بها هذا الباحثة الذي لم يكن له جهد ، كنسخه الخطوطات اللاتينية في ألمانيا أو نقله نصوصاً إغريقية أتى بها معه من جبل آتونس ، أو في تعليقه على القرآن أو في الأطلس الذي وضعه لوسيط أوروبا — في كل ذلك كان هذا الرجل يستهلهم إحساس المسيحي الحق والأوربي الحق والألماني الحق . وإنّه لما يسترعى الانتباه أنه في رسالة كتبها في سن الثلاثين عن الوفاق الكاثوليكي قسا في الهجوم على مساوى الكنيسة ودعا إلى إنشاء جيش إمبراطوري كوسيلة لعلاج الفوضى الممسكة بخناق ألمانيا . والحق أنه لم يوجد أحد ، منذ ذلك الوقت حتى اكتوت ألمانيا بمذلة الفتح النايليف . يدعو إلى ذلك العلاج لنفس الداء من الفوضى والعجز الذي ظلت تعاني منه ألمانيا ، سوي جورس Gorres الألمع ، وهو ناشر ألماني آخر من منطقة الرين ، وإن لم تجد دعوته .

(١) ١٣٩٧ - ١٤٨٢ . رياضي وطبيب إيطالي ، ودم خريطة العالم يقال إن كوليبس استخدمها في رحلته إلى أمريكا في عام ١٤٩٢ .

(٢) حوالي ١٤٠٧ - ١٤٥٧ . الإنساني الإيطالي .

(٣) ١٢٨٠ - ١٤٥٩ . بحاثة إيطالي ظهر في عصر النهضة .

(٤) هو المؤلف المسرحي العظيم في روما القديمة . ولد ما بين ٢٥٤ - ٢٥١ ق . م وتوفى في عام ١٨٤ ق . م .

ويمتاز كوزانوس — كرجل دين — بصدق حماسته في الهجوم على فساد أخلاق رجال الدين الألمان والحرافات الوثنية التي كانت لا تزال منتشرة بين الفلاحين الألمان ، كما يمتاز بعدم اعتقاده باللجوء إلى القوة المسلحة للقضاء على الروح الوثنية ، وإيمانه بسلطان المعرفة وإحكام العقل وفصاحة الإنسان باعتبارها قوى لا غنى عنها في الشؤون الإنسانية . ومهما يكن الأمر ، فإن كوزانوس لا يعرف اليوم باعتباره إنسانياً أو رجل دين في محل الأول ، بل لأنه مؤلف « الجهة المتأصلة » الذي يقال إنه يمكن أن تستشف فيه بسلوقة مبادئ كثيرة موجهة من الفلسفة والعلوم الحديثة . ويرى كثير من الألمان المغالين في وطنيتهم أن كوزانوس هو الذي مهد الطريق لكل من كوبيرنوكس وديكارت وهيجيل . على أن الناس لا ينبغي أن يتوقعوا أن تكون مجموعة من الأبحاث الدينية الصوفية من وضع سياسي من رجال الدين شغل بأشياء كثيرة جهداً ارتياهياً في ميدان العلوم . ورغم أن أبحاث كوزانوس القائمة تشرق هنا وهناك بموضع براق عن الإلحاد المفضي إلى أغوار الكون الطبيعي ، وإذا كان تصويره « للمطلق » على نحو تنبعجم فيه المتناقضات العقلية يبدو جديداً ، فإن طريقته في التأليف كانت لا تزال تمت إلى طرائق العصور الوسطى . ذلك أن النتائج التي يؤكدها العلم الحديث قد توصل إليها كوزانوس بفرض لابد لأى عالم اليوم من أن يرميها بالخيال والمسخر . والأهمية الحقيقية لما قام به هذا العالم التيتووني اللدغوب هي أنها نرى فيه ذكاء خارقاً للتزم أساليب العصور الوسطى الألمانية تماماً ، ولكن أزكاه بالإشعاعات الأولى من العلم الإيطالي .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J. Janssen, Geschichte des deutschen Volkes seit dem Ausgang des Mittelalters. Tr. M.A. Mitchell & A.M. Christie (1896-1925).
- C. Ulmann, Reformatoren vor der Reformation. Tr. R. Menzies. 2 vols. (1855).
- F.A. Gasquet, The Eve of the Reformation. (1905).
- F. Paulsen, Geschichte des gelehrten Unterrichts auf den deutschen Schulen und Universitäten. (1885-96).
- E. Müntz, Histoire de l'Art pendant la Renaissance. (1889-95).
- W.B. Scott, Albrecht Dürer, his life and works. (1869).
- L. Geiger, Renaissance und Humanismus in Italien und Deutschland. (1882).
- A.D. Vandam, Social Germany in Luther's Time, being the Memoirs of Bartholomew Sastrow. (1902 - abridged). With preface by H.A.L. Fisher.
- W. Bode, Geschichte der deutschen Plastik. (1885).
- Cecil Headlam, Peter Vischer. (1901).
- Sprenger, Albrecht Dürer.
- B.A. Duan, Ada, Krafft und seine zeit. (1896).

الفصل الخامس

ملكية جديدة في إنجلترا

حروب الوردين - أصواتا - هنري السادس وإدوارد الرابع - نتائجها الاجتماعية والاقتصادية - أهمية حكم هنري تيودور - أول مستمرة إنجليزية .

اندلعت حروب الوردين بعد عامين من طرد الإنجليز من فرنسا في عام ١٤٥٣ وإنه لم من الصعب أن تصور نكبات عامة أنكى من نشوب نضال داخلي طويل بعد الفشل في حرب خارجية ؛ ولكن المهمة وال الحرب الأهلية قد تضمنتا مع ذلك خيراً : فإن إنجلترا بعد أن تخلت تماماً عن محاولتها الفاشلة احتلال فرنسا استطاعت أن تجد طريق الصواب لتطورها في بسط نفوذها على الجزر البريطانية والتوسيع في تجاراتها وصناعتها وتأسيس المستعمرات فيها وراء المحيط . ويرجع نجاحها في الاضطلاع بمثل هذه التبعات إلى أن حروب الوردين قطعت دابر الإقطاع من الجهاز السياسي للدولة بشكل موفق لا نظير له في بلد آخر .

ويختلف الصراع بين أسرتي يورك ولانكستر المتصارعين اختلافاً أساسياً عن القلاقل الإقطاعية الناشبة في القارة الأوربية في تلك الفترة ؛ إذ أن كلاً الفريقين الإنجليزيين كانوا يسلمان بوحدة المملكة وبنظام الحكومة القائم على الملك والمجلس والبرلمان وهو النظام الذي توارثته إنجلترا منذ زمن بعيد . ولم يكن هدف أتباع أسرة يورك في إبان المراحل الأولى للحرب هو انتزاع مقاطعات واسعة على نحو ما حاولت «عصبة الصالح العام» أن تفعله في فرنسا ، ولم يكن هدفهم كذلك شل السلطة الملكية تماماً كما كان الحال في ألمانيا ، أو تنفيذ أية خطة محددة للإصلاح الدستوري ؛ بل كان هدفهم شق طريقهم بالقوة إلى مجلس الملك ، وعن طريق سيطرتهم على المجلس يتسلى لهم حكم البلاد . ولن يستطيع أي الفريقين أن يدعى أنه التزم سياسة ممزوجة عن الهوى تهدف لخدمة الصالح العام - فإن المنازعات العائلية الخاصة ، وعلى وجه الخصوص المنازعات القائمة بين الأسرات

الكبير في مناقع حدود ويلاز ، وفوضى الحرب وال الحاجة إلى تشغيل عصابات وفيرة من الأتباع المسلمين الذين أدى توقف الحروب الفونسية إلى تركهم بلا عمل – كل هذه كانت عوامل هامة في حروب الوردين . ومع ذلك فإن من الإجحاف أن نذكر على الزعماء في هذا الصراع الوحشى كل اهتمام بالصالح القوى . فالحرب بين أسرى يورك ولانكستر لم تكن عقيبة تماماً ؛ بل إنها نشبت من الصراع على قضية كانت أخطر القضايا العامة : وهي قضية الحرب أو السلام . فقد عزم هنري السادس وزيره سفولك Suffolk على إنهاء الحرب الفونسية المؤسفة التي كان جلوستر ورثشارد أوف يورك متحدين للاستمرار فيها ، وقبلت معاهدة تور (١٤٤٤) التي قام سفولك بإجراء مفاوضاتها باحتقار مزدوج حين عرف أنها نصت على التخلّي لفرنسا عن كاليه وعلى زواج ملك إنجلترا إحدى بناته، العلوي وهى مارجريت أنجو . وهكذا ساد جو من الكراهة والشك في كل حصن من حصون البلاد وأثار مشاكل حادة : عمل أو تبطل ؛ مخاطرة أو برم بالحرب ؛ جنوح إلى الشهوة أو تحكم العقل ؛ محاولة فجّة لإحياء أمجاد قديمة أو قبول تحزّر لمزية لا محيسن عنها . وتختضن هذا النزاع عن جو عنيف من الكراهة والخذلان . وكانت النهاية المفاجئة العنيفة التي ختمت حياة كل من جلوستر العدو الشخصي للملكة فرنسا وسفولك الذي مثل للشعب ككثير الفداء في هذا الصالح الخزى – كانت هذه النهاية بداية عهد من الرعب وسفك الدماء وأحكام الإعدام ، مما لطخ بالعار الأيام الأخيرة من إنجلترا الكاثوليكية .

ولإذا كان حزب يورك هو أول من بلأ إلى السلاح ، فإن رجاله برروا ذلك بالذلة التي لقيتها البلاد في الخارج وسوء الأحوال في الداخل . وجّه اللوم إلى حزب لانكستر لضياع ما كان وإنجلترا من أملاك في فرنسا ؛ ولم يستطع تدین هنري السادس الواضح ولا مؤسساته التعليمية الجديدة في إيتون وكينيدج أن تمحّب في نظر معاصريه سياساته الخارجية المزرية وشخصيته الضعيفة وعلام الجنون التي كانت تظهر عليه أحياناً ؛ كما أنها لم تحل دون الكراهة الشديدة التي ووجهت بها زوجته الفونسية التي سيطرت عليه . وبعد أن هزم ذلك الأئم في توتون Towton (١٤٦١) تابعت عليه المأسى بعد أن عاش حياة لا غبار عليها ، فمن مرير ،

إلى سجن خشن ، ثم ميّة قاسية رهيبة .

وعلى عكس ذلك القديس اللانكستر الain الذي كان لا حول له ولا طول ؛ كان قاتله زعيم آل يورك يتميّز بطراف في فن الحكم أحدث وأكفاً أخذ الآن مكانه في الطليعة في دول أوربا الآخنة بأسباب التقدم نتيجة لازدياد أهمية الصناعة والتجارة . وإدوارد الرابع (١٤٦١ - ٨٣) لم يكن ذواقة لفن كلورنزو مدشيشي ، ولا عبقريّاً في الدبلوماسية كلويس الحادى عشر ، ولكنه كان جنديّاً كفشاً أنيق المظهر ذا خلال محببة ، يتمتع بتلك الفطرة السليمية التي عرف بها رجال الطبقة الوسطى ، وهي الفطرة التي حملت عقلاء ذلك العصر على تقدير أهمية العمل لترويج مصالح أصحاب المال وكسب تأييدهم . ولا كان إدوارد الرابع ميالاً إلى جمع ما يلزمه من الموارد بأقل ما يمكن من المتاعب له ولغيره ، فإنه اقتصر في جمع البرلمان مفضلاً على الضرائب التي كانت تجمع بطريقة عقيمة وعلى نطاق واسع اتباع طريقة مباشرة بفرضه الضرائب على الأغنياء . ولكن إدوارد جمع إلى صفاته الجاذبة بعض الأخطاء الفادحة : فأخلاقه - حتى بمقاييس ذلك العصر - كانت متحللة بشكل مزر ، وهتمه غير منتظمة ، وبخله شديد ؛ كما أنه أضاف إلى جريمة الاغتيال السياسي (ما فيها قتل الإخوة) أعظم خطأ توج به أخطاءه في شعب تحكمه مقتضيات العرف الاجتماعي ، وهو زواجه من غير طبقته . وقد استنكر نبلاء إنجلترا ، الذين لم يغروا لإدوارد الثاني إطلاقاً انشغاله بصناعة الأقفال والبناء والملاحة ، استنكروا زواج إدوارد الرابع سراً من ابنة أسرة محدثة . إذ لم يستطع جمال إليزابيث وودفيل Elizabeth Woodville أن يغطى على أصل والدها ؛ فهو رغم زواجه بإحدى المدققات ، قد بدأ حياته بدأية متواضعة كفارس . ورزحت أسرة يورك تحت عبء هذا الزواج غير المتكافئ : وعندما توفى إدوارد في سن الأربعين نتيجة انهماكه في المذلات ، لم يجد أبناء الملكة غير المحبوبة سداً من الولاء أو الحماسة يحميهم . وقد أحسن عمهم رشاد الذى اغتصب العرش باعتقاده أن البلد غير مستعد لبذل أية تضحية جسميمة لصالح إدوارد الخامس وأخيه الحدث . ومع ذلك فإن فظائع الحرب الأهلية لم تكن قد حجرت قلب الشعب الإنجليزى تماماً بحيث يقبل قتل هذين الطفلين فى برج لندن دون احتجاج .
أصول التاريخ الأورب

ولم تندى العم الشاذ والملك المغتصب شجاعته ولا مقدرته ، فاتجهت الرغبة إلى إزالة عن العرش ، ودبرت المؤامرات لتحقيق ذلك ليس فقط من جانب حزب لانكستر ، بل أيضاً من جانب فريق كبير من حزب يورك ذاته . وعلى ساحة بوسورث فيلد Bosworth Field (١٤٨٥) ، استطاع هنري تيودور ، وهو ابن سيد من ريف وياز ولكنه سليل جون أوف جونت John of Gaunt Margaret Beaufort والمطالب الوحيد بالملك البالغ من حزب لانكستر ، استطاع أن يضع نهاية لرتشارد وأتباعه من حزب يورك ، وأن يؤسس الأسرة القوية التي قدر لها أن تقود إنجلترا عبر المصاعب الدينية والسياسية التي اتسمت بها الحقبة التالية^(١) . انتهت حروب الوردين بعد أن استنزفت الأристقراطية الإنجليزية دماءها وشارفت على الملاك . ومع أن الضال العنيف قد جرى على رقعة واسعة من البلاد وكلفها مائة ألف نفس ، فإن آثاره الاجتماعية والاقتصادية كانت محدودة تماماً . ولم تهم أية مدينة إنجليزية بهذا النزاع بين الفريقين إلى درجة أن تصمد لحصار . أما الجيوش التي كانت تقطع أوصال بعضها البعض بالحراب أو تتقاذف بالبنال أو تتبادل بمهارة أقل وتكليف أكثر طلقات مدافعتها الحديدة الصهر على أيدي مدعيين محترفين – هذه الجيوش لم تجمع من سكان المدن وأهل الفلاح ، ولكنها تكونت من كبار النساء وأتباعهم المأجورين . ولم يتأثر تقدم البلاد الاجتماعي بهذه الاضطرابات كما يتadar إلى الذهن ؛ فإن الشجار الناشب بين أسرتي برسلي Percy ومورتيمر Mortimer ، أو بين أسرتي نيفيل Neville وموبرى Mowbray لم يكن يعني إلا القليل للعامة ورجال الحرف والتجار . وسارت التجارة في طريقها المعبد ، وجمعت ثروات ، وبني الأغنياء ببيوتاً من الأجر أو الحجر لسكنهم الخاص ، أو شادوا الملابج والكلبات خلاص أرواحهم ، وببدأ لسير جون فورتسكيو Sir John Fortescue^(٢) أن الفلاحين الإنجليز أسعد حظاً من فلاحي فرنسا لأنهم أكثر رخاء ؛ وأخذت تختنى باطراد طبقة الأقنان الإقطاعيين ، وذلك تحت ضغط العوامل الاقتصادية الجديدة . ولكن هذه الحرب الأهلية الطويلة صاحبتها إحدى

(١) انظر ثبت الأنساب (١) .

(٢) حوالي ١٣٩٤ - ١٤٧٦ . مشروع إنجليزي اختلف مع الملك هنري الثامن الذي عزله من منصبه التقاضي العام ثم صالحه بعد ذلك .

المصائب الكبرى التي يمكن أن تنزل مجتمع منظم : فإنها شلت سير العدالة البريطانية وإن لم تحطم جهازها . استمر القضاة في حضور الجلسات القضائية الدورية التي كانت تعقد في كل مقاطعة بدورها ، ولا زالت محاكم الملك تعقد جلساتها في وستمنستر ، وظل العمدة (sheriff) يعقد مجلس مستشاريه ، كما واصل « قضاة التحقيق » جلساتهم القصيرة ، واجتذبواهم الدورية كل ثلاثة شهور . ولما زال المحلفون المتهيرون يدعون إلى القيام بهمائهم ويعاقبون على عدم الحضور . ومع ذلك كان القضاة يتعرضون للتهديد في كل حالة تتصل بمصالح صاحب أرض ذي نفوذ أو بمصالح أتباعه . واللوائح التي كانت تحرم كسوة الأتباع وإعاليهم ظلت عاجزة عن الحد من شر فاضح ، وإن كان قد أصبح أمراً شائعاً . ذلك أنه حين كانت تنظر المحاكم الدورية قضايا خاصة بأسرتين كبيرتين ، جرت العادة أن يركب رجال الفريقين المتخصصين المسلحون خيولهم ، وقد حملوا شارات الارادات الذين يعلوونهم ، ويقتربون المدينة التي تعقد فيها المحكمة لإرهاب المحلفين والمضاة . ومن هنا لم تستطع يد العدالة أن تمتد إلى أى شرير مجرم طالما كان في حماية النبلاء ذوى السلطان .

ورغم ذلك فيما له دلالته أنه على الرغم مما اتسم به ذلك العصر من الاضطرابات والعنف ، فإن كاتباً مثل فورتسكيو Fortescue استطاع أن ينذر بقوانين بلاده ودستورها . كان الإنجليزي حبيباً يألف المقاضاة ، وهى سمة لازمهم فيما بعد . وكانت المحاماة حينئذ ، كما هي الآن ، مهنة متيبة بالنفوذ والمحافظة ؛ وكان المحامي فخوراً بعلمه الملىء بالأسرار شغوفاً بشرف مهنته وعلوه مكانتها . وإن ما صاحب الحرب الأهلية من عنف وتواطئ أحكام الإعدام خلال ذلك العصر العاصف لم يمح ذكرى الأيام الأولى من حكم أسرة لانكستر حين كانت البرلمانات تجتمع باستمرار وحين كان القانون يأخذ مجراه والسابق الدستورية تتراجع إلى الأجيال المقبلة . وظلت تقاليد الحكومة البرلانية قائمة رغم أن البرلمانات تحت حكم إدوارد الرابع لم تعمل أكثر من إقرار حالات التجريد من الحقوق المدنية أو التغاضي عن القتل والمصادرة . ولكن العدالة في الأقاليم كانت قد انهارت تحت وطأة الإرهاب المتفشى فيها .

وطلبت إعادة حكم القانون إقامة نظام جديد من الإجراءات الجنائية بحيث

يلقى كلّ كبير يخوض القانون جزاءه العدل بعد إزالة ذلك الكابوس الذي كان يشل السادة الخلفين البؤساء الذين كان الفزع أو الجشع على عليهم أحکامهم.

وترجع أهمية حكم هنري تيودور (١٤٨٥ - ١٥٠٩) إلى تأكيده سلطان الدولة القومية على فوضى الإقطاع ، وأنه بزواجه من إليزابيث أوف يورك ، ابنة إدوارد الرابع ، قد أظهر للبلاد أن النزاع الحاد بين الأسرتين المتناحرتين قد آذن بالاتساع . ومنذ ذلك الوقت رحبت البلاد بالبشائر الجديدة للسلام ، بغض النظر عن بقايا من أسرة يورك لم يتثن تأليفها ، وكانت تلتقي تعصيًّا في أيرلندا والفلاندر، واقتصرت خطورتها على تحالفها مع الأجانب . وقد أمكن قمع الثورتين اللتين قام بهما الدعيان لامبرت سيم Lambert Simmel وپيركين ووربلوك Perkin Warbeck ، أمكن قمعهما الواحدة تلو الأخرى بنجاح أسهل ، لأنـه — كما قال بيكون — « كان أمراً بغيضاً بالنسبة إلى سكان إنجلترا أن يحكمهم ملك تحمله عليهم حرب الأيرلنديين والمولنديين ». ولم يكن هنري تيودور جيش ثابت ، ورغم أنه — كما لاحظ سفير إسباني — كان يود أن يحكم إنجلترا على الطريقة الفرنسية ، فإنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ؛ فقله كان منذ البداية من الحصانة بخيث استشف أن أسرته لن يقدر لها البقاء إلا برضى من الشعب الإنجليزي .

وليس هناك ما هو أكثر إغراء للباحثين في علوم السياسة من دراسة العملية التي عادت بها تدريجياً إلى السلام والعقل أمة أفسدها عهد طويل من الصراع المشوب بالحقد الشديد . وطنه الغاية كرس هنري السابع اهتمامه . وإن من الملوك من هو أشد منه بهاء ، ولكن لن تجد من هو أجيالى من ذلك العاهل الحريرص الدعوب الذى استطاع بتصرفه الحكيم وسهره على شئون البلاد أن يجتنب نهائياً سوم آخر حرب إقطاعية من كيان البلاد القوى . ورغم أن حكمه كان أوتوقراطياً ، فإنه كان خلواً من شرور الحكم المطلق ؛ فلم يجد غيرة من الرجال الأكفاء أو شيئاً من مركبات العظمة ، ولم يتخد له بطانة من أصحاب الحظوة . فقد كان مستشاروه إما رفاق شبابه في المني من خبرهم ، أو محامين أكفاء ، أو رجالاً مثل هورتون Horton وفوكس Fox أو وورهام Warham من سما بهم ذكائهم وشخصياتهم بفضل المجال

الديمقراطي الذي هيأته الكنيسة . وقد كان من المستحسن صراحة أن يفوض الملك إمسپون Empson وددمي Dudley اتهاب أملات البلاعبلام من اتباع ماجرت به العادة في فرنسا من إعطاء الطبقة الأرستقراطية ميزة الإعفاء من الضرائب الملكية . ولم يوجه أحد من المعاصرين اللوم إلى هنري لاقتصاداته في دعوة البرلمان . وفي هذا العصر كان الناس يفضلون العدالة العامة على التمتع بالحرية السياسية الذي كان أمراً صعب المنال ، وفيه ارتفع مستوى القضاء . وأخيراً كانت « قاعدة النجم » التي أقامها هنري محكمة يرجف لسلطتها أكبر نبيل في البلاد .

ولم يكن تولي أسرة تيودور يعني اعتزال إنجلترا ، ولا كان يستطيع فرض العزلة عليها . فإن هنري في سبيل حماية نفسه اضطر إلى البحث عن محالفات خارجية وإلى الاهتمام بمصالح إنجلترا في أيرلندا وأسكتلند ، وهما – كما أظهرت ذلك قصة ثورة آل يورك – البلدان اللذان كان من الممكن أن يشن منها هجوم عدائي . لهذا زوج ولـي العهد من كاترين أميرة أرجونة وزوجت مارجريت ابنة الملك بحيمس الرابع ملك أسكتلند ؛ وفي الوقت نفسه بدأ في عام ١٤٩٤ ذلك العمل الطويل لإعادة سلطة إنجلترا على أيرلندا ، وهو العمل الذي توج بالاتحاد البرياني بين الدولتين في عام ١٨٠٠ ، وقد بدأ بإصدار قانون (قانون پويننج Poyning) أخضع القسم الشمالي من أيرلندا التابع لإنجلترا للمجلس الخاص في لندن .

و قبل أن ينتهي القرن الخامس عشر أفلع أحد البحارة الجنوبيين واسمـه جون كابوت John Cabot من برستول برقـصة من الملك (١٤٩٦) على ظهر سفينة من غرب إنجلترا بصحبة بحارة من غرب إنجلترا أيضاً ، ثم عاد بالـباـثـير : أنه لامس أرضاً في الطرف الآخر من الأطلنطي . وترجع نـيـوفـونـدـلـانـد ، وهـىـ أـقـامـةـ مـيـنـلـكـاتـ النـاجـ الـبـرـيـطـانـيـ ، إـلـىـ حـكـمـ هـنـرـيـ السـابـعـ حينـ أـمـكـنـ لأـوـلـ مـرـةـ أـنـ تـسـتـشـفـ مـعـالـمـ الدـوـرـ الذـىـ قـيـصـ لـإـنـجـلـتـرـاـ أـنـ تـلـعـبـهـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ كـدـوـلـةـ تـتـمـتـعـ بـالـنـفـوذـ الـعـالـبـ فـيـ الـجـزـائـرـ الـبـرـيـطـانـيـ ، وـتـرـتـبـطـ اـرـتـبـاطـاـ وـثـيقـاـ بـالـقـارـةـ الـأـورـبـيـةـ ، وـكـذـلـكـ تـدـفعـهـ رـوحـ الـخـاطـرـةـ الـتـجـارـيـةـ وـالـبـحـرـيـةـ إـلـىـ آـفـاقـ وـاسـعـةـ فـيـ وـرـاءـ الـبـحـارـ .

كتب يمكن الرجوع إليها

- James Gardiner, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIV.
- Vickers, England in the Later Middle Ages. (1913).
- Sir John Fortescue, Governance of England. Ed. C. Plummer. (1885).
- Paston Letters. Ed. J. Gardiner, 4 vols. (1900-1).
- J.A. Froude, Life and Letters of Erasmus. (1894).
- P.S. Allen, The Age of Erasmus. (1914).
- Erasmi Epistolae. Ed. P.S. Allen. (1906-1938).
- H.A.L. Fisher, History of England, 1509-47. Longmans. (1910).
- Francis Bacon, History of the Reign of King Henry VII. Ed. J.R. Lumby. (1876).
- C.L. Kingsford, Prejudice and Promise in Fifteenth Century England. (1925).

الفصل السادس

تنافس فرنسا وإسبانيا على إيطاليا

شارل الثامن وإيطاليا - مخاطرة إسبانيا - اتحاد أرجونة وشتالة - غلبة الدين في إسبانيا وتوسيعها السياسي - العلاقات بين إسبانيا والبرتغال - معاهدة تورديسillas - ارتباط إسبانيا والفلاندر عن طريق الزواج - النتائج البعيدة المدى لهذا الارتباط بالنسبة إلى أوروبا والعالم - غزوات الفرنسيين لإيطاليا (١٤٩٤ - ١٥٥٩) . إسكندر السادس ومخازى روما - الروح الجديدة القائمة على الاحتكام إلى العقل وإدراكه .

وصلنا الآن إلى فترة من التاريخ الأوروبي ثبت مدى ضعف الارتباطات الدينية والجنسية والثقافية إزاء مطامع البشر وحبهم المفرط للحرب . كانت إسبانيا وفرنسا قرب نهاية القرن الخامس عشر في طليعة الدول اللاتينية والكاثوليكية في الغرب ؛ تربطهما روابط الجنس والدين والترااث المشترك من اللغة والآداب الرومانسية . كما أنهما كانتا قد بلغتا مستوى عاماً من الثقافة يفوق كثيراً ذلك المستوى السائد في شرق أوروبا ، إن يكن أدنى من مستوى الثقافة الإيطالية بشكل واضح . وكان الأتراك يعتبرون الأعداء الألداء لهذه الحضارة اللاتينية المسيحية ؛ ولما كان الأتراك يسيطرون على شرق البحر المتوسط ويهددون شواطئ إيطاليا وإسبانيا ، فقد كان من المحتمل أن يكون تكوين عصبة لاتينية لحمايةهم الشغل الشاغل للدببلوماسية الغربية . ولكن ذلك لم يحدث . فبدلاً من اتحاد الدول اللاتينية ضد الخطر الإسلامي ، اشتبكت مع بعضها البعض في معارك عنيفة . وكانت إيطاليا جائزة النصر ، كما كانت ميدان الصراع . ومن مساخر التاريخ القاسي أن هذه البلاد ، التي تمنتت بموجة دافقة لم تكدر تقطع من الحضارة الإسلامية النادرة ، اطلعت البشرية من خلالها على ذرى جديدة من التفوق الفنى ، قد قيض لها أن تصبح في خلال أكثر من ستين عاماً - ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسية والإسبانية .

وإيطاليون مسؤولون عن ذلك بعض الشيء ؛ إذ أن السبب الرئيسي للمسألة هو الخلافات الناشئة في إيطاليا ذاتها . حقاً تمنتت إيطاليا بعهد طويل من السلام ؛

فإن الخصومات المحلية التي كان يقوم بها الجندي المرتزقة كادت تخلو من الدماء ، ولكن هذا السلام الطويل ، وإن حما ذكريات الحرب البشرية ، لم يقرب بين الإيطاليين بحث ت تكون لهم عقلية مشتركة . كانت إيطاليا لا تزال على عهدها أيام ذاتي : دولة تتآمر على دولة . وكان الإيطاليون لا يزالون يؤمنون بهذه الفكرة المحببة إليهم — وهي فكرة جديرة بأهل الفن — وهى أن من الخير إسناط المعارض إلى العصابات المتطاحنة من الجندي المرتزقة . أما أن تكون هذه القوة المرتزقة صغيرة أو كبيرة ، محلية أو أجنبية ، فلم يكدر يكون مسألة مبدأ في وقت كانت فيه المشاعر الوطنية ضعيفة لدى الإيطاليين . ولكن كان أمراً بالغ الخطورة بالنسبة لإيطاليا ومصدر متابعة كثيرة في المستقبل حين انضم لدفيكيو سفورزا Ludovico Sforza الوصي القوي على ميلان ، إلى رعايا فرانتي Ferranti حاكم نابولي الساخطين ، واستصرخ شارل الثامن ملك فرنسا لكي يحيى ادعاء آل أنجو القديم في مملكة نابولي — وكان ذلك أمراً خطيراً جداً بالنسبة إلى إيطاليا ومصدراً لكثير من المتاعب المستقبلة . ولم يكن ثمة ما يمكن الدفاع به عن فرانتي ؛ فقد كان شخصاً فظاً خطراً دنيء النفس . ولكن جيشاً فرنسيّاً كان شيئاً آخر غير الجندي المرتزقة : فهو يحارب ليقتل ؛ ولما كان فرانتي يتسمى إلى البيت المالك في أرجونة ، وإن يكن من فرع غير شرعى ، فإن سقوط أسرته لم يكن ليحدث دون أن يسترعى انتباه ملك إسبانيا .

وفي أكثر من مناسبة في تاريخ فرنسا ارتفعت الصرخة المنبهة لاحضر الداعية « إن فرنسا متبرمة La France s'ennuie ». وكذلك كان الحال في عام ١٤٩٤ . ولم يكن حكم لويس الحادى عشر ، وإن حفل بالنكالب الراسخة ، براقاً بدرجة تكفي لإبهاج أرستقراطية فارغة تميل إلى ركوب المخاطر . ثم قامت ثورة صاحبة — عرفت باسم « الحرب الحمقاء la guerre folle » — عكرت صفو الوصايا الرشيدة التي كانت تقوم بها ابنته آن بوجيه Anne de Beaujeu ، ونبهت أحدها الأصغر شارل — ولـى العهد — إلى أنه إذا أراد أن يحكم فعلاً ، عليه أن يظهر الروح الرياضية التي تنتظرها من ملوكها أرستقراطية فرنسية تتقد حماسة .

وكان خوض غمار حرب في إيطاليا أكثر المخاطرات جاذبية . فلم يكن ثمة ما يغرى طموح الشباب أكثر من توقيع سير ركبهم في موكب للفرسان وهم يرتدون

حللهم الحربية البراقة تحت قبة إيطاليا الزرقاء عابرين بلا دأجميلة قد تتعرض بفعل خلافاتها الداخلية للوقوع فريسة في يد الأتراك أو الإسبان ، ما لم ينتشلاها فرسان فرنسا من هذا المصير .

وحروب (المتعة) لا يعززها على الإطلاق عندهم جدوى . فالأتراك كانوا قد استولوا على أوترانتو بالفعل بعض الوقت . وكان حكام أرجونة يحكمون نابولي التي كانت يوماً ما ملكاً لآل أنجو (١٤٤٢-١٢٨٣) ؛ على حين كان يشك في أن الإمبراطور مكسميليان - زوجته الثانية هي بيانكا من آل سفورزا Bianca Sforza — يدبّر خططه للاستيلاء على دوقية ميلان الغنية التي كان أمراء أسرة أورليان يعتبرونها — منذ وقت طويل — غنيمة لا بد واقعة في النهاية في أيديهم . وكان في يد شارل الثامن ملك فرنسا — وهو شاب أحذب ماجن يشك في قواه العقلية — أقوى مدفعية في أوروبا . ورغم أن كل العقلاة من ذوي الرأي في باريس كانوا يعتقدون على المغامرة الإيطالية لأن الملكة لم تكن وثيقة العرى وأحوالها المالية مضطربة ، ولأن الأسطول الصالح للخدمة في البحر المتوسط كان لا يعتد به — رغم ذلك كله استسلم الملك لإغراء من استولوا على مسامعه ، من توافدوا عليه من ميلان وفلورنسة وروما وكلايريا ، يبشرون شكاواهم وأمامهم ويقدمون له رشاواهم . فهو سيدخل إيطاليا ليس ك مجرد غاز ، أو ك مجرد مطالب بميراثه في نابولي ؛ بل إنه سيدخلها ونجم الحرية يلمع فوق بنوده . قيل له إن الإيطاليين الذين يشنون من الطغيان سيتقاطرون على معسكره ، وإنهم سيحملون خزائنه بالأموال ، وإنه سيعيد الحكم الجمهوري إلى فلورنسة ويطرد الأرجونيين من نابولي . ومن يدرى لعله ، وقد خرت إيطاليا المعرفة بالجميل ساجدة له ، سيطرد الأتراك من أوروبا ويضع الناج الإمبراطوري فوق جبينه المكبل بالغار . قيل له أيضاً إن خيالاته الذين جمعوا من نبلاء فرنسا وأشرافها ، وإن مقاتليه المرهبين من حاملي الحراب والبلط من أئمّة من سويسرا وألمانيا ، وإن رماته الغسقونيين ومدفعيته الخفيفة السريعة الإطلاق ، وهي آخر ما وُفِّقت إليه المهارة الميكانيكية الفرنسية — قيل له إن هذا كله سيأخذ بلب أوروبا بحيث لن تنمساه سريعاً .

واتخذت الاحتياطات الدبلوماسية الكافية . كان شارل في مأمن من الهجوم

من جهة الشمال الغربي ، وذلك لأنه بفضل تدبير أخيه الوصي قد تزوج في عام ١٤٩١ من آن وريثة عرش بريطاني . ولكن يعبر جبال الألب وهو خالو من المخاوف ، اشتري رضى إسبانيا بالتنازل لها عن كرданى Cerdagne وروسيون Rousillon (وهما مقاطعتان على حافة البرانس كان هنا الثاني الأرجوف قد رهمها للويس الحادى عشر) ؛ وكذلك أمن حدوده الشرقية بالتنازل للإمبراطور عن مقاطعة فرانش كونتية Franche Comté . ورغم هذا الإسراف في التنازل عن الأراضى ، فقد كان ثمة مسألة عجز شارل عن أن يجد لها علاجًا . تلك هي مسألة نابولى ؛ فما من ملك لإسبانيا يرضى بوجود الفرنسيين في نابولى : فالمأساة لم تكن مسألة شرف فحسب ، بل كانت صقلية بفائزها من القسمح تسد دائئمًا العجز في محاصيل إسبانيا المهزيلة .

وما زاد في مخاطر المغامرة الإيطالية — وهي المخاطر التي كانت عظيمة على أي حال ؛ إذ لا يوجد بلد متحضر آهل بالسكان يخضع برضاه لغزو أرضه على يد ثلاثة ألفًا من الجناد الأجانب الماجنيين — حدوث تغيير وقى في ظروف إسبانيا السياسية قبل ذلك بوقت قصير . فإن دولة أرجونة البحريّة ، وهي الدولة التي كان بختارها وتجارها معروفيـن في كل موانى البحر المتوسط ، وقد اتحدت مع مملكة قشتالة بعد زواج فرديناند وإيزابلا في عام ١٤٦٩ . وليس من المتوقع أن يكون اتحاد سياسى مبني على الزواج مدعاه لتغيير سيكلوجية شعوب مختلفـين . ذلك أن سكان قطالونية ، التي هي أغنى وأهم مقاطعات مملكة أرجونة ، لم يتم إطلاقاً اندماجهم في أهل قشتالة الذين يفصلـهم عنـهم اختلاف اللغة وكل تلك الاختلافات العميقـة التي تفصل المزارعين عن ركاب البحر والتجار عن الفلاحـين والنبلاء عن سكان المدن ويجتمعـها يـقوم على نشاط عـالـى واسـع عن مجـتمع يعيشـ معظمـ أهـله يـملـؤـهم الرـهـوـ وينـعمـونـ بالـعزلـةـ علىـ نـجـادـ عـالـيـةـ فـيـ الدـاخـلـ . ولكنـ علىـ حينـ أنـ قـطـالـونـيـةـ لمـ تـسـتـسـلـمـ قـطـ لـنـيـرـ قـشـتـالـةـ ، فإنـ زـواـجـ فـرـدـنـانـدـ حـاـكـمـ أـرجـونـةـ مـنـ إـيزـابـلـاحـاكـمـ قـشـتـالـةـ كـانـتـ لهـ مـزاـياـ بـلغـ منـ أـهمـيـتهاـ أـهـمـاـ ظـلتـ باـقـيـةـ عـلـىـ الزـمـنـ . فـقدـ تـرـتـبـ عـلـىـ هـذـاـ الـاتـحادـ أـنـ أـصـبـحـ إـسـپـانـيـاـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ دـوـلـةـ أـورـيـةـ عـظـمـىـ قـوـيـةـ فـيـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ ، وـسـمـتـ إـلـىـ مـكـانـةـ مـنـ التـفـوقـ وـالـهـابـةـ فـيـ الـعـالـمـ اـسـتـمـرـتـ إـلـىـ نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ السـادـسـ عـشـرـ .

وـآنـ الـآنـ لـأـطـمـاعـ أـرجـونـةـ الـتـىـ لـاـ تـهـدـأـ ، وـهـىـ الـدـوـلـةـ الـتـىـ اـسـتـولـتـ أـسـاطـيـلـهـاـ عـلـىـ

مالك في جزائر البليار وصقلية ونابولي ، أن يدعمها مشاة جمعوا من حقول قشتالة ومدنها العالية . ولكن المزايا التي ترتب على اتحاد إسبانيا لم تكن موضع تقدير ؛ فقد طبق لون من النظام على شعب يميل للعصيان ولا يخضع لنظام ، وتم ذلك على أيدي قوة مشتركة من ملكية قوية وكنيسة موالية . وبالتدريج حل محل النزعات المحلية المتناوبة تفكير أرحب أفقاً يتحرى حاجات إسبانيا وما تتيحه الدنيا الواسعة من فرص وإمكانيات . ولكن كان للمسألة وجه آخر . فإنه لما كانت إسبانيا قد ورثت سياسة أرجونة في إيطاليا ، كان لزاماً عليها أن تقوم بسلسلة طويلة من الحروب في إيطاليا كانت وخيمة العاقبة لها بقدر ما كانت ضارة لإيطاليا .

ذلك أن إيزابلا ، وهي من أكثر النساء اللاتي عرفهن التاريخ ضيقاً ، وإن تكون أيضاً من أكثرهن نفوذاً ، كانت كاثوليكية متغصبة . ومن أول الأعمال الباهرة التي قامت بها المملكة الإسبانية المتحدة الاستيلاء على دولة غرناطة الصغيرة ، وهي الدولة التي كانت تحت حكم سادتها المسلمين المستورين قد وصلت إلى درجة من الرخاء والحضارة لا نظير لها في أي بلد آخر في شبه جزيرة أيبيريا ، بل في قليل من أسعده مناطق فرنسا وإيطاليا حظاً . هل كان القضاء على هذه الدولة الإسلامية نعمة أم نعمة ؟ هذه مسألة يمكن المناقضة فيها بأساليب وحجج مختلفة . ولكن من دواعي الحكمة – على الأقل – أن نذكر أن مسلحي إسبانيا – بعكس الأتراك العثمانيين – قد استجابوا لدواعي الفن والعلوم والفناسفة ، وأن حكمهم قد تميز بالتسامح ، وأن دولتهم كانت ضعيفة لا تصر أحداً ، وأن طردهم من الأرضي الأوروبية أمام الضغط الملح من جانب إيزابلا ، كان الخطوة الأولى في سلسلة مستمرة من الاضطهاد الديني نالت باستمرار من قوة إسبانيا وحيويتها .

قد تبدو هذه السياسة بغية في عصر يتسم بالتسامح ؛ ولكنها لم تثر اعتراضاً من جانب رعايا فرناندو وإيزابلا المسيحيين . فقد كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية محل قبول في كل مكان ، ولم ينكر أحد في أي مكان المبدأ القائل بأن واجب الدولة المسيحية أن تقضي على المهرطقة في داخل حدودها . وعلى حين كان الناس يدافعون بحرارة عن حرياتهم المحلية ، ولم تجد قضية حرية الفكر المقدسة من يعطف عليها أو يثيرها .

وهكذا كان الإدراك الغريزي العميق لحاجات البلاد السياسية معاوناً على دعم القوى الدينية المحافظة في بلد انتبهت سياسته الخارجية زمناً طويلاً بطابع الحروب الصليبية . وإن اتحاد أرجنونة وقشتالة لم يفعل شيئاً لتخفيف حدة الروح الإقليمية المتغلغلة في المقاطعات الإسبانية ؛ فالناس لا يزالون يحرصون على الامتيازات الخالية والإقليمية ويدافعون عنها بعناد شديد بحيث أصبح تأييد الكنيسة وعورها بوصفها النظام الأوحد العام في إسبانيا كلها وموضع التبجيل من جميع أهلها أمراً بالغ الأهمية للحكومة .

وقد بلغ من توفيق ملوك إسبانيا في كسب الولاء الكامل لقسسيهم أنك لن تجد كنيسة بروتستانتية واحدة قد خضعت تمام الخضوع لمحاكم الزمني خصوص كنيسة إسبانيا الكاثوليكية لملوكها في المعهد الذي بلغت فيه الإمبراطورية الإسبانية أوج عظمتها . فقد كون الملك والكنيسة ، والكنيسة والملك ، أدلة واحدة متساكة هنا نشر العقيدة الكاثوليكية والدفاع عنها .

وعلى النقيض من ذلك التركيز الصارم في العقيدة الدينية ، ذلك التركيز الذي جعل حكم إسبانيا في كل مكان مرادفاً لاضطهاد العقائد المختلفة ، على النقيض من ذلك اتساع الأفق السياسي والاقتصادي لإسبانيا اتساعاً مفاجئاً واسع المدى . أصبحت فرنسا عدواً لإسبانيا ، وإيطاليا مسرحاً للحرب ، وإنجلترا حليفه ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة والأراضي المنخفضة - بطريق الزواج - توابع لها ، والخيط الأطلنطي ممراً يوصل إلى ممتلكات إسبانيا في أقصى الغرب ، وهي أراض لا يجد لها حدّ ، غامضة تحوطها الأسرار . وباتساع النشاط في المحيطات ، دبت حياة جديدة في موانئ بسكاي وسانشيدرو وفيجو والفيرول وقادس وإشبيلية . وتزاحم الناس على مغامرات جديدة ، وظهرت خصومات جديدة ، وتكونت تحالفات جديدة هجومية ودفاعية . وكان لزاماً على الدبلوماسية الإسبانية أن تنشط العمل على نطاق واسع . وليس في وسع أحد أن يأخذ على السياسة الإسبانية في العصر الذي بدا الآن أنها كانت تعاني تركيزاً في الفرص لا محلي له أو ضيق أفق مخز ؛ بل إن الخطر كان يكمن في التشدد المفرط بين أهداف مختلف بعضها عن البعض الآخر : كإعادة تنظيم داخلية البلاد واحتلال أراض في إيطاليا ، ومناضلة فرنسا

واستعمار القارة الأمريكية وسكنها .

ولو كانت الملكية الإسبانية تتصرف بخيال بحري ناضج ، لربما أضافت إلى سياساتها المتعددة احتلال البرتغال أو ضمها إلى الأملك الإسبانية . كان هذا الحال الذي لم يتحقق بخلال الحيران ، يقوم حيثئذ بقيادة العالم الغربي في مضمار النشاط البحري . وكان ملاحو البرتغال قد وضعوا أيديهم على ثروة غينيا ولامسوا رأس الرباعي الصالح ، وكادوا على وشك الالتفاف حول شاطئ إفريقيا وفتح طريق جديد للثروة والفتح في الهند . وكان من شأن ذلك كله أن يغري بالعدوان منافساً متقدماً في مجال النشاط الاستعماري . وكان من الممكن حيثئذ أن يقال — كما ذهب كاتب برتغالي في عام ١٦٢٤ (حين كانت البرتغال قد اتحدت بالفعل مع إسبانيا) — إن لشبونة هي العاصمة الحقيقة لشبه جزيرة أيبيريا وأن سواحل الأطلنطي هي مركزها العصبي وأن أهم أهدافها السياسية تحطيم القوة البحرية المعادية حيثاً وجدت . ولو قد قدر لهذه الآراء أن تغلب في نهاية القرن الخامس عشر ، لكان من المحتمل أن تناطخ طلائع انتياد المحيط الأطلنطي بدماء حرب أهلية بين دولتي شبه جزيرة أيبيريا المسيحيتين .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فإن فردناند وإيزابلا — اللذين لم تراودهما كثيراً أحلام البحر — عزماً على أن يربطوا ببرتغال بروابط تحالف أسرى يكون من القوة بحيث يقاوم إلحاح المنافسة الاستعمارية بين الدولتين . وهكذا عندما سارت إسبانيا في إطار البرتغال وطالبت بنصيتها في العالم الجديد ، حال تحكم البابا دون نشوب الصراع . وقد هوجم حكم إسكندر السادس القاضي بأن تقسم إسبانيا والبرتغال كل الأرضي والجزائر التي تم اكتشافها بالفعل ، أو تلك التي ستكتشف بعد ذلك « في الغرب في اتجاه الهند أو المحيطات » — هوجم هذا الحكم باعتباره اعتداء وقحةً على حرية البشر . وهذا الحكم واحد من تلك التدابير السياسية التي لا بد من اتهيارها أمام ضغط الحوادث ، مهما كانت فائدتها باعتبارها توفيقاً مؤقتاً بين مصالح متعارضة . فإن الناس في فرنسا أو هولندا أو إنجلترا لم يروا في هذا الحكم البابوي أمراً يمكن التسليم به ؟ وتساءلوا : بأى حق يقصر البابا — وبابا إسپاني بالذات — العالم الجديد على الإسبان والبرتغاليين ؟ وهل من مصلحة البابوية أن

ترتبط نفسها في هذا الوقت المبكر بالمبادرات القائل بأن الهند وأمريكا قد أقفلتا إلى الأبد أمام ملاحى الشمال؟ على أن أداة — منها تكون قاصرة — تنجح لوقت ما في وضع صيغة ملائمة تحسّم الخلافات بين دول متنازعات بتحديد مناطق نفوذ كل منها — مثل هذه الأداة لا يمكن إدانتها برمتها . فإن المراسيم البابوية الخامسة التي أصدرها إسكندر السادس قد حفمت غرضاً نافعاً وإن يكن وقتياً . ذلك أنها كانت الأساس الذى قامت عليه معاهدة تورد سيللاس (١٤٩٤) يومية ٧ التي قضت بأن تأخذ البرتغال كل شىء شرق خط يرسم بطول المحيط الأطلسى على بعد ٣٧٠ ميلاً غرب جزائر الرأس الأخضر ؛ على حين يعطى لإسبانيا كل شىء يقع غربى هذا الخط . وهكذا مكن ذلك الخط المرسوم البرتغال من المطالبة بالبرازيل وحادها .

ولقد كان من محض الصدفة أن يقوم كريستوفر كولمبس برحلته الاستكشافية المشهورة تحت العلم الإسبانى . كان قد عرض سره الدفين وحماسته الدافقة على كل من البرتغال وإنجلترا وفرنسا . وقد بحثت لجنة إسبانية مشروعة لمدة خمس سنوات ثم رفضته ، ولم يعدل هذا القرار غير المناسب نهايائياً إلا بشق الأنفس وبنفوذ كاهن وسيدة ذات حظوة كبيرة لدى الملكة . كان كولمبس ملائماً ممتازاً ، وقد سما إلى درجة العظمة بتصنيفه الدافق على تحقيق حلمه حتى انتصر في النهاية ، وذلك رغم ما صادفه من صد وفن عقبات كانت قميّة بأن تُبْطِّل همم رجال أتوا حظاً وسطأً من الشجاعة . وبعد أن عبر الأطلنطي في ثلاثة قوافل بحرية صغيرة ، وصل إلى جزيرة واتلنج Watling التي هي إحدى جزائر البهاما وذلك في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ ، وأطلق عليها اسم سان سلفادور San Salvador . كان قد أبحر منذ خمسة أسابيع في بحر موحش مجهول ، مسكنًا بيمانه الذى لا يقهر هواجس بخارته التمردين ، إلى أن وصل إلى ما اعتقد حتى آخر حياته أنه الطرف الشرقي لآسيا . وإن اكتشافه جزائر الهند الغربية هو المقوم الحقيقى لشهرته ، وإن أول رحلة له عبر الأطلنطي هي أعظم أعماله ؛ ذلك لأنه لم يوهب المقدرة على معالجة مشكلات الاستعمار الدقيقة أو حكم الناس على الأرض؛ تلك المشكلات التي ملأت رحلاته الأخيرة بالمرارة ، فاعتقد أن استرداد أهالى البلاد من المنهود هو خير ما يمكن عمله لهم . وقد بدا للمضارعين من التجار الذين كانوا يحومون حول بلاط برشلونة أن عدداً

قليلًا من العبيد الذين لا يمكن فهمهم وخفته من ذهب إنما هي جزاء حقير لسلسة متتالية من الرحلات الباهظة التكاليف ، وبديل يبعث على السخرية لتوايل الشرق التي يتطلعون إليها . فأقصى الملاح العظيم عن قيادته وأعيد إلى إسبانيا مكبلاً بالأغلال ليواجه الحقد الدفين من جماعة المستعمررين الذين خابت آمالهم والغفيظ الأشد من جانب المستعمررين العائدين إلى إسبانيا . ومات كولبس في عام ١٥٠٦ في إسبانيا ، البلد الذي اتخذه وطناً له ، مغضوبًا عليه مجللاً بالمهانة . ورغم ذلك فهو مكتشف أمريكا ؛ وقد خلد التاريخ اسمه أبد الدهر .

ولا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعذر الرغبة في الحصول على التوايل والذهب ؛ إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية . في القاتيكان — وخصوصاً لدى الفرنسيسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تتمد إلى العالم بأسره — كانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تشير أكبر قسط من الاهتمام ، لأنها قمينة بأن تهيء السبيل إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها ستفضي أيضاً إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق . كان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي ، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد في الهند ، نتيجة لبعثة القديس توما ، دولة مسيحية يحكمها عاهل يعرف بالحان الأكبر . وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير في أن تلتقي من هؤلاء الملوك الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمةأخيرة تشنها على المسلمين . تلك هي « خطة الهند » كما رسمها نقولا الخامس منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٤٥٤ في مرسوم بابوي أرسله إلى ملك البرتغال . وفي هذا الجو المفعم بالأمال الكبار أقلع كولبس ليكشف الطريق إلى الهند غرباً .

وفي تلك الأثناء كان ضغط الأحداث البعيدة يهدى لازدحام غير طبيعي بين ثلاثة دول تختلف كل منها عن الأخرى اختلافاً كبيراً ، هي إسبانيا والأراضي المنخفضة واتحاد ألمانيا الإمبراطوري ، فقد تم خوض عن زيجتين مشهورتين وخمس ميتات غير متوقعة تغيير ملوك السياسة الأوروبية . في عام ١٤٧٧ تزوج مكسميليان ابن الإمبراطور فرديريك الثالث ووريثه ، تزوج ماري وريثة شارل الجسوس صاحب برجندية . وмерت السنون . وتوفيت ماري، وأصبح

مكسمليان وصيغاً على الأرضى المنخفضة ، وفي عام ١٤٩٣ خلف والده في منصب الإمبراطور الرومانى المقدس . أما فيليب ابن زوجته البرجندية ، وهو شاب رقيق آنique ، فقد دخل في طور الرجال ؛ ولما كان وريثاً لثروة عظيمة ، فقد اشتربت إليه الأعناق . ومنذ وقت مبكر في عام ١٤٩١ دار الحديث عن زواج الأرشيدوق الفلمنكى من جوانا الابنة الثالثة للملك إسبانيا . وكان الابنان صغيرين ، ودارت المفاوضات في آناء ؛ ومع ذلك فقد تم عقد الصيغة في عام ١٤٩٦ : وأصبحت جوانا الإسبانية زوجة لفيليب صاحب الفلاندر . من كان يستطيع حينئذ أن يتأنى بالمسير مختلف تماماً الذى كان يتظر الزوجين السعيدين ، أو النتائج البعيدة المدى لزواجهما ؟ من كان يستطيع حينئذ التنبؤ بالموت المبكر الذى قضى على فيليب الآنique ، وجنون زوجته ، وتلك السلسلة الطويلة من الجنازات المفجعة التي حملتها إلى عرش إسبانيا على نحو لم يتوقعه أحد قط ، أو ذلك الأفق العريض من السلطات والعزة التي تفتح لأنها الصغير الوارث لحكم إسبانيا والأرضى المنخفضة والذى قدر له أن يخطو على إثر جده مكسمليان فيحمل تاج الإمبراطورية ؟ وهكذا بينما كانت الأحداث تجري على هذا التحو لم تهد لإمبراطورية شارل الخامس ، كان من الطبيعي أن تترك السياسة الإسبانية جل اهتمامها على العالم القديم وليس على العالم الجديد .

ومن الصعب لوم معاصرى شارل الثامن لاعتقادهم أن إيطاليا التى قطعت شوطاً بعيداً في التفكك السياسى – وإن تكون قد أصابت شهرة واسعة بسبب تراها وثقافتها – غنية تفضل بكثير الجائزات التي اكتشفت وشيكاماً في الطرف الآخر للأطلنطي ، وكان يتحدث عنها بحارة نحاسيو الوجوه على أرصفة برشلونة ولشبونة . فإذا كان لابد من إيجاد ميدان للفتح والتوسيع ، في إيطاليا حقل يمكن جني ثماره على وجه السرعة . ولكن مما يؤسف له أن حكام فرنسا وإسبانيا ، رغم حاجات رعياهم ومغاريات العالم الجديد ، قد بدروا قواهم لفترة تزيد على المائتين عاماً في نصال هدفة السيطرة على إيطاليا ، فأنزل بهم جميعاً أضراراً فادحة وأذل بلداً متحضرأً ومسالماً نسبياً أرغمه الظروف على أن يصبح مسرحاً لحرب بشعة .

وقد قيل في معرض التهويين من هذه النتائج الخطيرة إنه لولا وجود الجيوش الفرنسية والإسبانية في إيطاليا لكان الأتراء قد استولوا عليها . كذلك يمكن القول

أيضاً أن هذه الحروب التي لا هدف لها قد تم خضب عن بطولة بايارد^(١) وعن الأشعار الرائعة التي أودعها أريوستو Ariosto^(٢) ماحمته « أولاندو غاضباً Orlando Furioso ». إن مثل هذه التخمينات الوهمية قد تصلح عزاء ، ولكنها لا تقيم دفاعاً .

وكانت حملة شارل الثامن (١٤٩٤) على إيطاليا — كما كانت الغزوات الفرنسية التالية لهذه البلاد — لا تعلو أن تكون قصة نصر سريع تعقبه نكسة مفاجئة كاملة . وقد ابتسם الحظ في البداية لجيش الفرسني بظهوره البراق وهو يحمل معداته الحربية التي تمت إلى العصور الوسطى ويسوق قطاراً طويلاً من المدافع الفاخرة ولم يكن لدفيكيو سفورزا Ludovico Sforza حاكم ميلان الذي دعا بنفسه تلك الحملة ، لم يكن بالرجل الذي يعترض تقدّمهها . أما سافونارولا Savonarola الراهب الدومينيكياني — وهو أحد أولئك الوعاظ المتشددين العظام الذين يظهرون بين وقت وآخر في بلاد جنوب أوروبا اللاتينية والكافوليكية ، فقد رحب بالفرنسيين باعتبارهم محررين لفلورنسة المدينة التي اتخذها وطناً له . وفتحت روما أبوابها . وغدا شارل دون أن يطلق رصاصة سيداً على مملكة نابولي . ولكن حينئذ ، وقد تحققت أهم أغراض الحملة ، أطلت الصعوبات الحقيقة برأسها . فلم يكن الجيش الغازي الذي انظم جنوداً من الألمان والسويسريين ، كما صوره خيال سافونارولا ، سرياً من ملائكة مطهّرين حلقو فرق إيطاليا يحملون رسالة لوضع حد للبذخ والسرف ومساوئ الكنيسة البابوية ؛ بل كان ، كما يتوقع من القوات الفرنسية والألمانية في ذلك الوقت ، جيشاً فاسداً الخلق منحلاً فظياً (رغم بعض الاستثناءات المشرقة) . وكلما مضت الحملة جنوباً خلفت وراءها هيبياً من السخط المحتدم . وسرعان ما تكونت عصبة إيطالية هدفها طرد الغزاة واعتراض طريق تقهقرهم . وفي ساحة فورنوفو Fornovo شق شارل طريقه بين صفوف العدو (١٤٩٥) ورجع إلى فرنسا مكلاً بهذا النصر ، ولكن بعد أن خسر كل شبر من الأرضي الإيطالية .

(١) ١٤٧٣ - ١٥٢٤ . ينتسب بايار إلى أسرة فرنسية نبيلة سقط معظم كبار رجالها في ميدان القتال طيلة قرنين من الزمان . وقد أبدى ضرباً نادرة من الشجاعة أثناء الحروب الإيطالية .

(٢) ١٤٧٤ - ١٥٣٣ . الشاعر الإيطالي .

وبفضل النصر الذي أحرزه شارل في فورنوفو ، ولكن أكثر من ذلك بفضل معيشة الجيش الفرنسي على موارد أرض العدو ثم عودته إلى فرنسا محملاً بالغنائم ، استعادت فكرة الحرب الإيطالية بريقها في فرنسا . وحين توفي شارل (١٤٩٨) اجتذب سراب المجد الإيطالي الحادع ابن عمه ووريثه على العرش لويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٣) صوب الجنوب . وتكررت نفس القصة القديمة : انتصارات سهلة أعقبتها ارباكات خطيرة ؛ ثم هزائم في إيطاليا ، بل غزو فرنسا ذاتها في نهاية الأمر . فتح الفرنسيون ميلان ثم أضاعوها ، واقتسموا نابولي مع إسبانيا ثم أضاعوها ، وطردت البندقية من أملاكها على الأراضي الأوروبية على يد عصبة تكونت من فرنسا والبابوية والإمبراطورية ، ثم أعيدت إلى ما كانت عليه على يد تحالف بابوي تكون ضد فرنسا . وهكذا في هذا الجو المتقلب ، جوّ الدبلوماسية الإيطالية ، كان صديق اليوم عدو الغد . كان يوليوس الثاني ، البابا المحارب ، الذي ساعد فرنسا ضد البندقية هو — بعد وقت قصير — الذي دبر العصبة المقدسة لطرد الفرنسيين من إيطاليا ، ولم يكن بوسع لويس الاعتماد على أية صداقة إيطالية راسخة . هزمت جيشه في نوقارا (١٥١٣) ، وبعد أن جرّد من كل فتوحه الإيطالية رجع إلى فرنسا لكي يواجه الإنجلiz الذين استولوا على تورنai والبرجنديين الذين كانوا يحاصرون ديجون . تلك هي المذلات التي أصابت «أب بلده» في النهاية لإغراء إيطاليا . استولى على ميلان ونابولي وأراضي البندقية ثم أضاعها جميعاً ؛ وغزيت أراضي فرنسا في موضعين . ولكن الدرس مضى دون أن يشر شيئاً . ذلك أن فرنسا الأول (١٥١٥ - ٤٧) ابن أخي لويس الثاني عشر ، وهو شاب ذافة للفنون ملتهب الشعور يميل إلى الانطلاق ، لم يكن بالرجل الذي ينسى أن عمّه قد طرد من ميلان على يد جيش من صعاليك فلاحي سويسرا . وعبر فرنسا بجبال الألب وواجه الجندي السويسريين المرتزقة الذين كانوا يحرسون ميلان ؛ وقد مكنه النصر الباهر الذي أحرزه في مارينيانو Marignano (١٥١٥) من استرداد لومبارديا لفرنسا ، ولكن إلى حين .

وفي تلك الأثناء كانت الأمور تجري باطراد معاكسنة للأمل في فوز دائم للفرنسيين في إيطاليا . كانت إسبانيا ، منافسة فرنسا ، تتمتع بميزة السبق في البحر

وقتها الحربية من المشاه أقوى ، وثروة العالم الجديد بدأت تعرف طريقها إلى خزانتها . وفي عهد فرديناند الكاثوليكي (١٤٧٩ - ١٥١٦) كانت إسبانيا من القوة بحيث استطاعت طرد الفرنسيين من نابولي . وفي عهد حفيده الفلمنكي شارل (١٥١٩ - ١٥٥٦) غدت إسبانيا أكثر قوة بفضل الجزية التي تحمل إليها من الأرضي المنخفضة ، ثم منذ عام ١٥١٩ بفضل الموارد البشرية التي تجلب إليها الإمبراطورية . ولكن كلما مضت الأيام استجمعت المقاومة قواها وأتت إليها المساعدات من كل جانب . في خلال جيل واحد امتنق البابا وميلان والبنديكت والسويسيون وإسبانيا والفلاندر والإمبراطورية الحسام للحيلة دون سيطرة فرنسا على إيطاليا . ولكن فرسوا الأول ظل متسلكًا بمشروعاته الإيطالية ؛ ورغم هزيمته وأسره في بافيا Pavia (١٥٢٥) لم يتحل مواطنه من مشروعهم اليائس أو يتذروا عن ادعائهم في إيطاليا إلى أن وقع هنري الثاني معاهدة كاتو كمبريسis Cateau Cambrésis في عام ١٥٥٩ . كانت المعاهدة نصراً لإسبانيا ؛ وكانت النتيجة القصوى لنزهة الفروسية التي أقدم عليها شارل في خفة وزق هي تسليم ميلارديا ونابولي لحكم الإسباني الصارم الحافظ ، وأقول النهضة الإيطالية ، واحتفاء الخيال الإيطالي الربح وراء غيوم من الطغيان الإسباني وتحكم رجال الدين ، وهو الخيال الذي كان في وسعه أن يثير أجواء من الباء لا يمكن أن تباري ، ولكن كان في وسعه أيضاً أن يقبل — في سخرية وصبر — صرامة الطغيان والهزيمة :

كان لإيطاليا منذ زمن بعيد تأثير قوى في شمال أوروبا ، إن لم يكن لشىء ، فهو على الأقل لوجود روما وتأثيرها . في خلال القرن الخامس عشر كان يأتي إليها طلاب العلم من إنجلترا وألمانيا وفرنسا للدراسة في جامعاتها ، ثم يعودون إلى بلادهم مزودين بأكdas من المعارف الطبية والكلاسيكية . وعلى فرض أن شارل الثامن لم يعبر الألب على الإطلاق ، فقد كان لا بد أن يأتي الوقت للنهضة الإيطالية لتوبر في حياة الشعوب الشمالية . ولكن الحرب تسرع الخطى بعجلات التاريخ : فالعمليات التي تسير بطبيعة وتدرجه في الأحوال الأخرى تصبح حينئذ — في ظروف الحرب — سريعة تتدفق حيوية ؛ فكل حرب رحلة استكشافية ، وكل اتصال دبلوماسي كشف الطبيعة الأجنب البشرية . وكذلك كان شأن في هذه الحروب

الإيطالية : فهي قد عجلت - إن لم تكن قد سببت - انتشار النهضة الإيطالية لدى شعب الشمال .

ومن الشخصيات التي وقفت على المسرح الإيطالي وظهرت أمام أعين أوروبا عامa حين ارتفع الستار في عام ١٤٩٤ شخصية رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ، وهو إسباني ثري كان قد رشى الجمع المقدس منذ عامين ليحصل على منصب البابوية ، واتخذ لنفسه اسم إسكندر السادس . وهناك من يتلمسون الأعذار لكل شيء : فأعين البند الحديدة التي تجتمع إلى التسامح تجاوزت عن أحطر التهم التي أصلقتها بهذا البابا معاصروه قانعة بأن ترك منها كثروات مقررة ببعض وظائف الكنيسة والتمتع الدنيوية وأعمال الغدار والاغتيال بالسم . وفي حياة أي نظام فترات يكون فيها للطابع الحيوانية الخشنـة فوائدـها . ولم يكن هذا البابا الإسباني الصخـم أخـشن ولا أفسـق ولا أقـسى من الأسرـات الفـلة الـبارـزة في رومـا ووسط إيطـالـيا التي صـرف هـمه إـلى سـحقـها . فهو إن كـان قـاتـلا وـمتـآمـرا فقد عـاشـ في جـوـ من الـاغـتـيـالـ والتـآمـرـ . فإن إـنشـاء دـولـة بـابـوـية خـاضـعـة لـهـ في وـسـط إـيطـالـياـ ، وهو ما كـان يـعـملـ لهـ ، لا يـكـونـ بالـكلـامـاتـ المـعـسـولـةـ والـرـيـاضـاتـ الرـوـحـيـةـ ، بلـ بالـقـوـةـ والـغـدـرـ ، بـالـإـدـارـةـ وـالـمـالـ . وفي هـذـا الـحـالـ كانـ إـسـكـنـدـرـ فيـ مـوـضـعـهـ الـحـقـ ؛ـ كـانـ يـعـملـ فيـهاـ يـعـملـ لـصـلـاحـ الـكـرـسيـ الـبـابـويـ ،ـ وـلـكـنـ كـانـ منـ الـواـضـحـ أـنـهـ كـانـ يـعـملـ فـوقـ ذـلـكـ لـإـعـلـاءـ شـأنـ أـسـرـةـ بـورـجـياـ .ـ وـقـدـ سـجـلـ مـكـيـاـفـيلـيـ فـيـ كـتـابـ «ـ الـأـمـيرـ »ـ كـيـفـ عـمـلـ قـيـصـرـ بـورـجـياـ ،ـ الـابـنـ الـلـامـعـ لـلـبـابـاـ ،ـ عـلـىـ مـسـاعـدـةـ أـبـيهـ فـيـ إـقـلـيمـ رـوـمـاـ ،ـ وـذـلـكـ الـمـعـنـىـ مـنـ أـعـمـالـ الـبـطـشـ وـالـغـدـرـ الـتـىـ اـسـتـخـدـمـهـ هـذـاـ الـغـرـضـ .ـ وـقـدـ رـأـىـ مـكـيـاـفـيلـيـ كـماـ سـبـقـ أـنـ ذـكـرـناـ فـيـ حـيـاةـ الـمـغـامـرـ الـمـدـعـوـ الـصـمـيـرـ نـمـوذـجاـ لـفـنـ الـسـيـاسـةـ الـجـديـدـ الـذـيـ لـاـ تـنـالـ مـنـهـ شـفـقـةـ وـلـاـ تـؤـثـرـ فـيـ أـخـلـاقـ أـوـ عـقـيـدةـ دـينـيـةـ .ـ وـكـانـ مـظـهـرـ الـفـسـادـ الـذـيـ تـقـدـمـهـ رـوـمـاـ فـيـ عـهـدـ آـلـ بـورـجـياـ مـثـيـرـاـ لـاـشـمـئـزـازـ الطـبـاعـ الـرـوـحـيـةـ .ـ وـقـدـ كـتـبـ سـاقـونـاـ رـوـلاـ :ـ «ـ إـنـ الـفـسـادـ يـبـدـأـ فـيـ رـوـمـاـ ،ـ ثـمـ يـمـتدـ إـلـىـ إـلـكـلـيـرـوسـ جـمـيعـاـ ؛ـ لـنـهـمـ أـسـوـاـ مـنـ الـأـنـرـاكـ وـمـسـلـمـيـ الـمـغـرـبـ .ـ سـنـرـىـ أـنـ الـجـمـيعـ فـيـ رـوـمـاـ قـدـ جـمـعـواـ ثـرـوـاتـهـمـ عـنـ طـرـيقـ بـعـضـ الـوـظـائـفـ الـدـينـيـةـ :ـ فـهـمـ يـشـتـرـونـ الـحـظـوظـ ثـمـ يـخـلـعـونـهـاـ عـلـىـ أـبـنـاهـمـ أـوـ إـخـوـتـهـمـ الـذـينـ يـحـصـلـونـ عـلـيـهـاـ بـالـعـنـفـ وـبـكـلـ الـوـسـائـلـ الـآـثـمـةـ .ـ إـنـ

شراهم لا تخدم وهم يرتكبون كل شيء للمحصول على الذهب . إنهم لا يذوقون أجراسهم إلا في مقابل المال والشمعون ؛ وهم لا يحضرن التراتيل والصلوات والقداس إلا إذا توعلوا كسباً . إنهم يبيعون دخل كنائسهم ، ويبيعون القربان المقدس ، ويتجرون في القدس . . . وإذا ما عاش قس أو كاهن حياة عادية فهم يسخرون منه ويقولون إنه منافق . وأصبح من الشائع أن الجميع يخذرون من روما وأن الناس يقولون : « إذا أردت أن تحطم ابنك فأجعله قسّاً ». هذه اللهجة قد تحوى بعض المبالغة ، ولكن الاتهام كان حقيقياً في أساسه . ورغم أن أوربا الكاثوليكية كانت في نهاية القرن الخامس عشر وببداية القرن السادس عشر تزخر بالحياة الدينية الأصيلة ، ورغم أن وجود رجال مستقيمين وقديرين قاموا بجهود جدى لتحسين التعليم والمعرفة وإصلاح مفاسد الكنيسة — ومن هؤلاء هجيوس Hegius^(١) في دلنتر Deventer من أعمال الأرضي المنخفضة ، وتقولا الكوزي Nicholas of Cusa^(٢) في ألمانيا والأسقف كولت Dean Colet في إنجلترا — رغم ذلك كله أضاعت روما مركزها في القيادة الروحية لأوربا . لن تجد بلاطًا كبلاطها في سوء سمعته في الشره والفساد والرذيلة . ومنذ عام ١٤٩٩ كانت الأحاديث تجري على ألسنة الناس عن احتمال انفصال ألمانيا وإسبانيا عن روما .

وزاد الانحلال الروحي الذي أصاب روما أهمية ما تغير في شمال أوربا من روح جديدة تقوم على الاحتکام إلى العقل . وكان إرزمس Erasmus من روتردام (١٤٦٧ - ١٥٣٦) هو البشير بهذه الروح وداعيتها ، ما بقيت هذه الروح في نطاق الكاثوليكية الأصيلة . وقليل من الرجال من كان له على جيله تأثير أقوى وأفعى من تأثير ذلك الباحث الهولندي الرقيق المفلس الضئيل الحجم . إنكب إرزمس على نفسه في حرارة متقدمة في الأرضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا حتى غدا لدرجة لا يدانيه فيها أحد — إلى أيام فولتير — الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة في أوربا .

(١) حوالى ١٤٣٣ - ١٤٩٨ م . إنسان ألماني سمي بهذا الاسم نسبة إلى موطنه الأصلي هيック Heck في وستفاليا .

(٢) ١٤٠١ - ١٤٦٤ . كاردينال ومتفقه في شؤون الدين وبخاتة . سبق كوبيرنوكوس في القول بحركة كونية ليست الأرض مركزها ، بل تشارك فيها . أشهر مؤلفاته عن الإنسان والدين كتاب « الجهة المتأصلة » De Docta Ignorantia .

وقد تأثر إرزمس - ككل رجل مثقف في عصره - بالدراسات القديمة اليونانية واللاتينية التي كان من دواعي مجده إيطاليًا أن أحيتها . ولكنـه كان مختلفـ عنـ كثيرـ منـ الـ بـحـاثـةـ الإـ يـطـالـيـنـ فـيـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ وـثـيـقـاـ ولاـ حـبـسـاـ لـلـجـمـالـ وـلـامـتـعـلـقـاـ بـماـ وـرـاءـ الطـبـيـعـةـ ؛ ولـكـنـ كـانـ مـسـيـحـيـاـ عـادـيـاـ مـسـتـمـسـكـاـ بـالـدـيـنـ الـقـوـيـمـ ؛ كـماـ أـنـهـ كـانـ إـلـىـ حدـ ماـ ضـبـحـلـ الـخـيـالـ - وـتـيرـنـسـ Terence^(١) هوـ شـاعـرـ المـفـضـلـ - ولـكـنـ كـانـ زـاخـرـ الـمـواـهـبـ فـيـ الـإـشـارـقـ وـالـحـكـمـ وـالـفـهـمـ وـالـاعـتـدـالـ وـالـذـكـاءـ الـوقـادـ ، وـهـىـ مـوـاهـبـ أـهـلـهـ لـحـمـلـ رـسـالـتـهـ لـلـعـالـمـ أـجـمـعـ . كـانـ صـاحـبـ رـسـالـةـ وـكـانـ دـاعـيـةـ كـمـاـ كـانـ عـالـمـاـ . كـانـ يـعـقـتـ الـافـتـخـارـ بـالـعـلـمـ وـالـحـذـلـقـةـ وـالـخـرـافـةـ وـالـجـهـلـ وـالـغـبـاءـ وـالـعـنـفـ وـالـرـذـيلـةـ ؛ وـقـدـ وـجـهـ نـشـاطـهـ الـأـدـبـيـ طـوـيـلـ الـمـتـوـاصـلـ لـمـقاـوـمـهـ هـذـهـ الشـرـورـ مـقاـوـمـةـ بـاهـرـةـ مـتـصـلـةـ . وـرـغـمـ أـنـ تـرـددـ عـلـىـ بـعـضـ الـجـامـعـاتـ - بـلـ إـنـهـ شـغـلـ كـرـسـيـ الـلـاهـوتـ فـيـ كـيمـبرـدـجـ بـعـضـ الـوقـتـ (١٥٠٠ - ١٥١٣) - إـلـاـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ جـامـعـيـاـ يـدـلـ بـعـلمـهـ ؛ بـلـ كـانـ مـوـاطـنـاـ فـيـ هـذـاـ الـعـالـمـ يـهـتـمـ بـالـسـلـوكـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ ، كـمـاـ اـهـتمـ أـشـدـ الـاـهـتـمـامـ بـجـعـلـ الـعـرـفـةـ فـيـ مـتـنـاـولـ الـنـاسـ الـعـادـيـنـ وـبـتوـسـعـ آـفـاقـهـاـ . وـقـدـ أـرـادـ بـرـجـهـ خـاصـنـ أـنـ يـرـىـ أـسـفـارـ الـكـتـابـ الـقـدـسـ مـتـرـجـمـةـ إـلـىـ كـلـ الـلـغـاتـ ، وـقـالـ فـيـ ذـلـكـ : « يـشـوـقـيـ أـنـ أـرـىـ الـفـلـاحـ يـتـاـواـهاـ وـهـوـ يـسـيرـ وـرـاءـ مـخـرـاثـهـ ، وـأـنـ يـرـدـدـهـ النـسـاجـ عـلـىـ أـنـغـامـ مـنـسـجـهـ ، وـأـنـ يـسـتـعـينـ بـهـاـ الـمـسـافـرـ عـلـىـ مـتـاعـبـ رـحـلـتـهـ » . بـلـ إـنـ أـعـمـالـهـ الـأـكـثـرـ عـمـلـيـةـ - كـشـرـحـهـ لـنـسـخـةـ الـإـنـجـيلـ الـيـونـانـيـةـ وـلـاـ كـبـهـ الـآـبـاءـ الـأـوـلـاـنـ - تـشـفـ أـعـتـامـهـ بـمـطـالـبـ الـقـارـئـ الـعـادـيـ . وـقـدـ قـرـ قـرـارـهـ عـلـىـ أـنـ يـرـدـ الـإـنـجـيلـ الـلـاتـيـنـ إـلـىـ أـصـلـهـ الـيـونـانـيـ ، وـأـنـ يـتـحـولـ عـنـ مـحـاـوـرـاتـ الـمـتـقـهـيـنـ فـيـ الـدـيـنـ مـنـ الـمـدـرـسـيـنـ الـقـائـمـةـ عـلـىـ الـحـذـقـ وـالـمـهـارـةـ إـلـىـ تـعـالـيمـ الـآـبـاءـ الـأـوـلـاـنـ الـتـيـ كـانـ يـرـىـ أـنـهـ تـحـوـيـ رـوـحـ الـكـيـنـيـسـةـ الـأـوـلـاـنـ نـقـيـةـ غـيـرـ مـسـوـخـةـ . وـكـانـ لـبـ إـيمـانـهـ - كـيـانـ النـحـوـيـ - بـقـوـاعـدـ لـغـتـهـ أـنـ الـمـسـيـحـيـةـ الـحـقـةـ الـأـصـيـلـةـ قـدـ غـطـىـ عـلـيـهـ رـكـامـ مـنـ أـفـكـارـ عـصـورـ مـتـتـالـيـةـ ، وـأـنـ مـمـكـنـ بـعـثـاـ بـيـذـلـ جـهـدـ كـبـيرـ مـنـ الـدـرـاسـةـ الـعـلـمـيـةـ الـجـادـةـ الـوـاسـعـةـ الـأـفـقـ .

وبـالـإـضـافـةـ إـلـىـ التـوجـيهـ الـجـدـيدـ النـافـعـ الـذـيـ أـضـفـاهـ إـرـزمـسـ عـلـىـ الـدـرـاسـاتـ الـإـنـجـيلـيـةـ ، وـقـفـ يـبـشـرـ بـكـاثـوليـكـيـةـ إـنـسـانـيـةـ مـتـسـاحـةـ مـسـتـنـيـرـةـ . لـمـ يـتـرـددـ فـيـ أـنـ يـصـبـ

(١) حـوـالـيـ ١٩٠ - حـوـالـيـ ١٥٩ قـ.ـ مـ . شـاعـرـ كـومـيـدـيـ إـيطـالـ .

احتقاره على الرهبان الجهلة الخاملين ولا على الخرافات الكامنة في عبادة المخلفات الدينية والمساوية المتصلة بالحجج وبيع صكوك الغفران ، ولا على غيرها من مفاسد الكنيسة الشائنة ؛ وقد شاعت سخريته التي صاغها في لاتينية حية محبيه إلى النفس على كل لسان في دنيا الأدب . ولكن روح النقد عنده لم تكن من العنف بحيث تصل به إلى حد المطرقة أو الثورة . وفي البحث الذي وضعه إرزمس تحت عنوان « مرجع الجندي المسيحي Militis Christiani Enchiridion » (١٥٠١) عبر عن البشير الحالد للإيمان المستكين في القلب الذي يستغنى عن السلاوك والطقوس الظاهرة ، ويجد غذاءه في الاستغراف في النصوص المقدسة . ومن الواضح أنه لم يكن يعبأ بما وراء المبادئ الدينية من غموض أو مهارة في الصيغ .

وقد أصابت كتاباته شهرة ضخمة منقطعة النظير . كانت محادثاته (Colloquies) وإشادته بالحماقة (Praise of Folly) وأمثاله السائرة (Adagia) في طليعة كتب الأدب المطبوعة غير المتصلة بالمسائل الدينية التي أصابت رواجاً كبيراً . ولم يسبق قط أن استخدمت موهبة السخرية بمثل هذه المهارة . وقد جعل هذا الساخر الساحر الخفيف الظل من طبقة رجال الدين — وهي الطبقة التي كانت يوماً ما مهيبة الجانب ذات نفوذ ضخم — موضوعاً للتسلية والاحتقار . هاجم شرور الحرب وفساد أساليب التربية العنيفة وفراغ الحياة الدينية السائدة ، وعرض بكل ذلك في إخلاص زاد في وقعيه خلوه من ثقل الأسلوب والتعصب والهوى . وجاء وقت سار في نفس الاتجاه مع لوثر ، ولكنهما لم يلبثا أن افترقا : إذ خرج لوثر على روما ؛ أما إرزمس فكان يؤمن بإمكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الداخل . والروح العنيفة المتعصبة التي لابست حركة الإصلاح البروتستانتي لم يستسغها المزاج الإنساني المتسامح لذلك الباحثان الهولندي . ^أوبينما كانت ألمانيا تتضطرم بالنضال الديني ، كان إرزمس — في عزلته المادئة في بازل (١٥١٤ - ٣٥) — يحاول ، بسلسلة متقدمة من الشروح والترجمات عن « الآباء » الأولين ، أن يحيي روح المسيحية الأولى وأفكارها لما فيه توجيه الكنيسة الكاثوليكية .

إن أهمية إرزمس ^أفي تاريخ أوروبا ترجع إلى أنه — في عصر النهضة — قد مثل في رونق وبراعة لا تداني ذلك الإرث من الثقافة المسيحية والคลasicية ، وهو

الإرث الذي كان — ولا يزال — ملكاً مشاعراً لأوربا كلها . وسيبقى اسم إرزمس شاحناً في كل قائمة تحوى حيرة الأوروبيين . كان صاحب تلك الفكرة الداعية إلى تنظيم أوربا لتحقيق أهداف عقلية ، بحيث تكون مخلصة لماضيها بعد تنفيته من المساوىء التي علقت به ، ومرتبطة جمیعاً برابطة باقية من السلام والأخوة . ولا يزال مثل هذا الوحي طلبة ذلك النفر القليل من الإنسانيين الذين يحاولون في كل قطر أن ينفقوا من مرارة الحياة السياسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J.S.C. Bridge, A History of France from the Death of Louis XI. (1921).
- H. Lemonnier in Lavisse, Histoire de France, Vol. V.
- R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire. (1918-25).
- J. Fiske, The Discovery of America. (1892).
- C.R. Markham, Life of Christopher Columbus. (1892).
- E.I. Payne, History of the New World called America. (1892-9).

الفصل السابع

خطر الأتراك العثمانيين

سليم الأول وسليمان القانوني - الاستيلاء على رودس - جورج بودبراد George Podiebrad ومتias كورفينوس Matthias Corvinus - معركة موهاكر Mohacs - عاقبها على النسا .

لم يكن سقوط القسطنطينية بالنسبة إلى محمد الفاتح بمثابة النهاية ؛ بل إنه كان بداية لها ما بعدها . فقد اعتبر هذا الحاكم الكفء الطموح نفسه مبعوثاً برسالة هدفها ضم العالم إلى دار الإسلام ، مثله في ذلك مثل لينين الذي ظهر بعده بمدة طولية ، وتطلع بعمليات أخرى أقل شأنًا من العمليات الحربية إلى تحويل الجنس البشري إلى العقيدة الشيوعية . كان محمد الفاتح من شعبه المطواع الذي درب على تحمل كل المشاق عدا التفكير المستقل ، ومن جيشه الخرف التمرس وطوابير مدافعي الجحيدة ، ما أعطاهم ميزة السبق على أعدائه المتقسمين على أنفسهم . كان دوى المدفع التركية يتصف على الفرات والمذنب وشاطئ ألبانيا ؛ وحين توفي السلطان في عام ١٤٨١ كانت قد دانت له آسيا الصغرى وبلاط اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان ، وكان الأتراك قد وضعوا أقدامهم على جانبي بحر الأدرية بيك بعد استيلائهم على الجزائر الأيونية وإشقودره وأوترانتو وهددوا سلامة إيطاليا وأوروبا .

وبعد فترة قصيرة من حكم بايزيد المجنون ، تجدد سير الفتوح التركية على أيدي شخصيتين من أبرز شخصيات آل عثمان . فإن سليم الأول الذي خلع والده بايزيد في عام ١٥١٢ هو - بعد جده محمد - أكبر بناء تلك الإمبراطورية التركية الواسعة التي تحملت تقلبات قرون عددة ولم تسقط إلا بفعل الصدمة المماثلة التي أصابتها في الحرب العالمية الأولى . فسلميم هو الذي فتح سوريا ومصر وبلاد العرب ونقل الخلافة إلى بيت عثمان بعد تنازل آخر الخلفاء العباسيين ، وإليه سلمت رسميًا مقاطيع الحرمين رمزاً لسلطانه على العالم الإسلامي . وأصبحت إسطنبول منذ أيام سليم مركز القوة الإسلامية غير مدافع مدى ثلاثة قرون . أما بغداد التي كانت عاصمة

العباسيين ومسرحاً رئيسياً لحضارة فاقت كثيراً مستوى التفكير التركي ، فقد نزلت وقندلاك إلى مجرد مدينة نائية من مدن الولايات .

وتميز التاريخ الحربي لسلیان القانوني ، وهو السلطان النشط الذي تولى الحكم بعد سليم ، بثلاثة انتصارات على وجه الخصوص : انتزاع بلغراد من المجريين ، وإرغام فرسان الإسبتارية^(١) في رودس على التسلیم ، ومعركة موهاكز (١٥٢٦) التي لطخت ساحتها بالدماء ، وهي المعركة التي آذنت بالقضاء على استقلال مملكة المجر . بلغراد كانت بوابة المجر ، ورودس محطة في منتصف الطريق بين إستنبول ومصر ، وال مجر كانت آخر حاجز جدی قام بين الأتراك والمنسوبيين .

وكان مفعول هذه الانتصارات أشد تأثيراً ، وذلك لما كانت تتمتع به الأمة المجرية من سمعة حربية عالية ، وللثقة التي علقها الناس جمیعاً على مهارة الخامدة المسيحية في رودس وشجاعتها . أمكن الدفاع بنجاح عن حدود المملكة المجرية تحت قيادة جون هنريادي John Honyades وأبنه ماتياتوس كورفينوس (١٤٥٨) ، وأرغم الأتراك على قبول المزيمة أكثر من مرة . أما سمعة فرسان الإسبتارية المقيمين في رودس فكانت من نوع آخر – فعلى حين أن المجراء كانوا قد شقوا طريقهم – منذ وقت قصير – إلى الطليعة من تاريخ أوربا بصفتهم أكبر المدافعين برأً عن قضية المسيحية ، فإن فرسان رودس ما برحوا منذ أيام الحروب الصليبية متصرفين بمثابة رأس الحربة المسيحية في أقصى الشرق ضد آسيا والإسلام . كانت رودس جزيرة صغيرة ، وكان الإسبتاري من حيث العدد والعدة أقل بكثير من مهاجميهم ؛ ومع ذلك فإنهم قد عاشوا طويلاً حتى أصبح من الطبيعي أن يعتقد الناس أنهم سيبقون أبداً الدهر . وكان تركهم يواجهون مصيرهم أمام الأتراك ، في الوقت الذي أبدت فيه جنوة رضاها السلبي عن ذلك ، واغتبطت البندقية بذلك اعتباطاً لم تعمل على إخفائه – كان ذلك إعلاناً مدوياً للغرب بأن الأسطول التركي قد غدا صاحب السيادة في بحر إيجية ، وأن المدينتين الإيطاليتين الكبيرتين اللتين قامتا بنقل الصليبيين إلى فلسطين قد غيرتا الآن اتجاههما وانضمتا إلى العدو .

(١) أوفرسان القديس يوحنا – أهم النظم العسكرية الدينية من حيث المدى والاستمرار . يقال إنهم وجدوا قبل الحروب الصليبية ولا يزالون موجودون حتى الوقت الحاضر .

وكذلك اهتزت أوروبا لأنهيار المجر الذي فاق أثره في التاريخ الأوروبي سقوط رودس . ومن سوء طالع أوروبا أن البولنديين والتشيكيين والمجيئ لم يستطيعوا فقط أن يتتفقوا على شكل راسخ من أشكال التعاون السياسي . فإن عدم تواافق الأمزجة المبنية على الاختلافات اللغوية والجنسية والدينية قد ثبت دائماً أنه أقوى مما تفرضه الاعتبارات والضرورات السياسية . وفقط عوائق في وجه اتفاق بوهيميا ، وهي ألمى هذه المالك الثلاث وأكثرها تحضراً ، مع كل من بولندة والمجر — وقف الدين حائلاً بينها وبين بولندة ؛ كما فصلها عن المجر اختلاف الدين والجنس واللغة . ولما كان نبلاء بولندة وبوهيميا والمجر يعرفون كيف يتذرون امتيازاتهم الشخصية كاملاً من ملكية انتخابية ضعيفة ، فقد ترتب على ذلك أنه في نفس الوقت الذي كان فيه حكام غرب أوروبا يدعون قوتهم ، كانت دول شرق أوروبا تسير في الاتجاه المضاد : نحو التفكك الإقطاعي .

وقد تميز الفصل الختامي في قصة استقلال بوهيميا والمجر بإحدى الفرص النادرة التي لو ضاعت لن تعود أبداً . في ربيع عام ١٤٥٨ انتخب رجال بارزان لاعتلاء عرش بوهيميا والمجر . كان جورج بودبراد (١٤٥٨ - ٧١) نبيلاً تشيكياً كسب ثقة الأمة البوهيمية بدفعه الناجح عن عقيدة هـ " ضد أقلية قوية من الكاثوليك المتجرمين . وبفضل ثباته واعتداله ورغبته في اعتبار الدين مسألة يجب على الدولة أن تتناوحاً بروح التسامح والتوفيق بين الآراء المتضاربة ، ونجاحه في قمع العصيان — بفضل هذا كله تتمتع بسلطان قوي لم يتمتع به حاكم بوهيمى منذ أيام شارل الرابع ، ولم يقدر حاكم بوهيمى أن يتمتع به مرة أخرى حتى أيام مازارييك Mazaryk^(١) . وكذلك كان الشاب الذى اعتلى عرش المجر في نفس الوقت تقريباً يتمتع بمثل ما تتمتع به ملك بوهيميا من ميزات . فقد كان ماتياتيس كورفينوس (١٤٥٩ - ٩٠) — كما كان بودبراد — من طيبة قومية : فهو ابن ذلك الجندى النائع الصيت جون هُفْيادي الذى طرد الأتراك من أمام أسوار بلغراد ، وقد ورث الكثير من حيوية أبيه ونشاطه ، وأضاف إلى مزايا الجندي فيه بصراً بفنون السلم ؛ وكان فاتح فينا هو أيضاً مؤسس جامعة برسبرج Prassburg وأول من دخل على نبلاء المجر

(١) أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا (من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥) .

المتختلفين كثيراً من مهارات إيطاليا وفنونها . ولو تم عقد تحالف وثيق بين رجلين من طراز ماتياتيس كورقينيوس وجورج پودبراد – وكل منهما مبرز في ناحيته ومحبوب كثيراً في بلده – لكان لذلك، أكبر الأثر . ولو قد تحالفت المجر مع بوهيميا في ظل هذين الحاكمين ، لكان في إسكاتهما وقف غارات الأتراك وفقاً تماماً وتجنب مملكتي جنوب شرق أوروبا المسيحيتين المصير الذي قدر لهما – وهو ابتلاء الإمبراطورية النمساوية لكل منهما . ورغم أن الرجلين قد ارتبطا برباط المصاهرة ، فإنما اشتباكا في صراع مدمّر كان كارثة على كلا الممالكين . هاجت المجر بوهيميا ، ثم تركت بدورها – ولا صديق لها – لتخر على ركبتين أمام الأتراك . وكان العامل الديني هو السبب في ذلك الانهيار المفاجئ الذي أصاب هاتين الممالكين اللتين كان من الواضح أنهما تسيران قدماً نحو الاستقرار والقوة . فقد وقف جورج حاكم بوهيميا مخلصاً لمواثيق مجتمع بازل التي سمحت لكنيسة بوهيميا القائمة على تعاليم جون هنري باستعمال العلمانيين « لل Kapoor » في تناول القرابان المقدس . ولكن المجلس البابوي الذي لم يقر هذه المواثيق فقط رأى في ذلك أمراً لا يمكن السماح به . أُعلن حرباً پودبراد في عام ١٤٦٦ ، وصممت روما على الخلع لهذا المهرطيق وإحلال ماتياتيس الكاثوليكي محله . واستسلم الملك المجري للإغراء وانحاز بقواته إلى صف الكاثوليك الساقطين في بوهيميا . وفي الحرب الأهلية القاسية التي نشبت بعد ذلك في عام ١٤٦٨ صمد البطل البوهيمي ، ولكنه أرغم – بعامل الدفاع عن النفس – على أن يختار خلفاً له أميراً كاثوليكيّاً من الأسرة الحاكمة في بولندا . وحين توفي پودبراد في عام ١٤٧١ خلفه على العرش فلادسلاف جاجلون Vladislav Jagello .

وكان تولى هذا البولندي ، الأجنبي عدم الكفاءة ، الذي استدعى لحكم بوهيميا والمجر على التوالي مؤذناً في كلا البلدين بانفجار نزعات الطبقية الأرستقراطية . وقف هذا الملك البولندي عاجزاً إزاء الملوك المثيرين للخلاف في هاتين الممالكين الشرقيتين – كما لو كان معلمًا فرنسيّاً في فصل من تلاميذ الإنجليز المشاغبين . لم يكن لديه جيش ولا مال ، ولم يكن يستطيع عمل شيء دون التجاء إلى المجمع (الديات) ، وقد حل بينه وبين إدخال أية تجديدات في المجر قصداً ، وهكذا كان مقصيًّا بالفشل على الكثائب الإقطاعية التي تجمعها مثل هذه الملكية أمام

الحكم الذي كان ينحصر له جيش الأتراك .

ووضع ذلك كله موضع التجربة في ساحة موهاكز (١٤٢٦) حيث دارت معركة كانت لها عواقبها الخطيرة بالنسبة إلى أوربا . فبعد هزيمة الجيش الحجري ومقتل لويس آخر المالوك من أسرة بجاجلون واستيلاء الأتراك على المنطقة كلها المتدة حتى أبواب قينا ، لم يبق للأستقراطية المجرية المزهوة رقق . استولى الأتراك على الجزء الأكبر من المجر واحتفظوا به حتى أواخر القرن السابع عشر ، ووضع فرديناند حاكم النساء وصهر لويس ووريث ادعائه يده على الباقي منها . وكانت النتيجة المباشرة لهذا اليوم المشئوم خضوع بوهيميا وال مجر هذا الدهر الطويل لأسرة هابسبورج ، فقد استمر حتى معاهدة سان سترمان بعد الحرب العالمية الأولى . ولم يمكن حشو آثار معركة موهاكز بصورة نهائية إلا بعد أن أوقع النصر الإيطالي في فتوريو فينيتو Vittorio Veneto (١٩١٨) الأهمiar بالإمبراطورية النمساوية .

حقاً لقد تفجر في ساحة موهاكز نبع جديد أمد بالحياة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبيت هابسبورج . ذلك أن الدفاع عن المسيحية ضد الأتراك ، هذا الدفاع الذي كان من الممكن أن يلقى على كاهل الأمة المجرية لولا موهاكز ، قد وقع بمحض الضرورة على عاتق أرشيدوقات النساء . وجدت هذه « الإمبراطورية المفكرة » التي أقيمت على سلسلة من الزيجات الموفقة ، الأمر الذي يبرر وجودها في نظر أوربا المسيحية ، لأنها — وقد اختفت المجر — أصبحت الحاجز الضروري الوحيد القوي في وجه إمبراطورية إسلامية عظيمة متوسعة . أما أن تقوم الإمبراطورية على شتات من القوميات المختلفة ، فلم يكن مما يؤخذ عليها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن لما كانت إمبراطورية هابسبورج تدين بوجودها للخطر التركي ، فإن كل مرحلة من مراحل اضمحلال القوة العثمانية كان يصحبها فقدان إمبراطورية هابسبورج قدرأً مما كان لها من مكانة . وفي النهاية انهار ملك الأتراك والنمسويين على يد عدو واحد — فإن روح القومية الذي تحضّت عنه الثورة الفرنسية قد أهليَّ الشعوب المسيحية في البلقان أولاً ، ثم امتد إلى الكرواتيين والتشيكين والبولنديين ، فحطّم الإمبراطورية النمساوية تحطّماً .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. I, chap. III; Vol. III, chap. IX.
- J. Von Hammer-Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman. Traduit de l'allemand par M. Dochez, 3 vols, (1840-2).
- S. Lane-Poole, Turkey, (1908).
- L. von Ranke, The Ottoman and Spanish Empires in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. W.K. Kelly, (1843).
- F. Donney, The Grand Turke Suleyman the Magnificent, (1929).
- De La Jonquièrē, Histoire de l'Empire Ottoman, (1881).
- G.E. Hubbard, The Day of the Crescent, (1920).
- G. Finlay, History of Greece. Ed. H.F. Tozer, 7 vols, (1877).
- G.G. Macartney, Hungary. Nations of the Modern World, (1934).
- Sir P. Rycaut, The Present State of the Ottoman Empire, (1668).
- F. Palacky, Geschichte von Böhmen, (1844-67).
- E. Denis, Fin de l'Indépendence Bohème, 2 vols, (1890).
- H.F. Brown, Venice : A Historical Sketch of the Republic, (1893).
- Zinkeisen, Geschichte des Osmanischen Reiches, (1840-63).

الفصل الثامن

الإصلاح الديني في ألمانيا

عوامل الإصلاح الديني - المعرفة الجديدة - مغريات البروتستانية - التكنولوجى لدى زعماء البروتستانتية - مارتن لوثر - صكوك الفرقان - البنود الخمسة والسبعين - الخروج على روما - شارل الخامس وبروسوم ورمز - العوامل التي ساعدت لوثر - نجاحه الجزئي - حملته على الفلاحين - زونجلي ولوثر - نجاح حركة لوثر في إسكندرناو وبروسيا - الصدع الذي استعصى على الرأب قبل أن يحل عام ١٥٤١ .

كان الإصلاح البروتستانتي ثورة على كل من الشيوقراطية البابوية وامتيازات الإكليروس؛ كما كان ثورة على روح الوثنية لدى شعوب البحر المتوسط . فهو من ناحية قد اتخذ شكل انتقاض للروح العلمانية على ادعاءات الإكليروس والإعفاءات التي كانوا يتمتعون بها ؛ ومن ناحية أخرى كان حركة إحياء ديني ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التي درجت عليها الكنيسة المسيحية . ويرجع حدوث الإصلاح الديني في الوقت الذي حدث فيه من ناحية إلى إحساس الناس بأن المساوى المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدلت إذ ذاك على جانب كبير من الخطورة ؛ كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن الرغبة في اصطناع شكل آخر من المسيحية أبسط وأكثر روحانية - وهي الرغبة التي استحوذت في ذلك الوقت على عقول كثير من المتحمسين - قد ظهرت في نفس الوقت على شهوة الأمراء العلمانيين الذين سال لعابهم على ثروة الكنيسة بعد أن لمسوا قصور مصادر دخلهم التقليدية عن الوفاء بحاجات الدولة المتزايدة . كما أن هذا الإصلاح الديني قد تجاوب مع مدن القومية الصاعدة وأسرع خطاه تحول البابوية إلى دولة إيطالية . وكانت قد سبقته ثم تماشت معه حركة قوية من التحرر الفكري ، بحيث إن آلاف الجداول الصغيرة المنفصلة من الشك والنقد والاحتجاج - وهي الجداول التي كانت تتجمع طيلة جيل من الزمان - قد التفت أخيراً في نهر صاحب من الثورة . هنا اطرح الفكر العام أوضاع الماضي ، وتهاوت القيود القديمة التي كانت ت Kelvin الفكر وتحصيل المعرفة ؛

فرجع ريونجلن Reuchlin^(١) في ألمانيا إلى العبرية ، ورجع ثاللا في إيطاليا وبوديه Budé^(٢) في فرنسا إلى لغتي المchoror القديمة اللاتينية والإغريقية الأصليتين ؛ وطرأت على أوروبا روح من التنور التقليدي المتقد تحت المعرفة التقليدية ووجهت احتقارها وسخريتها إلى المساوئ والحرافات القديمة . ولم يقتصر رواد التنور على بلد دون آخر : فكان ميكائيلي وقاللا إيطاليين ، وفون هوتن Von Hutten^(٣) ألمانياً وزونجلي سويسرياً ، ورابيليه Rabelais^(٤) فرنسيًا ومور More إنجليزياً وإرزمس هولنديًا . كان بعض هؤلاء من الشراكين ؛ في حين بقى الآخر مخلصاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وانحاز آخرون للثورة حين حل الشقاقي .

ورغم أن حركة التنور في القرن السادس عشر كانت حركة قائمة بنفسها متميزة تماماً عن الحركة البروتستانتية ، فإنها كانت من العوامل التي ساعدت على إنجاحها . فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمي الجديد الميل التقليدي إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التي كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد ؛ واستطاع الرجل العلماني أن يقرأ لنفسه بعد أن أصبح في مقدوره أن يتعلم الإغريقية ، بل العبرية أيضاً ؛ وبذلك تمنى له أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية ، وهي اللغة الرسمية للإكليروس الروماني ، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس . فلم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئاً مقدساً ؛ إذ كانت هناك نصوص أقدم منها وأقدس يجهلها الإكليروس اللاتين ، ولكنها في متناول أولئك الذين يبحشون عن المعرفة ؛ ومن هنا لم يكن هناك بد من أن تظهر فكرة أن العلماني الفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان . وما لبثت تلك

(١) ١٤٥٥ - ١٥٢٢ . إنسان ألماني متخصص في الدراسات العبرية . كان طيلة ربع طويول من حياته المركز الخفي لكل الدراسات الإغريقية والعبرية في ألمانيا .

(٢) ١٤٦٧ - ١٥٤٠ . بحاثة فرنسي نال ثقة فرنسوا الأول الذي شجعه وتجاوب معه ، فتأسست كلية هي التي أصبحت فيما بعد Le Collège de France ، ومكتبة هي التي أصبحت «المكتبة الأهلية La Bibliothèque Nationale » ولقد أقنع فرنسوا بمنع الحظر على التصوير ، وهو المطر الذى كانت جامعة السوربون قد فرضته .

(٣) ١٤٨٨ - ١٥٢٣ . إنسان ومحارب ألماني اشتهر بالسخرية والتجوال ؛ وقد أدت سلطنته إلى الإيقاع به في المتابعة .

(٤) حوالي ١٤٩٥ - ١٥٥٣ . مؤلف فرنسي شهير .

الحركة أن وجدت صداتها لدى أشد المشاعر حيوية وأشدتها تحللا في أوروبا . فن الناس — كالمعمدان Anabaptists ^(١) في مونستر Münster — من اطروا كل ما في النظام القديم من قيود أخلاقية ، ونهم — على النقيض — من تقمصته تلك الروح الكامنة في الرواية المسيحية التي هيمنت على حكمة كلفن في جنيف ، كما هيمنت على الجيش المذوجي ، بجيشه أولئك كرمويل ، وخرج منها ذلك الalon من الحضارة الحادة الجارية وراء الماء الذي قامت في مستعمرة نيوزيلندا وما أنيجت من ولايات .

وفي مقابل ما كانت الكنيسة الرومانية تقدمه من جمال في وظفوس ، كان في مقدور المصلحين أن يقدموا للشعب شيئاً كبيرين لإغرائه : أحدهما بهجة التراتيل الكنسية ، والآخر لذة الاشتراك في صلاة تجري بلغة يستطيع غير المتعلّم أن يفهمها . ثم إنه ليس من الضروري أن تكون تلك المحاولة للأصول إلى الرجل العادى شيئاً سوقياً ؛ فكثيراً ما سمت الموسيقى واللغة إلى مستوى رفيع . وإن إنجليل لوثر وإنجليل تنديل Tyndale ^(٢) وكتاب صلوات كرانمر Cranmer والترجمة الفرنسية لكتاب كلفن « أصول الديانة المسيحية Christianae religionis institutio » كل منها في لغتها ، لقطع رائعة من النثر الفنى ، أما لوثر فيمكن القول بأن شغفه بالموسيقى ومواهبه الفياضة ككاتب ، كانت جزءاً مهماً في تكوينه لا يقل أهمية في حياته عن عمق معارفه وطاقاته الروحية . ولهذا يعد لوثر من واضعي دعائم اللغة الألمانية ، لما اتصف به كتاباته من غنى وغزارة وحيوية ، وإن كانت أقل صفاء من كتابه تنديل وكرانمر . وإنه لأمر بالغ الأهمية لتأريخ الإصلاح البروتستانتى أن من بين الرعيل الأول من رواده بعض الكتاب الذين أتوا من المزاج والعبقرية

(١) أم أطلة، الأعداء على فرق مختلفة كانت تنكر قيمة تعليم الأطفال ، وهي الفرق التي اشتهرت في ألمانيا وغيرها أثناء فترة الإصلاح الدينى . ولمدى ألمانيا أهمية خاصة لأن حماة الإصلاح الدينى قد بدت لديهم بأشكال مختلفة وبذلت للناس مخالفات للقانون ، وإن يكن القصد منها غير ذلك : إذ جوهرها التطرف في فهم ومارسة الإصلاح الدينى .

(٢) حوالى ١٤٩٢ - ١٥٣٦ . متفقة في الشؤون الدينية من أهم أعماله ترجمة المهد الجديد إلى الله الإنجليزية الدارجة . وقد برأ إلى ألمانيا واستطاع أن يهرب إلى إنجلترا نسخاً من ترجمته الجديدة للإنجليل .

ما جعل لكتاباتهم سلطاناً لا يزال يحرك الأفتشدة . وإن قليلاً من فقرات من الإنجيل باللغة الإنجليزية أكثر شيوعاً على ألسنة الناس من الفصل الثالث عشر الرائع من «الرسالة الأولى إلى الكورنثيين» وهذه الترجمة في الأصل من عمل وليم تنديل الذي أحرق بتهمة المهرطقة في عام ١٥٣٧ . وقد تنسب عبشاً في آداب المولارذ والهسبيين لتجد مثل ما خطه هذا الفنان العظيم .

كان مارتون لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) ذلك الفلاح السكسيوني الذي تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامتها وصفاتها ، أحد أولئك الرجال الذين يصلون إلى مراكز الصدارة في العالم ، ليست لأنهم يمتازون بالابتكار ، ولكن لأنهم يحسنون التعبير عن أفكار و حاجات عصرهم . لم يكن لوثر متتفقةً في الدين ولا كان فيلسوفاً ، وهو لم يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح ، ولهذا رفض أن يسلم باحتمال التطور في الفكر الديني ، بل تمسك بكل بشدة باعتقاده أن كل الحقائق المتصلة بالمشاكل القصوى للحياة والفكر كامنة في الكتاب المقدس . ومن هنا لم تستمد الحركات العقلية الحرة في الفكر الأوروبي أصولها من مارتون لوثر الذي كان لاساميّاً عنيفاً . ورغم أنه قد تسبب في قيام ثورة ، إلا أنه لم يكن ثوريّاً ، بل عقريّاً من عباقرة الدين حصل على خبراته بنفسه ؛ وفي بحثه من الخلاص لنفسه اندفع خطوة إلى موقف جعل منه بطل الأمة الألمانية ضد ادعاءات الكنيسة الرومانية .

وإن قسطاماً كبيراً من قوة لوثر ليكمن في كونه ألمانياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ؟ فقد انعكست وتضخمت في مزاجه العاطفي كل عناصر القوة والضعف في الشخصية الألمانية ، بما فيها من رقة وعنف ، ومن إسفاف في القديح إلى ورع إنجيلي من الطراز القديم ؛ ومن موسيقى وعلم ، إلى مرح وتقشف ، وحسن إدراك ومجادلة للنفس ، ومن ندم عنيف إلى اعتداد شديد بالنفس . لم يحدث منذ أيام برباروسا^(١) أن قام في ألمانيا من مثل عصره وجنسه كهذا الراهب السكسيوني

(١) حوالي ١١٢٣ - ١١٩٠ . هو فردرريك الأول الإمبراطور الروماني المقدس ، وقد أطلق عليه الإيطاليون اسم برباروسا أي ذى اللحية الحمراء . قام بست حملات على إيطاليا استوعبت نشاطه لمدة ٣٠ عاماً، كان القصد منها إخضاع شبه الجزيرة . وقد اصطدم بالبابوية ، وكان ذلك جزءاً من النضال الكبير بين البابوية والإمبراطورية . كما قام بجهود كبيرة لتشييد السلطة الإمبراطورية في ألمانيا . وقد اشترك في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، ومن طريقه إلى فلسطين مات غرقاً في آسيا الصغرى .

الضامر الذي مثل عصره بأسوأ به الحشن المكافح ، وبصوته الواضح الجلجل وسيطرته التي لا حد لها على الكلمات والحركات والأخيلة والمناقشات .

ويع ذلك فإنه لا ينبغي أن يتبرد إلى ذهن أحد أن الشعب الألماني الذي نشأ لوثر بين ظهرانيه كان مهيأً لقبول فقه پروتستانتي أو كنيسة منشقة . ولو أن لوثر تقدم إلى الناس في بداية الأمر بهذا أو بذلك لقوبل باستنكار عام ، ولكنَّه لم يأت بشيء من هذا القبيل ؛ بل كل الذي فعله أنه هاجم بيع صكوك الغفران . وإن مصدر ما حصل عليه من نفوذ لا يبارى أنه — وهو الراهب الأوجاعطي — قد شن حملة على تلك المساواة العاملية المتفشية في الكنيسة الرومانية ، والتي كان كل ألماني مستقيم التفكير — مهما بلغ من تعقله بروما — يعتبرها من الناحتين الأخلاقية والدينية ما لا يمكن الدفاع عنه . وحين هاجم لوثر صكوك الغفران لم يعبر فقط عمما يجول بخاطر الألمان ، بل إنه عبر كذلك عن الرأي الصائب في داخل الكنيسة ذاتها .

كانت فكرة أن البابا قادر على إصدار صكوك غفران تجحب الخطايا من كل نوع مستمدَّة من النظرية القائلة بأن القديس بطرس وخلفاء قد خلعت عليهم ميزة توزيع فيض لا ينضب من الثواب على المؤمنين . وهذا الفيض من الثواب يرجع أصلاً إلى تصحيات المسيح ؛ ثم زاد على مر السنين بالأعمال الخيرة التي قامت بها أجيال متتعاقبة من المسيحيين المؤمنين . وقد تجاوبت فكرة الثواب على أنها ليست أمراً موقوتاً ولا شخصياً ؛ بل حصيلة من الثروة الروحية يمكن ادخارها لصالح الأحياء والأموات — تجاوبت في نفس الوقت مع الخيال الديني والمطالب المالية للبابوات على حد سواء . وليس أنسُب لخزانة مرتکبة من أن تحوز مورداً سخيفاً دائمًا لا يبذل فيه صاحبه أي جهد ولا يساوره في المحافظة عليه أي قلق ، ويكون قادرًا باستمرار على استخدامه لتحقيق فوائد مالية . وحين أسفرت عن نفسها المغريات المالية الكامنة في ذلك الكنز الروحي ، تبدلت الأحكام الأخلاقية التي كانت ملزمة لاستخدامه أصلاً . لم يعد هناك إصرار على الاعتراف والتوبة ؛ بل أصبح من الممكن الحصول على غفران كامل من البابا بوليوس الثاني بمجرد المساهمة في إعادة بناء كنيسة القديس بطرس . وذهب البابا ليو العاشر إلى ما هو أبعد من ذلك حين

وعد كل من خرج في حرب صليبية ضد الأتراك برحمة السماوات الباقيه
 Claudio tibi portas inferni et januas aperio Paradisi^(١). فهذا الباب الموصى
 (وليو كان من أسرة مديتشي) قد اغتصب ما كان مفروضًا أنه من صفات الله
 وحده ؟ فلم يقصر دعواه على أنه قادر على التجاوز عن العقوبة على الخطية في
 الحياة ، بل إنه قادر على أن يمحو الخطية ذاتها .

وصلت المهلة مداها إبان حملة لجمع المال لبناء كنيسة القديس بطرس
 قادها في مقاطعى ماينز وجمنبرج المبشر الدومنكاني حنا تنزل John Titzel .

وقد كتب أحد المعاصرين « إنه ليس من المعقول ما ذهب إليه هذا الراهب
 الجاهل الأحمق حين قال للناس إنهم إذا ما ساهموا عن طوعية واشروا الثواب
 وصلت الغفران ، فإن كل تلال سانت أنابورج St. Annaburg ستستحيل إلى
 كتلة هائلة من فضة صافية وأنه ما إن سمع زنين العملة في الصندوق حتى تكون
 روح من دفعت الأموال من أجله في طريقها إلى الفردوس ». مثل هذه الوقاحة
 هي التي دفعت لوثر إلى أن يلصق على باب قلعة كنيسة وتنبرج Wittenburg
 في ٣١ أكتوبر ١٥١٧ تلك البند الخمسة والخمسين التي أشعلت جذوة الإصلاح
 الدينى في ألمانيا بعد أن انتشرت في الناس بسرعة على يد مطبعة صديق له .

ولكن قبل ذلك كان لوثر قد توصل إلى المعتقدات الأساسية التي آمن بها وألهمته
 كل ما قام به في قابل الأيام . وقد جرب الصلاة والصوم وصنوف رياضة النفس ،
 فلم تجلب له راحة ولا خفت قيد أئملاه من عبئه المبرّح بأوزار خطایاه . هناك
 تبين له ما في الإنسان من شرور حقيقة ، وما في الله من خير وضاء ليس في طاقة
 البشر أن يصلوا إليه فتساعل : أين يمجد الوسيلة لاجتياز تلك الحوة المظلمة بين الله
 والإنسان ؟ وتراعت له بشائر الأمل خطوة خطوة : في زيارة لروما أولاً ، ولكنه
 ما لبث أن تراجع لما شاهده فيها من فساد متأصل ، ثم بعد ذلك في إرفurt من
 خلال دروس ستاوپتر Staupitz^(٢)؛ وتوصل آخر الأمر إلى أن الإيمان هو الوسيلة

(١) أغلق لك أبواب النار وأفتح أبواب الجنة .

(٢) حوالي ١٤٦٠ - ١٥٢٤ . متفقة في الشعون الدينية كان له تأثير على لوثر ، وإن بقي
 كاثوليكيًا حتى نهاية حياته .

لعبور هذه المفهوم ، فإن الإنسان إذا ما كان مؤمناً فإنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر في ذاته من شرور مهلكة . أما الأفعال فلا جدوى منها ؛ فالحجج والاحتفالات الدينية والهمس في المسابح وإيقاد الشموع وعبادة المخلفات الدينية لا تudo جميعاً أن تكون عقبات في طريق الخلاص . فإيمان هو شرط الغفران ، والغفران هو الشواب على الإيمان ، وهو معنى كل ما يهم في الحياة المظلمة للإنسان الذي قدر له مصيره . هذه الفكرة اشتقتها لوثر من تعاليم أستاذه القديس أوغسطين^(١) ؛ ولكنه الآن وقد كشف عنها بعد أن كانت غائبة عن إدراك الناس ، تشبيث بها إلى حد التعصب .

وما إن ركب لوثر سفينته الغفران حتى انحدرت به بعيداً وبسرعة إلى مياه صاحبة . فإذا كانت الأفعال عديمة الجدوى ، فأى قيمة إذًا لقسم الراهب أو تعبد الكاهن ؟ وما جاء عام ١٥٢٠ حتى كان لوثر قد توصل إلى أن كل مسيحيي محمد قيس ، وأن روما هي بابل وأن البابا هو المسيح الدجال ، وأنه يجب السماح للقسيس بالزواجه وأن الطلاق أمر شرعى . ثم أتم لوثر خصومته مع روما حتى عزّت على كل علاج برسائله الثلاث المشهورة — الأولى نداء بالألمانية وجهه إلى العلمانيين حثّهم فيه على تولي إصلاح الكنيسة بأنفسهم بعنوان « إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بقصد إصلاح العالم المسيحي » ؛ والثانية رسالة باللاتينية وجهها إلى رجال الفقه الدينى بعنوان « مقدمة عن الأسر البابلى الكنسى De Captivitate Babylonicon » ؛ والثالثة رسالة غربية بعنوان « فيما يمس الحرية المسيحية Ecclesiae Praeludium » وجهاها إلى ليو العاشر في الظاهر على أنها نداء للسلام eirenicon . وقال مخاطبًا البابا بقصد هذا كله « وذلك لأنك ترى ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التي لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أفسد من بابل وسديوم . ولقد أظهرت احتقاري حقًا وانتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يجذع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية ؛ لهذا قاومت ، وسائل أقوام ما وجد فيّ عرق ينبض بروح الإيمان ». وقد يعذر أي إنسان إيطالي حين لا يرى في مثل هذا التصرير أي مظهر للمصالحة —

(١) ٣٥٤ - ٤٣٠ م . هو الفقيه المسيحي الكبير الذي وضع آراءه عن الديانة المسيحية ودفاعه عنها في كتابه « مدينة الله Civitas Dei » .

فكان أن أصدر ليو قراراً بحراً من التأثير وأجاب التأثير (في ١٠ ديسمبر ١٩٢٠) بحراق القرار على علناً.

وفي تلك الأثناء وقع الاختيار على يافع فلمنكى يبدو عليه الجلد وقد بلغ من العمر تسعه عشر ربيعاً لاعتلاء المنصب الإمبراطورى بعد إسراف بالغ في المال والتأمر؛ فكرس الإمبراطور الجديد نفسه توًّا لمعالجة هذه المشكلة الجديدة المضنية: مشكلة التصدى لطريق هو بطل قوى في الوقت نفسه، وبعد مرور وقت طويلاً أتّهم ناپليون شارل الخامس بأنه أضعاف إحدى الفرنس العظيمة في التاريخ حين رفض دعوة لوثر إيه ليتزعم حركة الإصلاح في ألمانيا. ولكن كيف كان يتّسى لشارل وهو من أسرة الحapsبورج وإمبراطور للدولة الرومانية المقدسة وملك إسبانيا الكاثوليكية المشددة في كثلكتها - كيف يتّسى له أن يكون زعماً لثورة ألمانية قومية ضد الكرسي البابوى؟ لقد اجتمعت تقاليد أسرته وتقاليد منصبه الإمبراطوري وعقيدته الخاصة وتربيته والتزعة الحافظة في تفكيره والمشاعر الغالبة على رعاياه الفلمنكين والإسبان لتجعل مثل هذا الاتجاه مستحيلاً؛ فوجد شارل نفسه بالضرورة في وضع المدافع الشخصى عن البابوية ودرع النظام القائم.

وهكذا دعى لوثر إلى ورمز (١٩٢١) لمقابلة الإمبراطور الشاب والمثول أمام أول مجتمع إمبراطوري له وسط تبليل الرأى العام ووجه من سخط الناس على البلاط الإمبراطوري. طلب إلى لوثر أن يسحب ما كان قد كتبه ولكن أجاب في كبر ياء، قوله دون شك شعور بتعضيد خارجي - أجاب بأنه طالما أخطأ بابوات وأنخطأت مجتمع دينية، ونافق الجميع أنفسهم، فإنه لن يسحب شيئاً ما لم يكن متعارضاً مع نصوص الكتاب المقدس أو المنطق الواضح؛ وهو في تشبيه لم يخسر شيئاً. ورغم أن البابا والإمبراطور قد تحالفوا (٨ مايو ١٩٢١) لاختطافه والقضاء على آرائه، فإنه ظل لبعض سنوات أخرى معبد جانبي كبير من الشعب الألماني، خصوصاً الطبقة الوسطى العاكفة على صناعاتها في المدن. أما مرسوم ورمز، الذي جعل منه خارجاً على القانون، فقد كان منذ البداية قراراً أجوف.

وكانت الظروف السياسية في صالح دعوة الإصلاح. فإن الإمبراطور الذي كانت تشتت جهوده مئات المطالب وتحوله بعض الشيء عن ألمانيا: حرب فرنسا

وحاجة إلى سحق العصيان الخطير الذي قامت به المجالس المحلية – فلم يكن إطلاقاً في وضع يمكنه من القيام بضغط متصل هو وحده الكفيل بقمع حركة اعتمدت على تأييد الطبقة الوسطى وأصحاب المطابع . ولم يكن أخوه فروناند حاكم النساء ، الذي كان يواجه الأتراك ، بأحسن منه مركزاً للتصدي للهجرة الألمانية . أما الفرنسيون الذين كان شارل أعمى منافسيهم وأعدائهم ، فقد اعتروا – وهم المستمسكون بالدين « القوم » ولكنهم الحريصون في المسائل السياسية – اعتبروا اللوثريين مستحقين لكل تشجيع : إذ هم مصدر هم دائم يقض مضجع الحكومة الإمبراطورية .

ولا تقوم الكنيسة عادة على نبي واحد – ومن هنا تدين اللوثرية بالكثير لسياسي وباحاثة وجامعة . كان فردريلك العاقل منتخب سكسونيا أحد أولئك الذين لا يمتازون بقوه أو بشيء من الألعلية ، ولكنهم يؤثرون في التاريخ عن طريق ما يبشوئه في نفوس الناس من احترام وما يصطنعونه وقت الحاجة من اعتدال أبيوي رحيم . كان فردريلك حاكماً معتدلاً حكيماً محباً للسلام فخوراً بفرقة الترايم في كنيسته الخاصة ، معترضاً بصورة وقلاعة وجامعة وتنبرج التي هو مؤسسها ، شغوفاً برياضات دينية من الإنجيل ؛ وقد أعطى فردريلك الحركة الجديدة من التشجيع ما كانت في أشد الحاجة إليه في المراحل الخامسة الأولى من تاريخها . فحين أصدر كل من البابا والإمبراطور ضد لوثر قرار الحرمان ، تقدم المنتخب العجوز فحماه من أعدائه ودبر له مخبأ بعيداً عن متناول أيديهم – وفي أراضي فردريلك وبتعصيده منه انصرفت أفكار المصالح الكبير المتأججة ومشاعره المليئة لشكل القالب الذي اتخذته الكنيسة اللوثرية .

هذا هو السياسي . أما الباحاثة فكان فيليب ملانكتون Philip Melanchthon ذلك الباحاثة المادى المتمعن في الدراسات الإغريقية الذي أمد الدين الجديد في ديسمبر ١٥٢١ بأول كتاب أولى له في اللاهوت وهو « كلام معاد Loci Communes » الذي كان – كما لا يلاحظ رانكه Ranke – أول كتاب ظهر في الكنيسة اللاتينية منذ قرون حاويّاً لنظام مبني على الإنجيل وحده ، وقد وصف لوثر علاقته بمانكتون فقال : « لقد نشأت خشنًا جافاً ، عاصفاً أميل للتزال . لقد ولدت لأحارب مردة وشياطين لا عد لهم ، لأزحرج جذوعاً وضخوراً ، وأجتث أشواكاً وأزيل غابات

برية ؛ ولكن المعلم فيليب يقف في رفق وهدوء ومرح ، متحلياً بالنعيم الكثيرة التي أنعم الله بها عليه » .

أما الجامعات فكانت جامعة وتنبرج التي ما لبثت أن أصبحت المهد الأساسي للتعاليم اللوثرية ومنافساً خطيراً للتعليم التقليدي في السوربون . وإليها جاء طلاب العلم من جميع أصقاع ألمانيا ، بحيث غدت بثابة المعلم العظيم للأدب اللوثرى . وفي هذا المكان الصغير وجد العقل القوى لألمانيا ، وهو العقل الذي أثرت فيه مشاعر هذا العصر المحتمد وحوادثه ، وجد من يعبر عنه بلغة استطاع كل ألماني أن يفهمها ، ومنه أيضاً استمد بعض الأساتذة في جامعة كيمبردج في إيسنجليا التعليم المستوحاة من الإنجيل رأساً ، وهي التعاليم التي ساعدت على تحول إنجلترا إلى المذهب البروتستانتي ، وخلعت فجأة على معهد مغمور في منطقة مليئة بالمستنقعات مكان الصدارة في الحياة الفكرية عند الشعب الإنجليزي .

وبالرغم من الحماسة الشعبية الملتهبة ، فقد عجز المصلحون عن تحويل ألمانيا إلى بلد بروتستانتي . فإن الانقسامات السياسية المتواصلة التي عوقت ذلك الشعب العاشرف لعدة قرون قد أثبتت أنها أقوى من موجة السخط على مساوي البابوية التي عمّ انتشارها .

قبلت بعض الدول الألمانية النظام الجديد ؛ في حين بقي بعضها الآخر مخلصاً للنظام القديم . فتألفت عصبة من الدول الكاثوليكية التي ارتبطت معاً في راتسبرون Ratisbon (١٥٢٤) ، كما تألفت عصبة أخرى مضادة من الدول البروتستانتية في ترجاو Torgau (١٥٢٦) ثم اتسع نطاقها في شمال ألمانيا Smalkalden (١٥٣١) . وقد وجدت ألمانيا السلام في نهاية الأمر ، ولكن بعد حرب دينية أحررت تطور البلاد مدى قرنين من الزمان خرجت منها الحضارات الأحدث في سكسونيا وهسن وبروسيا وبراندنبورج معنقة العقيدة اللوثرية ؛ في حين أنه - بصفة عامة - بقيت تلك الأجزاء من ألمانيا التي كانت فيما مضى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، خصوصاً بافاريا والنمسا وإقليم الرين - بقيت مخلصة للعقيدة الكاثوليكية .

وهكذا تطورت الحركة اللوثرية في بضع سنوات ؛ إذ بعد أن كانت في أساسها حركة وطنية وشعبية ، لم تعد لا وطنية ولا شعبية . اقتصرت العقيدة الجديدة على

بعض الإِمارات والمدن الحرة ، واعتمدت في كل مكان على عطف الأمراء والحكومات إلى حد كبير ؛ بينما لقيت معارضة وسخطاً من جانب طبقات برمتها من المجتمع وفي دوائر فكرية كثيرة . وأعجب الإنسانيون بالنقد الذي وُجه إلى الجمود البابوي ، ولكنهم ما لبوا أن انزعجوا لإغراق لوثر في العنف ؛ بل إن لوثر نفسه قد تراجع عن تأييد الفلاحين الثوار (١٥٢٥) : فكتب رسالة سجلت انشقاقه عن الديموقراطية الألمانية ، وألّب فيها انتقام النساء على الكادحين من فالحي الأرض الذين نشأ هو منهم .

ومنذ تلك اللحظة وقفت الكنيسة اللوثرية بشكل قاطع إلى جانب النظام المدنى والسلطان . كان هذا القرار من حيث المبدأ قراراً حكماً — فإن سفينة الإصلاح كان من الممكن أن تهوى إلى قاع خضم من الفوضى . وما يشهد بحكمة لوثر أنه وقف ضد كل الحركات التي تدعو إلى الخروج على القانون في غير مسئولية : سواء من أنبياء هاذين أو قواد جند مرتبطة متمسكت بنصوص الإنجيل ، أو مع مدین فوضويين . ولكن الطريقة التي فصل بها لوثر حركته عن ثورة الفلاحين ، وفشلها في اقتراح أساس للتفوق والمصالحة ، وتشجيعه لإجراءات القمع التي اتصفـت بالوحشية لدرجة تركت الفلاحين الألمان أكثر عجزاً وهواناً عن أية طبقة اجتماعية أخرى في وسط أوربا أو غربيها — كانت كلها بقعاً سوداء لطخت سمـعـته الطيبة . لقد كان الفلاحون الألمان رجالاً غلاظ الطبع ومحاربين أفظاظاً ؛ ولكن شكاواهم كانت حقيقة ومطالبـهم الأصلـية عـادـلة وـمـعـقولـة . وإن اقرانـ اللـوـثـرـيةـ بـإـجـرـاءـاتـ القـمعـ التي قـامـتـ بهاـ أـرـسـتـقـرـاطـيـةـ مـلـاـكـ الأـرـاضـىـ الـذـينـ لاـ تـعـرـفـ قـلـوـبـهـمـ الرـحـمـةـ ،ـ بـتـدـنـىـ طـبـقـةـ الفـلاحـيـنـ ،ـ وـهـىـ أـوـلـ طـبـقـاتـ الـجـمـعـ بـالـتـعـضـيـدـ —ـ كـلـ هـذـاـ مـاـ أـدـىـ إـلـىـ نـقـصـ فـاحـشـ فـيـ الطـاقـاتـ الـحـيـوـيـةـ لـلـحـرـكـةـ اللـوـثـرـيـةـ .

ولا يقل عن ذلك أهمية لمـستـقـبـلـ البرـوتـسـ坦ـتـيـةـ الـأـلـمـانـيـةـ إـصـرـارـهـاـ عـلـىـ الـانـشقـاقـ عنـ حـرـكـةـ الإـصـلـاحـ الـدـينـيـ فـيـ سـوـيـسـرـةـ .ـ كـانـ السـوـيـسـرـيـوـنـ لـاـ يـزـالـوـنـ أـشـهـرـ جـنـدـ مـرـتـبـةـ فـيـ أـورـباـ ،ـ وـلـقـدـ أـوـتـوـاـ حـظـاًـ وـافـرـاًـ مـنـ قـوـةـ الـبـدـنـ ،ـ مـعـ تـأـخـرـ فـيـ تـذـوقـ الـفـنـونـ وـطـبـيـاتـ الـحـيـاـةـ ؛ـ وـقـدـ فـصـلـهـمـ جـبـالـهـمـ عـنـ حـرـكـاتـ الـعـامـةـ فـيـ أـورـباـ .ـ وـلـكـنـهـمـ فـيـ عـامـ ١٥٢٢ـ اـنـجـرـفـوـ لـأـوـلـ مـرـةـ فـيـ تـيـارـ الإـصـلـاحـ الـدـينـيـ وـنـقـدـ الـعـقـائـدـ وـالـعـادـاتـ .ـ بـدـأـتـ

الحركة في زيورخ ، وكانت حركة أخلاقية من ناحية إنسانية ووطنية من ناحية أخرى ، ودينية من ناحية ثالثة – وهي ككل حركات الثورة الدينية ساورها قدر ليس بضئيل من السخط الذي يتحفز للثورة على الأوضاع والقيود القديمة المقررة التي أحاطتها الناس بالاحترام . كان أرخ زونجلي Ulrich Zwingli ديمقراطياً جمهورياً إنسانياً ، وببدأ أهل زيورخ تحت قيادته يتبيّنون أن من العار على من يحترم نفسه من أهل زيورخ أن يتلقى إعانة أو أجراً من دولة أجنبية . وهكذا سرعان ما أخذت خيرة الوطنية الدافئة تتعمل فعلها بين مواطنى هذه المدينة القائمة على شاطئ تلك البحيرة الماءة ، فعاهدوا أنفسهم على « لا يكونوا تبعاً لفرنسا ولا للإمبراطور ، بل يكونون مواطنين صالحين لزيورخ والاتحاد » ؛ وصاحب هذا الإصرار على أن يكونوا سويسريين بأى ثمن إصرار آخر على « لا يكونوا تابعين لروما مما كلفهم ذلك . هاجم زونجلي الصوم في Lent ، كما هاجم تحريم الزواج على رجال الدين وعهود الرهبنة واستعمال اللاتينية في الصلوات الكنسية وعقيدة الوجود الحقيقي في القربان المقدس . ولقد كان المصلح السويسري أشد تطرفاً من لوثر وأكثر منه تتوّراً وأقل منه تأثراً بأفكار العصور الوسطى . لهذا فإنه حتّى الخطى دون تردّد نحو الانفصال التام عن روما . وما وافى عام ١٥٢٩ حتى كانت ست من المقاطعات الثلاث عشرة وبعض المدن القليلة في جنوب ألمانيا قد أخذت جانب الإصلاح الزونجلي .

وقد ارتدى فيليب أمير هسن (ولقبه الرسعي Landgrave) ، وهو أقدر الأمراء الألمان الذين انحازوا إلى لوثر ، مدى الميزات التي يتحققها تحالف القوتين الألمانية والسويسرية ؛ ولو كان الساسة هم الذين تزعموا الحركتين لأمكن إتمام هذا الاتحاد . ولكن لسوء الحظ لم يكن لوثر ولا زونجلي من رجال السياسة ؛ بل كانوا من رجال الدين ، وكان كل منهما شديد التشبت بال موقف الذي وقفه من قبل . وقد حاول الأمير عبشاً أن يؤثر على الفقيهين المتنافسين لكي يجتمعوا في مؤتمر في ماربورج Marburg (١٥٢٩) . ورغم إمكان الاتفاق على كثير من النقاط الثانوية ، لم تستطع أية حجة أن تزيل الهوة التي أثارتها بين المتنازعين المشكلة الرئيسية الخاصة بوجود جسم المسيح في القربان المقدس . قال زونجلي إن العشاء الرباني كان

احتفالاً رمزيّاً : أما لوثر فرغم رفضه وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن جسم المسيح ودمه قد حلا محل العناصر ، فإنه قال بأنّهما قد انصهرا بهذه العناصر جميعاً كما توجد النار في الرصاص المنصهر . وحين جلس لوثر على كرسيه في المؤمن ، كتب على المنضدة أمامه : « هذا جسدي Hoc est corpus meum . » ولم يجد بدأً بعد ذلك من التسلك بذلك النص الواضح ، وعلى الصخرة العتيقة التي أقامتها هذه الكلمات الأربع تحطم حلم إقامة اتحاد پروتستانتي واسع ينطوي المقاطعات السويسرية ومدن جنوب ألمانيا وإمارات ألمانيا الشمالية .

وعلى ذلك لم تصب اللوثيرية أى توفيق في سويسرا ، كما أرغمت على التنازل عن كثير مما أصابته أولاً من نجاح في ألمانيا . ولكنها عوضت نفسها بما فقدته باستقرارها في ممالك إسكندرانية الشمالية التي لا تزال حتى اليوم على المذهب اللوثري ، وهو مذهب معتمد يناسب اعتداله الملوك الإرastيين ويلاّم شقاء الشمال الطويل القاسي .

والسنوات العشرون التي أعقبت مرسم ورمز من أشد الفترات قلقاً ودقة في تاريخ ألمانيا . ولاشك أن قوماً جادين يواجههم هذا المزاج المتنافر من الآراء المنضاربة ليسائلون أنفسهم عما إذا كان كيان الريخ الألماني سيخرج سليماً من مثل هذه الصدمة الشديدة أو عما إذا كانت الحضارة ذاتها ستغرق في طوفان من الفوضى . ولكن الأمل كان لا يزال يلح على الناس في إمكان رأب هذا الصدع ؛ فلو أن في الإمكان فقط دعوة مجمع ديني ، إذن لأمكن القضاء على محاذي الكنيسة التي يعرفها الجميع ووضع أساس يرضي كل المسيحيين الصادقين بالاتفاق حوله . ولم يكن أحد إيماناً من شارل الخامس - بشعوره الطيب وضميره الحي - بضرورة إعادة السلام الديني .

ولم يكن في وسع الإمبراطور أن يعمل الكثير مما يساعد على حل المشكلة . فقد واجهته الأعباء في إسبانيا وإفريقيا وإيطاليا والأراضي المنخفضة ، وهى بالنسبة إليه كانت أشد حاجة إلى الجسم من التوفيق بين الخلافات الدينية في ألمانيا . وفي خلال تلك الفترة الخامسة من العشرين عاماً لم يزز هذا العاهل المثقل بالأعباء رعایاه الألمان أكثر من مرة واحدة (١٥٣٠) حين ترأس جلسات الجمع الإمبراطوري

في أوجزبورج Augsburg وانساق إلى رفض «إعلان للعقيدة Confessio» وضمه ملائكتون الداعية إلى التوفيق ، وهو البيان الذي أطلق عليه اسم اعتراف أوجزبورج واعترف به منذ ذلك الوقت على أنه العرض الأصيل للعقيدة اللutherية . وهكذا دون تدخل من جانب الدول العظمى انتشرت العقيدة اللutherية في ألمانيا الشالية ، واعتنقتها الناس حتى في بروسيا حيث قرر ألبرت أوف براندنبورج القائد الأكبر للفرسان الألمان (١٥٢٥) أن يفرض الطابع العلماني على دوقيته وأن يحكمها باعتبارها إقطاعاً له من التاج الپولندي ؛ مدخلاً عليها في الوقت نفسه النظام السكسوني للطقوس الدينية وحكم الكنيسة ، ومن السهولة بمكان أن نتصور النتائج التي تربت على ذلك العمل ؛ فإن النظام الجديد وطد أقدامه بمرور السنين والنفت حوله مشاعر وارتباطات جديدة بحيث أصبح من الصعب القضاء عليه . وعندما عاد شارل الخامس إلى ألمانيا في عام ١٥٤١ بعد غيبة تسعة سنوات وتصدى لمشكلة التوفيق من جديد ، كانت المشكلة قد أصبحت أشد تعقيداً منها في أي وقت آخر ، وذلك بسبب تلك المصالح المكتسبة التي فرضت نفسها وأصبح من المستحيل الرجوع عنها . وقد تحطم آخر محاولات التوفيق في راتسبرون . حينئذ أصبحت الفروق بين الكنيستين اللutherية والرومانية أكثر اتساعاً وأعمق أثراً وأكثر تعددًا بحيث استعانت على العلاج .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. II.
- T.M. Lindsay, History of the Reformation; Vol. I, in Germany; Vol. II. in lands beyond Germany, (1905).
- B.J. Kidd, Documents Illustrative of the Continental Reformation, (1911).
- T.M. Lindsay, Luther and the German Reformation, (1900).
- The Table Talk of Martin Luther. Tr. & ed. William Hazlitt, (1848).
- Luther's Primary Works. Tr. & ed. H. Wace and C. Buchheim, (1896).
- L. von Ranke, Deutsche Geschichte in Zeitalter der Reformation. Tr. Sarah Austin, History of the Reformation in Germany, (1905).
- L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus and R.F. Kerr, (1894-1933).
- S.M. Jackson, Huldreich Zwingli, 1484-1531, (1903).
- W. Oechsli, History of Switzerland, 1499-1914. Tr. E. and C. Paul, (1922).
- E. Belfort Bax, The Peasant War in Germany, (1899).
- E. Belfort Bax, Rise and Fall of the Anabaptists, (1903).

الفصل التاسع

خروج إنجلترا على كنيسة روما

هنري الثامن في شبابه – الحركة الإنسانية والعقيدة الخففة – المزاج الإنجليزي – المشكلة الاجتماعية – مكانة الملكية – عدم وجود معارضة متحدة – توماس ولزي Thomas Wolsey – الطلاق – ببيان الإصلاح Act of Supremacy – توماس كرومويل Thomas Cromwell – حل الأديرة – قانون السيادة Thomas Cranmer – الخدمتان اللتان أداهما الطريق الوسط الذي انتهجه هنري – توماس كرانمر Thomas Cranmer – الخدمتان اللتان أداهما للإصلاح الديني – إدوارد السادس وماري – أسباب إبحاج الشعب عنها – شهاده عصر ماري – أعداء إنجلترا .

في عام ١٥٠٩ بدأ هنري الثامن أنموذجًا كاملاً لشاب من أمراء النبلة : كان يافعًا غصًا لا يزيد عمره على ثمانية عشر بعيًّا ، طويلاً متورداً الوجنتين ظريفًا كجده إدوارد الرابع ، تتفجر منه حيوية دافقة ، ماهرًا في كل رياضات الرجال . اتصف بشهوة فائقة للصيد وللقمار وعشق النساء ومبارة الفرسان ، وامتزج فيه هذا كله بتندوq لصحبة المثقفين من الرجال وبخيال داعبه – وإن لم يسترسل فيه كثيرًا – لضم إحدى المقاطعات الفرنسية ووضع الناج الإمبراطوري على رأسه . وما إن اعتلى هنري العرش حتى تزوج كاثرين الأرجونية ، وهي سيدة جادة دمثة الأخلاق تكبره بست سنوات ، كانت أرملة لأخيه الأكبر آرثر الذي توفي فجأة في لدلو Ludlow في سن السادسة عشرة بعد زواج دام أربعة شهور . وفي عام ١٥٠٣ أصدر البابا يوليوبس الثاني (١٥٠٣) فتوى أقرت الزواج من أرملة آخر متوف ، وذلك رغم النص الرسمي للشتقوكوس Leviticus^(١) .

وقد أغرم الملك الشاب – عدا مفاتن البلاط والصيد – بأمررين لم يعرفا كثیراً في الملوك الإنجليز حتى ذلك الوقت . كان هنري مغرماً بالبحر ، فبني الأحواض البحرية الملكية في ولتش Woolwich وDeptford وأنشأ ترسنی هاوس Trinity House ، وهي مدرسة لإعداد رجال البحر ، وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء

(١) الجزء الثالث من العهد القديم .

أسطول ملكي ووضع أساس قوة إنجلترا في البحر . وكان أول ملك إنجليزي له أسطول بمعنى الكلمة على أحدث طراز . وحين أُنزلت السفينة « برينسيس ماري » إلى البحر في عام ١٥١٩ حضر الاحتفال كل رجال البلات ؟ أما هنري - كما أخبرنا المعمون الفرنسي الذي اشترك في الاحتفال - فقد « سلّك مسلك أهل البحر : ليس سترة البحار وسرروا مصنوعاً من قماش مذهب ، وسلسلة ذهبية نقش عليها ” الله وعدلي Dieu et mon droit ” وعلقت فيها صفارة كان يبعث فيها صفيرًا مرتفعاً كأنه صوت النغير ». وفي هذه وفي شؤون كثيرة أخرى كشف الملك الشاب عن مزاج الشعب الإنجليزي وتمشى مع روحه .

أما الأمر الثاني الذي شغف به الملك فهو المسائل الدينية التي كانت قد أصبحت - كما أصبح الاقتصاد في أيامنا - أساساً لدراسة السياسة .قرأ فلسفة توما الأكويني^(١) وناقشها؛ بل إنه كتب بحثاً نشر في عام ١٥٢١ ردًا على لوثر كان من نتيجته أن أتّم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامي العقيدة Fedei Defensor . وكلما تقدمت به السن وزداد اهتمامه بنفسه بما شعوره بالثقة في عقيدته إلى حد أن أصبح يعد نفسه في كل المسائل العليا الخاصة بالعقائد الدينية القاضي الفرد الذي لا ضرورة لغيره ، الوثيق الصلة بغايات الله وموضع سره . كانت وجهات نظره متماشية مع البابوية ؛ وفي كثير من المسائل الأساسية كالقدس أو تحريم الزواج على رجال الدين كان شديد التمسك بالعقيدة التقليدية . وحين اشتbulk في حرب خارجية لأول مرة كان هدفه نصرة البابا يوليوبوس الثاني ضد لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، وأحرز نصراً في معركة سپرز Spurs ثم نصراً آخر أشهر في فلودن فيلد Flodden Field - وهو الانتصاران اللذان أعادا إنجلترا سمعتها كدولة مهيبة الجاذب في أوروبا ، بالرغم من أن أهميتها لم تبق قائمة .

أما الشعب الإنجليزي فكان - على عكس ملكه ، وعلى عكس الشعب الإسكتلندي - غير مبال للبحوث الدينية . وقليل من البلاد من تأثير - كإنجلترا - هذا التأثير الطفيف بالمقارنة أو عرف عنه مثل هذا الإخلاص لروما . وكانت حركة

(١) ١٤٢٥ - ١٤٧٤ . شيخ الفلسفة المدرسيين المسيحيين . وكان أتباعه يقولون بالقدرية والإيمان حتى وينكرن عقيدة أن مريم ولدت خالية من كل خطيئة .

اللولارذ استثناء قريب العهد ، ولكنها كانت حين اعتلى هنري العرش قد فقدت تأثيرها على الجامعات وأهل الريف وغدت عقيدة حفنة مبعثرة من الرجال المعمورين رقيق الحال الذين كانوا يمتهنون حرفًا متواضعة في بعض أزقة لندن أو يحرقون الشجر لصنع الفحم في غابات الساحل في تشيلترنز Chilterns . ولم يُيد البارونات أو أهل الريف في إنجلترا كثيرون اهتمام بالمسائل الكبرى التي دار حولها الجدل وكانت تشغل اهتمام الناس في القارة الأوروبية ، كالمسائل المتعلقة بالقدرة أو التبرير بالإيمان . وكان الرجل الإنجليزي العادى يكن في قراة نفسه ولاءً غريزياً للأمور المتواضعة عليها وخاصة القدس والطقوس الكاثوليكية . أما في الجامعات ، حيث كان يتلقى موظفو الدولة تعليمهم – وبالأخص في جامعة كيمبردج – فقد ظهرت حركة دينية سببها الاتصال باللوثريين وكتاباتهم . ولكن هذه الآراء التجديدية كانت في أوائل عهد هنري الثامن مقصورة على صفة من أهل الفكر الأكاديمي .

ورغم أن الشعب الإنجليزي يغلب عليه طابع المحافظة ، فإنه كان أيضًا بصفة عامة لا يميل إلى رجال الدين ؛ ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين في لندن والمدن التجارية . وكانت الطبقة التجارية قد بدأت تتحدى الأسس التي تعتمد عليها الكنيسة الإنجليزية العتيقة الغنية واسعة السلطان ؛ وكان الجبلاليون (١) الإنجليز يعتقدون على ما يتمتع به القسّيس من امتيازات وما يحوزون من أملاك . كان يسوؤهم أن يعني رجال الدين من التشريع الجنائي الذي يخضع له أفراد الناس في الوقت الذي يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائي . وتساءلوا : لماذا يفلت سافك الدماء فعلام العقوبة إذا استطاع أن ينشد مقطوعة من المزامير واستحق بذلك أن يكون رجل دين ؛ وأى حق يحمل محكمة الأسقف الحكم على رجل علماني بالحرق بتهمة المهرطقة دون أى تدخل أو مانع من جانب السلطة المدنية ؟ هذه وشكوى أخرى ، وإن كانت قد لقيت بعض العناية في التشريع في عام ١٥١٢ ، هي التي كانت موضع النقد والتجريح الشديد في البرلمان الذي انعقد في عام ١٥١٥ .

وهناك سبب مشهور ، لم يعط عنه اللثام تماما حتى اليوم ، هو الذي أشعل

(١) أنصار الإمبراطورية أثناء نضالها مع البابوية في المصور الوسطى .

نار البحدل . فقد وجد عُمَان رتشارد هنّ Richard Hunne ، وهو تاجر وترزي ثري جواد ، مشنوقاً ومعلقاً في قصر أسقف لندن . أما الإكليروس فكانت لهم وجهة أخرى . فعلى حين كان الناس في لندن مصممين على تصديق كل ما هو مشين في حق القسّس ، أصرت محكمة الأسقف المتعقدة فوق جثمان الرجل على أن التاجر كان زنديقاً لم يتبع عن زندقته وأنه أقدم على قتل نفسه ؛ وهذا أحرق جسده وأعلنت مصادرة أملاكه وضمها إلى التاج . واشتراك الجميع في مناقشة هذه القضية ، ووسط خضم من التهم المتراسقة التي أثارها موت هنّ ، أثيرت كل القضايا الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة وأوضحت مداراً للمفاوش . ولم يوقف هذا النزاع الحاد الذي كان ينذر بعواقب خطيرة إلا الإقدام على حل البرلمان .

ورغم أن اتجاه الرأي العام كان في معظمها علمانياً لا يميل إلى الإكليروس ، فإنه لم يكن ثوريّاً . ولم تلهب حركة الإصلاح الديني في إنجلترا تلك المراة الاجتماعية بين الطبقات التي أشعلت ثورة الفلاحين في ألمانيا . حقاً لقد كان ثمة أشياء معينة لم يستطع الشعب الإنجليزي قبولها . منها الصرائب الفادحة ، ومنها الحرب مع الأراضي المنخفضة التي كان من شأنها أن تقضي على تجارة الصوف . ثم جاء الاضطراب بخصوص « القرض الودي The Amicable Loan ^(١) » في عام ١٥٢٣ ، والسيطرة الجديدة المنذر بالشر من جانب الرأي العام في عام ١٥٢٨ حين فكر هنري في الدخول في حرب مع شارل الخامس – وكانت هذه الأحداث نذراً أوضحت للعاشر الثاقب الفكر حدود سلطته . ولكن طالما كانت جيوب ملوك الأرضي ومربي الأغنام وتجار الأقمشة منتفخة بعيدة عن متناول الحكومة ، لم يكن هناك خطر كبير على سلطة الملك . حقاً كانت توجد مشكلة اجتماعية خطيرة من وراء كل ثورة شعبية في هذا العصر ؛ فقد زاد اعتبار الأرض سلعة ينظر إليها من زاوية تجارية ؛ ونتيجة للتقدم المستمر في تجارة الأقمشة التي كانت أولى صناعات إنجلترا ، غدت الأغنام أكثر جلباً للربح من الحبوب ، وغدا استغلال أرض المزارع أكثر فائدة من زراعتها .

(١) احتمم البرلمان في عامي ١٥٢٢ و ١٥٢٣ حين طلبت الحكومة منه مبالغ وافرة لكي تتفق منها على الحرب مع فرنسا – مما ترتب عليه عدم دعوته حتى نهاية حياة ولزي . حيث ذهب الملك إلى « المنع والهبات الجبرية » ، وطلب في عام ١٥٢٥ « قرضاً وديياً » قيمته سدس دخل كل فرد . وثار الرأي العام ضد هذا القرض وكاد ينشب المتصيّان .

بمقدار النصف ، وفتحت شهوة ملوك الأرض والمصارعين في الأرض من سكان المدن ، وأصبح من الممكن جن مكاسب ضخمة من الأرض بوسائل متعددة : كثرييز الممتلكات العقارية أو تسوير الأرض العامة بقصد استغلالها في الزراعة أو الرعي أو تحويل أراضي الفلاحة إلى مراع للأغنام . هذه الخطة كانت معروفة في القرن الخامس عشر ، أي أنها لم تكن بدعاً على أي حال . ولكنها طبقت في القرن السادس عشر على نطاق واسع أثاراً ضيقاً وفزعًا وقاشاً . فما مصير المزارع الذي حرم أرضه ؟ وما مصير عمال الحراثة الكثيرين ، وقد استبدل بهم في الحقل راع واحد ؛ وما مصير الفلاحين الذين كانوا يزرعون بالمشاع ، فانتزع منهم مورد رزقهم بتسوير الأرض وربط ملكيتها ؟ إن هذه المشكلة الاجتماعية هي مشكلة طبقة ريفية فقدت أملاكها وبيوت خربت وقرى هجرها أهلها ومتشردين يزرعون الطرقات ويهاجرون إلى المدينة زرافات ووحدانًا — أصبحت هذه المشكلة خطيرة في حد ذاتها ، وزادها خطورة ارتباطها بسياسة الكنيسة التي جعلت من كل قس كاثوليكي متّحمس مرشحاً ليكون قائداً للثورة ودفعت بالرهبان إلى سوق العمل ، وحطمت أجهزة العصور الوسطى التي كانت تقدم المعozات للفقراء .

وقد يكون هذا الداء أخطر في الخيال منه في واقع الأمر . وقد تكون النتائج الاقتصادية التي تمخضت عن تسوير الأرض قد بالغ فيها الكتاب المعاصرون . ومع ذلك فما لا شك فيه أن المدود الذي اتصفت به الحياة الريفية الإنجليزية منذ القديم قد اضطرب الآن ، وأن شعوراً جديداً بالقلق قد انتشر على نطاق واسع جداً بين فقراء الريف . كما يحدث عادة في فترات الاضطرباب الاقتصادي ، كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراe يزدادون فقرًا . وكانت المصالح المكتسبة من القوة بحيث كانت تستطيع أن تعرقل محاولات الإصلاح التي تقوم بها الحكومة .

ويلاحظ أنه رغم كل هذه العوامل الحركة للاستقطاب التي يمكن أن يضاف إليها الارتفاع المطرد في آثمان ضرورات الحياة ، لم تؤد القلاقل الشعبية إطلاقاً إلى زعزعة مركز حكومة التيودور بشكل خطير . فقد كان باستطاعتها في كل مناسبة أن تجمع العصيان بغير مشقة كبيرة ودون أن يكون لديها جيش ثابت أو بوليس نظامي (وإن كانت قد بحثت في عام ١٥٤٩ إلى استخدام قوة طارئة من المرتزقة الأجانب الذين

تصادف وجودهم حينئذ بالبلاد) . ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية : فن ناحية كانت الثورات إقليمية لم يتصل بعضها البعض الآخر ؛ ومن ناحية أخرى كان النبلاء وكبار المالكين عنـى عن القراء ؛ كما أن احترام التاج والأسرة المالكة كان في الطبيعة من المشاعر السياسية لدى الشعب — فإن روح الطاعة السياسية قد ازداد عمـقاً في ضمير الأمة نتيجة للحرب الأسرية التي كانت لا تزال قائمة عالقة في الأذهان والتي انتهت على ساحة بسورث Bosworth Field .

وقفت ملكية التيودور حائلاً دون تجدد الصراع الأهلـي في البلاد . وقد وضعـت نصب عينـها الحافظة على السلام والنظام وتطبيق العدالة وكسر غارب الطبقة الأـستقراتـية وحماية القراء وتشجيع التجارة . وقد نجـت الأسرة من خطـار تولـي حـاكمـ قـاصر تحت الوصـاية ، وفشلـت محاولة لـنقضـ النظامـ المـقررـ لتـوليـ العـرشـ حينـ دـعـتـ ليـديـ چـينـ جـرـایـ Janeـ Greyـ إلىـ الحـكـمـ بـحرـکـةـ منـ أـكـثـرـ حـرـکـاتـ التـارـیـخـ الإـنـجـلـیـزـیـ تـلقـائـیـ (١)ـ وأـشـدـهاـ مضـاءـ . ورـغمـ أنـ العـرـشـ الإـنـجـلـیـزـیـ لمـ تـعـتـلهـ اـمـرـأـةـ مـنـذـ عـهـدـ مـاتـلـداـ Matildaـ فقدـ كانـ يـكـنـىـ مـارـىـ وـلـأـخـتـهاـ إـلـيـزـابـيثـ منـ بـعـدـهاـ أـنـ تـكـونـاـ اـبـنـىـ مـلـكـ مـنـ مـلـوكـ التـيـودـورـ . وـلـمـ تـكـنـ مـباـشـرـةـ الـحـقـوقـ السـيـاسـيـةـ هـيـ المـثـلـ الـأـعـلـىـ لـدـىـ إـنـجـلـیـزـ ذـلـكـ الـعـصـرـ ؛ وـانـصـرـفـ هـمـهـمـ إـلـىـ أـنـ تـبـقـيـ أـسـرـةـ التـيـودـورـ حـاكـمـةـ . وـكـانـ الـوـلـاءـ لـلـمـلـكـيـةـ مـنـ القـوـةـ بـجـيـثـ إـنـ شـكـسـپـيرـ استـطـاعـ أـنـ يـكـتـبـ مـسـرـحـيـةـ «ـ الـمـلـكـ يـوـحـنـاـ King Johnـ »ـ دونـ أـنـ يـذـكـرـ «ـ الـعـهـدـ الـأـعـظـمـ Magna Cartaـ »ـ . وـالـحقـ أـنـ الـمـلـكـيـةـ قدـ بـلـغـتـ مـنـ القـوـةـ حدـاًـ مـكـنـهاـ — رـغـمـ أـعـمـالـ الـإـجـرـامـ وـالـقـسـوـةـ الـتـىـ اـقـرـفـهـاـ هـنـىـ الثـامـنـ — أـنـ تـجـتـازـ بـالـبـلـادـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ الـحـرـجةـ مـنـ تـارـیـخـهاـ وـقـدـ جـنـبـهـاـ وـيـلـاتـ حـربـ دـيـنـيـةـ .

وـقـدـ قـنـعـ هـنـىـ مـلـيـ أـرـبـعـةـ عـشـرـ عـامـاـ (ـ ١٥١٥ـ - ١٥٢٩ـ)ـ بـأـنـ يـتـرـكـ الـحـكـمـ الفـعـلـيـ فـيـ الـبـلـادـ فـيـ يـدـ تـوـمـاـسـ ولـزـيـ . وـمـنـ سـخـرـيـةـ الـأـقـدارـ فـيـ تـارـیـخـ حـيـاةـ ذـلـكـ الرـجـلـ الـخـارـقـ لـلـعـادـةـ أـنـهـ ، عـلـىـ حـيـنـ اـرـتـبـطـتـ كـلـ أـطـمـاعـهـ بـالـبـابـوـيـةـ ، لـمـ يـفـقـهـ أـحـدـ فـيـ الـعـمـلـ عـلـىـ تـهـيـيدـ الـطـرـيقـ لـقـيـامـ دـوـلـةـ إـرـاسـتـيـةـ . وـلـقـدـ سـعـىـ لـيـضـعـ نـفـسـهـ مـكـانـ الـبـابـاـ فـيـ إـنـجـلـیـزـ بـمـثـابـةـ مـنـدـوبـ فـوـقـ الـعـادـةـ (ـ Legatus a Latereـ)ـ وـلـيـجـمـعـ فـيـ يـدـيـهـ كـلـ مـقـالـيـدـ

(١) من ١١٠٢ إـلـىـ ١١٦٧ـ .

السلطة الكنسية ، وبذلك أبطل واژى دستور الكنيسة الإنجليزية الذى يرجع إلى أيام العصور الوسطى ، وعلى هنرى كيف يكون سيداً في بلاده . وظل واژى حتى آخر عمره لا ينفك طامحاً إلى منصب البابوية ؛ ومع ذلك فلا أحد - حتى الاوثررين - قد فاق هذا الكاردينال في بته في نفوس الناس مثل هذه الألفة الشديدة من الخضوع للقوانين الأجنبية التي كانت تسنها البابوية ، رغم أنه بفضل المراسيم التي حصل عليها من بابوات متوالين قد ابتدع لنفسه لوناً جديداً - ومكرهاً - من الطغيان الكنسى في إنجلترا .

قيل إن واژى كان مصلحًا محافظاً عظيماً كان بوسعيه - لولا حادثة أرسلها القدر - أن ينقذ الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا . قام حقاً بعض الإصلاحات الجذرية : كحل الأديرة الصغيرة واستغلال أوقافها في إنشاء كليات في أكسفورد وإپسوتش Ipswich وبيدو أنه كان قد أزعج القيام بإصلاحات أخرى مثل إنشاء ثلاث عشرة أبرشية جديدة .

ولكن قد يتطرق الشك في أن هذا الرجل كان في قراره نفسه مصلحًا ، هذا الرجل الذى اجتمع فى شخصه تقريرًا كل نقيصة قد توجه إلى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر والذى كان شغوفاً بجمع المناصب المتعددة ، منحلاً فى أخلاقه الخاصة ومهماً لها من منصب الرعوى بشكل مزر (أى رعاية أبناء كنيسته) . فقد كان السلطان ، وليس الإصلاح ، هو العاطفة الرئيسية المتقدمة بين جنبي هذا الرجل ، ابن الكلاف فى إپسوتش الذى جمع فى شخصه مناصب كبير قضاة إنجلترا وكبير أساقفة بورك وأسقف باث Bath وولز Wells ودرهام وونشستر على التوالى ، ورئيس دير سانت آلبانز St. Albans ونائب البابا ؛ وبالإضافة إلى ذلك كان « ملتزمًا » لإيراد ثلاث أبرشيات خاصة ببعض الأجانب غير المقيمين بها . فكون رجل على مثل هذا الطرار يبدأ حركة الإصلاح ليس إلا نذيرًا بما يخبئه المستقبل ..

كان واژى آخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا إنجلترا ، ومن بعده أخذ العلمانيون الأمر بين أيديهم . ولكنه خلال السنوات الأربع عشرة التى

تالق فيها نجمه كان — بإذن من الملك — حاكم إنجلترا الفرد ؛ لا يجد من نفوذه زملاء ولا بربانات ولا مجامع دينية . كبح جناح النبلاء في محكمة غرفة النجم ، وحد من سلطات المحاكم الكهنةوية بحكم كونه كبيراً للقضاة ، وفي رئاسته لمحكمة الشكاوى جعل العدالة في متناول الفقراء بشمن بخس . وقنع الملك بترك مهمة الحكم الشاقة في يد مثل هذا التاج الكفء الداعوب على العمل الخاضع لشخصه .

ولزي — كرئيس للكنيسة — لم يكن إنجليزياً ، بل كان أوربياً . فإنه كان يستمد من روما سلطاته الدينية ؛ وكانت روما محطة آماله الكبرى ، ومن هنا لم يكن يستطيع أن يغض الطرف عن مصير البابا . وبصفته سياسياً إنجليزياً وكاردينالاً كاثوليكيًا في نفس الوقت ، وطد العزم على أن يحول دون استبعاد الفرنسيين للبابا . ولو حدث ووطدت فرنسا — غريمة إنجلترا القديمة — أقدامها في ميلان ، فإن الزمن كفيل باعتلاء أحد الفرنسيين كرسى البابوية وقيام مجمع للكرادلة من الفرنسيين وتوجيه فرنسا للسياسة البابوية — ومعنى ذلك وقوع البابوية في أسر أفينيوني جديد لا يقل في خطورته عن الأسر الأول ؛ وحينئذ تصبيع البابوية بعيدة عن متناول ولزي بعد القمر في كبد السماء .

لهذا قرر ولزي أن تلعب إنجلترا دورها كاملاً، وبشكل براق وحامض ، في الصراع الكبير الدائر في القارة الأوربية بين شارل وفرنسا ، وأن تفيد من كلا الطرفين المتنازين . ولكن عندما يجد الجد ، تنضم إنجلترا إلى جانب الإمبراطور ضد فرنسا ، وبذلك يطبق اسم ملك إنجلترا العظيم آفاق أوربا ويدرك الأجانب أن حكومة إنجلترا قوة يجب أن تحسب الدول حسابها فتسعي إلى تألفها وتقديم لها الرشى . ولم يدخل ولزي جهداً في الإعلان عن عظمته سيده وقوته ، ولهذا كرس كثيراً من المال والجهد في هذا السباق الدولي الكبير . وقد يتتساعل الماء عن الفائدة التي تجنيها إنجلترا من هذا كله . فقد كانت قوة الدولتين القاريتين متوازنة تماماً ، وكان من قبيل الوهم الاعتقاد بأن إنجلترا التي لم يكن باستطاعتها الاحتفاظ بجيش في القارة لمدة تزيد على ثلاثة شهور متواصلة — قادرة على أن تؤثر تأثيراً فعالاً في التوازن الأوروبي أو تحطم تماسك الملكية الفرنسية . أضعف إلى ذلك أنه قدر للأحداث أن

ثبتت أن الخطر الحقيقي على حرية البابا لن يأتي من فرنسا ، بل من إسبانيا . فبعد أسر قوات شارل الخامس لفرانسوا الأول في بافيا نهبت روما ، وبعد عامين (١٥٢٩) وقعت معاهدة برشلونة التي أحضرت البابا كليمنت تماماً لإرادة شارل الخامس . وفي تلك الأثناء أجرى الانتخاب مرتين لمنصب البابوية . ورغم الوعد القاطع الذي بذله الإمبراطور ، ولم يتول ولزي منصب البابوية . وما جاء عام ١٥٢٩ حتى كانت خبرات الكاردinal الدبلوماسية قد اكتملت — فإن تجار الصوف لم يكونوا ليسمحوا له — وقد حاول ذلك بالفعل — بتحدي الإمبراطور ؛ ففي الإمبراطور مسيطراً على السياسة البابوية . ومن هنا فإنه بصفته حبراً متطلعاً إلى اعتلاء الكرسي البابوي ، كان قد راهن على الحواد الخاسر ؛ وبصفته رئيساً لوزراء إنجلترا يعني بشئون التجارة ، لم يكن بوسعه أن يؤيد شخصاً آخر غير الإمبراطور . ومع ذلك فلم يكن ثمة سبب قاهر يرغمه على تأييد أحد الطرفين . وعندما سقط الكاردinal العظيم ، جوّل سيده — وقد كان أحقر منه — اهتمامه عن القارة ، وكرس اهتمامه لميدان آخر كان أولى بالاهتمام وأدعى إلى توقع النجاح . وهو توسيع سلطنته في داخل الجزائر البريطانية . ولكن هنري لم يصب نجاحاً تماماً إلا في وياز . على أن انتصار إسبانيا في إيطاليا ، ذلك الانتصار الذي توج بمعاهدة برشلونة — قد تم خص عنه سقوط ولزي وتأسيس الكنيسة الأنجلיקانية (الإنجليزية) .

أنجبت كاثرين هنري بنتاً عمدت باسم ماري ، ولكنها لم تنجب له ابنًا ذكراً . وقد حملت المرة تلو الأخرى لتلد له أطفالاً إما ماتوا أجنحة أو ماتوا بعد ولادتهم بوقت قصير ، مما أورث الملك المتحرق إلى وريث ذكر (ووراء ذلك أسباب سياسية وجيهة) اعتقداداً جازماً بأن ثمة لعنة متسلطة على زواجه . ومن يدرى — لعل فتوى يوليوس التي كانت باطلة من الوجهة الفنية... لعل البابا لا يملك الإفتاء في مثل هذه المسألة . وكلما أمعن الملك في التفكير ازداد افتئاعاً بأنه لا زال أعزب ، ومسيحياً أعزب أسيء التصرف في شؤونه ، وأنه يجب تسخير الجهاز البابوي العادي في تحجية كاثرين عن طريقه . ولم يكن يساوره شك في أن ذلك أمر ممكن — وفي الحق أنه حدث في محبط أسرته منذ وقت قصير . فإن صهره سفولك كان قد طلق زوجته ، وكذلك طلقت أخته مارجريت زوجها ، وتزوج الاثنان من جديد طبقاً

لفتوى أصدرها كليمانت السابع الذي كان مطواعاً . وبعد عام ١٥٢٧ ازدادت لغة هنري لأن يسلى إلى البابا هذا الجميل . إذ كان قد وقع في حب آن بولين Anne Boleyn ، وعزم على أن يتحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقبلة فيتذرّخها زوجة شرعية له^(١) .

وكانت إسبانيا هي العقبة التي تعرّض تحقيق هذه الأمانة . ولو لم يكن البابا أميراً إيطالياً ضعيفاً تهيمن عليه إسبانيا ، لربما تم إلغاء زواج كاترين دون أن تترتب عليه نتائج ما . ولكن كليمانت كان مسلوب الإرادة ؛ فرغم أن ولزي حذره من أن ولاء إنجلترا لكنيسة روما قد أضحي بأسره في الميزان ، فإنه كان عاجزاً عن تحدي ذلك الرجل الذي انتهك قواه قداسة ضريح القديس بطرس وجعلت من قصر الفاتيكان إسطبللاً لخيولها . وإزاء الضغط الملحق من جانب كل من الملك والإمبراطور نظر البابا المنحوس يمنة ويسرة عليه يجد مخرجاً : انتحل أุดاراً للتأجيل ، واقتصر حلّاً وراء آخر (بل وصل به الأمر إلى اقتراح الجمع بين زوجتين) ؛ ولكنه وافق في آخر الأمر على إنشاء محكمة تنجو عنه في لندن يرأسها الكاردينال ولزي وكاميجميو Campeggio ، وبذا أنها قد تستطيع اتخاذ قرارنهائي . وواجه هنري كاترين هذه المحكمة وأدلى كل منهما فيها بحججه ، كما أبى حضورها للدهماء لندن — وهم على فظاظتهم لم يتجردوا من الإنسانية أو العدالة — وأتيح لهم بذلك أن يشهدوا جانباً من المأساة الكبرى التي حرّكت خيال شكسبير . ولكن لا مشاعر أهل لندن ولا دفاع الطرفين عن وجهات نظرهما ولا الشعور العام القوى في صالح الملكة التي أهينت في كرامتها ، ولا الكراهة الشديدة الموجهة إلى المرأة الشابة التي كان مقدراً لها أن تخلفها — لم يكن لشيء من هذا أثره . كانت إسبانيا تسسيطر تماماً على إيطاليا ، وفجأة فعل الضغط الإسباني فعله ، فأحييلت قضية الملك إلى روما .

وكانت الحوادث التي تلت ذلك دلاله كبيرة . ذلك أن هنري اصطنع خطة تدل على الحركة السياسية الفائقة : فقد دعا البرلمان إلى مساندته في نضاله مع الكرسي البابوي . وبعدها أن كان قد نجح في حكم إنجلترا بدون برلمان (باستثناء

(١) ترجع رغبة هنري في طلاق كاترين إلى عام ١٥١٤ .

فترة واحدة قصيرة الأجل) ، فإنه دعا الآن اللوردات والعموم إلى وستمنستر واستبيتى دورة انعقادهم سبع سنوات ؛ وأصدر عن طريقهم الوايحة التي اقتضتها استقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما وإخضاعها للتأج. قيل أحياناً إن مجلس العموم المنعقد في عام ١٥٢٩ كان معبأً ؛ ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك . قد يتوقع هنرى — وله الحق في ذلك — من مجلس مكون من ملاك الأرضي ومندوبى المدن ، أن لا يقاوم عن مساعدته في تحطيم الروابط المالية والقانونية التي كانت تربط إنجلترا بسلطنة روحية أجنبية . ولو أنه طالبهم بإبطال القدايس لما أطاعوه مثل هذه الطاعة . ولو أنه من أتباع لوثر (كما كان الشائع بوجه عام عن آن بولين) لما استطاع التغلب على ما كان يواجهه من صعاب . ولكن هنرى كان في عقيدته الأساسية من أكبر عمدة الكنيسة القديمة ، واستمساك هنرى بالعقيدة الكاثوليكية كان لا يقل أهمية عن الحرارة الثورية التي دفعته — في نطاق العلاقات الدستورية — إلى تحدى البابا والإمبراطور ، ولو أدى إلىأسوء النتائج . وقد نجح الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا لأنه تم على مراحل (جانبية) ، وأن التعديل الأول — أو الدستوري — قدم للناس باعتباره رجوعاً إلى الأيام الخوالي حين كان الملوك حفاظاً هم سادة الكنيسة الإنجليزية . وفي هذا أيضاً أبدى هنرى روح الدهاء المعروفة عنه ؛ إذ لا شيء يقنع الإنجليزي بقبول تغيير أساسى [من الاعتقاد بأن مثل هذا التغيير يتماشى في الواقع وزرعة الحافظة .

أما المكان الذى شغّر بسقوطه ولارى فقد شغل جانباً منه رجل علماني كان قد تدرب في خدمة الكاردينال حيث تعلم أن وسيلة الحظوظ لدى الملك هي المضاء والكلد والخضوع . نظر توماس كرومويل إلى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب في إيطاليا وقرأ « أمير » مكياثيلي وشعر بأن تيار الأحداث يتوجه نحو تجرييد السياسة من الطابع الدينى . ولن تجد بين البارزين في إنجلترا في ذلك الوقت من كان أقل تأثراً منه بالنزاعات الدينية أو أقل استجابة لنداءات العاطفة والتاريخ أو العقيدة والتفوى — وهي كلها عوامل من شأنها أن تحرّك قلوب المسلمين . أخذ على عاته مهمة تجرييد الإكليروس من ممتلكاتهم واقتلاع جذور الرهبان بتلك الروح التي يتصرف بها حمام جامد العواطف لا وزع عنده في مسألة دقيقة معقدة من مسائل

العمل لحساب عميل سيء السمعة وإن يكن ذا اعتبار .

وكانت المهمة الكبرى التي تواجه كرموويل — وتلى في الأهمية تدبير أمره ببرلان الإصلاح الديني — هي حل الأديرة . كان كرموويل قد وعد الملك بأن يجعله أعني عواهل أوربا . ورغم أن كثيراً من المؤسسات الدينية كانت متعلقة بالديون بشكل خطير ، فقد كان لا يزال ثمة محصول وافر دانية قطوفه لم يشاء أن يجنيه . وكان ثمة أسباب أخرى تدعى إلى تضمين التهجم على المؤسسات الدينية في خطة العمل ضد البابوية . فالرهبان والراهبات كانوا حصن البابوية ، وكانوا في أغلب الأحيان يتمتعون بالإعفاء من إشراف الأساقفة ؛ كما أنهم كانوا يخضعون لرياسة أجنبية . وطالما سمح لهم بذلك ، كان من المتوقع أن يتحول كل دير في البلاد للرهبان أو الراهبات إلى معهد تشع منه الحماسة والدعابة للقضية الكاثوليكية . يضاف إلى ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة لاستمالة طوائف الملائكة في البلاد وربطهم بعجلة الإصلاح الديني خيراً من الإسراف في أن توزع عليهم الأراضي الواسعة التي كانت ملكاً للأديرة . ولا يمكننا أن نجزم بأن ذلك التوزيع كان جزءاً من خطة موضوعة ؛ ولكن من الثابت أن شهوة ملوك الأرضي المجاورة لأراضي الأديرة قد جعلته أمرأ محتوماً . وما إن استحوذت الدولة على ثروة الأديرة حتى أخذقتها بسخاء على ملاك البلاد وبناتها المتلهفين على زيادة ثرواتهم — ومن ثم غدت أقوى طبقة في إنجلترا ذات مصلحة مكتسبة في حركة الإصلاح البروتستانتي . وسواء أكان ذلك جزءاً من خطة موضوعة أم لم يكن ، فإنه كان أحكم الفصربات التي صوبها هنرى إلى البابوية أثناء نضاله معها .

وأضفي لون من الاحترام المزيف على ذلك الإجراء ، ولو لذاك لبدا عملاً سافراً من أعمال السلب ، وذلك بحرص تقارير عمال كرموويل على إظهار مدى الفساد (الخلق المغفل في تلك الأديرة) .

والحق أن الفساد الخلقي كانه فاشياً ، وتشير إلى ذلك مصادر أخرى أقل من تلك التقارير عرضة للشك . ولكن الرذيلة المستشرية حينذاك في تلك الأديرة لم تكن في الواقع كل ما يوحذ على نظام الأديرة ؛ فإن الرذيلة كانت متقطنة فيها من قديم — بل إن ما أخذ عليها هي أنها غدت عديمة النفع ، وهذا أمر جديد . كانت

الأديرة قد استنفذت أغراضها حين انقطعت عن مهام العلم والتدريس والتسجيل والتنوير ، وبذا أنها فقدت عنصرى الإلهام والابتكار . وكان بإمكانها — على أحسن الفرض — أن تدعى أنها تقدم الفرصة للاستخاء البريء المتأمل ، وعلى أسوأها أنها تتصدى لإصلاح المتبليدين والمخربين . ولو أنها كرست ثروتها للتعليم لقدر المستوى الفكرى والأخلاقي العام فى البلاد أن يسمو لدرجة عظيمة ، وإن أدى ذلك إلى تقليل فرص نجاح حركة الإصلاح ، ولما قدر للأسرات الكبيرة كآل سسل وآل كافندش أن يجمعوا ثرواتهم الطائلة ، ولما استطاع توماس كرمويل أن يصبح مليونيراً قبل أن يساق إلى المشنقة .

وبسرعة جارفة نفذت هذه التغييرات الضخمة التى أحست بها كل قرية . ولم يشهد تاريخ إنجلترا حكومة هنرى فى تصميمها على السير فى طريقها أو فى طابع الطغيان الذى اتسمت به أساليبها . وما إن افتتح برلان السنوات السبع حتى تملك الرعب الكهنوتيين والعلمانيين على السواء ، حين علموا بأنهم — بتجاوزهم للجنة ولزى الكنسية العليا — قد عرضوا أنفسهم للعقوبات القاسية التى كانت توقع على من يتهمون بتنفيذ التشريعات البابوية .

أما قانون السيادة (The Act of Supremacy) الصادر فى عام ١٥٣٤ ، فقد وضع موضع التجربة — فإن هذا القانون الذى جعل الملك الرئيس الأعلى للكنيسة كان أكثر إثارة للجدل من القانون الخاص بالأموال الذى كان يحصلها البابا على شكل دخل سنة مما تدره المناصب الجديدة على أصحابها (Annates Act) ، ومن مفعول قانون الاستئناف (Appeals Act) أو أي قانون آخر أصدره برلان الإصلاح . فإن قسماً الناس عليه — طبقاً لأوامر الملك — كان معناه النكث بعهدهم للبابا ؛ كما أن رفضهم أداء القسم معناه ملاقاً الموت بفأس الجلايد . وفضل سير توماس مور والأسقف فشر ، وهما أعظم شخصيتين فى الفترة الأخيرة من تاريخ الكاثوليكية فى إنجلترا ، أن يواجهها الموت بيد الجلايد على حلف العين . ولكن أحداً لم يحذ حذوها : فقد حسمت الموقف مشاعر الرعب والإعجاب والولاء الذى أثارها جبروت هذا الملك المحتمد العاطفة .

وحتى دارسي D'Arcy زعيم حركة «الحج زلفي» Pelgirmage of Grace وهي الثورة الكبيرة التي نشبت في الشمال ردًا على حل الأديرة – اعترف بأنه لم يحل إطلاقاً بخاطره أن يمتنق حسامه ضد الملك . حينئذ بدا أن لا شيء يستطيع أن ينال من شعبية هنري : لإطلاق كاترين ولا إعدام آن بولين ولا شنق أفضل أخبار العصر وألمع إنسانية .

ورغم انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما وتأكيد السيادة الملكية عليها ، فقد بقيت مشكلة العقيدة والطقوس الدينية دون حل . في تلك الحال من المشاعر الملتهبة كان من المحموم أن تفضي هذه المسائل العليا الدقيقة إلى فترة طويلة من الاضطراب والفوضى . كان هنري قد عقد العزم – وكان مقتعمًا بأنه مهيأً لذلك تماماً – على أن يتقدم لشغل مكان البابا من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى أن يصف لشعبه ما يجب عليهم أن يؤمنوا به وما لا يجب عليهم ، معتمدًا في ذلك على أقصى العقوبات التي يستطيع بولمان مطوعاً أن يبدعها . فالمملوك هو الذي كان قد وضع في عام ١٥٣٦ أول مجموعة من الطقوس الدينية للكنيسة إنجلترا وعنوانها : «المواد التي وضعها سمو الملك لإقرار السلام المسيحي»^(١) . ورغم ميل توماس كرومييل إلى إقامة ائتلاف ديني وسياسي مع الدول البروتستانتية في ألمانيا ، لم تقبل إنجلترا إطلاقاً «اعتراف أوجزبورج» أو تجرف في الخضم العام الذي أثارته البحوث اللاهوتية الألمانية . وإلى الملك يجب أن نعزّل اللون الحاصل الذي اصطبغت به الحركة البروتستانتية في مراحلها الأولى والخطى المرسومة التي سارت فيها . لم يكن هذا الملك اللاهوتي عالماً ولا فيلسوفاً ولا مثالياً . كان عاقد العزم على وجوب أن يكون الفقه الديني للكنيسة إنجليريزياً لا ألمانياً ، وأن يكون من صنعه هو لامن صنع فيليب ملانكتون . وربما كان من شأن ذوى الأمزجة الدقيقة الباحثين في الفقه الديني أن يتساءلوا عمما هو حق أو أصلح أو أكثر ملاءمة لتحقيق حاجات البشر . ولكن هنري كان يريد تسوية تضمن له في ذلك الوقت حصر انقسام شعبه في أضيق نطاق : في عام ١٥٣٦ خطأ نحو الإصلاح ؛ ولكن في عام ١٥٣٩ تراجع بحدة وسن المواد الست ، وذلك على أثر إنذار حركة «الحج زلفي» بالخطير ؛ وفي أواخر حياته خطأ مرة أخرى إلى

^(١) "Articles devised by the King's Highness to establish Christian quietness"

الأمام ، وقد يكون ذلك بتأثير من كاثرين بار Catherine Parr . فأمر في عام ١٥٤٥ بإحراز مراجعة عامة لكتب الصلوات وأقرت تراتيل الصلوات العامة . ووضع « الإنجيل العظيم » . وهو الإنجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة المترنمة الرشيقية التي قام بها وليم تنديل ، في الكنائس بأمر ملكي وجعل في متناول الجميع . وقد ظل هنري حتى آخر أيامه متبعاً لطريق الوسط الحب إلى الساسة : فظل يحرق اللوثريين لهرطقتهم ويشنق الكاثوليك خليانهم .

وفي السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكمه عاونه رجل ترك طابعاً باقياً في حركة الإصلاح الديني في إنجلترا . كان توماس كرانمر من تلامذة كيمبردج المتبحرين في اللاهوت ومتزوجاً من سيدة ألمانية ، وكان بالفعل قد سار شوطاً في عداوته لروما حين أدى هنري تلك الخدمات الخاصة بذلك الطلاق والتي وضعها أساس سلطنته وخطورته في المستقبل . كان من الممكن لهذا الفقيه الديني المهدب المتفق أن ينعم بحياة مجيدة لا غبار عليها في الأوقات المادئة . فقد تميز بأخلاق صافية وبشعور ديني عميق ورقيق معًا ، وكانت تملكه رغبة صادقة في الرجوع بالكنيسة إلى بهاءها القديم ، ولكن كانت تعوزه الحرأة . إلا أن الملك – في مشكلته الشائكة الخاصة بإلغاء زواجه – استطاع أن يركن دائمًا إلى خصوص أسفافه كانت بري .

ورغم هذا الضعف الخطير ، قدم كرانمر للكنيسة الإنجليزية خدمتين لن تمحى آثارهما . فهو المؤلف الرئيسي لكتاب الصلوات الأنجليلكانى الذى ساهم هو فيه بالتراث والصلوات اليومية . وفيما يلى نقدم اعتراف كاتب كاثوليكي – تأثره اللغة الإنجليزية الجيدة أكثر مما يأسره توماس كرانمر – بالصيغة التى أضفت على كتاب الصلوات جاذبية خالدة : « بفضل التراتيل التى هى من تأليفه ، والصلوات القصيرة اليومية والمقديمات والموسيقى العجيبة الكامنة فى الصلوات الخاصة ، وأكثرها من ابتكاره ، أضفت على الديانة التى قامت وشيئاً قوة لم تكن تستمدها من أى مصدر آخر . وقد قدم بذلك بديلاً من اللغة اللاتينية الرفيعة التى شكلت روح أوروبا لأكثر من ألف عام ، وأثرى كنيسة إنجلترا بالأثر الجمالي الذى منه – أكثر

من أى شيء آخر - اكتسبت روحها بقاعها وتعلقت بها (بالكنيسة) قلوب الناس»^(١).

وكانت الطريقة التي انتهت بها حياة كرانمر هي الخدمة الثانية التي قدمها للكنيسة الإنجليزية . وبعد حياة قضتها في العمل المتواصل ، مات كرانمر بطلاً وشهيداً . كانت الملكة ماري قد أجبرته ، بأمر منها ، على توقيع ست وثائق يمحّد فيها معتقداته ؛ ثم علم أن هذه الوثائق التي وقعتها قد نشرت . وجين كان في طريقه إلى سيف الجلاد أطلق بالوثائق إلى النار وأكمل معتقداته ، « وفي النهاية قال باسطقاً لذراعه اليمنى ويده الأخرى : ”يجب أن تكون هذه اليد التي وقعت في الخطيبة بتوجيعها (للوثائق السبعة) أول ما يقارن العذاب من جسمى ” ؛ وهكذا وضعها في النار وأحرقها بنفسه » .

وتميز الفترة التي تفصل بين وفاة هنري واستشهاد كرانمر باستمرار تأرجح إنجلترا بين النفوذ البروتستانتي والنفوذ الكاثوليكي ، وإن اتخذ ذلك التأرجح شكلاً أشد عنة ، بعد أن كانت مشيّة هنري الطاغية قد حصرته في أضيق الحدود . ففي عهد إدوارد السادس سيطر المصلحون على الحكومة ، وشقوا طريقهم بخطوات حذرة تحت الحكم المستير الذي اتسم به عهد الوصي سومرس ، ثم أسرعوا الخطى وأصبحوا أكثر خطورة في عهد خلفه نورثمبرلاند . ثم أعقب ذلك رد فعل حاد - في عام ١٥٥٣- توفي الملك الصبي ، وانتقل العرش طبقاً لوصيّة والده إلى الأميرة ماري ، وكانت سيدة مكتملة في السابعة والثلاثين من عمرها عرفت بإخلاصها للعقيدة الكاثوليكية قولًا وعملاً . وقد تلقى حزب الإصلاح المتطرف تولى مثل هذه الكاثوليكية بعين الشك والنفور ، إذ تنبئوا بنقض كل ما فعلوه : إلغاء الطقوس الإنجليزية ، وإلغاء الإنجيل وعودة الكنيسة إلى الصلح مع روما ، وفقدان الأساقفة البروتستانت مناصبهم - وبذلك يتعرض كل ما اتصل بالإصلاح الديني لأنحطاطار شخصية خطيرة . ولقد أراد نورثمبرلاند أن يتتجنب هذه الشرور ، ويضمّن بقاعه ممتعةً بالسلطان ، فعزم على تعديل وراثة العرش . ولكن المؤامرة فشلت ؛ إذ فضل الشعب الإنجليزي ماري تيودور على ليدي جين جرای Gane Gray حفيدة ماري الأخرى

التي كانت أختاً لهنري الثامن وزوجة لدوق سفولوك . ثم حدث ما كان متوقعاً : أعيدت العبادة القديمة ، وأعيد رسمياً ارتباط الكنيسة بروما ، وعني رسمياً على آثار الإصلاح الديني ، وذلك باستثناء شيء واحد وهو أن برلان ماري نفسه لم يحسن على المساس بالمصالح المكتسبة الكبيرة التي تمخضت عن توزيع ثروة الأديرة .

ورغم أن رجال البرلان لم يكونوا يأبهون عادة للمسائل الدينية (كما يدل على ذلك موافقتهم على السياسة التي اتخذت في عهد إدوارد ثم موافقتهم على سياسة أخرى مخالفة في عهد ماري) ، فإن الناس في إنجلترا كانوا يحسون بإحساسين عميقين لم يوجدا في هذه السيدة المتخصبة لمبادئها السامية ، المنكودة الطالع مما يشعهما ، أو وجداً ما يعترضهما — وأول هذين الإحساسين هو العاطفة القومية . فقد تزوجت ماري بمطلق رغبتها فيليب ملك إسبانيا ؛ ورغم أن عقد الزواج كان من صنع الأسقف جاردنر الذي بذل أقصى ما أمكنه من المهارة وأضعافاً نصب عينيه المحافظة على استقلال إنجلترا ، فإن زوجها كان غير محظوظ : فلم يكن هناك من يكن الحبة للملك الإسباني أو لخاشيته أو لفكرة أن إنجلترا الآن تابعة لبلد أجنبي . بل لقد قامت ثورة ضد هذا الزوج تزعمها تويماس يات Thomas Wyatt ولكن قضت عليها شجاعة الملكة نفسها . وحين علم الناس أن الزوج لن يعقب ولیساً للعهد ، اتجهت أفكار الشعب إلى الأميرة إليزابيث التي لم تكن من صلب إسباني أو زوجة إسباني ، بل كانت إنجليزية أو ويلزية من الناحيتين : فهي ابنة آن بولين وهنري ، وهي ثمرة ذلك الزوج الذي ترتب عليه فصم الرابطة بين إنجلترا وروما ، وفتح الباب واسعاً أمام المد الكبير لحركة الإصلاح الديني .

أما الإحساس الآخر لدى الشعب الإنجليزي فهو عاطفة الإنسانية . حقاً إنه في الأوقات التي تحتمم فيها المشاعر كان بإمكان الإنجليز أن يقرفوا أعمالاً وحشية فظيعة ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يدركوا وجه الخير حين يتراءى لهم . كان النحس الذي أحاط بالملكة كاترين قد استحوذ على مشاعرهم ؛ والآن أصبحت تثيرهم تلك المأساة الأخطر شأنها التي تسببها اضطهادات حكم ماري . قد لا يزيد عدد البروتستانت الذين قطعت رعوسيهم بسبب معتقداتهم في عهد الملكة ماري على ثلاثة ؛ ولكن كان يدخل في هذا العدد القليل — إذا قارناه بما كان يحدث في القارة — زعماء حزب

الإصلاح وأسمى الرجال في البلاد فضيلة وموهبة . ولم تنطفئ النيران التي اشتعلت حول جثمان كرانمر ولاتimer Raidley بسرعة ؛ وكان سجل الشهداء (Martyrology) الذي وضعه جون فوكس John Foxe وحكي فيه بحرارة قصة حياة ضحايا تعصب ماري وموتهم — بالنسبة للبروتستانت — لا يفوقه قداسة إلا الإنجيل وحده . ومثلاً للروح السامية التي كانت تدفع آباء العقيدة البروتستانتية ، والشجاعة التي حدث بهم إلى أن يفضلوا مواجهة عذاب التحرير على أن يخونوا معتقداتهم . ولم يخدم شيء العقيدة البروتستانتية في إنجلترا فصافاها وعمقها كما غرس في نفوس الشعب الإنجليزي الفزع من روما ، بقدر ما خدمتها تلك الألوان من العذاب التي لم يكن لها مبرر والتي نفذت — على عكس ما ارتأته حكمة شارل الخامس تطبيقاً لإرادة سيدة وحيدة باشة . وما تيار البطولة والتضحية من نفوس الإنجليز ذكريات الطلاق بكل ما لا يسعه من فجر دنيء .

ولم يكن استقلال إنجلترا آمناً بأي حال خلال هذه الفترة القلقة . كان ثمة سؤال جوایه في ضمير الأحداث : هل ستصبح البلاد تابعة تدور في فلك فرنسا أو إسبانيا ؟ أو هل توهب القوة لتشق لها طريقاً خاصاً بها وحدها ؟ كان حجر الزاوية في أمن البلاد هو الاتحاد بين إنجلترا وإسكتلنديا . وقد أدرك هنري السابع هذه الحقيقة فوضع أساس الوفاق بين الدولتين بزواج ملكي ؛ وأدركها هنري الثامن من جديد فدبر تزويج إدوارد السابع بالطفلة ماري ملكة إسكتلنديين ؛ كما أدرك تلك الحقيقة أيضاً الوصي سومرسون الذي بدأ في الخطط التي رسماها لإقامة اتحاد إنجلزي – إسكتلندي صورة التسوية النهائية في كثير من تفاصيلها الدقيقة . ولكن العقبات كانت جسيمة في سبيل الوحدة — فإن رجال الأستقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يوجهون السياسة في تلك المملكة الشمالية كانوا لا يقلون عن أمثالهم في أوروبا فساداً وإثارةً لصالحهم الخاصة ، وكانوا على استعداد — إذا واتهم الظروف — لبيع أنفسهم بمال المحاكمين في لندن وبارييس على حد سواء . ولكنهم لم يكونوا ليستطيعوا كثيرون أن يتجاوزوا دروس تاريخهم القومي: من تلك الفرون من الإغارات على الحدود ، ومن ادعاءات الملوك الإنجليز المتعالية ، ومن التحالف الطويل مع فرنسا ، والإخلاص التقليدي للكرسى البابوى . كذلك لم يزدادوا ميلاً

للتفاهم مع إنجلترا حين عمل هنري الثامن - في الأيام السود التي تلت هزيمة سلواي موس Solway Moss (١٤٥٢) - على إحياء ادعاءات السيادة القديمة التي كان أسلافهم قد رفضوها ، وحين استرسل الوصي سومرست في تلك السياسة الجامدة حين غزت بلادهم وأحرقت أدنبوره وهزم جيش إسكتلندي في بنكى Pinkie . هذه الأعمال لم يكن من شأنها أن تجعل الأدلة البایغة التي وجهها الوصي إلى الشعب على مزايا الاتحاد أكثر إقناعاً . ولهذا لا عجب أن يتفوق الحزب الفرنسي في توجيه السياسة الإسكتلنديّة ؛ في عام ١٥٤٨ زوجت ماري الطفلة ، التي كانت قد خطبت للأمير إدوارد الصغير في عام ١٥٤٣ ، من فرانسوا ولـ عـهد فـرـنسـا .

تلك هي السحابة التي خيمت في ذلك الوقت على مستقبل إنجلترا السياسي . أضجى من المحتمل أن تتحدد فرنسا وإسكتلنديـة يومـاً ما تحت حـكمـ الزـوجـ الفـرنـسيـ مـارـيـ مـلـكـةـ الإـسـكـلـنـدـيـنـ ،ـ وـفـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ يـكـوـنـ مـنـ المـحـتمـلـ أـنـ يـصـبـحـ التـحـالـفـ معـ إـسـپـانـيـاـ أـمـرـاـ لـازـمـاـ لـسـلاـمـةـ إنـجـلـتـراـ .ـ وـلـكـنـ إـسـپـانـيـاـ كـانـتـ كـاثـوليـكـيـةـ ،ـ وـكـانـ الرـأـيـ الـعـامـ فيـ إنـجـلـتـراـ منـجـرـفـاـ فيـ تـيـارـ الإـصـلـاحـ .ـ وـقـدـ لـاـ يـكـوـنـ التـحـالـفـ معـ إـسـپـانـيـاـ مـاـ يـكـنـ الحصولـ عـلـيـهـ فيـ كـلـ وـقـتـ ،ـ أوـ قـدـ يـتـعـذرـ تـحـقـيقـهـ إـلـاـ نـظـيرـ ثـمـنـ قـدـ لـاـ تـكـونـ إنـجـلـتـراـ مـسـتـعـدـةـ لـدـفـعـهـ .ـ وـهـكـذـاـ يـقـدـرـ لـإـنـجـلـتـراـ الـپـرـوـتـسـتـانـتـيـةـ أـنـ تـضـرـبـ عـلـيـهاـ عـزـلـةـ خطـيرـةـ وـهـيـ تـوـاجـهـ أـيـرـلـانـدـ الـکـاثـوليـكـيـةـ فـيـ الغـربـ وـإـسـكـلـنـدـ الـکـاثـوليـكـيـةـ فـيـ الشـمـالـ ،ـ وـإـسـپـانـيـاـ الـمـشـكـوـكـ فـيـ مـوـقـعـهـ ،ـ وـفـرـنـسـاـ الـمـعـادـيـةـ .ـ هـذـاـ الـاحـتمـالـ الـبـاعـثـ عـلـيـ القـلـقـ هـوـ الـذـىـ حـداـ بـسـوـمـرـسـتـ إـلـىـ التـصـيـمـ عـلـىـ نـشـرـ أـفـكـارـ الإـصـلـاحـ الـدـينـيـ بـيـنـ الشـعـبـ الإـسـكـلـنـدـيـ ،ـ وـكـانـ ذـلـكـ هـوـ المـوـقـفـ الـذـىـ قـدـرـ لـحـكـومـةـ إـلـيزـابـيثـ أـنـ تـوـاجـهـهـ ،ـ وـهـوـ المـوـقـفـ الـذـىـ لـمـ يـعـدـلـ مـنـهـ سـوـيـ نـمـوـ حـرـكـةـ الإـصـلـاحـ الـدـينـيـ فـيـ إـسـكـلـنـدـ .ـ

يمكن الرجوع إليها

- Histories of England : G.M. Trevelyan (1905-23). J.A. Froude, (1856-187)
- Cambridge Modern History, Vol. II.
- A.F. Pollard, Henry VIII, (1913).
- A.F. Pollard, Wolsey, (1929).
- A.F. Pollard, A Life of Thomas Cranmer,
- F.A. Gasquet, Henry VIII and the English Church
- H. Belloc, Cranmer, (1931).
- G. Cavendish, Life of Thomas Wolsey, (1930).
- W. Roper, The Life and Death of Sir Thomas More.
- Sir Thomas More, Utopia.
- R.B. Merriman, Life and Letters of Thomas Cromwell
- R.W. Chambers, The Saga and Myth of Sir Thomas More
- J.S. Brewer, The Reign of Henry VIII. Ed. J. Gardiner
- R.W. Dixon, History of the Church of England, (1873-84),
- W. Stubbs, Seventeen Lectures on the Study of Mediaeval and Modern History, (1900).
- F. Seebohm, The Oxford Reformers of 1498, (1867).
- J.B. Mullinger, The University of Cambridge from the Earliest Times, (1873-84).
- A.F. Pollard, England under Protector Somerset, (1900).
- A.F. Leach, English Schools at the Reformation, (1896).
- J.M. Stone, History of Mary I, Queen of England, (1901).
- H. Forneron, Histoire de Philippe II. 4 vols, (1881-2).

الفصل العاشر

إمبراطورية شارل الخامس

دلالها - مراكز المعارضة - الأهداف الرئيسية للسياسة الإمبراطورية - شعبية شارل في إسبانيا - الصعوبات المالية - الأرضي المنخفضة - أهميتها المالية - محاكم التفتيش في الأرضي المنخفضة - الالتفاف بحراً حول العالم - المكسيك وبيرو وإسبانيا الكبرى - معاملة إسبانيا للأجناس الخاضعة لها - الانصارات الإسبانية في إيطاليا - كليمونت السادس ونهب روما - دوريا يُسترجع جنوبي إلى جانب الإمبراطور - شارل في أوج عظمته في عام 1530 - الممتلكات الإسبانية في إيطاليا .

أُوجدت إمبراطورية شارل الخامس تحولاً سياسياً في أوروبا لا يقل كثيراً في أهميته عن احتلال قيصر لبلاد الغال أو ضم شارلمان ألمانيا إلى ملك الفرنجة^(١) . قدر لهذه الإمبراطورية أن تضم بلاداً شديدة التباين في كل شيء في طباع أهلها وتقاليدهم : كإسبانيا والأرضي المنخفضة ، وألمانيا ونابولي ، وحضرارة سهل لمباردي القديمة ، وملك المكسيك وبيرو التي ضمت حديثاً . ولقد تكونت هذه الإمبراطورية نتيجة لحروب كانت ميادينها من الاتساع بحيث يمكن وصفها بأنها حروب أوروبية خاصة ، كما كانت نتيجة التنافس مباشرة بين فرنسا وألمانيا للسيطرة على أوروبا ، تلك الخصومة التي ما فتئت منذ ذلك الوقت تقض مضاجع الساسة . ولقد أدت تحت الإمبراطورية لإسبانيا ، التي لم يفقها بلد آخر في شدة تمسكها بروح الحافظة ، سيادة عابرة في العالم في العصر الحديث اعتبرتها فرنسا في بادئ الأمر ، ثم إنجلترا فيما بعد ، خطرًا دوليًّا . كذلك أدى قيام هذه الإمبراطورية إلى القضاء على الحريرات الإيطالية ؛ وبسلسلة واضحة من العالية ، إلى خلع الملكية الإنجلizية سلطان البابوية عنها . وإليها يمكن أن نتبع المرحلة الأولى في ذلك الانفصال التدريجي في العلاقات بين الأرضي المنخفضة (التي كانت في ذلك الوقت وثيقة الاتحاد مع إسبانيا) والريخ الألماني ، مما أفضى في الوقت المناسب إلى قيام جمهورية هولندة البروتستانتية ومملكة بلجيكا الكاثوليكية . ويُستوى عندنا اعتبار هذه الإمبراطورية المتراجعة الأطراف إيزانًا بيده العصر الحديث ، أو اعتبارها آخر محاولة كبيرة لاسترجاع

(١) انظر ثبت الأنساب (ب) .

الوحدة القديمة التي قامت في العصور الوسطى بين العقيدة والحكم لمصالحة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد وقف شارل يحارب في كل جهة : يحارب ال兜ريين في ألمانيا والأراضي المنخفضة ، والأترالك في البحر وتونس والجزائر ؛ وفي كل ركن من أركان البحر المتوسط وقف شارل يحارب كالمطل الذي اختاره العناية الإلهية للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية . وكان كل ما في إسبانيا من غالين الحرب وحملة الرماح والحكام العسكريين والكهنة الإسبان يعلنون للملا أن الدولة الإسبانية التي التأمت حديثاً ، قد اضطاعت بدور تشيري وإمبراطوري .

ولكن أوربا لم تكن متحدة الجنان : ففرنسا التي كان من الممكن أن تتفق مع شارل الكاثوليكي كانت شديدة العداء لشارل الإمبراطور ؛ وإيطاليا (باستثناء بعض المؤشرات البروتستانتية الفضفولة) اضطررت للرضاخ لسيطرة الدولة اللاتينية التي كان بوسعها على الأقل أن تحمى مدن الشاطئ الإيطالي من الأترالك . ولكن الإسباني الصارم الذي لا يمكن فهمه كان موضعًا للخوف والكره في الشمال التيوتوني . هناك في تلك الأصقاع استطاعت الدول兜وية ، يدعمها الكبراء الألمانى والكرابية الفرنسية للإمبراطور ورجاله ، أن تثبت أقدامها ؛ وهناك أيضًا في الأراضي المنخفضة نمت المعارضة لسيطرة الإسبانية ، وهي معارضة بلغت من العنف والإصرار أن ثورة الفلمنكيين والهولنديين تعدّ في طبيعة الأسباب التي يعزى إليها اضمحلال إسبانيا . وكان رأس هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف رجلاً خلا تمامًا من الفتنة والخاذبية وخلال الفروسية . كما أنه لم يكن محاربًا ولا مسترسلًا في الخيال ، وفي أي موضوع يعرض له كان يعوزه الإبداع ، لم يكن جذابًا في مظهره أو في سلوكه ، وكان ذا شفة بارزة عرفت عن أسرة هايسبورج ، مع لعنة في حديبه . وحين ولى الحكم في سن الثامن عشرة كان يستطيع التكلم بالفرنسية والفلمنكية ، ولكن كان لا يعرف شيئاً عن الإسبانية لغة أمه أو عن إسبانيا وطن أمه . ورغم ذلك فقد كانت عنده قابلية للتعلم ، كما كان مقداماً صبوراً . وبعد انحسار الفورة الأولى من طيش الشباب ، أسرعت إليه الشيخوخة ، وتعلكته حكمة صارمة ملحة مكتنته من اجتياز صعب قد ينوه بها من كان أضعف عوداً . كان فلمنكياً بميلاد وبالوراثة ، ثم كانت نهاية حياته — بعد أن تنازل عن العرش — في دير إسباني . وإذا أدرك أن إسبانيا هي المركز الحقيقي لقوته ، أصبح بالتدرج إسبانياً دون أن يحس بذلك .

ورغم ما حاوله من إنصاف الأجزاء المختلفة التي كان يتكون منها ملكه ، فإنه لم يكن بأى حال السيد المطلق السلطان في أى جزء منها ؛ فلم يكن على الإطلاق من الغنى أو القدرة بحيث يدمج الشعوب المتاخرة التي كان يستند إليها حكمه . وحتى نهاية المطاف بقيت كل من إسبانيا والفلاندر ووترنجوروا ، بعيدة بعضها عن بعض ، بعد القطبين أحدهما عن الآخر .

أما إزاء العوائل المسيحيين الآخرين ، فقد كانت سياسته دفاعية محضة . فقد عزم على الاحتفاظ بما ورثه أو ما اعتقد أن له حقاً في وراثته . ولكن الدفاع عن إمبراطورية فنية ضخمة مثل هذه لم يكن ليتم دون حرب . كانت فرنسا خصماً بالضرورة ، تنافس شارل على برجندية ونافار (والأخيرة دولة صغيرة بجوف البرانس كان شارل قد وعد في عام ١٥٦٦ بأن يرجعها إلى أسرة ألبرت الفرنسية التي كانت تحكمها من قديم) كما تنافسه أيضاً في الانتخاب لمنصب الإمبراطورية وفي ميلان . وإن احتمال قيام دولة فرنسية في سهل لمباردي أو في خليج جنوة تعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا وألمانيا كان خطراً شعر شارل بأن من واجبه مقاومته . كان ينبغي إذن أن تبقى ميلان وجنة في حوزة الإمبراطورية إذا ما أريد للفرسان الإمبراطوريين Landsknechts أن يمرروا بسهولة إلى إسبانيا أو إذا ما أريد لحملة الرماح الإسبانية أن يؤدوا دورهم في ميادين الحرب الألمانية .

ولم يكن انتزاع ميلان من يد الفرنسيين عملاً عدائياً نزقاً في نظر شارل ، بقدر ما كان استرداداً لحلقة ضرورية في سلسلة الدفاع الإمبراطوري . أما الأتراك فلهم شأن آخر . فقد كان واجباً مقدساً مفروضاً على الإمبراطور بحكم منصبه التاريخي وبحكم اتجاه الرأي العام في إسبانيا ، أن ينجز « المسلمين » في كل مكان . وكانت قضية شديدة الاهتمام بنافار ، ولكن إيطاليا لا تعنيها في قليل أو كثير ؛ وعلى العكس من ذلك كانت أرجونة شديدة الاهتمام بإيطاليا غير مكثفة بناذار ؛ هذا إلى أن أرجونة وقضية كلتاها لم تبديا اهتماماً بالأراضي المنخفضة . ولكن إسبانيا بأسرها كانت تمقت الأتراك وتخشهم ، وتضاعف هذا الشعور منذ أن التحق القرصان خير الدين برباروس بخدمة الأتراك ، وأنحد من وكره في الجزائر يسطو على الشاطئ الإسباني . وكان الإسبان قد دربهم الأحداث التاريخية على فكرة

الحرب الصليبية . وكانوا شديدي الرضى طالما حارب إمبراطورهم الوثريين والأتراك ؛ أما إذا حارب في سبيل أي قضية أخرى من قضايا تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف فإنهم لا يكترون إلا قليلاً .

كان الناج محبوبًا في إسبانيا . وكانت ثورة ممثلي الأقاليم Comuneros التي أclipقت شمال إسبانيا على أثر توجه شارل إلى تلك البلاد لأول مرة ، قليلة التأثير بالمنطقة الجمهورية ، الأمر الذي يدل عليه أن الملكة المحبولة جوانا كانت أكبر مول للثوار . لم يكونوا يشكون في أن ملكًا شابًا من الفلاندر قد اعتلى عرش إسبانيا ؛ بل إن سبب شكواهم أنه قد اصطحب معه رتلاً من الأتباع الفلمنكيين الخشعين وأنه اعتصر البلاد طلبًا للمال ثم رجع إلى الشمال تاركًا إسبانيا تحت رحمة أديريان أسقف يوتربخت ، وهو حبر هولندي مكروه لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد أو لغتها . ومع هذا فإن عددًا من نبلاء قشتالة التفوا حول الملك وهزموا الثوار على ساحة فيلاجوس Vilagos (٢٣ أبريل ١٥٢١) ؛ وهذه حين رجع شارل إلى إسبانيا في عام ١٥٢٢ — وفي هذه المرة كان الناج الإمبراطوري قد رفع قدره ، وكان إخلاصه للكاثوليكية قد تأكد في مرسوم ورمز — حين رجع شارل إلى إسبانيا تصاحبه قوة لا بأس بها من المدفعية وثلاثة آلاف فارس ألماني ، وجد شعبًا على استعداد لطاعته والموافقة — في حدود معينة — على تقديم المال له . وأكسبه تنكبه عن إراقة الدماء بإعجاب رعاياه وعرفائهم للجميل ، خاصة وأنهم عرفوا أخيراً (١٥٢٢ — ٩) أنه على استعداد لتعلم طرائقهم وإعطائهم نوع الحكومة الذي يريدون . ورغم أن مزاج أهل قشتالة كان يقر الحكم الفردي ، فإن شارل حرص على احترام الحقوق الدستورية التي كان يعتز بها أهل أرجونة كثيراً . كذلك سرعان ما أدرك سطوة الكنيسة الإسبانية واعترف بها .

وخيّر المسلمين في بلنسية بين اعتناق المسيحية وترك البلاد ، وهو عمل يعده رجال الاقتصاد الحديث من أعمال الجنون والتغريب وإن كان عملاً سياسياً يتمثّل في روح التحيز السائدة في ذلك العصر . كذلك رحب الناس بزواجه من إيزابيلا أميرة البرتغال باعتباره إجراء دفاعياً إزاء احتلال نشوب المتاعب في الغرب ؛ كذلك رحبوا بهذا اللون من الفخامة التي كانت مألفة في برجندية وإن كانت غريبة على

عادات البلاد البسيطة ، ولكنها ليست كثيرة على ملك هو في نفس الوقت إمبراطور وأعظم عواهل أوربا .

وكان تمويل هذه السياسة الإمبراطورية العالمية مشكلة جديدة لأوربا ، ولم يستطع شارل أن يجد لها حلًا ناجحًا بالرغم من حصوله على معونة آل فوجر Fuggers وولزر Welsers — وما البيتان الماليان الألمانيان اللذان كان لا غنى عن قروضهما . ورغم أن الضرائب قد ازدادت في إسبانيا إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، ورغم أنه لم ينفع منها على البلد ذاتها سوى القليل ، فقد وجد في نهاية حكمه عجز يراوح بين ثلاثة عشر وعشرين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية ، كما وجدت ظاهرة خطيرة متذرة بالويل للميزانية الإسبانية بصفة خاصة ، وهي اطراد الزيادة في المعاشات التي تمنحها إدارة الدخل مقابل الأموال التي قدمها أصحابها مقدماً ، وهي طريقة لعقد قرض داخلي لا يوجد ما يدانيها سفهآ . وأسوأ من هذا كله رفض نبلاء قشتالة أن تفرض عليهم الضرائب (١٥٣٨) ، وما ترتب على ذلك من حرمانهم عضوية الكورتيز . وهكذا نجد أن صعوبة تمويل الإمبراطورية قد عجلت بالقضاء على الحرفيات البرلانية في قشتالة بدلاً من عملها على تعميمها . أما الكورتيز فقد أصبح ظلاًً بعد أن انعدم تمثيله لمصالح ملوك الأرضي — مجرد برلان يضم أعضاء يمثلون ٣٦ مدينة .

ورغم ذلك فإن الإمبراطورية الواسعة المفككة قد بقيت ملتئمة في اتحاد شخصي فضفاض تحت حكم آل هابسبورج . كانت مقاطعات الأرضي المنخفضة في بداية الأمر (١٥٠٧ — ٣٠) تحت حكم ماجريت دوقة سافوي ، وهي ابنة مكسميليان وعمة شارل الخامس ، ثم حكمتها بعد ذلك (١٥٣١ — ٣٥) ماري النمساوية أخت شارل وأرملة لويس ملك البرتغال . ولكن شارل كان باستمرار وراء كل شيء . وحين رفضت مدينة غنت المزدحمة بالسكان (١٥٣٩) أن تدفع نصيتها من الضريبة التي أقرتها مقاطعات الفلاندر من أجل الحرب مع فرنسا ، وانجرفت في تيار الثورة للدرجة القبض على ضباط الإمبراطور والاتصال بفرنسا الأولى ، جمع شارل جيشاً وأوقع بالثوار العقاب الذي يستحقونه . أُعدم اثنان وثلاثون من زعماء البلاد . وألغى الدستور ، وزلت أشد جمهوريات الأرضي المنخفضة

اعتداداً بنفسها إلى مركز مدينة وسط أراض زراعية مفروض عليها إعالة حامية لإمبراطورية .

وإذا أريد لإمبراطورية من أي نوع أن تبقى متماسكة ، فإن من الواضح أنه لابد من مقاومة ادعاءات مدينة مثل غنت وحريتها في أن تشارك في تمويل حروب الإمبراطورية . ولكن في الحق لا غنت ولا أي مدينة أخرى ، فلمنكية أو هولندية ، كانت تكرر لأطماع الإمبراطور الواسعة . كانت هذه المدن فخورة بشارل ، وقد أفادت — على طول المدى — بالسياسة التي تربت عليها ضم تورني Tournai وفريزيا Frisia ويوترخت Utrecht وأفريسييل Overijssel وجرونينجن Groningen ودفنتر Deventer وجذرلاند Gilderland إلى كيانها الرخو . ولكن أي مصلحة لها في نافار أو ميلان ، أو في استرجاع دوقية برجنديه التي أضاعها الطايسبورج ؟ إن تجارة الأراضي المنخفضة كانت تتطلب السلام وتلح عليه ، ولكن سياسة شارل كانت تتحمّلها في حرب مستمرة . وقد فرض على سكان مدن الشمال أن يتّحملوا القسط الأوفر في أعباء الإمبراطورية المالية ، وكان لهم الحق في أن يقولوا إنهم لم يحصلوا في مقابل ذلك إلا على جزاء ضئيل ، اللهم إلا الاضطهاد الوحشى للاخرين على الكنيسة .

هذا الاضطهاد الدينى هو أكبر بقعة لطخت سمعة شارل . حقاً إن كونه — هو نفسه — فلمنكياً جعله أشد تصميماً على اجتناث جذور المهرطقة من وطنه ، ومن هنا نجده يعتبر قمعه للإخلاص واجباً مقدساً في عنقه عليه أن يُفي به الله ولبلاد . وحين وجد لدى عودته من مجمع ورمز الإمبراطوري أن الآراء الاؤثـرية تسري بسرعة في الأرضى المنخفضة ، أدخل إليها محاكم التفتيش (١٥٢٢) اعتقاداً منه أن بإمكان مثل هذه الأداة التي أحرزت نجاحاً كبيراً في القضاء على بقايا المسلمين فى إسبانيا أن تحرز نجاحاً مماثلاً إزاء الهولنديين والفلمنكيين . ولكن أهل الشمال كانوا يمتازون بشجاعة فائقة . وعناد شديد . وحين أحرق في آنتورب هنرى دي ذوز Henry de Voes وجون إش John Esch — وهما في الطاعنة من شهداء العقيدة البروتستانتية — (٣١ يوليه ١٥٢٣) ، أعطيا مثلاً من يأى بعدهما في تدوير العذاب بتلك الروح الصلبة . التي نجحت بعد ثمانية وخمسين عاماً فى تأسيس الجمهورية الهولندية البروتستانتية .

« وبينما كانوا يساقون إلى المحرق ، صاحوا بصوت مرتفع أنهم مسيحيون ، وحين شد وثاقهم إليها وأشعلت اليران أخذوا ينشدون مواد العقيدة الائتى عشرة ، ثم ترموا بعد ذلك بترنيمة الشكر (Te Deum laudamus) متناوبين في إنشاد مقاطعها مقطعاً حتى أتت اليران على أصواتهم وحياتهم » .

وقد قيل إن عهد شارل شهد استشهاد نحو ثلاثة ألف رجل وامرأة في المقاطعات السبع عشرة في سبيل معتقداتهم . كان بعض هؤلاء من المعمدين الثائرين على النظام الاجتماعي بأسره ، كما كانوا خصوصاً ألداء للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولكن البعض الآخر كانوا من أتباع لوثر وكلفن وكانت جريتهم الوحيدة أنهم كانوا يلتقطون لقراءة الكتاب المقدس بلغتهم القومية ، وأنهم صمموا على عبادة الله وفقاً لطريقهم . لم يدخل شارل وسعاً في توقيع أي عقوبة مهما قست على المعمدين ، هؤلاء البوساد الذين كانت معتقداتهم - الثورية إلى حد كبير - ثمرة البوس الاجتماعي . شويت أجسادهم بنار بطئية ، وأحرقوا أحياء أو أغرقوا في اليم ، أو نزلت بهم أساليب أخرى من العذاب الأليم . فقد رأت السلطات أن المشنقة أو الحرق للذين قد تكونان كافيتين للواثرين ليسا كذلك لأن تلك المهوتين الذين تجرعوا على مهاجمة الملكية والكهانة . وبالرغم من كل ذلك استمرت المطرقة ؛ بل لقد تغلغل مذهب لوثر في بلد تويمان Kempis^(١) Thomas à Kempis و « أخوة الحياة المشتركة » إلى حد استحال معه سحقه بالاضطهاد مهما بلغت قسوته . اضطهد بروتستان الأراضي المنخفضة وزج بهم في أعماق السجون ومنعت اجتماعاتهم الدينية وحرقت أناجيلاتهم وذبح خطبائهم ؛ ورغم كل ذلك فإنهم لم يهنو في مقاومتهم السلبية للحكومة . وحين تنازل شارل عن العرش في بروكسل في عام ١٥٥٥ ، واجه خلفه في المقاطعات الشمالية شعباً قد رسخت عقائده البروتستانية وسرت فيه مسرى الدم بحيث عجز كل جبروت الإمبراطورية الإسبانية عن ردعهم .

وفي العام الذي أدخلت فيهمحاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة ، وبينما كان لوثر لا يزال مختبئاً في وارتبورج Wartburg كان لا يزال يحقق لكل كاثوليكي مخلص

(١) ١٤٨٠ - ١٤٨٠ . راهب ألماني أله (أو نسخ) كتاب « ترسم خطى المسيح Imitatio Christi » الذي يعزوه البعض إلى المصلح الكاثوليكي الهولندي جيرار جروت Gerard Groote .

أن يأمل في أن يتم — على يد حكومة حازمة خلال بضع سنوات — القضاء على « مشادة الرهبان » ، وهو الاسم الذي كان يطلق على المشكلة الأوثرية في ذلك الوقت . وبينما كانت هذه الأحداث تجري ألقى السفينة « فكتوريا » — وهي غایيون حمولته خمسة وثمانون طنًا ، يحمل العلم الإسباني ويقوده جون سباستيان دل كانو John Sebastian del Cano — ألقى مرايسها على نهر الوادي الكبير بعد غيبة ثلاثة سنوات . كانت هذه السفينة قد دارت حول العالم بعد أن بدأت رحلتها كوحدة من أسطول يتكون من خمس سفن ويتولى فرديناند ماجلان قيادتها العامة . وكانت « فكتوريا » قد دارت حول باتاجونيا وعبرت المحيط الهادئ ، وشققت طريقها بعد موت ماجلان في جزائر البحار عبر المحيط الهندي إلى الطرف الجنوبي لإفريقيا ، ومن هناك رجعت إلى بلادها .

وقد انتشى الإمبراطور الشاب بهذا الدليل الجديد على النعم المتعددة التي اختصت بها العناية الإلهية أسرة هابسبورج . ألم يكن من الواضح أن النمسا كان مقدرةً لها أن تبسط سلطانها على العالم ؟ « النمسا ! إمبراطورية كل الوجود *Austriæ est imperare orbi universo* ». وقد تراءى لظاظري شارل أن النمسا الكاثوليكية ستُبسط جناحيها على العالم الكاثوليكي : فكوبا كانت قد دخلت في حوزة إسبانيا ، وكان هرناندو كورتيس Hernando Cortes قد أبحر من كوبا وضم المكسيك إلى أملاك إسبانيا .. ورغم أن هذا القائد الصلب الذي الحنك لم يكن معه سوى حفنة من الإسبان ، فقد استطاع بخيوله ومدافعه أن يتغلب على الأزتك Aztecs ، وهم جنس من أكلة اللحوم المتعطشين للدماء ، كانوا قد أقاموا في بلادهم حضارة عجيبة عرجاء : فلم يكنوا يعلمون شيئاً عن العملة أو دواب العمل أو الأبقار والماعز . ولقد خطف كورتيس ملكهم مونتيزوما Montezuma ونصب نفسه سيداً على عاصمتهم . وليس في التاريخ سوى أمثلة قائلة أوضح من المثال الذي ضربه كورتيس على أثر الهيبة في الحرب . كان الأزتك قوماً أبرياً بقدر ما كانوا قساً . وجدوا في القائد الإسباني مصدرًا للعجب تملّك أباهم : فقد كانت حيويته الحيوانية الشرسة وخيوطه ومدافعيه أشياء خارجة عن عالم تجرّبهم . وكانوا على استعداد لتصديق الأسطورة التي دبر كورتيس لذاعتها ، وهي الأسطورة الفائلة إن الأجانب المحاطين بالأسرار والذين هبطوا

من المجهول بحيواناتهم الخارقة للعادة ، هم أنصاف آلة ، من العبث إغضابهم أو مقاومتهم .

ولم يكن إخضاع المكسيك – أو إسبانيا الجديدة – سوى أحد تلك المظاهر العديدة لمقدرة الغزارة الإسبان في مجال الارتياد . قد تلقاءهم في مستنقعات فلوريدا وعلى شواطئ المسيسيبي وكلورادو . وقد أنسسوا بناما ودخلوا نيكاراجوا واجتذبوا في ركابهم المولين الألمان إلى فنزويلا . ولكن لا يوجد في هذه الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الرواد الشجعان ما يعدل في أهميته استيلاء بيزارو Pizzaro على بيرو . في هذه البلاد أمكن الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت في نظر كل الإسبان – الذين سيطرت على تفكيرهم الأغراض المادية – الهدف الرئيسي للمغامرة الاستعمارية . هنا كانت تقع إلدورادو Eldorado التي كان البحث يجري عنها منذ عهد بعيد ، والتي لم يمكن الاستحواذ عليها إلا بعد مشاق ، وإن يكن إغاؤها من القوة بحيث إنها أصبحت في الحال المستوى الذي يتحتم أن تقاس به كل الفتوحات والمستعمرات الأخرى . ولم تكن الأرجنتين – التي قدر أن تصبح أعظم مزارع الحبوب في العالم الجديد – بلداً يستحق الاستغلال إذا ما قورنت بيرو ومعادنها وأحجارها الثمينة . وفي الواقع أن سر اجتذاب نهر بلاطا – الذي يمد هذا البلد الخصب باليابه – للمرتاد الإسباني يرجع إلى كونه قد بدا مجرى مائياً يفضي مباشرة إلى ما اشهده من خزان قشتالة الجديدة .

كان بيزارو أمياً لقطيماً ، احترف ر Cobb البحر كغيره من فقراء الإسبان في ذلك الوقت ، بعد أن حاول طرق أسباب أخرى للرزق . وفي خريف عام ١٥٢٢ كان في بناما معوزاً باحثاً عن الثروة ، متყحاً لركوب الصعب في سبيل الكسب . هنالك أخبره من يدعى بسكال دي أنداجايا Pascual de Andagaya وهو ملاح إسباني – عن أرض غنية في أمريكا الجنوبيّة على ساحل المحيط الهادئ ، يسكنها أقوام يعرفون باسم الإنكا Incas . وكان بيزارو أحد أولئك الرجال الذين يتخطفهم الطمع كالسلكير يمضه العطش . ملأت أحلامه وشكلت تاريخ حياته روى ثروة عظيمة لا يحتاج الحصول عليها والتصرف فيها إلى كبير عناء . وكان الذهب عقيلته التي يؤمن بها ، وفي بحثه عن الذهب لم يستشعر خوفاً ولم يلق بالاً لضمير . وفي التو

أقلع إلى بلد الثروة على ظهر سفينة واحدة ومعه مائة رجل . ورغم أن أمانية قد انهمت بالفشل ، إلا أنه جدد المحاولة بعد ستين (١٥٢٦) ، وكوفي على جهده بما رأه من حقول فلحت خير فلادة ووطنيين تحلو باللآلئ وزيته الذهب . ومنذ تلك اللحظة حدد هدفه دون هواة ؛ فعندما أراد أتباعه انتهاز فرصة وجود سفينة إسعاف ليرجعوا إلى بناما ، رسم بسيفه خطأ على الرمال وقال : « أصدقائي ورفاق . . . على هذا الجانب يوجد الكد والجوع والعرى والعاصفة التي تتبلع كل شيء ، والحراب والموت ، وعلى الجانب الآخر الدعة والسرور . هناك بيرو ببرواتها ، وهنا بناما بفترها . ليتخير كل منكم ما هو أكثر جدارة بقتالي شجاع . أما أنا فإني اختار الذهب إلى الجنوب » . وبهذه الكلمات خطأ بيزارو إلى جنوب الخط وتبعه ستة عشر من رفاق سفينته .

أما الأراضي التي اكتشفوها فكانت دولة لم يكن لها قط نظير في أي جزء آخر من آلة . كانت إمبراطورية الإنكا تميز بتوسيعها في تطبيق نظام يقوم على شيوعية المتعففة . فلم يكن يسمح لأى فرد بأن يكون عاطلاً أو أن يعمل أكثر مما يطيق ، وكان كل فرد معرضًا لنقله من مكانه — إذا ظهر أنه مزدحم بالسكان — إلى مكان آخر . وكان عباد الشمس الأذكياء الأغنياء هؤلاء قد أقاموا المعابد والقصور والقنوات المعلقة وحرروا القنوات وشقوا الطرق ومهدوا أرضهم للزراعة ، مما أثار سمع الجميع بإعجاب غزاتهم الذين ألهبت الفضة والذهب جشعهم . وبعد ارتياح دقيق لهذه البلاد العجيبة ، رجع بيزارو إلى إسبانيا حيث حصل على تفويض من الإمبراطور (٢٦ يوليه ١٥٢٩) حوله سلطة نائب ملك في البلاد التي كان لا يزال عليه أن يضمها . وليس في الغزاة من بز فرانشيسكو بيزارو عنفًا وغدرًا . خطف أتاهوالبا Atahualpa حاكم البلاد المنكود الطالع بطريقة غادرة . ثم جرد من ثروته ، وبعد محاكمة هزلية أحرق حتى الموت في أكبر ميادين كازامنكا Casamanca (٢٩ أغسطس ١٥٣٣) . ومن المظاهر الشريعة لهذه الجريمة التي تتقرز منها النفوس أنها نفذت على ملايين الرهبان المبشرين الذين أبدوا موافقهم عليها وأعلنوا استحسانهم لها ساعة تنفيذها .

ولم يكن فتح بيرو — التي كانت آخر وأغنى المراط الاستعمارية التي سقطت

في يد إسبانيا أثناء حكم شارل الخامس - خيراً كله . لم يسبق لمجتمع أن اكتسب ميزة أخلاقية باشتراك أفراده في الاندفاع بمحنة عن الذهب ؛ ولا يشذ عن ذلك إسبانيا القرن السادس عشر الذين تملكتهم حمى الذهب والفضة قبل أن يتم تنظيم المثل العليا للإنسانية وبيدها تأثيرها في مشاكل الصناعة . فقد تشارجروا مع بعضهم البعض ، وفرضوا أقسى أنواع الطغيان على أهل البلاد الأصليين البائسين من لا حيلة لهم . واعتبر المال - خطأ - هو الثروة ، وتجوهات الدعائم الحقيقة للرخاء الاقتصادي . وهكذا أفسد قناصو ثروات بيرو أنفسهم ، ثم نقلوا جرثومة بخلهم وجشعهم الذي لا يعرف هواة إلى صميم الجهاز السياسي الإسباني .

« قبل تنازل شارل عن الحكم نظمت المكسيك وأمريكا الوسطى وفنزويلا وغرنادا الجديدة وبيريرو وبوليفيا وغربي شيلي ممتلكات تابعة لنتائج قشتالة . أما الأرجنتين وباراجواى فكانت لا تزالان في المراحل الأولى من الاستيطان . في الوقت الذي كانت فيه كاليفورنيا وفلوريدا تمران بالمراحل الأولى للاستكشاف » . وما يثير الدهشة في العمل الذي قامت به إسبانيا أن هذا الاتساع الذي طرأ على إمبراطوريتها واستكشافاتها قد تم في وقت كانت هي فيه مشتبكة في حرب لا تقاد تنقطع مع أعظم دول أوروبا ومع الأتراك غالباً .

وهذا الطغيان البشع الذي صبه المستعمرون الإسبان هو البقعة السوداء التي تلطخ سجل تاريخهم هذا . ولكن من حق أوروبا أن تشير إلى أن الإمبراطور قد انحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال وأنه كان - إذا ما نشب النزاع بين الإرساليات التبشيرية العاملة لنحير الإنسان وبين المستعمرين المستغلين - وهو ما كان يحدث غالباً - كان ينحاز إلى جانب الإرساليات ؛ كما أنه يحق لأوروبا أن تذكر أن سكان أمريكا الأصليين إنما صينوا من الهلاك إلى أكبر حد بفضل تدخل الحكومة الإسبانية . وفي قائمة الأبطال المرسلين الذين وهبوا حياتهم للتحفيف عن الشعوب التي أحضعت لن تجد من هو أبل من لاس كازاس Las Casas الذي كان أول قس تحقق من المظلوم التي كان يقرفها مواطنه في المستعمرات الإسبانية وأول من أنكروها ؛ كما أنه رائد تلك الحركات الإنسانية التي جادلت فيما بعد وحاول رجالها أن يلطفوا من حدة استغلال العالم القديم للعالم الجديد .

وقد خلدت حروب شارل الخامس في إيطاليا عصرية تيسيان^(١) وأريosto^(٢). إلا أن هذه الحروب ليس لها من النتائج الباقية ما لترك الفتوحات البعيدة عبر الأطلنطي . أما المعاصرون فكان يبدو لهم أن ليس ثمة كثير من الأحداث تفوق في ضياعها مع الزمن القضاء على القوة العسكرية الفرنسية في إيطاليا . تم هذا القضاء بشكل مفاجئ جداً . وكان يبدو أنه مكتمل تماماً . هُزم الفرنسيون في بيكتشا Bicocca في عام ١٥٢٢ ، ثم هزموا مرة أخرى في بافيا في عام ١٥٢٥ حيث أسر ملكهم فرنسو ونقل على ظهر إحدى السفن إلى إسبانيا . وانتزعت ميلان من أيدي الفرنسيين وأعيدت إلى فرنسا كسفورزا باعتبارها إقطاعاً إمبراطوريّاً ، وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لإسبانيا ، لا يكاد يعني ذلك ستار رقيق من التذكر ؛ وكما كانت إسبانيا تمثل بمفاتيح الشمال بإشرافها على ميلان ، فإنها بإشرافها على نابولي وصقلية غدت سيدة الجنوب . وبهذا تفكير أريosto الشاعري أن انتصارات شارل في إيطاليا تبني بالإمبراطورية التي يقيض لها في نهاية المطاف أن تحمل السلام إلى البشر .

مثل هذا الاستعراض لقوة إسبانيا أفرع كل من يهم من الإيطاليين – لسبب أو آخر – عن أيّة دولة أجنبية وحدها من إحراز السيطرة على شبه الجزيرة ؛ كما أن هذا الاستعراض قد أتى برعشات القلق في قلوب الساسة الأذكياء العالمين ببواطن الأمور الذين كانوا يحكمون في الفاتيكان . ربما بدا كليمانت السابع خير من يصلح لتزعيم حركة إيطالية كبيرة ضد الإمبراطور وأنصاره ، وذلك بحكم حسنه ومنصبه وتتجربته (فهو – عندما كان كاردينالا باسم الكاردينال جوليانو مدتشي Giuliano dei Medici قد ظل مدة طويلة في الطليعة من ميدان السياسة) . ولكن من سوء الحظ كان البابا – رغم كل مقدرته في المفاوضة ومصائه وفراسته ودهائه وثقافته – خلواً من الصفات الخلقية والذهنية التي تلزم من يتصدى للقيادة ، وكان من ذلك الطراز من الرجال الذين يجمعون في خيالهم قدرًا كبيرًا من الأشياء الصغيرة بحيث تخفي عليهم الأشياء الكبيرة . لهذا كان كليمانت ، كلما احتاج الأمر إلى قرار واضح ، يتراجع

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٦ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٨١ .

بين خطط متنافرة ؟ فعندما كانت الضرورة تدعو إلى تعبئة كل أمراء إيطاليا في جبهة واحدة لحرب الإسبان ، اطرح مساعدة حليف قوى بإصراره على استرجاع مدینتين تافهتين كان دوق فرارا قد اغتصبها من الدولة البابوية . وهكذا في موقف كان يقتضي البابا أن ينظر إليه نظرة عالمية ويتطلب منه إرادة حاسمة ، راح هذا السيد التسکانى الجذاب المثقف يبين عن أفق أسبق ضيق لأمير إيطالى صغير ، وعن ترد عصبى لجندي قديم كثیر الخلبة .

في ظل قائد من هذا الطراز كان من المستحيل أن تمر أية خطة عظيمة . وكان شارل على علم بالمؤامرات التي كان البابا يحيكها مع الوصبة على عرش فرنسا ، ومع البندقية ، ومع مورون Morone مستشار ميلان ؛ كما كان على علم بعصبية كوزياك المقدسة التي تكونت ضده ، وبجيش العصبة الذي كان يتجمع في إيطاليا . لهذا احتاط مقدماً ضد هذه الإجراءات التي أبى بها ، فارتئى أن تعزز القوات الإمبراطورية بحيث يمكنها مواجهة الموقف .

وقد ا Baba في روما معتلاً لا حول له ولا قوة . وحتى في الفاتيكان لم يكن في أمان من عشيرة كولونا Colonnas الموالية للإمبراطور القوية الشكيمية التي كانت لا تدع أى فرصة تمر دون استغلالها لتسوية حساب قديم ضد أحد البابوات . ولكن كان ثمة عدد تباغي مواجهته أسوأ من عشيرة كولونا الذين أرغموه بالضغط المحلي المذل على سحب قوته من جيش العصبة . ذلك أن اثنى عشر ألفاً من فرسان الإمبراطور اللوثريين اقتحموا إيطاليا ، إذ كانوا يسيرون دون أن يتلقوا مرتباتهم ويعيشوا على ما يهبونه من الريف (كما كانت عادة القوات الإمبراطورية) — اقتحموا إيطاليا لإنزال العقاب بالبابا الذي تجرا على إهانة سيدهم الإمبراطور . وقد قال قائهم جورج فون فرندسبرج George Von Frundsberg : «إن البابا أسوأ أعداء الإمبراطور ، وهو الذي بدأ الحرب . وفي سبيل مجد الله لا بد من شنقه ، وإن كان الواجب يملي على أن أشنقه بيدي » . وفي مثل هذا المزاج تحرك هذا الجيش من الألمان الحائرين ، منضيماً إلى القوات الإمبراطورية التي كان يقودها كونستابل^(١) بوربون ، نحو

(١) كان لقب كونستابل فرنسا يطلق على أكبر موظفي خدمة القصور في عصر الملوك الفرنسيين الأول . وكان يعني كذلك القائد العام للجيوش أثناء غياب الملك .

الجنوب دون أن تعرضه أية صعوبة في طريقه إلى روما . وما حدث بعد ذلك ، بالرغم من أنه لم يدبر من قبل بأى شكل ، ولم يكن على الإطلاق نتيجة لتعليمات من إسبانيا ، كان درسًا قاسيًا لرجال الدين أوضح لهم خطورة مخالفة إرادة الإمبراطور . وفي ليلة ٦ مايو ١٥٢٧ اجتمع خارج جدران المدينة البابوية أربعون ألفاً من شرار الجندي وأبعدهم عن النظام لا يداينهم في وحشيتهم أى جيش في أوروبا ، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة واعتلوا البابا في قلعة سان أنجلو ، ثم أطلقوا العنان طيلة ثمانية أيام عصبية لقسوتهم وتخريفهم : نهبت كل الكنائس والأديرة ، وقطعت رءوس رهبان وقسس ؛ « وتعرض عدد كبير من الراهبات العجائز للضرب بالعصى ، وانتصب عدد كبير من الراهبات الشابات وأخذن أسيرات » ، وتحولت كنيسة القديس بطرس وتحول القصر المقدس إلى إصطبلات للخيول ، وترك ثلاثة مدنية روما أنقاضاً . وقد بدا البعض الناس أن هذه العقوبة الفاسدة ليست إلا وحيناً من الله ، وقال معاصر وفود : « كل الآثم كانت تترف في روما : اللواط وبيع المناصب الدينية ، وحبس الطواغيت ، والنفاق والختل . لهذا فمن المؤكد أن ما حدث لم يكن من وحي الصدفة ، بل إنه عقاب أزله الله » . وفي فلورنسة كان الدرس الذي لقتته هذه الحادثة أن في الإمكان الآن طرد آل ميديتشي دون خطر ، وإقامة جمهورية على أنقاض حكمهم ؛ أما العالم فقد وضع له أكثر من أى وقت أن النير الإمبراطوري قد أحكم وثاقه على إيطاليا .

ومن ناحية أخرى أصبح خطر الإمبراطورية من الجسام بحيث أثار ضدتها تأليلاً من الدول : فقد انضمت فرنسا وإنجلترا إلى البندقية لتخفيض حدة الزهو الإمبراطوري وتحرير البابوية من النير الإسباني . واسترد جيش فرنسي يقوده لورك Lautrec الجانب الأكبر من دوقية ميلان وسار عبر إيطاليا دون أن يعترضه شيء في طريقه إلى حصار نابولي . وفي يونيو ١٥٢٨ بدت المدينة على وشك السقوط بعد أن شدد الفرنسيون حصارها من البر وحاصرتها سفن جنوة بحراً . وتساءل الناس عما إذا كان قد قدر لإيطاليا الانتقال من السيطرة الإسبانية إلى السيطرة الفرنسية . ولكن حينئذ طرأ أحد تلك التغيرات المفاجئة في الأقدار التي من شأنها أن تؤثر بوجه خاص على جيوش صغيرة تعمل على مبعدة من بلادها . في الجنوب داهمت الأمراض جيش

لترك وكبدته خسائر كان لا يمكن تعويضها ، ثم تضعضعت قواه المعنوية بموت قائد ، فاضطر هذا الجيش إلى التخلّي عن حصار نابولي والتسليم في أورسا Aversa ؛ وفي الشمال اهزم الفرنسيون في لاندريانو Landriano أمام جيش إمبراطوري أرسلت إليه الأداد . ولكن بي هناك عامل أكثر أهمية من حيث تأثيره في التوازن الدائم للقوى في البحر المتوسط ، وهو تخلي الملاح الجنوبي الكبير أندريله دوريا Andrea Doria عن الفرنسيين وانضمّمه إلى الإمبراطوريين . كان دوريا بحاراً يجري وراء الكسب ، ولكنه كان في نفس الوقت جندياً مخلصاً لبلده ، تعتمل في نفسه إحن كثيرة ، بعضها عام وبعضاً شخصي ، ضدّ الفرنسيين . وكان وجود حامية فرنسية في مسقط رأسه مثيراً لغضبه ، كما أنه سخط للنمو السريع الذي أصابته تجارة سافونا Savona جارة جنوة ومنافستها بتشجيع من الفرنسيين . حتى إذا كان حصار نابولي على أشدّه بحيث كان تحول دوريا من شأنه إلحاق أكبر ضرر بالفرنسيين وجلب أكبر منفعة لخصومهم ، حول دوريا نفوذ جنوة كلية إلى جانب المعسكر الإمبراطوري . وهكذا انحاز أقوى أسطول إيطالي في غرب المتوسط إلى جانب إسبانيا . أما شارل فإن التحالف مع جنوة قد أكسبه ثلاث ميزات حاسمة : فهو قد أغلى الشاطئ الإيطالي في وجه الفرنسيين وفتح الممر الموصل بين إسبانيا وألمانيا وأشاع في إيطاليا شعوراً قوياً بالانتصارات الإمبراطورية . وفي ملحمة أريوسو العظيمة ينفرد دوريا من بين أتباع شارل بكونه الصديق الذي جلب له النصر في كل حرب .

ولم يشرك الإمبراطور بنفسه لاف هذه الحملة ولا في أي حملة إيطالية أخرى . فقد أحرز الانتصارات الإسبانية في الميدان قواد إسبان يقودون جندًا من المشاة الناظميين الإسبان كانوا قد دربوا ليس فقط على الضرب بالروح ، بل على المهارة في استعمال الأسلحة النارية أيضاً . وعلى أي حال فإن الفضل في ضمان ثمار النصر يرجع إلى شارل بتخفيه الحكمة والاعتدال السياسي . فإنه بعد انتصاره على الفرنسيين في لاندريانو حطم التأليب المعادي له بعقده صلحًا منفردًا مع فرنسا . كان لديه بعض ما يتنازل عنه والكثير مما يأخذه ، وطبقاً للمعاهدة التي أبرمت في كامبرى Cambrai (أغسطس ١٥٢٩) تنازل الإمبراطور عن ادعائه في وراثة ملك برجندية ، وهي الادعاءات التي جاءته عن طريق جدته ماري ، على حين تخلي فرنسوا عن

ادعاءاته في إيطاليا وعن حقوقه الإقطاعية في الفلاندر وأرتوا ، وتزوج فنسوا إليانور أخت شارل .

وأصبح الإمبراطور في أوج قوته : ساد إيطاليا ، وأجرى حلفاً أسرىً مع كليمانت السابع الذي توجه في بولونا باتج لمباردي الحديدى وتاح الإمبراطورية الذهبى ، وعين أخيه فرديناند خلفاً له على عرش الإمبراطورية ، وابنه فيليب خلفاً له على عرش إسبانيا ، وتوافر له حيثذا الشرط الأساسي للقيام بأى عمليات ناجحة ضد الأتراك ، وهو عقد الصلح مع فرنسا . وعندما قاد جيشاً إلى إفريقيا في عام ١٥٣٥ واستولى على تونس ، تأثر نجمه في أوروبا باعتباره البطل المنافع عن المسيحية ، وذلك بالرغم من ذكريات نهب روما المريدة .

ومع ذلك كله لم يكن شارل قد سوى حسابه نهائياً مع فنسوا الأول . فإن هذا العاهل الذي صقلته الحضارة — وإن كان خسيس المعدن — ذلك الذي وصل بفن من الانطلاق حدث به إلى تشجيع الخارجين على الكاثوليكية نسا مع اصطهادهم داخلها ، بل إلى تقديم ملجاً في ميناء طولون للقرصان التركي برباروس — إن هذا الملك لم يكن قد اطرح أحلام الفتوح الإيطالية رغم كل ما نصت عليه معاهدة كامبرى . كان زواج أكبر أبناءه لكاترين ميديتشى ، وهى من أقرباء البابا ، دليلاً على أن ادعاءات فنسوا في إيطاليا لا تزال قائمة . وفي الحق لقد نشب الحرب من أجل ميلان في عام ١٥٣٦ واستمرت ستين حتى انتهت بمعاهدة نيس في عام ١٥٣٨ ، ثم تجددت في عام ١٥٤٢ ، وسويت نهائياً — فيما يتعلق بشارل وفرنسا — بصلاح كرسپي Crispi في عام ١٥٤٤ . ولم تترتب على هاتين الحررين القصيرتين أية نتائج على جانب من الأهمية . فقد بقىت إسبانيا سيدة ميلان ونابولي ، وظلت فرنسا محتفظة بمحدودها باستثناء استيلاء إنجلترا على بولوني . وبقي التفوق الدبلوماسي في جانب شارل الذي أبدى مهارة كبيرة بإيقاعه فنسوا في شرك الأمل في وراثة ميلان ، وكسب تعاضيد إنجلترا له في آخر حروبه . ولكن أهم الحقائق التي ييرزها هذا النضال الطويل على إيطاليا الأضمحلال الشديد للفكرة القديمة ، فكرة الوحدة المسيحية التي تشمل كل أوروبا . ورغم أن المسلمين كانوا يدقون أبواب أوروبا بعنف ، فإن جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة نهب

كنائس روما وأعلن «أشد الملوك مسيحية» أنه صديق الأتراك وحليفهم.

واستمر سلطان الإسبان في إيطاليا ، وهو السلطان الذي توطدت دعائمه نهائياً في عام ١٥٣٩ ، حتى نهاية حروب لويس الرابع عشر. واستبدلت إيطاليا بعصر النهضة الراهن بالحركات العقلية الباهرة فترة من السكون الثقيل تحالف فيها البروتستانت معمحاكم التفتيش وقائمة المطبوعات المحظورة (Index) لحقن الحركة العقلية الحرة وصهرها في قالب كاثوليكي . ووضعت الحياة أكثر وقاراً وأشد احتفالاً بالتكلف ، وحل النفاق محل الجرأة الرقيقة ، وأصبح افتراف الرذيلة علناً وبالمهر بالإلحاد أمراً خطيراً وبالتألي لا يوم روح العصر ؛ وتحالفت كل العناصر الفاضلة في المجتمع الإيطالي بقصد إصلاح كنيسة روما . ولم يبق شيء من تلك الحرية الفكرية والكلامية القديمة التي جعلت إيطاليا في العهد الماضي معلمة أوروبا ، اللهم إلا في دائرة صغيرة بين المثقفين في نابولي وفي جمهورية البندقية التي حافظت على استقلالها عن إسبانيا وطلت بعيدة عن نفوذ البابا . وراح الإيطاليون السريعاً الخاطر يسخرون من حكامهم الوقورين الحادين ، ويزرون أكتافهم في غير اكتراث ، ويصطعنون الطاعة – في أسلوب لا يخلو من الشكر – لهؤلاء الأجانب الذين أغفوه من مهمة الحكم وال الحرب .

وكانت إعادة أسرة مدجيتى إلى فلورنسة من بين شروط الحلف الأسى الذي تم بين شارل وكليمانت في عام ١٥٢٩ . ونفذ هذا التعهد في العام التالي : فحاصر المدينة جيش إمبراطوري كبير وضعفت قيادته في يد الأمير أورنيج ، وسقطت بعد دفاع مجيد ، ثم جردت من نظامها الجمهوري وأُجبرت على الخضوع لأنساندرو مدجيتى Alessandro dei Medici وهو ابن سفاح من جارية مخلطة بالدم الزنجي . وقد يكون سقوط جمهورية إيطالية قصيرة العمر قليل الأهمية بالنسبة إلى تاريخ أوروبا الطويل ؛ ولكن الظروف خلعت على أقول الحريات الجمهورية في فلورنسة دلالة خاصة . كانت المدينة عاصمة للعصرية الإيطالية . أما الجمهورية التي خلقتها حاسة نبي داعية^(١) ، فقد اجتذبت إليها آمال سلسلة من المؤرخين الوطنيين

(١) يقصد المؤلف الراهب سافونا رولا .

لا تزال صفحاتهم الحادة تنبض بمحاسة كلاسيكية . فلقد دافع ميخائيل أنجلو عن أسوارها ، ودافعت عن ريفها قوات من المليشيا تنبض قلوبها بحب الوطن ، محققة حكم مكيافيلى . ولو قيس للجمهورية البقاء لربما لفنت الشعب الإيطالي ذلك الدرس في الاعتماد على النفس في الحرب ، وهو الدرس الذي كان وحده كفيلاً بأن يجلب لهذا الشعب السلامة والوحدة واحترام الذات . ولكن المدينة سقطت ؛ وما هو جدير بالذكر أن من بين أسباب تسليمها خيانة أحد قادة الجند المرتزقة من بروجيا Perugia ، وكانت المدينة قد ارتكبت حماقة بطلب مساعدته .

كتب يمكن الرجوع إليها

- E. Armstrong, *The Emperor Charles V*, (1902).
- F.A. Mignet, *Rivalité de François I et de Charles V*. 2 vols, (1876).
- H.C. Lea, *The Moriscos of Spain*, (1901).
- Gelpi, *The Spanish Conquest of America*, (1900-4).
- J.S.C. Bridge, *A History of France from the Death of Louis XI*, (1921).
- Henri Lemonnier in Lavisse, *Histoire de France*, Vol. V, i, V, ii.
- H.B. Merriman, *The Rise of the Spanish Empire*, (1918-25).
- R. Altimara y Crevea, *Historia d'Espana y de la civilización española*, (1902).
- J. Fiske, *The Discovery of America*, (1892).
- W.H. Prescott, *History of the Conquest of Mexico*. Everyman's Library. 2 vols, (1909).,
- W.H. Prescott, *History of the Conquest of Peru*. Everyman's Library, (1908).
- H.M. Stephens, *Portugal*, (1891).
- Janet Trevelyan, *A Short History of the Italian People*, (1929).

الفصل الحادى عشر

عقيدة كلشن

نذير الإصلاح - إنجليل زبورينج - ساحة كابل Cappel - جنيف - جون كلفن - روايته واعتقاده بالقدرةية - تأسيسه دولة ثيوقراطية - طابع الكنفنيه الديمقراطي - جنيف تصبح مركزاً لتدريب رجال الدين البروتستانت - انتشار نفوذ الكنفنيه .

لم يقتصر أثر لوثر في تاريخ الجنس البشري على تلك الرقعة من أرض ألمانيا وأسكندنavia التي ضمتها الكنيسة اللوثرية واستبقيتها في حوزتها ؛ بل إن هذا الأثر تغلغل في كل مكان ومضي يملاج في ربوع أوروبا بصيغات التحدى . وتساءل الناس عما إذا كان العالم حقيقة قد ظل يسير في طريق الخطأ لأكثر من ألف عام ، وعما إذا كانت البابوية خداعاً ودجلة ، والقداسة التي يحاط بها رجال الدين سرابة والطقوس والاحتفالات والنظم التي تداخلت في الحياة الأوروبية العادمة لا لزوم لها ؛ إن لم تكن ضارة . وما كان بوسع أحد - إلا إذا كان بليداً لا يكرث لشيء - أن يمنع نفسه من أن تتملكها روعة هذه الدعوة . قد تختلف الآراء حول قيمتها : فن قائل إنها حسنة جداً، بينما يرى آخرون أنها خبيثة جداً؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أنها مثيرة . وقد تسابق في الاستمساك بها البولنديون والتشيكيون والخبريون ، وحملوها التجار الإسبان في كتب صغيرة مطبوعة - عبر طرق جبلية - لتتحول إلى نثر قشتالي ، وناقشها علماء اللاهوت من فوق منابرهم في كيمبردج ، وباعها تجار الكتب في أكسفورد سرراً ، وزوّدت في باريس تحت سمع أساتذة السوربون وبصরهم . وإذا كان إرزميس قد أثار في الناس - أكثر من أي شخص آخر - روح النطع والتساؤل ، فإن لوثر هو الذي بدأ الثورة العظمى وهو الذي بذر البذرة وهيا الأرض في سويسرا وفرنسا وإسكتلنديه وإنجلترا ، وهي البلاد التي اتخذ فيها الإصلاح شكلاً مغايراً للطراز الوثري .

ولقد أسرع أرخ زونجلي الخطى بشكل مثير : حاول باتباعه سياسة حظر تجاري أن يرغم المقاطعات. الكاثوليكية الخمس في شرق سويسرا على اتباع التعاليم

الإنجيلية التي لقيت رواجاً في زيوريخ وبرن ، ودفع حياته ثمن تهوره على ساحة كابل الملطخة بالدماء (١١ أكتوبر ١٥٣١) . وقدت زيوريخ بموت حاميها زعامتها للحركة الإصلاحية السويسرية ، واسترجعت الديانة القديمة سطوها في القسم الشرقي من سويسرا ، وهو القسم الذي كان يغلب عليه الطابع الجرماني من الناحيتين البحنسية واللغوية . ولم تنمح على الإطلاق آثار هذه الحرب القصيرة التي استمرت ستة أسابيع ؛ فإن ما كان كاثوليكياً في نهاية هذا النضال ظل كاثوليكياً حتى الوقت الحاضر . وتبع حلم زونجل في انتشار العقيدة الإنجليلية في جميع أنحاء الاتحاد السويسري ، وحلول الحكم الديمقراطي محل حكم الأقلية في كل مكان ، وحصول برن وزيوريخ في شؤون الاتحاد السويسري على الأهمية التي توأم أعداد سكانهما . ومع أن أخلاقه الخاصة كانت لا شائبة فيها ، فإنه — وهو أكثر المصلحين الدينيين موهبة وأشدّهم جاذبية — فشل لأنّه أخطأ في تقدير أهمية الفلاحين المتحسينين ، حماة العذراء والقديسين الذين كانوا يعيشون في أكواخهم الخشبية المصنوعة من جذوع الأشجار في أعلى مراعي جبال الألب وغاباتها على مسافة بعيدة من هرطقات الذين نشأوا في المدن .

وانتقلت زعامة حركة الإصلاح السويسرية إلى برن ، ثم إلى جنيف ، وهي مدينة كانت تقع خارج الاتحاد السويسري ولا يزيد عدد سكانها على ١٣ ألفاً ؛ ولكن قيض لها بسبب موقعها الجغرافي (وكانت تقع على حدود أربع دول) وأكثر من هذا بسبب ارتباطها بأحد الزعماء الدينيين العظام في العالم ، أن تكون عاصمة البروتستانية الغربية ، وعلى رأس المدن التي احتمت بها الأقليات المضطهدة من معنئي هذه العقيدة لعدة قرون .

ولقد كانت جنيف تناضل منذ ثلاثين عاماً للتخلص من سيطرة دوق سافوي وأميرها الأسقف ، واتخذ النضال شكل حرب أهلية مميرة . وأطلق خصوم حزب «حكومة الكنيسة بواسطة الأساقفة»^(١) على الحزب اسم المالك . أما حزب الأحرار فقد عرف باسم Eidgenossen (معنى الرفاق الذين أدوا القسم) ؛ وما ليث هذا الاسم — في شكله الفرنسي المعروف بكاهليجونوت — أن طبق آفاق أوربا .

ولكن جنيف استطاعت تحقيق حريتها في النهاية (أكتوبر ١٥٣٦) مستعينة بمساعدة برن المدينة البروتستانتية، وأصبحت على استعداد للاحتفال ببعض الدعاة الفرنسيين الذين كانوا ينشرون التعاليم الإنجيلية عبر إقليم الفود – Pays de Vaud وكانت برن تشجعهم على ذلك . ولم يكن ثمة من هؤلاء الدعاة من كان أقوى أثراً من وليم فارل William Farel الذي كان يتقد حماسة، وهو الذي أقنع باحثاً فرنسياً شاباً كان يتتجول في رحلة خاصة ثم ألقى رحاله في جنيف في عام ١٥٣٦ ، أقنعه بأن يتوقف في هذه المدينة ويستبدل إلى الأبد بحياة البحث العلمي حياة الخدمة الكهنوتية العاملة .

هذا الباحث الشاب هو جون كوثان John Cauvin (وكلفن) ، وهو ابن موثق عام ، ولد في نويون Noyon في بيكاردي في عام ١٥٠٩ ، وكان قد قفز إلى حيز الشهرة – بالرغم من أنه لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره – حين نشرت له ثلاثة بحوث تستحق الإعجاب : الأول تعليق علمي على كتاب سينيكا^(١) « عن التسامح De Clementia » ، والثاني مقالة أكاديمية كتبها بقدر من الحماسة للتعاليم الإنجيلية بحيث اضطر إلى الرحيل عاجلاً عن باريس ؛ والبحث الثالث مدخل إلى الدراسات الإنجيلية بعنوان « مبادئ الديانة المسيحية Christianae Religionis Institutio » وقد نشره في بال وأهداه إلى الملك فرانسوا الأول .

ولن تجد من هو أقل شهراً بمارتن لوتر من هذا الشاب الفرنسي المذهب الداعوب على الدراسة . كان كلفن ينتمي إلى الطائفة العليا من الطبقة الوسطى ، وكان يغشى مجالس النساء من الرجال والننساء فلا يحس ضيقاً ، وكان قد اعتصر كل ما استطاعت باريس أن تقدم له من العلوم الإنسانية وكل ما قدمته له أورليان وبورج Bourges من علوم القانون . ولم يكن في كلفن شيء من طباع لوتر : فلم يكن فيه شيء من حيويته الدافقة ، ولا من مرحه وألمعنته ، خشونته ودعابته ، خياله الملتهب وروحه « المدرسية » الصيقة ، إيمانه الربني الساذج بالخرافات ونقده لذاته لدرجة غير عادية . أما المصلح الفرنسي فكان هادئاً متحفظاً ، مشرق التفكير

(١) حوالي ٤ ق . م - ٦٥ م . فيلسوف وخطيب روماني . كان معلماً لنيرون الذي أرغمه عندما شب عن الطوق - على الانتحار .

والتعبير ، دائم التفوق على من تصدى لمحادلته ، وذلك بفضل ما لديه من ذخيرة حاضرة من المعارف عن آباء الكنيسة والإنجيل ، كما كان متملاً لتلك الميزة العظيمة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى معتقدات راسخة آمنوا بها دون أن تبدو عليهم آثار صراع داخلي . وكان في تفكيره يمتاز بالبساطة الحادة ، مما منحه سلطاناً على أصحاب العقول الرخوة المترددة . ومن الممكن أن نصفه بأنه بطل من أبطال الرياضة – لا رياضة الجسم ، ولكن رياضة الفكر – أو أنه قديس مجرد من النوازع العاطفية أو قد نقول عنه – بساطة – إنه قد ولد موجهاً للضمير . ولقد كرس جهده ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية وأن يقود حزب الإصلاح – أو الهيجونوت – في فرنسا .

وفي تقديره لنفوذ كلفن في فرنسا يقول رنان^(١) إنه نجح في عصر وفي بلد كان يطلبان العودة إلى المسيحية ، لسبب بسيط وهو أنه كان أشد رجال جيله استمساكاً بال المسيحية . هذا الحكم صحيح إلى حد كبير ، ولكنه ليس كل الحقيقة . كان كلفن مسيحيّاً ، بسيطاً متربعاً في حياته الخاصة ، مسيطرًا على عواطفه ، ساميًّا في أهدافه . ولقد سخر كل قواه الجسمية والعقلية في محاولة هدفها أن يعيد إلى العالم مسيحية القرون الثلاثة الأولى التي تكون عليها بأسلوبه الذهني المادئ المتثبت صورة مُقْتَسِعَة . كانت مراسلاته شهيدة الوفرة ؛ ومن المدينة التي اتخذها وطنًا لهأخذ يث النصائح الروحية؛ لكل هيئات الهيجونوت في فرنسا : فهو يثبت إيمان المتشككين ويهز الكسالي ويشجع من وهنت روحهم المعنوية ويؤنب المخالفين . ولكن لا ورעה المسيحي ولا نشاط قلمه الذي لا يهدأ كان كفيلاً بأن يجعل منه قرة في فرنسا لولا ما كان عليه من قدرة فائقة في التراكيب المنطقية ، مع إشراق العبارة ووضوحها ، وإنجاز العرض وحاسة الاتزان – وهي وحدتها الصفات الكفيلة بأن تتمكن مثقفاً فرنسيًّا أريآ أن يكون مسموع الكلمة في فرنسا .

وفي عام ١٥٦١ كتب سفير البندقية إلى الدوّاج ما بلي : «إنه ليصعب على قداستكم تصديق القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما في هذه البلاد أكبر حكام الكنيسة

(١) ١٨٩٢ - ١٨٢٣ . (فيلسوف ومستشرق فرنسي ، اشتهر في العالم الإسلامي بمحاجاته مع جمال الدين الأفغاني في باريس .

في جنيف ، واسمه كلفن ، وهو فرنسي من مقاطعة بيكاردي . إن له سلطاناً خارقاً ، يفوق كل الآخرين بأسلوب حياته وتعاليه وكتاباته . وكان مما يدعم نفوذ كلفن تلك السمعة المقطعة النظير التي كانت تتمتع بها جنيف ؛ فهي المدينة التي كان شعبها يختار حكامه ، والرعاية قسمها ، وليس بها كنيسة ممتازة ولا طبقة أرستقراطية ، ولكن يتساوى أهلها جميعاً أمام القانون تساوياً أمام الله » .

وكان كلفن - محقق سينيكا وناشر مؤلفاته - روايّاً كأستاذة : فهو يؤمن بوجوب اتباع الفضيلة لذاتها دون أمل في جزاء أو خوف من عقاب . وهذا المثل الأعلى الرواق الذي طورته تعاليم الإنجيل جزء لا يتجزأ من العقيدة الكلقنية . وكذلك لم ينزل من نفوذها الأدبي ذلك المبدأ الآخر الذي نادت به العقيدة وهو مبدأ القدرة : يعني أن بعض الناس قدر لهم سلفاً أن يحيوا حياة سرمدية ، بينما أعد الآخرين عذاباً مقيماً ، وهو مبدأ لم يكن كلفن ليغير عليه في الإنجيل ، ولكنه استنبطه من تعاليم القديسين بولس وأوجسطين .

والحق أنك لن تجد بين الشعوب الأوروبية من هم أصلب " عوداً أو أشد تعسفاً بشعائر عقيدتهم ، أو حرصاً في البحث عن أسباب البرة من أتباع عقيدة قد يبدو أنها تسفة كل جهود البشر وتدعوا إلى حياة الخمول والدعة .

عاش كلفن في جنيف من عام ١٥٣٦ إلى وفاته في عام ١٥٦٤ ، باستثناء فترة ثلاثة سنوات من ١٥٣٨ إلى ١٥٤١ . وفي جنيف شكل طرزاً جديداً من الدولة الثيوقراطية . فرضت نفوذها على روح الكنائس « الإصلاحية » وتكوينها في جميع أنحاء العالم . وسرّ التنظيم الذي وضعه كلفن ما اهتمى إليه من أنه في خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية كان الذين لا يستحقون رحمة الله يحرمون من مائدة العشاء الرباني . لهذا عزم على إحياء هذه القاعدة القديمة ، فيقصر الامتياز الأساسي بالانبعاث إلى الكنيسة على المتبعين الذين يثبت إيمانهم ويتحدون في تقويم . ولم يشطط من همه أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون إشراف دقيق شاق على الحياة الخاصة للفرد . وهو قد رحب بفرض شروط يخضع بمقتضاهما رجال الدين والعلمانيون على حد سواء لرقابة صارمة . ورغم أن دعوة السلطة العلمانية لتأييد النظام الروحي كانت مما ينافق تعاليه ، فإنه كان مقتنعاً بأن من واجب الحاكم في جنيف أن يغض الطرف الكنيسة . وأية تصريحية لا يمكن تبريرها في

سبيل رد الناس إلى القوى؟ لهذا أنشئ في جنيف مجلس أعلى ، بعض أعضائه من العلمانيين وبعضهم الآخر من الكهنوت ، مهمته فرض طائفة من الجزاءات على كل من يتراخي في سلوكه الشخصي وفي معتقداته الخاصة . كان الموت عقوبة الزنا والتجديف والمرطفة . وهكذا أصبحت حكومة جنيف العابسة ، المتقبة عن أخطاء الناس ، الشديدة البطش ، وقد اتخذتها بلاد أخرى نموذجاً تحتذيه — أصبحت مصدر قسوة ومكافحة للناس في العالم الجديد والقديم على السواء . أما في جنيف ذاتها فقد تسببت في حرق سرثيوس Servetus الموحّد (Unitarian)^(١) وقد اشترك كلفن في إصدار قرار الحرق وافق عليه .

ولأنه لم ين دواعي عظمة كلفن أنه لم يكن فقط قطب الرحي في حركة أوروبية واسعة ، بل إنه كذلك قد جعل من جنيف — في نطاقها الضيق المحدود ، ضد كل ما يمكن تصوره من العاقل — المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح . وقد افتخر في خطاب وجهه إلى الخريجين من رعاة الكنيسة في جنيف بأنه في خلال الفترة الطويلة التي قضتها يلقن تعاليم الإنجيل ، لم يقدم قط على مسخ أي نص من نصوص الكتاب المقدس . وبفضل جهوده أصبحت جنيف مدينة على ثقافة عالية؛ بل إنها غدت كذلك ، وبوجه أخص منذ إنشاء الجامعة في عام ١٥٥٩ ، مركزاً لتدريب الرعاة البروتستانت أو المهيجونوت . وحين حل كلفن بجنيف كانت مدينة شديدة الصخب منقسمة على نفسها ، يشيع فيها الفساد ؛ فخلفها من بعده «إسبرطة» بروتستانتية وروحأً لكل ما في الحركة الإنجيلية لذلك العهد من جرأة وإخلاص وإمعان في التعصب .

كانت الكلفينية أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتي اتساع مدى وأعمقها تأثيراً؛ فقد خلقت الكنيسة البروتستانتية في فرنسا ، وشكلت الجمهورية الهولندية ، وقبلها الإسكتلنديون ديانة قومية لهم . وقبل وفاة كلفن كانت المقاطعات البروتستانتية في سويسرا الشرقية قد قبلتها ، كما قبلتها الإلاتينيات ، واعتنقها معظم المجرمين الذين خرجوا على روما . وحتى في إنجلترا ، حيث كان عليها أن تواجه تياراً جارفاً من الروح المحافظة ، كان لها أثراً بارزاً في المواد التسع والثلاثين التي تؤلف العقيدة

(١) الذي لا يؤمن بالثالوث .

الى أقرتها الكنيسة القومية . وكان هذا الأثر من الوضوح لدرجة أن الملكة إليزابيث ، على قلة عطفها على جنيف ، قد وقع عليها قرار الحرمان باعتبارها كالفنية . ومن بعد ذلك أصبحت الكالفنية قوة غالبة في السياسة الإنجليزية . ولكن ذلك لم يستمر إلا فترة وجيزة في عهد البرلمان الطويل الأمد ؛ ولم يحدث إلا بقعة السلاح ، لا نتيجة لتغيير في مشاعر الشعب . حتى إذا عادت الملكية إلى إنجلترا تقهقرت الكالفنية مرة أخرى وأصبحت عاملًا ثانويًا وإن كان لا يمكن إهماله في الشعور الديني في البلاد . وإذا كانت جنيف لم تلق ترحيباً في بلاط شارل الثاني الظروب ، فإنها بالذات كانت طلبة سكان المناطق الساحلية في أمريكا الشمالية حيث ظل نفوذها العميق على الكنيسة والدولة — خاصة في مستعمرات نيوزيلندا — منذ رحلة السفينة مَاي فلور Mayflower في عام ١٦٢١ حتى أواسط القرن التاسع عشر . وأنارت تعاليمها الحامدة الخشنة تيارين متباينين ولكن منهما مميزاته الخاصة : من تفاؤل البرجماني المبني على التفكير الذي يبحث على العمل الإيجابي ، المثالية والتطرفة عند رجل العلم المسيحي الذي ينكر وجود الألم والشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Mark Pattison, Collected Essays. Ed. H. Nettleship, (1889).
- T.H. Dyer, The Life of John Calvin, (1850).
- H.F. Henderson, Calvin in his Letters, (1909).
- A. Bossert, Calvin (Grands Ecrivains Français).
- Ch. Borgeaud, The Rise of Modern Democracy in Old and New England. Tr. Mrs. Birkbeck Hill, (1894).
- Ch. Borgeaud, Histoire de l'Université de Genève. I, L'Académie de Calvin, (1559-1798).
- L. Häusser, The Period of the Reformation. Tr. Mrs. G. Sturge. Ed. W. Oncken. 2 vols., (1873).

الفصل الثاني عشر

ألمانيا تتفق على ألا تتفق

التوازن بين القوى الكاثوليكية والبروتستانتية في ألمانيا - أول صدمة خطيرة للحركة الوثيرية - فيليب حاكم هس Hesse - شارل الخامس يهاجم الوثريين - تراوح مصائر الهاينين في الحرب - استنجاد الوثريين بفرنسا - صلح أوجزبورج (١٥٠٥) - معاهدة كاتونكيريس (١٥٥٩) - فرنسا تخسر إيطاليا ولكنها تحصل على متز وتوبل وفردان - الشخصيات الجديدة على المسرح .

إذا لم يكن في الإمكان رد الوثريين إلى حظيرة الكلذكة بالوسائل السلمية ، أكان من الممكن سحقهم بالقوة ؟ في عام ١٥٤٠ كانت الكتايد الضخمة في جانب الدول الكاثوليكية ؛ ولم تكن العقيدة الوثيرية معروفة بها إلا في عدد من الدول الألمانية الصغرى: منتخبية سكسونيا ، ودوقيية سكسونيا، وهس ، وبيرنزويك ، وبراندنبورج (منه عام ١٥٣٩) وبروسيا وعدد من المدن الحامة في الشمال والجنوب . وهؤلاء البروتستان - وقد سموا بهذا الاسم نتيجة احتجاج protest على الادعاءات الكاثوليكية وضع في عام ١٥٣١ - قد نظموا أنفسهم ، وكان بإمكانهم إزالة جيش إلى الميدان ؛ بل إنهم انتزعوا نصراً عسكرياً على أسرة هابسبورج حين أعادوا إلى ورتبرج دوقها - الوثري المنفي . ولكن إذا ما قارنا الموارد العسكرية والمالية التي كانت لدى عصبة شالكلدن Smalkalden بسيطرة الدول الكاثوليكية - فيما لو اتحدت هذه الدول أو استطاعت تعبئة مواردها ؛ وإذا ما قارناها بإسبانيا وفرنسا وإيطاليا والمنسا والأراضي المنخفضة - به نصف ألمانيا الكاثوليكي ، لوجدنا هذه الموارد العسكرية والمالية مما لا يغول عليه . كان لا محيس لأية قوة يستطيع البروتستان الألمان إزاحتها إلى الميدان من أن تتحطم أمام جيش يمثل - ولو على وجه التقرير - الموارد التي تستطيع دول أوربا الكاثوليكية الاعتماد عليها . هذه الفرض لم تتحقق على الإطلاق : فلا في هذا الوقت ولا في أي وقت آخر كان الدين هو الدافع الأوحد في السياسة الأوربية ؛ إذ وجدت إلى جانبه دوافع وعوامل أخرى . كان شارل مخلصاً في كاثوليكيته ، ولكن حتى شارل ذاته كان أحياناً على خلاف مع البابا . ولو أن

الأمراء الكاثوليك في الديات الألماني خيروا بين أحد أمرتين : توحيد ألمانيا كلها تحت حكم إمبراطوري قوي في ظل المذهب الكاثوليكي أوبقاء ألمانيا منقسمة تحت حكم إمبراطور ضعيف ، لاختاروا الأمر الأخير . ولم يكن ثمة أمير – كاثوليكيًا كان ألم بروتستنتيًّا – على استعداد للموافقة على آلية خطبة تهدف إلى تعبئة موارد الإمبراطورية في سهولة وقوة بقصد تحقيق سياسة قومية ، كاثوليكية كانت هذه السياسة أم لوثرية . كان الأمراء قانعين بضرورة استمرار الإمبراطورية الرومانية المقدسة – فهي جزء من الماضي ، ورياستها بالانتخاب وتؤمن مزاياهم الخاصة ، وتدخل كيانها مع ما لهم من امتيازات خاصة ، حتى أصبحت جميعًا تشكل كيانًا واحدًا – كانوا قانعين بذلك طالما لا يفكر الإمبراطور الروماني المقدس في التدخل في شؤونهم الداخلية . ومن هنا اجتمعت جامع إمبراطورية وأقيمت الولائم ثم انقضت ولم تضع شيئاً اللهم إلا الاعتراف أو عدم الاعتراف – دون جدوى – بالانقسام الدیني، الذي غدا حقيقة مقررة . وحين أصبح من المعروف أن عصبة شوالكلدن – سقطت للمقاومة وأن لها أصدقاء في الخارج ، أحجم خصومها عن الالتجاء فوراً إلى استخدام القوة .

وكذلك كان المصلحون في كل المراحل الأولى من حركتهم الإصلاحية يتمتعون بالميزانية التي تتمتع بها كل هيئة نشطة من قوم متحمسين انطلقوا يشنون حملة على المساوية التي يعترف بها الجميع ، وهم أوفر استعداداً وأمضى سلاحاً من خصومهم في مجالات النزاع الجدلية . كان هجومهم الفكري والأدبي قوياً ، بينما كان الدفاع الفكري والأدبي – حتى نزل اليسوعيون الميدان – ضعيفاً . وكانت القوى العادلة الممكن تنظيمها ضد الحركة الجديدة ، وهي القوى التي كانت تقف في صفين المحافظة العميات ، مجرد من السلاح نتيجة لإصرارها على عدم الاعتراف بالفلاحين والمعمددين على حد سواء . وبفضل نفوذ لوثر في تنظيم الحركة (وقد عاش حتى عام ١٥٤٦) لم يثر المصلحون الألمان ذلك اللون من الفزع الذي يحدو بالخصوص إلى الاعتقاد بأنهم يواجهون أحد تلك الأخطار التي تهدد الطمأنينة الأساسية في الحياة والتي ينبغي العمل على تجنبها بأى ثمن وقبل كل شيء آخر . والحق أن اللوثريات كانت أكثر الأشكال التي اتخذتها حركات الحرر في القارة مخالفة . كانت

طقوسها الكنسية منصبة في القالب الكاثوليكي ، ولم تكن عقيدتها الخاصة بتحول جسد المسيح ودمه تبعد كثيراً عن نظرية الكاثوليكية القائلة بتحول العناصر . ولم يكن دعاتها الأول بمعزل عن الكنسية ؛ بل كانوا في معظم الأحيان رهاناً وقاوسة على درجة خارقة للعادة من التدين ، اعتقادوا أن باستطاعتهم إرجاع الكنيسة إلى أساليبها الحقة الأصلية ، والفارق الآن بين الكاثوليكي والبروتستانتي واضح وعميق . أما في الجيل الأول للحركات الإصلاحية فقد كانت المعلم أكثر مرونة ، وكان إمكان الوصول إلى حلول وسطى أكثر احتمالاً . وقد اجتذبت التعاليم الجديدة رئيس أساقفة كولومبيا ، وجاء وقت لاح فيه احتلال انحصار كل الأسقفيات الكبرى الثلاث على الرين إلى المعسكر اللوثري .

وفي كل الحركات الدينية تأتي فترة من الخطر تطرأ حينها تبدأ الحماسة العاطفية الأولى في الحمود ويدعى رجال السياسة ليأخذوا الأمر بين أيديهم . ولم يكن الأمراء الذين خلفوا الدعاة في توجيه الحركة اللوثيرية على قدر من الخلق يرفعهم فوق المستوى العام لعصرهم وبلادهم ، بل كان واضحاً أن واحداً منهم كان أحاط من ذلك المستوى .

وكان طلاق فيليب حاكم هس في عام ١٥٤٠ أول صدمة خطيرة أصابت الحركة اللوثيرية ، وأول حادث أثار لخصوصها مجالاً قوياً لهاجمتها . إن أولئك الذين تعرضوا للهجوم العنيف بسبب تدنيّ أخلاقهم سرّهم أن يعلموا أن هذا الزعيم اللوثري الكبير لم يكن أفضل من غيره ، وأنه أقدم على طلاق زوجته الشرعية ليتزوج امرأة أخرى أسرت لهه ، وأنه لقي تشجيعاً من بعض الفقهاء اللوثريين مثل بوسر Bucer وملانكتون ، بل من الدكتور مارتن (لوثر) نفسه برأيه الذي أبداه حين قال إن الكتاب المقدس يقرّ تعدد الزوجات . كذلك لم يخفف من ذلك العمل الشائن ما نصح به المتفقهون من وجوب إخفاء الزواج الثاني . ولم يكن فيليب هس مستعداً لا لإخفاء زواجه الثاني ولا لاقراف « كذبة جزئية كبيرة في سبيل خير الكنيسة المسيحية » تمشياً مع نصيحة لوثر . ولكن مجرد إصداء مثل هذه النصيحة قد خفف من حماسة الأمير لإخوانه اللوثريين ، بل دفعه - لوقت ما - إلى

الانضمام إلى معسكر الإمبراطور ، وأعلن بذلك عن انشقاق في صفوف البروتستانت .

وبينما كان الحزبان الألمانيان كل منهما يراقب الآخر بعين الكراهة المتعففة ، وقع شارل صلحًا مع فرنسا (سبتمبر ١٥٤٤) وبذلك أصبح حربًا — فيما لو فشل التوفيق — في أن يجرب سلاح القوة ضد اللوثريين . ويمكن تبرير هذه الخطوة بطائفة كبيرة من الأسانيد المتتجانسة ، وبخاصة الانتصارات الأخيرة التي أحرزتها العقيدة البروتستانتية في البلاطتينات وفي كولونيا ؛ كما تقدم إليه بالنصيحة كاهن اعتراه ، وكان صاحب نفوذ عليه استغل نفوذه لإشعال نار الحرب . ولكن الإمبراطور لم يكن يؤمن في قرارة نفسه بسلام ديني يتم بهذه الوسيلة العنيفة ، ولهذا لم يحزم أمره على أن يجمع جيشاً يضم أخلافاً ويضرب ضربته إلا بعد تردد طويل وبعد محاولات — لها مغزاها — لإخفاء غرضه الحقيقي .^٦

وحين شن الإمبراطور المدحوم على جون فردريلك حاكم سكسونيا وعلى فيليب هس — وهو أبرز قادة القضية اللوثرية — حرص على أن يبرر عمله باعتبارات سياسية محضة . أُعلن أنه إنما يعاقب الأميرين لا بسبب هرطقتهما بل بسبب عصيانهما . ورغم أن البابا كان يقدم رجالاً ومالاً ، فإن شارل كان يعلم أن شن حرب صليبية صريحة على المطرقة لن يلقى ترحيباً من الألمان ؛ فهو نفسه كان يعتمد على تعصيده بعض الخارجيين على الكنيسة — ومن ذلك أنه كان يعتمد بوجه خاص على المهارة العسكرية المعروفة عن موريis حاكم سكسونيا الماكر الطموح الذي كان الإمبراطور قد وعده بمنصب جون فردريلك الانتخابي^(١) .

وتميزت الحرب التي اندلعت بعد ذلك بعجز القواد البروتستانت عن الإلقاء من المزايا العظمى التي توافرت لهم في البداية ، كما تميزت بخيانته الأمير موريis القاسمي ، وبانتصار الإمبراطور في ميلبرج Mühlberg على نهر الألب (٢٤ إبريل ١٥٤٧) ، وهو النصر الذي توج انتصاراته الأخرى . ولكن انتصارات شارل العسكرية لم تعجل بجسم العضلة الدينية ؛ فلم يرتب على هزيمة الجيش اللوثري

(١) انضم موريis دوق سكسونيا إلى جانب الإمبراطور بسبب غيره من ابن عمه فردريلك منتخب سكسونيا ؛ وكان موريis يطبع في أن يؤدي ذلك إلى جعله منتخبًا لسكسونيا بدلاً من فردريلك .

وأسر جون فرديريك وتسليم فيليب هس دون قيد أو شرط ، أى تعديل في الميزان العام للعقيدتين المتصارعتين ؛ بل لم يكن الألماناليوم أشد ميلا إلى مساعدة الإمبراطور ، في علاج ذلك البلاء الذي ظل يقوض الحياة الألمانية العامة ، ونعني به الفوضى السياسية التي كانت تخيم على البلاد . وحين اقترح شارل تكوين عصبة ألمانية يرأسها قواد دائمون ، لها موارد دائمة وجيش نظامي ، لم يلق من يستمع إليه في الجمع الإمبراطوري ؛ وحين وضع خطة ترمي إلى جعل الإمبراطورية وراثية في أسرة هايسبورج ، رفضها المنتخبون في الحال . وكان من الواضح أنه — وهو ألمع شخصيات أوروبا — يرزح في ألمانيا تحت وطأة كل أنواع الصد والتحفير . كان الأمراء يشكون فيه لأنّه كان يبغى السلطان ، وكذلك كان يشك فيه الكاثوليك لرغبته في إصلاح المفاسد ، والبروتستانت لإخلاصه للبابا . وهذا عندما وضع مشروع مدروس للتوفيق عرف باسم (Interim) (١٣ مايو ١٥٤٨) ، هاجمه كل الناس ولم ينفذ أحد .

ثم تلت ذلك فترة أصيب شارل أثناءها بإذلال مباشر كان أنكى على ألمانيا ، وأدى — بسلسلة طويلة متراقبة من الأحداث — إلى هاتين الحرbin الفرنسيين — الألمانيتين الكبيرتين اللتين اجتاحتا أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين^(١) . وكان مورييس حاكم سكسونيا وهنري الثاني ملك فرنسا الجديدين هما الممثلان الرئيسيان في تلك المأساة . كان مورييس قد باع نفسه لشارل في عام ١٥٤٦ جرياً وراء المنصب والسلطان ؛ إذ كان يبغى سلب جون فرديريك منصبه الانتخابي ونقل الأموال التي كانت في يد فرع إرنست إلى فرعه هو (الألبرتي) من أسرة فتن Wettin . ولا كان مغامراً نهاماً ، فقد جرى وراء أشياء أخرى لم يقيض له الحصول عليها ، وإن كان قد خرج منها في الواقع بصيد ثمين . فقد حصل على المنصب الانتخابي ، ولكنه لم يحصل على مجد بورج ؛ وربما قد أثارته شكاوى أخرى ، وإن كانت أقل مساساً بشخصه : كاستمرار حبس صهره فيليب هس واعتداء

(١) يقصد المؤلف حرب السبعين (١٨٧٠ - ٧١) والحرب الظمني الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . وقد نشر الكتاب قبل نشوب الحرب الثالثة في عام ١٩٣٩ التي كان من ورائها كذلك العداء التقليدي بين فرنسا وألمانيا .

الإمبراطور على الحريات المحلية التي كانت تتمتع بها بعض المدن البروتستانتية . وهكذا تحول سريراً من خيبة الأمل إلى الشك فالغضب وبدأ سراً في تكوين تأب ضد الإمبراطور ، وراح يبحث عن حليف قوي ، فول وجهه شطر هنري الثاني ملك فرنسا . وليس ثمة كثير يمكن أن يقال لمصلحة هذا العاهل سوي إدراكه أن مصالح فرنسا الحقيقة ليست في إيطاليا ، بل على الرين . وقد تمثلت مقترنات موريس وزمرته من القواد البروتستانت مع ذلك التقرير الرابع لحاجات فرنسا . فاتفق في معاهدة شامبور Chambord (١٥٢٢) على إعطاء هنري متز وتول وفردان ومدينة كامبرى يحكمها بوصفه نائباً للإمبراطور ، وذلك مقابل تضليله للثوار الألمان . وهكذا منذ عقدت هذه الصفقة الشهيرة وضفت فرنسا قدميها في الألزاس واللوارين .

وبيناً كان الفرنسيون منشغلين بالاستحواذ على مغانهم ، زحف جيش موريس على إنزيبروك Innsbruck واضطرب الإمبراطور إلى المرب فجأة ناجياً بحياته عبر ممر برلنر . ومنذ ذلك الوقت لم يعد لشارل أدنى تأثير على مصائر ألمانيا .

وكانت النتيجة أن السلام الدیني في ألمانيا لم يتم على يد شارل ؛ بل تم على يد أخيه فرديناند وهو من أعقل الحكماء من آل هapsburg . كان شارل يسعى إلى إقرار التفاهم على أساس التوفيق ؛ أما فرديناند فقد سلم بالانقسام كحقيقة واقعة لا مناص من التسليم بها ، وكان المبدأ الأساسي الذي قام عليه صلح أوجزبورج (٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) هو حق كل إمارة في اختيار عقيدتها Cujus regio ejus religio ؛ فلكل أمير الحق في أن يحدد في بلاده شكل الكنيسة ونوعها دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الديانات . وهكذا ثبت أن فكرة إعادة توحيد ألمانيا حتى يمكن توجيه قواها ضد فرنسا ، وهي الفكرة التي كانت لافتةً تداعب خيال شارل ، لا تعلو أن تكون حلماً بعيد المنال . فلم يكن الكاثوليك على استعداد للتسليم للوثريين ، ولم يكن اللوثريون بدورهم على استعداد للتسليم للكاثوليك . على أن فرديناند أخذ بخطبة التوفيق في أعضل المسائل : فقد تقرر حرمان كبار الأساقفة والأساقفة والقساوسة الذين تحولوا إلى البروتستانية من مناصبهم وممتلكاتهم ؛ على أن لا يسمع لأى حاكم ديني بأن يفرض العقيدة الكاثوليكية بالقوة على رعاياه .

والحق أن صلح أوجزبورج لا يمكن أن يدرج في عداد الوثائق الحرة ؛ فهو لم يفسح مكاناً لتلك الأنواع من العقيدة البروتستانتية التي ازدهرت في زبوريخ أو في جنيف ؛ كما أنه لم يعلن مبدأ التسامح الديني . ولكنها يستحق التقدير باعتباره حلاً نافعاً — وإن لم يصلقل — لنزاع خطير — فإذا كان لم يجلب إلى ألمانيا الوفاق الديني ، فقد أبعد عنها شبح الحرب نصف قرن من الزمان .

وبعد أربع سنوات من تلك التسوية الدينية (أبريل ١٥٥٩) عقدت معاهدة أخرى في كاتو-كمبرسيس Cateau-Cambrésis، وهي المعاهدة التي وضعت حدّاً لذلك النضال الطويل الذي نشب بين فرنسا وإسبانيا من أجل السيادة على إيطاليا . وإذا كانت الدول الأبية الحساسة لا تخلي ببساطة عن مطامعها الكبيرة ، فمن السهل أن نتصور أن فرنسا — دون ألم أو شعور بالذلة — تخلي عن أحالمها في السيطرة على إيطاليا ، وهي الأحلام التي ما فتئت فرنسا ستين عاماً تسخو لتحقيقها بالدماء والمال . ولكنها تلقت في المرحلة الأخيرة من النضال تحذيرين خطيرين : فقد هزم الإسبان في نابولي جيشاً فرنسيّاً يقوده دوق جيز أربع قواد فرنسا ، ويستنه بولس الرابع أشد البابوات اختلالاً ، ووقف هذا الجيش متقهراً صوب الألب ، وعلى مقربة من فرنسا ذاتها — على مسيرة أيام قلائل من باريس — دحر جيش فرنسي آخر يضم زهرة نبلاء فرنسا يقوده كونستانبل مونفورنسى Montmorency ، كبير نبلاء فرنسا وأكبر مستشاري الملك ، أمام أسوار سان كتيان على يد جيش إمبراطوري يقوده عمانوئيل فلبرت Emmanuel Philibert (١) أن نزلت بنبلاء فرنسا وفرسانها مثل هذه الضربة القاصمة ، ولم يحدث إطلاقاً أن أسر مثل هذا العدد الكبير من النبلاء الممتازين . وارتفاع صوت أسرى الحرب — بما فيهم مونفورنسى — ملتمسين عقد الصلح .

وهكذا ترك الفرنسيون إيطاليا بعد انسحابهم من بيسمونت وساخوى لقمة سائحة في يد الإسبان . ولكنهم لقوا في الشمال ما عوضهم عن تلك الخسارة ؛ فإن أحداً لم يطالبهم بإعادة أسقفيات اللورين الثلاث — بل إنهم أضافوا إليها كاليه التي

(١) قرية في شمال فرنسا في قسم بادي كاليه Pas de Calais ، جاءت شهرتها من وراء انتصار هنري الخامس ملك إنجلترا على الفرنسيين في ٢٥ أكتوبر ١٤١٥ .

انتزعوها من الإنجليز في عام ١٥٥٨ سواء تحير إنجلترا أو شرها . ومنذ ذلك الوقت اتجهت أطماع فرنسا في القارة صوب الرين .

ثم أعد المسرح لاستقبال مثلين جدد . كان شارل الخامس الهمام قد نقض يديه من أعバائه التي لا تنتهي ، وانزوى في دير إسباني معتل الصحة مضيئ الآمال ؛ وخر موريس الحائز صريعاً في الميدان ؛ وكان هنرى الثامن وإدوارد السادس وماري ملوك إنجلترا قد ماتوا . ولم يبق من شخصيات الماضي الكبيرة سوى شخص واحد أثبت كفایته في الحرب والسلام ، هو فردناند حاكم النساء الذي غدا الآن إمبراطوراً . أما الرجال الجدد فهم فيليب ابن الإمبراطور المتلاعِد ، الأمير المدقق الدعوب المعن في كاثوليكيته ، وعمانوئيل فلبرت حاكم سوقاي ، وهو القائد الشاب الذي انتصر في معركة سان كينتان المؤسس الحقيقي لنورين ولتلثك الدولة الصغيرة في جوف الألب في الركن الشمالي الغربي من إيطاليا ، وهي دولة بيدمونت التي ستوحد الشعوب الإيطالية تحكمها في القرن التاسع عشر . أما إنجلترا فكان على عرشها امرأة شابة تدعى إليزابيث لم تكن معروفة حينئذ ، ولكن كان يبدو أن لها قدرها في موازين أوربا ومصائرها . وفي بلاط فرنسا كانت توجد فتاة تدعى ماري ، وهي ابنة جيمس الخامس ملك إسكتلندة من ماري جيز ، قيضاً لها أن تحمل على رأسها تيجان إسكتلندة وإنجلترا وفرنسا . أما هنرى ملك فرنسا فقد قتل في حفلة مبارزة بعد وقت قصير من توقيع تلثير المعاهدة الهامة ، مخلفاً من بعده أرملة إيطالية أطلق عليها الفرنسيون اسم كاترين دي ميديسي斯 Catherine dei' Médicis وقد قدر لها هي الأخرى أن تلعب دوراً مثيراً على ذلك المسرح الحافل .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. II.
- B. Zeller, Histoire d'Allemagne, Vol. V, (1885).
- O. Engelhaaf, Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation.
- P. Voigt, Moritz von Sachsen.
- W. Stubbs, Lectures on European History, 1519-1648. (1904).
- L. Haüsser, The Period of the Reformation, (1873).
- L. von Ranke, History of the Reformation in Germany. Tr. S. Austin, (1905).

الفصل الثالث عشر

الإصلاح الكاثوليكي

إ IGNATIUS LYOLA Ignatius Lyola - نظام اليسوعين - مجمع ترنت Trent - روح الإصلاح -
تدخل روما - بيوس الرابع - قلاع البروتستانية - بويهيميا والبلاطيات - ضعف الحركة البروتستانية -
الأمور المشيرة للنزاع في صلح أوجزبورج - ضالة شأن الحكومة الألمانية - مكسليان الثاني - عهد
رودلف الثاني الحاصل بالكونغرس - تربية اليسوعين - فتح اليسوعين في النمسا وبولندا .

في يوم ١٥ أغسطس ١٥٣٤ ، وهو العام الذي قطع فيه هنري الثامن علاقته
بروما ودفع فيه توماس مور حياته ثمناً لاستمساكه بالعقيدة القديمة ، ورفع فيه
جاك كارتير Jacques Cartier - من سان مالو St. Malo - الصليب على خليج
سانت لورنس - في ذلك اليوم اجتمع سبعة من الطلاب في كنيسة القديسة مريم
على ربي موئلاته في باريس حيث أقسموا على التزام العفة والفقير ، وعاهدوا
أنفسهم على أن يقضوا حياتهم في أورشليم ، مكرسين جهودهم للأعمال اعتبارها
أقدس الأعمال ، وهي رعاية المسيحيين ، وتنصير المسلمين . كان زعيم هذه العصبة
رجلًا أخرج من جماعة الباسك ، في أواسط العمر اسمه إنجيلو لوبيز دي ريكالدى
Inigo Lopez de Recalde ، وإن يكن التاريخ يعرفه باسم إيجناتيوس ليولا . كما
كانت العصبة تضم شخصين آخرين هما أجزافيه Xavier ولينيز Lainez .

وإسبانيا بلد المتصوفة والرهبان والحجاج والأجناد . كان ليولا جندياً خيالياً .
يمثل بأسلوبه الصارم الخالي الحماسة الدينية الصليبية التي عرفت عن مواطنه ،
تماماً كما تجسّم في لوثر ذلك الورع الإنجيلي الذي عرف عن فلاحي سكسونيا في
القديم . حارب في نافار (١٥٢١) حيث أصابه الجرح الذي خلف فيه عرجاً
لارمه طيلة حياته ؛ وفي أيام نقاشهه البطيئة المؤلمة اتجه بتفكيره إلى نوع جديد من
الخدمة يستوی في بطولته وشاعريته وتضحيته ، ويقدم لن راض نفسه ووهبها للخير
فرضاً للسمو إلى أعلى علية . قرر قراره على أن يصبح جندياً للمسيح ، ولم يكن

أى تعذيب للبدن في سبيل تطهيره من الأدران أمراً شديداً القسوة بحيث يتحرج عنه هذا الرجل المتقد حماسة . هجر أسرته ، وعاش على الخبز والماء ، محاسباً نفسه حسابةً عسيراً بضع مرات في كل يوم ، وأنحد نفسه بنظام قاسٍ من الصلوات وقمع مطالب الجسد ، ليروض نفسه على الاندماج في الذات العليا . ثم بعد رحلة إلى بيت المقدس مر بتجربة لا تمر دائماً بمن شفthem الوجد : فقد غدا يتهم نفسه بالجهل ويتحرق شوقاً إلى المعرفة ، وألى على نفسه أن يتعلم ؛ حتى إذا كانت سنة ١٥٢٨ وجد نفسه في باريس ملكة الجامعات ، وفيها تلقى العلم سبع سنوات ، وفرض إرادته المسيطرة على صحبة من الرفاق ، وتراءت له فكرة مشروع يقوم على الفروسية المقدسة تنهض به صفة من الناس امتحنت نفوسهم .

وكان من حسن حظ الكنيسة الكاثوليكية أن الحرب بين البندقية وتركيا عرقلت المشروع الذي كان ليولا ورفاقه قد تعااهدوا عليه : وهو تكريس حياتهم للتبرير في فلسطين . وفي إيطاليا وجد تحرقهم إلى نصرة الدين ميداناً بـزّ غيره من الناحية العملية . فقد أقسموا على الطاعة ، ورسموا قساوسة ، وسموا أنفسهم جماعة المسيح ؛ وفي ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ حصلوا من البابا بولس الثالث على مرسوم بتكونين « فيالق العسكرية الكنسية Regimini Militantis Ecclesiae » ، وهو المرسوم الذي أرسى القواعد التي قام عليها نظام اليسوعيين .

ووجه الأهمية في النظام الذي ابتدعه ليولا أنه وفر للبابوية صفة مختارة من الناس دربوا بعناية لتنفيذ مشيئتها . وبقدر صرامة مسئوليات اليسوعيين كانت ضخامة الامتيازات التي منحت لهم : فقد ألغوا من الضرائب ، وكانوا لا يعترفون للأمراء بأية رياضة ، كما ألغوا من الخضوع لقضاء رجال الدين إلا من طائفتهم . أما تنظيمهم فكان عسكرياً أوتوقراطياً ؛ إذ كان يرأسهم قائد (جنرال) منتخب مدى الحياة ، يتبع البابا في كل الأمور . ولا يقل عن ذلك أهمية المقومات الأخرى لنظام اليسوعيين من رياضة النفس رياضة روحية ، وتقدير التربية والتعليم ، وهو الأمر الذي تميزت به أخชอบ سني ليولا نفسه . وكان تدريب اليسوعي المبتدئ بالغ الصرامة – فهذه الرياضات الروحية التي وضعها مؤسس النظام كانت تقتصر إلى تطهير الفكر من الأخيلة المشتبة ، وتدريب الإرادة على الحياة المكرسة لهذا الغرض

ولكن هذا النظام لم يقصد إلى تكوين طائفة من الرهبان المنعزلين عن العالم ؛ فإن أهداف ليولا كانت عملية بقدر ما كانت خيالية . كانت مهمة اليسوعي أن يعظ الناس ويصفع إلى اعترافاتهم ويعلّمهم أن « التعلق الكامل مزوجاً بالتدبر المعتدل أفضل من كثير من التدبر مع مجرد التعلق » وأن « الكنيسة لو قالت عن شيء ما إنه أسود — ولو كان يبدو أبيض — فما علينا إلا أن نقر في الحال أنه أسود ». مثل هذه الأقوال تربينا روح الخضوع النام والتسلیم المطلق للذين خلعاً على النظام مقوماته الخاصة . وحيثما احتاج الأمر إلى وضع سياسة ما ، تجد القس اليسوعي مستعداً أبداً بنصائحه . وحيثما احتاج الأمر إلى جهد تربوي — سواء في أوروبا أو في الصين — كانت مدرسة اليسوعيين أو كليتهم — المتمتعة دائمًا بالكفاءة والمقدرة والخاضعة لإدارة جيدة صارمة — أداة هامة ، لأكثر من قرن ، في يد النفوذ الكاثوليكي والدعائية الكاثوليكية .

* * *

وقد اتضح لكل العقلاء من الكاثوليك منذ زمن بعيد أن الكنيسة قد أصبحت كومة عالية من المفاسد . سلم البابا أدريان السادس بالحاجة إلى الإصلاح ، وكان قبل ذلك قد كتب عن كثير من الأمور المشينة التي استشرت في البلاط البابوي ذاته ، كما اعترف بذلك الداء المزمن الذي استشرى في كيان الكنيسة برمته بحيث كان من العبث إخفاؤه . نفس هذه النغمة ترددت بشكل أكثر تجسيماً في وثيقة تستحق الاهتمام (عن الإصلاح الكنسي المتعلقة بنظم الكرادلة Constitutium quarondam cardinalium emendanda ecclesia) قدمت إلى البابا بولس الثالث في عام ١٥٣٨ . هذه المفاسد الصارخة كانت أوضحت في البلاط البابوي ومدينة روما منها في أي مكان آخر .

كان البابا يتمتع بسلطان مطلق . فقد وقف — معتبراً بتقالييد طال عليها الأمد في السلطة المطلقة — يقاوم بعناد أي اقتراح يرمي إلى أن يتم إصلاح الكنيسة على أيدي مجالس قومية أو أن تطلق أيدي الجامع المسكونية للكنيسة في إخضاع الملاحدة أو تعريف صلاحيات الكرسي المقدس أو تحديدها . فقد كان للكنيسة في القرن الخامس عشر تجربة من تلك المحاجع ، وقد اعتبرتها شرّاً ينبغي تجنبه ، ولا يسمح

به إلا إذا تلقت تلك المجامع أوامرها من روما .

ومع ذلك ، فبعد كثير من التسويفات والاعتراضات دعى مجمع ديني إلى الانعقاد في ترنت Trent ، فكان مرحلة حاسمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك رغم أن أعضاءه لم ينتظموا في حضور جلساته ، وأن هذه الجلسات أجلت عدّة مرات استمرت إحداها عشر سنوات . وخرجت الكنيسة في آخر الأمر بنتائجها وقد تحدّدت ، ونظمتها وقد توطّد ، وصلواتها وقد أثّرتها روعة موسيقى بالسترينا . وقد دخلت البابوية المجمع عرضة لكثير من الاتهامات ، وخرجت منه متصرّة في كل قضية . وبدلًا من أن تضطر إلى التنازل مرضًا للوثريين ، أصرت على أن تضع مبادئ العقيدة على رأس موضوعات المناقشة ، واستطاعت — بفضل ما كان لها في أشخاص القساوسة الإيطاليين من أغلبية طيبة — أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بقصد المسائل الأساسية الثلاث : سلطة نصوص الإنجيل ، وببدأ التبرير بالإيمان وحده ، وطبيعة القرابان المقدس — وهي المسائل التي فصلت العالمين اللوثري والكاثوليكي كلاً عن الآخر . وبهذه القرارات ضيّعت البابوية نهائياً على الإمبراطور أمله الذي طالما راوده في أن يهتدى إلى خطة لتسكين ثائرة رعاياه اللوثريين ، ورسمت خطًّا بيناً ، عميقاً وواضحاً ، ففصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية ، ووضع بذلك حدًّا لمحاولات التوفيق ، وببدأ عهداً من الصراع الصريح بين الجانبيين . ولقد قال لورد آكتون Acton المؤرخ الكاثوليكي العظيم إن الكنيسة بهذه القرارات قد « طبعت نفسها بطابع عصر متسم بالتعصب ، واستدامت روح الفساد ». ولم تراجع قط بعد ذلك تلك التشريعات التي خرج بها مجمع لم ينتظم حضور أعضائه وكان يتكون في أساسه من قساوسة إيطاليين يخضعون للبابوية — وهي باقية إلى اليوم باعتبارها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية .

وفي المرحلة الثانية من عقد المجمع ، وهي المرحلة التي بدأت في عام ١٥٦٢ بعد فترة توقف استمرت عشر سنوات ، ركز المجمع جهوده لبحث مشكلة النظام والتعليم في الكنيسة . فأصدر ممارسات تحتم إقامة رجال الدين في مقار أعمالهم ، وممارسات لإنشاء معاهد لتدريب القساوسة ؛ ولكن المجتمع تجنب كل اقتراح من شأنه العمل على ملاقة المهرطقة في منتصف الطريق أو الحد من اختصاصات

البابا . ولقد حفظ لنا المؤرخ البندقى باولو سارپي Paolo Sarpi بروح النقد الذى تميز بها سجلاً للذالك المجلس الذى كان خارقاً للعادة وكان معناً في الإخلاص لتقاليد الأوتوقراطية البابوية ولكن كان بعيداً كل البعد عن تمثيل أوربا ، وجاءت قراراته مخيبة لآمال أولئك الذين كانوا يؤمّنون بحكم الكنيسة بواسطة الجامع الدينية . وكانت شخصية لينيزيز القائد الثانى لطائفة اليسوعيين والرجل الذى استرد النصر لقضية البابوية ، هي الشخصية الرئيسية في المناوشات الأخيرة . وقف هذا اليسوعي الصارم البليغ الذى لا يقهر كالعملاق في ذلك الخضم من التأمر الخفى والإحن القومية الغاضبة والفجر السافر .

* * *

ولا يكاد يقل عن مجتمع ترنـت فى أهميته – وإن فاقه قطعاً فى أثره المباشر – ذلك التحسن الملحوظ فى صفات شاغلى الكرسى البابوى ، الأمر الذى بدا واضحاً حين تولى بولس الثالث فى عام ١٥٣٤ ، وبلغ أوجه بتولية بيوس الخامس فى عام ١٥٦٣ . كان بابوات عصر النهضة العظام غالباً شخصيات فخمة عالمية تتقدّم حيوية : فهم طيبو النسبت ، على ثقافة عالية ، ويعذقون من كرمهم على رعاية الفنون والآداب ، ويأخذون بنصيّب كامل نشط من عواطف عصرهم ومنافساته السياسية ومن شهواته الوضيعة أيضاً . كان لهم « أبناء إخوة » و « بنات إخوة » جاءوا من اتصالاتهم غير الشرعية ، وكان من أعزّ أمانיהם أن يوفروا لهم مناصب تتفق ومكانتهم ، وكثيراً ما أذكوا نار الحروب و تعرضوا لفضائح صارخة . وقام بلاطهم على الاتجار بالمناصب الكنيسية وجمع رجل الدين لعدة مناصب وعدم إقامته في مقر عمله . وفي إبان النضال الطويل بين فرنسا وإسبانيا للسيطرة على إيطاليا ، لم يستطعوا أن يتفادوا القيام بدور فعال . كان بولس الثالث ، وهو من أسرة فارنيز Farnese العظيمة ، التي يمكن اعتبارها آخر الأسرات المالكة في عصر النهضة ، نصيراً لفرنسا ، وإن عرف بالتردد . أما بوليس الثالث فقد كان ذا نزعة للتوسيع والسيطرة ، وكان بولس الرابع (من أسرة كارافالa Caraffa من نابولي) يكره إسبانيا كرهاً جنونياً دفعه إلى طلب معونة الأتراك ضدّها . ولكن في تلك الأثناء لاح تغيير في الأفق – فالحركة الإصلاحية التي اجتاحت فرنسا وألمانيا وإنجلترا

كانت قد أخذت تطرق أبواب روما ذاتها ، وانتشر الشعور بوجوب عمل شيء ما ، وبأن الهيئة البابوية لن تظل سادرة في طرائقها القديمة ، بينما العالم كله ينادي بعمل فيه طلباً للتغيير والإصلاح . واستجابة بولس الثالث البابا الألماني الدنوي لهذه الروح الجديدة ، فدعا مجمعاً وأقام نظام يسوعيين . أما البابا بولس الرابع المتقد حماسة وإيماناً فكان أكثر شعوراً بهذه الروح . حقاً إنه كان رجلاً أضنته المشاعر السياسية التي عرفت عن نبلاء نابولي ، وهو الذي دبر تلك الحرب المنكودة لكي يمكن فرنسا من السيطرة على نابولي بلده الأصلي : كما أنه لم يكن فوق مستوى رذيلة المحسوبية . ورغم هذا كله فإنه كرس جهده لتفاصيل الإصلاح العملي ، فكان بذلك أول بابا يسير في هذا الطريق . ولكن أعظم تغير حدث على أثر تولى بيوس الرابع في عام ١٥٥٩ ، فقد تميز عهد هذا الشاب الميلاني الحديري بالاحترام باختفاء تلك الخصائص التي خلعت على البابوية منذ زمن بعيد طابعاً دنيوياً . لم يكن يتتمى إلى أسرة من النبلاء ، ولم يكن سياسياً أو داعية حروب ولا متجرأ بالمناصب . بل لقد حكم بالموت على «أبناء إخوة» سلفه غير الشرعيين ، على حين كان ابن أخيه كارلو بوروميو Carlo Borromeo من أكثر شخصيات عصره تدييناً . أما عن مجمع ترننت فقد كان يرضيه أن يدعى للانعقاد من جديد ، وقال في ذلك : «إننا نرغب في مجمع ، ولا جدال في أننا نود أن ينعقد وأن يكون عالمياً . . . إنه يصلح ما يحتاج إلى إصلاح ، حتى وإن كان ذلك في أشخاصنا أو في شئوننا» .

ولكن ربما كان ميشيل جيسلييري Michele Ghislieri الرجل المتواضع الذي اعتلى العرش البابوي في عام ١٥٦٥ باسم بيوس الخامس أكثر البابوات تمثيلاً للروح الجديدة ، روح التعصّب الصارم الذي ألم بالحياة الدينية في إيطاليا في ذلك العصر . كان شعب روما يستثيره ذلك المنظر الذي لم يألفه : منظر البابا الناسك ، يخترق الشوارع حاف القدمين ، ولا يكتثر براحة الظهيرة ، ويصحو مع الفجر ، ويقلل نفقات بلاطه إلى أدنى حد . لقد بدا لهم شخصية بعثت من بعض قبور العصور الوسطى حين حرم إعطاء أية أحياء للهيجونوت وأبدى إعجابه بالفظائع التي قام بها أهلًا في الأرض المنخفضة ، وأرسل تلك السفن الحربية الإسبانية والبندقية التي

حطمت الأسطول التركي في لپانتو .

ولا شيء يفوق في مفعوله أن يضرب الإنسان المثل بنفسه . قال باولو تيپولو Paolo Tiepolo في عام ١٥٧٦ : « لقد كان من حظ الكنيسة – إلى أقصى حد – أن تواли عليها عدد من البابوات من لم تلتحق حياتهم شائبة ، ومن هنا حرص الآخرون على أن يسلكوا مسلكاً طيباً ، أو على الأقل تظاهروا بذلك . أخذ الكرادلة وكبار موظفي الكنيسة يحضرن الصلوات في مواعيدها ؛ واهتم أهل بيتهم بتجنب كل ما من شأنه أن يثير الفضائح ، وتخلت المدينة كلها عن نزواتها القديمة ، واتخذت مسحة أكثر مسيحية في الحياة والسلوك مما كانت عليه في أي وقت مضى » . ولكن البابوات لم يصلوا بعد إلى حيز الكمال . فسكنستوس الخامس المتذوق حيوية ، وهو الذي كتبت هذه الكلمات في عهده ، لم يكن قط جاهلاً متعصباً ، لم يسلم من يديه الغليظتين أى أثر قديم ، مهما كان بديعاً ، بل كان يذكر مفتقرًا إلى خلال البرّ التي أوصى بها بولس الرسول ^(١) . فهذا البابا نائب المسيح على الأرض ومحقق مؤلفات القديس أمبروز Ambrose ^(٢) ، أبدى ارتياحاً ملحوظاً حين علم أن بعض رجال العصابات في كمبانيا قد ماتوا على أثر تناولهم طعاماً مسموماً أعد لهم .

وقد أخذت ألمانيا – وهي البلاد التي ظهر فيها الانشقاق أول ما ظهر ومنها طبق آفاق أوروبا – أخذت دور الطليعة في الحملة التي شنت لرد البروتستان إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية ، في ألمانيا بدا أن المفرطة الجديدة قد استقرت إلى أبعد الحدود ، وفيها كانت تشق طريقها على أوضاع ما يكون ؛ وكان تخفيف حدة التوتر أو القيام بإجراءات قمعية أشق ما يكون في ألمانيا نظراً لأنه لم توجد بها حكومة كاثوليكية مركبة قوية . وما جاء عام ١٥٧٠ حتى كان شمال ألمانيا – وهي البلاد التي عرفت أثناء الصراع الطويل في العصور الوسطى بين الإمبراطورية والبابوية بحماستها القضية البابوية – قد أوشك أن يتحول إلى كتلة بروتستانتية

(١) أحد حواري السيد المسيح ، ومن كبار المتفقهين في الدين المسيحي ، وقد قام بجهود تبشيرية كبيرة – وأهميتها بالنسبة إلى الدين المسيحي لا تفوقها إلا أهمية المسيح ذاته .

(٢) ٣٤٠ - ٣٩٧ . أسفت ميلان وأحد كبار آباء الكنيسة .

متراضية . أما في المقاطعات الكنسية الواقعة في أسفل الرين فقد استجمعت المطرقة — بعد انتشارها جنوباً من هولندة وغرباً من سكسونيا وشمالاً من سويسرا — استجمعت قدرًا كبيراً من القوة لدرجة أثارت الخوف من احتمال انتقال أسقفيات الرين الكبرى إلى المعسكر البروتستانتي برغم التحفظ الديني الذي جاء في صلح أوجزبورج : استقرت الكلفالية ^١ الإلاتينات واللوثرية في ورتسبورج وبادن . وكان القسسين اللوثريون يعملون في قلاع نبلاء بافاريا وفي المدن الواقعة على الدانوب . وعلى حين ظل إقليم التирول شديد الاستمساك بالكاثوليكية ، كان كل من ستيريا Styria وكورنثيا Corinthia وماطئ دوقية النمسا قد تحول إلى الطقوس البروتستانتية إلى حد كبير .

كانت القوة الحقيقة للمذهب البروتستانتي في وسط أوروبا — وإن لم يكن ذلك واضحاً في عام ١٥٧٠ — وتتمكن في منطقتين إحداهما في أقصى الشرق في ألمانيا والأخرى في أقصى الغرب منها : الأولى مملكة بوهيميا القديمة ، التي كان يختار ملوكها بالانتخاب ، حيث استطاع أتباع هـس ^٢ « أولام » الإخوان البوهيميون ^٣ ثم الدعاة اللوثريون من سكسونيا أخيراً ، استطاعوا أن يغرسوا في نفوس الفلاحين الشيشيكين وفي نفوس النبلاء الشيشيكين إلى حد كبير تحولاً عنيفاً عن الولاء لروما ، والدولة الأخرى التي تركت فيها القوة البروتستانتية في وسط أوروبا هي إماراة الإلاتينات ، تلك المنطقة التي يرويها نهر النكر والرين حيث تولى على حكمها عدد من الأمراء المنتخبين الكلفاليين الذين حرصوا على أن يظلو على اتصال بأبناء عقيدتهم في سويسرا وفرنسا جنداً مرتزقة للهيجومنوت ، وأقاموا في عاصمتهم هيدلبرج مركزاً للآراء والتعاليم الكلفالية وعملوا كحلقة توثيق الصلة بين قوى الثورة البروتستانتية المناضلة في هذه البلاد .

ورغم ذلك فقد وجد في الحركة البروتستانتية عنصران من الضعف كانوا أعمق من البعد الجغرافي الفاصل بين بوهيميا والإلاتينات . فكلما ازداد فقهاء الديانة اللutherية عمماً في بحث عقائدهم ، وألفوا عنها البحوث ، بدت لهم — وهم فقهاء لا يعرفون شيئاً في السياسة — شدة الحاجة إلى كبح جماح الكلفالية كما بدا لهم خططها وأصبحاً في نقاط حيوية كثيرة .

ووضعت صيغة للأم الخلافات القائمة بين اللوثريين (Formula Concordiae، ١٥٨٠) ،

وجعلت الخط الذى يفصل بين العقدين المتنافدين واضحًا لا يلحظه لبس ، فقد انقى الكلقنيون واللوثريون على أن يحتفظ كل فريق بعقيدته — وهكذا ، بينما كان فى وسعهم أن يتزعوا ضمانت لحماية إخوانهم فى العقيدة ، وذلك عن طريق الضغط السياسى المشترك على الإمبراطور حين طلب منهم أن يساعدوه فى حربه مع الأتراك ، سارت سكسونيا اللوثرية فى طريق وسار منتخب الإلاتينات فى طريق آخر .

على أن نقطة الضعف الثانية كانت أشد خطورة ؛ وهى تمثل فى هبوط الحماسة الروحية ، وهو أمر يطرأ على كل الحركات الثورية حين تنحسر موجة الحماسة الأولى . فلم يترك لوثر من يخلفه فى زعامة الحركة اللوثرية ، وجاءت بين وفاته وميلاد جون سباستيان باخ مائة وأربع وثلاثون سنة خالية من العبرية اللوثرية . وجاء فى أعقاب عصر المبشرين والأخلاقيين عصر من الحذقة الدينية والانحطاط العبودى وفى مجال الأدب عصر من الإسفاف الثورى الوضيع . وأجدبت الحركة اللوثرية ، فلم يخرج من صفوفها أى مفكر أو بحاثة عظيم ، ولم تجرف هذه الديانة أمامها اتجاهات سياسية ، وذلك رغم ما كان لها من أثر عام على أخيلة الناس وقلوبهم . ومع ذلك كان فى اللوثرية مصادر قوة داخلية ، مائة فى ذلك التدين الذى كان يطبع حياة الأسرة عند أوساط الناس ، وفي ارتباطها بموسيقى الكنائس ؛ وقد صمدت هذه القوة الداخلية لكل العوامل ، فلم ينل منها شيء حتى تنظيمها الحكومى وانتشار الفساد الخلائقى فى ألمانيا .

وكان الوضع الدينى فى ألمانيا لا تزال تحكمه معاهدة أوجز بورج التى اقتضت كثيراً من الجهد حتى أمكن الحصول عليها والتى أسىء وضعها ؛ ولكنها رغم ذلك تأتى فى مصاف أنجح ما استطاع الساسة الألمان تحقيقه : إذ أنها منحت أوروبا نوعاً من السلام لفترة تزيد على الخمسين عاماً . ولكن لا اللوثريون ولا الكاثوليك كانوا على استعداد لأن يخلصوا فى تنفيذ هذا الحل الوسط لانضال الذى استنفذ طاقتهم ؛ فإن اللوثريين لم يقبلوا إطلاقاً مبدأ «التحفظ الكنسى» الذى أجبر رجل الدين الذى يتخلى عن عقيدته الأولى على أن يتمثل كذلك عن الدخل والموارد التى كانت فى

يده فعلاً. أما الكاثوليك فكانوا يرون أن الكنيسة الكاثوليكية يحق لها أن تسترد كل الممتلكات الكنسية التي صودرت منذ عام ١٥٥٢ ، واعتراض اللوثريون على ذلك . وتمسك الأباء الكاثوليك بحقهم في طرد البروتستانت من أراضيهم ، وإلا حق لهم احتفاظهم . وكان هذا في نظر البروتستانت ، الذين لم يكونوا أقل تعصباً من الكاثوليك، نفطاً صريحاً لرسوم التسامح الذي اعتبروه جزءاً لا يتتجزأ من التسوية . وفي وقت كانت فيه مبادئ العقيدة مائعة في قلوب الناس ، بحيث إن الأمير أو المدينة أو مجمع القسسين في الكاتدرائية أو أحد أخبار الكنيسة كان يستطيع أن يتحول من الكاثوليكية إلى البروتستانية ، مثيراً في كل حالة تلك المسألة الشائكة : مسألة مصير أوقاف الكنيسة – في مثل هذا العصر من السهل أن نتصور كيف تعددت ظروف النزاع من جراء تنفيذ صلح أوجزبورج ووصلت إلى درجة خطيرة .

ورغم ذلك فإن الداء لم يكن مما يعز علاجه . حفظاً لقد طرد قسسين ببروتستان من أراضي كاثوليكية ، وحرم الوعظ على البروتستانت ، وكان يمكن أن يكون المرء ببروتستانتياً لكي يغلق في وجهه كل سبيل إلى الوظائف العامة أو تحصيل الرزق ؛ وقد حدث ذلك دون أن يثير موجة من السخط العام لدى الرأى العام ، ذلك السخط الذي يثيره تحرير الأتقياء من الناس من أجل عقائدهم . ولكن مما يجب أن يذكر للحكام الكاثوليك في ألمانيا أنهم اتبعوا سبيل الحكم فتجنبوا محاكاة أساليب محكم التفتيش الإسبانية . فلو أن لوثرياً أُعدم حرقاً ، لتعالت صيحات الألمان ولاضطروا أمراءهم إلى الخروج بجيشهم طلباً للإنصاف .

وكان سر هذا الأفول في ألمانيا خلو البلاد من أية حكومة ؟ فلم توجد بها سلطة قوية قادرة على حسم الخلافات الناجمة عن تفسير المعاهدة الدينية أو ردع من يخرق حكمها . كانت الجامع الإمبراطوريية بطبيعة العمل مشوشاً النظام عديمة الأثر وأعضاؤها جاخون . أما الأباء فكانوا أكثر اهتماماً برعاية مصالحهم الأسرية والإقليمية المتعددة منهم باتباع خطة شاملة ومدرورة حل المشكلة الدينية في ألمانيا . حفظاً كان هناك إمبراطور ، وهو هايسبورجي تربطه بمملكة إسبانيا القوية وشائع عائلية وثيقة ؛ وكان ملكاً على بوهيميا ، وملكًا على المجر بالاسم (رغم أن فتح

لأنّه ترك لمجرّد ذلك حكم رقعة صغيرة من تلك البلاد ، وكان كذلك حاكماً على الدوقيات الخمس : النمسا العليا والنمسا السفلى وستيريا وكارنثيا Carinthia وكاريولا Carniola . لم يكن ثمة أمير ألماني يدارنه في مكانه أو في اتساع الأراضي التي يحكمها ؛ ورغم أن سلطاته الدستورية في الإمبراطورية قد تقاضت إلى حد كبير ، فإنه كان لا يزال ثمة لدى الشعب الألماني رصيد كامن من مشاعر الولاء للإمبراطورية ، وهو رصيد كان بإمكانه أن يلجم إلينه ويستثيره لو استطاع أن يلهب خيال الناس ويعالج أموره مع النساء ويتصلّى بشجاعة لمعضلة الجائحة الحermanية . ولكن أباطرة الماپسورج في النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يكونوا في مستوى هذه المهام العظام . كان فردناند الأول (١٥٥٦ - ٦٤) كاثوليكيّاً طيباً حكيمًا . وقد وفق طوال حياته في توفير شروط معقولة لرعاياه البروتستانت رغم أنه سمح لليسوعيين بالعمل في ثيينا . أما خلفه مكسميليان الثاني فقد أشاد به ستبرز Stubbs^(١) باعتباره « أول عاهل أوربي من أي دين رفض أن يلجم إلى الأضطهاد » ، وأنه اعتذر عن تنفيذ دعوة البابا بيوس له لمحاجمة البروتستانت ، كما رفض أيضاً رحاء البروتستانت له أن يطرد اليهود . ولكن رغم ذلك كانت تعوزه الصفات التي يستلزمها الموقف . فهذا الرجل ذو الشخصية المحبوبة الذي استمع في شبابه إلى تعاليم الدعاة المؤرثين ، وفي أواسط عمره زوج ابنته بفيليب الثاني ثم في آخر رسالة له في الديات أعلن حياده في المسألة الدينية ، وحين حضره الموت رفض مناولة الكنيسة – هذا الرجل لم يساهم بجهود إيجابي في تسوية النزاع الديني في ألمانيا . ورغم أنه هو نفسه كان متساهلاً ، فقد أقر أعمال الأضطهاد التي قام بها جيرانه . ورغم أنه كان كاثوليكيّاً من الوجهة الرسمية ، فقد كان لوثريّاً في روحه . وهكذا عاش موزع النفس بين العقائدتين المتناقضتين وسط حالة من التردد الذي لا نفع فيه ، الأمر الذي منعه من اتخاذ قرارات حاسمة تحتاج إلى جهد .

ثم تولى الحكم رودلف الثاني (١٥٧٦ - ١٦٠٢) الذي كان عهده خطيراً

(١) أكبر المؤرخين الإنجليز في القرن التاسع عشر . كان جل اعتماده على الوثائق والمصادر الأصلية ، ولم يكن يعرف بفلسفة معينة للتاريخ .
أصول التاريخ الأوربي

منكروه الطالع كاد يفضى بألمانيا إلى الحرب . ففي عام ١٥٧٦ كان الإمساك بزمام الإمبراطورية يتطلب رجلاً ذات همة عالية أصيلاً نشطاً ، مغرياً بألمانيا ، قادرًا على أن يوطّن دعائم صداقته راسخة مع الرعماء السياسيين للشعب الألماني ، وهى وحدها السبيل إلى أن يسترد الإمبراطور شيئاً من نفوذه وسلطانه . ولكن رودلف كان على تقىض ذلك كله : لم يكن فيه شيء مما عرف عن الألمان من صخب وإسراف في الشراب ودماثة في الحق . تربى في البلاط الإسباني ، بما فيه من مراسيم شكلية ، بل إنه في شبابه قبل أن يتم به الانقضاض ويملك عليه نفسه ، أظهر من المراسم ما عرف عن طالب العلم أو صاحب المركز الرفيع أو الراهب المتبع . وقد أورثه الميل إلى البعد عن الغوغاء مرضياً قتلاً في عقله ؛ وبينما كان الأترالك يتحاولون حدود المجر ، وبينما كانت ألمانيا تسير سراعاً إلى الفوضى والانهيار ، كان هذا الأعزب الشاذ العديم الشعور بالمسؤولية يعيش معزلاً بنفسه بعيداً عن جماهير الشعب الألماني المائحة ، في تلك القلعة العالية التي تطل أبراجها على براغ ، يمضى أيامه بصحبة المنجمين والكميائيين وسواس الخيل ، قانعاً من دنياه بأن يدعوه ينعم بخيوله وكتبه وأدواته الرياضية ومحظياته ، عاهداً بشئون الإمبراطورية المسئمة إلى رجل بعد آخر من الأصفياء العاجزين . فليس بمثل هذا الحاكم كان يمكن تهدئة الضجيج المتعالى من جانب الشعب الألماني .

وفي تلك الأثناء كان الإصلاح الكاثوليكي يمضي ببطء في إحراز انتصاراته بفضل التشجيع الخاص الذي كان يبذله أدوار بافاريا وبفضل المساعدة الملحوظة التي قدمتها له طائفة اليسوعيين .

أدرك إ IGNATIUS LIOU - مثله في ذلك مثل كل الساسة الذين يفوقون غيرهم دراية وبعد نظر - أن كل التغييرات البعيدة المدى في الاتجاه الروحي عند البشر ينبغي أن تقوم على المدرسة . رأى أن إفساد الإكليروس الكاثوليكي وجهلهم هما الداعمة الأساسية للقضية البروتستانتية ، ولهذا صمم على أن يعالج هذا الداء بالتعليم . كما أنه رأى أنه بتأثير الإنسانيين أدخل في تعليم الشباب تقييم جديد للقيم : ثقافة طفت على اللاهوت ، وعقيدة أخلت مكانها للجرحية ، وقد المجتمع الحصون التي كانت تحمى العقيدة الكاثوليكية ، وهي حصون الجدل التي شادها المدرسون العظام في العصور الوسطى .

ولكي يخدم ليولا هدفه المباشر ، وجد أنه من الأجدى أن يدرب الصفووة من الناس بدلاً من توزيع مواهبة على الجماهير . وعجلة التاريخ قلما يحركها القراء ؟ فالعالم – في جملته – يحكمه أصحاب المناصب والثروة والمواهب . وهكذا لم يوجه اليسوعيون جهودهم في التعليم نحو الجماهير ، بل وجهوها إلى الأشخاص الذين يعول عليهم والذين قد تؤهلهم مواهبهم ومراكزهم ليكون لهم نفوذ على رفاقهم . ولما كان نظامهم مجانياً متسماً بروح الحافظة ، فقد لقي إقبالاً واسعاً ، وكانوا من العقل بحيث لم يهملوا العلوم الإنسانية والتعليم باللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وهي اللغات التي كانت قد استقرت في ذلك الوقت باعتبارها من لزميات الثقافة الرفيعة ؟ كما عنوا بصحة تلامذتهم وسلوكهم ، وهو ما كان يميل إليه الناس أيضاً . على أن أهم من ذلك التفوق الفنى في أسلوب تدريب الشباب على أن يتعلموا ويكتبوا ويناقشوا كان ذلك النظام المطرد الصارم من الرياضيات الروحية ؟ فكان تلميذ اليسوعيين يظل حتى يذهب إلى قبره حاملاً معه طابع التأثير اليسوعي .

وفي الخمسينات من القرن السادس عشر أخذ « الكهنة الإسبان » – كما كان اليسوعيون يسمون – يتربون إلى ألمانيا وينشئون فيها المدارس والكلليات بقصد رد الناس إلى العقيدة الكاثوليكية . فنحن نجدهم في ثينا حيث أطلقوا عليهم في شؤون الجامعة فسيطروا عليها في عام ١٥٥١ ، وفي كولونيا وإنجلشتاد Ingolstadt في عام ١٥٥٦ ، وفي ميونيخ في عام ١٥٥٩ . وعلى طول الرين والأسين : في بون وماينز وشپيير Speier وفي ورزبورج Würzburg أيضاً ، أنشئوا مراكز للتعليم والدعائية . وعجزت المدارس اللutherية في منتصف القرن السادس عشر – بكفاءتها وضيق أفقها أيضاً – عن مناقشة المدارس اليسوعية .

كانت ثينا تملك مفتاح الموقف ؛ ولم يفت على ليولا أن يدرك أن قلب الإمبراطورية لا محالة واقع في أيدي العدو إذا لم ترد المقاطعات النسوية حالاً إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية . لهذا أرسل إلى ثينا واحداً من أعظم الشخصيات الكاثوليكية في ذلك العصر ، وهو العلامة الهولندي الغيور بترس Canisius كانيزيوس الذي استطاع بحماسته وبلاعنته – وكان لا يزال شاباً – أن يحتفظ بکولونيا في نطاق الكثلكة ، أصبح كانيزيوس موضع ثقة الإمبراطور ، وله تدين

حركة الإصلاح الكاثوليكي في المنسا بأقوى دفاعاتها : فهو الذي كسب لليسوعيين الهيمنة على التعليم في المنسا ، تلك الهيمنة التي استمرت قائمة عدة قرون لم ينل منها شيء . على أن طائفة اليسوعيين قد حققت أعظم نصر في ألمانيا حين قام فرديناند حاكم ستيريا — وهو من شباب أسرة هابسبورج — وكان قد تشعّب في شبابه بميادئ اليسوعيين ، بطرد البروتستانت من ستيريا أولاً ، ثم — حين أصبح إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة — تزعم قوى الهجوم الكاثوليكي المضاد أثناء حرب الثلاثين عاماً .

ولكن بقى علينا أن نشير إلى أعظم توفيقات اليسوعيين . كانت مملكة بولندا بعد اتحادها مع دوقية لتوانيا في عام ١٣٨٩ أكبر من أي دولة في غرب أوروبا . وكانت هذه البلاد الوحشة الحالية ترحب بكل مهاجر ؛ ولكن لم يحدث فيها على الإطلاق ما يدعو إلى أن توضع المؤهلات الدينية لدى أولئك المهاجرين موضع الامتحان الدقيق . فر إلى بولندا في العصور الوسطى عدد من اليهود هرباً من الاضطهاد الشديد الذي كانوا يلقونه في بلاد غرب أوروبا الكاثوليكية ؛ وفي بولندا أعطوا حق الضيافة ثم أنسلا نسلا تكاثر عده باطراد وأمد بولندا بالقسط الأول من فنونها الحضرية . وكان أكثر من نصف السكان يعتقد باستمرار العقيدة الأرثوذكسية (اليونانية) ، وفي القرن الخامس عشر تسلل إلى بولندا عدد من أتباع جون هس ، ثم تبعهم بعد ذلك مئلون لكل مذهب من المذاهب البروتستانتية ؛ فن لوثريين وكلثنيين إلى « إخوان بوهيميا » واتحاديين — وكلهم نشروا دعایاتهم بسهولة فائقة ؛ إذ أن سلطان الملك الكاثوليكي كانت تحصره في حدود ضيقية امتيازات النبلاء الباهظة . ولكن ثبت أن الحرية الدينية الكاملة التي منحت للبولنديين كانت بالذات نكبة على القضية البروتستانتية . فلم تكن بالبلاد سلطة بإمكانها أن تحدّ أو توجه ذلك السيل المتدفق من الآراء الدينية المتعارضة التي كانت قد انتشرت في الخارج على أثر ذيوع التعاليم اللوثيرية . حفناً لقد أبرمت بعض المواثيق — فإن إخوان بوهيميا قد أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى الكلثنيين في عام ١٥٥٣ ، وهؤلاء أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى اللوثريين في عام ١٥٧٠ . ولكن هذه التشكيلات كانت قد تأخرت طويلاً ، كما أنها لم تكن وثيقة العرى بدرجة كافية ؛ فقبل خمس

سنوات من اتفاق اللوثريين والكلاشيين على تسوية خلافاتهم كان اليسوعيون قد نزلوا إلى الميدان ، وبفضل تشجيع الملك لم هيمروا على التعليم العالي في البلاد .

وتلا ذلك حملة كاثوليكية بطيئة راسخة القدم تسير في اتساق ونظام ، كللت بالنصر في النهاية . وما أوفت نهاية القرن السابع عشر حتى كان اليسوعيون قد جعلوا من بولندا قطراً من أشد أقطار أوربا تمكناً بالكاثوليكية ومركزاً لاتينياً أمامياً بين البروتستانتية التيتونية والحضارة اليونانية – الروسية الشرقية . وإن الرحالة الذي يعبر الحدود البولندية اليوم إلى أراضي جمهوريات الاتحاد السوفييتي ينسى أن السكان على جانبي خط الحدود يرتبطون معاً بروابط الوحدة الجنسية . فقد حجبت حركة الإصلاح الكاثوليكي كل الصلات التي ربما ربطت البولندي بالروسي من قبل . ففي جانب تقوم الكنائس الكاثوليكية بأنوارها الساطعة وخفيف أنواع الركع المتعبدين فيها ؛ وفي الجانب الآخر تقوم الدعوة المصوددة إلى اللاذينية التي ترجو الحكومة الشيوعية الجديدة في الاتحاد السوفييتي أن تحلها محل عبادة الأيقونات البيزنطية التي سيطرت أجيالاً طويلاً على طبقة الفلاحين الجهلة الذين يؤمنون بالخرافات .

كتب يمكن الرجوع إليها

- L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus & F. Kerr, (1894-1933).
- A.W. Ward, The Counter - Reformation, (1889).
- L. von Ranke, History of the Reformation in Germany. Tr. S. Austin, (1905).
- J.A. Froude, Lecture on the Council of Trent, (1896).
- M. Philippson, La Contre-révolution religieuse du seizième siècle, (1886).
- J.C. Lea, History of the Inquisition in Spain. 4 vols, (1907).
- J.A. Symonds, Renaissance in Italy : The Catholic Reaction, (1886).
- H.D. Sedgwick, Life of Ignatius Loyola, (1923).
- W. Stubbs, Lectures on European History : 1519-1648, (1904).
- W.E. Collins, The Catholic South (in Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XII).
- A. Gindely, Rudolf II und seine Zeit, (1863).
- G. Droysen, Geschichte der Gegenreformation, (1893).
- A. Huber, Geschichte Oesterreichs, (1885).

الفصل الرابع عشر

الحروب الدينية في فرنسا

هذه الحروب الأهلية شر مستطير - الموقف في عام ١٥٥٩ - كاترين مديتشي - آل جيز - الميجونوت - السياسيون Les Politiques - الخل الوسط الذي اتفق عليه أولاً - مذكرة فاسي Vassy Droux الالجوء إلى المرتزقة الأجانب واستصرار الدول الأجنبية - الانتصارات الكاثوليكية في دريه Jarnac وجرناك Moncontour - كوليبي يعيد الميزان إلى صاف الميجونوت في عام ١٥٦٩ - صلح سان جرمان (١٥٧٠) - سياسة كوليبي الطموحة المعادية لإسبانيا - الربع يستولى على الملكة - مذبحة يوم التدليس بارتميليو - هنري نافار يصبح الثانى في وراثة العرش في عام ١٥٦٤ - مخاوف الكاثوليك - مقتل آل جيز - آخر الفالوا - مقاومة « العصبة » - انتصار هنري نافار - مرسوم نانت (١٥٩٨) - سياسة هنري الحربية وموته المفاجيء .

كانت الحروب الدينية في فرنسا ، وهي الحروب التي شغلت النصف الأخير من القرن السادس عشر ، أنكى على البلاد بكثير من الحروب الإيطالية التي سبقتها . وكانت سياسة فرنسا الإيطالية من الحماقة بمكان ؛ فهي - إلى جانب أسباب أخرى - قد ضحت بأعمال الارتياح التي كان ملاحو بريتاني ونورماندي قد بدعوها في العالم الجديد ، مما ترتب عليه - بعد هذا الإسراف الشديد في إراقة الدماء وبذل الأموال - انتهاء هذه الحقبة من الطموح الفرنسي بالفشل . ولكن الحروب الدينية كانت تحطم الوحدة التي حققتها فرنسا بعد جهود طائلة ، وأورثت فرنسا علا لا يمكن إيقافها بخسائر المعارك وحدها . فقد قامت مدينة على أخرى ، وأخذت قرية بتلابيب أخرى ، وقادت الأسر بعضها على بعض ، وأصبحت المصدامات المسلحة والاغتيالات قصة كل يوم . وقد ارتبت بعض حوادث القتل نتيجة لتعصب ديني ، وبعضاها طلباً لتأثير خاص ، وبعضاها الآخر نتيجة موجة من الإرهاب الأهوج كما يحدث في كل وقت تفتكم فيه جرثومة الجاسوسية الرهيبة بجهاز الدولة السياسي ، وانحرفت المثل العليا الأخلاقية لدى أتقىاء الميجونوت في نضال اتسم - إلى حد كبير - بأساليب لصوص أيرلندا المسلمين . أما عقلاء الإنسانيين الفرنسيين فقد نأوا بأنفسهم عن ذلك ، كما فعل مونتاني الذي تشفف مقالاته التي

نشرها أثناء الطغيان الوحشى الذى قامت به العصبة الكاثوليكية عن مبادئ أنيقورية
ستيرية وشك كريم .

* * *

وفيما يلى صورة تقريبية للوضع في فرنسا حين توفى هنرى الثانى في عام ١٥٥٩ .
أحرزت دعاية جنيف (أو دعاية الهيجونوت) تقدماً كبيراً ، كسبت إلى صفها
أصدقاء في الجيش وفي بربان باريس ، كما اجتذبت إليها أنصاراً كبيرين آمنوا بها
بحماسة في كثير من مدن الأقاليم . والاضطهادات الكثيرة التي صبت على تلك
الحركة لم تفلح في وقفها ؛ ورغم أن عقوبة المطرقة كانت الموت حرقاً ، وأن ثمانية
ثمانين من بسطاء البروتستان قد لقوا هذا المصير في عهد هنرى الثانى ، فإن عدد
المتحولين إلى العقيدة الجديدة كان ينمو باطراد . وكانت الأنجليل الفرنسية الصغيرة
وكتب المزامير توزع سراً وتقرأ في الاجتماعات المترتبة الخاصة » والدعاة والمعلمون
الذين تلقوا تدريبيهم في مدرسة جنيف الحصن الحصين للكلتشيني ، كانوا يتجرّلون
من مكان إلى آخر يشرون في الناس روح البطولة والصبر على المكاره . هذا ولم يكن
الهيجونوت الفرنسيون يجهلون المصير الذى يواجهه إخوانهم في العقيدة في بلاد
آخر : فهم كانوا يعلمون أن نسوة بروتستانيات قد دفنن أحيا في الأرضى
المتحفظة ، وأن الملكة ماري في إنجلترا أرسلت قسساً بروتستانيين إلى الحرق ،
 وأن جون هس رفع راية جنيف بين الإسكتلنديين . وكانت جمعيات الخالصين
لعقائدهم ترتبط معاً برابطة الزماله فى الاستشهاد ؛ وهكذا واجهت حكومة فرنسا
الضعيفة المفاسدة طائفية من المطرقين لم ينظموا صفوفهم بعد ، ولكن شوّقهم للمنافحة
عن عقيدتهم كان كبيراً ، وكانوا يتقدّون حماسة ويشدّ عزّهم شعور بالتضامن
مع الطوائف البروتستانية في البلاد الأخرى .

وفي مواجهة هذا التحدى للعقيدة القديمة ، وهو التحدى الذى كان حينئذ
آخذناً في التجمع ، قامت التقاليد الكاثوليكية للملكية الفرنسية ، والقوة المنظمة
للكنيسة الكاثوليكية وغضبات رعاع باريس الممتزجة بالحرافات ؛ كما كان وراءها
دائماً قوة إسبانيا المتتفوقة بحراً ، وذات الكلمة العليا في إيطاليا والأراضي المتحفظة ،
والمرتبطة بالأسرة الحاكمة في النمسا بأوثق الوسائل الأسرية .

ولو قدر للعرش الفرنسي أن يشغله في ذلك الوقت ملك قوي عاقل مستامح فغير راغب في الإفادة من تلك المشاعر القوية في سبيل تحقيق استقلال الكنيسة الفرنسية عن سلطان البابوية ، وهو الاستقلال الذي طلعاً تطلع إليه كثير من أخبار الكنيسة الفرنسية ، ولو كان هذا الملك – كهنة الثامن – على استعداد لأن يكون السيد المتصرف في بيته ، لو قدر لفرنسا مثل هذا الملك في هذا الوقت لربما وفرت البلاد على نفسها عهداً طويلاً من البيوس والشقاء . ولكن في هذه الظروف الحرجية توالي على حكم فرنسا ثلاثة من أضعف الملوك الذين جلسوا على عرش أوروبا على الإطلاق . كان فرسوا الثاني أكبر أبناء هنري الثاني وكاترين مديتشي قد أقعده المرض ، وكان الثاني – شارل التاسع – محطم الأعصاب ، إن لم يكن مجمنواً ؛ ثم كان الثالث – هنري الثالث – منحلاً . أما السلطة الحقيقة فكانت في يد أمهم التي كانت تعاني من شيئاً : كونها امرأة ، وكونها أجنبية^(١) .

كان مركز هذه السيدة الإيطالية المثقفة الساخرة المتحدرة من صلب الطبقة الوسطى فريداً في صعوبته بعد أن دعيت فجأة لتحكم فرنسا في وسط عاصفة من المنافسات الحادة التي قسمت البلاط والبلاد . فاتباع سياسة جريئة مما قد يسئو إلى ملكاً من أبناء البلاد كان أمراً بعيداً عن متناول سيدة أجنبية . وسياسة نشطة متحمسة من شأنها أن تلاقى تعضيداً قليلاً سواء من جانب الكاثوليك أو من جانب الميغونوت كانت غريبة على مزاجها الذي لا يكرث لشيء ولا يتأثر مطلقاً بالتواءز الدينية . ولما وجدت نفسها تكتفي الأنحطاط ، وفي مركز يستلزم أقصى درجات الحرارة ، فترت أن تحفظ لأولادها عباهج الملكية على أن تحفظ هي بجواهر السلطان ، ذلك باتباع وسيلة رأتها أكفل ما تكون لتحقيق هذه الغاية ، وهي إقامة سلام ديني يقوم على التوفيق . ولقد اختلفت الآراء حول شخصيتها : فهي من نظر أحد المؤرخين « تمتاز بوجه خاص بعقريتها في الحب الأموى » ؛ على حين أنها في نظر آخرين أكبر صورة مجسدة للخداع البشر ولؤمهم . وربما كان أصغر أبنائها ، وهو من أقل نقادها عطفاً عليها ، أقرب إلى كبد الحقيقة حين خام على أمه لقب « السيدة الأفعى Madame la Serpente ». ولقد كانت في احتقارها للصدق وفي

(١) انظر ثبت الأنساب (٢) .

إسرافها على نفسها وفي إلحادها على طلب الثأر الشخصى دون أن تتعمل في قلبها ذرة من تبكيت الضمير - فـ كل ذلك كانت كاترين دى مديتشى إيطالية بنت عصرها . ولعل أعظم مزاياها السياسية مثابرتها في هدوء على السعي لتحقيق توازن سلمى بين طائفتين متتصبتين ؟ ورغم أن التسامح كان مما يرتاح إليه عقلها ومزاجها ، فإنها لم تتخذه قط مبدأ ثابتاً لا تحيد عنه . وقد أتى وقت على هذه السيدة السمينة اللطيفة المكبة على العمل ، صاحبة الذوق الفنى الدقيق الأصيل التي كانت تهوى اللوحات والجواهر والكتب الجيدة وما كانت على الإطلاق لتنسى أو تعفو عن إساءة والتي كانت أول حاكم في فرنسا نظم الفساد الحالى كأدلة للسلطان السياسى - أتى عليها وقت نحت جانباً سياسة التسامح التي انتهجتها وعاونت في تدبیر مذبحية يوم القديس بارثيميو .

وكان ثمة في فرنسا جماعات من الطبقة الأرستقراطية العالية ، تحجب بسلطتها وطموحها إلى السيطرة على شخص الملك وبالتالي على الحكومة - الملكة الإيطالية وأولادها التسعاء الذين تتابعوا على العرش . وكانت إحدى هذه الجماعات كاثوليكية بشكل واضح ، والأخرى پروتستانتية بشكل واضح أيضاً ؛ على حين أن الجماعة الثالثة كانت تشغل موقفاً وسطاً : فهي تعارض زعماء الكاثوليك في شئون السياسة ، وتعارض البروتستانت فيما يتعلق بالعقيدة الدينية . وكان الفريق الكاثوليكي هو حزب آل جيز الذى كان يتزعمه فرنسوا دوق جيز الذى أصبح معبد فرنسا بعد دفاعه عن متز واستيلائه على كاليف . وكان يتزعم هذا الحزب من الناحية الدينية أخوه شارل صاحب اللورين وكاردينال ريمز Rheims الذى لم يكن لديه مانع أن يكون أول بطريرك لكنيسة جاليكانية مستقلة ، فلما ثبت له استحالة ذلك نصب من نفسه في مجمع ترنت راعية شديد الحماسة والمهارة لأشد ادعاءات البابوية تطراً . وهكذا كان باستطاعة حزب جيز أن يفاخر بأنه جندي فرنسا الأول ويتنظم في صفوفه أبرز رجال الكنيسة في المملكة ؛ ولكن فهوذهم لم يقف عند هذا الحد . فإن أختاً لفرنسوا جيز كانت زوجة الملك إسكتلندي ، وكانت ابنة عم له تجلس على عرش فرنسا . وهكذا كان حزب جيز يمثل أقوى هيئة تسند المصالح الكاثوليكية في البلاد ، وذلك بفضل ارتباطه الوثيق بملكين متوجين ووضع الأسرة يدها على

خمس عشرة أسقفية وأملاك واسعة متتالية على طول الحدود الشرقية لالمملكة . ولقد تطلعت إسبانيا وروما — المربيتان بهذه الأسرة البارزة — إلى آل جيز ليقوموا بالعبء الأكبر في الدفاع عن الكاثوليكية في فرنسا .

أما زعيمها حزب الهيجونوت فكانوا أميرى البوربون : أنطوان ملك نافار وأخوه لويس دوق كونديه الذى كان حاكماً لپيكاردى ، وكان قد قبل منصب حامى حمى كنيسة فرنسا . حقاً إنه لا يمكن القول بأن أحداً من هذين النبيلين الكبيرين كان راسخ القدم في العقيدة الهيجونوتية ، إلا أن نفوذهما كان عظيماً في غرب فرنسا وجنوبها الغربى وكذلك في نورماندية ، مما ترب عليه اجتنابهما كثيراً من صغار النبلاء وأعيان الريف في هذه المناطق إلى حلبة الصراع .

أما الجماعة الثالثة الذين كانوا يمثلون قوة لها وزنها في وسط فرنسا بوجه خاص والذين كان يتزعمهم السياسي المخضرم آن دوق مونمورنسى فقد كانوا رجالاً مخلصين للعقيدة الكاثوليكية ، ولكنهم لم يكونوا يكتبون كثيراً من الحب للملكة الوالدة ولا لآل جيز ؛ ومن ثم وقفوا موقفاً وسطاً بين الفريقين المتطرفين . كان مونمورنسى معناً في كاثوليكيته ، ولكن أبناء عمومته — الإخوة شاتيون Châtillon — كانوا ينتهيون خطوة أخرى . انضموا إلى الهيجونوت ، وأصبح أحدهم وهو جاسبار دى كولي Gaspard de Coligny ، أميراً لفرنسا — وهو رجل ذو شجاعة لا ترتوى وعقيدة دينية متأصلة — أكبر القواد البروتستانت ؛ وبالتالي أصبح المهدى الرئيسي لانتقام الكاثوليك .

وفى هذه الأوقات التي احتدمت فيها مشاعر الناس كان أقل حادث كفياً بإشعال الحرب . أثار إعدام محام كلفنى فى باريس — لدى الجماعات البروتستانتية السريية — وربما بتشجيع من كونديه ، بل من إليزابيث ملكة إنجلترا — أثار تدبیر مؤامرة لخطف الملك وآل جيز فى أمبواز Amboise . واكتشفت المؤامرة ، وقعت عقوبات قاسية على المتآمرين ، وغامر آل جيز — الذين كانت قومهم تتزايد باستمرار — بالقبض على كونديه والحكم عليه بالإعدام . ولكن حدث تبدل مفاجئ في مصائر الأمور : فى ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات الملك الشاب ؛ وهكذا وجد آل جيز أنفسهم — وهم فى غمرة نجاحهم — وقد انتزع منهم نفوذهما في

البلات ، وأعداؤهم وقد أرسوا أقدامهم في مكانتهم . أصبحت الملكة الوالدة وصية على ابنها القاصر شارل ؛ وانهجمت سياسة تقوم على العفو والتوفيق ، يساعدها في ذلك مستشار الدولة لوبيتال Hôpital L' ، وهو أحد الساسة العظام القلائل الذين أنجتهم ذلك العصر ، أطلق سراح كونديه من سجنه ، وصدر عفو عن الكالفينيين ، وعين ملك ناڤار عضواً بمجلس الملك (Lieutenant-General) وهكذا كان من الممكن أن تضع أنسن صلح مؤقت فيما لو تمت في وقت تكون فيه مشاعر الناس أكثر هدوءاً . وقطعت المباحثات بين كبار الفقهاء في كل الفريقيين المتباudenin — وهو ما كان يحدث عادة مثل هذه المحادلات بشكل أو آخر — وعلى أثر ذلك صدر مرسوم في يناير ١٥٦٢ أقر شرعية ممارسة الهيجونوت لمشاعرهم الدينية علينا طبقاً لشروط معينة غير جائزة . ولكن حدث هذا بعد أن اضطربت النفوس . حطمـت الصور الدينية ، وشوهـت الكنائـس ، وهوجـم الإـكـلـيرـوسـ والمـبـشـرون ؟ ثم ذبحـت قوات آل جـيـزـ عـدـدـاًـ منـ الـهـيـجـوـنـوـتـ وـهـمـ يـتـعـدـونـ فـيـ قـاسـيـ ، فـانـفـجـرـتـ الـحـربـ الأـهـلـيـةـ انـفـجـارـاًـ عـنـيـفـاًـ مـفـاجـئـاًـ بـعـدـ أـنـ أـمـكـنـ تـجـنبـهاـ هـذـاـ الـوقـتـ الطـوـيلـ .

وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير ، بل إنه تميز أيضاً بأنه كلما قامت الحرب أعقبها السلام بعد وقت قصير . وليس سبب ذلك توقع الطرفين تسوية يقبلانها حقاً ، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدي المتحاربين من المال أو مقتل قائد أو حدوث تخاذل أو ضعف مفاجئ في الشعور الذي كان لا يزال كامناً بوحدة فرنسا باعتبارها كثراً لا يجوز تبديله بسهولة ، وهو الشعور الذي كانت تخالطه الأحقاد الدينية أو الشخصية العنيفة لذلك العصر .

هذه الأسباب تفسـرـ كـيفـ أـنـ فـرـنـسـاـ كـانـتـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ خـوضـ حـربـ أـخـرىـ قبلـ أـنـ يـحـسـمـ النـزـاعـ بـيـنـ الـكـاثـولـيكـ وـالـهـيـجـوـنـوـتـ .

ولم يتورع كلا الطرفين عن اللجوء إلى المعونة الأجنبية . ولـى الكـاثـولـيكـ وجـوهـهـمـ شـطـرـ إـسـپـانـياـ ؛ عـلـىـ حـيـنـ وـلـىـ الـهـيـجـوـنـوـتـ وجـوهـهـمـ شـطـرـ إـنـجـلـتراـ ؛ بل لقد ذهبـواـ فـيـ الـحـربـ الـأـوـلـىـ إـلـىـ حدـ وـضـعـ الـهـاـثـرـ فـيـ يـدـ إـنـجـلـيزـ وـوـعـدـهـمـ بـكـالـيـهـ ، وـمـعـ ذـلـكـ فـإـنـهـمـ لـمـ يـعـقـدـوـ قـطـ حلـفاًـ مـعـ دـوـلـةـ پـرـوـتـسـتـانـتـيـةـ ؛ فـإـنـ الصـدـعـ الـقـائـمـ بـيـنـ الـلـوـثـرـيـنـ

الألمان والميوجونوت الفرنسيين كان يعز على الرأب . حقاً لقد شارك لوثريون من الألمان في الحروب الفرنسية ، ولكن أكثرهم كان يقاتل في صفوف الكاثوليك ، لا الميوجونوت .

وفي الحرب الأولى كانت كل المقدمات تشير إلى توقع انتصار الكاثوليك : فهم قد تسللوا على الملك والملكة ، وضمنوا تعزيز باريس ، ومساعدة طائفة من المرتزقة الإسبان والألمان من مهروا في القتال — هذا إلى استيلائهم على روان ثم انتصaram أخيراً على قوات كوليبي وكونديه في درية (في نورماندية) . ولكن هذه الميزات تبددت فجأة حين خر فرسوا جيز صریعاً على يد سفاك أمام أسوار أورليان .

ولكن الميوجونوت لم يفدوا كثيراً من هذه الجريمة ، فقد عزى مقتل فرسوا جيز إلى كوليبي ، وأصبح لدى أسرة القتيل دافع للثأر أقوى بكثير من قوة معتقداتها الدينية .

ثم تلت ذلك سنوات أربع تخللها سلام غير مستقر جابت كاترين وأولادها خلاله ربع الأقاليم . وتيقظت شكوك حزب الميوجونوت حين نمت في بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) مقابلة بين كاترين وأختها إيزابلا ملكة إسبانيا التي كان يصحبها دوق أثنا . وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسي هو السعي لتزويع ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos بن فليب الثاني ملك إسبانيا ؛ ولكن نوشت أيضاً في هذا الاجتماع مسائل أخرى ، وبخاصة تعاون فرنسا وإسبانيا ضد الأرضي المنخفضة . وفي ذلك ما يكفي لإثارة مخاوف كوليبي أنشط محركي حزب الميوجونوت ؛ وحين علم أن أثنا يزحف صوب الأرضي المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش إسباني متاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الأميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الإسبانية . وضعـت خطـة لاحتـاطـاف شـارـل التـاسـع ، وـكان فـشـلـها معـجلـاً بـنشـوبـ القـتـالـ منـ جـديـدـ .

وقد يكون بإمكاننا اعتبار الحررين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات : إذا لم يفصل بينهما سوى صلح لونجميو Lonjumeau القصير الأمد (١٥٦٨) . وهاتين الحررين أهميتها لعوامل ثلاثة : في هذه الفترة بالذات برزت لاروشل لأول مرة باعتبارها حصيناً بحرياً بروتستانتياً عظيماً قادراً على أن يتصدى للحصار ؛ وفي

هذه الفترة أيضاً بُرِزَ هنري نافار ابن الملك أنطوان ، وهو الذي قدر له فيما بعد أن يصبح هنري الرابع ملك فرنسا – باعتباره قائداً بروتستانتيا . ولكن أهم ما يلفت النظر في خصائص هذه الفترة أن النصر النهائي كان من نصيب كوليني ، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية وأسر كونديه ومقتله في جراناك ، وتغطية ساحة مونكنتور الملاطحة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهيجونوت . ولقد قام هذا القائد الحنك بتقهر رائع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشاً جديداً زحف به على باريس حيث وجد البلات خلواً من كل قوة ، فأرهب أعداءه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ، الذي قامت على تنشئته ميرية بروتستانتية ، على استعداد للتفاهم . اعترف صاحب سان جرمان (أغسطس ١٥٧٠) – أكثر من أي وقت مضى – بأهمية حزب الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها في فرنسا . وسمح لكتاب النباء – كما كان الحال من قبل – بأن يقيموا الصلوات – طبقاً لمذهب الهيجونوت – في قلاعهم لكل من يرغب في حضورها ، ونص علىبقاء شعائر العبادة البروتستانتية في كل المدن التي تمارس فيها فعلاً ، وفي مدینتين في كل مقاطعة إدارية في فرنسا ؟ ووضعت ضمانات لمنع المظالم التي تتخذ شكل القانون ، كما وضعت في يد الحزب لمدة ستين – أربعة أماكن لها أهمية حرية عظيمة ، وذلك ضماناً لتنفيذ المعاهدة . وهذه الأماكن هي : لاروشل ومتوبان Montauban وكونياك Cognac ولاشارييه

.Ln Charité

وهكذا انفتح أمل جديد أمام الهيجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية ، في دفاعها عن القضية الكاثوليكية ، وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير ، على استعداد للالتجاء إلى إسبانيا طلباً للمعونة . فجاء كوليني الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسي كامل . كانت خطته أن يضمن حماية بنى ملته في فرنسا عن طريق إشعال حرب قومية ضد إسبانيا في الأراضي المنخفضة . ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تزعمه فرنسا وتسنده كل من إنجلترا وهولندا وتسكانيا والبنديمية وربما الأتراء ، القصد منه إقرار السلام في البلاد وضم الفلاندر وآرتويا إلى أملاك التاج الفرنسي . وكانت المعاهدة الدفاعية التي وقعتها كوليني مع إنجلترا

فـ بـلـوا Blois فـ ١٩ أـبـرـيل ١٥٧٢ الـحـجـرـ الـأـوـلـ فـ الـبـنـاءـ الدـبـلـومـاسـيـ الـجـدـيدـ .
 وـ بـيـنـ التـدـابـيرـ الـتـىـ اـتـخـذـتـ فـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ الـتـىـ اـرـتـفـعـ فـيـهاـ نـفـوذـ الـمـيـجـونـوتـ
 مـشـرـوعـ قـدـرـ لـهـ أـنـ يـؤـثـرـ تـأـيـراـ قـوـيـاـ فـ الـمـوقـفـ الدـاخـلـيـ فـ فـرـنـسـاـ .ـ فـقـدـ تـمـتـ الـمـبـاحـثـاتـ
 فـ أـمـرـ زـوـاجـ أـبـرـمـ بـالـفـعـلـ (١٨ آغـسـطـسـ ١٥٧٢) بـيـنـ مـرـجـريـتـ ئـالـلـوـ ،ـ أـخـتـ
 الـمـلـكـ ،ـ وـهـنـىـ نـاقـارـ .ـ فـقـدـ أـسـتـدـرـجـ هـذـاـ الشـابـ مـنـ بـيـارـنـ Bearnـ ذـوـ الـأـنـفـ
 الصـغـيرـ الـأـحـدـبـ ،ـ هـذـاـ الـابـنـ الـرـئـيـفـ لـفـارـسـ مـنـ الـرـانـسـ وـأـمـ هـيـجـونـوـتـيـ مـتـعـصـبـةـ
 أـسـتـدـرـجـ مـنـ مـقـاطـعـتـهـ الـبـعـيـدـةـ وـزـوـاجـ بـإـحـدـىـ أـمـيـرـاتـ الـأـسـرـةـ الـفـرـنـسـيـةـ الـمـالـكـةـ
 الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ .ـ وـكـانـ هـذـاـ زـوـاجـ الـمـخـاطـطـ الـأـوـلـ مـنـ نـوـعـهـ ؛ـ فـلـىـ الـمـقـتـ الشـدـيدـ مـنـ
 كـلـ كـاثـوـلـيـكـيـ مـخـلـصـ .ـ وـتـسـاعـلـ النـاسـ :ـ فـ أـىـ طـرـيقـ تـسـيرـ فـرـنـسـاـ فـ ظـلـ مـلـكـهـاـ
 ضـعـيفـ الـعـقـلـ وـقـائـدـهـاـ الـمـيـجـونـوتـ ؟ـ أـتـسـيرـ فـ طـرـيقـ يـتـهـىـ بـهـ إـلـىـ مـنـازـلـهـ أـعـظـمـ الـقـوـىـ
 الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ فـ أـورـبـاـ ؟ـ أـمـ فـ طـرـيقـ يـفـضـىـ إـلـىـ وـقـوـعـهـاـ فـ قـبـضـةـ مـلـكـ بـرـوـتـسـتـانـ ؟ـ
 كـانـتـ كـاتـرـيـنـ مـنـ الـأـمـلـيـعـةـ بـحـيـثـ اـسـتـبـانـتـ مـاـ طـرـأـ عـلـىـ الـجـوـ السـيـاسـيـ مـنـ تـغـيـيرـ :ـ
 فـقـدـ كـانـتـ تـعـلـمـ أـنـ الـأـغـلـيـةـ الـعـظـمـيـ مـنـ الـشـعـبـ الـفـرـنـسـيـ لـاـ تـزالـ مـخـلـصـةـ لـلـعـقـيـدةـ
 الـقـدـيمـةـ رـغـمـ أـنـ مـاـ يـقـرـبـ مـنـ ثـلـثـ الـنـبـلـاءـ أـصـبـحـوـاـ مـنـ الـمـيـجـونـوتـ .ـ كـانـتـ تـخـشـىـ
 الـحـربـ ،ـ وـسـطـوـةـ إـسـپـانـيـاـ وـنـفـوذـ كـوـلـيـنـيـ عـلـىـ اـبـنـهـ ؛ـ كـمـ كـانـتـ تـخـشـىـ أـنـ يـوـجـهـ
 آـلـ جـيـزـ ضـرـبـتـهـمـ إـلـاـ مـاـ بـقـيـتـ سـاـكـنـةـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ يـتـنـزـعـونـ لـأـنـفـسـهـمـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ
 فـرـنـسـاـ ؛ـ وـكـانـتـ مـنـ الـحـدـقـ بـحـيـثـ أـدـرـكـتـ أـنـ حـرـبـاـ تـشـهـىـ فـرـنـسـاـ لـلـاستـيـلـاءـ وـلـوـ عـلـىـ
 شـبـرـ مـنـ أـرـاضـىـ الـفـلـانـدـرـ لـنـ تـحـظـىـ بـعـطـفـ الـحـكـومـةـ الـإنـجـلـيزـيةـ لـأـمـدـ طـوـيلـ .ـ
 لـكـلـ هـذـاـ قـرـارـهـاـ عـلـىـ تـدـبـيرـ مـقـتـلـ كـوـلـيـنـيـ .ـ وـلـكـنـ الـهـيـجـوـنـوـتـ عـلـىـ الـأـمـيـرـالـ فـشـلـ ،ـ
 وـلـمـ يـكـنـ الـجـرـحـ الـذـىـ أـصـابـهـ عـلـىـ يـدـ كـاثـوـلـيـكـيـ مـسـلـحـ بـالـغـاـ (٢٢ آغـسـطـسـ
 ١٥٧٢) ؛ـ وـمـنـ ثـمـ أـصـبـحـ مـرـكـزـ الـمـلـكـةـ الـوـالـدـةـ دـقـيـقاـ .ـ وـكـانـتـ بـارـيـسـ مـزـدـحـمـةـ بـالـسـادـةـ
 الـمـيـجـونـوتـ الـذـينـ أـتـوـاـ إـلـىـ الـعـاصـمـةـ لـشـهـودـ حـفـلـاتـ الـزـوـاجـ الـمـلـكـيـ ،ـ وـقـدـ اـسـتـشـاطـواـ
 غـصـبـاـ لـلـاعـتـدـاءـ السـافـلـ عـلـىـ زـعـيمـهـمـ مـوـضـعـ حـبـهـمـ وـتـقـدـيرـهـمـ الـعـمـيقـينـ .ـ وـحـتـىـ
 لـاـ يـتـطـورـ الـأـمـرـ مـنـ سـيـءـ إـلـىـ أـسـوـأـ ،ـ صـمـمـتـ الـمـلـكـةـ عـلـىـ إـعادـةـ الـكـرـةـ ،ـ لـيـسـ صـدـ
 كـوـلـيـنـيـ وـحـدهـ فـ هـذـهـ الـمـرـةـ ،ـ وـلـكـنـ -ـ فـ جـنـحـ الـظـلـامـ -ـ صـدـ كـلـ الرـعـمـاءـ
 بـرـوـتـسـتـانـ .ـ وـانـخـدـعـ الـمـلـكـ الـضـعـيفـ بـقـصـةـ مـؤـامـرـةـ يـدـبـرـهـاـ الـمـيـجـونـوتـ ،ـ وـأـمـكـنـ
 إـقـنـاعـهـ بـالـمـوـافـقـةـ .ـ

كان آل جيز يتعطشون للانتقام ، ومن ورائهم ومن وراءه من يلوذ بهم وفدت پاريس الكاثوليكية يملؤها الغيط الكامن والغضب . وفي فجر يوم ٢٤ أغسطس (يوم القديس بارثلميو) دقت أجراس قصر العدل في پاريس فكانت إشارة البدء بالذبحة .

ولم تقتصر الذبحة الوحشية على پاريس ، حيث قتل حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف من الهيوجنوت ، بل لقد تعدتها إلى الأقاليم أيضاً ، وقد فاقت بكثير أقصى ما كان يقدرها رجال البلاط . ولم يكن أهل پاريس ، الذين تأثرت تجارةهم بالقلالق الدينية ، بحاجة إلى من يغريهم بقتل الهيوجنوت أو التمثيل بجثثهم . فلم يقف بهم الأمر عند حد قتل زعماء الهيوجنوت ، بل مدوا أيديهم بالقتل إلى عامتهم ، واقتدى أهل الأقاليم وكأنهم يقومون بعمل بسيط . وأرسل كوميني إلى البابا الذي بعث « بالوردة الذهبية » إلى الملك . وحين سرت هذه الأخبار السعيدة ، أخبار التخلص من مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين . أمر البابا بنقش مدالية تخليداً لهذا العمل ، ورأى فليب الثاني ملك إسبانيا صلاة شكر . فلم يكن أحد يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكي العظيم : فلقد مات كوليني ، ووقع كونديه وهنري نافار في يد الملك ، وأكدت الآلاف من جثث الهيوجنوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية ،

وكان الرعب يسيطر على المتأمرين الذين ذهبوا مذبحة سان بارثلميو ، ولكن من المحتمل — بالرغم من ذلك — أنهم كانوا يخشون أن يقدم الحزب الكاثوليكي المتعصب ، الذي يسيطر عليه آل جيز ويرتكز على رعاع پاريس ، على خلع هذا الملك الذي ساير الهيوجنوت إلى أقصى حد . وقد كاد هذا الخطر أن يتمحق في عهد هنري الثالث الذي خلف أخيه في عام ١٥٧٤ . وهكذا بدلاً من أن تقضى مذبحة سان بارثلميو على الهيوجنوت ، كانت مقدمة لحرب رابعة . فلقد تحدى الهيوجنوت القوات الملكية ، وهددوا وحدة فرنسا من عاصمتهم الغربية لاروشل يؤيدهم عدد كبير من « السياسيين Les Politiques » وهم — لفترة من الوقت — الأخ الأصغر للملك . ولكن الكاثوليكي — وخاصة جماهير پاريس الديعقراطية — لز يغتفروا لـ الهيوجنوت هذا العناد العنيف المستمر الذي كان يؤثر تأثيراً سيئاً على حركة المعاملات ، والذي كان يتنافى مع الوطنية (إذ كان الهيوجنوت على اتصال بإنجلترا) . وكان المتعصبون يريدون السير بالحرب إلى النهاية ؛ ولكنهم رأوا أن

الملك والملكة الوالدة لا يزالان يتبعان سياسهما المألوفة : عرض سلام أو هدنة على العصابة في كل مناسبة ، وأمهما لا يزالان تسيطر عليهما تلك الفكرة الجديرة بالاحترار – فكرة إمكان إيجاد مكان لتعبد الهيوجونوت أحراً في غير خفاء في دولة كاثوليكية . بدا لهم أن معاهدتهم ١٥٧٦ تكاد أن تكون تسليماً . لهذا تكون اتحاد كاثوليكي – عرف عادة باسم « العصبة » – يرعاه البابا وملك إسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية في فرنسا .

وفي عام ١٥٨٤ توفي الأخ الأصغر للملك ، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنري على قيد الحياة . ولا كان الملك لم ينجُب نسلا ، فلا مناص من أن يكون هنري ناقار الوريث التالي للعرش . وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسين أن « الجمهورية خير من تولي ملك من الهيوجونوت » ، وأصبح هنري الثالث لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز يؤيدهم إذ ذاك مثل هذا الشعور الحماسى الدافق . أحنى الملك رأسه ، ومضى في حماية السفاكين ، تحيط به شبكة من المؤامرات ؛ بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقة على فرنسا الكاثوليكية ، وظهر مدى ضعف الملك في يوم المباريس *Journée des Barricades* (١٢ مايو ١٥٨٨) حين رفضت باريس – في ولائها لهنري دوق جيز – أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة ؛ كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة – في اجتماعه في بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين – سلسلة من القوانين التي كان من شأنها – لو نفذت – أن تؤدي إلى إفلاس الخزينة وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها . ولقد حاول هذا الملك المنكود الطالع – الذي قيل عنه إنه « أسوأ حاكم من أسوأ أسرة حكمت على الإطلاق » – أن يتخلص من هذه المهابات فلجاجاً إلى الاغتيال : فقتل دوق جيز وأخوه كاردinal اللورين في قلعة بلوا قربة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض أتباع الملك الغسقونيين .

وكانت الملكة الوالدة العجوز على فراش الموت حين حمل إليها أحب أبنائها الخبر قائلاً لها كما يروى : « الآن غدوت ملك فرنسا ؛ لقد قتلت ملك باريس » – فكان جوابها : « أرجو الله أن يكون ذلك حقاً ؛ ولكن هل تأكّدت من المدن الأخرى ؟ »

وحينئذ بدأ الفصل الأخير من الدراما الطويلة . وبينما أعلنت العصبة الكاثوليكية خلع هنري عن العرش وحاولت أن تحكم العاصمة والبلاد كان عدد كبير من الفرنسيين يتزايد يوماً بعد آخر – وهم ليسوا من الهيوجونوت ولا من أتباع العصبة – يتوجهون بأفكارهم إلى هنري نافار وارث العرش بحكم القانون . وكان هذا الأمير ، ابن الجنوب الشاب ، قد كشف عن صفات حرية باهرة : فقد أثبت في كوترا Contras أن باستطاعة جيش من الهيوجونوت حسن القيادة أن يهزم قوات التاج من الكاثوليك في معركة نظامية ؛ كما أن أعمال الفروسيّة العديدة التي شاعت عنه ، وحرسه الريفي وروحه المرحة – كل ذلك كان مما قربه إلى رجل الشعب . كان پروتستانتيّاً، ولكنه كان رجلاً ، بينما كان قريبه الملك – الذي كان يلبس عقداً من اللؤلؤ وأقراطاً في أذنيه – كاثوليكيّاً ، ولكنه كان خليعاً . ووجد أبناء العم أن مصلحهما المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة العصبة الكاثوليكية ، تلك العصبة التي خلعت أحدهما وأعلنت أن الآخر لا يستحق العرش . ولكن بينما كانت جيوشهما تقف خارج باريس ، خر الملك صريعاً على يد يعقوبي مفتون اسمه جاك كليمان Jacques Clement (أول أغسطس ١٥٨٩) – وبذلك أنهى حكم أسرة الثالوا الطويل في فرنسا ، وانفتح باب الصراع المباشر بين هنري نافار و « العصبة » .

وحكمت باريس باسم العصبة بلجنة من ستة عشر بإشراف دوق ماين Mayenne الأخ الأصغر هنري جيز . وقد فرضت نظاماً من الإرهاب شبيه بحكم لجنة الأمن العام في عام ١٧٩٤ . ويستند المدافعون عن تلك اللجنة إلى أنها صانت لفرنسا عقيدتها الكاثوليكية وهي أكثر ملامعة للناس من البروتستانية ، وأن الجرائم التي ارتكبها كرّهت الناس في التزعمات الجمهورية مدى قرنين من الزمان . وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنه أن يقلل من فرسان الانقسام ؛ ولما كانت البلاد لا تقبل حكم أميرة إسبانية ولا حكم نبيل فرنسي ينتخبه مجلس طبقات الأمة ، فإن الكتلة الرئيسية الأرستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربون . ولكن التعصب كان لا يزال حاداً بلغ من حدته أن هنري – حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستانية – اضطر إلى الانتظار مدى ثمانية كنيسة سان دينيس (٢٥ يوليه ١٥٩٣) .

شهور خارج أسوار باريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة.

وتحمل العاهل الجديد إلى فرنسا هدية أثمن من كل ما حققه ملوك القالوا من باهر الأعمال : فقد كان بهم برجل الشارع في فرنسا ويتمى أن يراه راتعاً في بمحبحة الرخاء والسعادة . ورغم أن مذكرات وزير البروتستانتي الكفاء سللي Sully موضع شك في كثير من النقاط ، إلا أنها على الأقل تقدم دليلاً جيداً على أن حكومة فرنسا في عهد هنري الرابع كانت تهدي في أعمالها بفكرة الصالح العام . ومن ذلك أنها شرعت تعمل في عزم على قمع الفوضى وتحسين الزراعة وترويج التجارة وإعادة السلام إلى بلد نزلت به ثلاثون عاماً من الحروب الأهلية إلى أدنى درجات البؤس . وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة : كالأعمال العظيمة لتجفيف المستنقعات وتحسين الطرق . وازداد الدخل وانخفضت الديون ؛ وقد وجد سللي البلاد عند توليه الحكم مشكلة عجز كبيرة ، ثم تركها وقد تخلصت من ديونها . ولكن كان على هنري قبل أن يتمكن من تطبيق هذا العلاج تطبيقاً كاملاً أن يواجه مشكلتين ملحتين : الإسبان والميغونوت . وقد استطاع بعض العون من الملكة إليزابيث أن يطرد جيشاً إسبانياً من أميان ، وأجبر إسبانيا (طبقاً لمعاهدة فرقان Vervins — ١٥٩٨) على التخلص عن كاليه وبلافيه Blavet في برتقالي ، وهذا القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت إسبانيا قد وضعت يدها عليهم بصفتها حليفه للعصبة الكاثوليكية . أما الميغونوت فقد كانوا يثرون صعوبة أخطر من ذلك بكثير . كانوا رجالاً من حديد تحدوا التاج الفرنسي أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان بوسفهم في أي وقت أن يتزلوا إلى الميدان جيشاً من خمسة وعشرين ألفاً رجلاً — لهذا لم يكن من الإيسر إخضاعهم ؛ بل كانوا في مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند . ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت مرسوماً ملكياً بالعفو تفضل به الملك ؛ كما أنها لم تكن إعلاناً فلسفياً للتسامح — إنما هي معاهدة لم يمكن الوصول إليها إلا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتاً طويلاً ، ثم قبلت بعد تردد كضرورة فرضتها ظروف كريهة لا يمكن تجنبها . ولقد منحت هذه التسوية الميغونوت حرية العبادة في قلاع النبلاء وفي أماكن معينة نص عليها ، كما منحهم المساواة في الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ وزيادة في ضمان سلامتهم منحوا حق

وضع حاميات في أكثر من مائة مدينة محسنة بما في ذلك بعض القواعد الكبرى في البلاد مثل لاروشل وسومير Saumur ومونپلييه – وكل ذلك على حساب الخزانة الفرنسية . وفي الواقع لقد سمح لدولة هيجونوتية ، صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية ، أن تقوم وتعمل في قلب فرنسا .

ولرسوم نانت مكان ملحوظ في تاريخ الحضارة باعتباره أول اعتراف عام بأن من الممكن أن تقوم أكثر من طائفة دينية واحدة في نفس الدولة ؛ فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني جزءاً من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في إنجلترا أو ألمانيا لوقت طويل . وهكذا انتزع الهيجونوت قوة واقتداراً من خصومهم الكاثوليك امتيازات ما كان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضوع نقاش .

ومنذ ذلك الوقت وضعت الأسس لأژهی فترة في تاريخ فرنسا انتعشـت^١ فيها الملكية وما قدرها واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل ملحوظ ، ودبـت الحماسة في الكنيسة الكاثوليكية وأثرت حياتها بفضل تحدي عقيدة الهيجونوت لها وجودها معها جنباً إلى جنب . ولكن كُتبـت هذه المزايا أن تبـدد أمام التعصب الأعمى والجشع القاتـل . ولقد قال سـكالـيـجـر Scaliger – البـاحـاثـةـ الكـلاـسيـكـيـ الكبير – عن هـنـرـىـ إنه لا يستطـيعـ تركـيزـ تـفـكـيرـهـ عـلـىـ المـسـتـقـبـلـ لـمـدـةـ رـبـعـ سـاعـةـ بـرـغـمـ ذـكـائـهـ ومـعـرـفـتـهـ الـواـعـيـةـ للـطـبـيـعـةـ الـبـشـرـيـةـ . فـلـوـ أـنـهـ كـانـ يـتـمـتـعـ بـعـزـيـزـ مـنـ بـعـدـ النـاظـرـ لـخـاـولـ أـنـ يـحـكـمـ بـعـونـةـ مجلسـ طـبـقـاتـ الـأـمـةـ ، وـلـفـضـ استـدـعـاءـ الـيـسـوعـيـنـ الـذـيـنـ كـانـواـ قدـ طـرـدـواـ مـنـ فـرـنـسـاـ فـعـامـ ١٥٩٤ـ باـعـتـارـهـ مـفـسـدـيـنـ لـلـشـبـابـ وـمـقـلـقـيـنـ لـلـأـمـنـ الـعـامـ وـأـعـدـاءـ لـلـمـلـكـ وـالـدـوـلـةـ ، وـلـأـبـعـدـ عـنـ عـقـلـهـ فـكـرـةـ حـربـ خـارـجـيـةـ أـمـلـاـهـ الطـمعـ . لـقـدـ عـاـشـ هـنـرـىـ الـرـابـعـ ، الـذـيـ كـانـ مـعـرـضاـ بـاستـمـرـارـ لـلـقـتـلـ عـلـىـ يـدـ سـفـاكـ ، مـعـتمـداـ عـلـىـ مـاـ تـمـلـيـهـ عـلـيـهـ قـرـيـحـتـهـ الـحـاضـرـةـ . وـلـقـدـ رـفـضـ هـنـرـىـ وـاثـقـاـ فـيـ رـجـاحـةـ عـقـلـ مـسـتـشـارـيـهـ ، وـرـغـمـ الـوـعـدـ الـقـاطـعـ الـذـيـ أـخـذـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ – رـفـضـ أـنـ يـدـعـوـ مـجـلـسـ طـبـقـاتـ الـأـمـةـ لـلـانـقـادـ أـوـ أـنـ يـشـرـكـ مـعـهـ رـعـيـاـهـ فـيـ المـرـانـ عـلـىـ أـعـبـاءـ الـحـكـوـمـةـ . كـانـ سـمـحـ النـفـسـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـدـيـنـيـةـ ، وـقـدـ وـرـثـ كـاتـرـيـنـ مـدـيـشـيـ فـيـ خـطـةـ التـسـامـحـ ؛ وـلـكـنـهـ اـسـتـدـعـيـ الـيـسـوعـيـنـ الـذـيـنـ قـدـلـرـ لـنـفـوذـهـ فـيـ الـبـلـاطـ وـلـتـأـثـيـرـهـ فـيـ الـتـعـلـيمـ الـفـرـنـسـيـ – وـهـوـ التـأـيـرـ الـمـطـبـوعـ بـرـوحـ

التعصب — أن يؤديا إلى طرد الهيجونوت ونقض مرسوم نانت الذي كان أعظم ما قام به هنري .

أما في السياسة الخارجية فقد تأرجح هنري بعد صلح فرقان (١٥٩٨) بعض الوقت بين فكرة الاحتفاظ بالسلم مع إسبانيا ، سلماً تدعمه مصاہرات ملكية ، وبين المجوم على أسرة هاپسبورج . ولكن أفكاره اتجهت بالفعل إلى الحرب وإلى سياسة كتلك التي تحمس لها كوليني منذ حوالي الخمسين عاماً : وهي القيام بهجوم كبير على أسرة هاپسبورج الكاثوليكية بمساعدة پروستانت ألمانيا والأراضي المنخفضة ، وينتهي باحتلال الأراضي المنخفضة الإسبانية وإيصال حدود إسبانيا إلى الرين . ووجد هنري تعلة لتنفيذ هذا المشروع في النزاع على مصير كليف - جيليش Cleves-Julich الواقعة على الحدود الفرنسية الشرقية ، وتقرير إلى أي الكتلتين تنتمي : الكاثوليكية أو البروتستانتية . واختار هنري لحظة البدء في العمل مدفوعاً بعاطفته نحو دوقة كونديه التي كان زوجها قد دفع بها إلى حماية البلاط المساوى في بروكسل دون استعداد دبلوماسي كاف . وكان على حافة الحرب لتنفيذ مشروعه الضخم المعادى للكاثوليك حين خرّ صریعاً بخنجر رثایاک Ravaillac — وهو كاثوليكي متغصّب . وهكذا لم يكن من شأن استدعاء اليسوعيين إلى فرنسا أن يكسر من غارب « العصبة » الكاثوليكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- L. von Ranke, Civil Wars and Monarchy in France in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. M.A. Garvey. 2 vols. (1852)
- L. Rouvier, Les Origines Politiques des guerres de religion. 2 vols. (1913-14)
- E. Armstrong, The French Wars of Religion. (1892)
- P.F. Willert, Hency of Navarre and the Huguenots of France. (1893)
- A.J. Grant, The Huguenots. (1934)
- J.H. Mariéjol, Catherine de Médicis. (1920)
- E. Faguet, Seizième siècle. Etudes Littéraires. (1894)
- L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916)
- J. Delaborde, Gaspard de Coligny, Admiral de France. (1879-82)
- A.J. Butler, Wars of Religion in France (Cambridge Modern History, Vol. III, chap. I).
- Lord Acton, Lectures on Modern History (Saint Bartholomew). (1906)
- A. Forneron, Les Ducs de Guise et leur époque. 2 vols. (1878)
- A. Tilley, The Literature of the French Renaissance 2 vols. (1904)

الفصل الخامس عشر

قيام الجمهورية الهولندية

استسلام إسبانيا بالديانة الكاثوليكية - فيليب الثاني - إسبانيا وجيشها وأسطولها - مالية إسبانيا واقتصادياتها - أهمية الأراضي المنخفضة لإسبانيا - انحياز إيزابيث إلى البروتستانية - نجاح الملكة في إنجلترا « محض إنجليزي » - المحافظة على الوحدة القومية - الخل الوسط الخاص بالكنيسة - فيليب وإنجلترا - جرنفل Granvelle في الأراضي المنخفضة - وليم أورنج - إجمونت Egmont وألنا - أورنج وألنا - توسيع Ghent The Pacification of Ghent . دون جوان النسوى - انشقاق الشمال عن الجنوب - تأسيس جمهورية الأراضي المنخفضة - سطوة أمستردام - بيت أورنج - أسباب نجاح الهولنديين - العوامل التي شتت جهود بارما - مهارة موريس ناساو Nassau العسكرية - الهولنديون يوقعون هدنة مع إسبانيا (١٦٠٩) .

برزت إسبانيا في النضال الأوروبي الكبير الذي أثاره الإصلاح البروتستانتي أكبر نصيرة للقضية الكاثوليكية . فيما استقر في شمال ألمانيا لون من ألوان البروتستانتية وبينما كان لون آخر منها يخوض في فرنسا معركة حياة أو موت ، كانت إسبانيا ممتنعة وراء حدودها الجبلية الصلبة كاثوليكية من قمة رأسها إلى إلخص قدميها . في إسبانيا ارتبط الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ونشرها بنمو الأمة ويجدها على نحو لا تجده في أي مكان آخر في أوروبا . كان الرهبان والراهبات والقساوسة يشكلون جانباً كبيراً من السكان ، واعتبرتمحاكم التفتيش - وكانت تحت رقابة التاج - إجراء وقائياً ضرورياً . وكان المشهد المثير لتنفيذ أحكام التحرير علناً في بلد الوليد (١٨ أكتوبر ١٥٥٩) الضربة الأولى في حملة القمع التي وجهت ضد العقائد الجديدة التي جاءت من ألمانيا إلى إسبانيا ، وهي حملة لم تثر سوى احتجاجات متقطعة عقيمة . وقد بلغ من نشاط محاكم التفتيش الإسبانية - بتشجيع من فيليب الثاني - أن المهرطقة - وكانت لا تزال إذ ذاك في إسبانيا نبتاً جديداً لم يألفه الناس - قد اجتاحت من جذورها قبل نوها . ومنذ ذلك الوقت غدت الكنيسة الكاثوليكية بآمن من الأخطار ، وتمتعت بهيمنة على التعليم ثبتت لكل تحد حتى كانت ثورة ١٩٣١ حين جاء التحدى لها من جانب حركة نبت من إسبانيا ذاتها وأيدتها

— فيها يبدو — أغلبية الشعب الإسباني .

وكان فليب الثاني حاكماً كاثوليكياً متدينًا شديد التمسك بواجباته ؛ وكان يرى أن أسمى رسالته في الحياة أن يستأصل الهرطقة من جذورها في البلاد التي يحكمها ، وأن يأخذ بناصر عقيدة آبائه في شئ ربع العالم . ولما كان رجلاً ضيق الأفق جاداً في عمله متواوفراً عليه ، عاجزاً عن تمييز جلائل المسائل من حقيقتها — وبالتأني عاجزاً عن أن يعهد بعمله لغيره — فإنه أتقل في نفسه بواجبات تافهة ، بحيث خففت عليه الجوانب الكبرى من ساستة الدولة . ولقد ترسبت في ذاكرته بعض الذكريات المعتمة : كقتل أكبر أبنائه — وكان مختل العقل ، واغتيال سفير للأراضي المنخفضة سرّاً . ولا يعي التاريخ أمثلة كثيرة أفعج من حياة هذا الحاكم المستبد المنقبض المثقل الضمير وقد راح — منكباً على مكتبه وباذلاً جهداً يفوق طاقة البشر — يعمل الإنقاذ لمبراطورية إسبانيا الكاثوليكية من الأفكار الجديدة التي بللت الحواطر ، ومن القوى العارمة التي كان ينخر بها العالم .

وكانت قوة إسبانيا كامنة في جيشه القائم ؛ ولم تكن بأوروبا قوة مشاة أكثر مرتاناً أو نظاماً أو حركة في الحرب من مشاة الإسبان المشهورين الذين قدر لهم أن تكون إيطاليا ميدان تدريفهم . ولقد هرع نبلاء الإسبان إلى الانظام في صفوف البخيش معتقدين أنهم لن يندموا على الانخراط في السلك العسكري تحت سماء إيطاليا المشرقة . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كان ملك إسبانيا يتمتع بخدمة أشهر الضباط في أوروبا . وكان نفر منهم — مثل ألفا — من النبلاء الإسبان ، بينما كان آخرون من الإيطاليين ، ومن بينهم أعظم قواد ذلك العصر أليستندرو فارنيز Alessandro Farnese دوق بارما . هكذا كان من دواعي فخر السياسة الإسبانية أنها استطاعت أن تجذب إلى خدمة التابع الإسباني بعضاً من أعلى الكفاءات من أشد عائلات إيطاليا اعزازاً بأصولها النبيلة .

على أن قوة إسبانيا البحرية كانت أقل خطراً . فهي من ناحية دولة بحر متوسط ؟ ثم هي دولة محيط أطلنطي من ناحية أخرى . وكان يواجهها في البحر المتوسط عبء تطهيره من القرصنة الأثراء ، ومساعدة البنديقية وفرسان مالطة في وقف تقدم الرمح البحرى المطرد لأسطول السلطان . وكانت هذه التبعات ثقيلة

ومرهقة . فهذا العدو الجسور السريع الحركة كان — من قواعده في الجزائر وتونس — يشن الغارات على جزائر البليار وشاطئ بلنسية . وكانت الدولة العثمانية الطموحة ، التي وطدت مركزها في القسطنطينية ، تعتمد على بحارة من اليونان ومصدر تهديد مستمر لسلامة إيطاليا . حينئذ نشأ على مياه البحر المتوسط المادمة — على مر القرون — شكل من أشكال الحرب لم يكن يتناسب على الإطلاق مع مناخ المحيط الأطلنطي . فالسفن الواطئة التي تدفعها المجاذيف (Galleys) ، وهي السفن القديمة من أيام الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية ، كانت لا تزال تستعمل ؛ وطريقة التجذيف صوب العدو والاشتباك معه ، ثم حسم الماشة للمعركة بالتللام بالآيدي على صفحات البحر ، كانت لا تزال متبرعة أيام فيليب الثاني لم تغير عما كانت عليه في أيام إجزرسيس^(١) وپومپي^(٢) . وأعظم معركة بحرية دارت في البحر المتوسط في القرن السادس عشر — وهي معركة لپانتو Lepanto (١٥٧١) التي أوقع فيها دون جوان النسوي ، أخو الملك فيليب ، هزيمة ساحقة بالجيش التركي ، كانت معركة بين هذا النوع من السفن وبين السفن ذات المجاذيف . ولكن لم يترب على هذا أن يحصل الرجال الذين منروا على القتال في هذه السفن على أية خبرة تكون عوناً لهم في تسيير السفن الشراعية عابرة المحيطات أو الغلايين (Galleons) التي أصبحت جزءاً لا غنى عنه في القوة البحرية الإسبانية . بل على العكس من ذلك ، غدا استخدام النوع القديم من السفن ، أى السفن الواطئة ذات المجاذيف ، في وقت أصبحت لا تتماشى مع روح العصر ، غدا أمراً شديداً الضرر . وأصبح بإمكان أسطول مزود ببحارة في المحيط أو في بحر المانش أن يشق في قدرته على دحر عدو لا يزال أسير خطط حربية تقوم على حشو البنادق من الأمام ، وهي الطريقة التي كانت متبرعة في حرب السفن الواطئة ذات المجاذيف .

وما عرقل جهود إسبانيا في ذلك الوقت أنها — بسبب اضطرارها إلى الحرب في جبهتين — كانت مضططرة إلى أن تستخدم في نفس الوقت طرازيين من سفن

(١) أجزرسيس الأول ملك الفرس الذي قام بحملة ضخمة في أوائل القرن الخامس الميلادي لغزو بلاد الإغريق ، منيت بالفشل .

(٢) جنائيوس پومپي Gnaeus Pompeius (١٠٦ - ٤٨ ق . م) . المحارب الروماني الكبير . هزم في الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر ، وفر إلى مصر حيث قتل .

القتال : أحدهما قديم غاية القدم ، والآخر حديث جدًّا ، وأن كثيراً من بخارتها قد تدرّبوا على الطريقة القديمة . ولكن كان من الممكن التغلب على هذه العرقيات لو قيس للمشرفين على شؤون إسبانيا أن يلهموا التقدير الوعي لقيمة القوة البحرية في القتال . ومن العجيب أن إسبانيا — برغم المصالح الضخمة التي تكونت لها في العالم الجديد — لم تبذل جهداً مستمراً لكسب السيطرة في المحيط الأطلنطي . ومن المؤكد أن تحرر الجمهورية الهولندية من السيطرة الإسبانية يرجع إلى حد كبير إلى ترك الثوار يسيطرون على البحر دون منازع .

ولكن ضعف إسبانيا كان في اضطراب ماليتها . لم توجد في القرن السادس عشر حكومة أوروبية ذات اقتصاد قوي ؛ ولكن إسبانيا ضربت مثلاً فريداً للبلد يمتلك مساحة واسعة من الكورة الأرضية في كلا العالمين القديم والحديث ، وفي متناول يديه أغنى الموارد المعروفة حينئذ ، ومع ذلك فهو في حاجة مستمرة إلى المال ، وهو غالباً عاجز — لفقره المدقع — عن القيام بأبسط أعباء الحكومة . وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها إلى سياسة عامة لا وعي فيها ولا ذكاء ، وبعضها إلى جهل بالقوانين الاقتصادية وإلى نظام ضرائي فاسد ؛ ولا يقل عن ذلك أثراً فقدان أى وقف جدي لأعمال المضاربة والتبذير . ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من إسبانيا ذاتها : فالإكليروس — برغم ثراثهم العريض — كانوا يعانون من الضرائب ؛ وفي قشتالة كان النبلاء غالباً عرضة لإجراءات ابتزاز من وقت لآخر ، ولائهم — بسبب ما جرت عليه العادة لوقت طويل — كانوا يعانون من المساهمة في موارد الناج المتقطمة ؛ وفي أراغونية أفر الكورتيز مبلغًا ثابتًا من المال ولكنه غير كاف بالمرة . ولا كان الانتهاب شائعاً في المستعمرات الإسبانية ، فلم يكن يصل إلى الخزانة الملكية سوى جانب صغير من الثروة التي كانت تجمع من المكسيك وبيرو . ولكن إذا كان في الوسع علاج خراب الذم بفرض رقابة أشد صرامة ، فإن أخطر من ذلك أن النظام المالي العام في الإمبراطورية الإسبانية كان يقوم على نظرية خاطئة فيما يتعلق بالتجارة — إذ أن رخاءها كان يتطلب أن يوفر لها أقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولي للبضائع . أما إسبانيا فقد اتبعت فعلا خطوة الحماية في أضيق صورها وأشدتها إسراها . ولم يكن في إسبانيا إذ ذاك أى علم

أو صناعة ؛ وعلى حين أنها كانت عاجزة عن أن ترسل إلى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج إليه ، فإنها حرمت عليها التجارة مع الدول الأخرى . وكان من المتوقع أن تنهي هذه السياسة إلى إحدى نتيjetين لا ثالث لها : إما عرقلة القدم المادي في المستعمرات ؛ أو تشجيع التهريب على نطاق واسع . وقد أدت هذه السياسة في الواقع إلى كلتا النتيjetين — هنا في الوقت الذي عرقلت فيه ضرائب داخلية لا حصر لها تجارة إسبانيا وزراعتها ، كما أثقلت كاهلها كذلك ضريبة الكابالا (alcabala)^(١) وهي ضريبة كانت تفرض بنسبة ١٠٪ على المبيعات ، حتى إنه من العسير أن نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيراً من هذا لتشل الرخاء الاقتصادي عند شعب من الشعوب .

ولذا كان من الممكن استخراج القليل من المال من إسبانيا ، فلم يكن يتوقع منه شيء في إيطاليا — وترتب على هذا أن تكون الأراضي المنخفضة هي مصدر الدخل المادي الأكبر قابلية للتوسيع . وقد غدت أنتورب إذ ذاك من أغنى المدن التجارية في العالم ؛ ولم تكن تتعرض نشاطها القيود التي كانت تفرضها طوائف الحرف (guilds) ، وغدت مركزاً عظيماً للمعاملات الدولية ، وبزرت بهمولة بروج وغنت في الثروة وحرية المواصلات ، كما غدا لها — بفضل نمو تجارة الحبيطات — ميزة على الفلاندر باعتبارها مركزاً للأعمال المصرفية . وكانت Amsterdam — وهي إحدى مدن manusa — تسير بخطى واسعة نحو التقدم ، وقد نما رخاؤها — الذي كان مستمدّاً في الأصل من صيد الأسماك — بفضل الثروة النامية للدول الأوروبية القريبة من ساحل الأطلنطي . وهكذا أترعّت الأراضي المنخفضة بالثراء ، فكانت القلب المالي للإمبراطورية الإسبانية .

وكانت إنجلترا — التي حكمها فليب بعض الوقت بصفته زوجاً للملكة ماري — مرتبطة بالأراضي المنخفضة التي كانت بالنسبة لإسبانيا أرض الذهب — بروابط المبادرات التجارية منذ أمد بعيد . وكان فليب — كأبيه من قبل — يدرك تماماً قيمة إنجلترا كحليف وصديق . كان يقدر قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة إلى رعاياه الفلمنك والنتائج السيئة التي تترتب على وقف هذه التجارة ؛ كما كان يعلم

(١) من الكلمة العربية « القبة » .

أن إنجلترا تستطيع — لو ناصبته العداء — أن تعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا والأراضي المنخفضة ، وأنها تستطيع — لو وهبته صداقتها — أن تحمى هذه المواصلات أحسن حماية . ولكنـه كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان يقدم الدين على أي اعتبار آخر . واحتفاظه بصداقـة إنجلترا يتوقف — في النهاية — على العقيدة التي يعتنقها أهلـها .

ولكن إليزابيث صممت على أن تكون پروتستانتية . وكان قرارـها هذا جريئاً : فشمال إنجلترا كان لا يزال كاثوليكياً ، وكذلك سكان مرفـعـات إسكتلنـدة والأيرلنـديـون ؛ على حين أن جيشاً فرنسيـاً تقودـه الوصـية ماري جـبـرـ كان يعـسـكـرـ في المنخفضـات الإسـكـتلـنـديـة للـدـفاع عن القـضـية الكـاثـوليـكـية . ولكنـ إليـزـابـيث اـتـخـذـتـ هذا القرـارـ بالـتـعـاـونـ معـ مـسـتـشـارـهاـ العـظـيمـ وـلـيمـ سـسـيلـ Cecilـ لـورـدـ بـرـجـليـ Burghleyـ ، وـلمـ تـرـاجـعـ قـطـ . وـرـبـماـ تـكـوـنـ قدـ تـأـثـرـتـ فـيـ ذـلـكـ بـآـثـارـ تـرـبـيـتـهاـ الـأـوـلـىـ وـتـنـشـئـتـهاـ وـفـقاـمـ للـعـقـيـدـةـ الـپـرـوـتـسـتـانـتـيةـ ، وـبـأـلوـانـ الـمـهـانـةـ الـتـيـ عـانـتـهاـ فـيـ عـهـدـ أـخـتـهاـ الـکـاثـوليـكـيـةـ .

وقد أبدـتـ الحـكـومـةـ الإـنـجـلـيـزـيةـ فـيـ السـنـوـاتـ الـقـلـيلـةـ الـأـوـلـىـ منـ حـكـمـ إـلـيـزـابـيثـ منـ الحـنـكـةـ السـيـاسـيـةـ مـاـ لـمـ تـبـلـغـ قـطـ أـيـةـ حـكـومـةـ أـورـبـيـةـ حـتـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ . أـمـكـنـ تـفـادـيـ حـربـ أـورـبـيـةـ ، وـكـانـ ذـلـكـ خـلـيـرـ الـبـلـادـ ، وـأـقـيـمـ كـنـيـسـةـ إـنـجـلـتـرـاـ عـلـىـ أـسـاسـ قـوـيـ مستـقـرـ دونـ حدـوثـ قـلـاقـلـ أـهـلـيـةـ ، وـبـأـدـنـىـ حدـ منـ التـدـخـلـ فـيـ حرـيـةـ الـفـكـرـ . وـأـرـسـلـ جـيـشـ إـلـىـ إـسـكـتلـنـدـةـ حـيـثـ أـبـدـىـ مـنـ الشـجـاعـةـ فـيـ حـيـنـهاـ مـاـ يـعـودـ الـفـضـلـ فـيـهـ إـلـىـ سـسـيلـ ، وـنـجـحـ هـذـاـ جـيـشـ فـيـ تـحـرـيرـ الـبـلـادـ مـنـ عـسـاـكـرـ الـوـصـيـةـ الـفـرـنـسـيـةـ مـارـيـ الـذـينـ كـانـوـ هـنـاكـ لـحـرـاسـةـ الـقـضـيـةـ الـکـاثـوليـكـيـةـ ، وـبـهـذـاـ مـهـدـتـ الـأـرـضـ فـيـ مـنـخـفـضـاتـ إـسـكـتلـنـدـةـ لـتـلـقـيـ دـعـوةـ جـوـنـ نـوـكـسـ وـالـدـيـانـةـ الـپـرـوـتـسـتـانـتـيةـ . وـلـاـ يـوـجـدـ فـيـ تـارـيـخـ إـنـجـلـتـرـاـ الـحـرـبـ — وـلـاـ حـتـىـ وـتـرـلـوـ — مـاـ يـفـوقـ فـيـ نـتـائـجـهـ الـبعـيـدـةـ الـمـدىـ ذـلـكـ الـحـصـارـ الـمـضـطـرـبـ لمـدـيـنـةـ ليـثـ Leithـ الـذـيـ قـامـ بـهـ جـيـشـ إـنـجـلـيـزـ مـخـتـلـ النـظـامـ ، وـتـوـجـ فـيـ النـهاـيـةـ بـمـعـاهـدـةـ إـدـنـبـرـةـ . فـلـأـولـ مـرـةـ مـنـذـ قـرـونـ يـدـخـلـ جـيـشـ إـنـجـلـيـزـ إـسـكـتلـنـدـةـ ، لـاـ لـيـلـحـقـ مـهـانـةـ بـكـبـرـيـاءـ إـسـكـتلـنـدـيـينـ ، بـلـ لـيـخـدـمـ قـضـيـةـ إـسـكـتلـنـدـيـةـ . وـهـكـذـاـ خـطـتـ الـحـكـومـةـ الـإـنـجـلـيـزـيـةـ — بـتـأـمـيـنـهـاـ لـلـإـصـلـاحـ الـپـرـوـتـسـتـانـيـ فـيـ جـنـوبـ إـسـكـتلـنـدـةـ — الـخـطـوةـ الـأـوـلـىـ الـلـازـمـةـ لـاـ تـحـادـ الـبـلـدـيـنـ عـلـىـ بـحـوـ ماـ تـنـبـأـ بـهـ بـعـضـ عـقـلـاءـ الرـجـالـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ .

ومن الخير أن الحكومة استطاعت أن تتجنب خططاً حمقاء كان يحتمل أن تفسد هذا العمل العظيم الذي أملته الحنكة السياسية : كإحياءادعاء إنجلترا القديم في السيادة على إسكتلندة أو زواج الملكة إليزابيث من نبيل إسكتلندي . ولكن الحكومة الإنجليزية بحثت إلى خطط ماهرة ، فضررت الحكومة ضربتها في الوقت الذي كانت تنعم فيه بالهدوء وفرنسا مشغولة بمذكرة أمبواز^(١) . وفي أثناء ذلك كانت ملكة إنجلترا تخادع بتقدم بعض العون للتأثيرين في فرنسا حتى تحول الأنظار عن ضربتها في إسكتلندة .

وكانت الملكة الجديدة تعترى بأنها « محض إنجليزية » . فقد كانت على علم بهواجس رعاياها في الجزيرة ضد الأجانب ، الأمر الذي لمسته بنفسها في عاصفة الاحتجاج التي واجهت زواج أختها بإسباني . ولهذا لم تعترم تكرار الخطأ الذي ارتكبه أختها . ولكن اسْتِهْوَاء الرجال كان طبيعة ثانية فيها ؛ كما رأت في التلهي الجدي ببحث عروض الزواج منها واجباً دبلوماسياً عليها تدين به لبلدها . ومن ذلك أنها — حرصاً منها على أن تحفظ للهيجونوت روحهم المعنية — أبدت لفترة تزيد على عشر سنوات استعداداً لقبول زواج النسون Alençon الذي كان يصغرها بنحو عشرين عاماً ، والذي كان مجرد أصْحُوكَة ، حتى فيما لو كانت خلاله أقل مداعاة للاحتجاز . ورغم ذلك فإنها في قرارة نفسها كانت تائف أن يشاركتها أجنبى عرشها وأثرت أن تموت — كما عاشت — ملكة عذراء و « محض إنجليزية » . وقد قالت لآخر بولاناتها في نهاية حياتها الطويلة : « رغم أنكم قد لقيتم ، وستلقون ، على هذا العرش من هم أقوى من وأحكم ، إلا أنكم لم تجدوا ولن تجدوا من هو أكثر حباً لكم مني » . وكان الإنجليز يعلمون أن ذلك حق ، ولم يستطع شيء أن يحجب عنها ولاء رعاياها لها ولاء شاعرياً : سواء مظاهر الغرور والحماقات التي كانت كفيلة بأن يجعل امرأة أخرى أدنى من إليزابيث موضعًا لسخرية ، أو الأعمال الرضيعة التي تكفي لتلطخ أيام سمعة بالأوحال . كانوا يحسون أنها امرأة عظيمة معتزة بنفسها متقدمة الحماسة ، حكيمية إلى درجة تفوق التصور ، وأنها وهبت حياتها لخدمة بلادها ومجدها .

(١) انظر ما سبق ، ص ١٨٧ .

وكان الجميع في خارج إنجلترا يعترفون بأن بذلك وإنجلترا بلغ هذا المبلغ من الثروة والقوة لا يمكن غزوه على الإطلاق إذا ما بقي متاحاً ؛ ومن هنا استندت آمال آل جيز - ثم آمال فليب الثاني واليسوعيين من بعد ذلك - على احتلال انقسام الإنجليز على أنفسهم . ولكن باستثناء حركة العصيان التي قام بها إيرلات الشمال في عام ١٥٦٩ - وكان قد مضى على جلوس إليزابيث على عرشه أحد عشر عاماً - لم يتهدد الوحدة القومية خطراً جدياً ؛ وأدت دعوة الشمال الكاثوليكي متأخرة جداً . فسكان منخفضات إسكتلندا كانوا قد انضموا بالفعل إلى كنيسة الإصلاح ، كما أن معظم سكان وسط إنجلترا وجنوبها ارتبوا التسوية الأنجليلكانية . وهكذا حين نشب الحرب مع إسبانيا ، لم يوجد حزب إنجليري مستعد لتعزيز الغزارة الأجنبية ، كما كان شأن «العصبة» في فرنسا . كانت لندن بروتستانتية قليلاً وقالياً ؛ وما كان أحد يقبل أن يفكر في أن تقيم بعاصمة الإنجليز حامية إسبانية كتلك التي احتفظت «للعصبة» بباريس .

وفي مقدمة الأسباب التي عملت على تشكيل تفكير الرأي العام في إنجلترا على هذا النحو غير العادي البراعة التي تم بها توطيد الكنيسة الإنجليرية على دعائمها الجديدة : فلم يحرق أحد من خصومها ، وعمول الأساقفة الكاثوليك الذين جردوا من أملاكهم باحترام ؛ ورغم أن البريلان قد أقر قانوناً بالوحدة الدينية Act of Uniformity ، فإنه لم ينفذ بشكل يجعل اعتناق معتقدات دينية مخالفة أمراً خطيراً - بل لقد أطلقت في سماء إنجلترا - عن تدبير ملائمة - غمامات هدب من معتقدات الملكة الدينية ، حتى بدا للناس في نهاية الأمر أن من المحتمل أن تعود إلى حظيرة البابوية - فعلى حين اعرضت الملكة على التضحية في القدس ، لم تخف كراهيتها لزواج رجال الدين ، وكانت الشموع تضيء أحياناً على مد بحها فتعطى الكاثوليك بصيصاً خداعاً من نور الأمل .

أما أولئك الذين أزعجهم الخوف من اقتداء الملكة بوالدها فتعلن نفسها «رأس الكنيسة» ، فقد تعزوا بلقب جديد غامض قد يعني أقل من ذلك ، ولو أنه قد يعني أيضاً نفس الشيء . وبعد - فأى شيء في هذه التسوية الدينية مما يدفع العقلاء إلى الثورة ؟ إن طقوس الكنيسة (The Liturgy) المستمدّة من كتاب صلوات

كرانمر الموضوع في عام ١٥٥٢ بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه ، وضعت بصراحة على نماذج كاثوليكية ، وإن تكن حكومة الكنيسة أسقفية ونصول عقيدتها كلثمية إلى حد كبير . وظنوا لم تحظ هذه التسوية الدينية بالرضى التام من جانب أي فريق من الرأي العام : فالفقهاء الإنجليز الذين تلقوا علومهم الدينية في سويسرا وجدوها جدّ محافظة ، على حين اعتبرها الكاثوليك جدّ ثورية . أما أولئك الذين كانوا يعتقدون وشاح الكهنوت أو موائد القربان المقدس ، أو يبحثون في الكتاب المقدس عن بينة للأساقفة فلا يجدون إلا قليلا ، فقد بدلت لهم كنيسة إليزابيث بعيدة كل البعد عن الكمال . أما الشعب في مجموعه ، فمن لا تعنيهم في كثير أو قليل المسائل اللاهوتية ، فلم يجدوا في هذه التسوية القائمة على التوفيق شيئاً يذكرهونه ، وبقي الكاثوليكي العادى لا يحرك ساكناً حتى عام ١٥٧٠ حين حرر البابا الملكة وأعلن عزلاها ، فاضطر حديثاً أن يسائل نفسه : ملن يدين حقاً بالولاء في خاتمة المطاف ؟

وحين اعتلت إليزابيث العرش لم تكن إنجلترا في نظر ملك إسبانيا متسلحة بثوب العداء ؛ بل كانت بلدًا ينبغي عليه أن يسعى لكسبه ومصالحته .

ورغم أن فيليب كان كاثوليكيّاً متديناً ، عقد العزم على اجتثاث جذور الهرطقة من أملاكه ، فإنه لم يكن قط صليبيّاً للدرجة التي تحدوه إلى التضحية بالمصالح السياسية الحقيقة لبلاده على مذبح الدعاية الدينية . كانت إنجلترا دولة « مهرطقة » — وهذه طامة كبرى ووصمة بشعة . ولكن هرطقة إنجلترا لم تكن مطلقاً مما يحذو بفليب إلى مهاجمتها ؛ بل إنه — على العكس من ذلك — اغتبط كثيراً برؤية جيش إنجليزي يحطم كبراء آل جيز في إسكتلندا رغم كونهم من الكاثوليك . وكان من الحائز أن يتوقع منه — بصفته كاثوليكيّاً — أن يرحب بتقوع احتلال حدوث اتحاد بين إنجلترا وإسكتلندا وفرنسا تحت حكم ماري ملكة الإسكتلنديين ؛ ولكنه — بصفته ملكاً لإسبانيا — كان لا يسعه إلا أن يعتبر هذا الاحتمال كارثة ينبغي تجنبها بأى ثمن . وفي هذا التقدير الأخير ثبت أن السياسي فيه أقوى من الكاهن — وهكذا وقف فيليب من الأزمة الكبرى التي وطدت الإصلاح البروتستانتي في إسكتلندا ومهدت الطريق للاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندا ،

موقف الصديق الذى لا يحمل ضعناً لأنخت زوجته ، إليزابيث المطرقبة . وهكذا عاونت إسبانيا المذهب البروتستانتى فى إنجلترا بصداقتها فى عام ١٥٦٠ بقدر ما عاونته بعدائها فى عام ١٥٨٨ .

ثم جدّ حينذاك عامل آخر جعل فليب يحرص على علاقته الودية مع إنجلترا : فقد ووجه بمعناب خطيرة فى الأراضى المنخفضة . كان الملك حين توجه إلى إسبانيا قد أذاب عنه فى حكم المقاطعات السبع عشرة مارجريت دوقة پارما ، وهى ابنة شارل الخامس وثمرة زواج غير شرعى من عشيقه فلمنكية . وكانت مارجريت ذكية عطوفة قوية الشخصية ؛ كما أنها من أهل البلاد ، وباستطاعتها أن تتكلّم لغاتها . ولو أنها تركت لتحكم المقاطعات السبع عشرة بمساعدة نبلائها الحلين دون تدخل من إسبانيا ، لما كان ثمة كبير شك فى أن يكون حكمها ناجحاً محظياً . ولكن نائبة الملك لم تكن مطلقة الحرية : فقد أرغمتها التعليمات السرية التى بعث بها الملك على أن تنفذ المراسيم ضد المهرطقين ، وفرض عليها العاهل الغائب عن البلاد هيئة استشارية من ثلاثة مستشارين ترجع إليهم بانتظام فى كل مسائل السياسة والإدارة كبيرة كانت أم صغيرة . وكان الكريدينال جرنفل ، ابن ذلك السياسي العظيم الذى كان أكبر مستشاري شارل الخامس طيلة ثلاثين عاماً ، الرئيس المعترف به لهذه الهيئة وصاحب القسط الأول من التفوذ فيها ، وذلك لما عرف عنه من الانكباب على العمل والمقدرة الفائقة ودماثة الخلق .

ووجه الخطورة الحقيقة فى حكومة جرنفل (وكانت حينئذ تعدّ كذلك) ليس أنها كانت تفتقر إلى المقدرة أو الحنكة السياسية ؛ بل إنها كان يتطلب منها – على غير ما تراه أصلح للموقف – أن تنفذ سياسة كريهة تملّها إسبانيا . كان أهالى الأرضى المنخفضة معتزين بالحقوق التى حصلوا عليها والامتيازات التى اكتسبوها مقاطعاً لهم . وكانوا يعتقدون وجود القوات الإسبانية وفظائع الاضطهاد الدينى الإسبانى ، ويخشون العواقب التى تترتب على تنفيذ المشروع الجديد : مشروع إنشاء أربع عشرة أبروشية ، وهو المشروع الذى كان ينذر بإدخال محاكم التفتيش الإسبانية واتخاذ إجراءات أعنف ضد العقائد الإصلاحية . وتساءل النبلاء الوطنيون الأثرياء المعترضون بأنفسهم من خدموا الدولة فى عهد شارل الخامس : إلى متى

يختملون هذه المظالم ؟ ومتى يسمح لهم بنصيبيهم الحق من نفوذ الحكم ومعانمه التي أقصاهم عنها الكاردينال المقيت وبطانته ؟

وكان الرجلان اللذان عملا سوياً على إزالة الكاردينال من علياء سمائه يتباينان بشكل غريب في المزاج والطبع . كان إجمونت جندياً كريماً مزهواً بنفسه ، مهتر الشخصية بعض الشيء ، ارتفعت به انتصاراته في سان كنستان وجرافلين Gravelines إلى الذروة في أعين الشعب ، ثم أخذته الحسرة لشعوره بأنه لم يجز الجزاء الأول . أما وليم ناساو أمير أورنج فقد كان أصلب عوداً وإن يكن أقل احتفالا بالظاهر ، وكانت شخصيته تقوم على الاعتزاز بالنفس والعزم والشفقة . كان هذا الأستقراطي الكبير يأنف من وطأة القوات الإسبانية على الأرضي الفلمنكية ، وأفعم بالأسى على ضحايا قسوة الطغيان الإسباني . حقاً إن وليم كان يتمتع بقليل من الصفات العسكرية ، عدا أنه لم يكن مستعداً للاعتراف بالهزيمة ؛ ولكنه كان يتحلى بعزم فائق على متابعة هدفه ، وكان لديه معين لا ينضب من المهارة الدبلوماسية — وقد وجد نفسه منساقاً فيجري الأحداث إلى تزعم حركة شعبية هدفها التحرر من الحكم الإسباني . وهو يتهم بأنه كان مخلصاً لإسبانيا في البداية ثم انقلب ثائراً ، وبأنه كان كاثوليكياً في البداية ثم انقلب لوثرياً فكثنياً . كان انهزاماً في الواقع ، يعيش على خيط رفيع من المبادئ ؛ ولما كان يهيم بالحرية ويمت التعصب — وهي العقائد التي عرضته ، كما عرضت صديقه إجمونت ، لميته عنيفة — فإنه يعد أحد كبار الأبطال في تاريخ الحرية في أوروبا .

وعندما لاحت تباشير العاصفة صمم فيليب على أن يضرب ضربته . ولكن لم يترتب على انسحاب جرنفل تحت ضغط إجمونت وأصدقائه (١٥٦٤) إلا إصرار الملك وتصميمه على القضاء على هراطقة الشمال . وبإضافة إلى الرعب الذي أشاعته محكم التفتيش والتطبيق القاسي للمراسيم الصادرة ضد المهرطقة ، صدر إلى سكان الأرضي المنخفضة في ١٨ أغسطس ١٥٦٤ أمر بضرورة التزام قرارات مجتمع ترنت . وبنفوذ الأمير أورنج صدر في مجلس نائبة الملك احتجاج رسمي على هذه المظالم وغيرها ، وحمل إجمونت الاحتجاج بنفسه إلى الملك في يناير ١٥٦٥ . واحتدمت المشاعر بسرعة حين ظهر أن بعثة إجمونت لا طائل منها وأن في

عزم الحكومة انتهاج الصرامة في تطبيق المراسيم والقرارات التي صدرت لمقاومة المرضقة . وتعاهد بعض شباب البلاء وتكافوا لمقاومة محاكم التفتيش ، ومنهم كلتشينيون معروفون بالصلابة — مثل مارنكس Marnix ، ومنهم كاثوليك متاثرون بال تعاليم الإنسانية — مثل بدرود Brederode . تلك هي الجماعة التي وضعـت الوثيقة المعروفة في التاريخ باسم « الأخـل الوسط » ، وهـى الوثـيقـة المـتشـدـدة التي ما كانـوا يـقـبـلـونـ فيها جـداـلاـ . وقد أخذـهمـ الكـبـرـ فـاتـخـذـوـاـ الـاسمـ الذـيـ أـطـلقـهـ عـلـيـهـمـ خـصـومـهـمـ المـزـدـرـونـ بهـمـ وـهـمـ اـسـمـ «ـ الشـحـاذـينـ Gueux » — تـامـاـمـاـ كـمـاـ فـعـلـ بـعـضـ الـجـنـدـ الـبـرـيـطـانـيـنـ فـيـماـ بـعـدـ حـينـ لمـ يـأـنـفـواـ مـنـ أـنـ يـعـرـفـواـ بـاسـمـ «ـ الـحـتـقـرـيـنـ The Contemptibles » . أما فـيلـبـ فـكـانـ يـدـبـرـ فـيـ هـدوـءـ رـدـاـ قـاتـلـاـ عـلـىـ كـلـ هـذـاـ الـاحـتـجـاجـ وـالـمـيـجـانـ (ـ وـقـدـ حـاـوـلـ أـورـنجـ وـإـجـمـونـتـ أـنـ يـسـلـكـ الـاعـتـدـالـ)ـ وـعـلـىـ الثـورـةـ الـوحـشـيـةـ الـتـىـ قـامـ بـهـاـ الـكـلـتشـيـنـيـوـنـ عـلـىـ الـعـقـائـدـ الـمـقـرـرـةـ .

ويؤخذ على هذا الملك الإسباني أنه لم يكن مفتتح الذهن ، ولا أعمى ولا إنسانياً ، كان الرجال الثلاثة (أورنج وإجمونت وكوت هورن Hoorn) هم الذين عاونوا في إقرار الأمن في البلاد أثناء الأضطرابات الأخيرة ، ولكن هل لم « الشحاذون » فوشـتـ بهـمـ نـائـبـةـ المـلـكـ سـرـاـ ؟ـ وـمـنـ ثـمـ استـقـرـ الأـمـرـ عـلـىـ تـحـطـيمـهـ .ـ وـبـدـلاـ مـنـ أـنـ يـفـكـرـ المـلـكـ فـيـ عـلـاجـ آـخـرـ ،ـ كـأـنـ يـدـهـ بـنـفـسـهـ إـلـىـ الـأـرـاضـىـ الـمـنـخـفـضـةـ مـلـدـةـ أـسـبـوعـيـنـ مـثـلـاـ لـبـحـثـ المشـكـلـةـ فـيـ مـكـانـهـ ،ـ أـرـسـلـ إـلـيـهـ أـلـثـاـ ،ـ أـحـسـنـ قـوـادـهـ وـأشـدـهـ عـنـفـاـ ،ـ عـلـىـ رـأـسـ جـيـشـ قـوىـ منـ الـمـرـتـقـةـ الإـيـطـالـيـنـ وـالـإـسـپـانـ لـيـسـحـقـ الـهـرـاطـقـةـ ،ـ وـيـعـملـ بـتـوجـيهـ خـاصـ — لـلـإـيقـاعـ بـالـرـجـالـ الثـلـاثـةـ وـقـتـلـهـمـ ،ـ وـهـمـ الـذـينـ كـانـ يـسـتـطـعـ حـاكـمـ أـكـثـرـ تـعـقـلـاـ أـنـ يـجـدـ فـيـهـمـ الدـعـائـمـ الرـئـيـسـيـةـ لـحـكـمـهـ .

وانسحب أورنج الحريص إلى حيث يجد السالمـةـ فيـ وـطـنـهـ فـيـ أـلـمـانـياـ قـبـلـ أنـ تـدـرـكـهـ الـعـاصـفـةـ ؛ـ وـلـكـنـ فـيـ لـحـظـةـ جـانـبـ فـيـهاـ التـوفـيقـ الإـسـپـانـ أـمـسـكـ بـإـجـمـونـتـ وـهـورـنـ غـدـراـ ،ـ وـبـعـدـ مـحـاـكـةـ هـزـلـيةـ قـطـعـتـ رـأـسـهـماـ فـيـ الـمـيدـانـ الـعـامـ فـيـ بـرـوكـسلـ .ـ وـكـانـ مـصـرـعـ هـذـيـنـ الرـجـلـيـنـ الشـجـاعـيـنـ الـوـاسـعـيـ النـفـوذـ (ـ يـونـيـةـ ١٥٦٨ـ)ـ جـرـيـمةـ مـنـ تـلـكـ الـجـرـأـمـ السـيـاسـيـةـ الـتـىـ لـاـ تـبـرـأـ مـنـهـاـ الـحـكـومـاتـ .

وـفـيـ خـلالـ ستـ سـنـوـاتـ مـلـيـئـةـ بـالـفـزـعـ مـضـىـ أـلـثـاـ يـطـبـقـ عـلـىـ أـهـالـيـ الـأـرـاضـىـ

المنخفضة الذين أذهلهم الرعب مبدأه بخداfire . ولكن كانت ثمة عوامل أربعة لم ي العمل لها حساباً ، هي في مجتمعها التي أحالت نجاحه الأول إلى فشل قتال . وأورنج أول هذه العوامل . أعلن هذا الأمير خارجاً على القانون ؛ وما كان يخشى الإسبان ولا يرجو منهم شيئاً ، فقد شرع في تفيد خطة جريئة تقوم على جمع الجيوش لمحاربته . ولكن عملياته الحربية منيت بالفشل ؛ فهو لم يكن قائداً ، وكانت قواته تفتقر إلى النظام والأجر ، ولا تستطيع الوقوف أمام جنود ألفا الحنكين والمعددين للخدمة في هذه البلاد في معركة يلتجم فيها الفريقان . ولكن إذا كان أورنج عاجزاً عن قهر العدو في الميدان ، فقد كان باستطاعته أن يكبده نفقات لا قبل له بها . ولکي يدفع ألفا رواتب جنده ، اضطر إلى اللجوء إلى نظام ضرائي كان من المحم أن يثير موجة من السخط الشديد في المجتمع يعمل أهله في التجارة . فالتجار الكاثوليكيون الذين لم يرفعوا إصبعاً لإنقاذ مهبط من المحرقة أو للاحتجاج على المذابح الشاملة التي كان « مجلس المتاعب Council of Troubles » يقوم بها — قد استطاعوا غضباً حين طلب منهم أن يدفعوا رشماً قدره ١٠٪ على كل مبيع ، ولم يقنعوا بما قيل لهم من أن الضريبة سمة من سمات الميزانية الإسبانية . وهكذا اتحدت البلاد كلها وكأنها رجل واحد — دون تمييز بين طبقة وأخرى أو بين عقيدة وأخرى — ضد حكومة وجهت مثل هذه الضربة القاتلة إلى التجارة التي كانت قلب البلاد النابض .

أما العامل الثالث فهو البحر . كانت السفن في أيدي بروتستان وقراصنة . فإن نبتاً جديداً من أهالي ألمانيا السفلى أو من الثايكنجز الهولنديين كانوا يبحرون بالبحار الضيق ويتبعون الكنوز والمتاجر وينهبون الكنائس ويقتلون القسсы والرهبان — يفعلون كل ذلك ردّاً على الأعمال البربرية التي لم يكن في وسع أي جيش بروتستانتي في القارة أن يأخذ ثأرها بدرجة كافية . فإذا كان « الشحاذون » في البر حتى ذلك الوقت قليلي الحيلة ، فإن « شحاذى البحر » وضعوا روحًا جديدة في النصال . واستطاع القرصنة الهولنديون بتشجيع صريح من جانب الإنجليز ، وهم على مثالهم في المفرطة والعقلية ، ويرضى إيجابي من جانب الملكة إليزابيث استطاعوا أن يستولوا على مدينة برب Brill (أبريل ١٥٧٢) — وبذلك وضعوا — من حيث لا يحتسبون — أسس دولة أوربية جديدة وشهيرة .

ولكن المجهود البحري لم يكن وحده كافياً على الإطلاق لبناء الجمهورية الهولندية ، فلقد شارك «شحادو البحار» في الدافع الأساسي الذي حرك المقاطعات الشمالية إلى أن تنفصل النير الإسباني وتدعوه وليم أورنخ ليقودها إلى النصر . وأدى الاستيلاء على بروناي مباشرة إلى الاستيلاء على فلشنج Flushing في الشمال ومونز Mons وفالنسين Valenciennes في الجنوب ؛ ولكن — أهم من ذلك — بدأ معارك الحصار التي أعطت تاريخ هارلم Haarlem وألكمار Alkmaar وليدن Leyden شهرة خالدة . وإذا كان الهولنديون عاجزين حتى ذلك الوقت عن الصمود لقوات أللها من الجنديين في معركة مكشوفة ، فقد كانوا من وراء أسوار مدنهم يجالدون بشجاعة رجال باعوا أنفسهم عدوًّا أثبتت المرة تلو الأخرى أنه — حين يحمي وطيس المعركة — لم تكن تأخذه رحمة ولا شفقة: لا بصغر أو كبير ولا برجل أو امرأة .

وكانت فظائع الجيش الإسباني الذي لم يق猝 رواتبه بانتظام ، وانحلال نظامه ، مما رفع أورنخ في خريف عام ١٥٧١ وربيع العام التالي وصيفه من مستوى العادي إلى أوج مجده . كان ألغا قد استدعي ، ثم مات خلفه روكوسنس Requesens فجأة ، وجاء خلو البلاد من حاكم إسباني فقدم فرصة للفلمنكيين لا يتنتظر من دبلوماسي في ذكاء أمير أورنخ أن يحملها . وكانت البروتستانتية الهولندية في موقف لا تحسد عليه ، وكان الأمير قد خسر جيشاً وقد أخوين له في ساحة موكرهيد Mookerheede المروعة (١٥٧٤) ؛ كما طردت قواته من جزائر دويفلاند Duiveland وشويين Shouwen ، وفرغت خزانته ، وتصدت الملكة إليزابيث وكان قد عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية ؛ وكان يعلم جيداً أن دولته الكالشنية الصغيرة التي لم تكدر تكون بعد لن تكون لها حيلة إزاء سطوة الإمبراطورية الإسبانية ما لم تستند إلى تعضيد داخلي قوى . وفجأة لمع في المقاطعات الجنوبية بريق من الأمل لم يكن متوقعاً : فقد رفع الجيش الإسباني راية العصيان بسبب عدم دفع رواتبه ، ثم استولى على ألوست Alost وتحول إلى عصابات أعملت السيف والنار حتى مشارف بروكسل . ووجد وليم في هذه الحالة من الغضب والفرز التي استولت على الأهالي فرصة ذهبية ليوسع نطاق قضيته ويحول مصائرها — فدخل في مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت Brabant بالنيابة عن هولندة وزيلند ، وذلك بقصد إخراج

الأجانب وتسوية المسألة الدينية هـ ثم جاء نهب الإسبان الفظيع لمدينة أنتورب ، المعروف « بالغضبة الإسبانية » ، فأذاع نهائياً آخر مظهر للتردد كان يعترض إتمام تسوية غنت (نوفمبر ١٥٧٤) . وتکانت المقاطعات الكاثوليكية والمقاطعات الشهالية البروتستانتية (هولنديو أسفل البلاد والوالون) معًا في اتحاد سياسي لمواجهة الخطر المشترك . وحين بدأ الحكم الإسباني الجديد — دون جوان النمسوي — حكمه يحيط به كل بريق دمه الملوكى ، وغار ليانتو لم يذيل بعد على جبهته ، لم يجد بدًا من أن يسلم بالمطلب الذى أجمعت عليه البلاد : وهو وجوب تخلصها فى الحال وإلى الأبد من القوات الأجنبية ، واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحرابيات التى حصلت عليها . وأشد إيلاماً لهذا الحكم المتغطرس المندفع كان السلطان الذى كسبه أورنچ — ولقد كتب أثلاً إلى الملك : « لقد سحر أمير أورنچ عقول الناس : فهم يحبونه ويخشونه ويتمون أن يصبح سيدهم » .

ولكن الأمير لم يحتفظ بالنصر الذى كسبه ؛ فإن روابط الاتحاد التى صهرت على هب « الغضبة الإسبانية » أصبحت من الضعف بحيث لا تقوى على الصمود لامتحان جدى . فالمقاطعات المتحدة لم تكن على رأى واحد بشأن المسألة الحيوية التى لم تكن قد حسمت بعد وهى المسألة الدينية . ثار الكلشين فى غنت على حكمهم ، وجانب الأمير أورنچ الصواب إذ شجعهم بعض الشيء على ذلك ، ثم سجنوا دوق أيرشوت Aerschot وهو حينئذ القائد الكاثوليكى للجنوب — وبذلك أثاروا من جديد مشاعر الكراهية الدينية المحرمة التى كانت قد التأمت أمام الشعور بالخطر المشترك . وفي هذا الجو ، وبالبلاد قد التبت مشاعرها وتقطعت أوصالها ، نزل بها جيش مختار من عشرين ألف مقاتل ، يقوده أعظم جنود إسبانيا وأقدر ساستها . لم يكن دوق بارما — كما كان أثلاً — متعطشاً للدماء ، لا يقوم من خطأ حتى يقع في آخر ؛ ولا كان خيالياً مثل دون جوان . ولكنه كان يحسن المداهنة والخداع والتهيئة ؛ وهو حين يهدى الشكوك من حوله يعرف أيضًا كيف يسدد ضربته — وقد تمكن بالنصر الساحق الذى أحرزه في جمبلو Gembloux (يونية ١٥٧٨) أن يضمن أخيراً عودة المقاطعات الجنوبية إلى الخضوع لإسبانيا .

وبهذه المعركة استقر لكل من هولندة وبلجيكا وجودها السياسى المنفصل .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى الوقت الحاضر . باستثناء الاتحاد القصير المصطرب الذى أقيم بين البلدين بين عامى ١٨١٥ و ١٨٣٠ . وهذا بعد الذى يفصل بين بروكسل ولاهـى فى الوقت الحاضر روحـاً – رغم قربـهما مكانـاً – يعزى في الدرجة الأولى إلى ألقـا الذى سحقـ پروـتستانـ الجنـوبـ في القرنـ السادسـ عشرـ ، وإلى پارـما الذى حالـ دونـ عودـتهمـ وانتـعـاشـهمـ . فإذا ذـكرـ التـاريـخـ بـناـةـ بلـجيـكاـ الحـديثـةـ ، عـدـ مـنـهـمـ هـذـينـ القـائـدـينـ الأـجـنبـيـنـ . وقد تركـ أـوـطـهـماـ ذـكرـ كـريـهـةـ ، علىـ حـينـ خـلـفـ الآـخـرـ أـمـجـدـ الذـكـرـيـاتـ .

وأـخـيرـاًـ – وبعدـ إـحـجامـ كـبـيرـ – اـطـرحـ أـورـنجـ حـلـمهـ بـتـكـوـينـ دـوـلـةـ مـتـحـدـةـ مـنـ الأـرـاضـىـ المـنـخـفـضـةـ ، وـوـافـقـ عـلـىـ اـتـحـادـ يـوـرـخـتـ (١٥٧٩)ـ الـذـىـ كـانـ مـعـضـلـوـهـ پـروـتـستانـتـ فـيـ الشـمـالـ قدـ وـضـعـواـ إـطـارـهـ رـدـاًـ عـلـىـ اـتـحـادـ آـرـاسـ Arrasـ الـكـاثـولـيـكـىـ . لمـ يـقـ أـمـامـهـ حـيـثـذـ سـوـىـ أـنـ يـرـكـ جـهـدـهـ فـيـ الدـفـاعـ عـنـ كـلـشـيـنـ الشـمـالـ فـيـ هـولـنـدـةـ وـزـيلـنـدـةـ ، أـولـئـكـ الـذـينـ قـاسـواـ كـثـيرـاًـ ، وـقـدـ وـضـعـواـ مـصـائـرـهـمـ بـيـنـ يـدـيهـيـهـ ، وـبـاتـواـ مـصـمـمـيـنـ عـلـىـ التـضـحـيـةـ بـكـلـ شـىـءـ فـيـ سـبـيلـ مـعـتـقـدـاهـمـ . وـفـيـ سـبـيلـ تـحـقـيقـ هـذـاـ الـهـدـفـ ، وـرـغـمـ مـاـ أـبـدـاهـ خـيـرـةـ مـؤـيـدـيـهـ مـنـ أـسـفـ شـدـيدـ ، قـرـرـ أـنـ يـطـلـبـ المسـاعـدةـ مـنـ دـوـقـ آـنـجـوـ Anjouـ الـذـىـ كـانـ يـبـدوـ أـنـ سـيـقـدـمـ خـيـرـ ضـهـانـاتـ المسـاعـدةـ الفـعـالـةـ بـسـبـبـ كـوـنـهـ وـرـيـثـاًـ لـالـعـرـشـ فـرـنـسـيـ وـخـاطـبـاًـ مـعـرـوفـاًـ لـيدـ مـلـكـةـ إـنـجـلـتـراـ . وـلـكـنـهاـ كـانـتـ مـضـارـبـةـ فـاسـدـةـ : فـآنـجـوـ كـانـ خـنـونـاًـ ، وـجـيـشـهـ عـاصـيـاًـ وـحـمـاـيـتـهـ مـكـروـهـةـ ، وـهـذـاـ لـمـ يـنـتـجـ خـيـرـ مـنـ تـدـخـلـهـ القـصـيرـ الـأـمـدـ . وـلـكـنـ الـقـدـرـ كـانـ يـدـخـرـ لـلـهـولـنـدـيـنـ فـيـ حـرـبـهـمـ ضـدـ إـسـپـانـياـ حـلـيـفـاًـ أـقـوىـ ، لـنـ يـلـبـثـ قـبـلـ مـضـىـ وقتـ طـوـيـلـ حـتـىـ يـمـيـطـ اللـاثـامـ عنـ خـلـالـ مـدـهـشـةـ .

فـذـلـكـ الـوقـتـ كـانـ مـبـدـأـ الـاغـتـيـالـ السـيـاسـيـ أـمـرـاًـ مـقـرـرـاًـ عـلـىـ مـدـىـ وـاسـعـ ، خـصـوصـاًـ وـأـنـهـ – وـإـنـ لـمـ يـكـنـ الأـسـلـوبـ الـوحـيدـ – كـانـ يـزـكـيهـ بـعـضـ الـأـعـضـاءـ إـسـپـانـياـ فـيـ طـائـفةـ الـيـسـوعـيـنـ . هـذـاـ لـيـسـ ثـمـةـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـدـهـشـةـ حـيـنـ تـقـرـرـ حـكـومـةـ إـسـپـانـياـ أـنـ تـزـيـحـ غـرـيـعـهـاـ العـنـيدـ القـوىـ مـنـ طـرـيقـهـاـ بـاـغـتـيـالـهـ . وـأـعـلـنتـ إـمـبرـاطـورـيـةـ أـنـ الـأـمـيرـ خـارـجـ عـلـىـ القـانـونـ (١٥ـ مـارـسـ ١٥٨١)ـ ، وـأـنـهـ عـدـوـ لـلـجـنـسـ الـبـشـرـىـ ، وـوـعـدـتـ بـالـمـالـ وـالـأـرـاضـىـ وـالـأـلقـابـ مـنـ يـأـتـىـ بـرـأسـهـ . وـلـكـنـ إـلهـةـ الـقـمـةـ تـلـازـمـ سـيـاسـةـ

الاغتيال السياسي : فقد تخرّض القضية صرعى ، ولكن القضية تبقى يشد أزرها دم الشهيد . ففي ١٠ يوليه ١٥٨٤ أطلق شاب برجندي متغصّب يدعى بلتزار جرار Balthazar Gérard الرصاص على أورنج في « بهو الأمير Prinzenhof » في دلفت Delft ؛ ولكن رغم أن وليم في ذلك الوقت لم يكن يزيد على الخامسة والخمسين من العمر ، فإن مقتله جاء متأخراً جداً . فقبل ذلك بثلاث سنوات (٢٦ يوليه ١٥٨١) كان مثلاً برابانت والفلاندر ويوترخت وجذلرلاند Gelderland وهولندة وزيلندة قد اجتمعوا في لاهاي ووقعوا صكّاً Act of Abjuration أقسموا فيه اليدين على خلع ولايهم للتايج الإسباني . وهكذا فرغم وفاة وليم أورنج في تلك الأونة ، تخض الضطراب والعاصفة عن دولة من صنع يديه قامت بالفعل ، وكان من المقرر لها أن تملأ البحار بسفنه وتبني في الشرق إمبراطورية مفرطة في الغنى ، وتحدى أساطيل إنجلترا وجيوش فرنسا ، وتكسب امتنان الجنس البشري باعتبارها ملجاً للحرية الفكرية وموطناً لمدرسة من الرسامين أثروا ثقافة أوروبا على الدوام بما راعوه في رسومهم — بدقة ورقه — من بدائع الحياة الحادثة .

* * *

واصطبغت الدولة الجديدة لنفسها دستوراً كان يبدو لكل ناظر أنه لا يصلح مطلقاً بحوسيمة الأوربية العاشرف . فقد كانت الدولة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها بولانها المحلي وحاكمها التنفيذي المنتخب Stadholder ، وحقها في المشاركة بنصيب مباشر في الإشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وللاتحاد مجلس للنواب ، يختار أعضاؤه من مجالس الطبقات المحلية وي ساعده مجلس من اثنى عشر عضواً ، وهو ينظر في الشؤون التي تعنى الاتحاد كله ويعين القائد العام للجيش والقائد العام للأسطول . ولكن لما كانت هذه الميئات المركزية لا تتمتع بالسيادة الحقيقة ، بل تتمتع بها المجالس المحلية السبعة ، فلم يكن ثمة ضمان دستوري يضمن تماسك الجمهورية كما يضمن الاستمرار والحيوية في إدارة شؤونها . ففي أية لحظة كان بإمكان فلاحي فريزريا وقسسين يوترخت أو نبلاء جذلرلاند أن يعرقلوا بأصواتهم — إذا ما أرادوا — الخطط التي جهد في حبّها أرستقراطيو المدن التجارية . على أن الجمهورية لم ينقذها من هذه العوائق

السيئة التي تربت على هذا القصور في جهازها السياسي سوى عوامل ثلاثة هي التجانس الفعلى بين سكان هولندة ، وتفوق هولندة على سائر المقاطعات — وأهم من هذين العاملين المكانة الخاصة التي أعطيت عن طوعية لزعيم بيت أورنج خلال الخمسين عاماً الأولى الدقيقة لاستقلال هولندة .

ولما كان الجاذب الأكبر من الشعب الهولندي يعني بالتجارة والصناعة وركوب البحر ، فقد كان يجتمع على وجهه نظر واحدة في الشؤون الخارجية ، وعلى فهم مشترك لحاجات هولندة ومصالحها . زال النظام الإقطاعي ، وحل محل النبيل والكافر في أهميتها رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن . وكان الأرستقراطيون في المدن يسيطرون عليها ، والمدن بدورها كانت تسسيطر على الجمهورية . وشاءت الأقدار إلى حد ما — أن تقع المراكز الرئيسية للتجارة والعلم في داخل مقاطعة واحدة ، الأمر الذي عاون كثيراً على منح البلاد الاستقرار والقوة . فإن Amsterdam وRotterdam وDordrecht ولinden (مقر الجامعة الهولندية) ولاهای (العاصمة السياسية للدولة) تقع جميعها في هولندة . ولم يحدث في أي مكان آخر في أوروبا أن ترتكز في رقعة واحدة من الأرض هذا الحشد من السكان والقوة التجارية ؛ ولم يحدث في أي مكان آخر أن عوبلت شئون التجارة بمثل هذه المهارة أو فهم الناس فن الحياة الحضارية بمثل هذا الإتقان . ولما كان هولندة قصبة السبق بين المقاطعات السبع ، فقد تزعمت Amsterdam مدنها وبيت منافساتها في الصيرفة والتجارة وحجم أسطولها واسع نشاطها الاستعماري ، وهكذا عوضت القوة المستمرة من التفوق الاقتصادي الحكم المركزي الذي كان يفتقر إليه الدستور . ومن الوجهة النظرية بقيت حريات الأقاليم مصونة لم تمس ؛ ولكن من الناحية العملية كانت السياسة التي تلقي تأييداً من حكام Amsterdam الأثرياء كافية بأن تسهوى أعضاء الاتحاد الآخرين الأقل من هولندة شأنأً .

على أن أمراء بيت أورنج قدمو لها هذه السياسة التي توزعت وتوازنت بهذا الشكل وحدة في التوجيه كان لا غنى عنها . وأبدع ما في هذه الأسرة هو حكمتها في مراعاة الروح الجمهورية التي كان يحرص عليها الهولنديون . فوسط خضم من الأخطار لا حصر له كسب ولهم الصامت لهذا الشعب حريته ، ثم جاء موريس وفرديريك

هنرى من بعده فناحا عنها . ولكن لا النجاح الذى حققه ولا سجل خدماتهم الحالب قد أغراهم بتقويض أشكال الدستور على ما فيها من عراقيل ثقيلة . قنع عميد بيت أورنج بمركز الحاكم المنتخب ؛ ولا كان يشغل مناصب الحاكم في خمس مقاطعات والقائد العام لجيش الجمهورية وأسطولها ، فقد رکز في يديه — باختيار الناس اختياراً حرّاً — السلطات الفعلية في الدولة . وقد اجتمع لرؤساء هذه الأسرة الممتازة من المناصب التي انتخبو لها خلال سبعين عاماً ما جعل لهم قدرأً عظيماً من السلطان لا يقل عما كان يتمتع به أى عاهل في أوربا تولى عرشه بالوراثة في ذلك العصر الاستقرائي . ثم أعقب وفاة وليم الثاني (١٦٥٠) عهد طويل حكم فيه حاكم لم يبلغ سن الرشد ، فعهد بتسيير دفة الجمهورية أثناءه إلى أكبر موظف مدنى في المقاطعة الرئيسية : وهو محصل موارد هولندة العظيم The Grand Pensionary of Holland . ولكن ذكرى بيت أورنج لا تزال حية في قلوب الشعب الهولندي ؛ في الوقت الذى أحذقت بهم أشد الأخطار ، حين كانت جمهوريتهم الصغيرة تهددها بالدمار قوة لويس الرابع عشر العسكرية الضخمة ، استصرخوا ابن حميد وليم الصامت لكي ينقذهم — ولم تذهب صرختهم عبثاً .

* * *

فصل ربع قرن من الحرب بين وفاة وليم أورنج وهدنة الاثنى عشر عاماً التي وقعت في عام ١٦٠٩ والتي أعلنت للعالم أجمع اعتراف إسبانيا بهائياً بعجزها عن قهر الجمهورية الهولندية . وجاء الحالص للهولنديين من عاملين : أولهما تحول الجهد الحربي لإسبانيا ضد إليزابيث وهنرى الرابع ؛ وثانيهما اكتشاف المقاطعات المتحدة لسياسي عظيم وقائد عظيم . فحين خر وليم صريعاً على يد سفالك ، كان دوق پارما في أوج انتصاراته ؛ وسقطت مدن الفلاندر وبرabant واحدة بعد أخرى أمام براعته المظفرة . احتل بروكسل ، واجتاز أنوروب ، وهدد بسحق آخر حصون القضية البروتستانتية : هولندة وزيلندة ، لولا أن تداركتهما النجدة سراغاً .

وكان من غير المحتمل أن يستطيع الجيش الإنجليزى الصغير ، بقيادة لستر Leicester الذى ألقى به الملكة إليزابيث إلى فلاشنج Flushing لوازنة الموقف ، أن يصمد إلى النهاية للقوات التى كان القائد الإسباني قادرًا تماماً على جمعها

وبث الحماسة فيها . ولكن جهود بارما كانت مشتتة : فقد أمر في البداية بأن يجتمع جيشاً لغزو إنجلترا ، وحين تبدد هذا الأمل نهائياً بتشتت الأرمادا ، أمر بأن يتوجه إلى فرنسا ليريد مصالح سيده في الحرب الأهلية الناشئة فيها . وهكذا ذهب ليقظ باريس في الوقت الذي كان عليه أن يعمل للسيطرة على أمستردام ؛ وفي الوقت الذي كان على قواته أن تحتل هولندا ، طلب إليها القيام باحتلال لا طائل من ورائه لمدينة روان Rouen . وهكذا ترتب على تحمل هذا القائد العظيم واجبات حربية متنوعة ومشتتة للجهاد أن توفي في عام ١٥٩٢ ولا يتحقق مهمته بعد .

وكان الدستور الهولندي قاصراً عن مواجهة ضغط الحرب وأعباءها الثقال ، شأنه في ذلك شأن الدستور الأميركي في الوقت الحاضر . فقد كانت كل مقاطعة تتمتع بالسيادة ، وكانت كل مقاطعة حرية على التشبث بطرائقها المألوفة . ولكن من حسن حظ الجمهورية في مستقبلها أن تكون مقاطعة هولندا ، بفضل ثروتها وسكانها وحيويتها ومساهمتها بنصيب الأسد في تكاليف الاتحاد ، القوة الأولى المتفوقة في مجلس طبقات الأمة . وكان لسانها الناطق مدى ثلاثين عاماً هو جون ڤان أولدنبارنفلت John van Oldenbarneveldt ، والرئيس المدنى الحقيقى للجمهورية الناشئة مدى اثنين وثلاثين عاماً (١٥٨٦ - ١٦١٨) . وقد خدم الحظ هذا الرجل العاقل الحنك حر التفكير حين قدم له رفيقاً جديراً بالإعجاب فى شخص القائد موريس ناساو بن وليم أورنج .

وكان هدف هذا الصابط الممتاز وابن عمه وليم ناساو أن يصنعا جيشاً يستطيع قهر الإسبان في معركة مكشوفة ؛ وهذا ما حققه بالفعل . واستطاع موريس في أربع معارك رائعة أن يحرر أرض المقاطعات الاتحادية وأن يبين عن نفسه كأعظم قواد عصره . فلم يكن ثمة أى فن من فنون الحرب لم يكن هو خبيراً فيه ؟ وقد اعتبرت خطط الحصار التي وضعها ونفذها غاية في البراعة من حيث الخذر والتمكن ، وكشف توزيعه للخيالة أثناء القتال عن نظرة الخبير المتمكن . وإن استيلاءه على جرترودنبرج Gertruidenburg ومطاردة فرسانه لثاراكس Varax في ترنهوت Turnhout (١٥٩٧) في ليلة من ليالي الشتاء ، وهجومه الجرىء الذى أدى في وقته وحول المزيمة إلى نصر في معركة دنكرك المريء – كل ذلك – اعتبر نماذج

فائقة في فن الحرب . وفي تلك الأثناء أمكن التفوق على الإسبان بحراً ؛ وسجل الانتصار البحري الرائع في جبل طارق (١٦٠٧) التفوق القاطع للهولنديين وأرغموا أعدائهم على التفكير في طلب الصلح .

على أن الاتفاق كانت تعرضه ثلاثة عقبات كبرى : الاستقلال والدين والتجارة . فقد كان مما لا يحتمله كبرىء الإسبان أن يعترفوا بهؤلاء العصابة الهولنديين دولة مستقلة ، أو يسمحوا لهم بتحريم إقامة الطقوس الكاثوليكية علينا ، أو بالتجارة مع هذه الرقعة الواسعة من العالم الجديد التي كان البابا قد خص إسبانيا بها . بدا أن عقد الصلح في حيز الاستحالة ؛ ولكن ما لبثت أن وقعت في أتون رب هدنة مداها اثنا عشر عاماً (٩ أبريل ١٦٠٩) . ولم يذكر شيء عن الموضوع الشائك الخاص بالدين ؛ ولكن أهالي الأرض المنخفضة انتزعوا من خصومهم — بعد إحجام وتردد — الاعتراف باستقلالهم وحقهم في التجارة في المياه الإسبانية .

في خلال هذه السنوات الخمس والعشرين كانت خلاصة الشعب الهولندي قد عمدت إلى ركوب البحر ، تاركة جيوشها البرية تتكون في معظمها من الألمان أو الإنجليز أو الأسكتلنديين . وصل قبطان هولندي إلى القطب الشمالي وأمضى الشتاء فوق ثلوجه ، وزار أسطول هولندي الصين وسيام ، وقادت للهولنديين محطات تجارية في جزائر البار ، وأُسست في عام ١٦٠٤ شركة هند شرقية هي أولى الشركات الكبرى الحاصلة على امتياز . وقادت الثورة الجديدة الناتجة من التجارة العالمية النامية على تغذية المجهود الحربي الذي كانت تقوم به هذه الجماعة الصغيرة في عددها ، العظيمة في حيوتها — ثم مكنت هذه الجماعة ، بعد نضال مستميت استغرق جيلاً ، من أن تعقد هدنة مظفرة مع أقوى دولة عسكرية في أوروبا .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Motley, Rise of the Dutch Republic. 3 vols. Everyman's Library.
(1906)
- H. Pirenne, Histoire de Belgique. (1907)
- W.H. Prescott, History of the Reign of Philip II. (1855)
- Martin A.S. Hume, Philip II of Spain. (1902)
- P.J. Blok, History of the People of the Netherlands. (1892-6)
- J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)
- R. Altimara y Crevea, Historia d'Espana y de la civilization espanola.
(1902)
- R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire (1918-25)
- A.F. Pollard, History of England. (1912)
- F.W. Maitland, The Anglican Settlement and the Scottish Reformation. (Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XVI).
- J.A. Froude, History of England. (1856-70)
- A. Lang, History of Scotland. (1900-7)
- J. Skelton, Maitland of Lethington and the Scotland of Mary Stuart.
2 vols. (1894)
- P. Hume Brown, John Knox. 2 vols. (1895)

الفصل السادس عشر

إنجلترا وإسبانيا

المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا - مشروعات الأفراد وحرص الدولة - ملاحو إنجلترا البيوريتان - سحر الشرق - الضربة الأولى - فرنسيس دريك Francis Drake - الثورة الكاثوليكية في الشهال - ماري ملكة أسكوتلند - اتحاد البرتغال مع إسبانيا - الأربعاد وما ترتب عليها - زوال مكانة إسبانيا - طرد بقايا المسلمين - بداية الاستعمار الإنجليزي .

إن المنافسة بين إنجلترا وإسبانيا ، وهي المنافسة التي تطورت إلى حرب سافرة في عهد إليزابيث ، قد ساعدت دون شك على تقوية المشاعر البروتستانتية لدى الشعب الإنجليزي ؛ ومع أنها تلقت منذ البداية بشيء من صبغة العداء الديني ، إلا أنها كانت في جوهرها منافسة اقتصادية . فإن حب المغامرة والمال والتجارة قد أغري شعب إنجلترا - الذي اعتاد ركوب البحار - بتحدي الاحتكار الذي حرصت إسبانيا على الاحتفاظ به في العالم الجديد وجزائر الهند الغربية . ولكن الحرب لم تقم بسبب الدين ؛ فهي لم تندلع بسبب تصميم الحكومة الإسبانية على فرض العقيدة الكاثوليكية على إنجلترا ، أو لأن إليزابيث كانت تتحرق شوقاً إلى التعجيل بمحاصمة إسبانيا الكاثوليكية . وإنما نشب الحرب لأن بحارة من الإنجليز يعملون بدافع من أنفسهم - وإن لم يدخل الأمر غالباً من عطف الملكة وإغضابها الطرف - قد صنعوا على تحقيق مطاليبهم في المشاركة في تجارة العالم الجديد .

وليس ثمة في السنوات الثاني عشرة التي تلت معاهدة إدنبرة (1560 - 1588) ما هو أبرز من التعارض بين روح الحاضر من جانب الحكومة الإنجليزية وروح المغامرة والجرأة من جانب ذلك الفريق المحارب من الأمة الذي اعتاد ركوب البحار . وبينما يخلو التاريخ الرسمي للحكومة تماماً من هذا النشاط ، فإن ألوان النشاط غير الرسمية التي لم يكلف أحد أصحابها بها ، تسجل فصلاً جديداً في تاريخ العالم . كان غرض الملكة أن تحول دون حدوث انفجار ديني ، وأن تتجنب البلاد الدخول في حرب خارجية ، إلى أن يجيء الوقت الذي يغدو فيه الولاء لها عادة مقررة لدى

كل رعاياها . لهذا قامت سياستها على تخفيف حدة النشاط وإطراح المسئولية عن المغامرات التي تؤدى إلى إفساد العلاقات . وعده البيورتان المتقدون حماسة — مثل سير فرنسيس ولسنجهام Walsingham — هذه السياسة خيانة مذلة للقضية البروتستانتية فهم كانوا يتوقعون إلى خاربة العدو ، لا في الخفاء أو بشكل محدود ، بل جهاراً نهاراً في كل الجهات : في فرنسا ، وفي الأراضي المخضضة ، وفي أعلى البحار . ولم يكن ير وقهم تجنب الملكة ركوب الماء ، وهي خطة قد تكون سياسية ولكنها خالية من البطولة . فإنجلترا حينئذ قد غدت أول قوة بحرية في العالم كان لديها أمهر صناع السفن وأحسن السفن ، وخيرة السفينة ؛ وكانت سفناً أصغر من سفن الإسبان حقاً ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسيرة الريح ، كما كانت أيسراً قيادة . ورغم أن الأسطول الملكي كان صغيراً (إذ لم يزد قوامه في عام ١٥٥٩ على اثنين وعشرين سفينية حمولة كل منها مائة طن فصاعداً) ، ولم يعد في عام ١٦٠٣ تسعة وعشرين سفينية) ، فإن كان يوجد دائماً احتياطي كبير من أسطول القراءنة والأسطول التجاري ، يمكن الاعتماد عليه في التعاون مع أسطول الملكة في وقت الشدة . وإن نمو القوة البحرية للأمة يدين بالقليل للتشجيع الرسمي ؛ فهو نتيجة ذلك الميل الطبيعي القوى الكامن في هؤلاء القوم الطموحين المشتغلين بالبحر ، وقد وجدوا أنفسهم فجأة في موقف عجيب : إذ وجدوا في أنفسهم القدرة على التسابق للسيطرة على العالم.

ورغم أن البحارة الإنجليز في عصر إليزابيث لم يكونوا جميعاً من طواز واحد ، فقد كانوا يملكون بعض الحلال المشركة . فهم — كبحارة — كانوا يؤمنون بقدر قاهر يتحكم في الأمواج والرياح ومصائر الرجال . كانوا فخورين بإنجلترا وبكلتهم ، يحتقرن الأجانب ، ويكرهون البابا والأتراك والشيطان — ولو أن كرههم للبابا ربما كان لا يعدله كرههم لأى شئ آخر . فهو الذى خص البرتغال بالهند الشرقية وخصوصاً إسبانيا بالهند الغربية ، وليس عندهم أدنى اعتبار للقانون الدولي سواء كضرورة أو كحقيقة واقعة ؛ فهم قد اعتبروا أعلى البحار منطقة فراغ لا يمتلكها أحد ، بإمكانهم أن يهبو فيها ويقتلوا كما شاءت لهم أهوائهم . ولم توح المغامرات بإمكان القيام بعمل تبشيري إلا لفئة قليلة من ذوى النفوس الأكثـر تطلعـاً ، ولم يحسـ

أحد من القسّيس البروتستانت الذين كانوا يعملون في سفن إليزابيث بالدور النبيل الذي قام به الكاثوليكي لاس كازاس *Las Casas*^(١).

ومع ذلك فقد خالط أحاط الشهوات لدى القراءة شيئاً من الخيال الفسيح الساذج ، مما أضفي شيئاً من النبل على عمليات ركوب البحار في ذلك العصر . وكان اتساع المعلومات الجغرافية واكتشاف الصين (كاثاي Cathay) – أو الفردوس الأرضي – دوافع يشعر بها الجميع : فلم تقتصر على رجال العلوم أو الحالمين الشاعريين وحدهم ؛ وكانت الحسارة ولية النجاح . وقد كتب القبطان روبرت ثورن أوف بريستول Master Robert Thorne of Bristol إلى سيده (هنري الثامن) في عام ١٥٢٧ مزكيًّا له المعبر الشمالي إلى جزائر البحار – بأسلوب ذلك العصر الجويء – قال : « لا توجد أرض لا تصلح للسكنى ، ولا بحر لا يصلح للملاحة » .

ذلك أن جزائر البحار القاصية في مياه الهند الشرقية كانت لا تزال في مقدمة البقاع التي تسهُّى المغامرين والرواد . حاول ولوبي Willoughby وتشانسلر Chancellor في عام ١٥٥٣ أن يصلوا إليها عن طريق المعبر الشمالي الشرقي ، وفتحوا باب التجارة مع روسيا وكان ديفيز Davis وفروبشير Frobisher وجبلرت Gilbert يأملون أن يعبروا على الطريق الشمالي الغربي ، فاكتشفوا من جديد مضيق هدسون في عام ١٦١٠ .. ولكن كلا المعبرين كان يعرضهما بشكل فظيع عائق من الجليد والثلج في المناطق القطبية .

إذا أريد الوصول إلى ثروة الشرق ، لم يعد ثمة من سبيل آخر سوى تصويب ضربة مباشرة إلى الاحتكار التجاري الذي فرضه الإسبان والبرتغاليون في البحار الجنوبي . أدرك نفر من البحارة الإنجليز – كجون هوكتن John Hawkins (١٥٩٥) الذي بدأ عملية نقل الزنوج من غانا إلى جزائر الهند الغربية – أنهم لن يشاركون في تجارة الشرق هذه إلا باستخدام القوة ، وهذا سلحو سفنهم وباتوا مستعدين للقتال ، وتطلعوا في ثقة إلى الاصطدام بإسبانيا . ولا يمكن توجيه اللوم

(١) ١٤٧٤ – ١٥٦٦ . أسقف إسپاني رحل إلى العالم الجديد بعد الكشف عن المغارات وبذل جهوداً متواصلة لتحسين أحوال الشعوب المفتوحة التي عاملها المستعمرون الإسبان معاملة غير إنسانية . وقد سبقت الإشارة إليه في النص .

إلى هؤلاء البحارة الإنجليز إلا إذا عد المجموع العنيف على احتكار لا يمكن الدفاع عنه أمراً لا يمكن الدفاع عنه هو نفسه . أما موضوع القضية فهو تجارة العالم .

وفي عام ١٥٦٧ تبودلت الطلقات الأولى في هذه المعركة الكبرى في الميناء المكسيكي سان جوان دي ألوا *San Juan de Ulloa* . كان جون هوكتنر وابن عمه الشاب فرنسيس دريك قد بحثا إلى هذا الميناء احتفاء من عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وقرصنة رابحتين في أعلى البحار الإسبانية ، عند ما ظهر في الأفق أسطول من ثلاثة عشرة سفينة حربية إسبانية تحمل إحداها الحاكم الإسباني الجديد للمكسيك . ورغم أن هوكتنر كان في وضع يمكنته من الحصول دون دخول الإسبان إلى المياه إلا أنه لم يكن عنده سوى خمس سفن — لهذا آثر أن يفاوض الإسبان وبينما كان الأسطولان الصغيران يقتربان جنباً إلى جنب ، وبينما كان بحاراتهما يتبدلون الود على الشاطئ ، وجه الإسبان هجوماً غادراً إلى الإنجليز الذين كانوا لا يتوقعون شرّاً ، فقتل منهم الكثيرون ، وفقدوا ثلاثة سفن ، ولم يتحسن لهوكتنر ودريك أن ينجوا بنسبيهما من المعركة إلا بعد قتال عنيف باهراً . وعندما وصلت أنباء المعركة إلى إنجلترا كان لقصة غدر الإسبان وشجاعة الإنجليز أثر عميق . وعلى حد قول كامدن *Camden* : « استشاط الجيش والبحارة غضباً في طول إنجلترا وعرضها ، وتحرقوا شوقاً إلى محاربة إسبانيا — ولكن الملكة لم تصغ سمعاً » .

وفي خلال العقدين والعشرين سنة التالية سيطرت على البحار شخصية فرنسيس دريك البحارة . ويعتقد البعض أن طرائفه في القرصنة لم تكن هي المثل ، وأنه كان يحسن صنعاً لو أقام في قرطاجنة أو في أي مكان آخر في « البحر الإسباني Spanish Main » قاعدة لقرصنته . ولكن دريك حق ما كان يصبو إليه . وهو إيجار إسبانيا على الدخول في الحرب عن طريق أعمال السطو المستمرة التي كان يقوم بها في كل مكان . ولم ينج من يده شيء : لا المدن الواقعة على « البحر الإسباني » ، ولا الطريق الذي كانت تسلكه كنوز بيرو عبر بربخ بنا ، ولا شاطئ المحيط الهادئ ، ولا جزائر اليمار . وفي السنة السابقة على إقلاع الأرمادا أحرق دريك السفن الواسية

(١) ١٧١٤ - ١٧٩٤ . سياسي ومشروع إنجليزي ندد بسياسة إنجلترا إزاء مستعمراتها الأمريكية .

في ميناء قادس . وقبل ذلك – عند عودته من رحلته التي طاف فيها حول العالم – أطلق عليه مواطنه لقب « سيد لصوص العالم المجهول » ، ونزلت ملكته – التي قبضت نصيتها من الغنائم – خصيصاً إلى ميناء دتفورد لكي تنصب المكتشف العظيم فارساً ونقيراً لمهنة القراءة .

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث تتحرك سرعاً نحو النضال السافر الذي كان كل من فيليب وإليزابيث شديد الرغبة في تجنبه . كانت قوة إنجلترا حينئذ من الوضوح بما يكفي لإقناع أعدائها بأنه لا يمكن قهرها إلا بالاستناد إلى حزب إنجليزي راغب في الإطاحة بالملكة وإعادة العقيدة الكاثوليكية . مثل هذا الحزب كان موجوداً ؟ فقد كان من الممكن العثور على أنصار للكنيسة بمعترفين في طول البلاد وعرضها . كانوا قلة في الجنوب والشرق ، وكثرة في الشمال ، وغالبية في المناطق الكتالانية من الجزائر البريطانية . وكانت قوتهم يخشى جانبيها بوجه آخر في مقاطعات إنجلترا الشمالية ، تلك المقاطعات الفقيرة المتخلفة حيث كان النساء الإقطاعيون لا يزالون يحتفظون بقوتهم ، وحيث تألف القسس الإسكتلنديون الماربيون من غضب جون نوكس مع الرعاية الكاثوليكية التي كان يتبناها الإنجليز النازلون في لوفنان Louvain ، لكنه يستدعيوا جميعاً جذوة العقيدة القديمة . وقد لعب كبراء الطبقة الأرستقراطية في شمال إنجلترا دوره دائماً في الشؤون السياسية سواء في الماضي أو الحاضر ، كانت البروتستانتية بالنسبة لأهالي المستنقعات الغربية – من أمثال أيرل نورثبرلاند ولوارد ديك Dacre – بدعة كريهة فرضها على البلاد المستشارون من رجال الطبقة الوسطى الذين كان من سوء حظ البلاد أنهم استحوذوا على مسامع الملكة ؛ فرفعوا لواء الثورة في عام ١٥٦٩ معتمدين على معونة إسبانية وإسكتلندية لم تصل أبداً ، فأتلفوا الأنجليل وكتبوا الصنوات في كاتدرائية درهام ، ثم أمكن سحقهم بسهولة وبدون شفة بعد أن فشلوا في تلقي أية معونة جدية . وجاء سحق هذه الحركة الفجة المفكرة فقدم لإليزابيث ميزة حاسمة كان من الخير لأعدائها أن يتذمرونها . ولكنهم لم يعوا هذا الدرس ، فاستمرت المؤامرات ضد الملكة حتى النهاية .

وكانت ماري ملكة إسكتلندا هؤلاء الحانقين من الكاثوليك بمثابة قاعدة مستمرة أصول التاريخ الأوربي

وخطيرة يتجمعون حولها ولو قدر لقصة هذه الأميرة المنكودة الطالع أن تنتهي نهاية مفاجئة في صيف عام ١٥٦٧ لربما كانت كالآتي : تربت ماري ، وهي ابنة جيس الخامس من ماري جيز ، في بلاط كاترين مديتشي الداعر ، حيث زوجت من فرسوا ولـ عهد فرنسا الذي تولى العرش بعد ذلك . ومات زوجها في باريس وهو لم يزل صبياً ، وماتت أمها ماري جيز في ليث Leith . ولا كانت الملكة الشرعية لإسكتلندا ، فقد دعيت إلى ملكيتها من أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يهتمون قبل كل شيء بالدفاع عن استقلال بلادهم في وجه جارتها الجنوبية . وهناك رفت إلى إيرل دارنلي Darnley الشاب الخليل الذي كان له حق في عرش إنجلترا عن طريق والدته . ورغم أن الزواج قد أعقب ولداً هو الذي أصبح جيمس السادس ملك إسكتلندا ، ثم جيمس الأول ملك إنجلترا ، فإنه كان مأساة تلطخت بالدماء . وقد اتخدت الملكة سكريبتيرها الإيطالي رتزيو Rizzio عشيقاً لها ، وكان على جانب من الثقافة محباً إلى النفس ، على التقىض من دارنلي الفظ ، والنبلاء البروتستانت المترمدين الذين كانوا يسيطرؤن على سياسة البلاد . وقتل دارنلي غريمه في حضرة الملكة ؛ وبعد عام قتل دارنلي — واعتقد الكثيرون أن زوجته قد توطأت مع قاتله بوثل Bothwell الذي أسرعت بالزواج منه . وتفرز النبلاء الإسكتلنديون الذين لم يكن يعجبهم العجب من هذه الصفقة التي لطخت بلادهم بالعار ، فسجّنوا ماري في لوتشليفن Lochleven ، وعزموا على تقديمها إلى المحاكمة على ما اقررت يداها ؛ ولكنها عمدت إلى الهرب ، وعبرت الحدود ملطخة السمعة في عيون معاصرتها من الكاثوليكي والبروتستانت على السواء ، والتراجيات إلى رحمة إليزابيث .

ولو أن إليزابيث أرجعت ماري لتمثل أمام متهميها في إسكتلندا لوفرت على إنجلترا كثيراً من المتاعب . ولكن فكرة العصيان كانت تثيرها ؟ وما كانت تكنْ أي عطف على العصابة ولو كان في العصيان مصلحة لبلدها . كانت تقت جون نوكس ، وراحت تلقى باللائمة على النبلاء الإسكتلنديين للمهانة التي أحقواهم بملكهم الشرعية ، ولم تستطع أن تروض نفسها على التعاون الوثيق سواء مع الهولنديين أو مع الميجونوت . لهذا احتفظت بماري سجينـة في إنجلترا وحاولـت أن تتفاوض

ولياباها ، مقرحة شر وطاً للسلام لم تكن غير معقوله : كأن تتنازل ماري عن عرشها بجيمس السادس وتسمح له بتلقي تعليمه في إنجلترا . ولكن ماري ، التي ملأَ الانتقام نفسها واستحوذت عليها الأطماع ، فضلت أن تلعب دوراً أكثر أهمية من هذا . وفي ديسمبر وجدت من يشجعها على أن تأمل في الزواج من فيليب ملك إسبانيا .

لها أصبحت الملكة الأسيرة طيلة سعة عشر عاماً (١٥٦٨ - ١٥٨٧) مركز الدائرة الذي التقت حوله دوامة التآمر الكاثوليكي . تتابعت المؤامرات التي كان يغذيها كل من ملك إسبانيا والبابا الذي أعلن حرمان الملكة المهرطقة إليزابيث وأحل رعيابها من واجب الولاء لها ؛ كما كان يشجعها كذلك الكاثوليكي الإنجليز المنفيون في الخارج . وتألفت جمعية بروتستانية هدفها حماية حياة الملكة العظيمة التي كانت مهددة بين وقت وآخر ، بعد أن رفضت إليزابيث بإصرار أن تحمى نفسها بتقديم ماري للمحاكمة ، الأمر الذي أزعج رعيابها البروتستانت وأثار دهشتهم . وما لبث أن قام دليل واضح على تآمر الملكة الإسكتلنديه وأشتراكمها في خطة هدفها التخلص من منافسها . وحين اكتشفت مؤامرة بابنجتون Babington (١) تقدم أعضاء مجلس العموم واللوردات ملتزمين بالإجماع بإعدام « التنين الشرير الضخم ملكة الإسكتلنديين » وأخيراً وبعد تردد طويل مضن ، وقعت إليزابيث في أول فبراير ١٥٨٧ على صك الحكم بالإعدام ، ذلك الحكم الذي لم يكدر ثمة ما هو أوضح منه في تحديه لكل من البابا وإسبانيا وكل أعمالهما . كانت ماري قد تخطت ظلال شبابها العاصف القاتمة ، وغدت بطلة من أبطال القصص ، وزعيمة لعقيدة ، يراها العالم الكاثوليكي قديسة وشهيدة . وقد ساورها الشك والقلق — سابقة لإعدام ملكة متوجهة مساحت بالزيت المقدس .

وكانت إسبانيا في موقف يسمح لها بقبول التحدى : فقد وقعت كارثة في مراكش ، ومات سباستيان ملك البرتغال (١٥٨٠) وانقرضت أسرته ؛ فأدى هذا إلى ضم البرتغال إلى الناجي الإسباني . وهكذا انتقلت إلى يد فيليب الثاني بضربة

(١) مؤامرة دبرت في عام ١٥٨٦ لقتل إليزابيث ، كان محورها أنتوف بابنجتون الذي سبقت له الخدمة في بلاط ماري ، وكانت ماري نفسها تدعى هذه المؤامرة .

من ضربات الحظ غير المتوقعة البقاع الآتية : شاطئ الأطلنطي الممتاز ، ومناجم البرازيل ، والأملاك البرتغالية الغنية على جانبي إفريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية في جزائر البارو وجزائر الأزرور (وهي محطة في منتصف الطريق في عرض المحيط الأطلنطي) وجزائر الهند الشرقية . وقد قام كاتب برتغالي بعد ذلك بأربعين عاماً ، حين تبيّنت طبيعة التزال بين إسبانيا وبريطانيا بشكل أوضح . فاقتصر أن ينقل ملك إسبانيا عاصيته من مدريد إلى لشبونة ومن ثم يسوق أسطولاً مهمته الدفاع عن الهند وأمريكا الجنوبيّة في بحر المانش ؛ إذ فيه وحده يمكن حسم النزاع العالمي العظيم . ولكن أحداً لم يأخذ بهذه النصيحة فقط : فلم يلق الإسبان أي ترحيب من جانب البرتغاليين . ولم يكن بأي حال مزاج البلدين كلّاً منها بالآخر ، وإنقسم هذا (الزواج) المتعب بعد ستين عاماً . ومن عجائب سخرية القدر أن حقبة الجامعة الأيبيرية قد شهدت أزهى عصور الأدب الإسباني ، كما شهدت أيضاً الأضمحلال التدريجي لقوة إسبانيا والبرتغال . ولكن حين قام الاتحاد في عام ١٥٨٠ ، بعث في نفس فليب ملك إسبانيا الأمل في تصخم قوته ، الأمر الذي نظرت إليه إنجلترا وفرنسا بعين الخدر والشك العميقين .

على أن فليب كان لا يزال مسترسلام في تردداته . ورغم أن إنجلترا كانت تعضد حركة التدمير عند البرتغاليين وثورة الهولنديين ، فإن الملك أحجم عن القيام بهجوم مباشر على جزيرة أولئك المراطقة المخوفين ، لما يقتضيه ذلك الهجوم من تكاليف ومخاطر . وترتب على ذلك بينما فرنسا مسلولة بحرب الرجال الثلاثة المسماة كلّاً منهم بهنري^(١) وبعد أن اعترفت ماري استيوارت بفليب رسمياً خلافاً لها على عرش إنجلترا أن سلم فليب زمام التقader للبحارة ، والمنفيين والقسسين ، ودعا رعاياه إلى التأهب لغزو إنجلترا – وبذلك فعل ما فعله دون كيشوت^(٢) حين جرى وراء غاية مقدسة وإن كانت مستحيلة .

أما الأرماد الإسبانية فقد نظر إليها بروح صليبية مقدسة ، وبذلت في إعدادها

(١) هنري الثالث وهنري نافار خد هنري دوق مайн Mayenne قائد «العصبة» أو حزب غالاة الكاثوليكيك .

(٢) هو الفارس المغربي الذي صوره أديب إسبانيا الكبير مجويل سرفاتيس (١٥٤٧ - ١٦١٦) . وكان خيالياً يجري وراء الفضيلة والخير ، ويحارب الشر – أو ما يعتقد أنه شر – وإن كان شيئاً .

نفقات مزعجة وقد أقلعت من لشبونة في ٣٠ مايو ١٥٨٨ يقودها الدوق دي مدينا سدونيا Medina Sedonia ، وكان مالكاً للأرض ، غبياً جباناً ، لم يؤهله شيء لقيادة الحملة سوى مركزه وحده . وكانت الخطة تقتضي أن يتقدم الأسطول في بحر المانش إلى دنكرك ونيوبورت Nieuport ، ومن هناك ينقل جيش بارما إلى إنجلترا حيث تخلي إلizabeth وتنصب مكانها بنت الملك فيليب . وليس ثمة ما هو أكثر إعماضاً في البحرى وراء الخيال من هذه الخطة الواهية . والمنفيون داءاً مستشارو سوء : فلم يدرك الكاثوليك الإنجليز المقيمون في أوربا — وكان يستمع إليهم ملك إسبانيا والبابا — ما حدث من تغيير في مزاج الشعب الإنجليزي خلال العشرين سنة النصرة . فبقدر ما قويت الروح الپیوريتانية ، ضعفت الروح الكاثوليكية ، وجاء جيل تتمتع بالسلام والرخاء فوطد ولاء الأمة للناتج . حقيقة لم يخل الأمر من الاصطهاد ، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن قرر البابا في عام ١٥٧٠ خلع الملكة ، وإن يكن لا يقارن بفظائع التحرير في حكم ماري ، ولا بمنابع الكاثوليك في الأرض المنخفضة وفرنسا وإسبانيا . ولم يكن يوجد في إنجلترا حزب واحد يرحب بنزول قوات إسبانية أو يرضى بملكية إسبانيا . وحتى على فرض نزول جيش بارما في إنجلترا مع المعدات والإمدادات الآتية بحراً من إسبانيا ، لوحدوا أمامهم تقاومهم قوية متحدة لشعب مقدم التهبت حماسته . ولكن الخطة بأكملها انهارت على صخرة عجز الأسطول الإسباني . فإن الغاليين الإسبانية الواسعة المزدحمة باللندن الذى كان يعرقل حركتها أسلوب القتال القديم بين السفن الشراعية ذات المحاذيف ، وهو الأسلوب الذى عفى عليه الزمن ، تفوقت عليها في الحركة والسرعة سفن الأعداء . وكانت أرشق منها وأسرع . لهذا هزمت الأرماد فى معركة بحرية كبرى في جرافلينتر Gravelines ثم حطمتها في النهاية العواصف الشديدة التي هبت على بحر الشمال . والمحيط الأطلنطي . وبينما كان أسطول هولندي يحوم حول دنكرك ، مما اضطر بارما إلى البقاء على الساحل ، راح دريلك وهوكتز وفروبشن يحطمون الغاليين الإسبانية ويشتتبونها .

ولم تكن الأرمادا الإسبانية الفصل الأخير في حرب طويلة استمرت بعد وفاة فيليب الثاني وإلizabeth ولم تنته إلا في عام ١٦٠٤ ، بل كانت الفصل الأول منها .

وتميز استمرار القتال من جانب إسبانيا بتحسن عظيم في أساليب القتال في البحر لولاه لتعذر على هذه البلاد أن تصون مصالحتها الأساسية مع العالم الجديد ، وهو ما تم لها بالفعل ؛ كما تميز من جانب إنجلترا مجموعة من الأعمال الجريئة كان أبقاها نهب قادس في عام ١٥٩٧ . وقد تابع كل من الفريقين النضال على مدى واسع : فاتصل الإنجليز ببقايا المسلمين في بلنسية وأنصار دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال ؛ بينما تحالفت إسبانيا مع اليسوعيين الإنجليز والثوار الأيرلنديين ، كما أنزلت قواتها في أيرلندا للتعاون مع أودونل O'Donnell وتيرون Tyrone . وكان إنشاء مزارع مونستر في عهد إليزابيث ، يشنن باهظ من دماء الأيرلنديين ، نتيجة عارضة مؤللة لهذه المرحلة من النضال بين شيعتي البروتستان والكاثوليك في أوروبا .

وكان المصير الذي انتهت إليه الأرمادا الإسبانية أول إعلان للعالم بأن الإمبراطورية الإسبانية ليست فوق مستوى المزينة . كان من المعروف جيداً أن استعدادات الغزو قد تمت على مدى أرهق موارد البلاد إلى أقصى حد ؛ وحظي المشروع بتعضيد البابا وبركات رجال الدين وصلوات الشعب . ولكن قدرأ ما — شق على الإسبان أن يوافئوا بينه وبين كبرائهم الديني — قد جعل الأرمادا هباء متثراً على يد بحارة الشال الأبطال وعواصف السموات العاتية .

حقاً إن الإسبان لم يكونوا على استعداد للاعتراف بالهزيمة ، وإنهم ما فتقوا يواصلون النضال في فرنسا وإيرلندا والأراضي المنخفضة وفي أعلى البحار . ولكن شبح الخوف من طغيان الإسبان قد تبدد من سماء أوروبا . وأظهرت انتصارات هنري الرابع أن إسبانيا لن تستطيع أن تجعل لها موطنآ في فرنسا ، وبددت حركة كنتجسيل Kingsale آمالها في أيرلندا ؛ وفي عام ١٦٠٩ وصل بها الأمر إلى حد الاعتراف باستقلال الهولنديين . وعقدت الدول المعادية لإسبانيا الصلح كل منها في الوقت الذي رأته أكثر ملاءمة لها : فتخلى الفرنسيون عن الإنجليز ، كما تخلى الإنجليز عن الهولنديين . وحين عقد الصلح مع إنجلترا في عهد جيمس الأول في عام ١٦٠٤ اشتمل على تنازلات كرها الرجال القدماء من عصر إليزابيث : فقد تم الاتفاق على أن يكون بإمكان إسبانيا منع دخول الإنجليز إلى جزائر الهند

ومحاكمتهم أمام محاكم التفتيش . ولكن الواقع أن موجة الهجوم الإسباني قد أوقفت وأكملت الأرمادا عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد بروتستانية ، وهي العملية التي بدأتها اضطهادات عصر ماري .

وإن سلسلة طويلة من المزائِم تنزل بشعب متدين من شأنها إما أن تزعزع عقائده أو تثبّتها . وعندما كان القتال العنيف في المانش على أشده ، صاح البحارة الإسبان قائلين : « لقد تخلى الله عنا » ؛ ثم اقتفع الشعب بعد ذلك بأن العقاب قد حل به لأنَّه هجر الله . عزا رجال الدين الخسائر التي حلَّت بإسبانيا في البحر وعجزها في أيرلندا وفشل خطتها لتحويل إنجلترا عن عقيدتها وفي إخضاع الهولنديين – عزوا كل ذلك إلى وجود لون من ألوان المفرطة الحبيبة ، وبلغ الأمر من السوء أنه سمح به في إسبانيا – ومن ثم كان من روئيم أن الخطوة الأولى لإقالة البلاد من عرتها ليست خطة لإصلاح مالية البلاد أو أسطوتها ، بل استرضاء الإله الغاضب الغيور ؛ فالمسلمون إما أن يتقدموه إلى الاعتراف أو يتركوا للبلاد . واتبعت النصيحة . كان المسلمون موضع كراهيَّة لأسباب عدَّة : فهم سُرُّ البشرة ، وهم مهرة ومجيدون ، ويراهم الإسبان ملحدين في قرارة أنفسهم ، يعطُّرون على القراءة الإفريقين الذين كانوا يغيرون على الشاطئي الإسباني . لهذا لم ترحب الأمة الإسبانية بقرار أصدره فليب الثالث قدر ترحيبها بطرده لهذه الفتنة الجديدة بالثناء التي بلغ تعدادها حوالي نصف المليون من أمراء زراع البلاد وصناعها – مما أدى إلى إضعاف قدرة إسبانيا على تحمل أعباء إمبراطوريتها المتراوحة الأطراف .

وحتى نهاية القرن السادس عشر لم تكن إنجلترا قد بذلت جهداً جديداً للاستعمار في العالم الجديد . فالبحارة والساسة المغامرون الذين سخروا بملك إسبانيا لم يكونوا من تلك الطينة التي تنبت المستعمرات : وبدلًا من أن يواجهوا ذلك العمل المجهد المطرد لإقامة جاليات على شاطئ أمريكا الشمالية ، استسلم رحالة العصر الإليزابيثي لثيرات الكشف والنهب وال الحرب . ولكن فكرة الاستعمار كانت تلوح في الأفق ، وقد اجتنبت رجالاً مثل رشارد إيدن Richard Eden وسيِّر همفري جيلبرت Humphrey Gilbert وسيِّر ولتر رالي Walter Raleigh ورشارد هاكليوت Richard Hakluyt (١٥٥٣) – (١٦١٦) المبشر والطالب بعض الوقت في كرايست تشرتش Christ Church في

أكسفورد الذي كان كتابه « أهم الرحلات البحرية وأسفار الشعب الإنجليزي وتجاراته واكتشافاته »^(١) بمثابة الملهمة النثرية الكبرى التي تصور عصر المغامرين هذا ؛ وأدت فكرة الاستعمار إلى تأسيس مستعمرة على شاطئ أمريكا الشمالية أطلق عليها اسم « فرجينيا » تيمناً بالملكة « العذراء » في عام ١٥٨٤ ، ولكنها تركت بعد ذلك لتندوى بسبب افتقارها إلى المعونة الكافية ، ثم أعيد تأسيسها من جديد في عهد خلف إليزابيث . أما كيف تعمّر المستعمرات بالسكان أو كيف تحكم أو يربط ما بينها وبين الوطن الأم — فكلها مسائل لم توضع على بساط البحث في ذلك الجلو من الحرارة والانفعال الذي أثارته الحرب مع الإسبان . ولكن من الواضح أن نقل نظام الحكم في الدولة المستعمرة إلى العالم الجديد وميزاتها وحضارتها كان غريباً على ذلك العصر ؛ بل إن جلبرت وهاكليوت قد نظرا إلى المستعمرة كوسيلة في جوهرها لتقديم التجارة وتخلص المجتمع من عناصره التي لا خير فيها . ثم إن البحارة المحاربين في عصر إليزابيث لم تكن لديهم أية فكرة كيف يعالجون أمرهم مع المند الطيبين ، أهالي قارة أمريكا الشمالية . أما سير فيليب سلني Sidney Philip — الذي كان من الممكن أن يلمع نجمه في العالمين كمثل أعلى للحاكم في المستعمرات ، بوضعه مستوى يتبعه الآخرون — فقد أوقفته الملكة إليزابيث عن تولي الحكم في مستعمرة فرجينيا . ولم يبدأ الإنجليز في تعلم دروس اللباقة والرأفة ، تلك الدروس التي جعلت حكمهم للشعوب الخاضعة لهم مما يرضي عنه العالم^(٢) — لم يبدعوا ذلك إلا بخطوات بطيئة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

Principal Navigation, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation (١)

(٢) الاستعمار الإنجليزي — كأى استعمار آخر — يمتلك تاريخه في شتى البلدان التي حل بها بألوان من الضغط والاستغلال والقسوة . ولو كان قد ظهر بالصفة التي يحملها عليه المؤلف لما وجه بهذا التحدي العاصف في كل مكان .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Histories of England : Froude, (1856-70). Pollard, (1912). Fletcher, (1905-23). Trevelyan, (1926)
- J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)
- G.W. Prothero, Select Statutes and Other Constitutional Documents. (1898)
- M. Creighton, The Life of Elizabeth. (1896)
- M.A.S. Hume, The Great Lord Burghley. (1898)
- P. Hume Brown, John Knox. (1895)
- G. Lytton Strachey, Elizabeth and Essex. (1928)
- Conyers Read, Mr. Secretary Walsingham. (1925)
- A Lang, The Mystery of Mary Stuart. (1904)
- J. Skelton, The Scotland of Mary Stuart. (1894)
- R. Simpson, Edmund Campion : A Biography. (1896)
- J.S. Corbett, Drake and the Tudor Navy. 2 vols. (1898)
- J.A. Froude, English Seamen in the Sixteenth Century. (1895)
- M.A.S. Hume, The Year after the Armada. (1896)
- William Harrison, Description of England. Ed. F.J. Furnivall. (1877)
- Daniel Neal, History of the Puritans. 5 vols. (1822)
- W.B. Rye, England as seen by Foreigners in the Days of Elizabeth and James I. (1865)
- W.A. Raleigh, Shakespeare. (1907)
- G. Saintsbury, History of Elizabethan Literature. (1887)
- عن النشرات الرئيسية التي وضعها كبار من ألفوا في عصر إليزابيث ، انظر : Cambridge Modern History, Vol. 3, Chap. 11.

الفصل السابع عشر حرب الثلاثين عاماً

المأساة الرئيسية في تاريخ ألمانيا - فريديراند الثاني - الطابع العام للحرب - دور السويد - الثورة البروتستانتية في بوهيميا - حادثة اللقاء من التوازن في براغ - البليسجراف وراج بوهيميا - مدى مسؤولية جيمس ملك إنجلترا - معركة التل الأبيض - حركة المقاومة الكاثوليكية في بوهيميا - عقاب البليسجراف - تدخل الدنمارك - ولشتين - تهديد الكاثوليك في شمال - چستاف أولف يعيد التوازن - موته في لوتن - أكسنستيرنا Oxenstierna يقود حلف هيلبرون Heilbronn - مقتل ولشتين في ١٦٣٤ ، وصلاح براغ ١٦٣٥ - انتهاء الدوافع الدينية من الحرب - انتصار ريشيليو - هزائم إسبانيا - صلح وستفاليا .

ما فتئت دنيا العبرية الأوربية المزدهرة يتلاأّ سناها بأيدي أعلامها شكسبير وسرقانتيس حتى منيت بمحنة عاجلة هوت برقة عظيمة من أوربا الوسطى إلى منازل البريرية والبؤس . هنالك نشب حرب الثلاثين عاماً بسبب الفتنة الدينية في بوهيميا ، وقد كان من الممكن تحديد ميادينها ولكن أتيح لها أن تنتشر مما أدى إلى تدخل معظم الدول الأوروبية في الصراع بدرجات مختلفة . وعلى الرغم من أن الدنمارك والسويد وفرنسا وإنجلترا وساخواي والأراضي المنخفضة قد لعبت دوراً في المأساة، فقد اتخذت الحرب الإمبراطورية الألمانية مسرحها الأصيل على الدوام ، كما كان البوهيميون الألمان أوفر هذه الشعوب حظاً من الخسائر . ومن قبل كانت الطبيعة قد فرضت على الألمان جراء صاراماً . فقد كانوا بسبب موقعهم الجغرافي بعيدين عن المشروعات الاستعمارية التي أغنت حياة الأمم المطلة على المحيط خلال القرن السابع عشر - ثم أضيف إلى ذلك الوضع الجغرافي المعوق ما حل بهم عندئذ من ضيق اجتماعي نتيجة لدمار حرب قد شُنِّت بوحشية قلَّ أن عرف لها التاريخ مثيلاً . وفي الحق أن وصف حالة البؤس التي أضطر العاجزون من فلاحي ألمانيا أن تتحملها في تلك الأيام العصيبة أمر لا تشوّبه مبالغة . فكان النهب ، وكانت المجاعة ، بل أكلت لحوم البشر . وفنيت قرى بأكملها ، كما وقع ما ينتظر دائماً في مثل هذه الحزن القاسية المفجعة ، فقد انهارت الروادع الأخلاقية تاركة المجال لوجات عارمة من الفسق.

وفي بداية القرن السادس عشر كانت ألمانيا تقتعد مكان الصدارة في الحضارة الأوروبية، حتى إذا انتهت حرب الثلاثين عاماً غدت البلاد وقد أفقرت من كل أدب وفن، وتبلل لسانها، كما انحدرت أساليبها الاجتماعية وعاداتها إلى حضيض من البربرية المسكوقة.

وكان الحرك الأول للحرب يسوعياً تقلد تاجاً، وهو فرديناند صاحب استيريا الذي أصبح فيها بعد الإمبراطور فرديناند الثاني الذي ينبغي أن يُعد من عظماء الرجال العاملين في ذلك القرن، وذلك على ضوء ما أحدهه من تغييرات بوازع من نفسه. كان أول طالب يتلقى علومه في كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطوري. وكانت تعاليم يسوعيين تحكم في ذهنه المحدود المفع بالمرارة، وتسسيطر عليه عاطفة واحدة وغرض واحد: المقت الشديد للبروتستانت والتصميم على اقتلاعهم من أملاكه. فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات في استيريا عام ١٥٩٨، وواصلها في بوهيميا ثم تابعها في سائر أنحاء أملاكه المنساوية. ونجح في تحقيق هدفه وهو تصفية «المارقين». ووضع الحياة الدينية والفكرية في بلاده تحت حكم جماعة يسوعيين الجديد. ولكن المحن كان باهظاً. وهو التحطيم العنيف الذي أصاب بناء المجتمع البوهيمي بأكمله؛ وما تلا ذلك عرضاً من اندلاع حرب الثلاثين عاماً. ولن تجد في العالم رجالاً كثرين - على شاكلة فرديناند الثاني - ذوي أمانة وتقوى وعزّم قد ساقوا العالم في مثل هذا التيار الجارف من البؤس وفرضوا على عقول الناس مثل هذا العهد الطويل من الإرهاق الديني.

ومع ذلك فإن الأهداف التي تسببت في هذا النضال الطويل المملاك لم تكن تافهة. فقد كان يتوقف عليه مصير ألمانيا وانتزاعها من حركة الإصلاح الكاثوليكي فيتوقف التقدم الذي أحرزته تعاليم يسوعيين، وتخالص للكنيستين اللوثيرية والكلفنجية مساحات واسعة من الأرض في وسط أوروبا. ولكن الدين على الرغم من أنه كان أشد العوامل أثراً في التزاع وأكثرها بعثاً للمرارة في نفوس الناس، لم يكن عندئذ، وربما لم يكن على الإطلاق، الدافع الوحيد في أذهان رجال السياسة.

وقد نفت حرب الثلاثين عاماً بصورة قاطعة للغاية فكرة إمكان توحيد ألمانيا

مرة ثانية في أى وقت في ظل نظام إمبراطوري قوى . كما وضحت كذلك أن أولئك الأمراء الألمان الذين كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالكنيسة الرومانية كانوا أكثر اهتماماً بمبراكيتهم الخاصة في ولاياتهم ؛ لذلك كانوا على استعداد أن يحتفظوا بجيادهم بل يتحدون مع الفرنسيين أكثر من العمل على استعادة الإمبراطورية الكاثوليكية إلى مركز السلطان الفعلى في ألمانيا . وهكذا ثبتت الحرب الانقسامات الدينية في ألمانيا ، في الوقت الذي أكدت الفوضى السياسية فيها ، ومع ذلك فقد كان ثمة قضية أخرى ، لعبت دوراً كبيراً في دوافع ذلك العهد وأثرت كثيراً في التسوية النهائية في صالح وستفاليا (١٦٤٨) : من تווّل السيطرة في بحر البلطيق ؟ لقد انقضت أيام مجد حلف المنسا Hanseatic League إذ أن لشبونة وأندور وامsterdam ولندن قد فاقت كثيراً كلا من لويبلن Lübeck وروستوك Rostock ، « وستفاليا » Stralsund ، ودنترز بعد أن افتتحت الطرق البحرية الجديدة . فلم تعد جمهوريات الحلف الألمانية المنافس الخطير للسيطرة على البلطيق ، وإنما أصبحت المالك المتنافسة هي الدنمارك والسويد وپولندا . وكانت المملكة الأولى عزيزة الجانب بسبب سيطرتها على مضيق « سوند » Sound ، واحتلالها للولايات السويدية الجنوبية الثلاث ، وكذلك كانت السويد لما كانت يتمتع به ملوكها الممتازون من نشاط وفهم ؛ بينما راحت پولندا وكان يحكمها أمير كاثوليكي من أسرة فازا Vasa ، وكانت تحلم بأن يأتي يوم تخضع فيه السويد للنير الأجنبي ممثلاً في حكم اليسوعيين والصقالبة .

وعلى ذلك فن المظاهر المميزة لحرب الثلاثين عاماً أنه بينما كانت السويد تحارب في سبيل قضية البروتستانت ، وتساهم مساهمة حاسمة في انتصارها النهائي ، كانت كذلك تهتم اهتماماً جديداً بالحصول على السيطرة السياسية والتجارية على الساحل الجنوبي للبلطيق ، وعلى حرية استخدام السوند Sound في تجاراتها ، مما جعلها تستخدم الصراع الدیني في ألمانيا لتحقيق أهدافها ، وتتصبح في نهاية الحرب سيدة على البلطيق ، كما نالت بفضل انتصاراتها في ألمانيا مقعداً في مجلس الديات ، وأصبحت ذات أهمية عظمى في السيطرة على شؤونه . ولم يكن دور روسيا قد حان بعد . فقد انتزع منها السويد ولايات البلطيق . أما أسرة الموهنزلن أصحاب براندنبورج الذين سينالون الغنيمة في النهاية فقد كانت پوميرانيا تفصلهم عن البحر ، كما كانوا

يُحكمون بروسيالشرقية بوصفها إقطاعاً بولندياً . أما السويد فكان ذلك اليوم يومها . وللمرة الأولى منذ هجرات القوط خطت السويد ، البلد الفقير القاحل الذي يبلغ تعداد سكانه مليوناً ونصف مليون نحو مسرح السياسة العالمية وأثرت في تشكيل التاريخ ، حين أتيح لها ملك عظيم ينتهي إلى أسرة لا مثيل لها في المواهب وعلو الهمة ، تتمتع بعواطف الولاء العميق الجنوبي في نفوس الفلاحين ، فتقديم نصيراً لقضية البروتستانية ، يجعل من السويد دولة من الدرجة الأولى ، وبفضل سلسلة من الانتصارات الباهرة — قد ساهمت فرنسا في تمويلها بنصيب وافر — حول بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية .

* * *

وفي تاريخ الشعوب لحظات تتضاد فيها مجموعة متباعدة من الأسباب فتستثير أفكار الناس . وقد كانت مناسبة انتقاماء مائة عام على بدء حركة الإصلاح الديني (١٦١٧) لحظة من هذه اللحظات . ومنذ مضي وقت طويل وصراع العقائد في أوروبا الوسطى يهدد بحدوث انفجار عام . وقد وقعت أحداث خطيرة بل حدثت انفجارات صغيرة أشعلت الحرب فعلاً ولكن أمكن لحسن الحظ حصرها في مكمنها كما حدث في كولونيا عام ١٥٨٠ ، كما بلغت حالة القلق درجة من الخطورة بترت تكوين اتحاد بروتستانتي دفاعي مسلح (١٦٠٨) قابله حلف كاثوليكي متحالف مع إسبانيا . ولم يمنع نشوب حرب عامة في عام ١٦١٠ حول وراثة دوقى كليف جوليتش Cleves-Gulich سوى مقتل هنري الرابع ملك فرنسا ، حتى إذا كان عام ١٦١٨ حين مضى قرن على قيام حركة الإصلاح الديني ، وكانت حرب الدعاية قد بلغت ذروتها وغدا الجنوبيون مسحوناً بمهارات رجال الدين المتنابدين ، وصلت الأنبياء بأن فرديناند ماضطهد البروتستانت في استيريا قد أصبح ملكاً على الجبل وبöhemia وراح يرسم الطريق ليختلف ابن عمه الأكبر متياس Mathias على عرش الإمبراطورية .

وعلى الرغم من أن بروتستانس بوهيميا كانوا من الكثرة والنفوذ بحيث استخلصوا من الإمبراطور رودلف عهد التسامح (رسالة الملكية في يولية ١٦٠٩) ، فقد كانوا لا يسيطرون على تقاليد الحكم . فقد رأوا أن يشاهدو « عهدهم » العزيز

عليهم وقد قامت على تنفيذه — بما يتعارض مع « مصالحهم » — هيئة من الأوصياء أو وزراء الملك عينهم الإمبراطور « ماتias » ليديروا حكومة البلاد . وكان عهد التسامح قد منح النبلاء والمدن الملكية في بوهيميا وسليزيا ولوساتيا Lusatia حق بناء دور للعبادة ، ومارسة العقيدة اللوثيرية على طريقة أهالي بوهيميا . ولكن ذلك الحق — على ما قيل — أنكر عليهم في موضوعين ، في بروناو Braunau وفي كلسترجراب Klostergrabs بتأثير تعصب رجال الدين الكاثوليك وتوبيدهم السلطة الإمبراطورية . فهُدمت الكنيسة البروتستانتية في كلوسترجراب ، وفي بروناو سُجن البروتستانت الذين ثاروا على الاضطهاد الكاثوليكي . وإذا كانت هذه الأشياء قد وقعت في عهد ماتيات ، فماذا يبقى للبروتستانت منأمل في أيام أصنف في عهد فرديناند ؟ لقد اشتدت عزائم جميع اليسوعيين في البلاد عندما أُعلن أن مضطهدهم البروتستانت في استيريا قد خدا ملكاً وأنه سيصبح عما قريب إمبراطوراً . وتحت زعامة أحد النبلاء الكثليقيين ويُدعى « هنري ماتيات أوف ثورن Henry Matthias of Thorn قرر البروتستانت في بوهيميا القيام بالثورة .

وقد أحب نبلاء بوهيميا على المرسوم الملكي الذي يحرم البروتستانت من عقد المجالس بعمل ذات شهرته : وهو حادث الإلقاء من النوافذ في براغ Defenestration of Prague الذي أشعل لهيب الحرب الطويلة . وكان في الحكومة وزيران كاثوليكيان يُدعيان مارتنيتز Martinitz وسلواتا Slawata وقد حملما خزي السياسة الملكية ، وكانا بصفة خاصة على صلة وثيقة بالحكومة الأخيرة البغيضة . وفي خلال مقابلة عاصفة جرت في هاروشين Hardshin في القصر الحصن الكبير القائم الذي يشرف على المدينة أولئك الشعب من إحدى نوافذ القصر بهذين الوزيرين ومعهما سكريتير خاص إلى خندق الحصن ؛ ولقد كان عملاً جاء نتيجة لحدة متعمدة قصد به توجيه إنذار إلى كل من يهمه الأمر : بأن صبر البروتستانت في بوهيميا قد نفد ، وأن الكثليقيين قد أصبحوا أخيراً على استعداد لتصويب ضرباتهم .

ولاحت عندئذ فرصة عظيمة لمنتخب سكسونيا اللوثري وللاتحاد البروتستانتي : فلو أتمهم أعلنوا بخلاف باسم هذه الكتلة من الأمراء الألمان التي اكتسبت نفوذاً أنه يجب احترام عهد التسامح ، وأقنعوا هيئة المنتخبين بأن تُصرّ على ذلك كشرط

سابق لانتخاب فرديناند إمبراطوراً إذن لا أصبح في الإمكان تهدئة الحال في بوهيميا ، ومنع وقوع الحرب . ولكن الاتحاد البروتستانتي كان يعوزه الإقدام وبعد النظر . فلم يقاوم الثورة ، كما أنه لم يمنحها المساعدة الفعالة ، واعتلى فرديناند عرش الإمبراطورية غير مقيد بأى شرط (في عام ١٦١٩) .

لم يكن للبروتستانتية في بوهيميا قط كيان قوى متحدة . فكان لزاماً عليها أن تبحث في الحلفاء وإلا فنيت . فوجّهت أنظارها شرقاً ناحية الأتراك وبروتستانس المجر ، والتمسّت المساعدة المريبة لدى أمير كلتشي بربى غريب الأطوار من ترنسلافانيا يدعى بثلين جابور Bethlen Gabor ؛ كما اتجهت جنوباً نحو البروتستانت في النمسا ، أما غرباً فاتجهوا ، نظراً لحمود سكسونيا وضعفها ، نحو ذلك الحصن المنيع للكلتشية : وهو إقليم الپلاتين . وبعد أن أُعلن البوهيميون خلع فرديناند قدموا التاج لفرديريك الخامس ليكون ملكاً عليهم وهو منتخب الپلاتين ، أو الإلسجراف كما كان يعرف في إنجلترا .

وقد قدر لهذا الإلسجراف أن يصبح في نظر البيوريتانيين الإنجليز المسيطرین في ذلك الوقت بكل قضية البروتستانت في القارة الأوروبية — كانت أمه بنت وليم الصامت ، وزوجته إليزابيث الحمillaة ابنة جيمس الأول ملك إنجلترا في ذلك الوقت . وقد كان جميع البروتستانت الإنجليز من أصحاب النخوة على استعداد لامتناع الحسام في سبيل الأميرة الإنجليزية وقد بدا زوجها الألماني الشاب الرعيم الختار لقيادة الثورة ضد النمسا وإسبانيا — وقد راجت في لندن فكرة وجوب إرسال بعض الإنجليز للمساعدة في الدفاع عن الپلاتين في الوقت الذي يتوجه فيه الإلسجراف لنجدته بوهيميا :

وكان جيمس الأول لا يوافق على هذه الحماسة الطبيعية العديدة المشهورة ، وإن كانت خالية من الحكمة والتعقل ؛ وقد بدا هذا الملك من بعض الوجوه أكثر استئثارة من شعبه . كان يؤمن باتحاد قام بين إنجلترا وإسكتلندا ويرى أنه قد آن الأوان لأوربا بعد هذا النضال الدیني الطويل الداهي أن تصطنع شيئاً من السلام والتسامح ، ولذلك عقد صلحًا مع إسبانيا عام ١٦٠٤ لم يرض عنه الناس ، كما أخذ يتفاوض لعقد زواج — كان أشد إثارة للسخط — بين ابنه وأميرة إسبانية ، وقد كان

متأثراً بسفرير مضلل محنك ، وإذا به يفاجأ بالعرض البوهيمي وهو يعلم علم اليقين
بشعور رعایا .

وإن سياسيّاً أربىً بعيد النظر كان جديراً به أن يستخدم كل جهوده لتحويل
البلسجراف عن الشروع في محاولة يائسة من شأنها أن تقدم في الحرب أوربا من
الكريات إلى الريان . ولكن جيمس امتنع عن استخدام نفوذه على زوج ابنته ،
ذلك النفوذ الذي كان ولا شك يملكه عليه . وعلى ذلك فهو يتحمل نصيباً ثقيلاً من
المسئولية عن الشرور التي نجمت عن ذلك .

أما النتائج فكانت كما يلي ، فإن البلسجراف الذي لم يكن بطلا وإنما كان
شاباً خجولاً لا تجارب له خصص لإلحاح الكلفنيين المتسرعين -- ودون أن يحسب
للعواقب حساباً قبل أن يتوجه ملكاً على بوهيميا . ولكن معركة واحدة حاسمة على
التل الأبيض White Hill . على بعد بضعة أميال خارج براج (نوفمبر ١٦٢٠) كانت
كافية لتقرير مصيره . ولو كان له حظ من شجاعة لربما حاول أن يجمع شتات
الهاربين ، ولكن الكلفني الشاب اكتفى بالفرار مع زوجه الجميلة تاركاً بروستانت
بوهيميا تحت رحمة فرديناند . ولم ير هذا العاهل الذي كان يؤيده وقتل عصبة
الكاثوليك ولوثريوسكسونيا ما يدعوه إلى أن يترفق بثوار تآمروا مع الأتراك ، وهددوا
فيينا وضعوا على عرشه هرطقياً أتوا به من أقصى ألمانيا . فصمم على استئصال الدينية
البروتستانتية من بوهيميا ، وقد صادف هذا التصميم نجاحاً لم يشاهد له نظير في
تاريخ الاضطهاد إلا في أحوال نادرة . ولم تلبث البلاد أن خضعت للحكم النمساوي
عن طريق المصادرات الواسعة النطاق والقمع الذي لا يرحم . وفرض الألمان
سلطانهم على التشيكين بطريقة غير محتملة ، كذلك الذي فرضه الإنجليز
المستوطرون في إيرلندا ، وقد بي قائماً لا يكاد يتزحزح حتى القرن التاسع عشر .
فحكم الموظفون الألمان في « هارдин » ، وسيطر رجال الدين اليسوعيون على التربية
من Clementinum (١) . وفي أعقاب النباء الألماني والمغامرين والموظفين والقسسين
اليسوعيين والرهبان والكاوبوسيين أتى الفقهاء الألمان يبشرن بالمبادئ الأتوقراطية للقانون
الروماني . وتحت وطأة تلك المبادئ الصارمة بات الفلاحون البوهيميون تحت بواطي

(١) Clementinum دير أنشأ الرهبان الدوبينيكان وأعطيه فرديناند الأول اليسوعيين في ١٥٥٦ .

الأقدام وأصبحوا أقناناً . وهكذا كانت النتيجة الأولى لغامرة الإيسجراف إحداث حالة من الاسترافق في أوربا .

أما النتيجة الثانية فكانت أن أصدر الإمبراطور أمراً باعتبار الإيسجراف خارجاً على القانون وطرده من حظيرة الإمبراطورية ؛ وبمقتضى السلطة التي يملكها نقل الإيلاتين مقاطعته ومنتخبيه إلى مكسميليان Maximilian صاحب بفاريا ورئيس الحلف الكاثوليكي وقائد الجيش الذي انتصر في موقعة التل الأبيض . وكان حينها أن يتبع هذا الأمر انتقال ميدان الصراع من بوهيميا إلى الراين ، ويستأنف بذلك الصراع كما كان على أشدّه . وكان إقليم الإيلاتين معقل الكلفالية الرئيسي في غرب ألمانيا – فن إقليم الإيلاتين خرجت الجيوش مؤيدة ثورة الميجونوت في فرنسا ، وجهود الهولنديين لخلع الثير الإسباني عنهم . وعلى الرغم من أن الإيسجراف لم يكن أهلاً لتقدير إخوانه في العقيدة ، فإنهم لم يكونوا على استعداد لرؤيته وقد طرد من لايته ليتوالها أمير كاثوليكي ، أو أن ينقل منصبه الانتخابي بصفة دائمة إلى الفرع الأصغر من أسرة « وتلساخ » Wittelsbach . ولما كان دايت راتشبورن Ratisbon يشاركون شعورهم إزاء اللقب الانتخابي فقد استخلص من الإمبراطور ، عن طريق التراضي والتوفيق ، أمراً بأن لا يتمتع مكسميليان باللقب الانتخابي إلا لمدى الحياة فقط ، ولكن الممتلكات كان لها شأن آخر . فإن هذه الأموال قد عزّيت وأعيدت قسراً إلى حظيرة الكاثوليكيّة : إقليم الإيلاتين الأعلى شمال (راتشبورن) على يد مكسميليان ، وإقليم الإيلاتين الأدنى على يد « تيلي » Tilly القائد الكفء لجيش الحلف وأصله من الوالون – وقد قبل الدايت بقاء هذه الأقاليم خاضعة للحكم الكاثوليكي . وهكذا بلغ مدى انتصار الكاثولييك فانزرت بنجاح من يد البروتستانت بوهيميا أولاً ثم إمارة الإيلاتين الانتخابية .

وكان حينها على الكلفنيين إذا أرادوا أن يستردوا هذه الأقاليم الحيوية أن يبحثوا عن حلفاء بسبب نتيجة ثلاثة لغامرة الإيسجراف وهي انحصار سكسونيا واللوثريين إلى جانب الإمبراطور ، كما أدت فعلاً إلى حل الاتحاد البروتستانتي . وإذا كان اللوثريون السكسونيون قد انضموا إلى كاثولييك بوهيميا للقتال في حرب فريديناند في سبيل القضية الكاثوليكيّة في بوهيميا فإن في ذلك لإيضاحاً جليّاً للذك النفوس المستحکم

بين معنني اللوثرية والكلقنية ذلك الفور الذى ساد منذ البداية وكان أكثر من مرة شعماً على التوجيه الحكيم لقضية البروتستانت . ولكنه يدل كذلك على حقيقة سياسية أخرى هامة وهى إغراق منتخب سكسونيا في رجعيته ونفوره من تشجيع البدع الصارحة ، ورغبته في العمل مع الإمبراطور طالما كان ذلك ممكناً .

وعندما اشتدت الحنة بالبروتستان المقاتلين في ألمانيا طلبوا المعونة من كريستيان Christian ملك الدنمرك فقدمها لهم ولم يدفع هذا الملك اللوثري ليتدخل في الصراع الألماني اهتمام بالغ بالعقيدة البروتستانتية بقدر ما دفعه شهرة جارفة للحصول على معظم من الأراضي الكاثوليكية . وكان بين هذه الأغراض الحصول لأنباء على حصة محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات في شمال ألمانيا . ولما لم تكن الرغبة في أملاك الكنيسة أمراً مقصوراً على الدنمرك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستان في سكسونيا الدنيا ، فإنه لم يكن من المعتذر مع شيء من التشجيع من الملكية الإنجليزية أن يقوم بين الطامعين لون من التحالف وأن يجمع جيش وتوضع خطة للمعركة .

وبينا كان يدبر كل هذا في الشمال ، طرأ تغيير هام على التوجيه الحربي للقوات الكاثوليكية . فإن الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثوليكي في بوهيميا والإيلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيادة فريديناند ، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قيادة مكسميليان صاحب بشاريا . على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه — وقد يغدو منافساً له — وكان أمراً لن يطيقه الإمبراطور . فتطلعت السياسة الإمبراطورية إلى جيش إمبراطوري يخضع لقيادة إمبراطورية . ومن هذه الضرورة ظهرت شخصية غامضة وقوية هي شخصية « ألبرت وينسلاس ثون ولدشتين Albert Wenceslas Von Waldstein Friedland الذي يعرف غالباً باسم ولنشتين Wallenstein وكان الرجل من نبلاء بوهيميا نشأ وترعرع يوتراكي Ultraquist^(١) . وقد برزت مواهبه في الحروب ضد الأتراك . أما في الناحية الدينية فقد كان حظه منها باستثناء علم الفلك ضئيلاً أو لا يساوى شيئاً . أما شهواته العنيفة

(١) أطلقت هذه التسمية على أنصار هن في بوهيميا ، الذين سمح لهم باستخدام الكأس في تأدية الطقوس الدينية Communion Service .

فقد كان له منها حظ يكفي لتشييد إمبراطورية أو إخلافها . كان يملك ثروة هائلة لأنه قد ربح من الحروب ، ومن المضاربة في الأراضى ، ومن كل شيء لمسه ؛ وبقدر ما كان طموحه كان مصيره في الحياة . وما زال قصره الفسيح في براج ، بهمايله وأروقته الإيطالية ، وأبهائه الطويلة ذات النهايات البهية ، ولوحاته ذات القماش المزركش بالرسوم وصوره وتحفه يشهد بذلك ولنستين وعظمته وانتصاراته . تقدم هذا الرجل عنده إلى الإمبراطور يعرض عليه أن يقدم لفرديناند جيشاً على نفقته الخاصة غير مشترط شيئاً إلا أن يحفظ جيشه بالغنم بينما يكون من نصيب الإمبراطور ما يغم من المدفعية والذخائر .

والحرب التي شنها البروتستانت في سنة ١٦٢٦ من محاولتين منفصلتين انتهت كل منهما بكارثة : إحداها القيام بهجوم ضد الجيوش الإمبراطورية في الشرق بالاشتراك مع أمير ترانسلفانيا ، والأخرى زحف جيش آخر من الدنمرك لمقاتلة جيش الحلف الكاثوليكي . ولم يتم شخص عن المحاولة الشرقية غير موت مانسفيلد Mansfield في قرية بعيدة من قرى البوسنة ، وكان من أمره قواد البروتستانت . أما في الدنمرك فقد كانت ضربة مخطمة محكمة في لوتر Lutter بثورنجيا Thuringia (٢٧ أغسطس) كافية لتوطيد انتصار « تالى » ولنستين ، ولفتح الطريق إلى شلزويج هلشتين Schleswig Holstein أما زحف القوات الكاثوليكية ، وإبعاد الدنمركيين ، فلم يعودوا يشكلون عاملاً خطيراً في القتال .

للمرة الثانية هوت قضية البروتستانت إلى درك سحق ولكن للمرة الثانية كان انتصار الإمبراطور الكامل بعينه سبباً في تحريك عوامل مضادة كان من شأنها أن تحد من هذه الانتصارات . في غمرة الابتهاج بالفوز لاحت للمتخفين الكاثوليك فكرة كانت طبيعية وإن تكون غير حكيمة تربت عليها نتائج بالغة الضرر بمصالح الإمبراطورية . منذ ١٥٥٢ انتقلت حصة كبيرة من الثروة الكنسية من الكاثوليك إلى البروتستانت متضمنة في شمال ألمانيا أسقفيتين عظيمتين واثنتي عشرة أسقفية . ومن هذا القدر الضخم من الموارد ، كان جانب يصرف بطريقة مشرفة للقيام بمحاجات الكنيسة اللutherية ، وجانب آخر يصرف بطريقة أقل كرامة لمساعدة الأمراء الزمنيين لتوفير ما يحتاجون إليه من الضروريات والكماليات . ثم تقرر الآن برسوم

٦ مارس ١٦٢٩ أن تعود كل هذه المغامم إلى أصحابها من الكاثوليك – ونستطيع أن نتصور مدى ما أحدثه هذا الأمر من اضطرابات بين البروتستانت الذين وضعوا أيديهم على هذه الأماكن ثم اضطروا تحت ضغط قوى ولنشتين العاشرة إلى التخلص منها بعد أن مضت عليهم سنون طويلة وقد اعتادوا أن يدعوها أملاكاً خاصة ، بل إن الكاثوليك بدعوا يتذمرون عندما تبين لهم أن الآباء اليسوعيين قد أخذوا يتصرفون إلى بيع لم يطأها قدم يسوعي من قبل ، وأن مشرعواً يدبر بإشارة من ولنشتين يقضى بإنشاء إمارة من أربع أسقفيات غنية في شمال ألمانيا لتكون ملكاً وراثياً لأحد الأمراء . وأخذ الألمان الكاثوليك منهم والبروتستانت يتتساءلون عما يترخص بهم من سوء بسبب مكانة ولنشتين وأعماله ؛ فإن جيشه العظيم المجنح من كل إقليم وكل عقيدة قد قام بهب الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . أكان هذا الجيش يمهد لصاحب أنه يصبح طاغية على ألمانيا ؟ أم كان هذا القائد يسعى لينشئ مملكة لنفسه ؟ ثم أكان هذا الحماس الملتهب للكثلكة قناعاً يخفى وراءه مؤامرة تستهدف هدم حرية الألمان لصالح الفسا وحسب ؟ جالت هذه الشكوك في أذهان الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك في ألمانيا ، وكان مكسميليان صاحب بشارب بابويّا مخلصاً ، ولكن لم يقاتل في معركة فردیناند بالتل الأبيض كي يمهد السبيل لقائد بوهيمي ليجعل الأمراء الألمان عند موطن قدميه . وفي دایت راتشبوون (يولية ١٦٣٠) ، أصر مكسميليان على عزل ولنشتين ، ولشد ما كانت دهشة ألمانيا عندما أجب إلى طلبه .

وأفادت فرنسا تحت زعامة الكاردينال ريشليو قائدة سريعة وباهرة من هذه الثورة التي ذر قرناً ضد سيطرة الفسا . فأزالت شكوك بشارب ببابويّا بمقتضى معاهدة سرية ، ورتبت تمويل القوات السويدية التي أعدت لاحتياج ألمانيا (معاهدة باروالد Barwalde في ٢٣ يناير ١٦٣١) حتى تُقليل عثرة قضية البروتستانت .

وإن جستاف أدولف ملك السويد ينبغي في مجال التفاضل البشري أن يحتل أرفع مكانة ؛ كان لغويّاً بارعاً ، إذ كان يتكلم ثمانى لغات ، جندياً عظيماً ومدرباً ماهراً للجند ، سياسياً يتميز بمعطامعه الواسعة ولكن غير المتعددة ؛ كان مخلصاً ، عاطفياً ، مؤمناً بالعقيدة التي ورثها عن آبائه . وإن جستاف أدولف ليفوق معاصريه من السياسة في نشاطه وبساطته واستقامة خلقه . وبالحملة سيطرت عليه طوال حياته

المصالح العظمى لبلاده وعقيدته . كان يأمل أن يؤمن للسويد نصيباً آمناً متفوقةً من تجارة البلطيق لا ينافسه فيه أحد ؛ وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، وكذلك لتكوين درع واق من بولندا والروسيا تطلع إلى الاستيلاء على شريط طويل من الساحل الجنوبي للبلطيق ؛ أما في سبيل القضية البروتستانتية في ألمانيا فكان يعمل على تحقيق النصر على الكاثوليكية والحصول لها على أراض أكثر تسعاءً لتكون آمنة من الاعتداء .

وقد أمضى فترة شبابه في الحرب . فحارب الدنمارك وروسيا ، ثم حارب سigmund فازا Vasa ، ملك بولندا الكاثوليكي وهو ينتهي إلى أسرته نفسها وكان يحلم بالحكم في السويد وينشر العقيدة الكاثوليكية فيها . وفي خلال هذه الحروب العصبية تحت أجواء بولندا القاسية ، شكل جستاف الأداة الحربية التي أكسبته الشهرة في تاريخ فن الحرب .

وإن الجيش السويدي الذي كان يحوى خلاصة من الإسكنلنديين الأشداء دائمًا ، اشتهر أساساً بخمس خصائص . كان أفراده يلبسون زياً مخصوصاً . وكانت فرقه صغيرة وجمعة بحيث تكون سريعة الحركة . وكانت مدفعية الميدان خفيفة متحركة سهلة الاستخدام تعمل ببراعة عظيمة ، وتعزز المشاة . أما البنادق فكانت من نوع أفضل من ذلك الذي كان يستخدم عندئذ بصفة عامة . وفرقه الفرسان بدلاً من أن تركض نحو العدو وتفرغ فيه رصاصها على الطريقة الهولندية ، ثم تستدير راكضة لتعمر بنادقها ، فإنها تعمر السلاح في موضعها بصلب مكشوف . وبالإضافة إلى هذه المزايا كان لها من معدن قائدتها ما لا يقدر بثمن . كان جستاف يسيطر على كل صغيرة ، ويساهم في كل عناء ، ويتعرض لكل المخاطر ، وينهز كل فرصة ليثبت في أتباعه خفاف الحركة أقوية العزيمة روح الاحتمال والطاعة والموت إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

و قبل أن يبرم جوستاف معاهده الشهيرة مع فرنسا كان قد وصل إلى جنوب بحر البلطيق ووطد أقدامه في كل من بروسيا الشرقية وبولندا الغربية . وإذا كانت قد خابت له يوماً ما بعض الشكوك عن جدوى حرب يشنها في ألمانيا للانتهاص من نفوذ الإمبراطور فقد بددتها بعض العلامات الواضحة التي أظهرت عداء فرديناند .

فإن الإمبراطور الذى كان يتمسك بأن عرش السويد من حق ذلك الشخص الكاثوليكى من أسرة فازى الذى كان يحكم فى بولندا ، لهذا رفض أن يعرف بجستاف ملكاً على السويد . وإن الأمر لا يحتاج إلى بصيرة ثاقبة لاكتشاف ما وراء هذا الرفض من خطة لتدبير إعادة الكاثوليكية إلى السويد عن طريق سجسموند ملك بولندا .

وهكذا في الوقت الذى بسط لنشتين سلطانه شمال ألمانيا ، بل ذهب أبعد من ذلك فتقدم لمحاصرة سرالسند Salsund ، قرر جستاف أن الوقت قد حان ليضرب بشدة في سبيل السويد والعقيدة البروتستانتية ؟ وقد كان فرديناند عدوًّا له لاعتبارات ثلاثة منفصلة : بصفته صديقاً لبولندا وحامياً للكنيسة الرومانية ومناسباً مباشراً لملك السويد على السلطان في بحر البلطيق ثم قد بدا أن ألمانيا بأسرها قد جئت عند قدمي الإمبراطور . ولكن على الرغم من الآراء الكريمة التي عرف بها جستاف وأفقه الواسع فيما يتعلق بتكوين اتحاد بروتستانتي في ألمانيا ، فإن ذلك الملك الذي لا يقهرون وحصن العقيدة البروتستانتية وأسد الشمال ، ومصدر الرعب للنمسا لم يصل إلى أبعد مما وصل إليه الدنماركيون في سبيل حل تلك المشكلة المتنازع عليها وهي منح ألمانيا السلام الديني .

غداً أسلوب جستاف في الحرب نموذجاً يتدارسه طلاب الفنون العسكرية في كل أنحاء أوروبا وكذلك في إنجلترا حيث قدر للحروب الأهلية أن تبين ذلك .
شن جستاف حرباً سريعة ناجحة في شمال ألمانيا ، وحقق انتصاراً باهراً على الأعداء الغفيرة التي كان يقودها تللى في برتفيلد Breitenfeld (١٧ سبتمبر ١٦٣١) ، وتقدمت القوات البروتستانتية نحو براج شرقاً ونحو مينز Mainz وورمز Worms غرباً ، ثم جاءت هزيمة تللى الأخيرة في ليك Lech ، ودخول جستاف ميونخ وقد ألغت كلها عملاً جليلاً يهر الأبصار ، وقد ظل مدة طويلة يجتذب إعجاب أوروبا . وفي أقل من عامين انقلب حظوظ العقادين المتنازعة انقلاباً شديداً .

ولكن المظاهر في الانتصارات السويدية كان يفوق الجواهر ، إذ لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبى لا يتناقضى أجرأً طيباً ولا يعيش إلا على خيرات البلاد . فتوانى بروتستانت ألمانيا في مساعدة السويديين وقد اتهموهم بحق بأن الحصول على أرض ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسية . وعلى الرغم من آمال ريشيليو

فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التي قام بها الجندي السويديون، لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء؛ على ذلك هاجمت كل من السويد وبفاريا الأخرى بدلاً من المجموع المشترك على فرديناند. وقد خرج جستاف من هذا الصراع متضرراً. ولكن كان في انتظاره جيش إمبراطوري أعاد تكوينه ولننتهي وأصبح قائداً له. وكان في انتظاره ليحاسبه حسابة عسيراً. وكان هذا الجيش من القوة بحيث استطاع أن يطرد السكسونيّين من بوهيميا، وبحيث أصبح بعد أن انضم إلى قوات مكسميليان ستين ألفاً. وفي نورمبرج Nuremberg عندما تحرش جستاف بالقائد البوهيمي الكبير نزلت بجيشه أول هزيمة. وعلى الرغم من أنها قد استردت كرامتها بسهولة في الميدان المخضب بالدماء في لوتنز Lutzen (١٦٣٢ نوفمبر ١٦٣٢) فلم تجد شجاعة السويديين كثيراً لأن الملك - دون علمهم - كان قد سقط صريعاً في المعركة. وذكر أنه عندما سأله أحد المtourعين عن اسمه عندما كان ملقى على الأرض مشخناً بجراحه المميتة قال: « أنا ملك السويد الذي يقع على عقيدة الشعب الألماني وحراته بدمه ». .

واستمرت الحرب وقد فقدت بوفاة جستاف البقية الباقي من مثلها العليا البروتستانتية - ولم تكن السويد على استعداد للانصراف عن نضال قد أعطاها حصن بوميرانيا المكين ، وغنائم كثيرة من المدن الغنية ، وصوتها مسموعاً في مجالس أوروبا . وإذا كان جستاف قد اختفى من الميدان فقد كان لا يزال هناك الوصي السويدي على العرش في فترة قصور من ابنة الملك الراحل الطفلة . وكان هذا الوصي سياسياً حكماً قد شارك الملك الراحل في موضوعات اهتمامه وأحلامه ، وحمل لمدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية ، كما جمع كل مقاليد السياسة الخارجية في يديه - وقد صمم ذلك الوصي « أكسنستيرنا » Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستانتية . وكان رهن إشارته ضباط جستاف الذين كانوا يعتبرون المعارك مذاق الحياة . وبفضل مساعدتهم مضافاً إليها جهود الفرانكونيين Franconian ، والسوابيين Swabian و دائرة الراين (معاهدة هيبلبرن Heilbornn في ٢٣ أبريل ١٦٣٣) ، كان المستشار السويدي لا يزال يأمل الاحتفاظ بمركز يجعله قادراً على ضمان صلح موقق للسويد والقضية البروتستانتية .

أما ولنشتين فكان ، وهو أقل تشبيهاً بأهدافه ، يفكر في خطة لتسوية المسألة الألمانية .

أما المجلس اليسوعي في ثينا ، فإن سلوك القائد البوهيمي العظيم عقب موقعة لوتن Lützen قد بعث فيهم أظلم الشكوك ، في بينما هو جامد في الحرب ، كان نشطاً في ميدان السياسة. وبينما كان متوقعاً أنه سيستغل إلى أبعد الحدود نتائج معركة لوتن ، ظل مقيماً في كسل بوهيمييا يفاوض السكسونيين. ولم يدفعه وقوع راتشبورن Ratisbon في يد السويديين ولا فزع ثينا إلى العمل الفعال . فإن أفكاره وقد أثرفي توجيهها ما أصابه من سامة المرض ، وكذلك الطموح الغادر قد أصبحت تتجه إلى تحقيق سلام عام . ألمانيا لا يقوم إلا عن طريق فرض نفوذه وحده ، ولن يكون الصالح الذي يوده ولنشتين صلحاً يسوعياً ولكن يوده صلحاً بوهيمياً مبنياً على النسامح إلى حد لا يرضى عنه الآباء اليسوعيون . ولربما — وإن لم يكن هذا أمراً أكيداً — حوى الصالح أيضاً بين شروطه تاج بوهيميا ولنشتين . ولكن لم يتحقق ولنشتين شيء من هذه الأحلام . وتقرر في ثينا أن من الخطورة يمكن الإبقاء على هذا الرجل حياً . وقد كان فرسان الدragون الأيرلنديون في معسكرهم «بإيجر» Eger على استعداد لاغتياله (١٦٣٤) .

وصدرت عروض الصالح الفعالة الأولى من ذلك الركن في ألمانيا الذي أظهر منه بداية الحرب أقل قسط من القابلية للقتال : وكان قتال اللوثريين زرعاً ليناً لا يفلح إلا في ضوء الانتصارات السويدية . وعلى ذلك عندما دُحر برنارد Bernard صاحب ساكس فيمار Saxe Weimar وهومن Horn — القائدان اللذان آل إليهما إرث جستاف . وفي معركة نوردلنجن Nordlingen الحاسمة ، اتقل كل الجزء الجنوبي الغربي من ألمانيا بضربه واحدة من السيطرة السويدية إلى السيطرة الإمبراطورية . ولم يكن صلاح براغ Prague (١٦٣٢) عملية شريفة ذلك لأن اللوثريين لم يلفظوا حلفاءهم السويديين فحسب ، بل تعهدوا بمساعدة النساء لطردهم من ألمانيا — ولكن الصالح أحكم من الحرب على الدوام ؛ فإن صلاح براغ الذي قد اعترف به تقريباً في نهاية ١٦٣٥ جميع الأمراء المهيمن والمدن الحرة في ألمانيا كان تسوية طيبة وحكيمة بقدر ما سمحت به الموقف عندئذ . فقد حصل الموقعون البروتستانت على ضمان أسلوبهم

في العبادة ، وعلى استيفاء الأراضي والإيرادات إلى كانوا قد أخذوها من الكنيسة الرومانية مدة خمسين عاماً .

ولكن في هذه اللحظة التي لاحت فيها بشائر السلام العام ، دخلت الحرب في طور جديد علماني تماماً ؛ فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الديني الذي تميزت به أصلاً ، واحتفى في غمرة النضال بين أسري البوربون والهبيسبرج للسيطرة على أوربا . فلم يكن هناك حفلاً إلا قدر ضئيل من الروح الدينية القديمة في نضال اتحاد فيه فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستانتية مع جمهورية هولندا البروتستانتية (في معاهدة كامبيين Compiègne ٢٨ أبريل ١٦٣٥) ضد ألمانيا اللوثرية والمنسأ الكاثوليكية وإسبانيا الكاثوليكية وأخذت سافوئي تبيع فيه صداقتها تارة لهذا وتارة أخرى للذاك ؟ وعندما أصبحت المسائل الخطيرة موضع التزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطقوس الدينية ، وإنما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ بپوميرانيا ولفرنسا باستبقاء الألزاس . فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة ولكنها امتلأت بعمليات الرمح والتراجع والمحاصر والتسليم والحرق عمداً ، والقتل وكل ألوان النكبات التي كان في مقدور الفرق المترفة المتوجهة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة . وقد تبين أن المدبر الرئيسي لهذا الدور الطويل من الكرب الشديد والغوضى هو أحد كرادلة الكنيسة الرومانية . فخلال ثمانية عشر عاماً (١٦٤٢ - ١٦٢٤) ما فتئت عبقرية ريشيليو السياسي ، رئيس وزراء لويس الثالث عشر تسيدت على مسرح الحوادث الأوربية . ولكن هذا الخبر المستبد كان يفتقر إلى كثير من الصفات الضرورية للرجل السياسي : إذ لم يكن يفقه شيئاً في الاقتصاديات ولا المالية العامة . فعل الرغم من المدة الطويلة التي تمتع فيها بسلطان مطلق لم يحرك ساكناً لعلاج ارتباك النظام المالي في فرنسا وما به من فساد وظلم ، مما أدى في النهاية إلى القضاء على الملكية . كان عديم الاكتتراث بالجانب الإنساني كله في ميدان السياسة . ولكن ثمة قضية واحدة فقط كرس لها في إصرار ذهنه الرائق المنطقى الذى لا يرحم . ولم يشغل تفكيره شئ عن العمل لعظمة فرنسا بالمعنى الذى فهمه من هذه العبارة سلسلة طويلة من السياسيين الفرنسيين من مازران ولويس الرابع عشر إلى دانتون ونابليون وديلوكاسيه Delcassé وكليمونصو Clémenceau وبيانكاريه

Poincaré و تلميذه Tardieu . وقد وضع لنفسه منذ البداية ثلاثة أهداف : تحطيم التفوذ السياسي للهيجونوت ، وكسر شوكة النبلاء ، وجعل اسم الملك مهابةً ومحظوماً فيسائر أنحاء أوربا . وقد حقق الهدف الأول تماماً ، بينما حقق جانباً من الهدف الثاني . أما الهدف الثالث ، وكان يتضمن تقطيع أوصال ألمانيا وإضعاف إسبانيا فقد قطع في بلوغه شوطاً بعيداً .

ومن الأدلة على خلوه من روح التحيز الديني أنه أثناء حارنته العظمى ضد الهيجونوت لم يتورع عن طلب مساعدة البروتستان وألزم المولنديين كشرط لحصولهم على المساعدات المادية من المالية الفرنسية . أن يساهموا في إخضاع حصن لاروشيل La Rochelle العاصمة الشهيرة للكلتشية في فرنسا . ومهما كان الشعور إزاء هذه المهمة كريهاً في أمستردام ، فلا شك أنه من وجهة النظر الواسعة للمصالح البروتستانتية ، كان من الخير تجريد الهيجونوت من قدرتهم على مضيقاًة الحكومة الفرنسية . فإن هذه الأقلية المسلحة التي كانت تسيطر على مائة مدينة محصنة وكانت بمثابة كتلة من الجرانيت وقفت حجر عثرة في طريق النور القومي . طالما كان الهيجونوت يكونون دولة داخل دولة في فرنسا فإن ريشيليو كان عاجزاً عن تنظيم صفوف الأمراء البروتستان في قارة أوربا ضد أسرة المسبورج . والواقع أن فرنسا لم تقدم لتساهم بذلك النصيب العظيم في توجيه حرب الثلاثين عاماً التي أكدت الانقسام الديني وخلقه إلا بعد أن تخلصت من هذا الارتباط الداخلي (١٥٢٩) .

ولم يقف النبلاء حجر عثرة في طريق ريشيليو ، فأعدم مونفورنسى Montmorency أعظم نبلاء فرنسا بسبب تآمره – وفي سبيل موازنة نفوذ الأرستقراطية ، أنشأ تدريجياً نواة الأداة المدنية المركزية (عمال الملك في الأقاليم) (١) ، وكذلك أقام جيشاً وأسطولاً لخدمة الملك خدمة دائمة :

إن الباحث في فن الدبلوماسية ، إذا حول أنظاره عن الآلام البشرية ، ليعجب بالمهارة التي استخدمها هذا الخبر المسيحي كى يطيل من أمد حرب همجية وغير

(١) عمال الملك أو مندوبوه في الأقاليم *Intendants* ، يعينهم الملك في فرنسا لإدارة الشؤون المالية أو فرض الضرائب ؛ وعلى إثر انتهاء الحروب الدينية فيها في القرن السادس عشر درج الملك على إنفاذهم لإعادة الأمن في الأقاليم التي تسودها الاضطرابات . استخدمهم ريشيليو للحد من سلطان الأشراف في الأقاليم . وألغت الجمعية الوطنية هذه الوظيفة في ١٧٨٩ ولكن أعادها تأسيسها .

ضرورية ، وبالسخاء الصائب الذي أحيا الحماسة الضئيلة في نفوس السويديين الذين لم يكن ثمة مندوحة عنهم ما قدمه إليهم من إمدادات من الرجال والأموال ، والخدق الذي أظهره عندما أخذ سراب صلح وشيك الواقع يعبر ناظريه ، والمهارة التي جعلت أشد منافسيه المعروفين من دنمركيين وبولنديين تخيم عليهم سكينة محابدة . وإذا لاحظ المدقق أن بعض الخطط قد أصابها الفشل ، كما حدث بالنسبة لتكوين اتحاد الراين تحت حماية فرنسا ، ذلك المشروع الذي أعده وحاول إنجازه كل من مزان ونابوليون وبوانكاريه لهليل لدقة الخطأ التي تضمنت غزو إقليم روسيون Roussillon ، والهجوم على قطلونية Catalonia ، وتوحيد جهود مانتوا Mantua ، وبارما Parma وسافوري ضد النفوذ الإسباني في إيطاليا ، ومعاهدة المصاهرة مع إنجلترا وحصول المملكة الفرنسية على الألزاس واللورين . وقد أشار البعض إلى أن ريشيليوا كوزير للحربي كان ذا عيوب عديدة ، فهو لم يستطع أن ينشئ جيشاً أو أن يضع خطة للمعركة وأنه بلغ من حرصه على العظمة أنه كان يخشى أن يعهد إلى الرجال النابهين بالقيادة حتى إن انتصار كونديه Condé في روکروا Rocroi ذلك العصر الذي أعلن أن فرنسا قد أصبحت مرة أخرى قوة حربية عظمى لم يحدث إلا في عام ١٦٤٣ ، عندما كان قد آواه قبره . وإن دبلوماسية الكاردينال لتدعم إلى الإعجاب بدرجة أكبر . فلم تقم الجيوش الفرنسية إلا بالقدر اليسير خلال المعارك التي استمرت سبعة أعوام تحت قيادة ريشيليوا ولكن ما إن وصلت إلى نهايتها حتى أصبحت فرنسا سيدة على الألزاس واللورين وردسيون كما أوقفت زحف حركة الإصلاح الكاثوليكي في ألمانيا .

وفي هذه الفترة الأخيرة من الحرب (١٦٢١-١٦٥٠) حين كان يحكم في إسبانيا فيليب الرابع وأوليغارييز Olivarez ، ملك ضعيف ووزير صلب الرأى ، بليت إسبانيا بأربع كوارث جسيمة : تحطم أسطولها ، وثورة قطلونية . وقد ان البرتغال ، وثورة نابولي . وكان العامل المشترك في جميع هذه النكبات أن إسبانيا وهي البلاد الفقيرة المهزولة القوى التي اتصفـت بفساد الحكم والانقسام الجغرافي والتاريخي إلى أجزاء متميزة عن بعضها ومتعددة ، راحت تطمع في أن تلعب دوراً رئيسياً على مسرح حوادث السياسة الأوروبية . ولو لم يكن رجل دولتها مفتوناً بسحر الحروب الخارجية لأدرك أن دولة

كإسبانيا قد بلغت هذا المبلغ من الضعف عند اعتلاء فيليب الرابع العرش كانت في أمس الحاجة إلى عهد طويل من السلام والاستجمام ، والإصلاحات المدنية . ولم تعد إسبانيا — والفوسي ضاربة أطناها في شؤونها المالية ، وأسطوتها من السفن عابرة المحيطات قد غدا هيكلًا ، وقدت جرائز الهند الغربية ، وأصبح لا يربطها بمستعمراتها الأمريكية إلا خيط واه ، وبلغ التذمر بالبرتغال وتاپيل مبلغًا عظيمًا ؛ وتدھورت قيمة عملتها ، وضاعت الأرضي المنخفضة فعلاً إلى غير رجعة ، لم تعد إسبانيا بأحوالها تلك — بقدرة على تزعم الكاثوليكية في أوروبا ضد أعدائها من البروتستانت . كان أولئكاريير كفشاً ضليلاً ، عصبي المزاج ولكنه كان أيضًا رجالاً من رجال البلاط ، محروماً من الخبرة السياسية . وقد استطاع أن يتملق سيده التافه عندما أشار عليه بأن حرباً خارجية عظيمة ، يدبر أمورها وزير كفاء ، من شأنها أن تعيد إلى الملكية بريتها القديم . ولكن كان أمراً لا مناص منه أن تعترض السياسة على صحة المال . كان أولئكاريير في سبيل تحقيق النصر النهائي في الحرب بحاجة إلى أموال تفرق كثيراً تلك التي اعتاد الشعب الإسباني أن يقدمها عن طريق مجالس الكورتيز الخمسة الإسبانية . وقد لاق معارضة في كل مكان ، ولكن على وجه الخصوص في قطلونية أعني أقاليم الإمبراطورية الإسبانية . وكذلك أكثرها استقلالاً . وفي لحظة غير مناسبة صمم أولئكاريير على أن يكسر شوكة القطالونيّين لكي يقضى على امتيازاتهم ويقيم بينهم جيشاً مأجوراً . ولكن برشلونة لم تكن مثل لاروشيل فقد كانت باستثناء أشبيلية أعني ثغر في إسبانيا ، وعاصرة لشعب يتكلّم لساناً مختلفاً ، شديد التسلك ببعض العادات القديمة التي جعلته أقرب إلى أهالي بروقاتس منه إلى أهالي قشتالة ، وهو لم يكن مستعداً بأي حال من الأحوال لأن يعتبر بلاده إقليمًا تابعاً لقشتالة . وفي ١٦٣٠ ثار القطالونيّون ، وفي العام التالي انتخروا لويس الثالث عشر حاكماً على برشلونة ، ووضعوا أنفسهم رسميًا تحت حماية فرنسا .

وسرعان ما أثرت الثورة القطالونية تأثيراً خطيراً على الحالة في البرتغال ؛ ذلك لأن الستين عاماً التي اتحدت فيها البرتغال مع إسبانيا بدلاً من أن تحسن العلاقة بين الدولتين زادتها مراة فقد أثار البرتاليين حكامهم الإسبان الغافلون وشكوا من أن قادس قد سلبـت لشبونة تجاراتها . ولكن ثمة حقداً كان أشد عمقاً وأكثر شرعية وصل

بالعلاقات بين الدولتين إلى أقصى درجة من السوء منذ تسببت إسبانيا في ضياع إمبراطورية البرتغال في الشرق . إذ أن الاتحاد بين القطرين قد ورط البرتغال في جميع الأعمال العدائية التي أثارتها المطامع البعيدة المدى لإسبانيا . تلك المطامع التي يتحمس البرتغاليون في الاستجابة لها ، بل فضلوا ألف مرة أن يفضلوا تلك الشركة التي أدت إلى فقدان أثمن ما يملكونه من مستعمرات . وإلى هذا السخط العنيف أضافت سياسة أوليغاريز التي طبقها بشدة فاسكونسيلوس Vasconcellos الكريه الذي لا يمكن احتماله . وعندما تبين للبرتغاليين أنهم سيعاملون معاملة التابعين لقشتالة ، وأنهم مهددون بدفع الضرائب القشتالية ، وقد ألهب حماسهم المثل الذي ضربه القططانيون ، تnadوا للثورة ودعوا إلى عرش البرتغال أحد بناء أسرة براغانزا Braganza . وقد استغرق الأمر ثلاث ساعات . وفضن الاتحاد إلى يومنا هذا ، واتسع الصدع بين الدولتين واستعصى على الرأب بسبب الحرب العقيمة التي دامت بينهما ثمانية وعشرين عاماً .

لقد أصاب كل من أوليغاريز وريشيليو عندما قدرأ أنه لا بد من تحقيق قدر أكبر من الإدارة المركزية حتى يتوافر للدولتين درجة أعظم من الكفاية . أما السبب الذي جعل أوليغاريز يفشل وريشيليو ينجح أن الظروف في فرنسا كانت موالية لتركيز السلطة بينما كانت معاكسة لذلك في إسبانيا . فكل الطرق في فرنسا كانت تؤدي إلى باريس بينما لا يوجد طريق واحد في إسبانيا يصل إلى مدريد ؛ وكانت جبال أيبيريا ورجالها يتصرفون بالعناد . ولكن أوليغاريز تجاهل الجبال وحاول أن يسوق الرجال . وإزاء مثل هذه الإهانة الموجهة لعزتهم المفضلة لم يكن في استطاعة جنس في العالم أن يقاوم بعناد أعظم مما فعل الأiberيون . فالإسباني وإن كان يحلم أحلاماً إمبراطورية فإنه كان يرفض أن يدفع ثمن هذه الأحلام . ولم يكن في استطاعة أي شيء أن يقنع القططاني بأن المستوى المالي الذي أفسده في العصور الوسطى لا يصلح لمواجهة مسئوليات الإمبراطورية الحديثة .

* * *

ثم كان استئناف الحرب مع الهولنديين بعد انتهاء هذه الاثنى عشر عاماً في ١٦٢١ مسألة أخرى انتهت نهاية سيئة لإسبانيا . عند موت « موريس ناسو » Maurice Nassau وجد الهولنديون في أخيه الأصغر فرديريك هنري رجل وجندىاً

قديراً في توجيه العمل للدفاع القوى . وتحت لواء هذا القائد العظيم ، وبفضل المعونات المالية التي كان يقدمها ريشيليوب بعض المغامرين من الإنجليز ذوى الخبرة ، قاومت الجمهورية الهولندية ، بنجاح قوات إسبانيا البرية .

وفي أثناء عمليات حصار هرتوجنبوش Hertogenbosch ، وما يسرّخت Maestricht وبريدا Breda ، أظهر الهولنديون أنهم لم يفقدوا شيئاً من حيلتهم القديمة من فن الحصار . فكان في مقدورهم الاستيلاء على المدن والدفاع عنها . وفي حرب الواقع لا حرب الحركة لن تجد أربع من جيوشهم . ولكن التقدم السريع والانتصارات الحاسمة والعمليات الحربية ذات النطاق الواسع كذلك التي اتصف بها جستاف أدولف كانت غير مألوفة في أذهان هذا الجنس البطىء المنسي . فقد كان الهولنديون يحافظون على مراكزهم ؟ وحتى مع مساعدة فرنسا ، كانت مهمة تحطيم خطوط الدفاع المتساوية والإسبانية في المقاطعات الجنوبية ما يطيقون .

وإن العبرية الحقيقة للشعب الهولندي لم تظهر في هذه الحرب البرية ، وإنما ظهرت فوق صفحة الماء . في بستانة فائقة ، توغلوا إلى أبعد أنحاء العالم وأشدّها عزلة فاكتشفوا نهر الأمازون ، وأحضروا الشاي من فرموزا إلى أوروبا ، وأسسوا في باتافيا Batavia مركزاً لإمبراطوريتهم الشرقية ، وأقاموا دولة هولندية من الأرضي البرتغالية الشاسعة في البرازيل . ولابد عند تقدير العوامل التي أدت إلى انتصار البرتغال بين إسبانيا والبرتغال اعتبار هجمات الهولنديين على المؤسسات البرتغالية في البرازيل وسيلان من العوامل الرئيسية .

وإذاء ازدياد هذا الشاطئ الاستعماري المطرد قامت المملكة الأيرلندية المتحدة — وقد أصبحت على وشك الانهيار — بمجهود آخر مجيد وجرى معه . فأرسلت أسطولاً قوياً تحت قيادة «أكوييندو» ، وهو من أقدر رجال البحرية الإسبانية ، إلى بحر المانش لمناولة الهولنديين في مياههم القومية ؛ وعبر أسطول آخر يتكون من سفن إسبانية وأخرى برتغالية المحيط الأطلسي لاستعادة البرازيل . وقد تحطم كلا هذين الأسطولين بسبب براعة أعدائهم الهولنديين في فن ارتياح البحار . وإن معركة «دونز The Downs» (١٦٣٦) التي هزم فيها «فان ترومب» Van Tromp القائد الإسباني «أكوييندو» لشيبة في تاريخ أوربا البحري ؛ ولكن القتال دام أربعة أيام في «إيتاركا»

على سواحل برمبوكو Permambuco (١٦٤٠) كان بالمثل قتالاً حاسماً . وهكذا تصافر هذان الانتصاران اللذان أحرزهما الهولنديون : الأول في مياه أوربية ، والثاني في مياه أمريكا الجنوبيّة لوضع خاتمة للإمبراطورية الأيرية .

ولم يأت صلاح وستفاليا (١٦٤٨) الذي أنهى هذه الحرب الطويلة نتيجة لأى ميل من الجيوش المتصارعة في ألمانيا لفرض قرار عسكري حاسم ذلك لأن أحداً منهم لم يكن يميل إلى شيء من هذا إذا كان نداء الحرب موفر الربح ؛ إنما دعا إلى ذلك حسن إدراك ملكة السويد كريستينا Christina وعواطفها الإنسانية ، ثم ما لحق بإسبانيا من إعياء وأنهراً نفاد صبر المؤمنين وما أصحابهم من سأم بعد أن ظلوا مجتمعين مدة ثلاثة سنوات في مدينتين صغيرتين من مدن وستفاليا (منستر Munster وأينبروك Osnabruck) ، ليصلوا بجهودهم الشاقة المعقّدة إلى نهاية حاسمة على أننا ينبغي أن لا نخطئ في تقدير الابتهاج العام الذي كان يملأ جوارح الجنود السويديين والفرنسيين والإمبراطوريين حين كانوا يمارسون حرفهم إلى غايتها . فقد كان القتل والسلب بمثابة العبر الذي يستنشقونه . ولو قد عجز الدبلوماسيون عن الوصول إلى اتفاق ، ولم يوقظهم الصلح المنفرد بين إسبانيا والأراضي المنخفضة في يناير ١٦٤٨ من الركون إلى أساليبهم البطيئة إذ لا استمر في القتال قواد الحرب «رنجل» Wrangel ، «وكونيجرمارك Konigsmarck وكونديه Conde ، وتورين Turenne ، وكولورادو Colorado ، وبيكولوميني Piccolomini » حين يحين الوقت ليستأنف القتال جيل آخر من القادة العتاة .

وقد عمل صلاح وستفاليا على تحقيق التوازن الديني والسياسي في ذلك العصر ، فأقر ذلك القانون العام لأوروبا لأجيال عديدة . وقد حصل كل من الأطراف المتعادية على لون من ألوان الترضية المادية . فقد تم الاعتراف بجعل تاج بوهيميا وراثياً في أسرة الإمبراطور ؛ وبامارات الألزاس لفرنسا ؛ ويوميرانيا الغربية وأسقفيتي «برمن» Bremen و«فردن» Verden للسويد ، وإقليم الپلاين الأعلى لبشاريا . وقد كان استيلاء فرنسا التام على الألزاس العليا والسفلى جزءاً تدخلها في الحرب بين الأمراء الألمان بالنسبة لمصير تاريخ أوروبا — أهم وأعظم ما تخوض عنه الصلح من نتائج . وقد كان أسلم لفرنسا وأقل استفزازاً لألمانيا لو قبلت فرنسا الألزاس كإقطاع

إمبراطوري يعطيها مقعداً في الديات الألماني ؛ ذلك رأى راه أحد دبلوماسيي فرنسا في ذلك العهد ، وتبينه مزان فيا بعد . ولكن سبق السيف العزل لأن الخطأ كان قد وقع . فقد ألقى الفرنسيون القفاز متعددين شعور الشعب الألماني ، فلما بلغ الشعور القوي قوته أخيراً لي الأمان النساء والتقطوا القفاز . ولم يتوقع أحد أن تتم خصيصاً أهواه هذه الحرب المضنية عن ميل للأخذ بالتسامح الديني ، ذلك لأن أحداً من الطرفين لم يكن مستعداً لذلك ؛ وإنما كان هناك على الأقل اتجاه قوي لإعادة توكيد ذلك المبدأ الذي اتخد قاعدة لصلح أجزيوج وهو « أن الناس على دين ملوكهم » وتوسيع ذلك المبدأ ليشمل أنصار العقيدة الكاثوليكية . وآلت إمارة الإيلاتين الدنيا بعد أن رفعت إلى إمارة انتخابية ثامنة إلى شارل لويس Charles Lewis ابن « ملك الشقاء » الذي كان حمه في ادعائه الحق في تاج بوهيميا قد أثار كل هذه الشرور ، ولكن بوهيميا ذاتها مع كافة الأملالك الوراثية الخاصة بالأسرة المالكة في النمسا قد أطلقت لنشاط اليسوعيين ، وبذلك تحقق حلم فرديناند وهو ألا يسمح لمارق أن يتبعه أو يغط في هذه الرقعة الواسعة من الأرض .

وإن التباين لعظيم بين ألمانيا كما كانت في عهد فردريلك برباروسا وبين الاتحاد الضعيف من ثلثمائة وخمسين ولاية الذي تم خصيصاً عنه مؤتمر وستفاليا ، (ولكل منها الحق في انتهاج سياسة خارجية خاصة طالما لم تكن موجهة ضد الإمبراطورية) . في أيام برباروسا كان الإمبراطور يمارس في ألمانيا سلطة حقيقة وإن لم تكن منتظمة ، أما الآن فقد غدا سلطانه اسماً في ألمانيا وإن أصبح وطيداً في النمسا وبوهيميا والبجر . في ذلك الوقت البعيد كانت سويسرا والأراضي المنخفضة في حوزة الإمبراطور، أما الآن فقد اعترف رسميًّا باستقلال جمهورية سويسرا، أما الأرض المنخفضة وإن بقيت اسمًّا جزءاً من الدائرة البرجندية فقد انقسمت في النهاية إلى ولاية إسبانية وجمهورية هولندية . في ذلك الوقت البعيد كانت ألمانيا ذات أثر فعال في العالم فإذا هي اليوم تصبح عديمة الأثر . في ذلك الوقت كانت ألمانيا تدين بعقيدة دينية واحدة فإذا هي اليوم تغدو موزعة بين عقائد ثلاثة . ومن هذا الشتت في الولايات الألمانية والأنهيار الذي أصاب القوة الإسبانية ستسنح الفرصة لفرنسا لتعزيز مطامعها العسكرية تلك المطامع التي عمل على استغلالها لويس الرابع عشر ونابليون إلى أقصى حد . أصول التاريخ لأوربي

كتب يمكن الرجوع إليها

- S.R. Gardiner : The Thirty Years War. (1874)
- C.R.L. Fleacher : Gustavus Adolphus, King of Sweden. (1890)
- A. Gindely : Thirty Years War. (1882-3)
- Hanotaux : Histoire du Cardinal de Richelieu. 2 vols. (1898)
- G. D'Avenel : Richelieu et la monarchie absolue. (1884)
- W. Coxe : House of Austria. (1847)
- Lavisson : Histoire de France. (1900-1911)
- H. Belloc : Richelieu. (1930)
- Hallendorf and Schuck : History of Sweden. (1929)
- A. Gindely : Waldstein während seines ersten Generalats im Lichte der gleichzeitigen Quellen. (1886)

الفصل الثامن عشر

الانتصارات مزران

تفوق فرنسا في أوروبا – آن المساوية ومزران – حرب الفروند الأولى – المقارنة بين الحركات الثورية في فرنسا وإنجلترا – حرب الفروند الثانية . تشويه شمعة كونديه – أثر الفروند – انتصارات مزران الدبلوماسية . هييجو جروسيوس Hugo Grotius وخلف الرابن .

ظاهر أن أثر روح ريشيليو في إملاء معاهدة وستفاليا فاق كثيراً أثراها في إملاء معاهدات أخرى تمت لصالح فرنسا حتى معاهدة فرساي نفسها . فلم يحدث أن أحرزت فرنسا مطلقاً انتصاراً دبلوماسياً أعظم من ذلك الذي أحرزته ، في وستفاليا . كما أن خريطة أوروبا السياسية لم تظهر قط قبل أكثر اتساقاً مع المطامع الفرنسية . أما ألمانيا المكونة من ذلك الاتحاد المرضوض من الدول الضعيفة الفقيرة التي تتبادل العداد فلم يكن لها كيان كفؤة عسكرية قادرة على الوقوف عقبة جدية في سبيل تحقيق السياسة الفرنسية ، وبدلامن أن تكون خطأً يهدد فرنسا كانت على العكس من ذلك عملاً أساسياً لتأمينها ، ومصدراً يمدّها بالحلفاء السياسيين ، وبجلا لنفوذها ، وحاجزاً في طريق النمسا ، وعملاً أساسياً في التوازن الدولي . ومنذ ذلك التاريخ إلى وقوع الثورة الفرنسية بات الإبقاء على ألمانيا على هذه الصورة ضعيفة ومنقسمة على نفسها هدفاً أساسياً في السياسة الفرنسية .

ولم ير الفرنسيون في مثل هذا الموقف أمراً كريهاً . فإنهم وقد اطمأنوا بخانب ألمانيا التي كانت عندها منهوكه القوى والتي لم يكن من المحتمل مطلقاً أن تستجتمع أسباب القوة قد سرهم أن يعتبروا أنفسهم الملائكة الحارسين ، والأوصياء القيمين على شعب له مكانته ، شعب مسلم ، ولكنه موغل في التأخر . وسجلوا في خياله انتشار الآداب الفرنسية ، والمسرح الفرنسي ، والأزياء الفرنسية بين أفراد الجنس التيوتوني الغليظ الخانع ، واعتبروا أن العناية الإلهية بحكمتها هي التي مكنت فرنسا في ذلك الوقت ، في أكثر الظروف ملائمة من استئناف مهمة تحضير الشعوب التي كان شرمان يقوم بها بين برابرة الشرق .

ولكن الانتصار السياسي في ذلك الوقت وما صحبه من فرص واصحة مضى دون أن يشعر به أحد . فيئما كان رجال السياسة يوقعون المعاهدة في مünster كانت فرنسا ثائرة ، وحكوماتها لا تستطيع الحفاظ على بركرها في باريس إلا بشق الأنفس .

وكان على رأس الحكم في فرنسا أجنبيان : آن النساوية والكاردينال مزان . وعندما مات لويس الثالث عشر في عام ١٦٤٣ ، ترك وراءه طفلًا في الخامسة من عمره وقد استطاعت أمه الإسبانية أن تحرر نفسها بمهارة من سلطان المجلس الذي كان قد عين لكي يرشدها إلى الطريق السوي . واتخذت لنفسها حق الوصاية ، ثم استدعت زوجها الإيطالي حتى يشاركها الأعباء . وقد بات كل ما يتعلق بهذا الأمر كريهًا لأمراء البيت المالك والنبلاء وبرلان باريس وعامة الشعب . فقد كرهوا آن الوصبة الإسبانية على العرش ، وبغضوا مبدأ الأمير الذي يصبح وزيرًا مسيطراً على شؤون الدولة . ولم تكن هناك رذيلة لا يصدقون أن مزان لا يتصف بها . فقد كان في نظرهم لصًا ، محتالًا ، مفسدًا ، فاجراً ، وضعيف الأصل ، محمدث نعمة ، نهاياً للأموال العامة . وإن المهارة السياسية العظيمة التي مكنت هذا الوزير الذي لا شك في احتياله من الاحتفاظ بتقاليد ريشيليو السياسية قد ضاعت وسط خضم رذائله .

وقد اشتد السخط على الحكومة بسبب الضرائب التي اقتضتها أولًا تمويل الحرب الألمانية ثم الحرب الإسبانية التي استمرت أحد عشر عاماً عقب توقيع صلح وستفاليا . كان مزان على غرار أستاذة ريشيليو جاهلا بالمبادئ الأولى للسياسة المالية . فكانت جميع أساليبه المالية سيئة ، ولكن تميز أسلوبان منها بالخطورة لأنهما أساءا إلى باريس : وهما فرض ضريبة على المساكن في ضواحي العاصمة ، ثم تدخل صارم في عملية الاستئثار المفضلة لدى الإپاريسين ألا وهي الإيجارات التي حدتها بلدية باريس .

كان الجو ينذر بالثورة . في عام ١٦٤٨ كانت الثورة ناشبة في نابولي وف قطلونية ، وفي البرتغال ، وفي إنجلترا ، فكيف يتلقى لفرنسا أن تنجو من هذه المحنـة العامة ؟ وتحتت ال Bairat باسم مسانيللو Masaniello الصياد النابوليـتاني الذي تجـرأ

على تحدي ملك إسبانيا ؛ بينما تمعن المسنون في البرلمان في سابقة أعظم أهمية ، قد قررها مجلس يماثل مجلسهم في الاسم ، قد انعقد في وستمنستر Westminster واستطاع لتهو أن يُسقط الملكية الإنجليزية .

نشأ عن هذه الأحوال العامة الثورتان العجيتان اللتان تعرفان بثوري الفروند الأول والثانية . وقد عرضت هاتان الثورتان الملكية لأخطر أنواع الإذلال ، كما انتشرتا انتشاراً واسع المدى في وقت من الأوقات (١٦٥٢) مما أصبح يهدد بزعزعة بناء الدولة من أساسه . وقد ذكر ميشيليه Michelet أن كافة أفراد الشعب الأمناء في فرنسا وقفوا في وجه مزان ، بينما وقف المحتالون جميعهم إلى جانبه . وإن هذا القول ليبلغ من التعميم حدّاً لا يمكن الاعتداد به ، فإن مزان كان يناضل في سبيل مواصلة السياسة الخارجية لفرنسا ، وفي سبيل توحيد الدولة الفرنسية . وقد كان خصومه في كثير من الأحيان لا يعبأون بأى من هاتين المسؤولتين . والحقيقة أن كل ما وجد في فرنسا من أفكار صائبة جديدة فيما يتعلق بالإصلاحات المالية أو مقاومة الاستبداد بالطرق الدستورية أو ما يتصل بمشكلة « أحوال الشعب » كانت هذه الآراء كلها موجودة عند القائمين بحركة الفروند وعلى وجه الخصوص أعضاء برلان باريس الذين تزعموا ثورة الفروند الأولى وأكسبواها ذلك الحال الذي لا يمكن أن تدعوه لنفسها الحركة الثانية .

ولكن هذه الهيئة ذات الأفكار السياسية القيمة كانت على وجه الخصوص في طريقة الدعوة التي بشّها ومداها ، كذلك في طبيعة الوسيلة التي استخدمتها للتعبير عنها ، كانت خالية من الإلحاد واللوعة إذا قورنت بتلك الفطنة المستنية الحائشة التي أذكّرها وإن ضيقت أفقها العاطفة الدينية والتي حملت قضية برلان إلى النصر في إنجلترا . فإن الثورة التي يرجي من ورائها نتائج دائمة تتطلب بعض الإعداد الذهني ؟ ولكن في فرنسا تدبر أى حركة لإعادة بناء الملكية على أساس دستوري . فإن مجلس طبقات الأمة الذي انعقد في عام ١٦١٤ قد انحل دون أن يوجه خطاباً للأمة بعد أن أظهر بوضوح يبعث على الدهشة مدى أنانية الطبقة الأستقراطية . وكان برلان باريس هيئه وراثية من القضاة الوقورين المحترمين القديرين وقد عملت على قمع سلطان الملكية المطلق عن طريق حرقها في رفض تسجيل المراسيم الملكية . ولكن

هذه الهيئة كانت عارية من أي صفة نيابية عامة . وبديهي أن تدافع الهيئة ذات الامتيازات عن الطبقة صاحبة الامتيازات ، ولذلك فهي لم تعبّر عن الإرادة العامة في فرنسا إلا في مناسبات نادرة وفترات وجيزة وخلال بعض الأزمات الطارئة . وقد ظهرت مثل هذه المناسبة في أغسطس ١٦٤٨ ، فاتحد النبلاء والشعب والبرلان في الاحتجاج على ضريبة الحرب التي فرضها مزان ، وفي المطالبة بالحرية المدنية والضمانات الدستورية . وقد كان الشعور متقدماً لدرجة أنه عندما سجن مزان « بروسيل » Broussel بطل الطالب البرلانية الموقر ، أقيمت ألف ومائتان من المتاريس في أنحاء باريس ، وسقطت الحكومة .

على أنه في حركة الفرونڈ الأولى عندما كانت المسألة الدستورية محددة بوضوح وعندما كان الشعور إزاعها ملتهباً ، لم تجد هذه الحركة خارج البرلان أي اهتمام مدعم للإصلاح أو أي محاولة منظمة لتخفيضه ؛ فإن زعيم الغوغاء في باريس « بول دي جوندي Paul de Gondi » كان مفطوراً على التآمر ، يبحث في المياه العكرة عن قبة الكاردينالية ؛ أما السيدات الأنثى لعبن دوراً نشطاً للغاية في هذه الكوميديا الجدية فقد حمسن دوافع بعيدة كل البعد عن إصلاح الدولة أو تحسين أحوال العامة . ولم يكن ثمة أي رابطة بين النبلاء الذين كانوا يرغبون في أن يؤكّد مجلس طبقات الأمة امتيازاتهم ويوسعها وبين البرلان الذي كان يعتبر هذه الهيئة منافساً خطيراً له ، وإنما وجدت بينهما كراهية مشتركة للكاردينال وقد جرّدت هذه الخلافات بين القائمين على حركة الفرونڈ هذه الحركة من كل اعتبار وقوّة .

وكانت الفرونڈ الأولى وافرة الأضرار والعيوب : ذلك لأنّ الحالة التي كان في الإمكان معالجتها ببعض الترميمات الملائمة في وقتها ويقصد احترامها بأمانة والمحافظة عليها في حزم ، قد انحدرت بسبب الحقد وسوء النية إلى درجة جعلت الملك يفقد باريس ، ولا يمكن من استعادتها إلا بعد حصار فعل (معاهدة روい Rueil في ١١ مارس ١٦٤٩) . ولكن أثيرت في الفرونڈ الأولى قضية معينة على الأقل لها أهمية دستورية حقيقة ؛ ومع أنّ قضاة باريس أعضاء البرلان قد أسعوا إلى قضيّتهم بانضمامهم إلى النبلاء المتّمررين الذين أثاروا عواطف الغوغاء ، فقد كانت بين أيديهم قضية يتّهمون على كل حاكم عاقل ألا يرفض الاستماع إليها : إذ أنّهم نهضوا

يكافحون في سبيل الحرية المدنية وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة . وإنها لوصمة كبرى في مكانة مزان السياسة أنه كان سي^ئ القصد في الترميمات التي اضطر إلى تقديمها للبرلمان مرتين فسجّلها في أقرب فرصة واتته .

كانت حرب الفروند الثانية أضعف مبدعاً ، وأشد خطورة وأعظم حرباً .

فقد افتتحت باعتقال كونديه Condé ، صاحب انتصار روكرول Rocroi وليتز Lens وقائد جيش الوصي على العرش في الثورة الأولى . ولم يكن في مقدور أي رجل أو امرأة الصبر طويلاً على الادعاءات التي لا تحتمل من هذا الجندي المتجرف . على أنها كانت خطوة جريئة من جانب مزان أن يسجن رجلاً له مثل هذا القدر من الثرة والمهابة والشهرة . هنالك انفجرت البلاد في موجة عنيفة من الغضب ، أتت بالقائد تورين Turenne على رأس جيش إسباني إلى بيكارى ، وأوقدت نار الثورة في بوردو ، وأدت في النهاية إلى إطلاق سراح كونديه وفار مزان (يناير ١٦٥١) . وبالرغم من أن كونديه كان في وسعه أن يعتمد على تأييد الحزب التائز من النبلاء ، إلا أنه لأنحراف مزاجه ، كان آخر من يستطيع التوفيق بين الخالفين في بطفهم جميعاً بتحالف سياسي . فلم يكد الائتلاف بين صفوف النبلاء من أصحاب السيف والنبلاء من أصحاب الرداء^(١) يبدو حتى انفصمت عراة . ثم إن الوصية الأرية قد كرست نشاطها بوحى من مزان لعمل هين وهو إثارة قائد منافس لكونديه ويماثله في غروره وطموحه من دوائر الفروند الداخلية وهو بول دي جوندي Paul Gondi ، زعيم القساوسة والرعاع وكان قد انحاز إلى جانب البلاط على وعد برتبة الكاردينال . ولم يلبث القائد تورين بعد ذلك حتى استسلم لفعل الرشوة . مات كل من الرجلين في موضع يخول له المساهمة في الدفاع عن قضية الملك ، فكوندي كان ملك رعاع باريس غير المتوج ، كما كان في تورين وهو من أم هولندية أعظم جندي نظامي في أوروبا . وفي يناير ١٦٥٢ ، أعيدت الأمور إلى

(١) النبلاء أصحاب الرداء . الأشراف الفرنسيون الذين كانوا يمنون لقب الشرف بحكم تقلدهم مناصب حكومية معينة . وقد كانوا عادة يشترون هذه المناصب بالمال – وكانوا أقل مرتبة من الوجه الاجتماعية من « أشراف السيف » Noblesse de l'Epée الذين امتدت أصول أسرتهم إلى عهد إنشاء الملكية الفرنسية .

(٢) وقد أصبح فيما بعد الكاردينال ريتز Cardinal de Retz

نصابها حتى إن مزانن أصبح قادراً على اللحاق بالوصية على العرش في أورليان . ومع ذلك بقيت بعض العوائق العظيمة التي يجب التغلب عليها حتى يمكن إعادة السلام إلى فرنسا . فهذا كونديه في ميدان القتال مع نفر من الصحاب من خلاصة الناس في باريس ، وتحت سلطانه جمّهُرة من النبلاء التمردُين فضلاً عن ثروته الخاصة الحديرة بملك . كما أن كونديه رغم تخلفه عن تورين في الكفاءة الفنية كان أوفر قواد فرنسا حظاً من زانوا جيشه بأكاليل الغار في حرب الثلاثين عاماً . ولكن مزانن كان يعرف كونديه هذا ؛ فقد تبين له أن في وسعه الاعتماد على ذلك الرجل الطاغية في الوقت الملائم بحيث يقضي على حب الجمهور الرخيص له على أن التجربة قد كلفت فرنسا الشيء الكثير . وقد انسحب الكاردينال بمحكمة إلى ما وراء الحدود بمجرد دخول الأمير كونديه باريس (في ٢ يوليه ١٦٥٢) على رأس جيش قد جند نصفه من إسبانيا ، وقد أمدته ببعض المساعدة الآنسة « مونپنسير » Monpensier وكانت شابة لطيفة ، تسعى يائسة للزواج من رجل مهمب . وعندئذ عندما لم يعد لأنصار مزانن قيمة لاحتقاء مزانن تلاشت مهزلة هذه الفتنة وأغراضها .

وأخذ الأفراد العاديون يتساءلون عما يدعوه إلى استمرار هذا الاضطراب المشين الذي كان شديد الضرر بالصناعات ، عظيم الخطورة على فرنسا ، فأدانوا معاهدة كونديه المخادعة في إسبانيا ، وأنفوا من وجود جيوشه الإسبانية ، وسخطوا على اعتداءات السفاحين الذين يتبعونه ، وأخلوا يسألون أنفسهم عن الأسباب التي أوقعت باريس تحت رحمة هذا الشعب الغريب الذي أثاره بعض النبلاء التافهين والسيدات الرشيقات ورفاع الشوارع وجند الأعداء . أما وقد تمادوا في لعبهم فقد أصبحت منافية للوطن : وأسوأ من ذلك موجبة للسخرية . وما كاد الأمير يفطن إلى أن رضى الشعب قد أخذ ينحسر عنه حتى بارح مقره وانسحب إلى إسبانيا . وفي ٢١ أكتوبر ١٦٥٢ ، عاد لويس الرابع عشر مرة أخرى إلى باريس وانتهت حرب الفرونـد الثانية .

وقد خلقت هذه الثورة الموجبة للسخرية درساً انطبع آثاره عميقـة في وعي الملك الصغير ؛ وتلك هي الأهمـية الرئيسية التي كانت للفرونـد في التاريخ العام .

فلم ينس لويس الرابع عشر مطلقاً الإهانات التي نزلت به صبياً ، عندما طوردت أمه في باريس وعندما أطلقت النيران من الباستيل على الجيش الملكي ، وكانت الملكية تهار على يد النبلاء الثائرين ، وقد تحالفوا مع دولة معادية ؛ فقد خرج من هذه التجربة بمحكمة مؤداها أن فرنسا في حاجة إلى يد حديدية لملك مستبد لا يشق في وزراء عظام ينهضون بأعماله ولكنه ينظر في كل أمر بنفسه ويكتب جمام البلاد . وبذلك أدت اضطرابات الفرونڈ رأساً إلى الحكم الفردي للويس الرابع عشر .

وعاش مزان حتى عام ١٦٦١ ، مؤيداً في مركزه بانتصارات القائد تورين . وقد حقق في الفترة الأخيرة من حياته انتصارات دبلوماسية لا تقل كثيراً في أهميتها عن تلك التي قد ميزت بداية عهده رئيساً للوزارة . وأول ما واجهه الآن هو أن تنهي الحرب التي طال أمدها مع إسبانيا بنجاح . ولم يكن الكاردينال إزاء أمر على هذا القدر من الأهمية ليسمح لأى اعتبار ديني أو أخلاقي يؤثّر في أعماله السياسية . فهو قد غذّى الثورة في نابلي وقطالونيا والبرتغال ، وهو لم يحجم في سبيل حمل عدوه على عقد الصلح عن التحالف مع الجمهورية الإنجليزية التي استباحت دم ملك إنجلترا .

ونتج عن ذلك الائتلاف (٣ مارس ١٦٥٧) موقعة الدن Dunes عندما ظهر جيش بوريتاني إنجليزي لأول مرة في معارك القارة وحارب تحت قيادة تورين ووجه الضربة الأخيرة في الصراع بين إنجلترا وإسبانيا ، ذلك الصراع الذي كان قد بدأ منذ تسعين عاماً على صفحة المياه المشمسة في أحد ثغور المكسيك .

ولقد أتم صلاح البرانس (نوفمبر ١٦٥٩) الذي جاء مباشرة في أعقاب الانتصارات الإنجليزية الفرنسية في الفلاندر، أتم تأمين الأراضي الفرنسية . في الحق أن قطالونيا قد تركت لإسبانيا ولكن بعدها من إصرار عنيد على فضم عرى التحالف الأهوج الذي تسرعت في عقده مع الفرنسيين . غير أن فرنسا قد نالت فتوحاً أخرى على حساب إسبانيا : روسييون Roussillon وسardinia في الجنوب ، وجزءاً من أرتوا Artois وطائفة متصلة من المدن على الحدود الشمالية الشرقية في بلاد « الفلاندرز » « وهنولت Hainault ولكسمبرج Luxembourg ». وإذا كان الإنجليز قد

استولوا على دنكرك فقد كان ذلك — من وجهة النظر الفرنسية — العيب الوحيد لصلاح رحبا به .

ثم عقد قران ملكي فتوجه عمل مزان . فقد كانت الأرضي المتخضضة الإسبانية وهي تمثل على وجه التقرير بلجيكا الحالية منذ أمد بعيد ومطمح أنظار الفرنسيين . ولكن كيف السبيل للحصول عليها ؟ — فسبيل الغزو باهظ الثمن مشكوك نجاحه على حين أن الزواج رخيص مهراه ومضمون تحقيقه . ولما تأكد مزان من ضعف ابن فيليب الرابع الصغير من زوجه الثانية ضعفاً يقرب منه ، فتح موضوع الزواج . فكان آخر ما حققه الكاردينال أن عقد الزواج بين ماريا تريزا كبرى بنت فيليب الرابع ولويس الرابع عشر . كم من نتائج باهرة كانت متوقعة من ذلك القران ؟ قد يكون فيها عقد صفة لاقتسام الإمبراطورية الإسبانية مع ليوبولد إمبراطور النمسا الذي قنع بالزواج من الابنة الصغرى لملك إسبانيا ، وربما كان أثمن من ذلك أن تجتمع إسبانيا وفرنسا تحت تاج واحد . ولعل مزان توقع ما حدث فعلاً وهو أن البائنة التي تنازلت ماريا تريزا في مقابلها عن ميراثها لن تعبر البرانس أبداً .

لكن ما أضعف حكم رجال السياسة في التنبؤ بالمستقبل ، فإن الزواج الذي أثار مثل هذه الآمال العظيمة كان سبباً في حرب مضنية شنتها فرنسا وإسبانيا على الإمبراطورية والدول البرية في الشمال وخرجتا منها وقد ضعفت قوتهما ونفذت مما بدرجتها محسوسة .

ولم يعنص ذلك الدرس القطيع الذي خلفته الحروب الدينية دون أن تعيه آذان الإنسانية . فهو قد ترك كتاباً عظيماً وتجربة هامة . أما المؤلف فهو المقال الشهير : قانون السلام وال الحرب De Jure Pacie et Belli ، ذلك المقال الذي تصور فيه المواطن الهولندي « هيجر جوسوس » Hugo Grotius لأول مرة القانون الدولي في معناه الشامل كعلم حديث . وأما التجربة فهي صورة مصغرة من عصبة الأمم (وضعها على نهر الراين فيليب فون شونبرج Philip Von Schonberg رئيس أساقفة ماينز المستثير في عام ١٦٥٨) . وفيها تعهدت الدول الأعضاء بتسوية منازعاتها بالطرق السلمية . وقد ترك العمل السامي الذي قام به جروسوس العالم الإنساني أثراً حالداً في وعي أنصار السلام . فإذا لم يكن حظه من النجاح في منع الحروب بأوفر مما كان

لتعاليم الكنيسة المسيحية فهو قد صور المفارقات التي أثرت في قيم الأخلاق السائدة بين الدول من حيث التمييز بين الحروب التي يدعو إليها الحق وتلك التي يُثيرها الباطل ، وبين وضع المحاربين وغير المحاربين وأخيراً بين الوسائل التي تتبع في الحرب مما يقع في نطاق ما اصطلاح عليه من قسوة مباحة وتلك التي تقع خارجه .

أما اتحاد الراين فإن النجاح الذي كان ينتظره كان محدود المدى ؛ إذ أن أهالي الراين بقبولهم فرنسا عضواً في اتحادهم قد أحالوا الاتحاد من جماعة مسلمة إلى تحالف تسسيطر عليه أهداف دولة عسكرية عدوانية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J.B. Perkins : France under Mazarin. (1886)
- C. de Cherrier : Histoire de France sous Mazarin. (1868)
- D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century. (1925)
- V. Cousin : La Jeunesse de Mazarin. (1865)
- Lavissa : Histoire de France, Vol. VI.

الفصل التاسع عشر

الثورة العظمى في إنجلترا

فشل الحركة المعادية للإصلاح الديني - الحركة الإنسانية - الإنجليل - البحر - الروح العلمية - ضآللة أهمية إنجلترا نسبياً في أوروبا - غلبة التبعية - حق الملك الإلهي - الشعور المعادي للكاثوليكية - مسألة السيادة - جيمس الأول - اتهام بكنجهام بالخيانة العظمى - تقتيل البريلان - نوع المعارضة البريلانية . شارل الأول غافل عن علامات الخطر - إحدى عشرة سنة من الحكم الفردي - سترافورد Strafford ولو드 Laud - هجرات الإبوريتان - الثورة الإسكتلندية وعودة الحكم البريلاني إلى إنجلترا . البريلان الطويل الأداء - جون بيم John Pym - الحرب الأخلاقية - أوليفير كروميول Oliver Cromwell - تبعية البريلان - الصراع بين البريلان والجيش - الحرب الأخلاقية الثانية وإعدام شارل - قوة الجمهورية العسكرية والبحرية . سياسة كروميول الإبريلندية والإسكتلندية وسياساته الخارجية - طبيعة المهد الدكاثولوري ونتائجها .

بينما أنهكت الحروب الدينية القارة الأوروبية مرت إنجلترا بأزمة الإصلاح الديني دون أن تزعجها غارة خارجية أو اضطرابات داخلية خطيرة . فقبل أن يصل حكم إليزابيث إلى نهايته كانت الأغلبية العظمى من الشعب الإنجليزي قد رضيت بالكنيسة التي صنعتها الدولة ، وهي الكنيسة التي لم تكن كاثوليكية ولا پرسپتارية ، وكانت من الأعمال العظيمة التي قامت بها اليسابات لتدعم مركزها إزاء ضغط القوى المتصارعة . وقد أمكن صد هجمات الحركة المعادية للإصلاح الديني ؛ ذلك أن قرار العزل البابوي الذي أصدره بيوس الخامس في غير ترو جعل الكاثوليك الإنجليز يواجهون صراعاً قاسياً فيما يتعلق بولائهم للدولتهم ونفر عن البابوية هذا الجانب الكبير من الرأي العام الكاثوليكي الذي كان إنجليزياً قبل أن يكون كاثوليكيًّا . فقدت العقيدة القديمة مكانها في نفوس الناس بسبب ارتباطها الوثيق بقوة إسبانيا المعادية . كما أحبطت المؤامرات التي دربها اليسوعيون لقتل الملكة - وكانت الدولة من القوة بحيث استطاعت أن تقتصد في عقوباتها - ولو قورن عدد الكاثوليك الذين أعدموا بتهمة الخيانة العظمى في عهد إلیسابات بعد البروتستانت الذين أحرقوا بسبب الإلحاد في حكم ماري لتبين لنا أنه كان ضئيلاً . على أن الاختطاف دائماً أمر يُؤسف له ؟

ولكن هؤلاء الرجال الذين عرّفوا بسم الإدراك تحالفوا مع دولة أجنبية لقلب نظام الدولة .

والحق أن الشعب الإنجليزي تعمّت بين الطالع ، فقد تلقى الإنجليز تربّيّتهم من الحركة الإنسانية ، والكتاب المقدس ، والبحر ، واستدرّكوا ما فقدوه بسبب ارتباك المدارس خلال عهد الإصلاح الديني بالتيارات الجديدة من الإلحاد التي سرت في حياة الأفراد عن طريق هذه المنابع الثلاثة المختلفة فيها بينها اختلافاً كبيراً . ففي عهد إلصيابات ، على الرغم من أن الشعب الإنجليزي قد استمر شعباً ريفياً ، فإنه قد أصبح محباً للشعر والموسيقى وللكتاب المقدس كما بات شغوفاً بالبحر — وقد احتفظت المدارس بهذا الاتجاه الجديد في الدراسات الإنسانية ذلك الاتجاه الذي كانت تعاليم إرزمس وكوليت القوة الأصلية الدافعة له . فأرسل نبلاء القوم وسرّائهم أبناءهم إلى جامعي أكسفورد وكيمبردج ، وكانتا يومئذ قد بدأتا تتجهان اتجاهآ حديثاً نحو تلقين الشباب من غير طلاب رجال الدين ثقافة عليا . وتعلمت السيدات والسادة اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وترجمت الآداب الإسبانية والفرنسية والإيطالية إلى اللغة الإنجليزية . وسرعان ما أصبح السفر إلى إيطاليا ، وإنشاء القصائد القصيرة (المكونة من أربعة عشر بيتاً) ونظم الشعر غير المقوى على الطريقة الإيطالية مطمح المحظوظين من الدارسين . ودخلت في المسرحية الشعية قصص من جميع أنحاء العالم لأمثال بوكاتشيو Boccacio وبانديلاو Bandello وساكسو جرامتيكوس Saxo Grammaticus ، وكذلك من تراث الكلتين القدماء ، فغدت عبقرية شكسبير بعض المادة الجديدة .

وقد أخذت هذه الثقافة الأدبية الحرّة تتغلّل في المجتمع وأفادت من حيوية البلاط ونشاطه وقصور النبلاء والفنادق والمسارح بأكثر مما أفادت من المدارس والكليات بنظامها المحدود . وقد حال دون اندثار هذه الثقافة الحرّة إلى مثل ما شاع في إيطاليا من ترخيص وسفح ظهور عنصر آخر له أهميته في الثقافة القومية تمثّل فيما كشف عنه أخيراً الكتاب المقدس في ترجمته الإنجليزية من ثراء وروعة . فقد مضى قرناً ونصف حين لم تكن قد ظهرت بعض الصحف الرخيصة والروايات ، والطبقة الفقيرة والمتوسطة من الشعب الإنجليزي لا تستمد قوامها الفكرى وغذيّها

الروحي إلا من كتب اليهود المقدسة . وكان سلطان هذا الأدب الحاد العذب في آن واحد فريداً في نوعه وعاليماً . وغدا الكتاب المقدس في كافة كنائس الأبرشيات مفتوحاً وفي متناول كل قاريء . وهنالك تحققت فكرة الجامعة الشعبية . فراح الناس يغترفون من هذا المزاج الواقر حيث اختلطت أقدس وأسمى آيات الفكر الشرقي البعيد بتراث الماضي الخشن . وراح أفراد الشعب الإنجليزي يحسون خلالها بمحض إرادتهم ، لم يرشدهم في ذلك أحد ، ولم تفرض سببهم عقبات . فكانوا يلقون دائمًا في طريقهم دروساً أعناتهم على السلوك في الحياة ، تميز بعضها بالعمق والجمال السرمدي ، على حين كان بعضها الآخر باعثاً للهم والزهو والاكتفاء الذاتي .

ومثل البحر عنصراً ثالثاً في الثقافة الإنجليزية في ذلك العهد ، وبات قصص الحغرافيين يسيطر على أخيلة الشعب حيث صور لهم أن كل شيء ممكن في عهد امتدت فيه آفاق الآمال والمعرفة . فتساءل « هكلويت » Hakluyt « منْ منْ ملوك هذه البلاد قبل مليكتنا قد شوهدت أعماله خفافة في وقت من الأوقات فوق مياه بحر قزوين ؟ بل منْ منهم قد اتصل بإمبراطور العجم واستطاع ، كما فعلت جلالتها ، الحصول لتجارها على امتيازات ودية واسعة ، ثم من شاهد قبل عهد هذه الدولة أحد الرعايا الإنجليز يمثل الملكة لدى الباب العالي في القدسية ؟ وهلرأى أحد قبل اليوم قناصل وقائمين بالأعمال من الإنجلiz في طرابلس وحلب سوريا وبابل والبصرة Balsava^(١) ، بل من ذا الذي سمع إطلاقاً بوجود إنجليز في جوجوا Goa قبل الآن ؟ ثم هل كانت السفن الإنجليزية فيما مضى تستطيع الرسو في نهر الإيلاتا العظيم ؟ كل هذا قد تجده : بعضه واضحًا وبعضه ملحوظاً في كتابات شئ مثل تمبورلان Tamburlane مارلو Marlow و « مزوفيلوس Musophilus لدانييل Daniel على حين يفلت بعضه الآخر عن الملاحظة ونعني أثر روح المغامرات الدامية في البحار في أسلوب الشعراء في عصر إليزابيث بالإضافة إلى بعض ما كان يداعب نفوس المغامرين من آمال . وهناك أمران كانا أفعل من كل أثر مباشر في الثقافة : أولهما النظام الذي فرضه البحر على المتعلمين به ، وثانيهما السحر الذي فتن به رجال البحر في عصر المغامرة والاستكشاف والخروب

(١) يقصد وهو الاسم الذي كان يطلق على البصرة في عصر إليزابيث .

البحرية . وبعد أن كان البحر عند هوراس Horace مصدر رعب غداً منذ يومئذ فرصة بريطانيا .

ومن الممكن اعتبار الروح التقدي الجرىء الذى تميز به دينيل في مسو فيليوس (١٦٠١) أمثلةً لذلك التكوين الحديث لل الفكر الإنجليزى الذى نتج عن امتزاج حركة النهضة بحركة الإصلاح الدينى . فالكاثوليك كانوا قد قدموا فلسفة متکاملة للحياة ، صاغها عبقرية اللاتين ، ثم بلغت حد الكمال في القرن الثالث عشر . ومن هذا الإطار المغلق للتعاليم أخذت كافة قوى الحركة الإنسانية ودراسة الكتاب المقدس المطلقة ، وللغايات البحرية تستمد الجانب الأفضل من الأمة . وتغير مركز اهتمام المفكرين . فأخذت عبقرية فرنسيس بيكون النسبية تدعو الطالب إلى هجر أرسطو والدراسات الفلسفية والتحول إلى الانصياع لدراسة الطبيعة . وهكذا انزاح الستار عن خفايا العالم عن طريق الاستنتاج وليس عن طريق الترجيح .

ويبدأ القرن السابع عشر بأحلام فرنسيس بيكون البراقة بينما ينتهي بإثبات إسحاق نيوتن الحكم : أن الكون بأكمله وحدة عضوية واحدة ، وبين عهدي هذين العالمين فصل طويل مجید من جهود العلماء الإنجليز : بدأت باكتشاف هارفي Harvey للدورة الدموية في ١٦٢٤ (ولم يتوصل إلى ذلك إلا لأنه قد اختبر كافة نظرياته بالتجربة) ، ثم تابعها روبرت بويل Robert Boyle بما حققه من فتح في علم الكيمياء . كما وضحت جهود العلماء في الجمعية الملكية التي أنشئت ، وبفضل هذه الجهود نالت إنجلترا مكانة ممتازة في عالم الفكر في أوروبا ، تلك المكانة التي لم تتمكن من تحقيقها عن طريق شهرة شاعر كشكسبير أو ملتون مخصوصة في الجزيرة البريطانية ؛ ذلك لأن إنجلترا ظلت ضعيفة الأثر في أوروبا منذ وفاة الملكة إليزابيث حتى عهد أوليفر كرومييل . فإن مدرسة الدراما والشعر الإنجليزية العظيمة التي أينعت في عهد إليزابيث وخلفتها جيمس مضت دون أن تلقى إليها القارة الأوروبية بالا إلى أن قام « شلجل Schlegel » بترجمة شكسبير إلى الألمانية في نهاية القرن الثامن عشر ، بل إن هذه النهضة الأدبية قد غشاها بعض الأفول في إنجلترا ذاتها وسط السحب المتکافئة للعقيدة الإنجليزية . كما لم تكن إنجلترا أهمية جدية في موازين السياسة الأوروبية ومقاييسها باستثناء عهد

الجمهورية ؛ فقد أهملت البحرية في عهد جيمس ، وعلى الرغم من أن اهتمام شارل بتنمية البحرية كان أعظم فائماً نصل مطلقاً في عهده — بسبب تغير البرatan — إلى درجة من القوة تجعلها صالحة على الأقل لحماية البحار البريطانية من الفرسنة . حقاً لقد حارب جنود بواسل من الإنجليز لنصرة القضية البروتستانتية في إقليم الإيلاتين ، وفي الأراضي المختضضة ، وبين صفوف جيوش جستاف أدولف ، ولكن لم يكن لإنجلترا جيش قائم ، كما أن تدخل إنجلترا لم يؤثر بدرجة فعالة في مجرى السياسة الأوروبية من أي ناحية من النواحي إلى أن كان عهد كرمويل الذي حول إنجلترا لأول مرة في تاريخها إلى دولة عسكرية .

وأثناء هذه الفترة من العزلة والظلام النسيبي كان الشعب الإنجليزي يواجه مشكلتين جسيمتين متصلتين إحداهما بالأخرى : الأولى مشكلة دينية والثانية دستورية وسياسية .

عجزت الكنيسة الرسمية للدولة التي أسستها إليزابيث عن إرضاع الروح الدينية البربرية التي كانت تستوي الإلهام من الكنائس البروتستانتية التقدمية في سويسرا . فكره البعض مبدأ الكنيسة الرسمية للدولة في حد ذاته ، وكره البعض الآخر النظم الأسقفية ، وكره فريق كبير استعمال الحلة الكهنوتية البيضاء ، وموضع المذبح جهة الشرق ، كما كرهوا طقوساً دينية وثيقة الصلة بالطقوس الرومانية . ومن ثم نشأت المسألة التالية وهي هل في الإمكان توسيع الكنيسة إلى حد استيعاب هذه السلسلة المتداة من الحركات الفكرية والمشاعر البروتستانتية ؟ فإذا كان الجواب بالنفي ماذا يكون مصير البروتستان الذين يتّهمون بقاومهم خارج الكنيسة الرسمية ، فهل من المستطاع أن يكون ثمة تسامح داخل الكنيسة إزاء وساوس الإبوريتان ؟ وهل من الممكن اتباع سياسة من التسامح الديني إزاء المجتمعات البروتستانتية المختلفة التي يُعرف بها خارج الكنيسة ؟ كانت الإجابة عن السؤال الأول فوراً بالنفي — إذ رفض جيمس الأول ولود Laud كما رفض رجال الكنيسة الإنجليكانية في عهد الملكية بعد عودتها أن تستوعب الكنيسة تلك المذاهب . ولعلنا نأسف لذلك . وقد يكون في وسعنا أن نقدر أنه ربما كان من الممكن تجنب كثير من المتاعب في عهد الملكين الأولين من أسرة استيوارت لو كان هنالك مقدار أوفر من المرونة والسامحة إزاء مؤلفات

العقيدة الإبوريتانية في مسألة الشعائر الكنسية . ولكن التاريخ قد اتخذ الاتجاه الثاني ، عندما آثر ثلاثة قس ببوريتاني اعتزال أعمالهم التي يعيشون منها في عام ١٦٠٤ على أن يتبعوا كتاب الصلوات كما طلب منهم أن يفعلوا ، ومن ثم واجهت أسرة استيوارت التي أودت بشارل الأول .

ذلك لأن فكرة التسامح التي كانت تتضمن الإجابة الصحيحة عن السؤال الثاني ، والحل الوحيد للمشكلة كلها ، كانت غريبة على الأذهان في ذلك العهد ؛ فلم تتحقق إلا جزئياً بمرسوم بريلنفي نهاية القرن السابع عشر بعد أن أدى الإنجليز الثمن باهظاً : حرباً أهلية وتغييرًا في الأسرة الحاكمة ؛ إذ أن الأوروبيين لم يتلقوا دروساً في التسامح الديني في عهد الكنيسة الرومانية الطويل ، كما أنهم أبطأوا في تعلمها وسط العواطف العنيفة التي أطلقها الانشقاق الكبير – ولم يكن جون نوكس John Knox وليم لود William Laud أكثر تساهلاً من أجناس ليولا Ignatius Loyola ودوق ألفا . وكان الدفاع عن السبيل الوسط الذي اتبعته الكنيسة ناجحاً طالما كانت الملكة العظيمة إليزابيث على قيد الحياة بفضل الإدارة الحازمة لرئيس الأساقفة ويتجيغت Whitgift إزاء الكاثوليكي في جانب ، وإزاء المذاهب البروتستانتية في جانب آخر . ولكن ما لا شك فيه أن تيار الفكر داخل الكنيسة كان يطرد ابتعاده بانتظام عن روما ويتجه نحو المذهب الإبوريتاني .

وقد عارض هذا الاتجاه في إصرار جيمس الأول ابن الشاذ ماري استيوارت وهنري دارنلي Henry Darnley وشارل ابنه ؛ ولم يصدر ذلك عن رغبة هذين الملوكين العودة إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . إذ كانت مكانة الحاكم الأعلى للكنيسة في إنجلترا ترضي في الملك كل ما يتطلبه ضميره وكبرياته . فقد كانا على المذهب الأسقفي ، وكانا بدرجة متفاوتة إذ كان شارل أكثر صراحة من أبيه في كهنتيه من أنصار الكهنوت « لا أسقف ولا ملك » عبارة قالها جيمس لزعماء رجال الدين الإبوريتاني في مؤتمر « هامبتون كورت Hampton Court » عام ١٦٠٤ ، واكتسب هذا الاقران بين الأسقفية والملكية ، الذي أصبح حجر الزاوية في نظام أسرة استيوارت نوعاً من التقديس بظهور مبدأ جديد تحمس بالتبشير له أساقفة ينتمون بلاط الملك وهو أن الملك يتقلد تاجه بمقتضى حق إلهي . ولم يكن أمر الدفاع عن

هذه النظرية مكناً ، ولكنها كانت ملائمة . فأسرع رجال الدين في الكنيسة الإراستية Erastian Church^(١) في تأييد فلسفة قد أضعفـت من الطابع الدنـيـوي لمؤسسـهم ؛ ثم إن الملك جيمس ، وقد كان حقـهـ في وراثـةـ العـرـشـ مـوضـعـ النـقـدـ قد سـرـكـثـراـ بـدـعـوـيـ قـيـامـ مـلـكـيـةـ اـسـتـيـوارـتـ بـإـرـادـةـ اللهـ .

وـمـةـ اـعـتـراضـ كـبـيرـ عـلـىـ سـيـطـرـةـ السـيـاسـةـ عـلـىـ الـدـينـ ،ـ فـالـحـكـمـ الـذـىـ يـسـتـمـدـ سـلـطـتـهـ مـنـ الـدـينـ قـدـ لاـ يـخـنـعـ ،ـ إـذـ يـشـقـ عـلـىـ مـلـكـ يـعـتـقـدـ أـنـ الـلـسـانـ الـمـعـبـرـ عـنـ الـإـرـادـةـ الـإـلهـيـةـ الـتـىـ لـاـ يـعـتـرـيـهاـ تـبـدـيلـ أـنـ يـنـزـلـ عـنـ شـىـءـ أـوـ يـسـاـيـرـ الـظـرـوفـ ،ـ وـهـوـ أـمـرـ يـسـاعـدـ فـيـ الـظـرـوفـ الـعـادـيـةـ عـلـىـ تـسـيـيرـ دـفـةـ الـحـكـمـ .ـ وـلـوـ كـانـ مـبـدـأـ الـحـقـ الـإـلهـيـ لـلـمـلـوـكـ مـجـرـدـ تـسـمـيقـ لـطـيفـ فـيـ القـوـلـ لـاـ آـذـىـ أـحـدـاـ ،ـ عـلـىـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ عـنـدـمـاـ أـنـذـرـ جـيـمـسـ زـعـمـاءـ رـجـالـ الـدـينـ الـبـيـورـيـاتـ فـيـ سـنـةـ ١٦٠٤ـ أـنـهـ لـمـ يـعـشـلـوـهـ هـمـ وـأـصـدـقاـؤـهـمـ فـإـنـهـ سـوـفـ يـطـرـدـهـمـ مـنـ الـبـلـاطـ طـرـداـ .ـ وـكـانـتـ النـتـيـجـةـ أـنـ تـنـازـلـ ثـلـثـائـةـ مـنـ رـجـالـ الـدـينـ عـنـ مـعـاـيـشـهـمـ مـؤـرـيـنـ ذـلـكـ أـنـ يـعـشـلـوـهـ لـإـرـادـةـ الـمـلـكـ .

وـلـاـ يـكـنـاـ فـهـمـ حـقـيـقـةـ الـصـرـاعـ الـذـىـ بـدـأـ هـكـذـاـ مـبـكـرـاـ بـيـنـ الـبـيـورـيـاتـ وـمـلـكـيـةـ سـتـيـوارـتـ إـلـاـ إـذـاـ أـدـرـكـنـاـ عـقـمـ الشـعـورـ المـنـاهـضـ لـلـكـاثـولـيـكـيـةـ الـذـىـ كـانـ يـسـودـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ ،ـ ذـلـكـ الشـعـورـ الـذـىـ لـمـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ غـالـبـيـةـ رـجـالـ الـدـينـ بـلـ سـادـ لـنـدنـ وـالـشـغـورـ وـأـفـرـادـ الـطـبـقـةـ الـكـادـحةـ مـنـ الـمـجـتمـعـ .ـ فـيـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ الـتـىـ عـبـرـ الرـأـيـ الـعـامـ فـيـهـاـ عـنـ نـفـسـهـ سـادـ الشـعـورـ بـالـحـلـوفـ وـالـحـقـدـ عـلـىـ الـكـاثـولـيـكـيـةـ لـعـدـةـ أـجيـالـ ؟ـ فـإـنـ ذـكـرـيـاتـ شـهـداءـ عـهـدـ مـارـىـ وـالـأـرمـادـاـ إـلـيـسـپـانـيـةـ وـتـدـبـيـرـ الـمـكـائـدـ ضـدـ حـيـاةـ الـمـلـكـةـ الـعـظـيمـةـ كـانـتـ لـاـ تـزالـ حـدـيـثـةـ الـعـهـدـ عـنـدـمـاـ اـعـتـلـىـ جـيـمـسـ الـأـوـلـ الـعـرـشـ .ـ وـقـبـلـ أـنـ تـضـعـفـ هـذـهـ الـذـكـرـيـاتـ جـاءـتـ مـؤـامـرـةـ جـائـيـ فـوكـسـ Guy Fawkesـ (ـ وـقـدـ دـبـرـهـاـ بـعـضـ السـادـةـ الـكـاثـولـيـكـيـكـ)ـ لـنـسـفـ الـبـرـلـانـ بـعـلـمـيـهـ .ـ فـكـانـتـ جـرـيـمةـ نـقـشتـ فـيـ ذـهـانـ الـعـامـةـ رـعـباـ

(١) Erastian Church : الكنيسة الإراستية نسبة إلى توماس إراستوس (Erastus, Thomas) (١٥٢٤ - ١٥٨٣) ، رجل دين سويسري ألماني اتبع عقائد زونجلي ودافع عنها وقاد محاولات الكالفتيين لفرض النظام البروتستانتي على الكنيسة الزونجلية وفقاً للمسودة الجنيفية . ولا مجال على الإطلاق للمشاكل فيما يتعلق بالعلاقات بين الكنيسة والدولة لدى إراستوس ومن ثم كان Erastianism of Westminster معناه خضوع الكنيسة لسلطة الدولة .

عميقاً لا تزال ذكراء قائمة في بعض المدن والقرى الإنجليزية حين تقوم جموع الناس سنوياً بإشعال حرائق رمزية لحرق البابا .

ويضاف إلى ما ذكرناه من بواعث الحقد والخوف ما كان يحوط مصادر البروتستانت في القارة الأوروبية من قلق وشك في نفوس أبناء دينهم من الإنجلiz ، فإن حروب الهيجونوت وصراع الهولنديين البروتستانت الطويل الجرىء ، والمصائب التي نزلت بقضية البروتستانت في بوهيميا والبلاتين أثارت أقوى مشاعر العطف في إنجلترا . وفي عقلية الحرب هذه التي بعثها هذا الصراع بدت بعض النقاط البسيطة المتعلقة بطقوس أو ملاحظات دينية مما قد يبدو تافهاً في عهد أكثر هدوءاً وتساحماً، بدت على جانب عظيم من الأهمية حتى لترى الكثير يبارحون أسرهم وديارهم ويواجهون عواصف المحيط الأطلسي حتى لا يشهدوا مائدة القدس وقد تحولت إلى أقصى اليمين من كنيسة القرية ، حيث استقرت لتجبر الحقد على القدس الكاثوليكي .

أما المسألة الدستورية فقد كان مدار البحث فيها حول المعين الحقيقي للسلطة العليا: أهو الملك أم البرلان؟ وربما كان من الخير أن تلك المسألة العميقة، مسألة توفيق القوى داخل الدولة، لم تدرس أبداً على أنها موضوع نظرية فلسفية— وإنما جاهد فيها رجال عمليون مستندين على مقتضيات الحياة العملية يوماً بعد يوم ، وعلى ضوء السوابق التاريخية . ومن أجل ذلك كان الحل النهائي الذي ألمحت به التجربة المدححة هو تكوين مجلس وزراء يشير على الملك ويحمل المسؤولية عن جميع أعماله أمام البرلان ، وقد صمد هذا الحل لكافة الأعاصير السياسية ، ويعُدّ أعظم ما استطاعت الحكمة البشرية أن تبدعه لنظام الحكومة الحرة . غير أن الحل كان معقداً غامضاً، لا تؤيده السوابق التاريخية؛ وحتى أواخر القرن الثامن عشر عجز الدين صنعوا الدستور الأمريكي عن فهم طبيعة نظام مجلس الوزراء وعمله ، وإذا كان رجال السياسة قد أخطأوا مرماه مدة طويلة في عهد أسرة ستيفوارت فإن ذلك أمر لا يدعوا إلى الدهشة .

وإن الأهمية البالغة لهذه القضية الدستورية تكمن في الحقيقة الآتية: إن السادة أعضاء مجلس العموم قد نما فيهم الاهتمام القوى بكثير من شئون السياسة العامة وخاصة شئون الدين، ومسائل السياسة الخارجية المتفرعة عن الدين ، والشتون المالية —

وقد وجدوا أنفسهم في هذه الشئون وقد وقفوا معارضين أشد المعارضة للتااج . فتقاليد الإنجليز كانت بريطانية من قديم . أما استبداد أسرة التيودور فقد كان بدعة جديدة ، ولم يقبله الإنجليز إلا لأنه كان ثانى أمرىء أحدهما الحروب الأهلية والغزو الخارجى ، وأيدوه ما تمعن به أسرة التيودور من هيبة ومقدرة ومهارة فى معابحة البرلان - وقبل أن تنقضى أخطاء الأرمادا لم يكن لدى البرلان غير استعداد ضئيل لمقاومة أعمال الملك على حين أنه فى أواخر عهد إلإصابات جهر الناس بالذمر الذى أصبح نذيرًا بهبوب العاصفة ومن ذلك ما وقع مرة حول مسألة الاحتكارات عام ١٦٠١ عندما تبينت إليزابيث روح الشعب فى معارضتهأعضاء مجلس العموم فرأت بعين البصيرة أن الحكمة فى الإذعان المؤقت . وفي لمحجة سامية ، لمحجة تبين عن سر سحرها وفقت إليزابيث تعلن عدوطاً لأعضاء مجلس العموم الأوفىاء : «إذا كان الله قد بوأنى مكاناً عليّاً ، فإني مع ذلك أرى جلال التااج فى أننى حكمت مؤيدة بحكمكم . ومن أجل ذلك لا أرى السعادة فى أن الله قد أقامنى ملكرة بقدر ما أراها فى كوني ملكرة على شعب جد شكور » .

أما جيمس الأول وهو لا يتمتع بأى قدر من هذه الكياسة الفاتنة وبوجهة نظر تحالف تماماً وجهة نظر الأعيان وعامة رجال القانون فى البرلان ، فلم يلبث أن أفلح فى تأجيج أوار معارضة بريطانية شديدة الخطر . كان الملك حاذقاً ومتقفاً وفكهاً ، ومن نواح متعددة أكثر استنارة وإنسانية من كل أفراد شعبه . إلا أنه كان شديداً المراس بسبب غروره ، وكان فى تقديره للمواقف السياسية من أسوأ من تربعوا من الحكام على عرش إنجلترا فى أى عهد من العهود ؟ فقد جانبه الصواب فى كل شيء ، وأنار عاصفة من السخط بسبب سياساته الخارجية الودية لأسبانيا وقد اختار من المقربين إليه أولاً روبرت كار Robert Carr ، ثم جورج فيليرز George Villiers وهو دوق بكنجهام Duke of Buckingham فى اختصاصاته المالية السخط العام . كما أثار عليه تجار المدينة ، وتحدى البرلان فى اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب غير مباشرة (أو قروض) مستخدماً ماله من حقوق . وكان له رأى خطأً فى البرلان ؛ كما بلغت به الحماقة أن صرخ به . فأخبر اللوردات وأعضاء مجلس العموم أن امتيازاتهم ليست قائمة على حق وإنما هي منحة

ملكلية ، وقال إن مجلس العموم « لا يتمتع إلا بمحكمة خاصة ومحلية ». وأعلن بوضه أن واجب أعضاء مجلس العموم مقصور على إقرار موارد الدولة والتعبير عن آراء ناخبيهم ، أما تشكيل السياسة القومية وتنظيم الكنيسة القومية فن مسائل السياسة العليا التي يبيت فيها الملك وحده . وقد أجاب البرلمان على ذلك في عام ١٦٢١ باحتجاج شهير تناول الأسس الجوهرية للقضية العظمى : إن حرية البرلمان وامتيازاته واحتصاصاته حقوق أصلية قدية لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزي ؛ وإن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة إنجلترا ووضع القوانين وصيانتها وإنصاف المظلومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاصات البرلمان ، يتشارو فيها أعضاؤه ويتناقشون». وقد وجّد الملك أن هذه المبادئ تعارض آراءه الدستورية لدرجة أنه مزق تلك الصفحة المهيّنة من مضابط مجلس العموم ، وحلّ البرلمان ثم اتهم سبعة من أعضائه بالخيانة العظمى . وكان جون پيم أول زعيم للثورة الإيموريتانية أحد أولئك الذين عانوا من اضطهاد الملك .

وكان يترتب على التسلیم بحرية البرلمان في تشكيل السياسة العامة والاعتراض عليها أن يكون البرلمان أيضاً حراً في عزل الوزراء الذين تعتبر آراؤهم ماسة بالمصلحة العامة . ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟ لم يكن هناك من سبيل أصلح من تلك الوسيلة القديمة العنيفة المعروفة وهي الاتهام بالخيانة . وكانت تمثل في حماكة قضائية في مجلس اللوردات بناء على هم قد حددتها مجلس العموم . تلك طريقة خرقاء غير قانونية وغير ملائمة ؛ فإن أخطاء رجال السياسة لا تبني عادة على عنذر أو خيانة عظمى أو مخالفة أو غير ذلك من التهم التي تستوجب المحاكمة القضائية وإنما قد تنجم عن خطأ في الحكم أو انحراف المزاج أو في سوء التقدير . ومهما كان لتهمة الخيانة من فائدة منتظرة في نتائجها السياسية فقد كانت غالباً بعيدة عن العدل في إجراءاتها وفي العقوبة التي يحكم بها . ومع ذلك فقد بلأ أعضاء مجلس العموم خلال القرن السابع عشر المرة تلو الأخرى إلى تلك الوسيلة بغية الوصول إلى ما كان يبذولهم بغير ذلك بعيد المنال ، ونعني استبعاد الوزراء من المتعسفين ومن غير المرضى عنهم . وهكذا بذلك المقرعة الثقيلة استطاع الزعماء البرلانيون في ذلك العهد أن يمهدوا الطريق الذي انتهى إلى اصطدام وسائل أخرى مما تأخذ به البرلمانات الحديثة وهي وسائل أخف وأحكم .

كان جورج فيليرز، George Villiers ، دوق بكنجهام، جريئاً مسرفاً رقيقاً لطيف العشرة ، غير أنه في تدبير أمور الدولة كان ناصحاً مهوراً وعنيداً . وكان المستشار المفضل لدى الملك جيمس الأول خلال السنوات الأخيرة من حكمه ، كما غدا صديقاً حميمأً وناصحاً يعتمد عليه لابنه شارل الذي خلفه على العرش عام ١٦٢٥ . غير أن البرلان كان عديم الثقة به ، كثيرون النقد لعمله وقد حاول في النهاية أن يعزله عن طريق اتهامه بالخيانة . وبات زعماء مجلس العموم لا يت昐ظرون خيراً من الحكومة طالما بقى ذلك المحظوظ البهيج المعجوف قريباً من ساحة العرش . على أن المنازعات التي قامت بين شارل والبرلنات الثلاثة الأولى لم يكن معها فيحقيقة الأمر غير حقيقة واحدة وهي أن الملك قد أصر على تعضيد وزير صمم النواب على خلعه . ولم يكن ثمة عمل أشد مجافاة للحكمة خلق جو من المراة من تمسك الملك بصداقته لبكنجهام على أن تلك المراة قد توارثها العهد الجديد عن العهد القديم . وأية ذلك أن البرلأن قد تخلى فوراً عن عرفة التقليدي منح الملك الجديد ما قيمته ٣٠٠,٠٠٠ من الجنيهات مدى حياته ، فاقتراح النواب أن تكون هذه المنحة لمدة عام فقط . والواقع أنهم بلغوا في الاقتصاد حد التقدير كما بلغوا في ارتياحهم حد الإجحاف ، فهم لا يأتمنون دوق بكنجهام في الأموال العامة على شروى نقير .

ولن نجاوز الإنصاف حين نأخذ على برلنات العهد الأولى من حكم أسرة ستيفوارت أنها لم تراع العجز الذي أصاب مخصوصات الملك التقليدية نتيجة لمبوط قيمة العملة ، بل إنها كذلك لم تكن مستعدة لرفع الثمن الذي تتطلبه سياستها الخاصة التي كانت تهدف إلى محاربة الإسبانيين وإنقاذ الإبلاتين ومعاونة الهيجونوت على ريشيليوا . غير أنهم لم يكونوا على استعداد مطلقاً لتقديم الموارد التي لا يمكن أن تتحقق بدونها مشروعات من هذا النوع وعلى مثل هذا النطاق ولو قد قدر لهم أن يربطوا مصر وفات الدولتين ويراقبوا سير الإدارة إذاً لتعلموا أن يكونوا أكثر حكمة وسخاء . ولكنهم كانوا يعتقدون على كل فلس ينفق . فدفعوا شارل بتقديرهم هذا إلى أن يسلك سبلاً غير دستورية بغية الحصول على المال ؛ دفعوه إلى فرض ضريبة السفن وإلى القروض الإجبارية ثم دفعوه في النهاية إلى منازعات بلغت من الشدة حدّاً أدى إلى تعطيل الحياة البرلانية عدة أعوام .

على أن الساسة الإنجليز الذين تصدوا للدفاع عن الحريات الدستورية خلال هذه الفترة كانوا من طرazı لانظير له في كافة الدول الأوروبية ، فهم في الغالب كانوا من سراة الريف ، رقهم قبس من العلوم الإنسانية ، فهم قد فلحو الأرض ، وطروا الصيد ولعبوا مع ذلك دوراً خطيراً كقضاة للصلح^(١) في مقاطعاتهم المحلية ؛ وكانت الأصول الحامة لقانون العام الإنجليزي مألوفة لديهم . وعلى الرغم من أنهم كانوا أكثر الهيئات تمسكاً بالنظريات فقد كانوا أشد تشبيثاً بالأصول الشرعية . عليهم مسحة من ذلك الوقار الديني السامي الذي امتاز به رجال القانون من الجانسنست^(٢) في بربان بارييس ؛ بل كانوا أوسع منهم خبرة بالحياة ، وأكثر استعداداً لمقارعة السياسة . كانوا في قرارة نفوسهم رجالاً وقورين سريعي الانفعال ؛ أحسوا بالمسائل العويصة إحساساً عميقاً ؛ وعلى الرغم من أن مجلس العموم قد أصبح عن طريق نظام العجان أداة جد ملائمة لمعالجة الشئون الدقيقة علاجاً فعالاً فقد كان ثمة مناسبات اشتد فيها انفعال الأعضاء حتى استسلموا لسيل من الدموع .

عجز شارل عن سياسة هؤلاء الرجال الذين ملأهم الجلد والنشاط والعناد . ولا يمكن الاستعاضة بالفضيلة والتهذيب عن الإدراك العام الذي يحفل به المرح واللذى من شأنه وحده أن يحفظ للسياسي مهارته في الأجواء العاصفة . فكان يلجأ فوراً إلى حل البربان الذى يضايقه ، وإبداع العضو المزعج بصفة خاصة السجن دون حماكة . إذ لم يدرك معنى معاملة الخصم الأمين معاملة أمينة ، كما لم يتورع عن استخدام نفوذه العظيم لدى القضاء للحصول على أحكام تتفق مع الرغبات

(١) Justices of the Peace : قضاة محليون في إنجلترا لا يتلقاضون مرتبات ، يتمتعون بسلطات واسعة في الفصل في التقاضي الصغرى ، ويحضرون لمقابل الملك إذا أساءوا استخدام سلطاتهم . كان وليم الأول أول من عينهم في ١٦٧٦ . وفي ١٣٢٧ عين إدوارد الثالث من يعروف بالحافظين على السلام Conservators of the Peace وحددت اختصاصاتهم في ١٣٦٠ .

(٢) Janserists : الجانسنيون أتباع كورنيليس جانسن Cornelis Jansen (١٥٨٥ - ١٦٣٨) وهو لاهوقي هولندي ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية . سعى إلى تقويم الحياة المسيحية بالعودة إلى تعاليم القديس أوجسطين ؛ وأسس منهاً عرف باسمه Jansenism نادى فيه بضرورة التشفف والحصول على النعمة الإلهية وقلل من أهمية الشعائر المظهرية مثل تناول العشاء الرباني . وقال إن المبدأ القائل بعصمة البابا عن كل خطأ يجب ألا يؤخذ قضية مسلمة . وقد قضى مرسوم بابوي صدر سنة ١٧٠٥ ، وأخر في ١٧١٣ بطرد أتباع هذا المذهب من الكنيسة الكاثوليكية .

الملكية . ومع ذلك فقد تجمعت نذر الخطر : من ذلك الاوردات الخمسة عشر الذين أبوا أن يدفعوا القرض الإجباري في سنة ١٦٢٦ ، والفرسان الخمسة الذين أودعوا السجن « بإعلام خاص من الملك » لرفضهم دفع ذلك القرض . وقد احتجوا بعد ذلك في قضية شهيرة على أنه على الرغم من ذلك كان من حقهم أن يطلق سراحهم بمقتضى قانون *Habeas Corpus*^(١) ؛ ثم كان هناك تجار لندن وقد رفضوا دفع الضرائب . وأخيراً أصدر برمان ١٦٢٨ وثيقة ملتمس الحقوق ، وقد وضعت بضغط من سير إدوارد كوك العظيم Sir Edward Coke القاضي الأعلى لمحكمة الدعاوى العامة ، وقد أعلنت عدم شرعية أربعة من أعمال الحكومة وهي : التصریح بالأحكام العرفية ، إيواء الجندي والبحارة في المنازل الخاصة ، جباية القروض والضرائب بدون موافقة البرمان ، والسجن التعسفي (دون حاكمة) . ولم يكن شارل ليتفت لأى من هذه الإنذارات . ومن ثم الفجر سخط الشعب في ٢ مارس ١٦٢٩ .

ورفض مجلس العموم في الدورة الثانية للبرمان الثالث أن ينقض بأمر من الملك . وبقي رئيس المجلس في مكانه ، وبإشارة من سير جون إليوت John Eliot تلى القرار التالي على المجلس : إن كل من يدخل في الدين بدعى أرمينية أو كاثوليكية وكل من يُشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرمان ، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعتبر عدوًّا للمملكة والمصلحة العامة . وهنا حل الملك البرمان ؛ وببدأ عهداً من الحكم الشخصي امتد ما يزيد على إحدى عشرة سنة .

وكان توماس ونتورث Thomas Wentworth Earl of Strafford الشخصية بارزة بين الزعماء السياسيين الذين شغلوا بمسئلة إقرار ملتمس الحقوق . أما الدوافع التي جعلت هذا السياسي القوى الخيالي إلى الانحياز في بداية الأمر إلى جانب البرمان ، ثم إلى التحول بجهوده بعد ذلك

(١) *Habeas Corpus* : أمر قضائي يوجهه قاض إلى شخص ما سجن شخصاً آخر وهو يقضى بإحضار السجين في موعد ومكان يحددهما القاضي لكي يمثل أمام المحكمة لسبعين أيام أقواله . وعرف القانون في إنجلترا منذ القرن الرابع عشر وأصبح علاجاً لسجن الأشخاص دون سند قانوني . وأجاز البرمان الإنجليزي عام ١٦٧٩ هذا القانون لكي يدعم الحرية الشخصية في إنجلترا وينبع الحكومة من سجن أي شخص دون تقديمها إلى محاكمة قانونية على أثر القبض عليه .

لتأييد الملك ، فكانت أقل وضوحاً لمعاصريه مما أصبحت عليه منذ ذلك الوقت . ومن ثم اتهم Wentworth بالردة في آرائه السياسية . على أنه في مجال نضال التحول لا يمكن إطلاق لفظ مرتد إلا على من يتبرأ من الجانب الأصلاح من نفسه . ولكن ونثورث لم يفعل شيئاً من هذا . فقد كانت نزعته الملكية تجري في عروقه ، على أنه كان كذلك متหمساً للإدارة القوية العادلة الناجحة . فإذا كان في عام ١٦٢٨ قد تزعم المعارضة ضد التاج فذلك لأنه كان لا يثق في سياسة بكنجهام ، ورأى أن الامتيازات قد ذهبت شوطاً بعيداً ، كما كان يؤمن بأن البريلان « هو النطافى الكبير القادر على التوفيق الحقيقى بين الملك والشعب ». وإذا كان فيها بعد ، عندما أصبح رئيساً للشمال ثم بعد ذلك أثناء إدارته لأيرلندا قد ظهر كرائد لهذه السلسلة الطويلة من الولاة الذين أنجبتهم إنجلترا بعد هذا فإنه بسبب خطورة النزاع البريلانى العنيف قد توصل إلى النتيجة التالية ، وهى أنه من الممكن اتهام الملك على حكومة البلاد أكثر من البريلان . وظلت « الرفاهية المشتركة بين الملكية والرعايا » المهد الأعظم الذى دأب على تحقيقه . على أنه قد توصل إلى النتيجة الآتية وهى أن الدواء الناجع لاضطرابات عصره فى اليد الخازمة أو كما كان يلقبها السياسة النافذة .

واستطاع ونثورث أن يعتمد في هذه المحاولة على المعونة الخماسية التي قدمها له أحد ساسة الإنجليز من المرتبة الثانية ولكنه ترك أثراً كبيراً في تاريخ العالم وهو ولم ولد . وقد أدت سياساته الدينية إلى تأسيس مستعمرات نيويورك وإنجلترا في العالم الجديد والثورة المسلحة التي قام بها البرستاريون في أسكوتلاندا على كتاب الصلوات الأنجليلكانى ، الأمر الذي عجل بوقوع الثورة العظمى . على أن الوسيلة التي دفت إلى حركتين على مثل هذا القدر من الأهمية على جانبي الخط الأطلسي وهما تأسيس نيويورك وإنجلترا وخلع شارل الأول لم تكن نتيجة لمهارة لود السياسية وإنما نتيجة الاستياء العظيم الذى أثارته سياساته . ومع ذلك فإنه لا يمكن نكران مزاياه وإن كانت أقل أثراً من أخطائه . فقد جمع بين الذهن القوى وإن كان ضيق الأفق والميل العميق للتقوى وحساسية مريضة بالضمير ، والتتحمس لأنواع من النشاط الدقيق المتداخل . والواقع أنه عندما كان في أكسفورد حيث أصلح من شأن الجامعة والكليات كان في مكانه الصحيح ؛ على حين أن محاولته دفع الشعب الإنجليزى إلى قبول طقوس دينية كان

الاعتقاد السائد عندئذ أنها تمثل نحو الطقوس الرومانية أندرت بكارثة كان لا مفر منها .

والمأثور أن العقوبات التي فرضها ذلك السيد الأكسفورد القدير على المعارضين الذين رفضوا قبول التمذج الموحد للكنيسة العليا الذي صمم أن يفرضه على الكنيسة الإنجليزية ، تبدو تلك العقوبات خفيفة إذا قورنت بالاضطهادات العنيفة في إسبانيا والأراضي المنخفضة وبوهيميا . حقاً إن ضحايا لود قد حرموا معايشهم ، وفي بعض الحالات المتطرفة حكم عليهم بالجلد وقطع الأذن ؛ ولكنهم لم يحرقوا فقط على القوائم ، أو تقطعوا رؤوسهم ، أو يعذبوا على آلات التعذيب ، أو يسترقوا عبيداً يجدرون في السفن . ومع ذلك فقد كرر جانب كبير من الإنجليز سياسة رئيس الأساقفة إلى حد أدهم بدعوا حركة المجرة إلى سواحل أمريكا الشمالية . فبات يغادر إنجلترا كل عام من ١٦٤٠ إلى ١٦٤٩ مئات من الإنجليز سادة وفلاحين وأجراء في الحقول ورجال دين ؛ واستقروا على سواحل « ماساشوستس » Massachusetts . ولم يكن ذلك نحروتهم على كنيسة إنجلترا وإنما لرغبتهم أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة في نطاق تعاليم تلك الكنيسة . وهكذا تخصّصت سياسة ذلك الأسقف الأكسفوري المتحدّل عن نتيجة عجيبة إذ تخصّصت عن ولايات نيويورك ونيوجيرسي زودت الولايات المتحدة الأمريكية بربع عدد سكانها . وهكذا جاء أعظم حدث في التاريخ الإنجليزي في عهد شارل نتيجة غير مقصودة لسياسة فاسدة . وقد حمل الماربون من لود معهم نظم جيلهم وطابعه إلى مستعمرات نيويورك . وقد تميزت دائمًا مستعمرات نيويورك التي أنشئت متلاصقة بثلاثة مظاهر : الكنيسة المقاومة لخدمة الجماعة Congregational ، و مجلس المدينة ومدرسة القرية . وهكذا استقرت في أعماق الأرض الأمريكية هذه المظاهر في الحياة الإنجليزية القديمة . وقد بلغ من هذا الاستقرار أنه حين قذف عهد البخار إلى القارة الأمريكية بالمالين من المهاجرين من جهات أخرى من أوروبا حلوا في وطن يخضع سكانه لأحكام القانون العام الإنجليزي ويتكلمون اللغة الإنجليزية ويختفظون بكثير من المميزات الأساسية للحكومة الإنجليزية .

وقعت الثورة العظيمة لأن الأسكوتلنديين من سكان السهول الذين كانوا شعباً

حربياً وبرستاريًّا في الوقت ذاته قد رفضوا أن يقبلوا كتاب الصلوات الأنجليلكاني الذي حاول شارل الأول ومستشاره الأخرق رئيس الأساقفة لود أن يفرضه عليهم . وقد كانت مفاجأة تامة لشارل الذي لم يكن يعرف شيئاً عن أسكتلندا أن الأسكتلنديين بدلاً من قبول الطقوس الأنجليلكانية أزلوا جيشاً إلى الميدان ، عجز سادة إنجلترا المسلمين عن مواجهته سريعاً . وكانت مصنفات العقيدة البرستارية غامضة على الملك غموض استعداد الأسكتلنديين لمواجهة الحن في المعركة . وعلى حين كان السادة الإنجليز يفلحون الأرض ويطردون العبيد ، ويديرون الأقاليم ؛ كان الأسكتلنديون من سكان الم الشخصيات قد احتفظوا ببعضهم للعرب نتيجة لالمشاجرات الإقطاعية وغيরتهم لسكان المناطق المرتفعة البدائيين ، وبفضل حميتهم التي أصبحت اختصاص وخبرة المغامرين منهم في الحروب الألمانية . وقد عجب الإنجليز أن يحرو الأسكتلنديون يتزعمهم « إيرل أرجيل » Earl Argyll في اجتماعهم في كنيسة جلاسجو على رفض كتاب الصلوات الذي كانوا يرونها صالحة تماماً لهم . على أن ما حيرهم أكثر من ذلك أن تتمكن هذه الدولة المعوزة الصغيرة ل ساعتها من إزال جيش إلى الميدان عبر الحدود بينما كان ملك إنجلترا لا يأمل في صده بدون الالتجاء بوجه خاص إلى دعوة البرلمان .

وكانت تجربة البرلمان القصير الذي استدعى للموافقة على الاعتدادات الالزمة لخماربة أسكتلندا ، ولكنه انقض عقب دعوته تقريراً (١٣ أبريل - ٥ مايو ١٦٤٠) كانت هذه التجربة كافية لتبين للملك أنه لا يستطيع أن يتوقع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكوه منه الناس . على أنه كان يتهم عليه الحصول على الدخائر والمهماز ؛ إذ عبر الجيش الأسكتلندي تحت قيادة الكسندر لسلி Alexander Leslie في الحروب الألمانية نهر التويد Tweed فاحتل درهام Durham ونورثمبرلاند Northumberland وطالب بمبلغ من المال ثمناً للتفكير في الانسحاب . ولم يكن في وسع شارل الحصول على المال بوسيلة أخرى غير الالتجاء إلى برمان جديد . وعندئذ استقر عزم جماعة كبيرة من أمم اجد الريف على رأسها جون پيم وجون همپدن John Hampden على أن عليهم على الأقل أن يتمخروا لهذا المجلس أعضاء يجبرون الملك على رفع المظالم عن الأمة .

لم تقتصر شهرة البرلان الطويل على إنجلترا وحدها وإنما تعدتها إلى التاريخ العام ، إذ تربت على وضعه حدًّا فاصلاً لاستبداد ملوك إنجلترا نتائج بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الحريات البرلمانية في جميع أنحاء العالم . في الدورة الأولى لهذا المجلس الذي تملك أعضاءه الإخلاص والغضب الشديد ، ألغيت المحاكم ذات الامتيازات (غرفة النجم) ، ودار القضاء الأعلى ، والسلطات القضائية المميزة لمجالس ويلز والشمال) . وأكد الأعضاء في وقار أن جمع المال عن طريق اليمبات أو عن طريق ضريبة السفن دون موافقة البرلان أمر غير شرعي . ومنذ ذلك الوقت بقيت تلك الحدود التي رسمت سليمة من كل اعتداء . وهكذا ضمن البرلان بصفة قاطعة منذ ذلك الوقت حقه في إدارة الشئون المالية ، وتوجيه سياسة الأمة عن طريق الشئون المالية . وما لا شك فيه كذلك أنه منذ ذلك التاريخ ظلت الحقوق المدنية لرعايا مصونة من تدخل الملك التعسفي .

على أنه لم يظهر في ذلك الوقت من الشواهد ما يؤكّد أن هذه المبادئ الرئيسية ستقرر وتدرج في الدستور . إذ كان الجو يفيض بالشائعات المزعجة . فكان يلازم مجموعة زعماء البرلان منظر شبح Strafford سترافورد يتقدم نحو لندن على رأس جيش من الإيرلنديين المتوجهين لكي يعيد للملكية سلطانها . ولم يكن في استطاعة بيم وهو القوة المحرّكة لنشاط البرلان أن يرکن إلى الحرية الإنجليزية ، طالما ظل سترافورد مطلق السراح — لذلك تقدم فرع عليه دعوى الخيانة . ولما كانت الإدانة لا تبدو مؤكدة . فقد استبدل هذا الاتهام في منتصف المحاكمة الخطيرة بتجريده من حقوقه المدنية ومصادرة أملاكه . ولكن سترافورد كان من الخطورة بحيث لا يتوقع إنصافاً من خصومه . فإن أعضاء البرلان الذين حكموا بإعدامه ، والراغبون الذين راحوا يزورون حول القصر الملكي في هول White Hall Tower Hill في البرج Black Tom The Tyrant . إن هؤلاء وأولئك لم يكونوا يفكرون في إقامة العدل إنما كانوا يحرصون على السلامة . وكان إعدام هذا الرجل الجريء الفطن جزءاً من أحداث الحرب وإجراءً احتياطياً عنيفاً ، دبر لتلافى شر سياسي مستطير قد يتوقع فيه الجميع تهديداً لصالح الدولة . وعلى أثر ذلك سارت الحوادث مسرعة نحو صراع مكشوف . فألزم الملك

بالموافقة على قانون لا يجيز حل البرلمان دون موافقة أعضائه ، وهنالك اندفع البرلمان بزعماءه بضم مؤيداً من مدينة لندن حيث كان الشعور البيوريتاني جارفاً ، فاتخذ طائفة من الإجراءات والاقتراحات ، كان القصد منها تطوير طابع الدولة . وإذ كان سخط بضم وأشياوه أكثر انصباباً على الأساقفة ؛ فقد اقترح إلغاء النظام الأسقفي من أساسه وفروعه وأيد الاقتراح التماس وقعه الكثرة من أهل المدينة ؛ وتراءى لضم أن كنيسة بيوريتانية تحت إشراف مندوبيين من أعضاء البرلمان من غير رجال الدين خير من كنيسة أرمنية ، يسيطر عليها موظفو من قبل الملك يؤيدون الاستبداد السياسي ويظهرون نظام الطقوس الدينية . على أن البرلمان تتزعمه هذه القيادة البحرية ذاتها لم يكن راضياً أن يدعى لنفسه حق إصلاح الكنيسة . ثم كانت الثورة المروعة التي قام بها الكاثولييك الإيرلنديون ، وكان من نتائجها قتل عدد كبير من البروتستانت ، فجعلت مشكلة سيطرة الجيش في مقدمة المسائل السياسية التي تواجه إنجلترا .

وعلى الرغم من كافة السوابق ، صمم ييم على أن تعين الضباط بالجيش الأيرلندي يحب أن يكون من حق البرلمان لا من حق الملك ؛ وأصر كذلك على أن يكون وزراء الملك « من الآن فصاعداً من يتمتعون بثقة البرلمان ». على أنه إذا أصبح البرلمان صاحب السلطان في مراقبة المالية والسيطرة على الكنيسة والجيش ومجلس الوزراء فقد غدا بذلك حاكماً على الشعب . وهذا ما لم يكن شارل مستعداً للتسليم به على الإطلاق . وفي نوبة من الجنون صمم الملك أولاً على توجيه تهمة الخيانة إلى كل من الأعضاء الخمسة الذين تزعموا هجوم البرلمان وهم ييم ، وهملن ، وهزارج Hazlerigg ، وهولز Holles ، وسترود Strode ، ثم القبض عليهم في ١٤ يناير ١٦٤٢ . وإذا قصد الملك إلى مجلس العموم « كان الطائر قد أفلت ». ولم يمض على ذلك ستة أيام حتى رأى شارل أن الحكمة تقضي عليه أن يفرّ كذلك من لندن التي كانت تتوحّج بجموع الجماهير المعادية .

وفي غضون ذلك الجدل الحماسي المثير تصدعت وحدة البرلمان الطويل تصدعاً لا يرجى له إصلاح بعد أن ظل ذلك البرلمان قائماً طالما كانت القضية موضع التزاع إعادة التوازن بين البرلمان والملك . فهذا حزب الأسقفية المعتدل ينحاز إلى جانب

الملك متأثراً بالقانون الذي ألغى النظام الأسقفي في أساسه وفروعه (Root and Branch Bill)؛ وتكونت الأحزاب، واشتدت الخلافات بينها عندما ظهر أن يم لم يعد ينادي بما طالب به البرلمان من قبل ، بل كان يرزو في الواقع إلى السيادة المطلقة . وقدر يومئذ حين اندلعت نار الحرب الأهلية أن ثلاثة من مجلس اللوردات وثلاثة من مجلس العموم سيؤيدون دعوى البرلمان .

فأما الشعب الإنجليزي وهو صاحب تقاليد عريقة محببة إلى نفسه من الوظام الاجتماعي فإنه لم ينخرط في صفوف المعسكرين المتخاصمين من الفرسان وذوي الرعوس المستديرة إلا في بطء وبعد إلحاق مريم . على أن الظروف التي تزود في العادة الصراع الداخلي بالمرارة أو تطيل أمده دون داع لم تكن موجودة في إنجلترا فلم تعاد طبقة طبقة أخرى ، ولم يثر جوع على شيع ، بل لم يصبح بالبلاد إشباعاً للرغبات الراسخة لعصيابات النهب والسلب من الجنود المرتزقين . ومنذ بدء الصراع إلى نهايته . كانت راية المبادئ الدستورية تحقق عالية ظاهرة للجميع ؟ كما زوّد أعيان الأقاليم كلا الحصمين بعناصر القيادة فمن قادة حزب البرلمان كان لوردات سيفكس ومنشستر Earls of Essex Manchester واللورد فيرفاكس Lord Fairfax وأوليفر كوموبل . كلهم من طبقة ملوك الأرضي . وهذه الأرستقراطية المستنيرة التي تملأ نفوس أفرادها المشاعر الإنسانية من هوا الرياضة الذين يبطئون في الغضب ، ويسرعون إلى الصفع ، استطاعت هذه الأرستقراطية أن تتزعزع من الحرب أشد سعوهاً أذى وأن يحردوها من بعض وحشيتها ؛ وإن شروط التسلیم السمححة التي قدمت لأسفورد عند تسليمها في نهاية الحرب في ٢٠ يونيو ١٦٤٦ كانت أصلح تسویج لثل هذا النزاع .

تلك حرب استمرت خمسة أعوام كاملة ظفر فيها في النهاية حزب البرلمان يظاهره الأسطول والعاصمة ومدن صناعة المنسوجات والمقطاعات الشرقية مما رجح كفته في الموارد المالية رجحان حاسماً . وإذا كان من شأن المال أن يجعل النصر النهائي مكفولاً إلا أن أثره الكامل كان بطىء الظهور على الرغم من أن حالة الپيوريتان المعنوية لم يتعورها أى انبيار . وفي معركة ١٦٤٣ كان فريق الفرسان (حزب الملك) يفوقون خصومهم من حيث استخدام سلاح الفرسان ومن حيث توفر القيادة في

شخص الأمير روپرت Rupert ابن أخي الملك ؛ فقد كان قائداً من قواد الفرسان الملهمين ، فباتوا خطرأ على خصومهم مما اضطرر لهم إلى الاستعانة بالأسكتلنديين أملا في ترجيح كفته . وهكذا يضطر قادة الحرب دائماً إلى المعاذفة ؛ فإن يم - في حرصه على أن لا يفلت منه النصر - كان مستعداً لمواجهة احتمال سيطرة جيش أسكتلندي على البرمان . وجاءت معركة مارستن مور Marston Moor . (٢ يوليه ١٦٤٤) وهي أعظم مواجهة في الحرب ، فبررت القرارات التي اتخذه يم ، وذلك أن جيشاً مختاططاً من الأسكتلنديين وأهالي يوركشير وأيست إنجلترا East Anglia اكتسحوا جيش الملكيين يقودهم الأمير روپرت ، وتمكنوا بذلك من ضم أقاليم الشمال لنزوى الرعوس المستدية ، وهكذا أنقذوا بضربيه واحدة قضية البرمان من الفشل الذريع .

وفي هذه المعارك التي دارت على أرض يوركشير أظهر كرموليل أوليفر كرموليل لأول مرة بأعماله الحبيدة كقائد للفرسان ؛ على أن الفضل في الانتصار إنما يرجع إلى الجوهر الكامن من رجاله (الحاديدين) فهم مندفعون أبداً ولكنهم أيضاً رهن إشارته . واعترف البرمان بعقبريه قائد الجحديد . وبالرغم من أن كرموليل كان « مستقلاً » في عقيدته ومتتفقاً مع الكنيسة الإرastية Erastian^(١) إزاء المسائل المطروحة ، فقد أفسح له الزعماء البرمانيون طريق التقدم واستمعوا لنصائحه . وهكذا أغلل أمر الخلافات الدينية مرة أخرى بغية الحصول على نصر حربي . ولو قد منيت هذه الحرب بقيادة رخوة إدأ لاستمرت سنوات عديدة ولنشرت السهوم في حياة البلاد . إلا أنها بفضل ما أتقى خلفاء يم في تسخير دفة البرمان من الحزم والقدرة ووصلت إلى نهاية سريعة حاسمة ؛ على أن الفضل في هذا النصر كان قسمة بين كرموليل والبرمانيين في إيجاد تمويل تلك القوة من محترفي الحرب الذين توافرت لهم الرواتب الطيبة والغذاء الصالح ، وهي القوة التي عرفت باسم الجيش المنوذجي الجحديد الذي كسب معركة نازبي Nasby في ١٦٤٥ ، ثم أهوى بالضربات الأخيرة على الخطام المتناثر من الحزب الملكي . وتمسك المشرعون البيوريتان بتلك القاعدة القائلة بأن الواجب الأول لحكومة الحرب هو أن تكسب الحرب . فدرعوا في الرياح نزعاتهم الدينية السالفة وعاونوا كرموليل في تكوين الأداة التي ساقت الملك إلى المقصلة

(١) انظر هامش (١) ص ٢٧٥ .

وأودت بالبرلان الطويل إلى نهاية مخزنة ومحزنة معاً.

ذلك لأن هذا البرلان الذي استطاع أن يكسب الحرب قد بات عاجزاً عن تحقيق الصالح فهو قد أضطهد الملكيين بما فرض عليهم من غرامات معجزة ثم طرد الإكليروس الأنجليلكان من وظائفهم ، كما حرم استخدام كتاب الصلوات الإنجليلكان وبذلك أضاع فرصة استرضاء أعدائه المهزومين . بل كان أدعى إلى العجب أن البيورتيان المتحدلين في مجلس العموم المظفر نفروا أنصارهم بتعصبهم الأحمق . وقد كان الفضل في انتصار ذوى الرعوس المستديرة في الحرب الأهلية للجيش النوذجي الجديد . وكانت أكثر عناصره من صغار ملاك الأرضى في المقاطعات الشرقية الذين كانوا يمتازون على غيرهم من القرى البرلانية بسعة الصدر إزاء كافة المذاهب البروتستانتية . وقد سعى البرلان الطويل إلى حتفه بظافره حين أخذ في اضطهاد المذاهب المختلفة ورفض مطالب الجيش العادلة في المرتبات . فهذا المجلس الذى أظهر العداء لأثنين مظاهر الحياة والحرية فى الفكر البروتستانتى الإنجليلزى وعدم المبالغة بخدمات الجيش الذى حقق له النصر ، هذا المجلس لم يعد صالحأ لحكم إنجلترا . وأثار تعصبه الضيق أعظم شخصيتين فى إنجلترا فى ذلك الوقت وهما أوليفر كرمولى ، وجون ميلتون Milton .

وفي الصراع الذى نشب وقىئت بين البرلان والجيش وقع حادث يصور بوضوح الخلق الإنجليلزى ، ذلك أن آياً من الجنانين لم يكن يفكر فى الاستغناء عن الملكية ، بل سعى كل منهما للاستحواذ على شخص الملك ليتخد منه أداة للمساومة وتسخير إدارة الدولة فى ظل الحكم الملكى القديم المعتمد . وفي المفاوضات الثلاثية التى دارت بين شارل والجيش والبرلان دافع كل حزب عن بعض المبادئ التى رأى أن البلاد فى حاجة إليها ، وهى إذا طبقت فى مجموعها كفيلة بوضع نموذج لسلام وطيد الأركان فى إنجلترا . فالمملك يدافع عن الملكية وكتاب الصلوات الإنجليلزى ، والبرلان ينجد عن القانون العام والحكومة المسئولة ، والجيش يؤيد التسامح الدينى ويرجو له أن يتمتد فيشمل الخالفين للعقيدة الرسمية من المذاهب البروتستانتية . ولكن شارل لم يقدر له أن يعود إلى الحكم لا على يد الجيش لأن الملك رفض شروطه العادلة ، إذ أنه لم يكن على استعداد ليقوم بددور الملك الذى لا يحكم roi-fainéant على أساقفة دون أصول التاريخ الأوربى

سلطان ومناهب لا يحكمها ضابط ، ولا على أيدي الأسكتلنديين الذين لم يتورع الملك عن طلب مساعدتهم البرستاريه .

هناك أخذ شارل يضرب البرلمان بالجيش ويضرب أسكتلندا بإإنجلترا ، مؤملاً على الدوام أن يواتيه بعض الحظ السعيد ، فيتغلب على خصومه ، وكان في مسلكه « تارة امرأة ، وتارة قسيساً ، وتارة أخرى ولدأً ضالاًً مدللاً لم يكتمل بعد نموه »^(١) ، قد سمح لكافة الفرص أن تفلت منه حتى أصبحت الحرب الأهلية الثانية سبباً مباشراً ل نهايته . فلم يكن في استطاعة الجيش أن يصفح عن اتفاق شارل مع الأسكتلنديين ، ذلك الاتفاق الذي دفع بجيشه دوق هامilton Duke of Hamilton إلى الإغارة على لنكشير ، وهدد بإقامة ملكية پرسنطاري في إنجلترا تؤيدها حرب الأسكتلنديين . وإذا عاد كرموليل من الشمال عقب واقعة پرستون Preston مال عقله إلى تأييد القرار الخازم الذي اتخذه الجيش وهو أن هذا « الرجل الدموي » ينبغي لإبعاده . ثم أراح كرموليل العقبات التي أقامها البرلمان في سبيله مستخدماً وسيلة التطهير الجفاقة التي قام بها پرييد Pride ، وبذلك ساق الملك إلى ذلك المشهد الختامي أمام قصر هوبيهول ، ولكنه بذلك أعاد إلى الإنجليز ولاعهم للملكية حين أنزل شارل إذ أن سوقه إلى الموت قد أنزله منزلة الشهداء والساسة من عظام الإنجليز وأحله تماماً من آثاره العديدة : ولقد خابت تكهنات المتبين بقصر حياة الجمهورية التي أقامها قتلة الملك ، فهم قد أخطأوا التقدير الصحيح للنشاط أو التنظيم الذي جاء مجرد نتيجة لحرب أحسن القادة قيادتها . فإن جميع مرافق الحكومة الإنجلizerية قد اتسعت بسبب الحنة التي منيت بها البلاد كما عمت الدهشة أوروبا حين رأت أن الجمهورية الجديدة لم تخل منها أو تنهك قواها هذه الحرب الأهلية التي استمرت خمسة أعوام ؛ بل إن إنجلترا لم تكن في مواردها المالية أو قوتها الحربية أقوى منها في أي وقت مضى بل أهبتها نار الحماسة والكفاح والهجوم ، وهو شيء غريب لم يألفه المزاج العادي للشعب الإنجليزى . لقد انشغلت الجمهورية بالمعارك وإراقة الدماء ، فأخضع كرموليل كل من أيرلندا وأسكتلندا ، كما شن حرباً عدوانية على الهولنديين أولاً ثم على الإسبانيين . وفتحت جمایکا ودنکرک وضمتا إلى إنجلترا . وهكذا انعقد

لإنجلترا لواء الزعامة للمرة الأولى والوحيدة بين دول أوروبا العسكرية . وكتب القائد تورين عشية معركة الدن Dunes التي جعلت ذكرك من نصيب كرومويل ، «إنى رأيت الإنجليز ، إنهم أبدع جيش فى حيز الإمكان»^(١) (يونية ١٦٥٧) . ولم يكن في وسع أي جيش في أوروبا أن يباري جنود أوليفر كرومويل ذوى المعاطف الحمراء في أساليبهم وأنظمتهم وتجاربهم . وقد كانت حملاته على أيرلندا وأسكتلندا جزءاً من خطة عامة تستهدف تأمين سلطان الجمهورية الإبوريانية في كافة أنحاء الجزائر البريطانية بحيث يعجز الكاثوليك أو أتباع أسرة استيوارت عن قلب النظام الجمهوري . وفي معركة قصيرة قاسية (أغسطس إلى أكتوبر ١٦٤٩) استطاع كرومويل أن يسجل اسمه بحروف من الدم في حلبات أيرلندا . فقد أراد من قبل سترافورد Strafford وجيمس الأول وإيمبابات أن يجعل من الأيرلنديين شعباً إنجليزياً بروتستانتياً . على أنه وإن كان قد ماثلهم فيما انتموا إليه من فشل ، إلا أن نتائج فشله كانت أبلغ ضرراً إذا قيس بعظمته وسعة إدراكه . فلم يسفر استعمار كرومويل لأيرلندا إلا عن مزيد من الأضرار ؛ فهوئاء أهل أيرلندا — وقد أجلوا عن ديارهم ليخلوها للجنود والمضاربين في الأراضي من الإنجليز — بلأدوا إلى المستنقعات الملوحة في كونووت Connaught ، حيث توجد سلالتهم إلى اليوم . وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في تلك البقاع المزدحمة ، فهي ما زالت تمثل صورة من الشقاء المادى لا نظير له في أي بقعة أخرى من الجزائر البريطانية ؛ على أن استعمار كرومويل قد غرس المقت في نفوس المواطنين الأيرلنديين لعقيدة البروتستانتية التي كان يرغب في نشرها بينهم وقد أدى ذلك إلى مذابح دروجدا Drogheda ووكسفورد Wexford ودفعـت إلى هجرة الآلاف من الأسر الكلتية البسيطة لتخلي الطريق لأristocratie أجنبية من الملوك ؛ وهذه الوحدة البرلمانية القصيرة الأجل أفسحت للأيرلنديين البروتستانت ثلاثة مقعداً في البرلمان الإنجليزى لم يكن من شأنها أن تعرض شيئاً من هذه الآلام .

وكذلك كان الخضوع العسكري الذى فرض على أسكتلندا عام ١٦٥٢ ناشئاً عن ظروف الحرب الأهلية في إنجلترا . حقاً إن الأسكتلنديين قد صمدوا في رغم

كتاب لود للصلوات إلا أنهم لم يميلوا إلى جانب المنشقين الذين أعدموا الملك الأسكتلندي . فرحبوا بشارل الثاني وتوجوه في سكون Scone ملكاً على أسكتلندا . ثم ألزموا ذلك الشاب المترف الذكي وهو أكثر الراغبين عن دينهم لإباءً ومراؤحة بالولاء لخلفهم وتقاليدهم المؤقرة . ولكن كرمويل في معروكى Dunbar وورستر Worcester ، استطاع أن يقضى على كل أمل في إعادة الحكم لأسرة ستيفارت بمعاونة أولئك البروتستاريين المتوجهين (٣ سبتمبر ١٦٥٠ – سبتمبر ١٦٥١).

هناك تجرعت أسكتلندا نصيبيها من دواء كرمويل ، وهو إن كان أقل عنفاً من النصيب الذي خص أيرلندا إلا أنه خلف مع ذلك مذاقاً مرّاً . كان كرمويل من أكبر أنصار الوحدة – وأية ذلك أن أصبحت إنجلترا أو أسكتلندا وأيرلندا للمرة الأولى تحت حكمه في ظل برتان واحد . وقد كان حدثاً جديداً منذراً بالويل عندما استوى حامي الجمهورية أمام العالم سلطاناً لا يحكم على إنجلترا وحدها بل على بريطانيا العظمى بأسرها . ولكن اتحاداً قد عمد بهم العنف لا يمكن أن يقدر له البقاء . وهكذا انهار الصرح الذي شاده كرمويل قبل أن تستطيع السياسة المدنية تخفيف حدة الغزو الحربي . فلم تكن الملكية أن تعود حتى عادت البريلانات القديمة سيرتها من جديد في دبلن وإدنبرة وعادت الأحقاد القديمة تتبع سيرها الذي لا يرجى من ورائه خير وأبطأت حركة الوحدة الحقيقة حتى في الجهات التي لم يكن الدين فيها عائقاً . وفي كل مكان وقف الكاثولييك والبروتستان وجهاً لوجه ظلت الموجة المظلمة قائمة وانقضى سبعة وأربعون عاماً قبل أن يتافق الإسكتلنديون والإنجليز على أن يتلقوا ؛ أما أيرلندا فكان عليها أن تنتظر حتى عام ١٩٢١ بعد أن اجتازت هزات الحرب العالمية لكي تصل إنجلترا وأيرلندا الكاثوليكية ، بصعوبة ، إلى اتفاق على الاختلاف ، على الأقل بالنسبة إلى ذلك الوقت وإرلندا الكاثوليكية على الانفصال .

أما فيما وراء بحر الشمال فقد كانت تقوم الجمهورية الهولندية ، وترتبطها بقنة الملك من الإنجليز صلات تقوم على التشابه في نظام الحكم الديمقراطي والحرص المشترك في الدفاع عن المذهب البروتستانتي حتى باتت فكرة التحالف بين الإنجليز والهولنديين في شكل من أشكال الاتحاد السياسي أمراً طبيعياً بحيث أصبح بالفعل

موضوع المفاوضة بين الطرفين ؛ ولكن الهولنديين كانوا ينافسون الإنجليز في البحر ، وينافسونهم التجارة . ومنذ أن زوجوا رئيس جمهورتهم الأخير وليم أورنجز William of Orange (المتوفى ١٦٥٠) من ماري كبرى بنات ملك إنجلترا أصبحوا على العموم على صلات ودية بتلك الأسرة التي كانت مبعث الخوف لقتلة الملك . ولم يلبث كلا الشعبين ، رغم ما ربط بينهما من وشائج كثيرة ، أن باعدت بينهما الفرقة كما تباعد العاصفة الموجاء بين السفن . وقد عم تجارة أمستردام السخط حين علموا بإصدار برلمان إنجلترا قانون الملاحة في ١٦٥١ الذي يقضى بـألا تحمل السلع الإنجليزية على سفن أجنبية ؛ وكان المدف المباشر من ذلك منع الهولنديين من نقل التجارة . ولم يكن شعور الإنجليز أحسن من ذلك حيث كان يُنظر إلى الأراضي المنخفضة على أنها وكر للمؤامرات والمخاطر من الفرسان . وإلى كل ما ذكر من أسباب العداوة زادت الغيرة ثم التنافس بين قوتين بحريتين متعادلتين في البحار الداخلية فازدادت العلاقات بينهما خطورة حتى أدت إلى حالة تجعل اشتغال نار الحرب متوقعاً لأنفه حادث . من ذلك أن امتناع الهولنديين من أداء التحية للعلم البريطاني كان نذيرآ بصراع بحري عنيف بين أسطولين عظيمين يقودهما أمهر رجال البحر ، أصحاب فيها كل من ترمب Tromp وبليك Blake حظوظاً متواالية من النجاح والفشل . على حين أصبحت الأراضي المنخفضة في تجاراتها الخارجية الواسعة الانتشار بخسائر متفاوتة — ومنذ الحرب الأولى من الحروب الثلاث التي قامت بين إنجلترا وهولندا أخذت الأرضي المنخفضة تنهار كقوة عالمية . ولم يكدر كرمويل ينهي تلك الحرب بمعاهدة ١٦٥٤ حتى مضى في طريقه بالتدرج إلى تلمس الملابسات الدبلوماسية الأكثر موافاة لضمير البروتستانت . وفي النهاية اتحد مع السويد وفرنسا واستأنف بذلك النزاع التقليدي مع إسبانيا الكاثوليكية .

وقد أخذ على كرمويل أنه ألقى بثقل إنجلترا وقوتها العسكرية والبحرية في كفة النضال ضد إسبانيا وكان عليه — في نظر القادة — أن يحدُر تفوق فرنسا الذي آذن بالظهور . ويعمل مع كبح جماحه ؛ إلا أنه لم يفعل ذلك . وفي تلك الآونة الفريدة التي توافرت فيها لإنجلترا القوة الحقيقية وجهت قوتها تلك توجيهآ خاطئاً ؛ ولكن الحكمة لا تدرك بسهولة إلا بعد أن يقع الحادث . في ذلك الوقت كان يمكن أن يقال الشيء الكثير

للدفاع لا عن التحالف مع دولة لو تركت معادية لاستطاعت بتأييدها للملك المنفي أن تكون مصدر أذى ، هي دولة عرفت في سياستها الخارجية التقليدية بالانحياز لجانب البروتستانت . يضاف إلى ذلك أن أطماع لويس الرابع عشر الخطيرة لم تكن قد ظهرت بعد . ولو قد عاش كرمولين عقداً من سنوات آخر لربما وقف وقفه البطل المدافع عن الحريات البروتستانتية في أوروبا ضد التعصب العدوانى لفرنسا الكاثوليكية (ولسبق ذلك وليم الثالث في الدور الذى قدر له) .

على أن ثمة جانباً واحداً من سياسة كرمولين الخارجية تمىء مع المصالح الدائمة لبريطانيا ، وهو التحالف الإنجليزى البرتغالى الذى بدأ منذ سنة ١٦٥٤ والذى أتاح للأسطول الإنجليزى استخدام ثغر لشبونة البدينع . فقد كانت لشبونة مفتاح البحر المتوسط وفيها كانت الأساطيل الإنجليزية ترمى ويعاد شحنها بالمؤن ؛ وأمنت بذلك الدفاع عن جبل طارق ، ومكنت إنجلترا قبل عهد البخار أن تحتل مكانها كإحدى قوى البحر المتوسط ، وكم أبدى الأسطول البريطانى من شجاعة في مسهل هذا الدور حين مضى أسطول بليك يطارد الأمير روپرت وجماعته ومرّ بتسكانيا والبابوية مطالباً إياهما بالتعويضات ، وضرب تونس بالقنابل ، ورفع العلم البريطانى فوق مياه مالطا والبنديقية وطولون ومرسيليا ! وهكذا قبل أن تظهر بوقت طويل حاجة بريطانيا إلى هذه السلسلة المتداة من القواعد البحرية على طول الطريق البحري إلى الهند أظهر بليك بطل البحار في عهد الجمهورية الذى لا تزال صورته مائلة في كلية وادهام Wadham College في أكسفورد ، أظهر مدى المسؤولية يمكر . أن يتحقق بها مثل هذا العمل الخطير .

ولئن كان عهد الجمهورية والدكتاتورية قد زخر بالمناقشات السياسية والتجارب الدستورية ، إلا أنه ينبغي اعتباره فترة فراغ في تاريخ الشعب الإنجليزى الداخلى أكثر منه مساهمة في تقدمه ، ذلك لأن الأعمال التى بدأ بها أو التى تمت في عهد الحكومة غير الملكية لم تعم بعد ذلك . ولم يكن في استطاعة أوليisher – كما قيل حقاً – أن يحكم بالبرلمان أو بدونه . فقد استحال عليه بحكم طبيعته أن يكون من عشاق الحرية أو حاكماً دستورياً ، واضطره عنف الأحداث الثورية إلى حكم البلاد حكماً عسكرياً ، وهو حكم لم تكن له جذور من رضى الشعب . ولو قد

استفتى الشعب في حرية في أى وقت بعد إعدام شارل الأول إذاً لأعاد الملكية إلى إنجلترا . لكن كرموويل لم يكن في وسعه أن يسمح بمثل هذه الحرية . لقد كان ثمة أمور جوهرية لم يقبل فيها مناقشة خشية المجازفة بانهيار كيان الدولة كلها ؛ نذكر منها على سبيل المثال مركزه وتساحجه إزاء اتباع المذاهب البروتستانتية المشقة ، وعليهم كانت تعتمد قوته ! ولكن هذه الأمور بالذات كانت مما يرحب بكل برلنافى في مناقشتها . ولو قد وضع كرموويل التاج على رأسه كما أراد غالبية أعضاء مجلسه من المدنيين وعدد كبير من معتنى المذهب البرستبارى في لندن إذاً لاستقام هذا الوضع الملىء بالشنود والارتباكات واتخذ شكلاً قانونيًّا يجعله مقبولاً في نظر رجال القانون — ولكن النظام الجمهوري حتى بعد أن توجهه الانتصارات في البحر والبر ظل في نظر شعب عاطفى محافظ كالشعب الإنجليزى أشد غموضاً وأكثر إزعاجاً من الملكية القديمة . على أن أوليفر وإن كان قد بعث مجلساً وهماً للورادات فإنه قد نفر من طقوس التتويج التقليدية ، وقد يكون ذلك بداع من كبرياته وقد يكون عملاً أملته الحكمة أو إحساس دقيق بسلامة الأشياء . وهكذا مات ذلك الرجل العظيم حامياً حمى الجمهورية ، مخلفاً أخلاق ذكرى حكمه البيوريتاني ، وهو بغض الشعب الإنجليزى للجيوش الدائمة باعتبارها عدواناً على الحريات المدنية وهو أمر تميز به الشعب الإنجليزى منذ زمن بعيد ولا زال ماثلاً في القاعدة الدستورية التي تجري بأن الجيش لا يقوم إلا على أساس الإنفاق عليه من عام لآخر .

إن السنوات الأخيرة من حكم أوليفر قد سادتها مرارة البعضاء من جانب الإنجليز وقد قسمت إنجلترا إلى أحد عشر قسماً خضع كل منها لضابط محل كبير . ولم يقتصر واجبه على حفظ النظام بل كان عليه أيضاً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولم تنس البلاد سريعاً، كما لم تصفح عن أعمال البغي الصغيرة التي ارتكبها أولئك الطغاة من البيوريتان ، (ومنهم كثيرون عرفوا بوضاعة الأصل وسوء التربية) الذين قضوا على ما كان يهواه الناس من رياضة وأنقلوا كاهل نبلاء الريف بالغارم الجديدة . وقبل أن يلفظ أوليفر كرموويل آخر أنفاسه بوقت طويل كان الشعب الإنجليزى المؤثر للمتعة يصبو للخلاص من تلك القبضة الرهيبة التي فرضها عليهم فرضاً حكم قائم على التقوى والورع .

كتب يمكن الرجوع إليها

- S.R. Gardiner : History of England. (1875)
- G.M. Trevelyan : England under the Stuarts. (1904)
- W.H. Hutton : William Laud. (1895)
- Lady Burghclere : Earl of Strafford.
- Lives of Oliver Cromwell : C.H. Firth, (1900). John Morley, (1900).
John Buchan, (1934)
- T. Carlyle : Oliver Cromwell (1845-1846)
- T. Carlyle : Historical Sketches Ed. Alexander Carlyle. (1898)
- C.E. Wade : John Pym. (1912)
- W. Notestein : The Winning of the Initiative by the House of Commons (Proc. Brit. Ac.,) (1918)

الفصل العشرون

زعامة فرنسا

لويس الرابع عشر - طابع إمبراطوريته - سياسة كولبيير - المشروعات البحرية لا تجتذب فرنسا كثيراً . تنسيق جزء للشارق في فرنسا - كبت الحريات - المحالفه الفرنسية الإنجليزية - حدود فرنسا الشرقية . حرب الاستحقاق - المحالفه الثلاثية - معااهدة دوفر - معااهدة نيموجن Nimuegen ١٦٧٨ - لويس في ذروة سلطانه - شارل الثاني لويس - اعتلاء جيمس الثاني عرش إنجلترا - إنفاء مرسوم نانت Nantes - الثورة الإنجليزية ١٦٨٨ - انتصار وليم الثالث وسوء تدبير لويس - ميزات إنجلترا - حرب حلف أو جز بورج Augsburg .

كانت أوقراطية لويس الرابع عشر التي تعكس حميمية الشعور القومي الصاعد في فرنسا الحقيقة المسيطرة على تاريخه أوروبا منذ أن انفرد الملك بالسلطان عام ١٦٦١ حتى موته ١٧١٥ . وكما أن أسرة التيودور قد جلبت السلام لإنجلترا عقب الاضطرابات التي أثارتها حرب أهلية طويلة مما دعا إلى زيادة الترحيب بها ؛ كذلك كان حكم لويس الرابع عشر المديد بدایة عهد أمان لفرنسا من الغزو الخارجي ، وخلاصها من أحضر أنواع الفوضى الداخلية التي استمرت حتى وقوع الثورة الكبرى ١٧٨٩ . فلم يعد سلطان التاج يتهدأ النساء الثائرات يتزعمهم ملك إسبانيا كما حدث في عهد الحلف الكاثوليكي وفي حرب الفروندي ، ولئن كان النساء فرنسا لا يزالون يحتفظون ببعض الإعفاءات المالية التي ميزتهم عن العامة وال فلاحين ، فقد قللت أظفارهم ، وجردوا من سلطانهم الفخم ، واجتنبوا البلاط ثم شدّهم إلى فلكه البراق . وهكذا تخلى أشد النساء عتوّا عن استقلالهن في جو فرساي البيزنطي كما فقدوا اتصالهم بالشئون الخلية ، وهوّوا إلى مستوي ندماء الملك في تأمّرهم وتناهّتهم وعبوديّتهم .

كان لويس أول ملك فرنسي جعل من الملكية مهنة جدية . فقرر منذ الوهلة الأولى ألا يدع وزيراً أو صاحب حظوة يوجه شئون الدولة العليا . فقد كانت الملكية في اعتباره مهنة بلغت من المسdio والنبل والمتاعة « سرفة عظيمة نبيلة فاخرة » بحيث لا يمكن أن يقاسمها أحد ؛ فهي وظيفة إلهية ، اثمنته العناية الإلهية

نائباً لها ، استحق بما اختص به أن يكون جديراً بالرسالة الشريفة . كانت له عين نافذة ومظهر فخم وكياسة في مجال النشاط ، وجمع إلى هذا كله عادة ثابتة من الجد والمثابرة وذاكرة قوية وقدرة على استخدام قرائع الرجال الأكفاء ، وعلى الرغم من قوة عواطفه البهيمية كان يعمل ست ساعات من كل يوم ؛ ولم يسجع على الإطلاق لوسائل الحب أن تتدخل في شئون الدولة العامة . فكان الواجب يأتي دائماً في المقدمة ، الواجب كما يفهمه بمعناه الواسع ؛ كالعمل في سبيل تحقيق الغايات العظيمة المؤدية إلى عظمة فرنسا وشربة عاهلها ؛ إذ أن الأمرين شيء واحد : « فحين يضع الملك الدولة نصب عينيه فإنه يعمل لنفسه » بذلك وصي ابنه . وهكذا كان من النادر أن يرى لويس وقد لاحت الابتسامة على وجهه الرزين الذي لوحته آثار الجدرى تحت شعره الطويل المستعار ، حين تحدث خصمه سان سيمون St. Simon الذي شهد سنواته الأخيرة المتداعية عن « القلب الذي لم يحب أحداً على الإطلاق ولم يحبه أحد » فإنما مرجع ذلك أن لويس الرابع عشر كان الملك المحترف الذي لم يلحقه يوماً بصيص من المرح أو نغمة من الغموض ، وإنما مضى في جد ورزانة وتحفظ وأنانية يحمل على كاهله القوى المكتنف ذاتياً أعباء الدولة الجسام .

ويقابل هذا الشعور الحازم بالواجبات العامة أوجه القصور في مزاجه وقد كلفته غالياً . فكثيراً ما اعتبرته نوبات من العجلة المسرية والكبرياء المزوج بالغرور فقضت على أحكم الخطط المدببة ؛ وهذا العاهل الذي بدأ أحياناً آية في التدبير الحادئ وبعد الروية ، تجلده أحياناً أخرى وقد اندفع في عمله تحركه عوامل عنيفة من الحسد أو البخل أو الاحتقار . وقد كتب — لصالح ولده — معلقاً على معاركه الخربية الأولى : « إن سلطاني الطبيعي وشبابي المتدقق ورغباتي الجارفة في رفع صبيتي — كل أولئك قد ملأني شعوراً قوياً بالعجلة ». وهو قد تحرق شغفاً إلى محارة قواد عصره العظام . فيما قاموا به من جلائل الأعمال : « بل ربما إلى تخطى بعض المشروعات التي اعتبروها غير قابلة للتحقيق — ولقد كانت لكسمبورج Luxembourg ونامور Namur ومونز Mons ، وغنت Ghent وبروكسل ماثلة أمامي على الدوام ». ولم تخفف تقدم سنه المتقدمة من حملته . فقد استمر

حتى النهاية يتعشق العظمة ويعقت البروتستانت ، وهي أهواه وإن مجدها مواطنوه تمجيداً كبيراً . أقحمت فرنسا في حرب مرضية دامت أربعين عاماً ؛ فقادتها بذلك إلى الخراب وكلفت البشرية غالياً .

وكانت ملكية لويس الرابع عشر باتساعها وأبهتها وقوتها المنظمة شيئاً جديداً على أوربا . حقاً إن إمبراطورية شارل الخامس كانت أكثر منها اتساعاً ولكنها كانت دونها اندماجاً وكفاءة ودونها قدرة على إثارة خيال العالم . وفي فرنسا - على عهد لويس - وجدت القومية أكمل تعبير عن نفسها دون أن تخفف من حدتها منظمات عالمية أو تعوقها مشكلات عنصرية ، ووجدت الملكية ، كفن ، أعظم مثلها البراقة ، ووجدت الإدارة كقوة موجهة ومدبرة مثالها الأول الحقيقى في أوسع صوره . ويدين الملك خاصة في تحقيق هذا الجهد وزراء تلقوا تدريهم في عهد سابق . وكانت الفترة الأولى من حكمه عصر عظام العاملين في شئون الدولة . فلمع اسم هيوج دي ليون Hugues de Lionne (١٦٦٣-١٦٧١) في الدبلوماسية باسم كولبيير (١٦٦٩-١٦٨٣) في الصناعة والتجارة والتنظيمات البحرية ، باسم لوتبير Le Tellier وابنه لوڤوا Louvois (١٦٧٧-١٦٩١) في الحربية ؛ ولم يكن هؤلاء عملاً قادرين مهراً فحسب ، بل كانوا ذوي جمية للابتکار والتحسين ، فانطبعـت آثار ذكائهم على أنظمة الدولة . ولم يكن لويس ذاته في حبه للتملق المتصل خيراً بأقدار الرجال . فلما زال جيل العمالقة الأول خلف من بعدهم خلف من الموظفين أصغر شأناً وأحط معدناً . إنه الانتقام الإلهي من الحكم الاستبدادي في كل زمان ومكان حين تعوزه نسمات الحرية المنعشة ؛ فيتوقف إن آجالاً أو عاجلاً عن الإفادـة من أجل خدمات الرجال المصلحين وأعلامـهم قدرأً .

كان كولبيير أحد رجال الدولة الذين ازدانت بهم السنوات الأولى من حكم لويس الرابع عشر ، وهو شخصية لا مثيل لها في المرتبة والامتياز . فكان هذا الوطني البارد الطبع الحازم الذي لا يشرب غير الماء الفراح بما اتصف به من همة شاملة عظيمة وإدراك للتفاصيل ومقدرة على التغلب على الصعاب وإنجاز للأمور يعدل مجلس وزراء بأكمله من الرجال العاديين . وقال عنه جوسران M. Jusserand « لم يحدث قبل كولبيير أن أحداً قد أدرك بوضوح قيمة البحرية

والتجارة والمستعمرات والمالية السليمة ، وأهمية تحسين وسائل المواصلات بالطرق البرية والأنهار والقنوات ». فأعلن لنبلاء فرسان التافهين الغارقين في الاهو المبدأ القائل بأن عظمة البلاد إنما تتوقف على ثروتها وأن ثروتها تتوقف على العمل . ومن أبرز مقومات شهرته أنه خلال حياته الطويلة العاملة أخذ يبشر في إصرار وشجاعة بحقيقة لم تمل إليها قلوب الناس وقتئذ وهي أن قوة الأمة لا تقوم بالأزياء البراقة التي يرتديها الجندي وإنما تقوم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات التي تؤديها حق تلك الطبقات من المجتمع التي كان ينظر إليها على العموم عندئذ باستخفاف وازدراء .

ولسوء الطالع كان كوليير يعمل متأثراً بنظرية خاطئة شاعت في ذلك العهد وهي أنه لا يمكن الوصول إلى ثراء بلد ما إلا عن طريق إعجاز بلد آخر . فهو لم يكن يرى في التجارة الدولية تبادلاً للسلع والمنافع يعود بالخير على كل من الجانبين ، بل رآها معركة للحصول على المال ، ربح دولة فيها خسارة للأخرى . ولما كان قد قدر أن عشرين ألف سفينة تكفي لنقل تجارة غرب أوروبا ، وأن كلاً من فرنسا وإنجلترا وهولندا تسهم بدرجات متفاوتة في تقديم هذه السفن ، فقد توصل إلى النتيجة التالية : وهي أنه لا يمكن لتجارة فرنسا أن تستعن إلا عن طريق إضعاف أساطيل كل من منافسيها التجاريين . ومن العجيب حقاً أن رجلاً تميز بمقدراته النافذة يقع فريسة لتصور صبياني فيفترض أن ثروة أوروبا محدودة أو أن قوامها من الذهب . ونتيجة لفلسفته هذه الخاطئة في التجارة وقعت الكارثة حين انساق كوليير إلى تقديم تأييده في الحرب الهولندية التي تسببت بدورها في مشاحنات أخرى مما أدى إلى هدم صرح الرفاهية التجارية الذي كان تشويذه هدف حياته الأساسية .

ومما يؤثر للويس الرابع عشر أنه ظل يؤيد ذلك الإداري الجاف المدبر حتى مماته عام ١٦٨٣ ، ذلك الوزير الذي شهته مدام دي سفينيه de Sévigné بشبائه وبروده في سبيل الوصول إلى هدفه بالنجم الشمالي . ولكن غيره كوليير الوطنية كانت أمراً لا سبيل إلى إنكاره . إذ كان هدفه لا يستخدم العالم أجمع في سبيل محمد فرنسا وملكيها .

وقد تركت الوسائل التي استخدمها كولبيير في تنفيذ سياساته الواسعة آثاراً عظيمة في عصره كما انطبعت عميقه في صييم الحياة في فرنسا ، كان كولبيير مفتوناً بنزعة الإنسان الكامل نحو التنظيم . ولم يفلت شيء من نظرته اليقظة النافذة حتى الفنون والآداب والصناعة والتجارة . وقد تزايدت المكوس التي فرضها على التجارة إلى درجة عطلتها في النهاية . وكانت تنظيماته من الدقة بحيث قضت على مصادر شملت كل نواحي الصناعة . وقد امتدت يده الصارمة إلى أبعد مدى حتى تناولت أبعد ممتلكات التاج . فمن العبث أن يشد المستعمرون الفرنسيون رحالهم عبر المحيط الأطلسي إلى كندا ، أو يضربوا في الطريق العاصف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الغابات الاستوائية في مدغشقر ليفلتوا من كولبيير ؟ إذ وضعت على شواطئ السين مجموعة معقدة من القوانين لتنظيم الحياة في المستعمرات الملكية فرددت في هذا التيه التفاوت القائم في فرنسا الإقطاعية . وعلى حين كان مستعمرو نيوزيلندا يتسمون عبيراً الحرية ، كان المجتمع في المستعمرات الفرنسية مضيقاً عليه الخناق وخاصة لرقابة كل من الكنيسة الممعنة في كثلكتها والملكية المطلقة . وقد بلغ من قلة إدراك كولبيير لقيمة الحرية في تنمية الاستعمار ، أنه كان يلزم الأهالي والمستعمرين على حد سواء ، حتى في مدغشقر بأن يسروا منازعاتهم وفق ما جرى به العرف في باريس .

وعلى الرغم من هذه العقبات فإن كولبيير قد أمد حركة الاستعمار بمحاذيف قوى ، وإن فرنسا لتدين إلى حد كبير دمته وإرادته بما كانت تمتلكه عند بداية القرن الثامن عشر من مستعمرات في أمريكا الشمالية ، ومصائد للأسماك في نيوزيلندا ، ومزارع في جزر الهند الغربية وفي مدغشقر ومحطات تجارية في الهند . كان ذلك كلّه إرثاً مجيداً لم يقدر حق قدره ، ولم يدافع عنه كما كان ينبغي . ولو أن الفرنسيين قد واصلوا - بمحاذيف من روح كولبيير - تأسيس الترسانات في فرنسا لكان من المحتمل أن العلم المثلث الأولان لا يزال يرفرف اليوم على قلعة كولبيك وأن تبقى بعض أجزاء الهند على الأقل ضمن ممتلكات الجمهورية الفرنسية .

كانت مفاسد النظام المالي عميقه الجنور في فرنسا بحيث تعذر إزالتها حتى على هذا الوزير الكفاء . فاضطر كولبيير أن يقبل أسلوباً من الضرائب من شأنه

التفرقة بين أقاليم فرنسا وإعفاء النبلاء من الضرائب ، والاحتفاظ بذلك النظام الفاسد ، نظام تلزم الضرائب وبيع وظائف الحكومة مما شجع على اختلاس أموال الدولة . وهكذا بينما أدت الإدارة الصالحة إلى ازدياد موارد الناج زيادة عظيمة ، فإن طريقة جبايتها قد بددت كثيراً من أموال الدولة ، كما وقع العباء الأكبر — في تقديرها — على أقل الطبقات قدرة على احتمالها — وبذلك كان تاريخ الجهود التي بذلها كولبيير لجمع الأموال اللازمة لحروب سيده فضلاً مظلماً من البؤس والتุسف ، ويمثل نقি�ضاً ضارحاً لتألق فرسان واستهتارها . فيبيعاً كان النبلاء منغمسين في حفلات الصيد والرقص والمقامرة كانت الكلاب المتعطشة للدماء تتعقب المخلوقات التغسسة التي تهرب الملح ، كما كان مئات من جامعي الضرائب من لا حول لهم ولا قوة يزج بهم في السجون لفشلهم في إلزام فقراء الفلاحين بدفع المقدار المعين عليهم من ضريبة العقار ، وعجز كولبيير عن مقاومة المصدر الأساسي لهذه الشرور ؛ فلا أقل من ثورة تقضى بإدخال مبدأ المساواة في مالية فرنسا .

وإن الحكومة التي نستخلصها من عهد كولبيير أنه لا يمكن دفع شعب من الشعوب في طريق لا يرغب في اتباعه : فقد قنع الفرنسي بما كسب من أهلية متواضعة في داخل بلاده وكره البحر وخشيته ، ولم يحفل بالمخاطر ببروطه في مشروعات غير موثوق بها في أطراف العالم ، لهذا باع بالفشل حلم كولبيير بإمبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات مساهمة . كان كولبيير يأمل في أن تصبح مصر تابعة لفرنسا ، وفي حفر قناة في بورنخ السويس ، وأمتلاك سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحري للهند والشرق الأقصى ، سابقاً بذلك في الواقع نفس السياسة التي اتبعتها إنجلترا بعد ذلك بنجاح ، كما كان يأمل في ضم مستعمرات مأهولة بالسكان ومرضى عنها من الشعب ، على أن بي وطنه لم يشاركوه تلك الحماسة ؟ فلم تلق دعوته للمغامرات البحرية آذانا صاغية . وتركز اهتمام العاصمة على الحدود الشرقية التي استغرقت عنايتها والتي كانت تقرب من باريس بصورة مزعجة للغاية . ولم تكن مقتضيات ومشاكل الدفاع غير كافية ؛ وكذلك إغراء المعارك الحربية الصيفية على المسرح التقليدي للحروب في أوروبا ، حيث تقاتل عظماء القواد خلال العصور ، وحيث كان الظفر بال minden الحقائق دائماً .

ُمة مظهر آخر لما استحدثه إقدام كولبيير ، يتضح في محاولته تنظيم القانون الفرنسي فأصدر « قوانين لويس » وهي مجموعة من الشرائع المحكمة الوضع تناولت الإجراءات المدنية والجنائية ، والتجارة والبحرية ، وزنوج المستعمرات (قانون السود) على أنها نظراً لمسكتها بعقوبة التعذيب ، وتحريم المستعمرات على اليهود والبروتستانت ، لا تعتبر من المعالم الإنسانية في العالم . على أن تشرع ذلك العصر له أهميته ، ليس فقط باعتباره أول خطوة هامة نحو وحدة فرنسا التشريعية التي تحالفت بعد ذلك تحت حكم نابليون ، بل أيضاً لأنه وضع الخطوط الرئيسية التي لا تزال الإجراءات في محاكم فرنسا تسير بمقتضاهما . ولم ينجح كولبيير في جمع الشرائع الفرنسية كلها في دستور واحد ، وإنما ظلت تغلب على المجتمع حتى وقوع الثورة بمجموعة كثيفة معقدة من العادات المحلية ظلت تتراءى . ولكن كولبيير قد أورث فرنسا فيما أورثه إليها فكرة جمع الشرائع كما خلف بعض الأجزاء الهامة المتناثرة ، ومنها ما يمكن تأليف تلك الجموعة حين يحين الوقت لذلك .

ولم تدع الروح القومية العسكرية والدينية العنفية التي سيطرت على فرنسا في عهد لويس الرابع عشر مجالاً للحرية الشخصية . فأحمدت الرقابة الصارمة حرية الصحافة ، ومحضنت البلاد حتى لا تسري إليها عدوى المطبوعات الهولندية والإنجليزية المهلكة . وعرضت كتابة الرسائل حياة أفراد وأطرافهم للخطر – ولم يسمح بأى شيء من شأنه إزعاج الحاكم كتلك المقالات اللاذعة التي صدرت في عهد مزان ، أو تلك الاحتجاجات المنظمة التي تقدم بها بربلان باريس أيام الفروندي . حقاً لقد أفلتت هزليات موليير من الرقابة . وقد عوضت فيها حصافة الكاتب المسرحي عن طبيعة أفكاره المناهية للروح المسيحية . ولكن استبعد في صرامة كل ما حمل نقداً للملكية أو تشكيكاً في الكنيسة . وإنه لمن يحيط بدراجة خطيرة من عظمة لويس الرابع عشر . على الرغم من إعلانه المتكرر عن رعايته لرجال الأدب . أنه لم يحرك ساكناً للحد من وطأة نظام جعل من المستحيل على ديكارت ، أعظم مفكري عصره ، أن ينشر في موطنه الأصلي أيّاً من الكتابات التي أعلنت عن ميلاد عهد جديد في الفلسفة الأوربية .

وقد وضح تماماً أن نفوذ فرنسا قد سما سمواً عظيماً . نتيجة للتفكك السياسي

في كل من ألمانيا وإيطاليا ، وتداعي قوة إسبانيا ، وموقف الملكية العائد في إنجلترا . واستطاع لويس في الفترة بين ١٦٦١ ، ١٦٨٥ أن يعتمد غالباً على صداقته وإنجلترا . فكانت أسرة ستيفوارت فرنسية بعض الشيء ، فشارل كان حفيد هنري الرابع ، وكانت أخته هنرييت *(Madame)* متزوجة من دوق أورليان الذي كان أخاً لويس الرابع عشر . هكذا كان كل شيء يجذبهم إلى فرنسا : الدم الفرنسي ، والضيافة الفرنسية أثناء المنفى ، والأبهة الفرنسية ، والأتقراطية الفرنسية . والأموال الفرنسية — ولربما فاق هذه الأمور جميعاً بدرجة كبيرة سحر العقيدة الكاثوليكية لملك فرنساوي العقيدة التي تحول إليها شارل سراً ، وأخوه جيمس علناً ؛ لذلك كانت صداقته فرنسا عظيمة الأهمية بالنسبة لشارل ، وبليمس خليفته بدرجة عظيمة . فقد كانا يأملان بمساعدة فرنسا توفير التسامح الديني للعقيدة الكاثوليكية القديعة ، وقد ينالان لها في النهاية السيطرة ، كما أنهما باستخدام الموارد الفرنسية — الملاذ الأخير — قد يتمكنان من الدفاع عن امتيازات البيت الملكي إذا تعرض التاج من جديد لتحد شديدة . ومن ثم كانت إنجلترا في عهد الملكين الآخرين من أسرة ستيفوارت — فيما عدا فترة قصيرة — موالية لفرنسا .

وفي تقدير العوامل التي أدت إلى تفوق لويس الرابع عشر وسيطرته ، يمثل الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الذي ساد خلال النصف الأول من حكمه مكانة عظيمة الأهمية . فقد أدركت المدن الإنجليزية وهى وإن كانت بروتستانتية تماماً إلا أنها منخمسة في التجارة ، أدركت أن الحاجة الملحة في ذلك الوقت تدعوها إلى إضعاف هولندا أكثر مما تدعوها إلى مقاتلة دولة كانت تعدل هولندا في كره الإنجليز لها — إلا أنها أضعف من هولندا في البحار . كما لم تكن قد أصبحت بعد منافساً خطيراً لها في أسواق العالم الجديد . وكان الشعور في لندن تجاه الهولنديين خليطاً من الإعجاب والحسد والبغضاء — فقد أقام الهولنديون بفضل همهم وحسن تدبيرهم ، وتسامحهم الديني وكرم ضيافتهم ، وكذلك بفضل عاصتهم كعبتهم في التعليم العالي وانخفاض مستوى رسومهم الجمركية ، أقاموا لأنفسهم أوسع تجارة لنقل ، وأقوى نظام في أوروبا . فلن تجد مكاناً آخر في غير الجمهورية الهولندية رأس المال فيه بمثيل هذه الوفرة والرخص ، ونظام البنوك يمثل هذا الرق العظيم ، وبناء السفن يمثل

هذه السهولة، واعتدال الثمن ، وقوانين التجارة بمثيل هذه الملاعة الحاجات مجتمع يعمل أفراده في شؤون التجارة والمال . وهذه الميزات التي قدرها تماماً رجال الحكومة البريطانية لم تكن إنجلترا قد أدركتها بعد (١٦٦٠) في عهد شارل الثاني . وقد أحرز الهولنديون قصب السبق في التسابق إلى المستعمرات والتجارة . ولا كان (وهو افتراض لا يتفق مع الواقع) الاعتقاد في ذلك الوقت أن العالم ليس من «الاتساع بحيث يمكن للهولنديين والإنجليز أن يعيشوا معاً معيشة مزدهرة ، وأن يتابع كل منهم طرقه وأساليبه ، فقد ألح الإنجليز في ضرورة العمل على النيل من قوة هولندا بدرجة كبيرة . وقد ردت حكومة الملكية الإنجليزية العائد إلى الحكم على الاحتياط الذي حرست عليه هولندا بكل شدة في منطقة جزائر التوابي وغرب أفريقيا — ردت على ذلك بسن قانون شامل في عام ١٦٦٠ بضياعة تجارة المستعمرات الإنجليزية من الأيدي الأجنبية . ونشأ عن ذلك صراع كانت له نتائج هامة . فقد ساعدت الحربان اللتان خاصتهما شارل الثاني ضد الجمهورية الهولندية على تقديم الملكية الفرنسية ، كما أن الحرب الأخيرة التي خاضتها إنجلترا ضد هولندا في عهد وليم الثالث والملكة آن قد ساهمت بدرجة كبيرة في أفال نجمها .

ولم تكن بريطانيا الدولة التي تصلح للسيطرة على البحار أثناء الحرب الأولى لشارل الثاني مع هولندا فإنها كانت لا تزال بطيئة الخطى ، يعوق سيرها الفكرية القاضية بأن أي قائد من ذوى الألقاب من قواد البر في مقدوره أن يقود أيضاً الأساطيل أو أن أي حامل متancock تقتنه العصابات المنظمة لتجنيد بحارة الأسطول صالح للخدمة العسكرية في البحار . وعلى إثر موقعة يونية ١٦٦٦ التي استمرت أربعة أيام ، عندما تسبب « دى رويتير » de Ruyter في مقتل وإصابة ما يقرب من ثمانية آلاف شخص عاملين بالأسطول الإنجليزي عشر على البحارة الإنجليز طافين على المياه في ملابس الأحد السوداء كما لو كانوا تماماً خارجين بعد الصلاة في الكنيسة عندما أمسكت بهم جماعة من الإرهابيين . وكانت الأجور متاخرة والطعام غير متتوفر . وكانت ظروف العمل في الطبقات السفلية من السفن من السوء بحيث إن ثلاثة آلاف ملاح إنجليزي وإسكتلندي فضلوا فعلاً العمل مع الهولنديين . ولم تكن ضخامة السفن الإنجليزية وحسن بنائها ، ولا الشجاعة والمران اللتان أبداهما الكثيرون من أصول التاريخ الأوروبي

البحارة الإنجليز السبيل للسيطرة على البحار . كذلك لم يكن من الحكم أن يترك الأسطول خلواً من رجاله في ميناء خال من وسائل الدفاع ، كما حدث في يومية ١٦٦٧ ، عندما توغلت سفن الأعداء في ميدوي Medway ، وأطلقت النيران على تشاتام Chatham ، وأوقعت بالبحرية الإنجليزية ضربة مدمرة دون أن تتكبّد خسائر كبيرة . على أن الصدمة أفادت الإنجليز ، فإن لندن التي كان الطاعون والحريق قد نكلا بها ، لم تنس بسرعة زفير المدفع الهولندية في نهر التيمس . فطرد كلارندون Clarendon رئيس الوزراء من البلاد . وببدأ أعضاء مجلس العموم يمحضون فعلاً التقارير البحرية . وفي نهاية حكم شارل الثاني عاد ذُو القبعات إلى قواعدهم ، وبدئ البحث عن ضباط للبحرية . وهكذا ابُعثت البحرية الملكية الإنجليزية كمهنة منظورة إليها بعين الاعتبار نتيجة للدرس الفاسية التي تلقّها إنجلترا في الحروب الهولندية .

إن مشكلة حدود فرنسا الشرقية التي حاولت معاهدتا لوكارنو^(١) ١٩٢٥ تسويتها بصفة نهائية ، قد بدأت في شكلها الحديث عام ١٦٦٧ ، عندما اجتاز لويس الرابع عشر عند موته فيليب الرابع ملك إسبانيا الأرضي المنخفضة الإسبانية بحجة أن حقوق إسبانيا في هذه الأرضي قد انتقلت بمقتضى قانون بربان Law of Barbant إلى زوجه ، الابنة الكبرى للملك الراحل . وكثيراً ما عرضت سخافة المعاذير التي أدت إلى الحرب المعروفة بحرب الاستحقاق . فكانت مهزلة قلما وقعت لتعكير صفو السلام في أوروبا . على أن لفرنسا بعض الحق في دعواها الحديثة أن الأرضي المنخفضة والفرانش كونتيه ، وإن كانت سياسياً تابعة لإسبانيا فهي في معظمها فرنسية لغة وثقافة ؛ ثم إنها طالما بقيت في أيدي معادية عرضت شرق فرنسا للهجوم . إن تعبير « الحدود العلمية » ينتمي إلى لغة القرن

(١) معاهدة لوكارنو Locarno ١٩٢٥ : سلسلة من الاتفاقيات الدبلوماسية وضعت في لوكارنو (سويسرا) لكتفالة السلام - وبمقتضاهـ :

(أ) تعهدت ألمانيا وبليجيكا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا بأن تتعاون معـاً في ضمان السلام في غرب أوروبا ،

(ب) تعهدت ألمانيا بأن تحل أي خلاف يجري بينها وبين فرنسا وبليجيكا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا عن طريق التحكيم .

النالس عشر . ولكن الفكرة التي يتضمنها هذا التعبير أوحت إلى لويس بهذه السياسة ، كما أوحت بأعمال ثوبان Vauban المهندس الحربي العظيم الذي أتقن وسائل الدفاع عن فرنسا في كل جبهة ، وجمع إلى براعته في فنه قلباً كريماً وبعد نظر الوطني الحر المصلح . ومن ثم فإن حرب الاستحقاق وإن كانت عملاً هجوبياً لم تخل من غرض يتصل بمصالح فرنسا الحقيقة . وكسب « تورين » Charleroi المعارك التي قادها في ١٦٦٧ شريطًا من المدن القلمونية (Charleroi وArmentières وTournei وDouai وLille) ، وهي المدن التي لا تزال فرنسا تحفظ بها إلى اليوم .

وكان لغزو فرنسا للأراضي المنخفضة الإسبانية نتيجة بالغة الخطورة لم يلاحظها لويس إذ ذاك . فقد نبهت الهولنديين للخطر . فأسرعت الجمهورية الهولندية بتسوية خلافتها مع إنجلترا ، وتحت زعامة « جون دي ويت » John de Witt أحد كبار الساسة المدنيين ، عقدت مع إنجلترا والسويد محالفه ثلاثة (في مايو ١٦٦٨) وكانت كافية على قصر عهدها لإيقاف فرنسا وتحت لويس على الجلاء عن فرانش كونتيه (معاهدة إكس لا شابل Aix-la-Chapelle ١٦٦٨) . وقد جرح شعور الخيلاء في العامل الفرنسي أن رأى أن جمهورية تافهة من التجار المارقين أخرجتها فرنسا إلى الوجود لتوازن بها عدداً مشتركاً تبلغ بها الظاهرة أن تنضم إلى حلف صدتها . أما إنجلترا والسويد فلويس يعرف كيف يعاملهما : فكلاهما في حاجة إلى المال ومن المستطاع شراءهما . أما الهولنديون فادخر لهم مصير آخر . في نوبة من الجنون استقر عزم ملك فرنسا على القضاء على الجمهوريين في أمستردام الذين وقفوا لأول مرة حجر عثرة في طريق أطماعه الحربية .

وكان في استطاعة لويس عندئذ أن يعتمد على معونة شارل الثاني في تحقيق هذه الخطة . فمنذ عام ١٦٦٩ ، ساد الاعتقاد في دائرة خاصة ضيقة في فرنسا وإنجلترا بأن الملك قد تحول إلى العقيدة الكاثوليكية . وقد وصل السر إلى مسامع « مدام » Madame أخت الملك ، ومنها إلى لويس الرابع عشر زوج أختها ، فلاحت له بذلك آفاق واسعة من الكسب السياسي والديني . فدببرت مزامرة خصبت فيها (دام) الشابة الجميلة الذكية الملتئمة العواطف بالدور الرئيسي أو أخذت هي على نفسها تحقيقه . ولم تلبث مزامرا التحالف مع فرنسا أن رجحت لشارل بمهارة

على التحالف مع هولندا . ومن هذه المزايا التخلص من المنافسة الهولندية ، في ميدان التجارة وتحطيم البحريـةـ الـهـولـنـدـيـةـ ، وتقسيـمـ هـولـنـدـاـ بـيـنـ إـنـجـلـتـرـاـ وـفـرـنـسـاـ ، والأمل في إقامة جيش ملكـيـ منـ المـرـزـقـةـ الأـجـانـبـ فيـ الأـرـضـيـ المـنـخـفـضـةـ ، ويـكـونـ فـيـ الإـمـكـانـ استـدـعـاؤـهـ إـذـاـ دـعـتـ الحاجـةـ لـحـمـاـيـةـ الـمـلـكـ ضدـ أـعـضـاءـ مجلـسـ النـوـابـ فـيـ إـنـجـلـتـرـاـ ، وأـخـيـراـ إـعادـةـ الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ الـأـوـلـىـ فـيـ إـنـجـلـتـرـاـ . وقد عملـتـ أـختـ المـلـكـ المـتـحـمـسـةـ عـلـىـ إـصـبـ هـذـهـ الحـجـجـ فـيـ ذـهـنـ المـلـكـ وـاحـدـةـ بـعـدـ آخرـيـ ، وـأـيـدـتـهـ فـيـ ذـلـكـ مـحـظـيـتـهـ الـمـاهـرـةـ ، فـلـقـيـتـ أـذـنـاـ صـاغـيـةـ عـنـدـ المـلـكـ الـذـيـ كـانـ قدـ تـحـولـ إـلـىـ الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ حـدـيـثـاـ . وـنـجـحـتـ المـؤـمـرـةـ . فـعـقـدـتـ فـيـ ١٦٧٠ـ مـعـاهـدـاتـانـ فـيـ دـوـفـرـ لـتـنظـيمـ هـجـومـ إـنـجـلـيـزـ فـرـنـسـيـ كـبـيرـ عـلـىـ هـولـنـدـاـ . وـكـانـتـ إـلـحـدـىـ المـعـاهـدـاتـ سـرـيـةـ وـهـيـ مـعـاهـدـةـ مـدـامـ ، لـأـنـهـاـ تـضـمـنـتـ الـاتفاقـ الـدـينـيـ . وـهـكـذـاـ كـانـ شـارـلـ ؛ وـهـوـ مـنـ أـكـثـرـ الرـجـالـ لـطـفـاـ وـاسـتـنـارـةـ ، عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـخـيـانـةـ حـلـيفـتـهـ الـپـروـتـسـتـانتـيـةـ وـتـدـمـيرـهـاـ ، وـلـتـعـرـيـضـ الـحـرـيـةـ الـبـرـلـانـدـيـةـ فـيـ بـلـادـهـ لـلـخـطـرـ فـيـ سـيـلـ تـيـسـيرـ أـحـوالـهـ الـمـالـيـةـ وـتـوـطـيـدـ دـعـائـمـ مـلـكـهـ وـتـرـوـيجـ العـقـيـدـةـ الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ .

إنـ الـحـربـ سـلـسلـةـ مـنـ الـمـفـاجـاتـ . كـانـ جـمـيعـ الـاحـتمـالـاتـ تـؤـكـدـ أـنـ أـسـاطـيلـ إـنـجـلـتـرـاـ وـجـيـوشـ فـرـنـسـاـ لـنـ تـسـتـغـرـقـ وـقـتاـ طـوـيـلاـ فـيـ الـاـنـتـهـاءـ مـنـ جـمـهـورـيـةـ هـولـنـدـاـ الصـغـيـرـةـ . وـلـكـنـ لمـ يـقـعـ مـاـ كـانـ مـتـوقـعاـ . فـيـ الـبـحـرـ أـثـبـتـ الـهـولـنـدـيـوـنـ أـنـهـمـ أـنـدادـ لـأـعـدـاءـهـمـ إـنـجـلـيـزـ . وـفـيـ الـبـرـ أـغـرـقـوـاـ بـلـادـهـمـ فـصـدـوـقـاـ الـفـرـنـسـيـوـنـ عـنـ أـمـسـتـرـدـامـ . وـهـكـذـاـ اـمـتـدـتـ سـتـ سـنـوـاتـ تـلـكـ الـحـربـ الـتـيـ كـانـ مـتـوقـعاـ أـنـ تـنـهـيـ فـيـ أـقـصـرـ وـقـتـ وـأـبـهـيـ نـيـجـةـ (١٦٧٢ـ ١٦٧٨ـ) ؛ إـذـ أـخـدـتـ فـيـ الـاـتـسـاعـ كـمـ يـحـدـثـ دـائـماـ فـيـ الـحـروبـ ، وـأـمـاطـتـ اللـثـامـ عـنـ رـوـحـ الـمـقاـوـمـةـ الـعـنـيـدـةـ الـتـيـ أـثـارـهـاـ مـطـامـعـ فـرـنـسـاـ فـيـ الـعـالـمـ الـتـيـوتـونـيـ . حقـّاـ إنـ الـفـرـنـسـيـوـنـ حـقـقـواـ فـيـ تـهـاـيـهـاـ بـعـضـ أـغـرـاضـهـمـ ؛ إـذـ كـسـبـواـ (بـمـقـتضـيـ مـعـاهـدـةـ نـيـمـجـنـ Nimwegenـ ١٦٧٨ـ ١٦٧٩ـ) فـرـانـشـ كـونـتـيـهـ وـسـلـسلـةـ مـنـ المـدنـ عـلـىـ حـدـودـهـمـ الشـمـالـيـةـ الـشـرـقـيـةـ ، عـلـىـ أـنـ الـهـولـنـدـيـوـنـ لـمـ يـغـلـبـواـ عـلـىـ أـمـرـهـمـ ، بلـ غـدـواـ أـكـثـرـ قـوـةـ عـلـىـ أـثـرـ ثـوـرـةـ أـطـاحـتـ بـالـجـمـهـورـيـةـ وـرـفـعـتـ إـلـىـ السـلـطـانـ أـمـيرـاـ شـابـاـ مـنـ أـسـرـةـ أـورـنجـ وـهـوـ الـذـيـ بـرـوـاجـهـ مـنـ مـارـيـ اـبـنـةـ جـيـمـسـ ، دـوـقـ يـورـكـ فـيـ ١٦٧٧ـ ، قـدـرـ لـهـ أـنـ يـصـبـحـ فـيـمـاـ بـعـدـ وـلـيمـ الثـانـيـ مـلـكـ إـنـجـلـتـرـاـ وـأـنـ يـكـونـ رـوـحـ الـحـرـكـةـ لـلـمـقاـوـمـةـ الـأـورـوبـيـةـ ضـدـ فـرـنـسـاـ .

وعلى الرغم من شروط صلح نيمجن الموقعة « ذلك الصلح الفرنسي » الذي يحدد فيه المؤرخ الفرنسي الحديث أسباباً يجعله خليقاً بالثناء عليه ، فقد أظهرت الحرب ظواهر كثيرة من شأنها أن توحى لسياسي أكثر حذراً من لويس الرابع عشر باتباع سياسة تقوم على الاعتدال وضبط النفس . فقد أثار ظهور جيش فرنسي على نهر الراين تأليباً كبيراً ضد الفرنسيين ، شارك فيه الإمبراطور وكافة الإمارات الألمانية – فيما عدا بفاريا – مع إسبانيا والدانمرك وهولندا . وهزمت السويد التي كان لويس يضع كل ثقته في أساسها المعروف في واقعة فهربلن Fehrbellin الحاسمة (١٦٧٥) تلك الواقعة التي أعلنت لأول مرة للأوربيين صلابة معدن الجندي البروسى ، وبوأت منتخب براندنبورج الأعظم وعبيد أسرة هوهنツولرن Hohenzollern المكان الأول في ألمانيا الشمالية . وكان ذلك نذيراً واضحاً لتابعه قبلة لفرنسا .

على أن لويس لم يكن الشخص الذي يبالغ بتلك الظواهر المتجمعة للمقاومة الأوربية . إذ قدمت له إصلاحات لوفوا الحرية جيشاً نظامياً من مائة ألف من المقاتلين الأقوباء أعدوا إعداداً منظماً وزودوا بالحراب ، وعين لهم ضباط محترفون تلقوا تدريباً حديثاً . أما البحرية الفرنسية فقد نمت تحت إدارة كولييرا الخازمة فأصبحت أسطولاً من مائة سفينة بعد أن كانت مجموعة من خمس عشرة سفينة . وعلى الرغم من أنه كان لا يزال عليها أن تتعلم الشيء الكثير فإنها قد ببرت أنظار أوروبا وخاصة إنجلترا بمشاركتها كاملة في الحرب الهولندية . ومن ثم استمرت عملية التوسيع وتنمية الحدود الشرقية . وشكلت محاكم محلية عرفت باسم « مجالس الضبط » . Chambers of Reunion ، لكن تقرر مدى حقوق الملك في الأراضي والأسقفيات الثلاثة ، وفرانش كونتيه بمقتضى معاهدة مونستر ؛ وما كانت لغة المدافع على استعداد دائماً لتعويض ما يغفله القانون ، فإن نتائج ذلك البحث الذي لا نظير له كانت مرضية للويس . ففتحت فرنسا السيادة التامة على الأراضي وأكلمتها بالاحتلال الحربي لمدينة ستراسبورج (سبتمبر ١٦٨١) . وخرج لويس من هذه الحرب القصيرة التي أثارتها هذه الإجراءات التعسفية مكلاً بنجاح ملحوظ . ولم يكن الإمبراطور - بسبب انشغاله بالغزو التركى الذى كان يشق طريقه إلى أبواب فينا - في حالة تمكنه من تقديم عون ذى بال لدول التحالف الثلاثي في عملياتها الحربية ؛

وهكذا مكنت هدنة رجنسبورج Regensburg (١٦٨٤) لويس من الاحتفاظ مدى عشرين عاماً بكل ثمار جهوده الطويلة المتصلة لتحسين حدود فرنسا الشرقية (وهي قلاع الفلاندر، ولكسنبورج ، وفرانش كونته ، والألزاس وستربورج) . وهنا كان جديراً به أن يقف ، إذ قد بلغ أوج سلطانه .

ولكن مطامع لويس كانت قد أصابت أوضاع أوروبا ، كما نظمتها معاهدة وستفاليا ، بهزة خطيرة . كانت فرنسا ضامنة لتلك المعاهدة وقد أفادت فرنسا منهافائدة لا نظير لها ، ومع ذلك فإن معاهدة وستفاليا لم تكف لسد مطامع لويس . فلم يتورع عن نقضها ، وراح يفقد الأصدقاء كلما أظهرها ما تجيشه به نفسه من أطماع فزاد بذلك من حشد أعدائه . في أول الأمر أزعج هولندا ثم ألمانيا ثم السويد . وأخيراً فقد صدقة إنجلترا .

كان الاحتفاظ بصدقة الإنجليز أو على الأقل بجيادهم منذ عام ١٦٦٨ من أهداف السياسة الفرنسية الرئيسية . وفي نظير تحقيق تلك الغاية وزع المال بسخاء على الملك والبلاط والبرلمان ، بل على رجال الدين من المذهب البرسبيتاري . وقد أصابت هذه السياسة نجاحاً – وعلى الرغم من الغيرة الوطنية التي أثارتها رؤية الغزو المدهش لبحرية فرنسا وقواتها العسكرية فقد استمر السلام يسود العلاقات بين فرنسا وإنجلترا تحت حكم شارل ، على أن سفراء فرنسا في لندن لم يفهّموا إدراك الشعور الحقيقي للشعب الإنجلزي . فمنذ الوهلة الأولى لغزو لويس للأراضي المنخفضة الإسبانية اجتاحت البلاد موجة من الذعر ، وتنبأت بالعدوان عليها ، وخشيت الغزو . ثم أنشأ باريون Barillon من لندن لويس فيما بعد في أغسطس ١٦٧٧ أن صديق فرنسا الوحيدين في إنجلترا هما شارل الثاني وأنحوه جيمس دوق يورك . ولاح للشعب الإنجلزي أن منافسة إسبانيا القديمة أو منافسة هولندا الأخيرة كانت أقل هولاً من قوة فرنسا الحربية والتجارية الجديدة . على أن شارل استطاع أن يتغلب على الصعوبات الكبيرة التي أثارها عليه حزب الهويج بزعامة شافتسبury Earl of Shaftesbury اللامع بالاستعانت بالموارد الفرنسية ، وازدياد إيراد الجمارك وحيله الخاصة . فأنقذ تاجه وتحاشى الحرب وانتصر على الحركة التي كانت ترمي إلى حرمان أخيه من العرش ، وحلّ البرلمان وحطّم حزب الهويج . واستطاع خلال السنوات الأربع

الأخيرة من حكمه ، بفضل معاونة لويس الثمرة له إلى حدما ، أن يحكم إنجلترا دون الالتجاء إلى برلن .

كان من الخير كل الخير أن يكون في بلد لا يزال يصلى بنار الطائفية أن يكون على رأسه ملك يعالج الأمور بمثيل ما عالجها شارل الثاني بقليل من الحدة وكثير من الاستشارة . كانت فطنة شارل وجاذبيته ، وبساطة أخلاقه ولطف أساليبه وبراءاته الكاملة من كل أنواع التعصب ، وهذا مقرضاً بحسب استطلاعه العلمي كان بمثابة جرعة الدواء المرطبة لمريض أضنه الحمى . ولم يكن إسراف بلاطه المكشوف في الملذات يتناهى ونوبات من العمل الذي أحسن توجيهه . وقد وضعته مرونة ذهنه في نواح مختلفة فوق مستوى عصره بدرجة كبيرة . وعلى الرغم من اضطراره إلى الموافقة على إجراءات الاضطهاد التي صدرت من برمان الفرسان Cavalier Parliament (١٦٦٠ - ١٦٦٧) ، فقد كان من أنصار التسامح الديني ، فأثار عليه خصومة برماناته بمحاولاته توفير التسامح عن طريق استخدام سلطاته الخاصة بتجاوز القانون . وعلى غرار أوليفر كرومويل تبين له ازدياد أهمية مستعمرات إنجلترا فيما وراء البحار وقتها . البحريمة ثم إن قوانين الملاحة التي صدرت في عهد الجمهورية (Protectorate) لكي تضمن لإنجلترا احتكار التجار مع مستعمراتها قد تطورت في عهده إلى أن أصبحت جهازاً من القوانين والقواعد تتنظم كافة مجالات التعامل بين إنجلترا ومستعمراتها .

وقد حفظ له إحساسه المرهف باتجاهات الرأى العام وتقلباته ، ذلك الإحساس الذى بلغ من الدقة بحيث لم يكن يتمشى والشجاعة المدنية الحقة ، حفظ له عرشه سالماً في وقت كان الإفصاح فيه عن أفكاره الباطنة كفيلاً بأن يحدث اضطراباً خطيراً . على أن الناس مهما بلغ منهم الشك لم يعرفوا أن ملوكهم الدستوري كان في قرارة نفسه مستبعداً في آرائه السياسية ، وكان أوليكىًّا في عقيدته - كما أفهم جهلوه أنه كان عميلاً يتلقى مرتباً من فرنسا - ذلك لأن شارل لاذ بالصمم حتى إنه تناول طعامه مع الشرير « تيتوس وأتس » Titus Oates ، ولم يوجه له كلمة تأليب صريحه عندما أخذ هذا يذيع افتراءات مهلكة ضد الكاثوليك من أبناء دينه . فهو لم يكن في تساحه وحذره بالفارس الذى يعرض نفسه للخطر .

كان الموقف يتطلب رجلاً أقوى من شارل الثاني لوقف تيار الاهتمام الناس بشئون الحكم ، ذلك الاهتمام الذي أطلقته من عقاله العواطف التي لابست الحرب الأهلية . فقد وقف الناس على قدم وساق ، يتحدون ويتناقشون ويقرعون الأنباء ويرفون رجال البرلمان في عملهم . وكانت رسائل هارفييل Harvell إلى ناخبيه في هل Hull تمثل ظواهر العهد الجديد . كما كان كذلك نمو الحزبين الهويج والتوري ، اللذين اتخذنا شكلاً محدداً لأول مرة في النقاش الذي دار حول اقتراح حرمان دوق يورك (جيمس الثاني فيما بعد) من العرش بسبب عقيدته الدينية ، إذ كانت إنجلترا متشبّثة بعقيدتها البروتستانتية ونظمها البرلانية . وكانت الأخطاء الشنيعة التي ارتكبها زعماء حزب الهويج ، وقد بلغت قمّتها بتأييد هؤلاء الزعماء لمفتريات Titus Oates كانت هذه الأخطاء وحدها هي التي قدمت لشارل فرصه انهزماً ببراعة فائقة لحل البرلمان في عام ١٦٨١ .

مات شارل عام ١٦٨٥ . وخلفه على العرش جيمس الكاثوليكي المتّحمس المجاهر بعقيدته . وكانت خطته تهدف إلى توفير التسامح قانونياً لأبناء دينه وذلك عن طريق حشد البرلمان بمؤيديه ، وإعفاء الكاثولييك من العقوبات التي كانوا يتعرضون لها بمقتضى قوانين البلاد – ولن تجد سياسة من الناحية الدينية أو الدستورية يمكن أن تعافها النفس في بلد بروتستانتي دستوري كتلك السياسة ، وخاصة عندما أصبح من الواضح أن النجاح في تنفيذها يتوقف على مساعدة فرنسا وأيرلندا وقوة عسكرية دائمة ، وكلها عوامل من شأنها في الجو الذي ساد البلاد عندئذ أن تقضي على أي تفاهم مع الشعب الإنجليزي .

كان جيمس لازماً للويس كما كان لويس لازماً لجيمس تقريراً إذ أن المناوىء الحقيقي لجيمس في إنجلترا لم يكن دوق منموث Monmouth البروتستانتي الذي قضى على ثورته المشؤومة في سيدجمور Sedgmoor ولكن المناوىء الحقيقي لجيمس كان وليم أورانج الذي تزوج في ١٦٧٧ من الأميرة ماري الابنة البروتستانتية لملك إنجلترا . كان أمراً بالغ الأهمية إذن للويس أن يظل الملك الكاثوليكي على عرش إنجلترا وأن يتمكن رعاياه المشاكسون – وهم لا يحصرون عدداً – احتمال نيره في رصانة ، وطالما بقي جيمس على عرش إنجلترا ، فليس ثمة ما يدعوه للخوف من مضائقات الأسطول

الإنجليزي المستعمرات جزائر الهند الغربية ، التي كان لكونه الفضل في تدميرها ، أو من اشتراك الجيش الإنجليزي في العمليات الحربية ضد فرنسا في القارة الأوروبية . على أن ولما أورنبع كان أشد أعداء فرنسا كافة اسماته وعناداً . وكان اتحاد إنجلترا وهولندا تحت قيادته من شأنه أن يثير متابعة خطيرة أمام لويس الرابع عشر .

وحدث عندئذ ، في الوقت الذي كان من الأهمية البالغة بمكان لنجاح السياسة الفرنسية في أوروبا بصفة عامة أن تظهر فرنسا تسامحاً إزاء رعاياها البروتستانت أن الغي لويس مرسوم نانت (١٦٨٥) . فعل الرغم من رغبته في تأمين التسامح للكاثوليك من الإنجليز فإنه استرد ذلك التسامح الديني الحكم الذي منحه جده للبروتستانت الفرنسيين ، فحرم عليهم العبادة وطرد قسيسهم ، وحطם كنائسهم ، وأغلق مدارسهم وهكذا دفع حوالي مائة ألف من خيرة الصناع المهرة إلى مبارحة مملكته إلى بلاد أجنبية حيث أقاموا صناعات نافسة الصناعات الفرنسية ، وأثاروا حقداً لا يهدأ ضد فرنسا . ولعل خير ما يمكن أن يعتذر به عن هذا التصرف الجنوني الذي لا مسوغ له أنه لم يجيء نتيجة لتأثير مشورة مدام دي مانتون Madame de Maintenon وهي السيدة العجوز البصيرة الورعة التي تزوجها الملك سراً عام ١٦٨٣ ، وإنما لأنه أرضى رجال الدين والدنيا في فرنسا . في القرن السابع عشر كان بوسع الرجل الفرنسي العادي أن يكون كاثوليكيّاً مخلصاً لعقيدته وفي الوقت نفسه خصماً لسلطان الكنيسة : فهو جاليكاني^(١) وليس بابويّاً ؛ وهو كاثوليكي وليس بروتستانتياً ولم يكن ثمة ما يخيفه أكثر من تجدد الحروب الدينية التي قضت على كثير من البيوت ، ومررت حياة عدد كبير من الأسر ، وخلفت وراءها سلسلة طويلة من الذكريات الأليمة التي فرق بينهم . ولقد كان من الواضح لصاحب الإدراك الماحد الرزين أن « كنيسة الإصلاح » - كما كانت تسمى - لم تعد منذ أيام ريشيليو تمثل خطراً سياسياً . إذ لم تعد تملك استحكامات ولا جيوشًا . وقد بقيت هادئة أثناء

(١) جاليكان Gallican أي من أنصار حرية الكنيسة الفرنسية ؛ وهي التي أعلنها مجتمع ديني عقد عام ١٦٨٢ من رجال الكنيسة الفرنسية لتأييد لويس الرابع عشر في ادعائه الخاص بسيطرة الدولة التامة على الكنيسة ؛ فاحتاج البابا إيزوستن الحادي عشر على محاولة ملك فرنسا اغتصاب حقوق البابا في الإشراف على جميع شؤون الكنيسة الدينية واللاهوتية على السواء .

ثورات الفروند . وخدم أعضاؤها الدولة في الجيش والبحرية والقضاء وكسبوا لأنفسهم مكانة سامية في عالم المال والتجارة والصناعة ؛ على أن فرنسا لم تشعر بالاطمئنان طالما بقي يعيش فيها ملايين من الهيجونوت بمجالسهم الكنسية ومدارسهم ، وقسّبوا أصحاب الملابس السوداء وطقوسهم الدينية الخاصة . لم يكن الجمهور الفرنسي راضياً عن هذه الطائفة التي كانت لها خطورتها في الماضي ، وقد تعود لها خطورتها لإقليم الناس عليها بسبب ما تبيحه من زواج القسس . وكان ثمة من يغبط الهيجونوت على ثرائهم كما كان ثمة من ينفس عليهم نشاطهم ، ومن الناس من ساعده عنفهم ، ومنهم من ساعده تعصّبهم ضد جيرانهم الكاثوليك في البلاد التي سادت فيها الكنيسة البروتستانتية . وتساءل الناس كيف يسمح لهذه الطائفة العنيفة للعقل ، الطائفة التي هجرت دينًا جديراً بأن يعتنقه ملك فرنسا وانتمت للكنيسة تشكلت بالطابع الجمهوري ، كيف يسمح لها أن تقيم لنفسها كياناً خاصاً منبذاً في بلد كاثوليكي ملكي . وأخذ مجلس الكنيسة في فرنسا يقاد الالتماس عاماً بعد عام للقضاء على هذه الهيئة الأجنبية . وخضع لويس لذاك الضغط مع أنه لم يكن بطبيعته متعصباً . وفرضت عمداً مختلف الوسائل القاسية الضالية لجعل مركز الهيجونوت في فرنسا أمراً لا يطاق بحيث يضطرون إلى اعتناق العقيدة الكاثوليكية . ونجحت هذه السياسة البغيضة إلى حد بعيد . على أن أولواً من الهيجونوت الذين ظلوا محتفظين بدياناتهم خلال عشرين عاماً قاسوا فيها من مضائقات الاضطهاد ، وإن كانت أقل شأناً مما كان يتطلّبهم على عهد لويس ، بارحروا البلاد عندما احتلت مساكنهم جنود لوڤوا Louvois من الدraguons (١٦٨١ - ١٦٨٥) ، وأصبح السباب والقتل والاغتصاب جزاء من يتسلّك بعقيدة آباءه . وعندما ساد الاعتقاد بأن الإرهاب قد أدى غايته ، وأن مقاومة هذه الطوائف العنيفة قد تحطمـت ، وأن من ي sisir تحويل البقية البائسة عن عقidiتهم ، ألغى مرسوم نانت وتعالت أناشيد التسبيح تحمد هذا البطل من أبوطال المسيحية الذي استطاع في النهاية أن يتغلّب على أوهامه ويُعنى عنایة جدية بخلاص روحه ، فياري بذلك فعال الأباطرة قسطنطين وتيودوسيوس وشرمان . وقال له بوسويه Bossuet واعظ البلات : « إن هذا هو أثمن ما قدمتم به في حكمكم من جلائل الأعمال وإنه المميز الصادق لحكمكم ، ففضلّكم

لم يعد للزندقة وجود ، وإن الله في عيامه سماهه قد أنزل هذه الآية » . ولكن مهما بلغ من سرور الفرنسيين الكاثوليك بإلغاء مرسوم نانت ، فإن هذا العمل لم يكن قط السيلة التي يحصل بها جيمس الثاني على رضى شعبه في لندن إلى سادها المنصب البيريتاني .

وعجلت رعونة جيمس بمحاولته فرض الكاثوليكية على مواطنيه بوسائل غير دستورية بوقوع « الثورة الحبيدة » في ١٦٨٨ ، تلك الثورة التي نصبت وليم الثالث ملكاً على إنجلترا . كانت ثورة مجيدة لأنها اتسمت بالتسامح ، وتركت عن اضطهاد الفريق الذي غالب على أمره . كانت أيرلندا المسرح الرئيسي للحرب البرية ، وبفضل انتصار بوين Boyne الشهير (٣٠ يونيو ١٦٩٠) ، واستسلام ليريك Limerick بعد ذلك بعام واحد ، قويت القبضة السياسية لإنجيلترا البروتستانتية على الكاثوليك في أيرلندا لمدة قرنين واثنين وأربعين عاماً^(١) ؛ وفي خلالها أسفرا التنافس الطويل على السيطرة الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا عن نتائجه .

لم يتوقع لويس أن تقدر إنجلترا على القيام بهذه الثورة البيضاء ، بل إنه خرج منها أقوى بكثير عن ذي قبل بفضل انتصار مبارتها البرلانية . كما أن هذه الثورة تعارضت بشدة مع الفلسفة السياسية السائدۃ عندئذ في القارة . ولو قد بذلك فرنسا بعض الجهد لاستطاعت أن تمنع وليم من التزول في ترباي Torbay . ولكن لويس بدلاً من أن يستخدم جيشه لإثارة المتابع لوليم في الأراضي المنخفضة ، أرسله إلى إقليم البلاطين حيث حيل بينه وبين التأثير في مجرى الحوادث . وتفسير ذلك أن لويس اعتمد على حرب أهلية طوية الأمد تشن حربة إنجلترا ، وطالع في صبر وهدوء إلى توقع حدوث شقاق بين خصوميه الرئيسين إنجلترا وهولندا .

ولا حاجة بنا إلى الدهشة لأنه أخطأ التقدير ، فإن مبادئ حزب المويج في إنجلترا ، ذلك الحزب الذي وضع تسوية ما بعد الثورة ، لم تكن كافية بأن تبعث على

(١) استقلال أيرلندا : - بمقتضى المعاهدة التي أبرمت في ١٩٢١ بين بريطانيا والولايات الجنوبية الإيرلندية صارت أيرلندا (ما عدا الولايات السبع الشمالية التي تقع في الشمال الشرقي من إيرلندا والتي رغبت في إبقاء علاقتها مع بريطانيا) تتمتع بمثل ما تتمتع به كندا من حرية واستقلال ذاتي . ونالت حريات أوسع بمقتضى قانون وستمنستر (١٩٢١) .

الثقة في الاعتدال وضبط النفس . في كفاحهم — رجال الهويج — لإنقاذ چيمس عن العرش كادوا يلجأون إلى العنف في معاملة خصومهم من الطوائف الأخرى ، فأيدوا المفتريات الشنيعة التي كان يروجها « تيتاس أوتس » Titus Oates والتي لم يكن لها أساس من الصحة ضد الكاثوليك ، كما عضدوا الثورة المسلحة التي قام بها مؤمنث Monmouth ضد چيمس — وقد تلقى بعضهم مالاً من فرنسا ولكنهم استمعوا إلى صوت الاعتدال أثناء أزمة ١٦٨٨ ، وكانوا تحت زعامة هاليفاكس Halifax المنظم (The Trimmer) وهو أحد عظماء المصلحين في إنجلترا . ولم يكن لويس ليستطيع أن يتبنّى بذلك ، ولا أن يتبنّى بأنّ رجل الحرب والسياسة ذلك الهولندي الرابط الجأش الذي استدعاه الهويج لإنقاذ الدولة سيشق طريقه فوق أحقاد الانتقام الحربي ، وينجح في مهمته غير العادية ، مهمة جعل إنجلترا دولة متحدّلة العناصر وإن كانت آخذة بالنظام البرلاني .

وفي أي مقارنة بين القوى البشرية في فرنسا وفي الدولتين اللتين قد اجتمعنا تحت حكم وليم الثالث نجدهما دون فرنسا بدرجة كبيرة . فعلى حين كان عدد السكان في إنجلترا حوالي خمسة ملايين ونصف المليون ، وسكان الجمهورية الهولندية حوالي ملايين ونصف المليون ، كان عدد سكان فرنسا حوالي تسع عشر مليوناً أو عشرين مليوناً . على أن إنجلترا كانت تميّز عن فرنسا بغيرتين : الأولى أن البحارة الإنجليز على إثر الانتصار البحري الذي أحرزوه في لا هوج La Hogue (١٦٩٢) وطدوا تفوّقهم الخامس على البحرية الفرنسية ، التي كانت قد فقدت عندئذ إدارة كوليبر العظيم الفريدة — أما الميزة الثانية ولعلها أهم من الأولى ، أن شكل الحكومة التي كسبتها إنجلترا في ثورة الهويج كانت أكثر ملاءمة من الحكم الاستبدادي في فرنسا لما جههه الضيق المالي والتغيير الاجتماعي . أما لويس فقد نبذ كل سلطة دستورية من شأنها أن تحد من سلطان الملك ؛ فرفض أن يستدعى مجلس طبقات الأمة وقصر مهمة البرلمانات على ممارسة وظائفها القضائية . وأدار حكومة البلاد عدد من الوزراء والاجان يعملون مع الملوك ، على حين باشر شؤونها في الأقاليم مفتّشون يمثلون في العهد الحديث رؤساء البلديات ، وتركـت دون مساس الامتيازات المالية التي اختص بها النبلاء الذين كان أكثرهم يعملون في الجبهة أو ملحقيـن بوظائف البلاط — وعلى الرغم من

استنزاف الحروب المستمرة للأموال والسلطان العريض الذي كان يتمتع به الملك ، لم يبذل أى جهد لعلاج نظام يقوم على أن الجانب الأكبر من أعباء الدولة المالية تقع على عاتق أفقر طبقات المجتمع ، على حين تصاعلت للغاية مساهمة النبلاء ورجال الدين ، وهم الأثرياء إذا قورنوا بتلك الطبقات ، ولم يكن بوسع حكم أوتوقراطى يعمل في الخفاء أن يستمر إلا في حالة واحدة وهى أن يقضى على الظلم الاجتماعي . ولما كان هذا الحكم الأوتوقراطى قد أخفق في ذلك ، ولما كان قد فقد روحه المحركة وكفاءته بموت أقدر وزراء الملك وتدهور نفوذ الملك الشخصى ، فإن ماكينة لويس الرابع عشر تركت فرنسا في حالة شديدة من البؤس كما لو كانت انتصاراتها قد استحالت إلى هزائم .

على أن نظام الحكومة الفرنسية في عام ١٦٨٩ كان أعظم ما يكون جلاً في أوروبا ؛ على حين عرف البرلمان الإنجليزى خاصة بتعزبه وتقلب أهوائه وارتشائه وعجزه — كما يبدو — عن التوجيه الثابت ، وفسر انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان على يد الثورة على أنه علامة أكيدة على الضعف ، أولئك الذين فاتهم أن يدركون أن البرلمان خلال القرن ونصف القرن التالي ستتحكمه أُوستقراطية زراعية وتجارية ، لا تفتقر إلى الخبرة بشئون الحكم ، ولا يعوزها الاهتمام بالصالح العام ولا تنقصها الشجاعة والحكمة التي تلزم لتكوين رجال الدولة . وكان الحكم البرلاني شيئاً جديداً لم يجرِ بعد . وقد أظهر دوق موليرا للعالم في واقعى بلنهام Blenheim وراملى Ramillies أن مثل هذه الحكومة في مقدورها أن تقود حرباً أوروبية ، وأن تنزل إلى الميدان قوات استطاعت أن تهزم القوات الفرنسية في نزال عادى . وبذبوع هذه الانتصارات الباهرة يبدأ الإعجاب بالنظام الإنجليزية ويصبح أمراً ملموساً وينتشر على نطاق واسع في القارة الأوروبية خلال القرن الثامن عشر . وبرهن هذا الشعب المدنى الذى أكد في قانون الحقوق عدم شرعية الجيوش القائمة وقت السلم ، وبرهن على كفاءته لمواجهة كل مطالب الحروب المضنية — بل إنه بـ خصوصه جميعاً في مسائل الاقتصاد وأعمال البنوك والتجارة وعلم الرقابة على أموال الدولة وفته .

وهكذا واجه لويس ، في الحرب التالية التي شهد لها توسيع ، رقعة فرنسا واجه إنجلترا ،

الى لم تعد منافساً صديقاً بل غدت عدواً نشطاً . فكان صراعاً باهراً دار حول قضايا خطيرة ، واستمر عشرة أعوام (١٦٨٨ - ١٦٩٧) ، وتميز بانتصارات عديدة ، على أنه انتهى بإيقاف جدوى لفرنسا عند حدها . وقد بدأ أن لويس قد لقن أوروبا مزيداً من فن التحالف ، فقد أعقب التحالف الثالثي ، حلف أوجز بورج ١٦٨٥ ، وإنما تحالفت جميلة القدر ، أيدها البابا سرّاً ، وانتظمت الإمبراطور والإمبراطورية وهولندا وإسبانيا وساوثوي وإنجلترا والسويد ، ولكنها تحالفت أظهرت الحقيقة عن الحالفات المعروفة وهي أنها يندر أن تكون فعالة في العمل فعاليتها على الورق ، فحلت بقوات الحلف سلسلة من الهزائم الخزية على يد أفضل جيوش قادها أمهر قواد عرفهم أوروبا إذ ذاك . استولى كاتينا Catinaat على نيس ، واجتاح ساوثوي ، كما أحرز لكسنبورج الانتصار تلو الآخر على وليم الثالث في الأرضى المنخفضة ، ووقع إقليم الپلاتين مرتين فريسة لعمليات تحرير لا رحمة فيها ، ولا تزال ذكراتها من عوامل النفور بين الشعبين الفرنسي والألماني . ومع ذلك فإن معاهدة رزويك Ryswick التي أنهت الصراع كانت هزيمة للويس . ففي سبيل الوصول إلى الصلح مع أعدائه العنيدين الذين لم يصبهم الإجهاد بعد ، اضطر ملك فرنسا أن يتنازل عن فتوحاته ، وأن يسلم لـ هولنديين بحق تحصين المدن الواقعة على حدود الأرضى المنخفضة الإسبانية ، وأن يعترف بملك إنجلترا الملحد ، وأن يوافق على أن تخلفه على العرش أميرة ملحدة . إن الواقع المتفرق لا يتوقف عليها كل شيء في الحرب ، وإنما يكون النصر النهائي للفريق الذى يستطيع أن يصمد أطول مدة . وكانت هذه الميزة . بفضل ثبات ذهن وليم الثالث البروتستانتى ، فى جانب أولى الحالفات الأوروبية العظمى .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Macaulay : History of England (1858-62).
- Voltaire : Le Siècle de Louis XIV. (1753).
- G. Hanotaux : Etudes historiques sur le XVI^e et le XVII^e siècle en France (1886).
- D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century (1925).
- D. Ogg : Louis XIV. Home University Library (1933).
- D. Ogg : England in the Reign of Charles II. 2 Vols. (1934) .
- E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VII.
- P. Clement : Histoire de la Vie et de l'Administration de Colbert (1846).
- J.J. Jusserand : Instructions données aux ambassadeurs de France depuis les Traités de Westphalie. Angleterre.

الفصل الحادى والعشرون

الوراثة الإسبانية

الوراثة الإسبانية - معاهدات التقسيم - اعترافات النساء وإسبانيا على التقسيم - ليس يقبل الإرث كله صحيحاً - المحالفه المظلي - روح المقاومة الإنجليزية - حرب الوراثة الإسبانية - طابعها وأمدها - إسبانيا مظهر جانبي - معاهدة يوقرخت - السيطرة البحرية تنتقل إلى إنجلترا - الجنسنست والجزويت في فرنسا - بسكال Pascal المرسوم البابوى الفريد في نوعه The Bull Unigenitus - استمرار النضال في القرن الثامن عشر - ضعف البواعث الدينية والأسرية . القرن السابع عشر - زعامة فرنسا الروحية .

وفي تلك الأثناء كان ثمة مشكلة على جانب عظيم من الأهمية مسّت خاصة مصالح هولندا وإنجلترا في طريقها لإحداث أزمة عاجلة . ماذا يكون مصير الإمبراطورية الإسبانية عند موته ملكها شارل الثاني ، الذي كان متوقعاً منذ أمد بعيد ، وقد تأخر طويلاً ؟ كان ذلك المريض المعتوه الذي لاأمل في نسل يخلفه يحكم إسبانيا منذ ١٦٦٥ . ولم يكن مما يسلم به في فلسفة ذلك العصر السياسية أن يكون للشعب الإسباني حق إبداء رأيه في هذه المسألة التي تتعلق بمصيره . فلا زالت المملكة تعتبر كما لو كانت ملكاً خاصاً للأسرة ، تسوي أموره بوصية أو يقتسم بين ذوي القربى باتفاقهم . ولكن هذه الإمبراطورية ما كان أعظمها من ملك للأسرة الحاكمة ! فالممتلكات الأوروبية وحدها التي يملكونها الفرع الإسباني من أسرة الهايسپبورج كانت تكون إمبراطورية شاسعة انتظمت ميلان وتايلن وصقلية وسردينيا وجزائر البليار وكذلك الأرضي المنخفضة الإسبانية وإسبانيا نفسها - على أن الأراضي غير الأوروبية كانت كذلك أكثر روعة وهي جزائر الفيليبين والكتاري وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبها ، وكذلك أقاليم أمريكا الجنوبية باستثناء جيانا والبرازيل البرتغالية . وكانت هذه الإمبراطورية من الضخامة بحيث لم يحتملها سلام العالم ومن الاتساع بحيث استعصت على الحكم القوى الناجح . لذلك كان أمر تقسيمها سواء بوصية من الملك أو بالاتفاق الودي مسبقاً بين الأطراف المعنية كان أمر تقسيمها أمراً مرغوباً فيه من جميع النواحي باعتباره الوسيلة الوحيدة أصول التاريخ الأوروب

لتجنيد أوربا ويات حرب عالمية .

كان من المتمم أن يطالب بالإرث الإسباني في ١٦٨٩ ثلاثة من الشبان : فيليب دوق أنجو حفيد لويس الرابع عشر ، وشارل ابن الثاني لإمبراطور النمسا ليوبولد الثاني ، وجوزيف فردinand أمير بشاريا المنتخب وبين آخر ملك إسبانيا . ولما كان الأمير البشاري أقل هؤلاء الثلاثة بأساً فقد كان من المرجح أن المفضل من تكون الدول المهتمة بالأمر أكثر استعداداً لقبول المفضل من بينهم لأنه يقدم لها أقوى الضمانات للمحافظة على التوازن الأوروبي^(١) . وبناء على ذلك وقعت فرنسا وإنجلترا والأراضي المنخفضة معاهدة لتقسيم الممتلكات الإسبانية وقد خصت أمير بشاريا الشاب بنصيب الأسد من هذه الإمبراطورية (وهو إسبانيا ومستعمراتها) ، على حين أرضت النمسا وفرنسا باجزء الباقي منها إرضاء جوهريّاً . وعلى أي حال فإن هذه التسويات الحكيمية قد أوقفتها في العام التالي موت الأمير البشاري فجأة ، وطلبت المشكلة علاجاً من حديد ولكن في ظروف أقل ملائمة بكثير من ذي قبل .

فطالما كان هذا الأمير البشاري بشخصيته الضعيفة التي لا تثير جدلاً على قيد الحياة ، كان بوسع جميع الأطراف المعنية بالأمر قبول خطة عامة . ولكن موته جعل المشكلة تكاد تستعصى على الحل .حقيقة أنه قد وضعت تسوية ملائمة لكل من لويس والدول البحريّة : إذ تقرر بمقتضى معاهدة التقسيم الثانية أن تؤول إلى النمسا الأرضي المنخفضة (وكانت هذه مسألة جوهريّة بالنسبة للدول البحريّة) ، وكذلك إسبانيا والمستعمرات بينما تأخذ فرنسا نايل وصقلية وميلان التي تستعيض عنها باللورين . وإن قبول لويس بهذه التسوية لدليل فريد على اعتداله في تلك الفترة .

ولكن لسوء الحظ كانت هناك دولتان : إسبانيا والنمسا ، لا ترضيان مطلقاً عن فكرة التقسيم على أي أساس . كان طبيعياً أن يستنكر ملك إسبانيا وأعيانها فكرة تقطيع أوصال الإمبراطورية الإسبانية ، ولكن ليوبولد إمبراطور النمسا بسبب رغبته في ميلان رفض العروض العظيمة التي تتيحها له معاهدة التقسيم الثابتة ، وكان ذلك خطأ لا يفوقه في سجل الحماقات التي كلفت النمسا الشيء الكثير سوى الإنذار

(١) انظر ثبت الأنساب (د) .

النسوی إلى الصراع في يونيو ١٩١٤^(١). وأمام هذه البعثات قضى بالفشل على سياسة التقسيم الحكيمية التي بذل فيها وليم الثالث ولويس الرابع عشر مهارة دبلوماسية فائقة . وعندما مات ملك إسبانيا في نوفمبر ١٧٠٠ ، اتضح أنه ترك وصية تورث إمبراطوريته كاملة لفيليبالأمير الفرنسي ؛ فإذا لم يقبل الإرث كله آلت إلى الأمير النسوی شارل .

كان من المتعذر على لويس أن يرفض تسلم الإرث . حتماً إنه كان قد وقع لتوه معاهدة التقسيم الثانية التي كانت تمنح النسا قلب الإمبراطورية الإسبانية ؟ ولكن النسا لم تكن قد قبلت هذه المعاهدة ؛ كما أنه لم يكن ممكناً الاعتماد على إنجلترا وهولندا لمساعدة فرنسا على تنفيذ تلك المعاهدة . وفي حالة رفض لويس تسلم الإرث لخفيده كانت جميع الأموال تؤول لشارل ، وإن يوم أحد لويس إذا هو أحجم عن قبول انتقال كافة الأموال الإسبانية إلى منافسه النسوی . ولو قد كانت النسا على شيء من التعلق إذن لحققت زيادة كبيرة في قوتها دون الالتجاء إلى حرب عالمية . ولو قد كانت إسبانيا على شيء من الحكمة لتفادت الغزو الأجنبي في نظير بقاء التنازل عن بعض الأموال . ولكن لما كانت كل من النسا وإسبانيا لا ترضي بأقل من الملك كله ، ولما كانت إسبانيا قد قدرت بحق أن فرنسا كدولة معادية أكثر خطورة من النسا البعيدة وكدولة صديقة أكثر نفعاً منها ، فقد وجد لويس نفسه مضطراً ليتوقّع عواقب أكثر سوءاً – أن يقبل الوصية . وهكذا تسنى لكاردينال إسپاني كان يهيمن على الملك وهو على فراش موته يكاد لا يحس بشيء أن يحول ملك فرنسا من نصير للتقسيم إلى درع واق لإسبانيا الموحدة .

ومن ثم أصبحت مهمة الحافظة على السلام عسيرة . ومع ذلك فإن الأمر الذي جعل من الحرب شيئاً لا مناص منه ، لم يكن قبول لويس لوصية بقدر ما كان طغيان روح الجشع الجديدة التي أثارتها الوصية في ذهنه . فضى ل ساعته في سلسلة

(١) الإنذار النسوی إلى الصراع في يونيو ١٩١٤ . عند ما قتل ولد النسا فرانسوا فريديريند في ٢٨ يونيو ١٩١٤ على يد طالب صربي في سيراجيفو وجهت النسا إنذاراً إلى الصراع في ٢٣ يونيو مطالبة فيه بعده مطالب قبلت الصراع معظمها ولكن النسا كانت مصرة على الحرب فأعلنها في ٢٨ يونيو .

من عمليات الاعتداء الطائشة . وقد دبرت بشكل يشعل عداء الدول البحرية : فتدفقت جيوشه في الأراضي المنخفضة الإسبانية ، واحتلت مدن الحدود الهولندية . ثم ألزم لويس الإسبانيين أن يمنعوا فرنسا حق الأسيتو ، أي حق الاتجار في عبيد أفريقيا مع جزائر الهند الغربية الإسبانية . وإذاء مثل هذه الأعمال شعر الإنجليز والهولنديون بضرورة القتال في سبيل المحافظة على كيانهم التجاري ؛ بل إن البرلان الثوري دعا الملك وليم (فبراير ١٧٠١) ليبدأ المفاوضات مع الإمبراطور والدول الأخرى لکبح جماح الفرنسيين . وفي عام ١٧٠١ ، كما حدث بعد ذلك في عام ١٧٩٣ ، ١٩١٤ ، أشعل اجتياح إحدى الدول العظمى لبلجيكا نيران الحرب في نفوس الشعب الإنجليزي .

وقد وضع دوق موليرا Duke of Marlborough ، الذي أثبت وليم بعد نظر في إرساله إلى لاهاي لفاوضة هنسيوس (كبير عمد المدن الهولندية Pensionary Henesius) في هولندا - وضع أساس المحالفه العظمى التي شنت على فرنسا حرب الوراثة الإسبانية . كانت أهداف المحالفه عملية ، كما حدثت منذ البداية ، لدرجة أن أكثرها قد تحقق في معاهدة يورخت (١٧١٣) بعد مضي اثنى عشر عاماً انقضت في نضال باهظ التكاليف . وكان وليم راضياً عن حكم فيليب لإسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد طالما أن الأرض المنخفضة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط قد انتقلت من حوزة إسبانيا إلى النمسا - وقد دعت إلى ذلك عوامل قامت على أساس الحاجات البحرية للشعبين الإنجليزي والهولندي . فعلى نقيض فرنسا ، لم تكن النمسا خطرأً في البحر ولا منافساً في التجارة ، وعلى ذلك يستطيع تاجر لندن وأمستردام أن يثقو فيها ويأمنوها على الممتلكات التي تقع على امتداد الطرق التجارية العظيمة إلى بحر البلطيق والشرق .

ولم تتغير السياسة الإنجليزية بموت وليم الثالث الذي كان في الجيل الذي عاش فيه روح كافة الجهود الأوربية ضد فرنسا ؛ فإن جميع خططه الواسعة من محالفه عظمى وحرب ضد فرنسا ، وانتزاع قواعد بحرية في حوض البحر المتوسط ، وقصد وراثة العرش الإنجليزي على البروتستانت قد أخذت بها جمیعاً - كما يذكر لنا الأستاذ ترفليان Trevelyan - الملكة آن Anne ابنة جيمس الثاني ورببة الكنيسة

الرقيقة ، الفتاة البليدة الورقة التي بفلتة من فلتات الحظ اقتنى اسمها بعهد عظيم . وعلى الرغم من إطلاق الحرية للصحافة في ١٦٩٥ ، وبلغت الروح الحرية مبلغاً عظيماً من العنف والحلقة ، فقد كان في السياسة الإنجليزية من روح التوفيق ما يمكن أن يتحقق في النظم البرلانية لتعمل . وكان تجديداً موفقاً عندما وضعت النواة الأولى لإدارة مدنية عظيمة واستمر الخبراء الماليون يتبعون عملهم من وزارة إلى أخرى . وغلاّب كل من حزبي الهوية والتوري بدروه مصلحة البلاد . فأتم حزب الهوية الاتحاد بين إنجلترا وأسكتلندا . كما أصدر التوري قانون وراثة العرش Act of Settlement الذي أدى في النهاية إلى استدعاء متّخبي هانوفر البروتستانتي إلى عرش إنجلترا وعلى حين موّل الهوية الحرب التي كللت بالنصر ، أُنجز التوري الذين تبعوا مقاعد الحكم في ١٧١٠ الصلح الذي رحب به الناس ، ومن الأمور الأساسية أن البلاد أصبحت رجلاً واحداً ، إذ اندمج البحار الفطيع بإقرار التسامح الديني في عام ١٦٨٩ للمخالفين للعقيدة الرسمية . ثم إن الوفاق بين موليرا والملكة ، ومهارة موليرا السياسية وانتصاراته البراقة ، مقرنة بالسخط الذي ساد قلوب كل الإنجليز البروتستانت عندما اعترف لويس بالمطالب القديم بالعرش ملكاً باسم جيمس الثالث ، كلها كانت أسباباً كافية للإبقاء على الروح الحرية مشتعلة في البلاد . إذ تعرض للخطر أمن البلاد وتجارتها وقصر نورها للبروتستان . وإذا كان أعيان الريف قد جزعوا لضررية الأرض البالغة أربعة شلالات ، وهي الضررية التي كانت عماد سياسة جودلفين Godolphin لتمويل الحرب ، فقد أدوها حتى نهاية الحرب . وهكذا كانت الروح الإنجليزية . أما الهولنديون وقد انتزعت منهم مدن الحدود العزيزة عليهم في الأراضي المنخفضة الإسبانية ، فإن الحرب كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت .

لم تكن الحروب في النصف الأخير من القرن السابع عشر اللعنة المدمرة كما أصبحت اليوم نتيجة لتضليل العلم والتجنيد العسكري . كانت حروباً تشنهها قوات صغيرة من الجنود المترفة ، يتفنّن نشاطها طوال فترة الشتاء وهي مدة نصف عام ، وأثناء فصل المعارك القصير ، لم تعد تعيش – كما كان الحال في حرب الثلاثين عاماً – على ما تأخذه من البلاد وإنما على إدارة حكومية منتظمة . وكانت

الحركات الحربية عرضة للبطء والحدر لتلائم عهداً كان فيه أمهاء البحر يلبسون الشعر المستعار الطويل ، وكانت عمليات الحصار المنسقة تعد أهم الفنون الحربية . ولما كان القواد مدربين لصعوبة سد النقص في جيوشهم فقد كانوا يسعون إلى تحاشي المعارك القاسية من أن يرجعوا بها . ويستثنى من ذلك موليرا ؛ فإن ذلك الأمير الإنجليزي الجذاب الذي لولا التغيرات التي جاءت من الهولنديين ، لاستطاع أن يطرد الفرنسيين من الفلاندر في خلال العامين الأولين من الحرب ، كان تواقاً إلى اجتناب غريمه إلى المعارك بقدر ما كان هذا الغريم راغباً عن ذلك .

كانت ضربات مطريقته حاسمة ، وكان في وسع الحلفاء على إثر واقعى بأنهم وراميللى Blenheim (١٧٠٤ - ١٧٠٦) أن يوقعوا صلحًا مع لويس يؤمن لهم جميع أهداف الحرب الأساسية التي فرضتها الحالفه العظمى . فقد اكتسحت معركة بلنهام الفرنسيين من بشاريا ، كما وضعت موقعة راميللى معظم بلاد الفلاندر في قبضة موليرا . ووطد يوجين القائد النمسوي الرايع سيطرة القوات المتساوية في شمال إيطاليا بمساعدة بعض المعونة من فيكتور أماديوس Victor Amadeus صاحب سافوى ؛ ومع ذلك فقد تأجل عقد الصلح سبع سنوات .

وإن السبب في إطالة أمد الحرب دون داع لذلك يمكن إرجاعه في النهاية إلى جمال ثغر لشبونة وبلامنته كمينه لرسو وإصلاح السفن الإنجليزية المكلفة بمهامات في البحر المتوسط وكانت إنجلترا في سعيها للحصول على بعض الموانئ في ذلك البحر في حاجة إلى التحالف مع البرتغال . ولكن كيف يتأقى للبرتغال ، تلك الدولة الصغيرة ، أن تدخل في قائمة المتحالفين ضد فرنسا إلا إذا اتجه المرشح النمسوي إلى إسبانيا وجمع أعونه وطرد غريمه الأمير الفرنسي بمعونة الهولنديين والإنجليز والبرتغاليين ، وثبت أقدامه في مدريد ؟ وقد أمر بطرس الثاني ملك البرتغال في معاهدات ميثوين Methuen (١٧٠٣) كشرط لتحالفه مع إنجلترا ، أن يعلن شارل - مؤيداً التأييد المناسب من الحلفاء - عزمه على السعي للمطالبة بتاج إسبانيا . وتمت الصفقة . واتسعت أهداف الحلفاء من الحرب فأصبحت تتضمن غزو إسبانيا لحساب شارل ، وحرباً فاشلة في شبه الجزيرة الإسبانية امتدت ما يقرب من عشر سنوات ، فكانت الثمن الذي دفعته إنجلترا لكي تحصل على حق استخدام

ميناء لشبونة ، الذي لواه لما استطاعت أن تحصل من إسبانيا على صخرة جبل طارق ولا أن تنتزع منها بورت ماون Port Mahon (في منورقة Minorca) ولم يفطن ساسة الإنجليز إلا تدريجياً وببطء وبعد إحجام إلى أن المسألة الإسبانية (الحانية) لم تكن إلا مغامرة يائسة ، وأن شعب إسبانيا الذي هو أكثر شعوب أوروبا أفقاً لن يقبل مطلقاً ملكاً نموياً تفرضه عليهم دول شمالية ماحلة وكرهية ولا البرتغاليون الذين يفوقونهم كذلك بشاعة . وإذا كان каталونيون قد دمغتهم نار كراهيّتهم المتأججة لقتاللة ، كما شجعهم استيلاء «بيربرا Peterborough» الباهر على برشلونة على تأييد الأرشيدوق شارل بالفعل ، فإن قطاليونا لم تكن قط جزءاً لا يتجرأ من إسبانيا . إذ لم يكن ثمة رابطة مشتركة من اللغة والعادات والمزاج يجمع بين سكان أراغونة ، الإقليم البحري وسكان الجزء الداخلي من الحضبة إلا بقدر ضئيل . لذلك لم يكن اكتساب شارل القطاليونيين المستقلين إلى جانبه الطريق إلى قلوب الشعب الإسباني . وظلت الغالبية العظمى من الشعب الإسباني منذ البداية إلى النهاية تؤيد فيليب الخامس .

ويرجع تاريخ سيطرة المسا على إيطاليا ، تلك السيطرة التي لم تتعزز نهائياً إلا في عهد كافور وغاريبالدي ، ترجع إلى معاهدة يوتريخت Utrecht (١٧١٣) التي أنهت حرب الوراثة الإسبانية . فقد فشل الإمبراطور في خططه الإسبانية ، ولكنه عوض في لمبارديا وسردينيا ونابولي . وبذلك آلت السيطرة على شؤون إيطاليا التي خصت إسبانيا منذ أيام شارل الخامس ، إلى حكومة تيتونية لم تجعلها مواهباً الراسخة في التنظيم والكفاءة مستساغة للإيطاليين بسبب افتقارها إلى بعض الصفات التي من شأنها أن تجذب عواطف الشعب اللاتيني . ومن العجيب أن يرى المتبرص في الحوادث مدى توقف مصير إيطاليا على عقابتين إنجلزيتين : عقالية جودولفين Godolphin المالى ، وموبرا الجندي اللذين لولاهما ، بالرغم من درية الأمير يوجين العسكرية ، لما تغلبت مطلقاً قضية الحلفاء .

وكان من أعظم الأمور ملاءمة للدول البحرية استدعاء الإمبراطور ليحكم الأرضى المنخفضة الإسبانية ، حيث منح المولنديون صفةً من استحكامات الحدود ، وتعهدوا بالدفاع عن هذا الإقليم الهام ضد أطماع فرنسا ، وألا يقوم

بذلك الهولنديون وحدهم وإنما تكون إلى جانبهم إحدى الدول العظمى في القارة^(١). وكانت إسبانيا - وهي الجائزة الأولى التي دارت عليها المبارزة - من نصيب لويس . فإن فيليب الخامس الذي كان أثناء الحرب قد طرد مرتين من مديرية ثم أعيد إليها مرتين ، قد عاش ليوسنس أسرة مالكة من البوربون في إسبانيا ، عاشت بعد الثورة الفرنسية والإمبراطورية ، وإذا كانت تعيش في المنفى الآن ، فإنها لا تزال تأمل في عودة الحكم الملكي إلى إسبانيا . وعلى الرغم من الفصل بين التاجين الإسباني والفرنسي فصلاً نهائياً ، فقد كان الارتباط السياسي الوثيق بين دولتي البوربون من معالم الحياة السياسية في القرن الثاني ، وكانت له دلالة خاصة عندما عاونت فرنسا وإسبانيا المستعمرات الأمريكية للخلاص من الحكم البريطاني . فكان تسلیم البريطانيين في « يوركتون » Yorktown (١٧٧١) ردًا على موقعهم Almanza (١٧٠٧) و « بريبيوجا » Brihuega (١٧٠١) وهى الانتصارات التي يفضلها وضع Berurich Vendome وفنلدون Vendome أساس الحكم الفرنسي جنوب الألزاس .

وهكذا لم ينته عهد لويس الرابع عشر الطويل بالفشل على الرغم من البوس الذى عاناه الشعب فى السنوات الأخيرة من حكمه . فتحقق وسام Clausa Germanis Gallia « تمجيد إغلاق بلاد الغال فى وجه الحerman » ؛ كما تحقق كذلك ، ولكن بدرجة دون ذلك حرافية ، القول المأثور الآخر من أقوال الملك الشمس « من الآن فصاعداً لن تكون ثمة برانس » . وإذا كانت فرنسا قد نجت من الغزو حتى أيام نابليون ، فإنما مرجع ذلك جزئياً إلى التحسينات التى تمت فى تحصيناتها الشرقية منذ بداية حكمه وظلت مصنونة حتى نهايته .

وخرجت إنجلترا من النضال وقد حققت ليس فقط الأهداف الأصلية التى أرادها ولم الثالث من الحرب وإنما كسبت أيضًا ميزة لم يتوقعها أحد . في أثناء اشتراكها في الحرب الطويلة مع هولندا قد جعلت من البحر مجالها الخاص ، بينما قام حلفاؤها بتقديم الحانب الأكبر من القوات البرية التى حاربت تحت قيادة موليرا . وكلما تقدمت الحرب أخذت البحرية الإنجليزية فى التو بينما أخذت البحرية

(١) يقصد المؤلف الإمبراطورية ، أى النسا .

الهولندية ، إذا قورنت بها ، في التدهور . وهكذا أحرزت إنجلترا في نهاية حرب الوراثة الإسبانية السيطرة البحرية التي كانت موزعة بالتساوي بين الدولتين في منتصف القرن السابع عشر . كما حصلت إنجلترا في تلك الأثناء على قواعد جديدة ومراكز للنفوذ والاستعمار في كل من العالمين القديم والحديث : جبل طارق وپورت ماهون ، ونيوفوندلاند ونوفاسکوشيا ، وكان من الأمور العقيمة بالنسبة إلى فرنسا وميزان القوة البحرية على ما أصبح عليه في ١٧١٣ أن تحارب في سبيل هذه الأقاليم . فقد آلت إلى إنجلترا في معاهدة يوتونجت بالإضافة إلى الحقتين المعروفة بالأسينتو وهو حق الاتجار في عبيد أفريقيا (وبعض السلع الأخرى) في المستعمرات الإسبانية .

على الرغم من أن ضريبة الأربعة شلنات كانت موضع حقد أصحاب الأرض ، فإن إنجلترا قد تحملت جهد الحرب بأحسن مما فعلت أيام دولة أخرى محارية ، إذ أن اتساع نطاق التجارة فيما وراء البحار قد قدم جواً من الثقة مكن الأفراد من تقديم القرفوس ، والحكومات من الاستدامة ، واستطاعت إنجلترا أن تحول حلفاءها عن طريق بنك إنجلترا والقرض الوطني ودقة العمل في وزارة الخزانة . واعتمد التحالف الأوروبي كما حدث في حربين أخريين أقرب عهداً على سلطان المالية الإنجليزية . وكان مظهراً آخر من مظاهر قوة إنجلترا حصولها على اعتراف من لويس الرابع عشر بأن لا يتولى عرش إنجلترا إلا ببروتستانتي مثلاً في اعتلاء أسرة هانوفر العرش . وهكذا اضطر الملك العجوز الذي اضطهد الهيوجونوت أن يحيي في ساعاته الأخيرة مدينة لندن المارقة التي لم يكن فيها ما يخشى أن يؤثر على رعوس الأموال مثل استئناف الصراع القديم العنيف بين الكاثوليكي والبروتستان في إنجلترا .

بينما أفقر إلغاء البروتستانية في ١٦٨٥ الحياة الدينية في فرنسا بدرجة عظيمة ، وفشل في توحيدها ككلية . فعلى الرغم من انتصار البروتستانت وسلطتهم الكامل على البلاط ، فإنهم لم يكونوا الفرقة الوحيدة في الميدان . ففي داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها قامت حركة تستمد أصولها من نفس الأسس الروحية للبيوريتانية ، وفي بعض التواحي من مصادرها الدينية ذاته ، وقد تحدثت عقيدة فرساي المأولة ، وعاونت بقوة في النصف الأول من القرن الثامن عشر على إعداد حركة مقاومة

سياسية للعرش . وقد استمد الحسنست Jansenists اسمهم من چانسن Jansen أسقف «إبیر» Ipres (١٥٨٣—١٦٣٨) ، وهو مؤلف ثلاثة مجلدات خطية عن القديس أوغسطين St. Augustine ، أدانها البابا في عام ١٦٤٢ — والذين قرءوا المؤلفات العلمية لهذا الكاثوليكي الهولندي قلة ، وكان أقل من هؤلاء كذلك من استطاعوا أن يتبنّوا بأن فيضاً من النشاط الروحي سيهبط على فرنسا من ذلك المصدر . وإن البون ليبدو شاسعاً بين حذفة چانسن Jansen وفصاحة أرنولد Arnauld وسخرية پسكال Pascal الشائعة وجمال شعر راسين المقصوق المليء بالتأمل . ومع ذلك فقد كان أرنولد وپسكال وراسين أهاراً في شجرة واحدة هي أوغسطين نفسه ، وقد ترعرعوا على عقيدة الغفران ، التي اهتدى إليها مارتني لوثر في القديس أوغسطين ، والتي على صورها انساق كثيرون نحو الاعتقاد في القضاء والقدر ، ونحو الورع الشخصي الحالص ونند جميع الوسائل السهلة السطحية لخلاص الروح .

وقد كان ظهور رسالة أخلاقية كتبها قسيس فرنسي شاب في عام ١٦٤٣

مهاجماً الوهم السائد بأن الإكثار من تناول القربان المقدس يكفر عن الحياة الشريرة المستمرة بمثابة حلقة الاتصال بين چانسن الأسقف الهولندي والمتدينين من أفراد الشعب الفرنسي . إن لرسالة «أنطوان أرنولد» Antoine Arnauld عن « تكرار القربان المقدس » De la Frequent Communion فعل السحر في نفوس الخلاصين . في عهد انتشار فيه الرضا بالمهتك كان ظهور ذلك الشوران الملهب في أساليب بليغ مؤمن يمثل نكوص الضمير المسيحي عن التعاليم الدينوية التي كاد يعظ بها الآباء اليسوعيون ، الذين جعلوا مناق الدين مستساغاً لذوي المشارب الدينوية أثناء محاولتهم استرجاع كافة الأفراد على اختلاف طبقاتهم وموتهم إلى حظيرة العقيدة . وكان قد ترعرع منذ أمد بعيد نوع صارم من الورع الكاثوليكي في بعض المجتمعات الدينية ، وخاصة في دير للراهبات ببور رو فال Port Royal على مقربة من ڤرساي ، وقد شاع في العاصمة بين أفراد الأسر القضائية الوقورة . وللشلل هؤلاء كانت رسالة « التكرار » De la Frequent بمثابة صيحة النداء تدعى لمقاتلة قوات الانحلال والرذيلة .

وعلى ذلك كان الحسنست پبوريتان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ، وهم في

روعه أخلاقهم واستقامتهم ، وشدة غيرتهم على المبادئ وهو أمر واضح في كل مظاهر العبرية اللاتينية ابتداء من لوكریتس Lucretius إلى كوندرسیه Condorcet ، قدموا بمعيشتهم وبكتاباتهم كذلك أبلغ التعنيف لعهد اتصف بالفجور . وذهب بعضهم إلى أقصى أنواع التطرف . فأدانوا الشعر والفن وفضلوا هزال الخريف الخزین على حيوية النمو في الربيع . وأراد جميعهم العودة بالكنيسة إلى حالتها الأولى كما خشوا تقدم العلوم . وإذا قورن الحانسني باليسوعي المرن الذي يعلم أن الكنيسة لا يمكنها أن تحييا إلا إذا وفقت بين تعاليمها والأحوال المتغيرة لعالم متغير بما الحانسني في صورة الطائفي الخطير غير العملي . وعلى حين عد الحانسني اليهودي المسوغى رخواً أكثر مما ينبغي رأى فيه اليهودي ضيق أفق أكثر مما ينبغي أيضاً : ففريق (هم اليهوديون) يرون أن ليس في استطاعة البشر على الإطلاق أن يرقوا إلى عرش الرب عن طريق الفضيلة القاسية المجدبة ، وفريق آخر (هم أتباع چانسن) يصرؤن على أن الرب لن يتقبل على الإطلاق تحالفاً يقوم على الدهاء مع الرذيلة . فريق يسعى ليجعل الطريق إلى السماء سهلة لكثرين ، وفريق يصر على أن هذا السبيل يجب أن يكون صعباً على الدوام ومقصوراً على الصفة .

وقد أسرف التصادم في الرأي عن ظهور مؤلف پسكال «الخطابات الإقليمية» Lettres Provençales (١٦٥٦ - ١٦٥٧) . وفي هذه الرسالة الجدلية المشهورة استخدمت كافة أساليب السخرية الخفيفة والحدل الحار لهاجمة الفتاوى التي أتمهم اليهوديون باستخدامها لتهم التمييز الواضح بين الصواب والخطأ . وقد زاد في أهمية هذه الرسالة أن مؤلفها لم يكن من رجال الدين المحتفين ، وإنما كان رياضياً عقريرياً تمنع بذكاء مبكر يبعث على الدهشة ، وخصوصية في الابتکار . (جمع بين وضوح الذهن العلمي الممتاز وقوته وشبهات سقيم ورع متخصص ودقة أحاسيسه الرائعة) . واستطاع پسكال بإحساسه العميق (فقد تحول عن دينه مرتين) ، وأسلوبه السهل البسيط الذي خلص النثر الفرنسي من التكلف ، استطاع أن يستخرج مخصوصاً وافراً من الأخلاق الدينية من مكنها على مرأى من الجميع ، وأن يعرضها في ضوء النهار وفوضوح لا يعرف رحمة

ولم يعش اليهوديون ألبنة على إثر هذا الهجوم العنيف . وإذا كانت صفة

(يسوعي) لا تزال باقية على ألسنة الناس رمزاً للتحايل المكير على الغش والاحتيال ، فإن هذا يرجع لدرجة كبيرة إلى «الخطابات الإقليمية» التي جعلت للچانسنية تأثيراً أقوى وأوسع مدى على الحركات العسكرية والأخلاقية لذلك العصر كما وصفت طائفة الجزويت بطبع الخط من قدر آداب المعاملة في العالم المسيحي .

ومع ذلك فإن طائفة الجزويت لا طائفة الحانسنست هي التي كانت رهن إشارة العرش خلال حكم لويس الرابع عشر الطويل ، وساعدت على تشكيل سياسة الدولة ؛ إذ كان الجزويت أصدقاء الملك أما الحانسنست فقد كانوا موضع ريبة الملك منذ ارتباطهم غير الموفق في وقت مبكر بعض الأعضاء البارزين أيام حرب الفروند. فكان نصراً للجزويت عندما أدان البابا أنطونيوس العاشر في عام ١٦٥٣ خمسة مقتراحات يشكل في أنها جاءت في كتاب جانسن عن أوغسطين (Augustinus) ثم كان نصراً آخر للجزويت عندما أحرقت علينا الرسائل الإقليمية في عام ١٦٦١ . وأخيراً تصالح جماعة الحانسنست مع البابا في سنة ١٦٦٩ ، وتمتعوا بفترة حصاد نسبية من الاضطهاد . ولكنهم ظلوا مع ذلك بعيدين عن قلوب الناس وعن أي نفوذ سياسي . وما يشرف الحانسنست أنهم أثناء النضال العنيف الذي دار بين لويس الرابع عشر وأنطونيوس العاشر ، وهو النضال الذي حدث نتيجة لمطالبة الملك بريع أملاك الأسقفيات الشاغرة ، أنهم أخذوا جانب الكنيسة الرومانية في مقاومتها سوء استخدام الملك لسلطاته دون مسوغ ، ولم يكن ذلك مما يرضي عنه الشعب الفرنسي . إذ كان يشار الشعور القومي بالحاحن في فرنسا مع الملك في تصديه للدفاع عن حرية الكنيسة الفرنسية ضد تدخل البابوية .

أما أهمية الحانسنست من حيث تأثيرهم السياسي فكان وقهاً لم يحن بعد ، إذ تميزت السنوات الأخيرة من حياة الملك بظلال عميقة من الكوارث في خارج البلاد والورع الحزين في داخلها ، فقد اختلت الأحوال المالية منذ موت كولبيير . واستبدل بالقروض القصيرة الأمد التي عقدت لتمويل الحرب نظام من الاقراض غير المباشر ، ثم حل محل هذا النظام بدورة ظهور طبقة جديدة من التجار الوسطاء الذين غدروا بالدولة وأدخلوا في جو البلات سماً جديداً . لم يكن لويس رجل تدين ،

ولكنه كان يؤمن بالخرافات إلى أقصى درجة ، لذلك قرر أن يشن هجوماً جديداً على الآراء المخالفة للكاثوليكية حتى يخفف من غضب الآلهة ويبدل من سوء طالع جيوشة . ولما كان قد كسر شوكة البروتستانت فإنه كان على استعداد حينئذ لاستمع إلى نصيح كاهنه اليسوعي الذي كان يتلقى اعترافه وأن يتخذ الإجراءات ضد الحانسيين . وإن الوحشية التي لا مثيل لها التي وجهت بها هذه المعركة لصفحة سوداء في تاريخ التعصب الديني : إذ طردت الراهبات من ديرهن في Port Royal de Champs « پور رویال دی شان » ، وهدم الدير ، وانهكت حرمة مقابرها ، وترك المجموع على ترجمة فرنسية للعهد الجديد ، كانت قد نشرت في ١٦٧١ مصحوبة بتعليق متقن « لپاسكويه كويزنال » Pasquier Quesnal أحد البارزين من جماعة الحانسيت . وللم يكن ثمة ما هو أيسر على يسوعي من آهام كتاب خالق له بالكفر أو الحصول على إدانته من روما ، فقد أصدر البابا قراراً بمصادرة مؤلف الزعيم الحانسي . وعلى الرغم من احتجاج خمسة عشر أسقفاً والمعارضة القوية التي أبدتها بربان باريس صدر مرسوم بابوي فريد في نوعه Bull Ungenitus يعد ١٠١ مسألة منافية لأحكام الدين في ذلك الكتاب الذي تعب في إخراجه قديس مسيحي ؛ واعتبره أغلب أقرائه أثراً خالداً لقداسة الإنجيل .

وعندئذ حان دور الحانسيين ليسيروا إلى جانب الحاليكانيين (أنصار حريات الكنيسة الفرنسية^(١)) ضد ادعاءات السيطرة البابوية ، وقد أضاف تحالف هاتين الطائفتين الدينيتين معاً إلى تزmet أنصارهما في التسلك بالفضائل المسيحية ، أضاف إليهم مركزاً شرعياً وفخارياً وحماساً . وفي مقابل فرنسي واحد تأثرت عقائده الدينية بتعاليم چانسن كان هناك عشرة يأنفون من تدخل البابا أو ينقمون على جماعة اليسوعيين سلطانهم ، ونشأ الصراع عقب موت لويس الرابع عشر وأثيرت فيه مشاعر وآراء كثيرة منها ما كان متأثراً بالحانسيين ، ولكن أغلبها كان متأثراً بالحاليكانية . وقد المعارضة بربان باريس وأيده اثنا عشر برباناً في الأقاليم ضد التحالف القائم بين الملك وطائفية اليسوعيين . وكان النضال طويلاً الأمد وعنيفاً أثيرة أثناءه كل

(١) الخرس على حريات الكنيسة الفرنسية - حريات الكنيسة الفالية (الفرنسية) (انظر الماشر

الآراء السياسية تقريرًا التي أدت بعد ذلك إلى إقامة حكومة ديمقراطية في فرنسا . قبيل ظهور العقد الاجتماعي ١٧٦٢ بأمد بعيد وقع النزاع بين الملك وبرلمان باريس— ذلك النزاع الذي كان يرجع في أساسه إلى مصادرة البابا لرسالة چانسنية ، فعود الشعب الفرنسي على فكرة الحكومة الدستورية والملكية القائمة على رضا الناس — وعندما طردت طائفة الجزوiet من فرنسا عام ١٧٦٤ أصبح المسرح مهيئاً للحركات التي أدت إلى الثورة الفرنسية ، وإلى ذلك الأفول الملحوظ في سلطان البابوية وهيتها ، ذلك الأفول الذي هو أحد المظاهر البارزة لعصر الثورة .

وفي التاريخ لا يقف شيء عند حد معين . على أنه قد يكون من الملائم أن نتخد من صلت يوتربخت نقطة مميزة ، ضعفت بعدها بدرجة محسوبة أهمية الدوافع الدينية والأسرية التي لعبت من قبل دوراً عظيماً للغاية في تشكيل سياسات الدول ، وحل محلها الصراع على المستعمرات والأسواق—فالصراع الطويل بين إنجلترا وفرنسا على السيطرة الاستعمارية وهو الصراع الذي يميز القرن الثامن عشر ليست فيه ذرة من المصالح الدينية أو الأسرية . فقد تقدمت الصنوف طبقة جديدة لم تكن تهم بشيء من هذا ، وامتلكت حيـثـيـةـ من القوة ما يمكنها من التأثير في سياسة الدول .

وفي ذلك الوقت أخذت العلوم كذلك تستكمل كيانها حتى تستجيب بدرجة كبيرة للحاجات المادية للحضارة النامية . ولما كانت الحامعة في العصور الوسطى أداة تنفيذ الكنيسة الكاثوليكية ، فقد ظلت تعمل في نطاق الحدود الصارمة للتعاليم الكنسية . وترتب على تجحيل السلطة الدينية تحريم البحث الحر . وساد الاعتقاد بأن النصوص المقدسة للإنجيل ومؤلفات أرسطو التي ما كانت لتقل عنها كثيراً في الأهمية قد احتوت على كل ما تلزم معرفته ، وعلى كل ما من السلامة الإيمان به . فكل ما جاء في هذه المؤلفات الكنسية صحيح وكل ما لم يجيء فيها غير ذي أهمية ، وكل ما تعارض معها باطل . فعندما دعا « كرشر » Kircher أستاذًا يسعياً في بداية القرن السابع عشر إلى التطلع خلال مجهره إلى البقع التي اكتشفت حديثاً على الشمس أجاب الأستاذ : « يا بني ، هذا عبث ، لقد أنجزت قراءة أرسطو مرتين فلم أجـدـ شـيـئـاًـ عن البـعـقـ الشـمـسـيةـ . ليس هناك بـقـعـ على الشـمـسـ ». كان من الإلحاد إذن الاعتقاد في نظرية كوبيرنيكوس عن الكواكب ، ومن الكفر إنكار خلق الكون منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، ومن الإلحاد تعطيل بعث المرء

بتعزيق جثته . وعلى هذه الصورة كانت القيود الثقيلة التي كبلت التعليم في كلية العصور الوسطى .

ولكن العالم كان أوسع من الجامعات . فالملاحون يهتدون بالنجوم في تسيير سفنهما ويلاحظون ذبذبات البوصلة ، والمهندسوں البحريون ، إذ يرقبون حركات المد والجزر ، والمعدنوں إن يصارعون الاختناق الناتج عن الغاز أو الماء في باطن الأرض ، وصانعوا الأسلحة إذ يعنون بمتانة بنادقهم ومدافعهم ، كل أولئك كانوا ينشئون بالتدريج مادة للمعرفة بعضها في وبعضاً علمي ، وكلها بعيدة عن مناهج الدراسة بالجامعة ، ولم تتأثر قط بما انهمكت فيه الجامعة من العلوم ، واستلزمت الملاحة دراسة علم الفلك ، وأدت إلى الدراسات البصرية ، وعن طريق البوصلة توصلت إلى دراسة الحذب المغناطيسي . ولو وضع جداول خطوط الطول ، كان من الضروري التأكيد من القوانين التي تحكم في حركة القمر ؛ كما أدى تحديد خطوط العرض إلى وضع مصوّر للأجسام السماوية . ونظرًا لصراع الدائم بين اليابسة والماء في الأرض المنخفضة ، كان طبيعياً أن يكون أول تقويم علمي لتاريخ حركات المد والجزر وتسلسلها (١٥٩٠) من عمل مهندس هولندي يدعى ستيفن Stevin . وعندما أصبح فن الحرب يعتمد بصورة متزايدة على المشاة ، فإن تعدين الحديد والنحاس قد أصبح له دافع جديد ، ونتائج ذات أهمية تزداد على الدوام .

والتعدين هو الأصل الذي أثمر كثيراً من العلوم والفنون التطبيقية (التكنولوجيا) . فقد تبين منذ القرن السابع عشر أن مهندس التعدين المثقف ينبغي أن يعرف علم تقسيم الأرضي بواسطة علم مساحة المثلثات ، وهندسة إقليدس ، واستعمال البوصلة ، وصناعة أجهزة الهرمائية وأجهزة نزح الماء ، كما فرضت مشاكل متنوعة نفسها عليه وهي تتعلق بعلم توازن الهواء والسوائل المرنة ؛ ومشاكل علم السوائل المتحركة ، والمشاكل الميكانيكية ، وبالمثل كانت سلامة المعدن ونتاج المنجم يتوقفان على قوانين العلوم الطبيعية .

ولا يكاد يقل عن ذلك أهمية تطور التفكير العلمي والاختراع الذي ابتدأ بالتطورات الحديثة في فن الحرب . فمنذ وقت مبكر منـذ عام ١٥٣٧ كان « تارتاليا » Tartaglia يعمل في دراسة مسیر الرصاصة في اندفاعها . وقد أثار

علم حركة المقدوفات أعراض المشاكل في علم الطبيعة بأسره . منها مقاومة الهواء لكرة تخترقه ، مسیر الكرة في الفضاء ، سقوط الأجسام تلقائياً بتأثير جاذبية الأرض ولذلك كان افتتاح جاليليو براهينه الرياضية بتوجيهه كلمة شكر إلى دار الأسلحة بفلورنسا أمراً له دلالته . إذ كانت الدار مسرحاً لكثير من النشاط ، ومستودعاً عظيماً لكثير من المواد التي أفادت البحث العلمي .

وفي تلك الأثناء كانت الأضطرابات الدينية والسياسية لذلك العصر تعمل عملها في إضعاف الدعامات القديمة التي تقف في وجه المعرفة الجديدة . فلم تعد أوروبا موحدة العقيدة ، كما أن الملكية لم تسلم من التحدي . وإن الاكتشافات الثورية المثيرة لحقيقة طبيعة القشرة الأرضية قد مهدت الجو الملائم للتجددات الفكرية وحقرت من شأن التقاليد القديمة . ولم تعد الحياة العقلية الراقية مقصورة على الجامعات وإنما وجدت أدوات ملائمة لسد حاجياتها في هيئات جديدة مثل كلية في فلورنسا يطلق عليها Academia del Cimento ، وبالمجتمعية الملكية في إنجلترا ، وقد أنشئت كلاهما في منتصف القرن السابع عشر ، وكرست جهودهما للكشف والتجربة . وكان Provare et reprovarre الإثبات ثم الإثبات مرة ثانية شعار أهالي فلورنسا ، أما شعار الإنجليز فكان (Nullius in verba) « لا شيء مكتوب » .

وقد أظهر ذلك أن الروح العلمية الصحيحة التي كانت قد اختفت من أوروبا منذ تدهور جمهوريات المدن اليونانية ، قد استردت مكانتها بين الشعوب اللاتينية والبيزنطية .

وشهد القرن السابع عشر تأليف هاملت Hamlet وتارتوف Tartuffe ، الفردوس المفقودة Lost Paradise ، كما شهد Principia لنيوتون . وكان ذلك هو العصر الذي عاش فيه رامبرانت Rembrandt وروبنز Rubens ، وفاندريك Van Dyck ، وهوبيما Hobbema ، ورويزلدайл Ruysdael ، وفرانز هالز Franz Hals . كما سمعت فيه كذلك الأنغام الأولى للأوبرا الإيطالية ؛ وسمعت فيه لأول مرة ألحان بورسيل Purcell الموسيقية وأوتار كان ستراديفاريوس Stradivarius . وفي هذا العصر تزود البحارة بالبوقلة والبارومتر ، ورجل العلوم بالمناظر المكبر والمجهر ، والطبيب بالكينا (دواء الحمى) ومقياس الحرارة (الترمومتر) ، والرياضي بالبندية ذات الأعيرة

النارия . وزادت وسائل الراحة في الحياة اليومية باختراع ساعة اليد والهاتف وأدى تعميم استعمال الشوكة (لاقطة الطعام) إلى حرمان الشهرين من نصف كميات طعامهم الضخمة ، لقد كان هذا العصر عصر ازدياد في الثروة واتساع في نطاق التجارة الدولية في الكماليات : فالعصر الذي عاش فيه البيوريتان والجانسنسنست قد تميز باكتشاف المثلجات والشمبانيا ، واستيراد ما هو أفعى لأنّ وهو الشاي والبن ، وباستخدام الشموع في قاعات فرساي الفاخرة ، وكانت إذ ذاك أجمل وسائل الإضاءة . وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر ظهر أول بستان رسمى وأول إخصائى وأول امرأة احترفت مهنة التمثيل على المسرح . على أن هذا العصر الذي شهد نشاطاً في هذه وغيرها من أسباب الحياة السعيدة ، مثل إضاءة الشوارع ، والتأمين البحرى ، وتعريفة برييد لندن ، كان رغم حضارته المعقّدة المتقدمة عصر حروب لا تكاد تهدأ . على أن أحداً لم يلق بالاً لشعور الناس لا في السياسات التي أثارت الحروب ولا في التسويات التي أصلحت بين المتخاصلين . فالنظريات الديمقراطية لم تكن موضع تنظيم ، وكانت الصحافة لا تزال في مهدّها . وبعد اضطرابات الفرونڈ والثورة العظمى اتجهت دول القارة الأوروبية – كما لو كانت تبحث عن أمّها – إلى حكومات تزايدت نزعتها الأوتقراطية . وضرب لويس الرابع عشر في علم الاستبداد الوراثي وفنه مثلاً بهر أنظار كل إسكندنافية وألمانيا بحيث لم تقويا على مقاومته . على أن أوروبا القرن السابع عشر قد تماست على الرغم من الحرب المستمرة ؛ فإن الشعور بمحضارة مشتركة ومصلحة أوروبية عامة في الاحتفاظ بالتوازن الدولي كان أقوى من أن يمحوه نشاط جيوش متربقة غير متجانسة في فصل الصيف . وقد أثبتت تسعة مؤتمرات سياسية كبيرة بدأت بوسفاليا وانتهت ببرلین تراجعت قوة العمل الدولي المتزايدة وانصرام تلك الحقبة من التاريخ الأوروبي حين كانت الشعوب المسيحية كلها مجتمعة على أن تعرف للبابا بدور الوسيط الدولي .

ومنها تجنب ملاحظته كذلك أن الحروب التي شنت ضد فرنسا وملأات عصر لويس الرابع عشر ، لم تشن عليه مطلقاً بروح معادية للثقافة الفرنسية . فالمكانة الفكرية والاجتماعية للملكية الفرنسية بدلاً من أن تحظى منها أطماء لويis الرابع عشر أصول التاريخ الأوروبي

الحربية في نظر أعدائها قد لقيت منهم تمجيداً مضاعفاً . فالكتب الفرنسية لم تصبح أقل تداولاً بين الأفراد ، ولا العلوم الفرنسية أقل احتراماً ، ولا الأزياء الفرنسية أقل انتشاراً بسبب اتحاد نصف أوروبا ضد الملكية الفرنسية . فقد هيمنت الحضارة الفرنسية بتمثلة في براعة مؤلفيها وعلمهم الغزير . فرسمت معلم كل مجتمع تواق إلى الحصول على أقل قدر من خلاصة الحضارة فيما بين الحدود الروسية والحيط الأطلنطي . وليس ثمة ما هو أوضح دلالة في التمييز بين حروب الملكية في ذلك العصر والضال القوي في أيامنا من استمرار تفوق فرنسا في أوروبا على الرغم من المقاومة السياسية المرة التي أثارتها أطماع ملك فرنسا وجبه للسيطرة .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Macaulay : History of England (1858-1862).
- G.M. Trevelyan : England under Queen Anne (1932-1934).
- J.R. Selley : Growth of British Policy. 2 vols. (1895).
- E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VIII.
- W. Coxe : House of Austria (1847).
- Winston Churchill : Life of Marlborough (1934).
- C.T. Atkinson : Marlborough and the Rise of the British Army (1921).
- Sainte-Beure : Histoire du Port Royal. 5 vols. (1840-1859).
- E. Bontroux : Pascal. Tr. E.M. Creak (1902).

الفصل الثاني والعشرون

القرن الثامن عشر في إنجلترا وفرنسا

نفوذ إنجلترا بعد عام ١٧١٤ - جون لوك - فولتير - مونتسكيو - طبيعة الفلسفة الفرنسية -
الفيزيكراط (The Physiocrats) - الحكومة الإنجليزية في القرن الثامن عشر - عصر جورج الثاني -
الاضطرابات في فرنسا - العقبات في سبيل الإصلاح .

كان للثورة الإنجليزية التي قامت عام ١٦٨٨ . وما أعقبها من توقيع أسرة هانوفر العرش وتبنيه لها، تأثير عظيم في الفكر الأوروبي. مضت مشاهدتها بيساء لم ترق فيها دماء ، ولم يصحبها من المساوى ما كان الناس يظنونه منذ الاضطرابات المشؤومة التي وقعت في عام ١٦٤٨ أمراً لا يحيص عنه . ثم هي بعد ذلك قد حققت من المنافع الدينية ما اتضحت أثره في التسامح الديني ، وحرية الصحافة ، وإقامة الحكم النبالي ؛ كل أولئك قد أوجد شعوراً عاماً قوياً من الدهشة والإعجاب ؛ إذ أصبحت إنجلترا - رغم ثورتها - وقد توافر لها من أسباب القوة والثراء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، ثم هي في البر والبحر قد كانت الروح المهيمنة للحلف الدولي الذي كبح جماح لويس الرابع عشر ، وهي قد أصبحت قادرة على أن تشن الحرب وتعقد الصلح وتشق طريقها وسط التيارات الدقيقة التي لابست تغيير الأسرة الحاكمة دون أن تعرّيها انقلابات داخلية ؛ كما استطاعت فرق ذلك أن تدعم مركزها الداخلي تدعيمياً قوياً باتحادها مع إسكتلندا في عام ١٧٠٧ .

وإذا صح أن تكون هناك فلسفة تبررها الأحداث ، فإن الأحداث قد بترت فلسفة المهربيج التي ظهرت الثورة الإنجليزية ، وكان رسوها العظيم وصاحب وحيها جون لوك ؛ ففي رسائل هذا العالم الرزين الخير من أبناء جامعة أكسفورد يتمس جوهر الفكر في عصر الاستنارة ؛ فهو صاحب المذهب القائل بأن الفكر ليست فطرية نابعة من الغريزة وإنما هي انعكاس لصدى الأحساس (رسالة في الفهم البشري ١٦٩٠) - (Essay on Human Understanding) وهو صاحب المذهب القائل بأن الحكومة المدنية ينبغي أن تكون قائمة على رضاء المحكومين ، وهو صاحب

الرأي بأن الملكية الخاصة حق لا يكسبه غير العمل ، ويؤمن بالتسامح الديني وتنشئة الشباب تنشئة عقلية ، وعنده وعن معاصره العالم العظيم « إسحق نيوتن » بوجهه خاص ، وعن « هنري سانت جون » ، و « لورد بولنجر ووك » بوجه عام ، تسربت إلى فرنسا طائفة من المذاهب العقلية . ومن ثم أخذت تنتشر وتنمو بحيث غدا ما عدتها هناك رقيقةً باليأ يكاد يكون من سقط المتع .

ولقد كان « فولتير » داعي الدعاة لترويج وتصميم المذاهب الإنجليزية الجديدة في فرنسا ، وكان من أنشط الكتاب في زمانه ، ولهم ذكرًا ، وأطوطهم عمراً ، وأبعدهم أثراً ، ولهم شخصية بحث أصحي إمامهم في أوروبا ؛ ذاق مرارة الظلم الذي ساد زمانه في فرنسا وكتوى بناره ، فخرج به في سجن « الباستيل » دون حماكة ؛ لأنّه تحدي أحد النبلاء . كما زار إنجلترا عام ١٧٢٦ وبقي بها حتى عام ١٧٢٩ . وهنالك أُعجب بما رأى من حرية الشعب وما هو عليه من حيوية وثقافة . ثم مثل بعد ذلك أمام البابا ، وقرأ مؤلفات « أديسون » ، و « سويفت » ، و « ييكون » ، و « لوك » ، و « نيوتن » ، و « شكسبيه » . وقد أوضح مواطنيه في مؤلفه « رسائل عن الإنجليز » . (Lettres sur les Anglais 1733) الذي نشر عام ١٧٣٣ ، معلم ذلك المجتمع السعيد الباهر ، حيث يستطيع الفرد أن يقول وينشر ما يريد ، وحيث لا تعذيب ، ولا حبس بغير حق ، وحيث يتاح لختلف المذاهب الدينية أن تزدهر ومن بينها المذهب المعروف باسم الكويكير (مذهب الأصدقاء) ؛ وقد بلغت بهم الجرأة أن أعلنوا أن الحرب عمل يخالف مبادئ الدين المسيحي . و « الإنجليزي » في رأيه « لا يسلك إلى النعيم إلا السبيل التي يرضاه لنفسه ، ولا عسف ولا تحكم في فرض الضرائب ولا يعني نبيل ولا كاهن من دفع ضرائب معلومة ، والفلاح يستمتع بالحبز الأبيض واللباس الحسن ، وهو آمن على ما يدخل ، لا يخشى إن أضاف إليه زيادة في الضريبة في العام التالي » . وبعد ذلك بقليل زار إنجلترا عظيم آخر من عظماء فرنسا ، هو مونتيسكيو الذي جاء إليها بين عامي ١٧٣١ ، ١٧٢٩ ليвид من الإطلاع على أحوال أهالي الجزيرة البريطانية . ولم يكن في حديثه عنهم أقل حماسة من سلفه . جاء في مذكرات كتبها عن رحلاته Travel Notes « أن إنجلترا أكثر دول العالم حرية ، لا تكاد تنازعها في ذلك جمهورية واحدة ، وفي رأي أنها

حرة لأن ملكها مقيد السلطان ، لا يملك لفرد من الأفراد ضرراً محسوساً» . على أنه في كتابه «روح الشائع» *Esprit des Lois* الذي ظهر عام ١٧٤٨ وضع فلسفة للتاريخ لقيت من الرواج ما جعل لها في الناس أعمق الأثر وأرأى فيها - خطئاً - أن السر الحقيقي في حرية الإنجليز كامن في الفصل بين سلطات الحكم الثلاث: القضائية والتنفيذية والتشريعية .

وظاهر أن أبرز ما ميز الحركة الفكرية التي بدأت في فرنسا هو الاهتمام الشديد بتجديده المجتمع . فإن التأمل الميتافيزيقي كان أناقة لا ترضي ذهن ڤولتير العلمي الواضح ، ولا أذهان معاصريه من رجال الفكر الفرنسي ؛ وكانت فلسفة لوک وتلميذه الفرنسي «كوندياك» فيما وراء الطبيعة ؛ كافية لتحقيق هدفهم وهو تطبيق الفكر الإنساني دون تهيج ودون الرضوخ لأى قيد من قيود الدين للتحرر من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد ، واذدهرت في فرنسا تبعاً لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفي والإنساني من الرسائل والبحوث التاريخية إلى جانب البحوث الفلسفية والتربوية والمتلقيات بين تراجيدية وهزلية . وتزوجب هذه الحركة بظهور دائرة المعارف الكبرى في أربعة وثلاثين مجلداً بين عامي ١٧٥١ - ١٧٧٢ . ولم يقتصر تأثير هذه الحركة الخطيرة على فرنسا ، بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوروبية فأدت أجل خدمة بما حملت من نعى على العنف في شتى صوره وعلى الاعتقاد في الحرافة ، والأفكار البالية ، والظلم ، وعدم التضامن بين الطبقات في بناء المجتمع الأوروبي ، وهجوم على ما كان شائعاً فيه من معتقدات دينية واجتماعية . وقد نعت بعض كتاب العصر بالإلحاد الصريح الصارخ ، وكان ڤولتير وروسو - وهما ألمع كتاب عصرهما - من أئمة المفكرين المناهضين لرجال الدين .

وعن طريق اللغة الفرنسية التي حلّت محل اللاتينية باعتبارها لغة الثقافة الأوروبية ، أخذت هذه التأليف طريقها إلى البلاد الأخرى حيث كان لها تأثير لا يقلّ من أهميته إن لم يكن ثمة بلد أوربي واحد - باستثناء إنجلترا - إذ ذاك من التضojog بما يؤهله لممارسة النظم البرلانية ، فذاعت آراء ڤولتير وروحه في بلاط الملوك المستبدّين بين برلين وقينا وسان بطرسبرج ، ومدريـد . وكان العصر يومئذ عصر الملوك المستبدّين من أمثال فرديـرك الثانـي ملك بـروسـيا ، وكـاتـرينـ الثـانـيـة قـيـصـرـة رـوسـيا ، وجـوزـيفـ الثـانـيـ

لإمبراطور الغتسا ، الذين كانوا يرون أن السلوك الأبوى للحاكم المطلق هو وحده الوسيلة الكفيلة لتحسين أحوال المجتمع ، وإعلاء شأنه ، وليس ثمة حاجة إلى وسائل أخرى .

لم يكن الفضل إذن في انتشار آراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطائهم لواء الرعامة يومئذ بمعنه مظاهرة الحكم الديمقراطي ، ففولتير لم يكن ديمقراطى التزعة ، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها ، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية في أوسع معاناتها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية النشر ، وحرية الفعل . والحرية في رأيهم هي العلاج الناجع في شتى أنحاء العالم ، فقد كان من مبادئ المفكرين الفرنسيين التي اتسع ذيوعها — دون أن تعم أنحاء العالم — أن طبيعة البشر من عجينة واحدة في كل زمان ومكان . فعلى الرغم ؛ مما سجله كل من فولتير وجيبون من أحوال الماضي ؛ ظلت الفروق بين الماضي والحاضر غير واضحة حتى وجدت الأجيال التالية في قصص ويفري (Waverle Novels) تصويراً لمجتمعات تختلف تماماً ما عرفوا في مجتمعاتهم .

ولقد كانت التزعة العامة للتفكير الفرنسي في القرن الثامن عشر وهي التجربة والمنطقية والعلمية معاً ؛ والتأثير الشديد بما استحدثه العلم من جديد شائق ، وبما توقعه الناس من تحقيق السعادة للفرد كنتيجة لتطبيق الإدراك السليم دون أى قيد .

وطفت على القرن الثامن عشر موجة عاتية من العداء لرجال الكنيسة . مبعثها اتجاه فلاسفة الفرنسيين جمياً — كما آمن بلاشفة الروس المكافحون— بأن سلطان الكنيسة بما فيه من عتو وإبهام قد وقف حجر عثرة في سبيل كل تقدم فكري واجتماعي . وليس من شك في أن حملات فولتير على العيوب الظاهرة في حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية في فرنسا . وليس من شك أيضاً في أن النقد الذى صدر عن فلاسفة فرنسا — وإن اتهمه الكثيرون بعدم العمق وقلة الإنفاق — قد كان فى موضعه ؛ وكان له ما يبرره فيما أصاب الكنيسة الفرنسية من فساد خطير . على أن وسائل الفلسفه الفرنسيين فيها تصدوا إلى تحقيقه من أهداف لم تكن سلبية ، وإنما كانت إيجابية . وقد تحقق كثير من تلك الأهداف في النظم التي أخذت بها أكثر بقاع أوروبا استنارة ، حتى إن الكتب التي أصدرتها فى أول الأمر دور الطباعة بداع

من قوة الإلهام تبدو للقارئ الحديث ملأى بنظريات لا تستحق من أحد عناء البحث . ولكن ثمة حقيقة واحدة تميز هذه الذخيرة الكبرى من الأدب الفرنسي وتحفظ لها خصائصها من العذوبة والفتنة وتعيننا على إدراك ذلك السحر الذي ملك على نفوس أكثر الأوروبيين في ذكاء ذلك العصر . وتلك الصفة هي ما يسميه الألمان « أدب البيان » (Aufklärung) وهو أدب الثقة والأمل .

وإذا كان الفلاسفة يومئذ قد فقدوا إيمانهم بتعاليم الكنيسة فإنهم قد ملئوا إيماناً بكرامة الفرد وقابليته للكمال . وساد الأدب السياسي في فرنسا إبان القرن الثامن عشر روح من التفاؤل ، حتى اعتقدت طائفة كبيرة من النابحين في فرنسا ، وهي إذ ذاك أذكى بلاد أوروبا، أنه إذا أمكنهم إزالة سخافات العصور القوطية فإن الإنسان — وهو بطبيعته خير ولا حد لقدرته على تحسين نفسه — لا بد منطلق في طريق القوة . وفي رأي ديبرو أنه « إذا صحت القوانين صحت الأخلاق » . ولم يكن أحد مستعداً ليضع حدوداً تحد من سلطة المشرع في عمله لتحسين الطبيعة الإنسانية إلى أبعد الحدود . ؛ في رأي هلقيسيوس « أن المشرع الصالح إنما يخلق المواطن، الصالح » .

وقد اتجهت طائفة من تلك التأليف الحماسية الفياضة التي صدرت عن فلاسفة القرن الثامن عشر إلى نقد المبادئ الاقتصادية القائمة على التدخل الحكومي وهي التي ورثتها فرنسا من حكم كولبيير . فقد كان المفكرون من أصحاب المذهب الطبيعي Physiocrats يؤمنون بأن قوة الطبيعة كفيلة ، إذا تركت وشأنها ، بأن توفر للناس من أسباب الرفاهية ما لم يكونوا يحلمون بتحقيقه في ظل نظام قائم على قيود من عمل الدولة أو السلطات المحلية . وقد أصاب هذا المبدأ نفوذاً كبيراً ، إلا أنه رغم ما اشتمل عليه من حقائق هامة لم يخل من ضلال بعيد ؛ فرجال الاقتصاد في فرنسا آمنوا بأن الأرض هي وحدها مصدر الثروة ، ورتباوا على ذلك أن حاجات الدولة يمكن كفالتها بضربيه واحدة على الزراعة وحسب . وفي ذلك خطأ واضح فإن الأرض ليست إلا مصدراً واحداً من المصادر المختلفة للثورة ، وليس في الإمكان أن تكفي ضريبة واحدة — مهما بلغت من العدالة لسد الحاجات المشروعة للدولة ، غير أن أولئك الاقتصاديين أصابوا وجه الحق حين قالوا إن

التجارة ليست إلا تبادل عروض ومنافع ، وأن ما تضعه الدول من قيود مصطنعة حول انتقال الموارد من إقليم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى معطل للرخاء . وكان من أثر المبادئ التي نادى بها أصحاب المذهب الطبيعي في فرنسا أنه ما إن قامت الثورة فيها حتى ألغيت الضرائب الداخلية فيها ، تلك الضرائب التي أجاد وصف آثارها السيئة في الحال الإنجليزي البصير « آثر يونج » . ثم تبلغ تلك المبادئ بلاد الإنجليز . إذ أخذها أستاذ شهير من أساتذة جلاسجو وهو آدم سميث عن كسى طبيب لويس الخامس عشر ؛ فإذا هي بين يديه تتحقق نتائجً أبعد أثراً ، ثم تنتهي بإنجلترا آخر الأمر إلى الأخذ بمبدأ حرية التجارة ، ذلك المبدأ الذي ثبت نفعه للإنجليز في أيام الرخاء والشدة على السواء .

قلنا إن ذلك اللون من التأليف قد امتاز بطابع التعقل والتفاؤل . وبقي بعد ذلكنداع قوى يبدو في النهاية أنه فاق غيره من أصوات ذلك العهد في قوة تأثيره وهو ما صدر عن « چان چاك روسو » . لم يكن فرنسي الأصل ، وإنما يرجع أصله إلى چنيف ، ولم يكن صاحب فلسفة ولا هو من الدهريين . ولكنه كان صاحب خيال مرهف . كان ذهنه صافياً ، وإنما غذاه ما نبع من غرائزه الطبيعية العميقه أو صدر عن مشاعره العاطفية — ولم يكن من التقديرين ، ولم يكن من أنصار توزيع العمل ؛ ولم يؤمن بقدرة الوسائل المادية والآلية على تحسين حظوظ الفرد ، وإنما كان يرى العالم تغشاها القسوة ، ويعمه الفقر والدمار ، ويرى الحضارة الأوروبية الباهرة حشداً من ألوان الفساد والظلم ، فتلر نفسه لرسم معلم المجتمع الذي ينبغي أن يعيش فيه الرجل الصالح ؛ ولهذا الغرض كتب كتابه « العقد الاجتماعي » الذي أخرجه عام ١٧٦٢ ، فكان للفرنسيين بمثابة إنجيل جديد .

يرى روسو أن العلاج الأساسي للإنسانية من أدواتها بسيط للغاية ؛ يراه في المساس الفضائل ، فالدولة الصالحة في رأيه هي ما تعهد فيها الفرد — وقد أعد إعداداً طيباً للحياة المدنية — على أن يجعل إرادته مطابقة للصالح العام . والمجتمع لا يكون صالحاً في رأيه إلا حيث يرعى فيه أفراده الفضائل ، كل امرئ يعامل الآخر بما يجب أن يعامل به ، وينخصع مختاراً لكل ما يحسن من القوانين العامة التي يؤمن بأنها وضعت لخدمة الصالح العام دون الصالح الخاص . ذلك هو أساس العقيدة السياسية عند

روسو . فالدولة الصالحة لديه لا تقوم على أساس من القوة أو الطمع ، وإنما تقوم على الإرادة الخيرة عند جميع أفرادها .

لقد كان في كتاب روسو—على إيجازه—فصاحة وبيان . بل كان له في الناس فعل السحر . وإن في فاتحته وحدها تحد للحضارة « ولد الإنسان حراً ولكنه صُفِّد بالأغلال في كل مكان » . أي شيء يمكن أن يكون أكثر إغراء للبائس والمحروم من أن يتخيل مجتمعًا يقوم على الميشية العامة؟ ومن أجل ذلك جاءت عبارة روسو هذه فأطلقت سبلاً دافقاً من الشعور الثوري . غير أنه طالما غمَّ على الناس أن سيادة الميشية العامة عند « روسو » لم تكن شيئاً آخر غير حكم الفضيلة نفسها .

وفي رأى « مدام دي ستايل » أن « روسو » — وقد ألهب كل شيء — لم يأت بجديد من الأمر ؛ وقوتها إنه ألهب كل شيء يشير إلىحقيقة هامة ، وأنه استطاع بحرارة مشاعره وأحلامه أن يؤوجع فرنسا إلى درجة تثير الدهشة . أفتراء حقيقة لم يأت بجديد؟ إنه نادى بالفضائل كما أمن بكتفافية الفرد العادي في ذلك المجتمع الأستقراطي ، مجتمع القرن الثامن عشر .

* * *

كان الدستور الإنجليزي في القرن الثامن عشر يفوق سائر النظم في القارة الأوربية ، ولكنه مع هذا لم يكن في ذلك الأنموذج المثالى المستير الذي تصوروه فلاسفة الفرنسيين في حماسهم المتقدة ، لقد كانت فيه عيوب بيته ؛ فالنقص واضح في أساليبه الخاصة بالتسامح الديني ، وواضح أيضاً في نظامه البرلاني . فالدولة فيه وقف على الكنيسة الأنجليلكانية . حتى إن البروتستان كانوا أحبراراً في ممارسة شعائرهم الدينية علانية، ولكن المخالفين للعقيدة الرسمية كانوا محرومين من أي نصيب من السلطان وتحمل المسؤولية ، بل كانوا محرومين من التمعن بأحسن فرص التعليم — لقد بلغ من إصرار الفرسان ورجال الدين الأنجليلكان على التشتيت بنفوذهم أن ظلت أبواب البرلأن موصدة في وجوه البروتستان المخالفين للعقيدة الرسمية حتى عام ١٨٢٨ ، كما حوموا حق التعلم في جامعتي أكسفورد وكيمبردج حتى عام ١٨٧١؛ بل وَّ أعضاء حزب الثوري أيام الملكة آن أن يذهبوا في الغنت إلى أبعد من هذا المدى عندما أرادوا بالقانون الثاني (Occasional Conformity Act)

أن يحرموا أولئك المخالفين حق التمتع ببعضوية النقابات في المدن، وعندما أرادوا بمقتضى «قانون مخالفة المذهب الرسمي» (Schism Act) إلغاء مدارسهم والقضاء على تربيتهم وتعليمهم . ولقد كان من حسنات العهد الذي ارتفت فيه أسرة هانوفر عرش البلاد أن استطاع حزب الهويج القضاء على تلك السياسة المفجعة ، في هذا العهد أبطل قانون مخالفة المذهب الأنجلوكياني (Schism Act) وصدرت قوانين التعويض السنوي Indemnity Act ، تلك التي أنقذت الخارجيين على المذهب الرسمي من الغرامات القانونية التي كانوا يؤدونها لها إذا هم تولوا منصباً في الإدارة البلدية .

على أن نغمة التسامح هذه لم تسع حدودها لتشمل أصحاب المذهب الكاثوليكي ، فهم ظلوا لا يتمتعون بممارسة شعائرهم الدينية علانية حتى عام ١٧٧٩ — أما في أيرلندا — حيث قد يخشى خطفهم في الناحية السياسية . فقد أخذوا بألوان خاصة من العنف باتوا أمامها في عجز تام .

بقي الحكم أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر بأيدي الطبقة الأرستقراطية ؛ فأسر الهويج العريقة كانت مهيمنة على مجلس اللوردات ، كما نجحوا في الحصول على أغلبية في مجلس العموم لأنصارهم ، وذلك عن طريق استخدامهم المال في المقاطعات التي كانوا يمثلونها . أما أعضاء حزب التوري فقد كانوا في الغالب أكثر فقرًا وأقل مالا . ولكنهم باتوا — بسبب مشاركتهم المريرة في قضية حزب العيaque— يقايسون مرارة الحزاءات المتصلة بالمعارضة البرلانية مدة خمسين عاماً أو يزيد . على أن خاصة الحزب التوري قد استطاعوا بعيداً عن البرلمان أن يمارسوا نشاطهم الاجتماعي والسياسي في أوسع الحدود عن طريق الحكومة المحلية وهي في الحق حكومة البلاد الفعلية ممثلة فيها كان يقوم به قضاة الصلح (Justices of the Peace) في (Quarter Sessions) وفي (Petty Sessions) . لقد كان هؤلاء هواة غير مأجورين وقد وجدوا في تنفيذ قوانين الصيد ، وفي إعدام المخالفين له ، وفي معاقبة الصعاليك ، وجدوا في كل ذلك المجال لإشباع شهوتهم في الظهور وفي الإسهام في النفع العام . وهكذا أخلدوا إلى السكون راضين مطمئنين على حين بقي الهويج يديرون دفة الأمور من (St. Stephens) .

ولقد وقع نتيجة لحادث لم يتوقعه أحد في عهد وليم الثالث والملكة آن أن وقعت السلطة التنفيذية العليا أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر في يد مجلس وزراء مسؤول

أمام البرلان وينتمي أعضاؤه إلى حزب واحد ، ولا كان جورج الأول يجهل الإنجليزية فقد أخفق في محاولة تدبير شئون الدولة مع وزرائه باللغة الفرنسية ، وكان من جراء ذلك أن انقطع عن حضور اجتماعات مجلس الوزراء . وكان للحكومة التي أبدتها : « سير روبرت والبول » Sir Robert Walpole أتباع العهد الطويل الذي مارس فيه الحكم (١٧٤٢—١٧٢١) أثرها الواضح في تأييد سلطان حزب الموبيغ وتوكيد سلطة مجلس الوزراء ، ودعم مركز رئيسه . وهكذا استقر ذلك المبدأ الحق : مبدأ المسئولية الوزارية ، أي مسئولية الحكومة ممثلة في وزرائها أمام البرلان الذي عدّ بدوره مسؤولاً أمام الناخبين .

وهذا التوفيق في تأسيس نظام مجلس الوزراء قد يرجع إلى حادث تاريخي آخر ، فقد كان كل من وليم الثالث وملكة آن يؤثر أن يكون مجلس الوزراء من مختلف الأحزاب ؛ إذ أن في اختيار الحاكم مستشاريه من رجال الأحزاب المختلفة إعلاناً بكونه فرق الأحزاب ، وتعظيمها لشأن الناج . على أن تلك التجربة في تكوين الحكومة الائتلافية لم يكن في الإمكان تحقيقها في عهد هذين الحاكمين إلا بين لا الفينة والفينية ؛ ثم انهارت عندما تولى جورج الأول وبناته الموبيغ أن أعضاء حزب التوري يأتخرون به مع العاقبة ليخرجوه من إنجلترا . ومنذ ذلك الوقت أصبح مجلس الوزراء يتكون من حزب الموبيغ وكذلك الأغلبية البرلانية . وهناك قام العرف على أن يكون أعضاء مجلس الوزراء من لون سياسي واحد ، وأن يحكم المجلس الدولة حكماً فعلياً . لقد كان هذا حدثاً ، كان حدثاً سعيداً على كل حال . وفي خلال العشر السنوات (١٧٧٠—١٧٨٢) التي استقل فيها جورج الثالث بالحكم ، وبهت سلطان مجلس الوزراء فلم يبق منه غير ظله ، حلت بإنجلترا أخطر كارثة في تاريخها حين فقدت مستعمراتها في أمريكا .

ومع ذلك فإن الحكم النيابي أيام أسرة هانوفر بما ضرب عليه من سلطان طبقة موسرة من الإقطاعيين لم يستطع أن يتسم بطابع العدل الاجتماعي ، ومن ذلك أن قوانين العقوبات التي ظلت قائمة في بريطانيا إلى أن أصلحت بفضل جهود روميلي Romilly وصحابه في القرن التالي ، قد كانت وصمة في جبين شعب عرف بإنسانيته وطبيعته الطيبة . ولم تبذل الدولة أى جهد لنشر التعليم العام ، كما ظلت

حكومات المدن فاسدة ، مكرهة ، تغشاها أفكار العصور الوسطى حتى قامت حركة التطهير بإصدار قانون الم هيئات البلدية Municipal Corporations Act عام ١٨٣٥ . الواقع أن الغرض الأساسي الذي قامت من أجله الثورة المجيدة The Glorious Revolution هو حماية التقاليد القديمة ، والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن ، إلى جانب الحفاظ على حقوق البرلمان وصيانتها من البدع والاعتداءات التي حاولها جيمس الثاني ؟ كل أولئك كان من شأنه أن يدعوا إلى مذهب الحفاظة . وفي غمرة الابتهاج بنتائج الثورة Revolution Settlement بات جماعة الهويج يعتقدون أن كل شيء قد استقر في مكانه وأن الأمور قد استقامت لهم . وقد كانوا في ذلك واهمين ، ذلك لأن البرلمان بوجه خاص كان أبعد ما يكون عن الكمال . ولكن الهويج الذين باقىوا يرون البرلمان مثلاً أعلى قد كانوا أبطأ إدراكاً من أن يلمسوا حقيقة واقعة وهي أن هيئة تشريعية منتخبة أعضاءها ملوك في الريف Counties لا تقل ضرورية دخالهم عنأربعين شلنًا ، وأقليات صغيرة في المدن ، إن مثل هذه الهيئة لا يمكن أن تكون مرآة صادقة كافية لتمثيل المصالح القومية والرأي العام حتى إن «بيرك» Burke ، وهو وإن كان يرى الحد من سلطان الملك على البرلمان إلا أنه لم يجد توسيع نطاق التمثيل البرلاني . ومن ذلك نرى أن الاتجاه العام أيام القرن الثامن عشر كان يهدف إلى إبعاد الجانب الأكبر من الطبقة الوسطى والفقيرة عن الحرم المقدس للنظام البرلاني .

وكذلك كان فساد الحكم النيابي شرّاً آخر لم يفطن إليه المفكرون الفرنسيون الذين أعجبوا بالنظم الإنجليزية ، وهو فساد تغاضي عنه البرلمان وتغاضي عنه الناخبون في دوائرهم على الرغم من احتجاجات المعارضين ، فالرثا كانت شائعة يقبلها الناخبون والمنتخبون على السواء . وإذا كان هناك من الأسباب ما يحملنا الآن على أن نظن في نقاد ذلك العصر روح المبالغة في وصف هذا الشر ، فلا شك مطلقاً في أن الرشوة قد كانت قائمة حقاً . لقد كان من المتوقع أن لا يفوز بالحصول على منصب أو مرتب إلا عدد قليل من الناخبين الذين يدللون بأصواتهم في الانتخاب ، ولكن هذا التوقع كان له تأثير كبير يتعدى أولئك الذين دفعت لهم تلك المكافأة ؛ على أن الأمة كانت - على الرغم من كل تلك التناقض - في يسر وسعادة .

فالكنيسة الأنجلיקانية التي خيم عليها العباس ، والجامعات في خوطها وجهاتها ، وبنلاء القوم الأصحاء من اللاهين بصيد الشالب ، وأصحاب السلطة التشريعية في البرلمان من ذوى الأحذية العالية والمسرفين في الشراب ، كل أولئك قد لاعتهم تلك الحياة الوئيدة الخطي فى ذلك المجتمع الزراعي القديم . ذلك لأن هوة الخلاف لم تكن سحقيقة بين الطبقات ، ولم تكن ثم مشاكل اقتصادية عويصة تثير أعضاء البرلمان ، والثورة الصناعية لم تكن قد بدأت بعد في خلق تلك الطبقة الجديدة من الناس في شمال إنجلترا من عمال المصانع الذين انطوت نفوسهم على المراة وعاشا في مجموعات غير متناسقة من البيوت التي لم تتوافر لها أسباب الصحة . والمدن كانت لا تزال صغيرة والناس بوجه عام كانوا لا يزالون يستمتعون بالرياضة وألوان الترفيه في جنبات الريف ، والبلاد قد غشتها نسمات الدعة والاستقرار ممثلة في تلك الدور من العهد الجورجي ، المقاومة من الأجر الغليظ الأحمر . ولو لا إغارة الإسكتلنديين من المناطق الجبلية عام ١٧٤٥ ، التي كانت لابد ملقية البلاد في بحر من الفوضى إذا قدر لها النجاح الثاني . لو لا هذه الإغارة المريعة لكان من الممكن أن يشعر الناس من لم يعصمهم الفقر بناته أن بلادهم في عهد چورچ الثاني قد بلغت حظها من الاستقرار والمهدوء الداخلى . فقد كان المجتمع الإنجلizي مجتمعاً فريداً تجرد أفراده من نزعات الشك وما تثيره في النفس من قلق وعذاب ، مجتمعاً لم تكن صفوه مشكلات اجتماعية ، ولم يطلب من بيلمانه برامج واسعة . ولكنه مضى راضياً بما قسم له في كل سنة من قدر بسيط من التشريع المحلي . ذلك لأن عصر الخيال والعواطف الحالم لم يكن قد طلع بعد على ذلك المجتمع المتزوى الحكيم حيث كان الناس لا يطلبون من حياتهم ؛ أكثر مما تعطى ، ذلك المجتمع الذى ساده الاستقرار والانسجام ، فما أغرته الخرافية ولا هزته العاطفة وإنما مألهه الثقة ، فاستطاع أن يتتجنب جنون الحماسة والتعصب حتى غدا مجتمعاً منقطع النظير لم تعرف أوربا له شيئاً منذ أيام Antonines^(١)

واتسم التأليف السياسي في إنجلترا أيام القرن الثامن عشر بذلك الطابع من

(١) : Antonines عهد الأباطرة الرومان الذين عرفوا بهذا الاسم وهم هادريان (١١٧ - ١٣٧) وأنطونينوس الورع (١٣٨ - ١٦١) ، وماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠) وكان عصرهم من أزهى الصور في تاريخ أوربا .

المناعة والغبطة . في الحق إنه لم يخل من روح الجدل والحماسة وإن لم يجادل في الأصول . فلا «سويفت» Swift ، ولا «ديفو» Defoe ولا «أديسون» Addison ولا «ستيل» Steele ، ولا «بلنجبروك» Bolingbroke ولا «هنرى وليام» Hanbury William شجعوا مواطنهم على التفكير في أنهم يعيشون في ظل نظام لا يحتمل من الظلم والمهانة ؛ فالخلافات في إنجلترا إختلافات برلمانية والمنازعات فائمة بين الجماعات السياسية من الأحزاب التي في الحكم والأحزاب التي في خارج الحكم . فهذا و «يلكرز» Wilkes نفسه ، وقد كان متطرفاً في آرائه بحيث استطاع في السنوات العشر الأولى من حكم چورچ الثالث أن يفتح للنضال ميداناً جديداً ، لم يذهب إلى حد أن ينال من روعة الثورة الكبرى أو قيمة المبادئ التي قامت عليها ، على حين اختلف الأمر في فرنسا حيث تجمع السخط من جراء اضطهاد الكنيسة وتعصبهما وطغيان الدولة وتقلب أهواء القائمين عليها مما أدى إلى خلق لون من الأدب اللاذع الساخر .

كانت المشكلات الداخلية التي واجهت فرنسا والتي أخذت تسترعى انتباه المفكرين من الفلاسفة منذ الأعوام الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر المشكلات مالية قبل كل شيء ؛ إذ لم تجرؤ أي حكومة في فرنسا على أن تتضع نظاماً للضرائب موحداً وعادلاً على جميع طبقات الشعب . لقد كانت كل حكومة تسعى جهدها لتتألف لها أنصاراً من هنا وهناك ، فكانت تعفيهم من بعض الضرائب ، فالبنلاء والإكليروس ، وطائفة كبيرة من الطبقة الوسطى ألغوا من ضريبة العقار ، أي ضريبة الملكية الزراعية ، كما تبعت كثيرة من المقاطعات الهامة في فرنسا تمثل هذه الامتيازات ولا سيما ما ضمن منها حديثاً إلى أملاك التاج ؛ ولقد طبق مبدأ الامتياز الضريبي في أوسع الحدود وأصبح مرتبطاً بكثير من العادات الطائفية وتقالييد الحكم الذاتي والعزيمة الإقليمية حتى غداً اقتلاعاً من أشق الأمور في فرنسا . ووضوح أنه لن تستطيع القضاء على تلك المصالح المكتسبة الكثيرة التي سيعتصاف بها أصحابها للدفاع عنها إلا حكومة قوية تظاهرها قوة كبيرة من الرأي العام . ولم تكن الملكية الفرنسية القديعة ، رغم احتفاظها بسيئة سلطانها ، بقادرة على أن تضطلع بهذا العبء .

ولم يكن أمام الفرنسيين إلا إحدى وسائلتين : إما وسيلة الإصلاح الدستوري ،

أو العمل الفردي . فـأـمـاـ الـوـسـيـلـةـ الـأـوـلـىـ فـقـدـ كـانـتـ غـيرـ قـابـلـةـ لـالـتـطـبـيقـ إـذـ أـنـ التـقـالـيدـ الفـرـنـسـيـةـ لـمـ تـعـرـفـ ذـلـكـ النـوـعـ مـنـ الـحـالـيـسـ التـشـريعـيـةـ الـمـسـؤـلـةـ أـمـامـ هـيـنـاتـ شـعـبـيـةـ مـنـ النـاخـيـنـ . وـلـاـ نـذـكـرـ أـنـ وـاحـدـاـ ؟ـ مـنـ سـاسـةـ فـرـنـسـاـ قـدـ اـقـرـحـ إـنـشـاءـ مجلـسـ تـشـريـعـيـةـ مـنـ هـذـاـ النـوـعـ .ـ وـلـوـ قـدـ فـعـلـ مـاـ وـجـدـ مـنـ مـلـوكـ فـرـنـسـاـ مـنـ يـقـبـلـ اـقـرـاحـهـ .ـ وـلـمـ يـكـنـ فـيـ اـسـطـاعـةـ أـيـ حـكـومـةـ أـنـ تـنـشـئـهـ دـوـنـ أـنـ تـعـرـضـ الـبـلـادـ هـزـةـ عـنـيفـةـ ،ـ وـذـلـكـ أـثـرـ مـنـ آـثـارـ عـهـدـ لوـيـسـ الـرـابـعـ عـشـرـ وـحـكـمـهـ الـمـطـلـقـ الطـوـيلـ الـذـيـ عـطـلـ كـلـ تـفـكـيرـ مـنـتـجـ فـيـ حـلـ الـمـشـكـلـاتـ الدـسـتـورـيـةـ حـتـىـ إـذـ أـظـلـمـتـ الـأـيـامـ فـيـ أـوـاـخـرـ عـهـدـ ذـلـكـ الـمـلـكـ الـمـغـرـورـ وـأـخـذـ فـنـاـلوـنـ Fenelonـ وـغـيرـهـ مـنـ الـكـاتـبـ يـنـاقـشـونـ قـيـمـةـ الـحـكـمـ الـاسـتـبـادـيـ ،ـ جـرـتـ أـفـكـارـهـ إـلـىـ وـرـاءـ ،ـ إـلـىـ عـهـدـ النـظـمـ الـأـرـسـتـقـرـاطـيـةـ الـقـدـيمـةـ فـيـ فـرـنـسـاـ ،ـ وـرـاحـواـ يـحـلـمـونـ بـنـظـامـ يـسـمـمـ فـيـهـ أـكـبـرـ عـدـدـ مـنـ الـبـلـاءـ فـيـ حـكـمـ الـبـلـادـ ،ـ وـدـاعـبـتـ خـيـالـهـمـ فـكـرـةـ إـحـيـاءـ مـجـلـسـ طـبـقـاتـ الـأـمـةـ ،ـ ذـلـكـ الـمـلـجـلـسـ الـذـيـ يـرـجـعـ إـلـىـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ وـالـذـيـ لـمـ يـدـعـ إـلـىـ الـاجـتـمـاعـ مـنـذـ عـامـ ١٦١٤ـ .ـ تـلـكـ الـهـيـثـةـ الـثـقـيـلـةـ الـمـصـطـرـبـةـ الـتـىـ فـقـدـتـ كـلـ نـظـامـ وـكـلـ سـلـطـةـ تـنـفيـذـيـةـ ،ـ وـكـلـ تـرـابـطـ اـجـمـاعـيـ بـيـنـ أـعـضـائـهـاـ وـكـلـ خـبـرـةـ بـعـالـجـةـ الـأـمـورـ ،ـ إـنـ التـفـكـيرـ فـيـ بـعـثـ تـلـكـ الـهـيـثـةـ قـدـ سـدـ كـلـ طـرـيـقـ لـلـإـصـلـاحـ الـدـسـتـورـيـ .ـ وـآـيـةـ ذـلـكـ أـنـ اـجـمـاعـ تـلـكـ الـهـيـثـةـ فـيـ عـامـ ١٧٨٩ـ لـمـ يـكـنـ بـدـاـيـةـ حـكـمـ جـدـيـدـ فـيـ فـرـنـسـاـ ،ـ وـإـنـماـ كـانـ إـيـدـاـنـاـ بـالـفـوـضـيـ .ـ

فـالـحـكـمـ الـمـطـلـقـ كـانـ قـدـ بـقـىـ قـائـمـاـ – عـلـىـ الـأـقـلـ – فـيـ التـقـالـيدـ السـالـفـةـ ،ـ وـلـكـنـ لـمـ تـتـحـ لـهـ حـرـيـةـ الـعـلـمـ ،ـ ذـلـكـ لـأـنـ بـرـلـانـ بـارـيـسـ الـذـيـ أـعـادـهـ فـيـلـيـبـ أـورـلـانـ ،ـ وـأـزـرـتـهـ بـرـلـانـاتـ الـأـقـالـيمـ الـأـثـنـاـ عـشـرـ قـدـ مـلـأـ طـرـيـقـ الـإـصـلـاحـ الـمـالـيـ بـعـقـبـاتـ لـاـ يـمـكـنـ تـذـلـيلـهـاـ .ـ فـلـقـدـ كـانـ الضـرـائـبـ الـجـدـيـدـةـ وـالـأـرـاءـ الـجـدـيـدـةـ مـصـدـرـ فـرـعـ لـهـلـؤـاءـ الـمـشـرـعـينـ حـتـىـ بـاتـواـ يـحـرـقـونـ الـأـسـفـارـ الـفـلـسـفـيـةـ ،ـ وـيـرـفـضـونـ كـلـ اـقـرـاحـ مـعـقـولـ للـحـصـولـ عـلـىـ الـمـالـ مـنـ الـنـاسـ وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ تـأـيـيـدـهـمـ لـلـضـغـطـ عـلـىـ الـفـكـرـ وـطـمـسـ الـمـعـرـفـةـ وـمـظـاهـرـهـمـ مـبـدـأـ الـتـيـيـزـ فـيـ فـرـضـ الـضـرـائـبـ ،ـ فـقـدـ تـمـتـعـواـ بـقـسـطـ وـافـرـ مـنـ مـحـبةـ الـشـعـبـ ،ـ عـلـىـ اـعـتـارـ أـنـهـمـ كـانـواـ وـحدـهـمـ الـلـسانـ الـمـعـبرـ عـنـ رـوـحـ السـخـطـ عـلـىـ بـلـاطـ خـلـيـعـ مـسـهـرـ ..ـ وـقـدـ تـطـلـبـ أـمـرـ إـلـغـاءـ الـبـرـلـانـاتـ شـجـاعـةـ فـائـقـةـ مـنـ رـئـيـسـ وـزـرـاءـ الـمـلـكـ «ـمـوـپـوـ» Maupeauـ .ـ وـلـكـنـ مـاـ كـادـ الـأـمـلـ يـيـدـوـ عـنـدـمـاـ تـعـهـدـ الـمـلـكـ بـالـقـيـامـ

بإصلاحات شاملة حتى قد خجا من جديد . في عام ١٧٧٤ أعاد البرلمانات الفرنسية ملك جديد تواق إلى كسب حب رعایاه . وإن كان امثالي لويس السادس عشر لشعور العامة مفهوماً ، فقد كان وبالا عليه ؛ إذ كان من المؤتوق به أن تقاوم الأقلية صاحبة الامتيازات من رجال القانون من يتارثون عضويتهم في البرلمان مقاومة شديدة ومزعجة أى إصلاح سديد وشامل للدولة الفرنسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Lecky : History of England in the Eighteenth Century (1878).
- G.M. Trevelyan : History of England (1926).
- J. Locke : Essay on Human Understanding. Ed. A.C. Fraser (1894).
- Churton Collins : Bolingbroke, a historical study, and Voltaire in England (1886).
- John Morley : Voltaire (1921).
- H. Higgs : The Physiocrats (1897).
- Leslie Stephen : The History of English Thought in the Eighteenth Century. 2 vols (1902).
- A. Sorel : Montesquieu (1887).
- A. De Tocqueville : L'Ancien Régime et la résolution (1860).
- H. Taine : L'Ancien Régime (1876).
- F. Rocquain : L'Esprit révolutionnaire avant la Révolution (1878).
- Aubertin : L'Esprit public au Dix-huitième siècle (1889).
- The Political Writings of J.J. Rousseau. Ed. C.E. Vaughan (1915).
- Voltaire : Dictionnaire philosophique (1795).
- Voltaire : Lettres écrites de Londres sur les Anglais (1734).
- Lavisson : Histoire de France, Vol. IX.

الفصل الثالث والعشرون

شهاب من السويد

عهد كريستيانا - فتوح شارل العاشر - الإيقاع على بولندا والدانمرك - الحرب الشالية (١٧٠٠) -
بتكمال والاتحاد ضد السويد - شارل الثان عشر وبطرس قيسار روسيا - بطلاوة -
سقوط السويد .

أعقبت انتصارات چستاف وقواده التي رفعت السويد إلى أوج شهرتها الحربية عشر سنوات من تاريخ السويد أقل أهمية في الواقع ، وإن كانت لا تكاد تقل اجتناباً من تلك القصة الطويلة التي سبقتها: قصة الحملات العسكرية وقصة الحملات المضادة وقصة المعارك وعمليات الحصار . وكانت كريستيانا كأبيها چستاف مخلوقة عبرية . وقد ظلت هذه السيدة الشابة المدهشة المتقلبة الأطوار تثير أنظار أوروبا عشر سنوات (١٦٤٤ - ١٦٥٤) ، تبسيط يدها بطبعاً يها في إسراف ، وتبدي من ضروب الاحتمال البدنى ما قد يثير إعجاب أقوى رجال جيش أبيها وأشدّهم خشونة ، وتسحر بحب استطلاعها الواقاد نخبة مختارة من الفلاسفة والأدباء اجتنبهم إلى استوكهلم عطفها وحظوظها وبندها المال لهم بسخاء . ثم لم تلبث إلهة الشمال The Pallas of the North أن تنازلت عن عرشها لابن عم لها ، مدفوعة في ذلك إما بعاطفتها نحو الكنيسة الكاثوليكية التي أصبحت تتمنى إليها ، أو نتيجة لما أصابها من ملل مفاجئ وكراهيّة للعمل الروتيني ، أو رغبة منها في إحداث تأثير يلفت الأنظار . وكان شارل العاشر شيئاً خطراً ، إذ لم يكن إلا مجرد جندى . كان شغفه بالمعارك عاطفة غلبت عليه ، ويعتبر مسؤولاً عن الحرب الأولى من حرب الشمال الكبيرين اللتين أُنجزتا الدمار بالسويد ، ورفعتا براندنبورج إلى مركز التفوق في شمال ألمانيا ، وفتحتا الطريق للدب الروسي المائل نحو غرب أوروبا . وقد راح هذا الرجل الملتهب يبحث عن أعداء فوجد في بولندا والدانمرك هدفاً واضحآ للهجوم . فال الأولى بلد كاثوليكي يحكمه الفرع الأكبر الكاثوليكي من أسرة « فازا » Vasa السويدية التي لم تكن قد تخلت بعد عن عرش السويد ؛ أما الثانية فهي العدو التقليدي القديم التي حكم يوماً ما إسكندنavia بأكملها ، وكان لا يزال

يضم النرويج والولايات الثلاث الجنوبيّة من السويد ، ويستطيع أن يتحكم في تجارة بحر البلطيق بحكم موقعه شمال السوند Sound وجنوبه . بدأ شارل بالهجوم على بولندا فاجتاحتها ثم ثُنى بالدانمرك . وقد وصل الجيش السويدي سوء في حربه في هولندا أو في الدانمرك إلى نقطة بدت فيها انتصاراته العسكرية كاملة لا مثيل لها . ومع ذلك فجدير باللحظة أنه عندما عقد الصالح في «أوليغا» Oliva وكوئنهagen (في عام ١٦٦٠) وتوقفت المتابعة بموت شارل في سن مبكرة (١٦٧٢) ، لم تبق بولندا ولا الدانمرك تابعين للسويد ، كما أن المكاسب الهامة التي ترتب على الحرب الپولندية لم تكن من نصيب السويد التي بذلت جهوداً عظيمة ، وإنما كانت من نصيب منتخب براندنبورج الذي حصل على سيادة تامة على دوقية پروسيا ثُمَّاً لوعده بمساعدة الپولنديين دون أن يبذل أي جهد مضمن .

ولو أن شارل قد حرر أرقاء الأرض الپولندية لربما عادل بذلك الأذى الذي نشأ في نفوس الأهالي الكاثوليك الورعين بسبب سلوك قواته اللوثيرية الدنس . على أنه لم يكن من الفطنة بحيث يسبق نابليون في ذلك . ولما لم يكن عنده ما يقدمه للپولنديين سوى الصفعات والإهانات والعقيدة البروتستانتية فقد قامت ضده ثورة وطنية وأطاحت به من بولندا بمعازرة النساء . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ ما قامت به النساء ، فإن هذه المملكة الكاثوليكية العظيمة لم تكن تطيق أن ترى بولندا الكاثوليكية تقع تحت سلطان السويد اللوثيرية .

وكما كان الإبقاء على بولندا أمراً يهم النساء ، كذلك اهتمت هولندا وإنجلترا وفرنسا بخلص الدانمرك من مخالب السويد . فأنقد أسطول هولندي كوبنهاجن ، وأوقع جيش مشترك من الـهولنديين والـدانمركيين والـپولنديين والـنساويين الـهزيمة بالـسويديين في «فنن» Fünen . فكلما لاحت فرصة طمس معالم الحدود القديمة المألوفة للملكة الدانمركيّة على أيدي العسكرية السويدية ، تدخلت قوى الدول البحريّة المتّحدة لدفع ذلك الطوفان . وذلك لما للتجارة في بحر البلطيق من أهمية دولية . وإذا كانت الدول البحريّة قد رضيت تماماً باستيلاء السويد على الولايات السكانية Scanian (في جنوب السويد) وجزيرة «برنهولم» Bornholm ، فإنها

كانت ترى الحفاظ على استقلال الدانمرك جنوب «السوند» Sound مسألة ذات ضرورة عالية .

وتتوسط خمسون عاماً من السلام العهد بين صلح «أوليغا» Oliva وبداية الحرب الشمالية العظمى الثانية (١٧٠٠ - ١٧٢١) التي قدر لها أن تختم مصير السويد كدولة من الدول العظمى . بدأت روسيا نهضتها ، كما دربت أسرة الهوهنツلرن Hohenzollern جيشاً مروعاً في «براندنبورج» ، أما السويد فحافظت على مركزها بفضل تأييد فرنسا الدبلوماسي القوى لها . وبلغت مكانة أسرة فارا درجة من القوة مكنته شارل الحادى عشر ، بعد أن ظل تحت الوصاية اثنتي عشر عاماً ، من كسر شوكة النبلاء وإقامة حكم أوتocratic اعتمد فيه على تأييد سكان المدن والفلاحين . كان ذلك الملك صموتاً جافاً ثقيلاً الظل ولكنه كان شجاعاً مدركاً لواجبه كما كان بطل النصر على العدو الدانمركي التقليدي . وعند موته في ١٦٩٧ خلف هذا الملك العاصف ، وإن كان موفقاً ، جيشاً ودخلوا إمبراطورية . حكمت السويد في فنلندا ، وأقامت من نفسها حارساً على خليج «باثيا» Bothnia ، ورفف علمها على التغرين الهاامين «ريفال» Reval و «ريجا» Riga . وأنكر على براندنبورج أن تأخذ پوميرانيا الغربية ، وهانوفر «بريمن» Bremen و «فردن» Verden ، وأبي على الدانمرك أن تضم الولايات السكانية Scanian من الولايات السويدية الجنوبيّة . واستولى على جزيرة صغيرة في نهر «نيغا» Neva وهي الجزيرة التي لن يلبث بطرس الأكبر أن يقيم عليها ١٧٠٣ بجهود أرباب السجن السويدي تصميم «نفّسكي» The Nevsky Prospect في عاصمته سان بطرسبرج St. Petersburg .

كان المحرك الرئيسي لتفكك السويد أحد نبلاء البلاطين الذين كانوا يشاركون طبقة ملوك الأراضي في المحرر في كونهم أشد الطبقات الأوتocraticية في أوروبا غروراً وصلابة . كان «يوحنا رينهولد بتکال» Johan Reinhold Patkul من «ليشونيا» Livonia يطوى صدره على حقد شخصي شديد للحكومة السويدية ؛ إذ اعتدى على أملاكه الخاصة وكذلك على أملاك أفراد آخرين من الطبقة التي كان يتمتع إليها ، تنفيذاً لإجراء شامل قصد به استرداد الناج لأملاك كانت له . فقاوم مقاومة شديدة وحكم عليه غيابياً بالموت بتهمة الخيانة . ومنذ تلك اللحظة ندب هذا الرجل

الليثوني الشرس نفسه على أن يعمل ليهوي بالإمبراطورية السويدية إلى الخصيف . فراح يتنقل بين العواصم يحيك خيوط عصبة لخاربة السويد . فأوقع في شباكه أوغسطس صاحب سكسونيا الذي كان قد انتخب ملكاً على بولندا ، وكان يطمع في ليثونيا Livonia وضم حركته بطرس قيسار الروسيا الذي كان قد فشل في الحصول على مساعدة الغرب في حربه ضد تركيا فأخذ يتطلع إلى ساحل البلطيق . وقد كانت مهمة بتکال في اجتذاب فرديريك ملك الدانمرک أسلحتها جميعاً ؛ إذ رأى فرديريك في الزيجة الحديدة التي تمت بين أميرة سويدية وجوتورب دوق هلشتين Holstein خنجرًا مصوّباً نحو الجزء الشمالي من الأراضي الدانمركية . أما منتخب براندنبورج الحذر فقد رفض أن يقع في الشباك . على أن التحالف كان بدونه قوياً . وفي مايو ١٧٠٠ أغاد السكسون على ليثونيا وبدعوا الحرب الطويلة المدى التي بدللت من موازين القوة في دول الشمال ٦

وبدت الفرصة مواتية إذ كان شارل الثاني عشر ملك السويد عام ١٧٠٠ صبياً لا تجارب له ، لم يعرف عنه إلا أنه قد طالب بالحصول على سلطان أبيه الأول تراطى ، وحصل عليه . لم يكن في الحسبان حينئذ أن ذلك الصبي المدید القامة الصارم الراجع العقل سيميط اللثام عن مناقب بطل من أبطال التاريخ الإسكندنافي في ساعة تعرضت فيها بلاده لأشد الأخطار هولا ؛ ويرهن على أنه قائد موهوب لا يقهرون ، وأن سرعة بته في القرارات لا يعدلها إلا إرادته الحاسمة وشجاعته الفائقة ؛ وأنه لا يرى في أي مغامرة تهوراً أو بأساً ، ولا في أي جهد عملاً شديداً الوطأة ؛ وقد هاجم بنجاح كل من الدانمرک وسكسونيا على التوالي ، ثم لفظ بهما خارج النزال بعد أن أوقع بهما سلسلة من الضربات القاضية ، وسير عليهما الحملات الباهرة ؛ وفي أول اشتباك له مع جيش بطرس الأكبر الذي شنه في يوم عاصف من أيام نوفمبر أمام أسوار « نافارا » Navara ، حاز نصراً حاسماً خالداً في سجلات الحروب حتى ولو أسرقناها من اعتبارنا أنه قد حاز ذلك النصر أمام جيش يبلغ أربعة أمثال جيشه . كانت هذه أشياء جديدة استعانت على كل تقدير ولاح أنها تنذر بتطور في أوروبا . في سرعة تبدو من المعجزات ، اقتحم الفتى السويدي حلقة أعدائه ، وأوقع بهم المذلة في كل جهة حتى إن مارلبرو Marlborough ذاته ما كان يتخرج عن أن يقدم

إليه شعائر التعظيم كأستاذ عظيم في فن الحرب .

على أن من المؤسف أنه كان مفتقداً للاتزان النفسي : فيينا كان مولبرا على الدوام بارد الطبع ، كالثلج ، كان شارل شعلة دائمة من الهياج والغضب . وفي مثل هذه الشخصية ذات الطبيعة الشرسة الحادة المزاج كانت العادات التي يولدتها الحكم الفردي نفحة على صاحبها لا نعمة ، ذلك لأنه إذا حاد عن جادة الصواب فما من قوة تستطيع أن ترده عن ذلك إلى الصواب ؛ ولم يكن للفشل أو الشدائيد أو الهزائم أو الإذلال تأثير على جرأته الوحشية أو معين نشاطه الذي لا ينضب . بل أجعله الإيمان بالقضاء والقدر الذي ولدَ عند النجاح المبكر ، يقتصر في خفة وطرب كل ما يحل به من صروف الدهر ؛ بينما كانت السويد تستنزف دماعها بسبب أطماءه الحارة ؛ وتتهاوى مسرعة في ميزان القوة حتى فقدت إلى الأبد مكان الزعامة ؛ وقيمتها في شئون أوروبا . كانت غلطته الكبرى أنه استهان بالروس ، فقد اعتقد بعد أن هزم جيشاً من ٤٠٠٠ جندي غير مدربين في « ناروا » Narva أن الجنود المسكوفيين لا يستحقون إلا الاحتقار وأن في وسعه أن يتخلص منهم وقتاً يشاء . وهكذا بدلاً من أن يعمل على تقوية الاستحكامات السويدية في ولايات البلطيق ، كرس ست سنوات حرجاً لإزاحة عدوه منتخب سكسونيا من الطريق ومعاقبته العقاب الذي يستحقه وتنصيب مرشح من قبله على عرش بولندا . إن ما حققه شارل لعجب . على أنه بينما كان يسقط المدن الإلندية أو ينقل الحرب إلى سكسونيا كان بطرس قيسر روسيا ، وقد أعاد تنظيم جيشه واكتشف في « شرمتييف » Sheremetief القائد الماهر ؛ يستولي على ولايات البلطيق المهمة (١٧٠١ - ١٧٠٤) . وقد ذهب بعض القادة الحكماء إلى أن شارل لو قبل عرض سكسونيا الصلح عقب انتصاره في « كليسوف » Klissow في يوليه ١٧٠٢ لأنقذ في ذلك الوقت على الأقل تلك المنطقة العظيمة الأهمية من الإمبراطورية السويدية .

ومهما يكن من صحة ذلك الرأى فيما لا شك فيه أن شارل منذ فقد مقاطعات البلطيق سلك لاستردادها مسلكاً همجياً للغاية ، لا يرجى منه أىأمل ؛ إذ عندما سوى أمره مع بولندا وسكسونيا ، وألزم النساء بتقديم الترضية لرعاياها البروتستانت

في سيليزيا ، توغل في قلب روسيا ليخلع القيسار عن عرشه . وهناك وسط البقاع الشاسعة المحرومة من الطرق المليئة بالمستنقعات والأحراش ، وفي شتاء روسيا القارس الذي لا يرحم ، اشتباك جيشه الصغير المكون من أروع المغاربين بعدد هائل فاق في خطره كثيراً الحرس الروسي . ولم يكن السويديون مزودين بما يرد عنهم غاللة الصقيع ، وقد تقلصت قوتهم إلى نصف ما كانت عليه أصلاً بفعل الأمراض والحرمان ، وخابت آمالهم في الإمدادات القوقازية العظيمة التي كانوا يتذمرونها في الجنوب . فخاضوا ضد عدو فاقهم عدداً معركة « بطاوة » Poltava في ٢٨ يونيو ١٧٠٩ حيث أبيدوا عن آخرهم . وصاح القيسار عندما تبين له الأثر الناجع للمدافع الفرنسية في إبادة صفوف أعدائه : « الآن بعونه الله تم بأمان وضع أساس مدينة سانت بطرسبرج مدى الزمان » .

وقد كان القيسار على حق ، فقد أمن في واقعة بطاوة منفذاً لروسيا تطل منه على الغرب . أما شارل ، وقد أعجزه جرح أصابعه عن توجيه المعركة ، فقد فر إلى « بلندر » Blender في تركيا ، ثم بقيت أمامه تسع سنوات أخرى مليئة لإثارة الرومانسية . ومع أنه حرض الأترالك ليشنوا حرباً على روسيا (١٧١١ - ١٧١٣) ، ثم عاد في النهاية إلى وطنه ، فإنه وهو على ما هو عليه من الجرأة وصلابة رأيه المعهودين ، لم ينجح على الإطلاق في تغيير ما قررته موقعة بطاوة . فقد أسدلت هذه الموقعة ستار على الإمبراطورية السويدية . ورُدت بولندا لأugsطس صاحب سكسونيا Augustus of Saxony . ووضعت براندنبورج يدها على الجزء الأكبر من إيميرانيا السويدية . وأضاف بطرس « ريجا » Riga ، و « ريشال » Reval إلى فتوحاته على بحر البلطيق . كما نجح جيش التحالف القوى المكون من هانوفر وبروسيا وسكسونيا وروسيا والدانمرك في إسقاط « سترالسند » Stralsund (في ٢٣ ديسمبر ١٧١٥) بعد مقاومة طويلة ومجيدة . وكانت آخر ما تبقى للسويد من معاقل على ساحل ألمانيا ، ومع ذلك فإن شارل وقد فر إلى السويد ما زال يحلم بالنصر . فغزا النرويج على أمل الحصول على فتوحات جديدة يساوم بها أعداءه . وهناك أثناء حصاره لقلعة مظلمة ، التي ذلك الرجل الشرس مكشف الرأس ذو الحذاء العالى الذى اكتسح أوروبا كما لو كان إعصاراً داعياً السويديين إلى التضحية تلو الأخرى ، دون أن يفقد قط

تأييدهم وإخلاصهم ، لــ شارل الثاني عشر حفنه كجندي ، وبعد مرور ثلاث سنوات قبلت السويد في صلح نستاد Nystad (في ٣٠ أغسطس ١٧٢١) انتقال ولايات البلطيق إلى روسيا ، وكانت الجائزة الأولى التي دار حوطها ذلك الصراع الطويل .

كتب يمكن الرجوع إليها

- R. Nisbet Bain, Christina of Sweden (1890).
- R. Nisbet Bain, Charles XII & the Collapse of the Swedish Empire (1895).
- Voltaire, Histoire de Charles XII roi de Suede (1732). Tr. W. Todhunter, Everyman's Library (1908).
- Hallendorff & Schuck, History of Sweden (1929).
- D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century (1925).

الفصل الرابع والعشرون

بطرس قيصر روسيا

روسيا في القرن السابع عشر - تقديس مبدأ الوراثة - الأسرات الملكية - قيام أسرة رومانوف Romanoff - المنافسة مع بولندا - التأثيرات الغربية المبكرة - بطرس الأكبر - « آروف » - بطرس يتحول نحو الغرب . تأسيس مدينة « سان بطرسبرج ». إصلاحات بطرس - روسيا تشارك في سياسة الغرب .

بینا كان المعاصرون للويس الرابع عشر في باريس ولندن ينعمون بمباهج المجتمع الراقى ، كان رعایا قیصر مسکوقیا غارقین فی همجیة الشرق وظلماه : واقتصر التعليم على بعض مدارس الأديرة . ولم يعرف أحد بحرية الفكر في ذلك القطر الذى عمته الأمية ، وعرف فيه رجال الدين بالجهل والكسل والتعصب ؛ فأسرعوا للقضاء على البصيص الأول من حب الاستطلاع العلمي بدلاً من تخصيص جانب من ثرواتهم الواسعة لتقدير المعرفة . على أن كافة الشعب الآسيوية كان لها بعض أنواع التسلية البدائية . كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الروس كذلك . فقد كانوا يطربون لسماع القصص الشعرية والأناشيد ينشدها الموسيقى الأعمى أو يتصدق بها القصاصين المتجول ؛ كانوا يسهرجون للرقص والمنزح والقصائد التي تحكي سير أبطالهم . ولكنهم اختصوا أنفسهم بتسلية أخرى لم يعرها أهل الشرق . فما من مكان آخر كانت تمارس فيه عادة السكر البهيمية على مثل هذا النطاق الواسع أو بمثل تلك العلانية ، يستوي في ذلك النساء والرجال : رجال الدولة وال فلاجون ، والرهبان والقسسين ، لا يقلون في ذلك عن العلمانيين . ولما كان النساء يعيشن في عزلة تامة ، فقد خلت حياتهن من البهجة الاجتماعية فيها عدا حى الأجانب في موسكو ، و تستطيع أبسط صبية في معمل للأذليان في بريتانيا أن تزهو بنفسها أكثر من زوجة ثرى روسي ، زركشت الأصباغ الكثيفة وجهها ، و سلخت السياط ظهرها ، على عادة الزوج الروسي يقوم بها منشرح الصدر ، و تقبelaها الزوجة في استسلام .

كان القیصر هو المالك للأرض والشعب . ولم يكن ثمة بربان ولا مدن حرة

ولا نقابات حرف منذ استؤصلت الحرية الجمهورية في « پسكوف » Pskoff ، و « نشجورود » Novgorod في نهاية القرن الخامس عشر على نحو يدعو إلى الأسف ، كما لم يكن هناك أى نظام للطبقات الاجتماعية . وكانت العدالة تشرى وتتابع علانية . وتأصل وباء الفساد الذى يرجع تاريخياً إلى أن أدوات روسيا العظام لم يصلوا إلى السلطان بقوة السلاح وإنما برشوة الموظفين التبار ، تأصل هذا الوباء في عادات الأمة لدرجة جعلت كافة الجهود لاستئصاله غير مجدية . ولم تكن الضرائب إلا لوناً من اللصوصية ، وقد بلغ من تأخر البلاد في المجال الاقتصادي أن الجانب الأكبر من صناعاتها وتجارتها كان في يد القيسار . ويصور الرحالة الغربيون الذين زاروا روسيا في القرن السابع عشر المجتمع الروسي في صورة عنيفة مستهترة لا نظام لها ، حريرصة على اعتزال الأجانب ، ولا يؤلف بينها إلا حكم همجي . فكان القيسار يجلد أتباعه كما كان هؤلاء وملائكة الأرض يجلدون خدامهم من العبيد ورقيق الأرض ، وكان الأسقف يجلد القساوسة ، ورئيس الدير الرهبان ، والزوج زوجته ، والأب أولاده . وكان الفرق يبدو واضحاً بين روسيا والغرب في كل شيء : في الملبس والسلوك والعادات والقوانين . كان الذكور يلبسون الأردية الطويلة ويرسلون لاحم طويلة . وقد قال « إيشان الرهيب » Ivan the Terrible : « إن حلق الذقن خطيبة لا تقوى على محوها دماء جميع الشهداء ، أليست عملية يشو بها الإنسان خلقة الحالق ؟ » واقترنت القسوة في أ بشع صورها وألوان الرذيلة التي لا يمكن وصفها ، اقترنت بأغلال الحرافات وصاحبتها كراهية راسخة لكل ما هو جديد آت من الغرب مهما انعدم ضرره ، وقد شجع على ذلك الرهبان بملابسهم السوداء ، والقسسين بملابسهم البيضاء . وما يدل على العقلية الروسية في ذلك العهد أن الاضطراب الروحي الوحيد الذي حرك ركودها الحامد لم يكن مظهراً من مظاهر التقدم وإنما كان آية على الجهل ، فإن حركة راسكول Raskoll^(١) (١٦٦٨) التي أصابت انتشاراً واسعاً

(١) حركة راسكول Raskoll (١٦٦٨) : Russian non-conformists Raskolniki . حركة دينية انفصالية روسية ؛ كانت نتيجة ل موقف البطريريك نيكون (١٦٥٢ - ١٦٥٨) من الكنيسة والقيصر - حظاً نيكون بغض القيسار الكيسن الذي أطلق يده في إصلاح الكنيسة . على أن جهوده ومحاولاته لاقت معارضة قوية بسبب عدم كياسته ومحاولته السيطرة على القيسار نفسه . وبدأ الصراع بين معتنqi القائد القديم Raskolniks والمحدثة على يد نيكون Niconianism على أثر انقاد ذلك المجلس (١٦٦٧) الذي أعلن حرمان المشقين على الكنيسة من رحمتها .

وتأثيراً كبيراً قد رفضت بعض تغييرات طفيفة وإن كانت معقودة في الطقوس الدينية ، أدخلها البطريرك (نيكون) Nicon .

كانت روسيا حينئذ الشرق بعينه . وقد بلغ من إنكار اعتبار الشعب الروسي جزءاً لا يتجزأ من الجماعة الأوروبية أن من بين الاقتراحات التي بحثت في بلاط هنري الرابع ملك فرنسا مشروع لقيام الغرب بحركة صلبيّة واسعة النطاق لطرد المسكوقيين والأتراك من الأراضي الأوروبية . كذلك لم يكن طيباً الحكم الذي ذهب إليه أورلياريوس Orlearius أحد نجاء الألمان عندما زار موسكو عام ١٦٣٦ فقال : « إذا تمعن الفرد في طبيعة حياة المسكوقيين وأساليبهم اضطر للتسليم بأنه لن يجد شيئاً آخر يفوق ذلك الشعب الروسي همجية . لئيم لا يتعلمون أى فن أو علم أو يأخذون أنفسهم بأى لون من ألوان الدراسة ، وعلى التقىض من ذلك بلغ بهم الجهل أنهم يظنون أن ما من إنسان يستطيع أن يضع تقويمًا إلا إذا كان ساحراً أو يتباً بدوره القمر وحركة الكسوف والخسوف إلا إذا كان على اتصال ما بالشياطين » .

وقد حكمت هذا الشعب المشاغب ولكنه الحافظ في الوقت نفسه ، حكمته في وقت امتد أكثر من ألف عام أسرتان : أسرة « روريك » Rurik وهي سويدية الأصل وأسرة « رومانوف » Romanoff التي نالت حكمها في العرش عن طريق اتصال نسبها بالأسرة السابقة ، وإنه للدليل فريد على اعتياد الروس تمجيل مبدأ الوراثة ، عندما قتل سرًا المغتصب القدير « بوريس جودونوف » Boris Godounof ديمترى الابن الثاني لإيقان الرهيب (١٥٩٨) ، وهو آخر من أنجبته الأسرة التي أسّشت الدولة الروسية الأولى على نهر « الدينير » Dniepper ، ونقلت إليها المسيحية عن الدولة البيزنطية ، وأنشأت دوقية موسكو العظمى ، ثم خلصت روسيا من نير التatar . وأبي الناس أن يصدقوا موت ديمترى ، إذ كيف يتأتى لأسرة حكمت منذ القرن التاسع أن تختفي هكذا فجأة ؟ فظهر شخصان مزيغان انتحل كل منهما اسم ديمترى : الأول راهب ارتدى عن دينه ، وتحول إلى الكاثوليكية وتزوج من كاثوليكية ، والثاني لص ؛ وقد اجتنبها حماسة الفلاحين والقوزاق وهداهـ اعتماداً على مساعدة بولندا والسويد – بخل الدولة وإرجاعها إلى أصولها الممجي .

ولكن في تلك الأثناء أى في عام ١٦١٢ ، وفي أحلك الأوقات عندما كان سجسموند Sigismund الثالث ملك بولندا في « سمولنسك » Simolensk والسويديون في « نفجورود » Novgorod ، والبولنديون في الكرملين Kremlin وقع حادث لا ينسى في تاريخ روسيا وهو مميز لشعبها العاطفي المتدين ؛ والثابت أن روسيا كان يتهم عليها أن تقرر ما إذا كانت ستقبل الخضوع لقيصر بولندي الأصل لا يقدم إلا ضئيلات ضئيلة للمحافظة على العقيدة الأرثوذكسية وهو الأمر الذي كان متوقعاً ، ومن دير « توريتزا » Toritza وجهاز الرسائل لعرض الأمر على المدن . وهبت الأمة لتدعى بـ قاطع . وكان زعيمها ذلك الشعور القوى العظيم المتفجر رجلين : قصاب وأمير : أما القصاب فهو « منين » Minin من نيشني نوفجورود Nischni-Novgorod والأمير بوزهارسكي Pozharski وإليهما يعود فخر تكوين جيش وطني ، طرد البولنديين من موسكو ؛ وترتب على ذلك موافقة المجلس الوطني على اعتلاء ميخائيل رومانوف ابن البطريرك « فيلاريه » Phileret عرش الإمبراطورية . (١٦١٣) .

كان ميخائيل صبياً غرّاً في الخامسة عشرة من عمره ، ولكنه كان يتمتع لأسرة محبوبة من الشعب ، قوية المركز بسبب مباركة الكنيسة لها . ومن ثم استقر عزم ثلاثة موسكو على تأييد صبي لا خبرة له ؛ كما قرر الشعب أن يقدم له ولاءهم البسيط العميق معاً ، مفضلاً ذلك على أن يخضع للدفع على العرش حملته إليه سواعد الجيش البولندي ، أو يشهد تعرض الكنيسة الأرثوذكسية للخطر باعتلاء ملك بولندي على العرش . وهكذا تحول إعجاب الشعب من أسرة روريك إلى أسرة رومانوف . فالقيصر مصطفى الله ، وهو الأب الصغير لشعبه ، وشافيء من همومه ، وثبت مركز الأسرة ونمط . فأنجابت بطرس الأكبر وإسكندر الثاني ، وغيرهما من الشخصيات الأقل فخامة ، وقد تألقوا في الصفوف الأولى من ميدان الشؤون العالمية . ثم فجأة تلاشت أسرة رومانوف كما ظهرت فجأة وسط عواصف الحرب والثورة بعد سلطان دام ثلثاًة عام . فعزل القيصر البريء نيكولا عن عرشه وذبح (في عام ١٩١٧) في حفل دموي أقيم احتفاء بانتصار البلاشفية . وكان نيكولا أطيب القياصر وأضعفهم وأكثرهم إنسانية . بل هو السيد الكامل الوحيد في قائمة حكام روسيا منذ القرن التاسع .

ورثت الأسرة الجديدة فيها ورثت الحرب ضدّ الپولنديين ، تلك الحرب التي أصبحت مزمنة منذ القرن الخامس عشر . ويعزى عداء الروس الشديد للپولنديين إلى عاملين : عقليتهم الرومانية الكاثوليكية ؛ واتحادهم السياسي (وقد وطدته معاهدة « لوبلن » Lublin في ١٥٦٩) مع دوقية « لتوانيا » العظمى Lithuania . وكانت على خلاف لتوانيا الصغيرة الحالية تتكون من مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت يوماً جزءاً من روسيا ، وبعد أن سكّنها الروس البيض والروس الصغار التابعون للكنيسة الأرثوذكسيّة أصبح ممكناً أن تعود إلى روسيا من جديد . وبجمل القول أنّ الروس رأوا في الپولنديين جماعة من الملحدين المغرقين في إلحادهم وعصابة جد خطيرة من اللصوص الذين أتوا ليسرقوا في غير أرضهم . فلم يكن الپولندي — في نظر الروس — كاثوليكيّاً فحسب ، بل كان كذلك كاثوليكيّاً باغياً . لقد كان امتلاكه بولندا للتولانيا وحده كافياً لتسوية العلاقة بينها وبين روسيا ، ولكن أسوأ من ذلك أن يحاول اليسوعيون الپولنديون ردّ اللتوانيين دفعة واحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية حتى إذا فشلوا في ذلك حاولوا خداعهم بسياسة جديدة تقوم على التراخي وذلك بإقامة كنيسة موحدة (Uniate) وهي كاثوليكيّة في عقليتها ، سلافية في طقوسها ، هذا إلى تمامى الپولنديين في تعاليهم ووقاهم التي لا تقف عند حد . وعندما كانت روسيا تعاني بعض الاضطرابات لم يتورع الپولنديون من استغلال تلك الشدة . فأيدوا المدعين على العرش ، ونصبوا أنفسهم سادة على موسكو ؛ وأحرقوا جزءاً من المدينة ، وطالبوا بعرش روسيا (١٦١٠) . وكان الپولنديون أمهار من الموسكوف وأعظم ثقافة ؛ فسهل عليهم أن يقتبسوا عن خبراء العسكريين في الحروب الألمانيّة . ولكن نباءهم كانوا معرفين بحملة الطبع . وقد ضعفت الدولة الپولنديّة ضعفاً شديداً عندما أصبحت الملكية انتخابية في ١٥٧٢ ؛ عند انفراط الذكور في فرع ياجلو Jagello . كان ثمة خميرة من العنف تهيج ذلك الشعب الحاد المزاج فتدفعه إلى معالجة أهداف متعارضة بحيث لا يمكن الجمع بينها ، فيما نراه يشن هجوماً في اتجاه نهر الدنير نراه يشن هجوماً آخر نحو البلطيق ، ناهيك باندفاع جريء في قلب روسيا نفسها . وقد كان من الخدمات الأولى لأسرة رومانوف كبح جماح قوة بولندا ، ولتوانيا المتزايدة . في عام ١٦٦٧ بعد حرب دامت خمس سنوات ، استردت مسكونيا

روسيا الصغرى ومدينة « كييف » Kieff المقدسة .

وقد بدأ أدواء موسكو العظام يقتون سلم الفوذ كجباة للضرائب لدى حكام التتار . أما الأسلوب الذي مكّنهم من أن يحرروا التتار أنفسهم من حكم سادتهم الآسيويين ، وينشطوا للعمل خارج عاصمتهم ذات الغابات ، ويتقدموها نحو بحر قزوين والبحر الأسود وبحر البلطيق ، وإن لم يشعر بهم أهل الغرب إلا قليلاً حتى بدأ نجم بطرس الأكبر يلمع في الأفق . كان هذا الأسلوب يعتمد دائمًا على تطبيقات نشاط الغرب وعلمه ، فإن إيقان العظيم الذي تزوج من « صوفيا بليولوجوس » Sophia Paleologus ابنة آخر أباطرة الدولة البيزنطية ١٤٦٢ ، وضاعف من مساحة إماراة موسكو الكبيرة ، قد اجتذب المعماريين والمهندسين اليونانيين والإيطاليين إلى بلاده ، وإنه ليدين بكثير من نجاحه لقائد مدعيته الإيطالي « فيورافانتي ألبرتي » Fioravanti degli Alberti ثم إن انتصار كازان Kazan التاريخي الذي أحق بالttار أشعـ هزيمة في ذلك القرن ، وأوصل ممتلكات إيقان الرهيب (وكان أول من أطلق على نفسه لقب قيسـ من بين الأدواء العظام) حتى حافة بحر قزوين ، ثبـته المساعدة التي كان لا غـ عنـها ولـى قـدمـها مـهـندـسـ أـلمـانـيـ . وكان افتتاح طريق التجارة في البحر الأبيض ١٥٥٤ من عمل مـغـامـرـين من الإنـجـلـيزـ . كان بـطـرسـ الأـكـبـرـ بـعـقـرـيـتهـ وـنـشـاطـهـ أـعـجـوبـةـ زـمـانـهـ – عـلـىـ أـنـهـ لـوـلاـ تـجـارـبـهـ الغـرـبـيـةـ الـتـيـ اـكـتـسـبـهـ فـيـ شـبـابـهـ أـثـنـاثـةـ اـخـتـلـاطـهـ بـأـصـدـقـائـهـ مـنـ السـوـيـسـيـنـ وـالـهـولـنـديـنـ وـالـأـسـكـنـدـنـديـنـ فـيـ الـحـيـ الـأـجـنبـيـ بـمـوـسـكـوـ لـمـ أـدـركـ عـلـىـ الإـلـاطـاقـ مـطـامـعـهـ الـعـظـيمـ ، وـلـأـصـبـحـ فـيـ بـعـدـ عـاجـزـاـ عـنـ تـحـقـيقـ تـلـكـ المـطـامـعـ إـذـ لـمـ يـقـدـرـ لـهـ عـونـ الـحـبـرـاءـ الـغـرـبـيـةـ وـالـدـافـعـ الـغـرـبـيـةـ فـيـ حـيـنـهـ . إـنـ الـقـوـىـ الـخـلـيـةـ الـوـاسـعـةـ لـدـىـ الشـعـبـ الـرـوـسـيـ كـانـتـ فـيـ حـاجـةـ لـكـيـ تـنـطـلـقـ وـتـنـظـمـ ، إـلـىـ مـؤـثرـاتـ عـقـلـيـةـ مـنـ جـانـبـ الـعـربـ هـ

وفي عام ١٦٨٩ قبض بطرس على السلطة بعد أن أزاح في عنف أخته صوفيا الوصية عليه – وكان إذ ذاك قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً – كان هائلاً في قواه الجسمانية وقد مالك كافة المواهب بما في ذلك شراسة عنيفة مرعبة شديدة الاندفاع متقلبة الأهواء وإن كانت ضرورية لفرض تجديدات غير مستساغة على الشعب الروسي . وإن مزاجه الذي تميز بمحضوبية تدعوه إلى الذهول قد دفعه إلى كل أنواع

التطرف من السخرية الخيالية إلى الكآبة المظلمة. فقد رأينا في السنوات الست الأولى من حكمه يرحب بترك مهام الحكومة السخيفة للآخرين، بينما راح هو يقيم المساخر (الكرنفالات) بصحبة رفقاء المرحين في « سلوبودا » Sloboda وهو حي الأجانب في موسكو، ويعد الألعاب النارية (الصواريخ)، ويغنى في الطرقات، وبيني السفن، وينظم قتالا صوريًا، ويداعب أصدقائه، وحتى عندما بدأ يتناول الأمور بطريقة أكثر جدية لم يجزم أحد مطلقاً إلى أي حد سيكون جاداً في عمله. وقد صحبه حتى نهاية حياته ذلك المزاج الهمجي المشوش الذي كان أشبه ما يكون بمزاج التلميذ المستهتر مما دفعه حتى وهو في سن الخمسين إلى أن يجعل من بطرسبرج كذبة أبريل. وإذا استثنينا نشاطه وتطلعه الدائب إلى المعرفة لم تكن عاداته الشخصية سوى عادات عامل مسكون في سكير قذر، يجد السعادة في رفقة أصحاب الحشين وفي أشن الأعمال وأبشعها. ولهذا أدى – في أعظم لذة – أعمالاً كثيرة مختلفة كلما ستحت له الفرصة. فاشتغل مدفوعياً وبخاراً وصانعاً للسفن وجلاداً، ناهيك عن الحرف الأخرى الأكثر تهذيباً كطبيب أسنان ونقاش وجراح؛ ولم يردعه عن أي عمل رادع أديبي أو ديني أو اجتماعي. فقد حبس شقيقته وطرد زوجته الأولى وبنش قبر عمه ودنس جثته. ولما خشي أن تنقض سياسته في الاقتباس عن الغرب قتل ابنه الذكي الريجعي بعد أن أنزل به ضرباً من التعذيب البشع. حقاً إنه كان يكره انحناء الناس – كما لو كانوا عبيداً – فحرمه. ولكنـه كان قليل الاهتمام بكرامته الشخصية، فلم ير في أي عمل أو موقف شيئاً يحيط من قدره سواء أكان ذلك عن كبرىء معكوسه أو بساطة شعبية حقيقة. فلم يحيط من قدره في أعين شعبه أن زوجته الثانية كانت خادمة عادمة من ليثونيا Livonia، أو أن تهتكه كان لا حياء فيه، أو أنه كان يقضى أياماً سوية عاجزاً عن العمل، صريع الشراب؛ كان بطرس يمثل خلاصة قومه وبما عرفا به من تناقض في العمل ومزاج حاد وشهوات بخارفة، وألفة كريمة. ومع ذلك فعندما مات وهو في سن الثالثة والخمسين كان الشعور بالارتياح عاماً كما صوره أديب صاحب دعابة: مثل ذلك مثل القرآن تنظر في سرور إلى جنازة القط.

لم يكن هناك ما هو أشد إغراء لحاكم شاب توافق إلى القوة البحرية والتوسيع

التجاري من آزوف Azoff الحصن العظيم عند مصب نهر الدون الذى يمكن الوصول إليه مائياً من موسكو. وهناك أمام أسوار آزوف كسب بطرس تجارةه الحربية الأولى (١٦٩٥) ، وهناك بمساعدة الأسطول – وقد أدخلت عليه بعض التحسينات الهامة بعد محاولة فاشلة في البداية – جنى بطرس ثمار صبره وسعة حيلته . وقد استحق استيلاؤه على آزوف (١٦٩٦) المدح لأنه كان أول انتصار تحرزه القوات الروسية على الأتراك . ولكن القىصر الشاب الذى كان واقعياً لم يدر النصر رأسه .

وقد تكشفت مشاكل البحر الأسود عند تحييصها عن صعوبات هائلة لا يمكن حلها إلا بالاستعانة بخليف من الغرب ، وأخذ بطرس يجوب الغرب باحثاً عن هذا الخليف ، ولكنه عاد من أسفاره بخفي حنين ، فائز أن يبدأ ببحر البلطيق ثم بالبحر الأسود في قائمة أهدافه الحربية . فقد كان أهون عليه أن يؤسس مدينة سانت بطرسبرج من أن يتزعز بمفرده شبه جزيرة القرم من التatar والترك . وهكذا أبدى القىصر – بقراره الخطير الذى قضى بالتحول الحاسم عن المسرح البعيد الذى شهد انتصاره المبكر – أبدى من سداد الرأى ما هو جدير برجل الدولة .

ومنذ الضربة التى وجهها إلى السويد حتى ماته فى ١٧٢٥ ظل بطرس فى حرب تكاد تكون متصلة . وعلى ضوء هذه الحرب التى شنها ضد السويد والأتراك والفرس يجب النظر إلى سياساته الداخلية . وكان أكثر ما يشغل ذهنه المتقلب أن ينشئ جيشاً كافياً كابطبيش النساوى وأسطولاً يعدل الأسطول الهولندي ، وإدارة حكومية تضارع نظيرتها فى السويد ، وأن يتزرع من الفلاحين الذين أخضعهم بقيود الرق على نحو أقوى من ذى قبل الموارد الازمة لمواصلة حروبه . وخللت سياساته مما من شأنه أن يخفف عن الفقير أعباءه أو يتحقق أهداف العدالة الاجتماعية . فكل ما أراده لشعبه هو العلم والسلطان ، والمعن المادية فى حياة الغرب .

أما العمل العظيم الذى أنججه بطرس فهو أنه – وقد تفهم بخلاف تفوق الغرب – وفق بعد مجاهود دائم استغرق حياته بأكملها ، وفي مواجهة آراء قوية سابقة فى رفع بلاده بصورة ملموسة إلى مستوى أرقى من الحضارة . ومن المرجح أنه كان يدين لنديم صباح « ليفورت » Lefort ، وهو سويسرى من جنيف ، وكان بيته فى الحى

الألماني مسرحاً لألوان من العبث غير المذهب ، كان يدين له بأول تدريب تلقاه في أساليب الغرب . ومن المؤكّد أن « ليفورت » هو الذي اقترح عليه رحلته إلى الغرب عام ١٦٩٧ ، وكان ذلك حدثاً فاصلاً في تاريخ روسيا . ومن ثم لم يكن محتملاً على الإطلاق أن ينسى بطرس المدرس الذي لقنته ليها في البحريّة أمستردام ودنفورد Deptford ولا ما اكتسبه من قيينا — وهو بعد لا يزال تلميذاً مبتدئاً — من العلوم البحريّة . كان أهل الغرب على علم تام بفن الحياة وأسرار القوّة . كان في وسعهم أن يبنوا السفن ويصنعوا المدافع والآلات ، كما أنهم خبروا مسائل المال ووسائل الراحة والمتعة المعقوله ؟ وعرفوا القراءة والكتابة ، واحتلّطوا بالنساء في حرية . وأقاموا لأنفسهم في مدنهم ذات الشوارع الممهدّة المضاءة معيشة لا هي بمعيشة المجتمع ولا بمعيشة الرهبان المعزّلين . فاستقر عزم بطرس على أن ما يمكن عمله في الغرب من المستطاع — بل من الحتم — أن يعمل في روسيا كذلك .

وكان بطرس أول من تبني من مواطنه أهمية إقامة عاصمة لروسيا على بحر البلطيق وأصبحت مدينة سان بطرسبرج التي غنمها روسيا نتيجة حرب طويلة الأمد ، شنت بسرعة ، خير ضمان لعدم انقطاع هذا الاتصال الثمين بالغرب ، ولأنه يصبح نفوذ روسيا ملماً في شؤون السياسة الغربية . وكانت تعني شيئاً أكثر من مدينة ، إذ أصبحت ومزاً ؛ فقادت تمثيل في الحياة الروسيّة ذلك الاتجاه نحو الترحيب بالغرب وقبول مجرد حضارته ضد الفلسفة القوميّة الأخرى وهي الميل نحو السلافيّة في القرن التاسع عشر والشيوعيّة في القرن العشرين ، تلك الفلسفة ترى الحضارة الروسيّة — أمراً يختلف كل الاختلاف عن حضارة أوروبا ، فهي لا تفيد من الاختلاط بها ، وتعتبر موسكو القلب الحقيقي للدولة الروسيّة والمركز المناسب لحكمتها . وقد بدت مدينة بطرس على نهر « نيفا » Neva لهذا الفريق من الناس لا تفضل كثيراً مركزاً اجتماعياً لبارونات البلطيق وقادة أممية لألمانيا في الأرض الروسيّة .

قام الحرس الروسي البريوري (سترلسي أو المسلحون بالبنادق) بحركة تمرد (١٦٩٨) قمعت بسهولة ولكن بعد عقاب صارم ، وقد خلق ذلك في البلاد منذ البداية بجواً من الرعب كان يحتاج إليه القيصر المصلح لتنفيذ إصلاحاته .

وب بصيرته النافذة وجه بطرس ضرباته بشدة إلى عناصر الحياة الاجتماعية في روسيا المتأصلة في تقاليدها كذؤون الرجال وأرديتهم وعزلة النساء وثروات الرهبان القسيسين سلطانهم المستقل ، بل إنه ذهب إلى حد إلغاء بطريركية موسكو ثم وضع شئون الكنيسة في يد مجلس ديني مقدس يمثل فيه القسيسون والأساقفة .

وبعد أن قام بتغييرات بمثل هذه الثورة (١٧٢١) سهل عليه نسبياً إنشاء المدارس المهنية ، وإصلاح العبرة والتقويم ، وحذف ثانية أحرف من الأبجدية ، وإنشاء مجلس للشيخوخ ، ونظام للوظائف العامة ، وبناء أسطول . وعلى الرغم من أن بطرس شفأ غليله بشنق حاكم مرتش لسييريا ، فإن الرشوة المتأصلة في دنيا الوظائف بقيت تحدي بطرس . وكانت زوجة بطرس الثانية كاترين الليفرنية لا تتوρع عن ابتزاز الأموال بطريق التهديد .

ولاشك أن تحضر أمة قد هوت إلى أعماق الفساد كان عملاً يفرق بجهد أي حاكم بمفرده ، ولم يكن بطرس يملك المال اللازم «لخدمات الاجتماعية» ، ونشر وعاته التربوية — على طموحها على الورق — لم ينفذ منها إلا القليل فعلاً . لم يكن لديه المال ولا هيئات التدريس ، كما لم يكن الميل للتعلم منتشرًا ، ولا يمكن بدونه أن يتحقق أي تقدم تربوي كبير . فالشعوب لا تصنع أذواقاً جديدة تحت الطلب . والتعليم للروس — كالبحر — أمضوا وقتاً طويلاً قبل أن يملكون ناصبته . ولم يكن بطرس الذي كان صريع الشراب في غيبة عما حوليه ، بينما كانت معركة بلاطوه في أخرج أوقاتها ، بالرجل الذي يستطيع أن يمنح الشعب الروسي حاسة التدبير والإدارة . ولقد أخذ بطرس من شارل الثاني عشر أو نابليون القصد في الشراب ، فما أجمل الفعال التي كان قيسيناً بتحقيقها ! على أن بطرس قد أنجز دون شك عملاً عظيماً عندما منح الروس المقومات الرئيسية الثلاثة للدولة الحديثة : الجيش والأسطول والإدارة المدنية . وعلى الرغم من أن المؤثرات الغربية قد دخلت البلاط المskرفي منذ عهد إيفان الثالث ، فإن بطرس كان أول من فتح للروس نافذة الغرب على مصراعيها . فطلت مفتحة منذ عهده ، وإليه يعود أيضاً فضل صدور أول جريدة روسية وإنشاء أول مستشفى روسي وأول متحف روسي .

وعلى الرغم من أنه لم يتخذ أي خطوة لتأمين المستقبل فإن عمله ظل باقياً أصول التاريخ الأوروبي

يقاوم الآهواء والآراء القديمة في جزرها ومدّها . وقد خلفه على التوالي أرماته فحفيده ثم ابنته أخيه ثم ابنته^(١) .

وقد قامت وراء هذه الشخص بعض الشخصيات الألمانية القديرة أمثال أوستermann Ostermann الذي ظل وزيراً للمخارجية سبع عشرة سنة، وبيونيق Munich قائداً للجيش الروسي في عهد التصرّفة آن كورلاند Anne of Courland أو بعض الروس من تربوا في مدرسة بطرس مثل بيترشيف Bestuchief المستشار الأول لإليزابيث . لقد انقضت أيام العزلة الاجتماعية والسياسية القديمة . وكان التحالف الوثيق مع النمسا حجر الزاوية في السياسة الروسية حتى موت إليزابيث في عام ١٧٦٢ .

وهكذا بفضل عبقرية فنان همجي دخلت روسيا في نظام أوربا السياسي ، حيث أخذت تحتل مركزاً لا يختلف كثيراً عن مركز إنجلترا من حيث كرّتها بجزءاً من القارة الأوروبية، ومع ذلك تجذبها مصالح بعيدة لا تعنى أوربا في شيء . فعند بابها الخلفي تقع آسيا وما هو إلا صف منخفض من التلال المحنمية المكسوة بشجر الصنوبر ، كان «يرمالك» Yermack أول من عبرها عندما كان شكسبير لا يزال صبياً ، يفصل روسيا عن غابات سيبيريا ومجاريها المائية ومرايعها ، حيث تبدو الطبيعة - فيما عدا اتجاه الأنهار من الجنوب إلى الشمال - وكأنها تكرر على أرض آسيوية التجربة التي منحت كندا سحرها وقرتها . ولكن لما كان الوصول إلى إمبراطورية روسيا الاستعمارية لا يتطلب منها ارتياح البحار، وإنما كانت مائلاً أمامها لا تحتاج إلا لمدى لها لأنذها ، فإن انجذاب السياسة الروسية نحو آسيا لم يتضمن ولم يكن قوياً منذ البداية ، ولم يظهر إلا في القرن التاسع عشر عندما أصبح الموسكوف وجهاً لوجه أمام بريطانيا واليابان: عندئذ أصبحت جاذبية آسيا عاملاً عظيم الأهمية في السياسة الروسية ؛ ولم يكن الشرق في القرن الثامن عشر بقدر ما كان الجنوب والغرب عامل انجذاب المرجعين للسياسة الروسية . فالغرب قدّم لروسيا خبراءه وفلسفته في الحكم القائمة إذ ذلك على الاستبداد المستتر ؛ وقدّم الجنوب لروسيا الفتوحات المغربية واحدة تلو أخرى . فشلة حدائق السهرل في

(١) كاترين الأولى ، بطرس الثاني ، آن أوฟ كورلاند ، وإليزابيث .

القوقاز، وشبه جزيرة القرم بساحلها المشمس كأنه الريشيرا، وهذه البسفور أكثر الممرات المائية سحراً وجاذبية ، وهو العبر من مياه البحر الأسود الباردة إلى مياه القسطنطينية الدافئة ومنها إلى مجازر اليونان فالأراضي المقدسة . ومن السهل أن ندرك قوة تأثير مثل تلك المطامح في الشعب الروسي . وقد أرادوا الشغف ذا المياه الدافئة والخرج إلى بحر إيجي ثم السيطرة على المدينة الإغريقية القديمة التي اعتقدوا أنهم أصحاب حق فيها باعتبارهم ورثة للإمبراطورية البيزنطية، فاضطربهم ذلك إلى النظر إلى الأتراك على أنهم الدولة التي تحول بين روسيا والشمس وأن يسروا كافة علاقاتهم السياسية بما يتمشى وتلك الحقيقة . فأصدقاء الأتراك أعداء لهم، وأعداء الأتراك أصدقاء لهم . وقد أدركت ذلك كاترين الثانية، أعظم خلفاء بطرس على الرغم من أنها ألمانية الأصل وفرنسية التربية . في اعتبارها أيضاً كانت مشاكل الجنوب مقدمة على غيرها . وفي عهدها وخططه لتحقيق سياسة الجنوب ، قسمت بولندا ، وضفت شبه جزيرة القرم لروسيا عام ١٧٨٣ وبذلك ثبت العلم الروسي على سواحل البحر الأسود .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Kluchevsky : History of Russia. Tr. C.J. Hogarth (1911-1932).
- Rambaud : Histoire de la Russie (1884).
- A. Brückner : Peter der Grosse (1878)
- A. Toynbee : A Study of History, Vol III. (1934).
- Macaulay : History of England (1858-1862).
- R. Nisbet Bain : Pupils of Peter the Great (1895).
- R. Nisbet Bain : Salvonic Europe (1908),
- K. Waliszewski : Pierre le Grand (1897).

الفصل الخامس والعشرون

الترك والعالم المسيحي

قوة الجيش التركي - سليمان العظيم - عهد التوسيع العثماني - معااهدة توروك Torok ١٦٥٦ - طبيان الحكم التركي وتساعه - انقسام العالم المسيحي - ضعف الترك ثم انتعاشهم - المنسا الحصن الأماي لل المسيحية - بولندا ، ضعفها الداخلي وأعداؤها في الداخل - جون سوبيسكي John Sobieski المقاومة الفرنسية - انتصارات المسيحية ١٦٨٣ - ١٦٩٩ - غزو البندقة الموراء - القومية المسيحية - العدو الحقيقي للإمبراطورية التركية - مشكلة المنسا الداخلية وخدماتها لأوروبا .

لم يكن محتملاً أن يغرب عن أذهان المسلمين الذين خلفوا السلطان محمد الفاتح مباشرةً كيف أن قبيلة شرقية صغيرة غليظة الطبع جاءت من قلب آسيا وقدر لها بجهدها الدائب وجراحتها واحتلتها أن تسيطر على إمبراطورية امتدت من بغداد إلى حدود المغرب ، ومن الحاجات الفارسي إلى شبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ؛ إذ مكثهم تفوقهم الحربي من هذا الملك العريض ومكثتهم حكمتهم من أن يدركون أن لابقاء لإمبراطوريتهم إلا بهذا التفرق الحربي . ومن ثم كان الجيش أهم ما عنوا به . وقد بني السلطان سنوات طويلة . يملك الجيش الثابت النظامي الوحيد الذي له اعتبار في أوروبا . وبفضل هذه القدرة على إيقاع رعب في أعين رعاياهم وجياراهم . وكانت منشآت المسلمين العسكرية في المدفعية والشئون الهندسية والإمدادات والتمويل فرق مستوى عصرهم . كما لم يكن في وسع أي دولة من دول غرب أوروبا أن تقاوم فرق السباهية والانكشارية التي تكونت على أساس ضربة الدم من الأطفال المسيحيين بقوات تعاملها في حماسة روحها أو قسوة مرانها وطrol أمده . وظل المسلمين أكثر من قرن يجنون ثمار حميتهم العسكرية وانشغلوا بالجيش ، وقد قوى من حرارة ولائهم لأمير المؤمنين حماستهم وطاعتهم العميماء لدعائهم . وبهذه القيادة وباستغلال الانقسام في العالم المسيحي اطرد نمو الإمبراطورية التركية . في عهد السلطان سليمان العظيم ، الفارس المشفع الذي حكم من ١٥٢٠ إلى

١٥٦٦ ، انتزع الأتراك - كما بینا من قبل - رودس من فرسان الاستبارية ، وفرضوا الجزرية على ترنسليقانيا ومدافيها ، واغتصبوا من النساء سبعة عشر المجر - وأشارت تلك الانتصارات البحرية والبرية على حرس العقيدة المسيحية وعدة قلن في أوربا . وللغت الإمبراطورية العثمانية في عهد هذا السلطان الممتاز أوج قوتها على الرغم من أن العثمانيين قد انتزعوا بعد ذلك بقرن من البناقة كandlerie ، وكمنيلك Kamenick القلعة الفريدة الموقع من البولنديين . كان سليمان يجمع بين الهمة العسكرية وموهبة التنظيم الحكوفي والميل الطبيعي للفنون والآداب . وبعده أخذت تظهر نذر الانحلال الأولى . خلفه على العرش عدد من المسلمين الضعفاء المتهكفين وترتب على حكمهم من المصائب ما لا يمكن تجنبه في دولة تعتمد في كل شيء على شخصية حاكم مستبد . فاجتاحت الفساد الحكومة ، وعمت الفوضى الجيش ، وسيم للاذكيشارية والفرق السباهية بالزواج ، وببدأ التسادل في جماعة ضريبة الأطفال المسيحيين ، ثم ألغيت تماماً في القرن السابع عشر . وإن معاهدة توروك Torok في عام ١٦٠٦ وهي المعاهدة التي خلصت النساء من الجزرية المهيأة ، وعيّنت الحدود بين الأرضي التركية والنسوية لتشير إلى النقطة التي توقفت عندها الفتوحات التركية في أوربا ؛ وكيف أن الأتراك في مساومتهم مع أعدائهم قد اضطروا إلى قبول التنازل لهم عن بعض المزايا .

بلغت الإمبراطورية البيزنطية قبل الغزو العثماني مبلغاً من البوس بحيث إن عدداً كبيراً من الرعايا المسيحيين للباب العالي كانوا يعتبرون حكم الأتراك القوى نعمة . حتماً كان المسيحيون مبعدين عن النفوذ السياسي ، يخضعون لضربيه خاصة ، كما تعرضوا في أكثر من مناسبة لخطر الاستصال المنظم . على أنهم تمعتوا على الرغم من عيوب حكامهم ومضايقهم بالضمانات التي لا غنى عنها لتوفير حياة محتملة : كان التركي قاسياً ولكنه كان كمسولاً ، صلفاً ولكن غبياً . ولما كان لا يصلح للعدل في الصناعة أو التجارة فقد رضى بالسماح للمسيحيين بممارسة التجارة والصناعة ؛ ولما كان لا يملك ثقافة خاصة به يلقنها الآخرين فقد عاش اليونانيون والبلغار والصربيون بعادات آجدادهم ، ويواجهون القرآن في حماية بطارقائهم بمقاومة هادئة ويحتفظون بعادات آجدادهم . وإن كانت صلبة .

هذاك إذن أمران ميزا الحكم التركي في أوربا : طغيانه وتساهله : أبدى الأتراك عدم مبالاة بل احتراماً شديداً للمنازعات القائمة بين الكنائس المسيحية . وما إن أفلعوا عن نية تحويل العالم إلى الإسلام حتى قنعوا بترك غير المؤمنين يصلون نار شقاوهم . ولم يكن ثمة مسلك خيراً من هذا ملاعنة لصالح الأتراك . فقد آثر الكثيرون من پروستانت تونسلقانيا والمجر العيش تحت لواء الملال على أن يقعوا في قبضة الجزوiet . وفي أثناء التنافس للحصول على معونة الجر ، ذلك التنافس الذي ميز الحروب الدانوبية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، لم يكن هذاك عامل أكثر ترجيحاً للغة الأتراك من سجية التسامح الديني ، وأكثر معاكسة للنمساويين من اضطهادهم الذي قضى من قبل على پروستانت بوهيميا ، وأصبح عندئذ يهدد أرواح وأملاك إخوانهم في الدين من أهل المجر .

كان لهذه الإمبراطورية التسعة الأربعاء التي نظمت بلقة خدمة أغراض الحرب عدوًان رئيسيان : شاه فارس وقرى أوربا المسيحية المضطربة المشاغبة . وقد اهتم الأتراك خلال تاريخهم الطويل بإعداد أسباب الدفاع في هاتين الجهتين المنفصلتين المتبعتين .

وقد يكون جهدهم فرق ما يطيقون أولاً مسألة واحدة وهي أن العالم الأوروبي لم يكن قادراً على توحيد جهوده . فالانقسام بين الكنيستين الإغريقية واللاتينية هو الذي تسبب في قيود الأتراك إلى القسطنطينية . وقد مكنته الانقسام الديني في العالم المسيحي اللاتيني ، مضافاً إليه الخصومة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس . مكّن الأتراك من تثبيت مركزهم وتوسيع رقعة فتوحهم ؛ كما أن العداء بين الأسرتين المتنافستين أسرى هابسبورج والبوريون وما اتصل به من مشاعر متضاربة من الولاء والعطف في الدول الأوروبية ، قد فتح أمام العثمانيين في النصف الثاني من القرن السابع عشر مجالاً جديداً لزحف موقف على الأرضي المسيحية .

ولحسن حظ أوربا أن وافقت حرب الثلاثين عاماً ، التي حول فيها پروستانت والكاಥوليك ألمانيا إلى مجازر بشريّة ، نوبة من نوبات الوهن الخلقي التي كانت تتتابع العثمانيين بين وقت وآخر . وكان آل عثمان إحدى الأسر العظيمة التي حكمت العالم في شجاعتها الفائقة وذكائها القاسي . ولكن حلّت بها فترات من الوهن باعدت

بينها وبين التفرق . امتدت إحدى هذه الفترات حتى شملت النصف الأول من القرن السابع عشر . على أن الأتراك كان لديهم معين من القوة يستندون منه ما يعييهم على الإبلال من تلك الفترات ، مما أذله أعداءهم المرة تلو الأخرى . وهكذا أثقب نصف القرن من الفساد والفرضي عصر من الانتعاش الواضح في قمة الدولة ونظامها . استدعي أحد الألبانيين المسنين ليصبح صدراً أعظم في عام ١٦٥٦ أثناء الحكم الطويل للسلطان محمد الرابع الغريب الأطوار . وللبيانيا قطر صغير ولكنه غني بطبعات أهله الذين لا يقلون صرامة وسيطرة عن جبارهم الجراء . كان إسكندر بك ألبانياً كما كان محمد على مؤسس مصر الحديثة . وفي تلك الظروف عندما بلغت أحوال تركيا مبلغاً خطيراً للغاية من الفرضي ، استطاع محمد كورپريللي الألباني بضرامته العتيبة أن يوثق عري الإمبراطورية من جديد . وفي خلال فترة تربو على العشرين عاماً تمكّن وزراء من أسرة كورپريللي العثمانيين مرة أخرى من القيام بدورة عنيف هدد الدول في جنوب شرق أوروبا ، وأنهى خطوط دفاع العالم الغربي .

وقد وقع عبء الدفاع عن أوروبا إزاء الخطر العثماني أصلاً على عاتق أسرة هابسبورج الكاثوليكية . وإن دور النمسا الخطير في التاريخ الأوروبي وهو أحد المبررات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النسوية ليت مثل بالذات في صمود هذه الإمبراطورية قروناً عدة وراء الحدود الجنوبيّة الشرقية لأوروبا تدافع عن الحضارة اللاتينية والألمانية ضد الإسلام على أنه بينما كانت قوات السلطان موحدة ومتاسكة كان ليوبولد إمبراطور النمسا عاجزاً حتى عن السيطرة على ممتلكاته الموروثة . وكان سلطانه يلقى في المجر خاصة أشد مقاومة من جانب هيئة النبلاء الذين كانوا يكرهون الجيوش الألمانية ويخشون توقع الص ráب الألمانية - وأكثر من ذلك جمیعاً يستنكرون تعصب الكنيسة الكاثوليكية ؛ وكانوا على اتصال وثيق بأعداء الإمبراطورية . وإذا كانت النمسا قد أخذت فعلاً أنفاس بوهيميا ، فإن جمع قوات من ألمانيا - إذا استدعي الأمر - لا يمكن إلا بعد موافقة أمراء الديات ، ومواجهة سياسة فرنسا العدائية . ومع ذلك نجد كان لعواطف العصور الوسطى بعض اعتبارها حتى في منتصف القرن السابع عشر . في الرقة التي تعرضت فيه العقيدة الكاثوليكية لأزمة حقيقة ، استطاع أرشيدوق النمسا - باعتباره إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة - أن يستنتج بما تبقى من

الروح الصليبية في أوروبا ، باعتباره رأس العالم المسيحي اللاتيني . كان له أن يتوقع الحصول على معاونة القاتolican ، ودعوات الكنيسة ، ومساعدة جيش صغير مختلط جمع ارتجالا .

وكانت جمهورية البولنديين الشاسعة الأرجاء المصطربة القلقة . أقرب حليف للهايسبرج وقد تبيّنوا أن ما قام به لويس الرابع عشر من إغراءات مالية كان عديم الأثر في وارسو . ومنذ عام ١٥٧٢ أصبحت الدولة في حالة تفكك تام من الناحيتين الحالية والسياسية عندما رفض النبلاء البولنديون الخضوع بعد ذلك لحكومة قوية وأصرّوا على أن لا يتقدّم الناج إلا ملك منتخب ، فقد الملك كل نفوذه ، فلم تعد له أدلة بلجباية الضرائب ولا جيش قائم ، ولما كان من حق أي عضو في الديات البولندية أن يعطل تماماً أي إجراء للديات (حق الشتيتو) بأى حجة مهما كانت تافهة ، لم يعد الملك يملك أى وسيلة لإحداث تغيير دستوري ناجح أو تزويد بلاده بأى تشريعات عادلة جديدة . وكانت مدة انعقاد الديات ستين ، إلا أنه كان يفتقد الحصائر التي تجعل منه برياناً قرمياً إذ كان يتكون من النبلاء المساجين ، يتضاعي بعضهم أجوراً من المسا والبعض الآخر من فرنسا ، ولا يكاد ينخفض لهم اجتماع دون اضطراب أو إراقة دماء . ولم يكن في أوروبا من النبلاء من فاق نبلاء برليندا في صلابة معاناتهم ، ولا من الفرسان من خاض المعركة في أبهتهم وبغتهم في الاستعداد للحرب . على أن المظاهره كانت براقة ولكن النظام كاد أن يكن منعدماً ، فقد كان الجيش البولندي يعتمد في عدده وتكوينه في أي وقت على استعداد النبلاء ، أو أى طائفة منهم للتزول إلى ميدان القتال مع أتباعهم . وكان مبدأ التطوع هنا نفسه هو الذي هد من قوة الجيش البولندي وكفافته ؛ بل كان مقياس الطاعة في أثناء المعركة هو الهوى ، فقد يجد أنجح القواد نفسه ضعيفاً بسبب انسحاب الجندي من تلقاء أنفسهم ، إما عن انفعال أو تعب أو دسائس سياسية . فكان اللتوانيون والبولنديون على طرف تقىض ، كما كان البولنديون كذلك فيما بينهم ؛ وكانت طبقة الفلاحين من عبيد الأرض والطبقة الوسطى من اليهود تقف خارج أحکام الدستور ، لا تلقى إلا الاحتقار والبغضاء والظلم .

ولم تلبث أن نزلت بهذا الشعب التّعس مصيبةتان كبيتان بمجرد أن تخلى في

غير حكمة عن نظام الملكية الوراثية القديمة . فإنهم بدعوتهم سيجسوند من آل فازا Vasa ليتولى العرش البولندي في عام ١٥٨٧ — وقد اعتنق الكاثوليكية بناء على ذلك — عرضوا أنفسهم لعداء السويد البروتستانتية . فجلبوا على أنفسهم مسؤولية خطيرة فقد كان النضال مع أقوى الدول الحربية في الشمال يكاد يكفي في حد ذاته لإنهاك دفاع البولنديين . ثم كانت تنتظركم مصيبة أخرى .

كان روح السخط والقلق ينمو في ثفوس القوزاق في أوكرانيا طوال النصف الأول من القرن السابع عشر ، حيث دأب المبشرون اليسوعيون على مهاجمة العقيدة الأرثوذكسية ، واستخدم الملوك البولنديون المتعيرون عن أراضيهم طائفنة من اليهود الأدنياء ليجمعوا لهم إيجاراتها . وفي عام ١٦٤٨ لم يطق القوزاق صبراً على ذلك . فشاروا تحت زعامة « بوجдан كلمنزي » Bogdan Kelmnitzi (١) أحد قوادهم وبحـونـة الروس والتـارـ والـسوـيدـين (بفضل ظروف مواتـية طـارـةـ فيـ السـوـيدـ) ، تسـيـ لهم زـعزـعةـ الدـوـلـةـ البـولـنـدـيـةـ منـ أـسـاسـهاـ . فـاـ إنـ حلـ عامـ ١٦٥٠ـ حتىـ ظـهـرـتـ مشـكـلةـ الإـبقاءـ عـلـىـ بـولـنـداـ ، وـعـرـضـ عـلـىـ بـساطـ الـبـحـثـ أـكـثـرـ مـشـرـوعـ لـاقـتسـامـهاـ . عـلـىـ أـنـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـثـرـ جـيـرانـ الـجـمـهـورـيـةـ الـبـولـنـدـيـةـ الـمـتـطـلـعـنـ لـاقـتسـامـهاـ ، فـقـدـ كـانـ مـاـ يـتـقـنـ وـمـصـلـحةـ الـعـالـمـ الـمـسـيـحـيـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ أـنـ تـبـقـيـ بـولـنـداـ ، طـالـماـ كـانـتـ مـنـ الضـعـفـ بـحـيثـ لـاـ تـسـبـبـ أـيـ مـتـاعـبـ لـلـنـسـاـ ، وـمـنـ الـفـسـادـ بـحـيثـ تـبـاعـ وـتـشـرـيـ خـلـدـةـ أـغـرـاضـ فـرـنـسـاـ .

تـمـتدـ مـسـاحـةـ وـاسـعـةـ مـعـرـوفـةـ بـاسـمـ بـوـدـولـياـ Podoliaـ عـلـىـ اـمـتـدـادـ خطـ تقـسـيمـ مـيـاهـ الدـنـيـسـتـرـ Deniesterـ وـالـبـوـجـ Bugـ ، وـهـىـ بـمـثـابـةـ أـرـضـ حاجـزـ بـيـنـ وـلـاشـياـ Wallachiaـ وـبـولـنـداـ الـبـولـنـدـيـةـ وـلـيـسـ فـيـ وـسـعـ بـجـيـشـ بـولـنـدـيـ أـنـ يـسـيرـ مـتـجـهـاـ بـجـنـوـبـاـ بـشـرقـ لـمـهـاجـمـةـ الـأـتـرـاكـ إـلاـ إـذـاـ اـخـتـرـقـ بـوـدـولـياـ وـكـذـلـكـ كـانـ التـارـ وـالـرـكـ يـتـقـادـمـونـ فـوـقـ خـيـولـمـ لـمـهـاجـمـةـ الـبـولـنـدـيـنـ عـلـىـ اـمـتـدـادـ ذـلـكـ الشـرـيطـ مـنـ التـرـبـةـ السـوـداءـ الـتـىـ تـخـرـقـ سـهـلـ بـوـدـولـياـ الشـاسـعـ . وـفـيـ هـذـاـ الـمـيـدانـ الـمـأـلـوفـ لـلـقـتـالـ حـيـثـ لـاـ تـرـازـ تـقـومـ حـصـونـ خـرـبةـ مـبـعـثـةـ مـنـ أـيـامـ حـرـوبـ التـارـ فـيـ الـقـرنـ السـابـعـ عـشـرـ ، فـقـرـ فـجـأـةـ إـلـىـ الشـهـرـةـ كـقـائـدـ عـظـيمـ اـسـمهـ « جـونـ سـوـبـيـسـكـيـ » John Sobieskiـ ،

(١) Hetman وهو لقب قديم لقائد القوزاق .

وهو نبيل بولندي يتنى لإحدى الأسر القديمة .

إن من الأحداث القليلة الجديرة بالانتخار حقاً في التاريخ البولندي اختيار هذا الجندي العظيم في عام ١٦٧٤ لكي يكون ملكاً على بولندا بناء على انتصاره اللافع في العام السابق في واقعة « كوكزيم » Khoczm من أعمال بودوليا على جيش قوى كان يقوده « أحمد كويپريلى ». في لحظة حرج من تاريخ الإيرلنديين ، نفروا عن أنفسهم دسائس الفرنسيين واحتاروا أفضل رجل ليفرد الدولة فكان ويسلاً M. Paderevski رئيساً لوزارة جمهورية بولندا التي بعثت في أعقاب الحرب العالمية الأولى . عندئذ استدعي البولنديون للمرة الثانية أعظم رجالهم وأكملهم لترجيه مصائر الدولة .

وما يذكر « سوببييسكي » Sobieski أنه كان كاثوليكيّاً ، ملأ قلبه محبة وطنه – وإن أخذ عليه شيء من التقلب : فقد حارب في شبابه في وطنه لحساب السويد . وكان كل شيء فيه ضحىً : ضخامة بدن المفرطة ، ثقافته الواسعة ، نشاطه في العمل ، ترفعه عن الأحقاد والدسائس الحقيرة ، بشاشته وخصوصية مزاجه . كان أحد قواد عصره القلائل الذين كانوا يسددون ضرباتهم بشدة ، ويضربون دائمًا ويجلبون النصر إلى بلادهم . فكلما ظهر ملك بولندا في الميدان قاد الإيرلنديين إلى النصر . في عام ١٦٧٥ ألم من الأتراك بالتنازل لبولندا عن بودوليا كلها (فيما عدا قلعة كامنييك Kameniec) ، وعن ثالثي أوكرانيا . ولكن كان هدفه أعظم بكثير من انتصار محل أو فوز يحرزه في بودوليا ، إذ كان يحلم بمحرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا « ليديق البربرة » كما قال « غزواً بغزو ، وليتبع النصر عليهم تلو النصر على نفس الحدود التي لفظتهم إلى أوربا ، وفي كلمة واحدة لا يكتفى بغزو هذا الوحش وإنضاعه وإنما يقتذف به بعيداً إلى الصحراء ، ويستأصله تماماً . وعلى أنفاصه يعيد بناء الإمبراطورية البيزنطية . إن هذا العدل هو وحده العدل الشريف ، وإنه وحده العدل النبيل الحكيم الحاسم » .

ولكن أوربا لم تكن كلها معه في هذا الرأي . فبينما كان سوببييسكي يعمل على تحريض الأعداء في كل مكان على الأتراك ، كان لويس الرابع عشر يستخدم كافة الحيل ليضمن حياد بولندا في النضال الذي كان معروفاً أنه على وشك الوقوع .

ولكنه أخفق في هذه المحاولة . على أن الخصومة التقليدية بين باريس وفينينا كانت إحدى الظروف التي ساهمت في قيام الأتراك بهجوم واسع النطاق هذه المباشرة فيينا والنهائي روما .

ولأن ردّ قره مصطفى القائد غير الكفء لقيادة عن أسوار فيينا في ١٦٨٣ ليؤرخ بدأية ذلك العهد الطويل من الضعف الذي لم يتركها ثم أكدته معاهدة لوزان في عام ١٩٢٣ . ومهدت الضربات الأولى لموشيهسكي السجين للحرب كان الغرض منها التحكم في أواسط الدانوب ، وقد تميزت بسلسلة من الانتصارات أحرزتها قوات الإمبراطورية إذ نجحت الإمبراطورية النمساوية العجوز باستخدامها لقوات من ألمانيا وساخرو ، في إلزام الأتراك بالارتداد عبر الدانوب . وفي هذه المعركة بزغت شهرة الأمير يوجين Eugene حليف موليرا Marlborough ، وحبيب بريطانيا البروتستانتية . وقد أدى انتصاره الأخير في « زنطة » Zenta الذي توج به سلسلة انتصاراته إلى صلح كارلوفيتس Carlowitz (١٦٩٩) ، وبمقتضاه نزل الأتراك للنمسا عن كل المجر وترنسلافانيا ولبولندا عن كل بوهيميا وأوكرانيا .

على أن أحد الفتوحات المسيحية التي سجلتها هذه المعاهدة التي تؤرخ عصرًا جديداً كان سابقاً لأوانه ، ذلك أن البنادقة وقد حرضهم البابا وشجعهم ارتداد الأتراك ، بدعوا سراً لاسترداد بلاد اليونان وبمساعدة مرتزقة من المهرّبين وغيرهم من الألمان ، استعادوا دلماشيا وطردوا الأتراك من المورة ، وعندما أطلقوا نار مدفعهم على أثينا أنزلوا بالبارثيون ضرراً بالغاً لا يمكن إصلاحه . وفي صلح « كارلوڤز » سمح لهم بأن يحتفظوا بما حصلوا عليه من أسلاب . ولكن لم يكن مقدراً لليرنان أن تكون مستعمرة للبنادقة ؛ فبعد سعة عشر عاماً (١٦٩٩ - ١٧١٨) في ذل أسد القديس مرقض استعاد الأتراك حكم المورة ذلك أن البنادقة الذين كانوا تحت زمام « فرنتشيسكو موروسيني » Francesco Morosini من القوة بحيث استطاعوا أحد المورة لم يتمكنا من الاحتفاظ بها . ليس هناك من اليونانيين من يحب الإيطاليين ، كما أنه ليس هناك يوناني أژوش كسي يحب كاثوليكيَا رومانياً ، وكذلك لم يرحب تجار بحر « إيجه » بقواعد الاستكثار الصارمة التي فرضها البنادقة . وانتهى حكم جمهورية البنادقة الضعيف في اليونان غير مأسوف عليه ؛ إذ أخفقت في إثارة

حماسة شعب قد هوت به قرون طويلة من الظلم لنداء العقل اللاتيني ، شعب كان قانعاً تماماً باعتبار السلطان رئيسه الزمني وبطريق القسطنطينية رئيسه الروحي :

ولم تكن دعوة الفاتيكان هي التي ردت جيوش الإسلام في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فقد كان « جون سوبيري » هو آخر من نفخ في بوق جودفري بويون Godfrey de Bouillon ^(١) ، هذا بينما كانت الشيع الكاثوليكية والبروتستانتية تتناحر على السلطان في بلاط شارل الثاني ملك إنجلترا ، ولويس الرابع عشر يغزو الأراضي المنخفضة الإسبانية ، ويمد السلطان بالمال . أما القوة الحقيقة التي فجرت الإمبراطورية العثمانية العجوز فلم تكن قوة رومانية بل يونانية ، لم تكن قوة عالمية بل قومية . كانت هذه القوة هي تصميم الشعوب المسيحية المغلوبة على أمرها في شبه جزيرة البلقان من يونان وصرب وبلغار ورومانيين على خلع نير الاستبداد التركي والتعت بحياة قومية مستقلة . أما كيف نضج ذلك الشعور بطيناً بين شعوب البلقان وكيف حصلوا على تأييد الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا تأييداً مستمراً وكذلك تأييد دعاء الجامعة الصقلبية ، وشجعهم مطامع القياصرة في الترسيع حتى أدت القومية الصربية في النهاية تؤيدها روسيا وتصبح خطراً يهدى بنسف الإمبراطورية النمساوية ، أدت إلى الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ ، أما كيف حدث ذلك فهذه كلها أمور ستفصل عنها عليك فيما بعد . وعندئذ ستلاحظ كذلك أنه عندما يسقط قياصرة أسرة رومانوف وتشغل روسيا بالثورة تعود فرنسا إلى سياستها التقليدية القديمة فتعاون الأترالك على الاحتفاظ بالقسطنطينية .

في تلك الأثناء خلفت انتصارات الأمير يوجين . التي أعادت كافة بلاد المجر إلى النمسا — لأباطرة المايسبروج مشكلة من أعوص مشكلات الحكم الداخلي لم تكن لتحتل — على غرار المسألة الإنجليزية الأيرلندية — أى حل سهل مرض . لقي أرشيدوق النمسا في مملكة المجر الانتخابية طبقة نبلاء متبعجرفة يسيطرون على رعاياها شعب أجنبي ،

(١) جودفري بويون : حوالي (١٠٥٨ - ١١٠٠) دوق الاورين السفل وأحد قواد الحملة الصليبية الأولى . انتزع بيت المقدس من المسلمين وانتخب ملكاً على مملكة بيت المقدس في يوليه ١٠٩٩ ، على أنه آثر أن يلقب « بحامي القبر المقدس » . وخلفه في الملك عند وفاته أخوه بيلدوين .

وتتكلّم لغة لا يعرّفها إلا القليل من الألمان وتعذر بعادات لا يشاركها فيها أى ألماني؛ ومنهم أسر كثيرة بروتستانتية، منهم كثيرون وقفوا أحلياً عديدة إلى جانب الأتراك، فهم أرستقراطيون من ملوك الأرض المغاربيين، غلاط الطبع، نصف شرقين، أقرب في طباعهم إلى البولنديين منهم إلى الألمان، لا انسجام بينهم وبين أوساط ثيابنا الموسيقية والفنية. فكيف يتّأقى للإمبراطور أن يعامل ذلك الشعب العصي المتقد حماسة نصف الوئى؟ وكيف يرتّب علاقاته مع التيوتون والسلاف؟ كيف يتّأقى له أن يجعل من هذه الأجناس المتشوّعة المتناقضة دولة ملكية كاثوليكية وطيدة الأركان؟ هل من الممكن أن يجتمع كل هذه الشعوب تحت سلطة مركزية عليا ويؤلفها جمِيعاً على غرار ما فعل في بوهيميا؟ أكان من الممكن إقامة نظام اتحادي يشارك فيه كل جنس بتصنيبه العادل من السلطان؟ أم كانت الوسيلة العملية المثلث أن يضع السلطة في أيدي الألمان والمغاربة بوصفهم أكثر الشعوب رجولة وقدرة على الحرب، ثم يترك لكل منهم حكم رعاياهم المتبرّرين؟

حاولت الإمبراطورية النمساوية العجوز حل تلك المشاكل في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، ثم كان شأنها شأن الإمبراطورية العثمانية فتفككت بعد الحرب العالمية الأولى بقوة انفجار الروح القومية في داخلها. وقد كان للإمبراطورية النمساوية كثيرون من المعجبين من تلمسوا لها الأعداء من بين أولئك الذين يعتبرون القومية أفعى لعنة سياسية نزلت بالجنس البشري. وكان مثل هؤلاء شديدي الإعجاب بهذه الدولة الكاثوليكية التي وجه اليهوديون سياستها الدينية والتي نشرت بين رعاياها رسالة الدين والتهذيب، وقد كان الكثيرون منهم في بداية القرن الثامن عشر لا يزالون أنصاف برابرة وأنصاف وثنيين؛ وهم يرون فيها محاولة لتحقيق المثل الأعلى ل المجتمع مسيحي ينتظم كافة الأجناس واللغات على نطاق ضيق، وكان هذا الهدف الذي اشرأبت لتحقيقه الكنيسة على الأرض. وهم في السلام النمساوي كما في السلام البريطاني، فإذا كانوا من الكاثوليك فإنهم سيفضلون سلام النمسا على بريطانيا، يتطلعون إلى لون من ألوان الحكم يعلو على الدولة القومية لأنّه يستمد من القومية بعض مبادئها الداعية إلى اتحاد البشر على مستوى أعلى وأرجح وهم يقدرون الصعبات التي كانت الإمبراطورية النمساوية العجوز تعامل تحت وطأتها

والمظالم التي ارتكبها ، وكراهة الشعوب لها كراهة ذهبت مثلا . ولكنهم مع ذلك يأسفون لاختفائها . كانت الحكومة النسوية — كما بدت — تبدو غالباً ثقيلة ، عاتية ، جاهلة ولكنها مع ذلك ظلت تجمع في رقعة واسعة وعرة من أوروبا شعوباً متباعدة ، سريعة الالهاب ، تضفي عليهم مسحة من حضارة الغرب اللاتينية والبيروقراطية .

ولو قد قامت الإمبراطورية النسوية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية على أساس الارتباط الحر لولايات تتمتع بالحكم الذاتي لم تكتسب من تحدي عواصف الزمن بأمان . ولكن لم يتوافر لها أساس القبول الذي لا بد منه . فكانت الدولة نتاجاً عارضاً لزيجات أسرية لم تتضمن ما هو أسمى من مجرد الولاء للأسرة الحاكمة ، ولا تعتمد على أي أساس من العادات المشتركة ، وأقامت وحدتها الدينية على أساس الأصطفاء . وهكذا راح اليسوعيون والجند ورجال البوليس يشدّون هذا البناء بعضه إلى بعض ، ولولا هذه الروابط المصطنعة (الميكانيكية) لانحل البناء إلى عناصره . وقد عاش الناس في الإمبراطورية النسوية القديمة عيشة مرحة ، سعيدة ومشمرة ، لقد كانت دولة كاثوليكية وملكية في نظامها ، أقامت معتقداتها على العرف ، استمتع الناس فيها استمتاعاً كاملاً ورائعاً بالفنون والعلوم التي يمكن العثور عليها بسهولة حيث يكثر اليهود ، على أن الإمبراطورية كانت تفتقر إلى الروح السياسية ونسمات الحرية .

ولكن ذلك كان أمراً سابقاً لأوانه . فقد كانت النساء في النصف الأول من القرن السابع عشر على رأس الحرية لحركة الإصلاح الكاثوليكي والقضاء على حرريات الشعب البوهيمي . ثم قدمت بعد ذلك خدمتين لأوروبا لقيتا ترحيباً من الروح السائدة في إنجلترا إذ ذلك بقدر ما كانت أعمالها الأولى كريهة وهما دفع الخطير التركي عن الحدود الشرقية ، وما قدمته في الغرب من مساعدات صادقة كان لا غنى عنها للدولتين البحريتين البروتستانتيتين خلال صراعهما العنيف ضد فرنسا الكاثوليكية . ولعل الاستدلال على سياسة الدولة بناء على معتقدات أبنائها الدينية أمر ضئيل الأهمية لدرجة أن دعم استقلال الجمهورية الهولندية وتقسيم الإرث الإسباني العريض وتوطيد وراثة العرش الإنجليزي لبروتستانت ، كل هذا يعزى بدرجة كبيرة إلى الجهود الحماسية التي بذلتها الدولة النسوية القديمة التي سيطر اليسوعيون على

مصارفها ، تلك الدولة التي لفظت آخر أنفاسها بهدوع في معاهدى سان جرمان وتريانون Trianon St. Germain (١٩٢٠ - ١٩١٩) .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.R. Morfill : Poland (1893).
- Dyboski : Poland (Nations of the Modern World), (1933).
- N.A. de Salvandy : Histoire du Roi Jean Sobieski 2 vols. (1876).
- J.B. Moston : Sobieski, King of Poland, (1932).
- W. Coxe : House of Austria (1847).
- C. Finlay : History of Greece. Ed. H.F. Tozer (1877).

الفصل السادس والعشرون

السلام وبروسيا

عصر الاستنارة - الصداقة الإنجليزية الفرنسية - انخطر الإيهان - شارل السادس والضماء الوراثي .
حرب الوراثة البولندية - فرنسا تحصل على الورعين - والبولي Wolpole وفليوري Fleury
خصائص حروب القرن الثامن عشر - نهوض بروسيا - التوزيع الجغرافي للدولة البروسية - أسرة
هوهنزرن Hohenzollern - طبائع البروسين - فردريك وليم الأول .

أعقب حرب الوراثة المتساوية فترة من المهدوء النسبي نادرة الحدوث في تاريخ
أوروبا وبعيدة الأثر في تقدم حضارتها . ذلك أن معاهدة يورخت Utrecht 1713
التي قامت على أساس مجموعة من المواقف الحكيمية ، لم تختلف إلينا تدعى إلى
مشاولات عاجلة . فعل الرغم مما منيت به الفرنسا وإسبانيا من خيبة الأمل . فالواقع
أن سائر الدول المتحاربة قد أفادت من تقسيم الإرث الإسباني . وكان السلام شرطاً
جوهرياً لضمان سلام حكومتي فيليب أورليان الوصي على عرش فرنسا وجورج
الأول ملك إنجلترا وقد كانتا حكومتين ضعيفتين غير مستقرتين .

ومن الأمور الملائمة أن جاء عصر العقل بشيراً بإيدان عهد غير مألف من
التحالف السياسي بين إنجلترا وفرنسا ، وقد كان التعاون الفكري بين الأمتين أهم
معالم القرن الثامن عشر . وقليلاً أخفقت الجيوش الإنجليزية والفرنسية المتحالفتان
منذ أيام يوليان الصبائِي حتى انتصارات هيج Haig و فوش Foch . وكذلك
انتصرت دبلوماسيتهما المشتركة ؛ فأنقذت أوروبا من اندلاع حرب عامة مدتها خمسة
وعشرين عاماً (1713 – 1739) . حقاً إن أوروبا لم تستطع تجنب الحرب تماماً ،
فقد حدث صدام بين إسبانيا والنسا ، وبين إنجلترا وإسبانيا ، وأنهياً دارت حرب
حول مسألة الوراثة البولندية بين فرنسا وقوات إسبانيا وساورى من جانب والقوات

(١) انتصارات هيج وفوش : هي الانتصارات التي أوقفت الهجوم الألماني الأخير الذي دبره
لودنورف في 1918 لكسب الحرب في الجبهة الغربية ؛ وكانت خطتها تقضي بتحصيل القوات الفرنسية عن
القوات الإنجليزية وضرب كل منها على حدة .

النسوية والروسية المشتركة من الجانب الآخر . على أنه يبدو أن تلك الخصومات قد خلت من عنصر الاستهرار الوحشى . كره كل من فليري الشحبي المت指控 والپول الاقتصادي الضليع ما تقتضيه الحرب من نفقات وسرف زائد . فإذا كان لا مفر من الحرب ، ولم يكن في وسعهما تحاشيها تماماً ، فقد صرحا على أن تكون معتدلة النفقات ، محدودة المجال ، على أن يعملا على إنهائها في أول فرصة مواتية .

وقد يبدو غريباً لأولئك الذين قدروا العوامل الكثيرة التي من شأنها أن تجمع بين فرنسا وإسبانيا ؛ كثیراً ما المشتركة للتقاليد اللاتينية الكاثوليكية ، وتعرض مستعمراتهما لمنافسة الإنجليز والمونديين ، وخصوصاً ما المشتركة للأسرة البوربون ، واستبعاد عامل الخلاف الوحيد الذي سُمِّي العلاقات بينهما مدة طويلة - ألا وهو انتقال الأرضي الشخصي من حكم إسبانيا إلى فرنسا بمقتضى معاهدة يورخت ، وقد يبدو غريباً في نظر أولئك أن فرنسا آثرت محالفتها إنجلترا على إسبانيا في أي وقت تلا ذلك التاريخ . على أن العلاقات بين الدول غالباً ما تتأثر بالأحداث الشخصية .

إذ ترك لويس الرابع عشر على عرش فرنسا طفلاً يبلغ من الضعف درجة يجعله من المشكوك فيه أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولم تؤمن وراثة العرش في الفرع المباشر للأسرة إلى أن أنجب لويس الخامس عشر ولدّاً للعهد في عام ١٧٢٩ ولذلك كان متوقعاً في تلك الفترة أن يطالب فيليب الخامس أول ملك البوربون في إسبانيا بعرش فرنسا على الرغم من تنازله عنه رسميًّا . ولم يكن أحد في باريس يؤيد فيليب وكان احتمال استبداله قرساً بمدربيه - هذا الاحتمال الذي لم يرحب به أحد - كان كافياً لأن يبلور بذور الشقاق بين دولتي البوربون لسنوات كثيرة ويدعم الصداقة التي لم تزل محفوفة بالمخاطر بين إنجلترا وفرنسا .

وكانت مطامع إيليزابيث فارنيز Elizabeth Farnese مصدر الخطر الأول الذي تعرض له أوروبا ، وهي الزوجة الثانية لفيليب الخامس ملك إسبانيا ، وكانت لاتتربع عن إشعال نار الحرب في أوروبا لتحصل على دوقية بارما Parma ، وتسكانيا Tuscany كصداقة لأولادها . وقد لاقت إرادته هذه المرأة العنيفة المسيطرة تأييداً من إيطالي من أحد أبناء منظمي الكروم كان ذا دهاء متألق ، وقد ظلت ذكرى نشاطه العظيم ووحيه ماثلة طويلاً في نفوس الناس في البلد الذي اتخذه وطناً له (إسبانيا) على

الرغم من مظهره الخشن . ولو كانت أحلام الكاردينال ألبروني قد تحققت كلها [طرد النسوين من إيطاليا ، وأسرة هانوفر من إنجلترا ، والوصى على العرش من فرنسا ، وانصوت هذه الأقطار الثلاثة تحت لواء إسبانيا ، وقد بعثت من مجلد . ولكن أحبط هذه الخطط البعيدة المدى الاتفاق الفعال بين حكومتي فرنسا وإنجلترا . فدمرت البحرية الإنجليزية أسطولاً إسبانياً تجاه ساحل صقلية ، كما مزقت العواصف أسطولاً آخر في خليج إسكي كأن يحمل المساعدات إلى العياقبة في أسكندندا .

وكشفت مؤامرة دبرت لاختطاف الروى في باريس . واضطر الكاردينال البروى الذى لم يتورع عن مهاجمة النسوين ، بينما كانوا مشتبكين بشجع من البابا فى حرب ضد الأترالك ، اضطر بضغط مشترك من إنجلترا وفرنسا إلى اعتزال خدمة إسبانيا .

وهكذا أخفقت خططه كلها وبمقترنه عام ١٧١٩ نشلت أول محاولة لتعزيز ترسوياً يرتديلاً أساسياً ، ولكن إليزابيث فارنيز التى لم تره بها الأحداث لم تشف من أطماعها ، فذابت فى خططها لصالح ابنائها . فالغايات التى كان ألبروني يأمل فى تحقيقها بمهاجمة النسا هجرواً مباشراً ، حاول ريبودا Ripperda الهولندي وهو وزير خارجية آخر دخل فى خدمة إسبانيا مرة أخرى (١٧٢٥) حاول تحقيقها بتفاهم وثيق مع بلاط قريينا وأصبحت أوربا على شفا حرب عامة . وبذلك أطل برأسه شبح سيطرة النسا وإسبانيا ، كما هدد أسرة هانوفر انفاق سرى بين حزب العياقبة وأعداء إنجلترا من الأجانب — على أنه لامرأة الشاذة أنقذ السلام فى أوربا تفاصيم ودى بين حكام فرنسا وإنجلترا القلاء .

كان يحكم النسا عندئذ ذلك الرجل الذى حاولت إنجلترا عبثاً أن تضعه على العرش الإسباني ، وأنفقت فى سبيل ذلك كثيراً من الدماء والمال . خلف شارل السادس على غير توقع أخاه جوزيف فى قريينا ، وقد كان من أصلب أفراد أسرة هابسبورج بعراً ، أبي إيكارا بحسب الإنجليز الذين ساعدوه فى الماضي ولكنه تشبت فى عبادات بادعاءات الماضى ، وكان من الغباء بحيث إنه لولا ظرف واحد كاد يثير فى أوربا من المتاعب ما يعدل ما فعلته إليزابيث فارنيز ، لم يعقب إلا بتناً واحدة

وونقاً للقانون السالى ^(١) لا حق لها في وراثة العرش النمسري ، فاضطر أن ينشاد دول أوربا الكبرى قبل قرار أسرى عرف باسم الصهان الوراثي ، الذى رب - على الرغم من العوائق القانونية - ماريا تريزا وراثة دولة مايسبرج كاملاً دون تقسيم . وإن عاهلاً يجري وراء معروف سياسى من آخرین لن يكن في أفضل مركز للحصول على مزايا . ولم يبطئ المسافة الأذكىاء في لندن وباريس في وضع الصنقة مرضع المساواة التي وضعتها الأقدار في أيديهم . فكان الثمن الذي طلبوه غالياً . أرضى شارل والدول بإلغاء شركة الهند الشرقية في أمستردام التي كانت تهدد مصالح إنجلترا في المحيط الهندي . أما الفرنسيين فقد بالغوا في الثمن ذكاكاً أكثر ترذيباً ، فقد استنزل الكاردينال فلورى رئيس وزرائهم الحنث حاجة الإمبراطور فانتزع منه إعادة الدوقية اللورين إلى فرنسا .

وقد أتاحت الفرصة لهذا التنازل الأخير بربماً من تلك الحروب الخدودة المصيرية التي ميزت هذه الفترة التي اتسمت بالأطماع الدبلوماسية المعتدلة ، وانتقام المادي ، وهي حرب الوراثة البولندية ، وقد نشأت من أن لويس الخامس عشر الذي كان متزوجاً من ماري ابنة «ستانيسلاس ليزنسكي» Stanislas Lesczinski أراد - معتمداً على عراقل سياسية وأسرية - أن ينصب حماماً ملكاً على العرش البولندي . وكانت سياسة حفقاء كما رأها فليري لأن روسيا كانت تعصب النساء في مؤازرة أغسطس المرشح السادس ، كما كانت تحمل جيشاً ، على حين كان الفرنسيون على بعد فراسخ من مسرح الحوادث البولندية .

كان أمراً حقيقةً أن تفترض أن فرنسا تستطيع أن تتحقق أهداف الحرب بعمليات في سهل بولندا البعيدة ، إذ كانت أملاك الإمبراطورية في إيطاليا وعلى نهر الراين بالنسبة إلى فرنسا تقدم أهدافاً أقرب وأكثر عملية ، ولذلك كانت إيطاليا المسرح

(١) القانون السالى : قاعدة في نظام الوراثة عند بعض الأسرات المالكة والنبلاء في أوربا وتقضى بمنع الإناث وأخلاقهن من وراثة العرش أو بعض المناصب الحامة . سى بالسالى نظراً لافتراض خاطئ يقول إنها كانت جزءاً من قانون الفرنجة السالين . وكان عمولاً بهذا القانون في فرنسا وإسبانيا وبروسيا . وكان ذا أهمية خطيرة في سقب من تاريخ هذه الدول .

الذى شنت فيه حرب الوراثة الپولندية القصيرة (١٧٣٣ - ١٧٣٨) . وهنالك نجحت فرنسا بمساعدة قوات إسبانيا وساخوى غير المتجانسة أن تنزل بأعدائها على الرغم من تقلبات الحظ ضربة سريعة المفعول : فطرد جيش إسبانى تحت قيادة الجنرال «منتار» Montemar النسوين من نابولي . وأقام هناك فرعاً من أسرة البوربون ، ذلك الفرع الناپولى المنكود الطالع الذى أثار بطغيانه سخط جلاستون Gladstone واحتقاره والذى قضى عليه جيش غاريبالدى من ذوى القصدان الحمراء .

وكان الاستيلاء على مملكة نابولي أهم ضربة في هذه الحرب التى شنت بهمة فاترة على نطاق ضيق وفي تفتيير شديد ، واتهت عند أول فرصة ستحت بانتهاها . وقد كان من الطبيعي أن يثور الإمبراطور لرفض إنجلترا وهلندة التدخل في النزاع ، ولما كان نجاح القوات الإمبراطورية في بولندا قد قابله فشلها في إيطاليا ، أظهرت فيما بعد استعداداً لبحث عروض فليري للصلح . وتعتبر هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة فيينا الثالثة (١٧٣٨) التي أنهى بها الكاردينال العجوز المسألة الپولندية أنموذجاً جسرياً للدبلوماسية الفرنسية . ومع أن الكاردينال قد أنفق القليل وبخاف بالقليل ، فقد استطاع أن يحصل على نفع عظيم من حرب غير منطقية لم يرحب بها أحد . فتقرر أن يتزوج فرانسوا دوق الاورين من ماريا تريزا ، وارثة العرش النمسوي وأن يتولى عرش تسکانيا عند موت آخر حكامها من أسرة ميديتشى . وفي مقابل هذه الآمال البراقة تم الاتفاق على أن يتنازل فرانسوا لستانسلاس عن الاورين وأن تؤول المقاطعة إلى فرنسا عقب موت ملك بولندا العجوز . ولم يتوقف المؤرخون الفرنسيون فقط عن تهنة أنفسهم على تلك المهارة التي بفضلها استخرجت فرنسا وسط مرارة فشل أممها في بولندا إقليم الاورين بعمل براق لم يكن متوقعاً من أعمال الشعروة وخفة اليد . ولكن كان من المتعذر أن تم هذه المعجزة لولا أمررين : حاجة شارل إلى موافقة فرنسا على الضمان الوراثي ، وتصفييم والدول على المحافظة على السلام . وهكذا انتهت الحرب الپولندية ولم تتعذر بعض المعارك وأعمال الحصار ، وكان من الممكن أن تجلب الخراب على أوربا . وإذا استثنينا حلول ملك بوربرى في نابولي محل ملك هايسبورجى ، وأن فرنسا قد ضمنت الاستيلاء على الاورين ، فيما عدا ذلك لم يحدث في الواقع تغير في خريطة أوربا السياسية . وقد نشطت الدبلوماسية في

العمل خلال هذه الأعوام الخمسة والعشرين : فكان عهداً حفل بالمؤامرات والمحالفات الثلاثية والرباعية والإذارات بخطر الحرب والمؤامرات والدسائس من كل نوع . على أن وراء هذه الحركات التي لا تنتهي كان يكمن - لحسن الحظ - في لندن وباريس عزم صادق على المحافظة على السلام ، يوجه أعمال الشخصيات الهامة . إن التفاهم الفرنسي الإنجليزي الذي بدأه ستانهوب Stanhope السيد الإنجليزي المذهب بالاتحاد مع « ديبوا » Dubois المحتال الفرنسي الماهر قد أكمله ووطنه سياسيان أعظم منهما بكثير وأصلاً عملهما . قد يكون من الصعب أن نتصور تباهياً أحد من ذلك الذي كان بين الكاردينال « فيلري » رئيس وزراء فرنسا حين كان بين الرابعة والسبعين والتسعين من عمروين سير « روبرت والپول » الذي سيطر على مسرح السياسة في إنجلترا مدة أطول من هذه . فالأول مفكر نحيل ، عاقل ، صبور ، رصين ، لا نظير له في مهاراته الدبلوماسية ، نزه نفسه عن العواطف الحارقة ورذائل العالم ؛ أما الآخر فهو سيد من نورفولك خشن الطبع ومحب للهو ولكنـه كان أفضل اقتصادي وبريطاني في عصره . على أنه بقدر ما يمكن أن يكون في وسع أي رجلين عمله لإخبار غرائز الحرب في أوربا وهب هذان الحليقان العجيبةان تلك الميزة . فكل منهما في سعيه لإدراك مصالح أمته اضطر أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه زميله ، وهو الطريق إلى السلام العالمي (١) .

لم تكن حروب القرن الثامن عشر نتيجة حركات شعبية أو عنصرية واسعة النطاق ، تؤيدـها وتشجـعـها صحـافة قـوية . على أنه قد حـكمـ على الشـعـوبـ بـصـفةـ عـامـةـ أن تـتحـتمـ نـفـقـاتـ حـرـوـبـ لمـ يـكـنـ لهاـ يـدـ فيـ إـثـارـتهاـ وـلـمـ تـكـنـ تـهـمـهـاـ إـلـاـ قـلـيلاـ . وـلـيـسـ مـعـنـىـ ذـلـكـ أـنـ حـكـوـمـاتـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ فـيـ سـعـيـهاـ لـتـحـقـيقـ أـهـدـافـهـاـ التـيـ كـانـتـ غالـباـ أـهـدـافـاـ أـسـرـيـةـ لـمـ تـكـنـ بـعـيـدةـ تـامـاـ عـنـ الرـأـيـ الـعـامـ خـارـجـهـاـ . فـكـانـ مـلـكـ فـرـنـسـاـ يـسـتـمـعـ لـنـبـلـائـهـ سـرـيـعـيـ الغـضـبـ ، وـرـبـماـ كـانـ فـيـ وـسـعـ الـمـلـكـيـةـ إـسـپـانـيـةـ أـنـ تـعـتمـدـ دـوـاماـ عـلـىـ تـأـيـيدـ عـواـطـفـ شـعـبـهاـ فـيـ مـحاـوـلـةـ طـرـدـ الإـنـجـلـيـزـ مـنـ جـبـلـ طـارـقـ .

على أن العداوات التقليدية الكبيرة على الرغم من مخالفتها للعقل وعدم ملاءمتها

(١) وـيـنـتـفـقـ مـعـ هـذـاـ قـدـرـ كـبـيرـ مـنـ الـاحـتكـاكـ الـدـبـلـوـمـاـسـيـ بـيـنـ الـدـوـلـيـنـ بـعـدـ عـامـ ١٧٣١ .

للظروف (كان الخصومة بين فرنسا والنمسا ، وبين إنجلترا وفرنسا) قد تغلغلت في الشعور القوي تغللاً بعيد المدى حتى عز اقتلاعها على جبل من الدبلوماسية الأصلية . وقد بذل كل من والپول وفليرى فيما بينهما الجهد للإبقاء على خريطة أوروبا كما رسماها معاهدات الصلح في يورخت Utrecht ورشتاد Rastadt . على أن عبر التاريخ الأوروبي تشير إلى أن أوروبا لم تعرف مطافقاً الاستقرار بل كانت دائماً غير مستقرة وقلقة . وفي السنوات الأخيرة من حياة كل من والپول وفليرى انبعثت على مسرح الحوادث قوة جديدة مروعة لا حد لقدرها . فأقحمت القارة في حرب عامة مدمرة . وكانت هذه القوة هي بروسيا في عهد فرديريك العظيم .

وعلى حين كانت إنجلترا تنمو ، كانت بروسيا « تصنع » . ولم يجد على الملamus السياسية لألمانيا حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر ما يعلن عن ظهور هذه الدولة القوية حتى أنجبت أسرة هونزلن التي كانت تحكم براندنبورج Brandenburg منذ عام ١٤١٧ قد أنجبت للمرة الأولى رجلاً عظيماً بمعنى الكلمة . وهو فرديريك وليم المعروف بالمنتخب الأعظم . انتصر على أنسوبيادين في معركة « فهربلن » Fehrbellin سنة ١٦٧٥ ، وإن كانت شيئاً ضئيلاً في حد ذاتها إلا أنها كانت إرهاصاً للعظمة الآتية في قابل الأيام . وأظهر فرديريك حقب انتصاره هذا إدراكاً لما ينبغي أن تكون عليه الحكومة القابಡرة أوضح مما كان شائعاً في عصره . وقد ورث فرديريك ملكاً قليلاً المسكان مقسماً ، لا يبشر بخير ، ومن هذا الإرث صنع فرديريك وليم نواة دولة حديثة بتشجيعه الدائب على الهجرة وإصلاحاته الإدارية والعسكرية (إذ كان يعتبر شعبه مادة يشكلها ويتصرف فيها على هواه) . ذلك لأن فرديريك وليم لم يترك شيئاً للهواية أو الصدفة . وقد أبان عن طبيعة طموحه بما تطلع إليه من إقامة جيش وأسطول وإدارة مدنية وبريد منتظم ونظام متدرج للضرائب بل مستعسرة في أفريقيا . على أنه لم يكن من الممكن تحقيق كل ذلك : فالمستعسرة انهارت أمام منافسة الهولنديين القوية ؛ والأسطول كان عليه أن يتضمن حتى أيام « تريپتز » Tirpitz والقيصر وليم الثاني ، غير أن مطامع بروسيا الكبيرة قد ظهرت .

لم يعد لقب منتخب يكفي لخلفية فرديريك وليم . وحصل فرديريك (١٦٨٥-١٧١٣)

في عام ١٧٠١ من الإمبراطور نظير مساعدهات سيقدمها له على حق تتوبيه ملكاً على بروسيا . وقد استنكر الشعور الديني في أوربا تتوبيه لنفسه في كاتدرائية Konigsberg كونيغزبرج . وتددت الدول الأوروبية بمحاسة للمملكة البروتستانتية الجديدة لتحصل على تحالفها . وقامت الجيوش البروسية بدورها في حروب مولبرا وروت بدمائها موقع بلنهايم Blenheim ، وراميللي Ramillies ، وأودينارد Oudenarde .

ولكن ضعف الدولة البروسية كامن في تشتها الجغرافي : فهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام : فراندنبورج تقع في الوسط وهي الغرب الأمازي (March) «لهرى الصياد» Henry the Fowler Wends ؟ على حين تقع دوقية بروسيا بعيداً جهة الشرق عبر كتلة من الأرض التي كانت رحاماً من الزمنألمانية ثم أحضعتها بولندا لحكمها في الفترة بين ١٤٦٦ ، ١٦٦٠ ؛ بينما تقع بعيداً جهة الغرب في منطقة الراين الدوقيات الصغيرة «كليف» Cleves ، و «مارك» Mark ، و «رافنزبرج» Ravensberg . وقد بسط عليها المنتخب الأعظم سيادة تامة معترضاً بها منذ عام ١٦٦٦ . ولم يكن ثمة ما يحتم قيام صلات بين هذه البقاع المتفرقة التي لم يكن أحد يظن أن ستقوم منها دولة واحدة ، وإنما هي الصدفة التي جمعت بينها تحت حكم ملك واحد . وكذلك الصدفة قد تكون بفضل المشاركة القائمة بينها : إذ سار تاريخ دوقية بروسيا أو بروسيا الشرقية في طريق على حين سار تاريخ براندنبورج في طريق آخر . كانت بروسيا الشرقية جزءاً من أرض يسكنها في الأصل شعب بدائي وثني غير ألماني دفعته إلى الدخول في المسيحية الإرادة الحدودية لطائفة الفرسان الألمان الذين حكموهم مدة قرنين ، إلى أن ضفت الطائفة بسبب نمو قوة بولندا العسكرية ، ومن ثم أصبحت بروسيا الشرقية مقاطعة تابعة للناحية البولندية . ولم يكن تاريخ براندنبورج المبكر خيراً من ذلك كثيراً . فلم تخلص هذه المنطقة من الاضطراب الذي تعرضت له كل الأراضي الألمانية بالتقسيم تارة وإعادة التقسيم تارة أخرى ، والرهن تارة ثالثة ، إلا بقدوم أسرة هوهنزاون . وهي إحدى الأسرات القيدية في أوربا . وعندما كانوا Burgraves في نورمبرج Nuremberg عاشوا في كنف الرعاية الإمبراطورية ، على إيراد الرسوم المقررة في تلك المدينة المزدهرة . قد استخدمو سلاح المدفعية في براندنبورج عندما كان لا يزال حديث

العهد ، واعتنقوا اللوثيرية عندما ثبتت ثم الكالفينية في الوقت المناسب حين فتحوا أحضانهم مرحبين بالهيجونوت الملحدين الالجئين من فرنسا ، وفرضوا على رعاياهم اللوثريين سياسة حكيمه ومجدية تقوم على التسامح الدينى تجاه المذاهب البروتستانتية الحالفة لذهبهم . ومع ذلك فقد أعززهم فن واحد . هو أن أهالى براندنبورج عجزوا عن كسب ود البروسين . فيما تجدر ملاحظته أنه في كل المرتين في عام ١٦١٧ عندما اعترف ملك بولندا « بجون كازيمير » John Casimir على تلك المقاطعة البولندية ، وفي عام ١٦٦٠ عندما حاز المنتخب الأعظم السيادة التامة على الدوقية ، أبدى أهالى بروسيا ازعاجاً شديداً . والحق أن القوة وحدها كانت السبيل للتغلب على معارضه الديات في بروسيا الشرقية في ذلك العام .

ولابروسى طابع أوربى خاص به . فجروته Goethe الذى عاش فى فيمار Weimar والذى يمكن اعتباره مثلاً لوجهة نظر الألمان من الطبقة الوسطى يتكلّم عنهم كأنهم من المتبّرين . فقد كان فى هذا الشعب العجيب حيوية وخشنونه عجيبة ، اختلفت تماماً عن الإحساسات الرقيقة التى تميز بها السكسونيون والفرانكونيون وأهالى بلاد الراين ، فما هي العوامل التى تعزى إليها خصائص الجنس البروسى ؟ أتعزى إلى الدم السلاوي الذى يجري في عروقهم أم إلى المناخ القاسى في شمال ألمانيا ، أم إلى التقالييد العسكرية الصارمة التي تفرضها الطبيعة على دولة لا تحتمي حدود جغرافية ، أم تعزى إلى هذه العوامل جميعاً ؟ وبأى نسبة ؟ كل هذه أسئلة لا سهل في إيجابتها عنها إيجابة حاسمة . ويكتفى أن نذكر أنه قبل أن يتصرف القرن الثامن عشر أدرك العالم أن هذا الشعب الحى المسيطر الذى لم يتزود إلا بالقليل من معن الحياة قد أصبح بما عرف عنه من القصد والاعتدال والنظام والمهارة في استخدام السلاح والقدرة البطولية على التضحية ، أصبح يمثل مشكلة جديدة خطيرة بالنسبة إلى ساسة أوروبا .

وما يميز البروسين عن سائر الألمان إدراكهم الدقيق للواجب نحو الدولة . فقدادهم لم يكن يسعهم أن يعتمدوا على قدرة البروسين على وزن الأمور ، فإن هذا الشعب الصلب لم يفكّر فقط في شؤون السياسة ، ولكنهم اعتمدوا على طاعة البروسين طاعة عبياء دون تلمر لأوامر القيادة كما اعتمدوا على إيمانهم بأن كل عمل ينبغي

أن يؤدى بأمانة . فبروسيا أرض الأوامر القاطعة – وليس ذلك فقط لأن عمانوئيل كانت Emmanuel Kant صاحب نظرية الواجب لصالحة الواجب – كان بروسياً لحماً ودماً ، ولكن كذلك لأنه ما من مكان آخر فرض فيه احترام الواجب بمثل هذه القسوة والتوفيق . وفي هذا الصدد ضرب الملك فرديريك وليم الأول أبو فرديريك الأكبر مثلاً واضحاً – وما من دولة كانت تستطيع أن تطلب ملكاً أكثر منه اقتصاداً أو أكثر منه تمثيلاً لأفضل خصائص شعبه في بساطته وتقديره للواجب وحياته المتشففة .

وإن بروسيا لتدين بالشيء الكثير لحكم هذا الملك حسن العشرة غريب الأطوار ؛ تدين له بجيش عظيم مدرب أحسن تدريب وإدارة مركزية ونظام قويم لتعليم الشعب ، ونظام دقيق لجباية الضرائب ووضع الميزانية ، و وخزانة عامرة . ومع ذلك فإن الرجل كانت له عقلية مدرب العساكر كما كان جلفاً ، وحشى الطياع جمع جيشه من العمالة (المرودة) كما يجمع تاجر الرقيق عبيده . وقد حطم هناء بيته ثورة عاصفة لم تخل من الجنون . وما يدل على الإرهاق الوحشى الذى ارتبط لدى فرديريك وليم بأخلاق العهد القديم أنه عندما تشاجن مع ابنه الموروب الذى لم يكن يفهمه أحد وقع عليه عقوبات منها أنه ألزمته بأن يشهد قطع رأس رفيق صديق عزيز لديه .

ولكن ذلك لم يمنع فرديريك في مغرب حياته من أن يعرف – اعتراف المؤرخ – بالفضل للذالك الأب الذى حطم استبداده الوحشى هناء شبابه فكتب : « في عهد فرديريك الأول أصبحت برلين أثينا الشمال ؛ وفي حكم فرديريك وليم الأول غدت إسبرطة الشمال ، إذ عمت الروح العسكرية حكومتها كلها . وأصبحت العاصمة قلعة للحرب (قلعة مارس) . فازدهرت كافة الصناعات التى تخدم أغراض البحريوش . فأقيمت فى برلين مصانع البارود ومسابك المدفع ، ومصانع البنادق وما إلى ذلك . ولم يخلف فرديريك وليم الأول بإنشاء صناعات جديدة قدر اهتمامه بالقضاء على النفايات التى لا فائدة منها . فقد يعماً كانت المأثم تكلف غالياً للدرجة تجلب الخراب . إذ كانت الجنائز تشيع في احتفالات باعطلة التكاليف . فألغى هذا الإفراط وأبطل استخدام العربات والخيل المتشحة بالسواد ، كما أبطل

تزيي الخادم بلباس رسمى خاص . ومنذ ذلك الوقت لم يكلف موت الناس إلا القليل ، وأثرت الصفة العسكرية للحكومة على العادات والأزياء . فاتخذت الخبطة طابعاً عسكرياً : ولم يعد هناك من يستخدم أكثر من ثلاث أذرع من القماش لصنع معطف لنفسه . انتهى عهد الرقة . وأصبحت السيدات يتوجين مجتمع الرجال ، واستعراض الرجال عن ذلك بمعاقرة الخمر والتدخين والخمرن » .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century 8 vols. (1878-1890).
- B. Williams : Stanhope (1932).
- John Morley : Sir Robert Walpole (1921).
- E. Armstrong : Elizabeth Farnese (1892).
- T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia 6 Vols. (1858-1865).
- E. Lavisse : Histoire de France. Vol. VIII.
- F.S. Oliver : The Endless Adventure (1930-31).
- Oeuvres historiques de Frédéric le Grand; nouvelle édition. (1830); II, Histoire de Mon temps.
- A. Sorel : L'Europe et La Révolution Française (1885-1903),
- P. Vaucher : Sir Robert Walpole et la politique de Fleury (1924).
- R. Lodge : Great Britain & Prussia in the Eighteenth Century (1923).

الفصل السابع والعشرون

الحرب في أوروبا (١٧٤٠ - ١٧٦٣)

التطاحن على سيليزيا - التنافس البحري الاستعماري بين إنجلترا ودول البواربون - فرديريك الثاني وماريا تيريزا - حرب الوراثة النمساوية - تدخل إنجلترا ودخول بروسيا الحرب من جديد - حركة ١٧٤٥ - في إنجلترا - صلح «إكس لاشابل» - الانقلاب الدبلوماسي - غفلة فرنسا - حرب السنوات السبع - «وليم بت William Pitt» - عام المعجزات بالنسبة إلى فرديريك - عوامل انتعاش بروسيا - مكاسب إنجلترا الاستعمارية - كندا - الهند - عبقرية «كليف Clive» - السلام في بروسيا - مقارنة نتائج الحرب بالنسبة لكل من إنجلترا وبروسيا .

تتميز سنوات متصفين القرن الثامن عشر بنضال جبار دار - سواء في بدايته أو في نهايته - حول خصوصيتين دوليتين كبيرتين : إحداهما بين بروسيا والنمسا ، وقد خطفت الأ بصار بمحملها ، أما الأخرى فكانت من بين كل الخصومات الدولية أكثرها شيوعاً . وقد انبعثت كل من حرب الوراثة النمساوية وحرب السنوات السبع من مصدر مشترك . في عام ١٧٤٠ امتنق فرديريك الثاني حسامه لأنه صمم على أن يكون حديث العالم بغزو سيليزيا . وفي عام ١٧٥٦ شن حرباً ثانية خرفاً من أن تغتصب منه سيليزيا . وهكذا في خلال ثلاثة وعشرين عاماً ألت سيليزيا الغنية بصناعاتها الكاتانية وحديدها الخام الذي لم يستغل بعد ومساكها المائية التجارية البدعية ، ألت بدولة النمسا الكاثوليكية في كفة وقاية بروسيا البروتستانتية الخشنة الناهضة في كفة أخرى وما كادت النار تشتعل حتى انتشرت على نطاق واسع . إذ أثيرت كل الشهوات السياسية ، فتحدثت أكثر الحدود السياسية ثباتاً ، واشتبكت كل دول أوروبا تقرباً في نزاع سالت فيه الدماء والأموال ، وتدالوت فيه الأقدار والحظوظ : في لحظة من اللحظات لاح أن النمسا ستتجه على قدميها ، وفي لحظة أخرى بما أن فرنسا م Alla إلى التفكك ، وفي لحظة ثالثة أن هولندا والأراضي المنخفضة ستتضمان إلى فرنسا ، وفي لحظة رابعة أن روسيا والنمسا ستقضيان على بروسيا . ومع ذلك فإنه على الرغم من تلك الذبذبات العنيفة ، فإنه لم يطرأ على خريطة أوروبا السياسية إلا تغيير ضئيل ، بعد حرب شديدة استمرت خمس عشرة سنة ، فيما عدا حصول ملك بروسيا

على سيليزيا ، وهي غنية انتزعتها بروسيا عند مطلع الحرب الأولى بخيانة غایة في القذارة ، ولكن دافعت عنها عبقرية جندي عظيم وعناده أمام حشد من الأعداء .

وفي تلك الأثناء ظهر من مصادر مختلف وبنتائج أهم – نزاع بين إنجلترا ومنافستها في عالم التجارة والبحر : فرنسا وإسبانيا . وإن الحرب بين إنجلترا وإسبانيا التي اندلعت بسبب مزاولة إسبانيا حق تفتيش السفن عام ١٧٣٩ والتي لم تثبت أن اندمجت في النضال الأكثر خطورة بين إنجلترا وفرنسا ، لم تكن من صنع الساسة في لندن وباريس ومدريد . إذ حيثما قابل إنجليزي إسبانيًا أو فرنسيًا في عرض البحر رأى فيه منافسًا وعدواً . فلم يكن ذلك نزاعاً بين بلاطين أو حكومتين ، وإنما كان نزاعاً بين الأفراد في مسرحه ، وبين الملاحين والتجار والمهربيين والمعامرين ، وقطاعي الأخشاب والمستعمرات والتجار الأحرار والشركات التجارية المنافسة ؛ فهم يتشاربون ويتنازعون إما في البحر الإسباني أو أكاديا ونيوفوندلاند أو على طول شواطئ نهر الأهيو وسانت لورانس ، أو تحت سماء الهند المحرقة بين حقول الأرز في ساحل الكربنات ؛ أو حقول قصب السكر وأشجار المانجو في البنغال . فكان لا مناص من أن تؤدي المنافسة المطلاقة على التجارة والاستعمار ومحاولات السيطرة في آسيا وأمريكا إلى اصطدامات لا حصر لها بين الأنجلو سكسونيين ومنافسيهم من اللاتين . واستفحلا أمر المشاحنات غير الرسمية ، فأصبحت حروباً غير رسمية ، وقد حاول سير « روبرت والبول » Sir Robert Walpole في نزاع بسبب مزاولة إسبانيا حقها في تفتيش السفن عام ١٧٣٩ . ولكن صوت الرأي العام الذي ردت صداته وعززتها في البرلان معارضته فcisجحة قد أجبرته على دخول الحرب . فكان يكتفي لإثارة الإنجليز أن تقوم سفن الحراسة الإسبانية في خصوصية بتقليص سفن إنجليزية تتاجر مع « البحر الإسباني » بحثاً عن تجارة مهرية ، وأن يودع بحارة إنجليز متقدلون بالأغلال سجون إسبانيا القذرة . وقد وجدت شكاوى البحارة والتجار آذاناً مصغية على الدوام في إنجلترا . وأثارت قصة الإسباني الشريير الذي انزع من الكتابن چنكينز أذنه موجة من السخط في إنجلترا ، ولم يخفف من حدتها إلا إعلان الحرب مهما بلغ هذا العمل من سوء المنيا والتجني على الحق .

وهكذا استمر النزاع البحري والاستعماري الذي بدأ هكذا على الرغم من أصله رأى أعقل ساسة إنجلترا ، استمر تخلله فترات قصيرة من المدنة حتى صلح باريس في عام ١٧٦٣ (إذ أنه على الرغم من توقف الحرب الرسمية في بعض الأحيان كان القتال غير الرسمي الخل مستمراً) . وعندئذ تبين أن صولجان التفود الاستعماري قد انتقل من فرنسا إلى إنجلترا . وبفضل انتصارات « كلایف » Clive و « وولف » Wolfe تفوق التفود الإنجليزي في الهند وكندا وأصبح لا منازع له .

وإن هذا التغيير في ميزان القوى الاستعمارية الذي يكون – وإن استصغرت قيمته الحقيقة عندئذ – انقلاباً من أخطر الانقلابات في تاريخ البشرية ، لم يكن حدوثه ممكناً دون قيام حرب أوروبية . كانت السفن الإنجليزية سواء منها التجارية أو التابعة للأسطول الملكي أكثر عدداً من السفن الفرنسية والإسبانية ، ذلك لأن الصالح البحري والمستعماري كانت تأتي دائماً في المقام الأول في إنجلترا . وإن لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة لحرب الثاني ، بينما كان الاهتمام بالجيش في فرنسا وإسبانيا يطغى على الاهتمام بالبحرية وما من خطأ في تاريخ فرنسا كان أشد شؤناً من القرار الذي اتخذه الحكومة الفرنسية في عام ١٧٤٠ بالاشتراك مع فرديريك ملك بروسيا في الهجوم على ماريا تريزا . تورطت فرنسا بهذا القرار في حرب أوروبية مرهقة ، قدمت لها كثيراً من المغريات وعرضتها لكثير من الخاطر كما طلبت منها من التضحيات ما صرفها عن التفكير في مستعمرتها المبعشرين عبر البحار فأهملت البحرية الفرنسية تماماً لذلك ، ولم تصالح فرنسا خطأها إلى أن انتقلت كندا والميدان إلى أيدي بريطانية . ولأنها اسخرية من سخريات التاريخ أن الخطأ الذي ساعد إنجلترا على أن تصبح سيدة على البحار قد ساهم أيضاً في تأمين تفوق بروسيا في ألمانيا .

لم يكن ذلك خطأ فحسب بل كان جريمة . إذ أن فرنسا قد وافقت رسميًا على الصنان الوراثي الذي أمنه ماريا تريزا وراثة العرش النمساوي . على أن الحكومة الفرنسية كانت دائماً عرضة لتجربتها في تيار الحرب أهواه أرستقراطية عسكرية جامحة تمت لها الغلبة على حكم الملك والكاردينال فليري Fleury . فإن الأمل في الانتقام لشارات فرنسا من عدوتها القاتمة في وقت بدرت فيه لا حول لها ولا قوة ولا صديق لها

إن هذا الأمل لدى المارشال بليل Belleisle وأعوانه المتهين حماسة من أصحاب الألقاب تغلب على كل هاجس للضمير وبعد النظر فتساءلوا : « ما قيمة التزام ما إذا قورن بفرصة متاحة ؟ » على أن من النادر أن تجد إثماً ارتكب في حق الشرف الدولي قد جوزى مرتكبه بأشد مما جوزيت به فرنسا في هذا العدل .

أما فرديريك الثاني (١٧٤٠ - ١٧٨٦) فلم يحجب بصيرته الصافية أى غم من الأحداث القديمة . كان هذا الشاب واقعياً رزيناً ، ألمانياً سنياً وإن كان بروسياً صالحًا لا يحمل أى ضغينة ضد النساء ، كما لم يكن رعایاه السليرون وهم أشد الناس بعداً عن السياسة ، يطمحون إلى الترسب . ولكن كان الميدان فسيحاً لذوى المطامع . وكان هذا الملك الهوهنلزرنى بجيشه القوى ، وخزانته العادمة ، وشعبه المطيع ، صاحب الكلمة العليا في تقرير مصيره ولم يقيد حريته أى ولاء ؛ فهو مستعد لامتناع حسامه تارة في هذا الجانب وتارة أخرى في الجانب الآخر وفقاً لما تتطلبه مصالح بروسيا . وكان تصرفه في معالجته للمؤثرات السياسية دون عائق من دين أو فروسية أو احترام للعهد ، أو عاطفة نحو الجيش الألماني ، الطابع المميز لحكمه والمساعدة المشكوك في قيمتها التي قدمها للحياة العامة لألمانيا . كان فرديريك يرى نفسه والعالم على حقيقهما . عاش حياته كادحاً مزدرياً مباحج الحياة معتبراً نفسه الخادم الأول للدولة البروسية . وقد ملك موهبة القيادة في الحرب والسلام لدرجة تكون منعدمة النظير . وكل هذه صفات أزمت العالم بالإعجاب به . قد يجد الألماني عيباً في ذلك الملك الذى لم يحرض مطالقاً على إخفاء ازدرائه للغة وطنه وأدابها ، على أن البروسيين على حق في اعتبار فريتز العظيم (كما كانوا يدعونه) أحد البنائين الرئيسيين لدولتهم . وفي بور خدماته الرفيعة كانوا مستعدين للتجاوز عن حقيقة كونه مارحداً في العقيدة ودنيئاً في السياسة ، وأنه كان في فكرته عن الحياة تذهبناً لقولاتير . رأوا فيه العادل الذى يجعل جيش بروسيا مرهوباً في أوربا ووضع أساس شهرة بروسيا كدولة حسکرية وأضاف إلى إرثه البروسى مقاطعات جديدة مهيبة . فتجده قائداً ، كان النصر حليفه بصفة عامة ، ولكنه لم يكن مطالقاً أعظم ولا أشد دهاء مما كان في أحلك ساعات المهزيمة ، ومجاوه ملكاً سار بدولته وسط محن كبيرة نحو السلام والأمان ورفعها إلى مكان الزعامة في

ألمانيا ، وردوا على ذوى الصهائر الرقيقة من نفروا من قائمة الأعمال الحربية التى بدأت بانزاع سيليزيا الغادر ، وانتهت بالتقسيم الأول لبولندا الذى حقق به فرديريك غایاته ، وردوا بأن مثل هذه الأعمال كانت مما تبيحه الأخلاق الدولية فى ذلك العصر وأن عاهم الموهنزنرن لم يكن أسوأ من معاصريه ، وإن المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة هو جانب لا بد منه فى اعتذار البروسين عن سلوك فرديريك الثانى .

كانت مطامعه عظيمة ولكن باهظة الثمن . كان يتطلب الكثير من شعبه ولكن كان ذلك دائماً لخدمة أهداف عملية لبروسيا ؛ وإن لم يحمل مزايا الحفاظة على التوازن الدولى . فإن أوربا التى حارب لاقامتها هى أوربا التى تقى فيها بروسيا بضم سيليزيا إليها لتواجه النمسا بعد أن قشت أطرافها . وهذه هى أوربا التى قدمها له صلاح «إكس لاشابل» Aix-la-Chapelle فى عام ١٧٤٨ . وهكذا حقق فرديريك غرضه باستخدام الجيش البروسى أداة دبلوماسية . ثغرة يلقى بها فى المعركة . وثارة أخرى يستحبه فجأة ، وثارة ثالثة ينزله إلى الميدان ضد عدوه القديم . فأفقد على التوالى النمسا من فرنسا بمعاهدة ، وفرنسا من النساء بهجوم . وفي كل مرة كانت عمليات تدخله وانسحابه حاسمة ، حتى إن فرديريك خلال الثانى سنوات كان له وحده من بين جميع الحاربين ما يدعو إلى الرضا . فعلى حين لم يستند بجميع الآخرين ظفر فرديريك بـ سيليزيا . على أن الأمر لم يكن هيناً ، فقد كان على أوربا أن تخوض حرباً طويلاً أخرى قبل أن تروض ماريا تريزا الأبية نفسها على قبور خسارتها .

عندما مات الإمبراطور شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠ دون وريث ذكر قدم للأوربيين فرصة ليظهرروا أن مبادئ الشرف والشرفية وحفظ العهد لم تختف تماماً من العلاقات الدولية . كانت ابنته ماريا تريزا سيدة فتية متزوجة لا تجارب لها في شؤون الحكم وكانت خزانتها خاوية وجيشها ضعيفاً . وقد اعترفت كافة الدول الهامة في أوربا (فيما عدا بفاريا) بأحقيتها في أن تخلف أبيها على الإرث الكامل لأسرة هابسبورج النسوية ، وتم ذلك الاعتراف في معظم الحالات لقاء ثمن دفعه ولكن لم يفدها (وهي ملكة المجر) ^(١) كونها سيدة ولا قلة تجاربها ولا الضمانات

(١) كان هذا هو لقبها لأنها لم ترث أبيها في عرش الإمبراطورية .

فُي خلال عام من توليهما على العرش استدرجت إلى خوض
أجدادها من أطماء حلف ضار تزعمه نفس الدول التي
هـ باحترام ذلك الإرث .

كـ الثاني الضربة الأولى دون ما إثارة فانقضى على سيليزيا وأبان للعالم
سـا في موقعة « ملووينز » Mollowitz بفضل ما أبدته فرق المشاة
ية من الثبات ورسوخ القدم . كان من العبث بعد تلك النكبة التي حلت
بـ جسمـاـ أن يظن أحد أن بالإمكان حصر النزاع وإيقائه محليـاـ . ومن ثم أقبلت النسور
أـ فـواـجاـ من كل مكان لتنقض على الفريسة . فـ فـرنـساـ رغبت في أن تسـلـبـ المـنسـاـ
الأـرضـيـ المـنـخـضـةـ ولـكـسـمـبـرجـ . وبـقـارـياـ تـطـلـعـتـ إلىـ التـاجـ الإـمـبرـاطـوريـ وـتوـسيـعـ
حدـودـهاـ شـرقـاـ . أماـ مـنـتـخـبـ سـكـسـونـياـ فـكانـ كـذـلـكـ مـلـكـاـ عـلـىـ پـولـنـداـ فقدـ كانـ يـترـقـ
إـلـىـ الـمـطـالـبـةـ بـنـصـيـبـ مـنـ إـمـبرـاطـورـيـةـ أـصـبـحـتـ مـهـدـدـةـ بـالـانـحلـالـ . وـقـامـتـ فـرـنـساـ العـدوـ
الـقـدـيمـ لـأـسـرـةـ هـاـپـسـبـورـجـ بـدـورـ الطـلـيعـةـ فـيـ التـحـالـفـ المـعـادـيـ لـلـمـنـسـاـ ،ـ مـعـتـقدـةـ أـنـ الـوقـتـ
قـدـ حـانـ لـتـفـرـضـ بـصـفـةـ نـهـائـيـةـ تـفـوـقـهـاـ السـيـاسـيـ فـيـ أـورـباـ بـمـسـاعـدـةـ الـقـوـةـ الـبـرـوسـيـةـ الـجـديـدةـ
الـتـيـ لـمـ يـتـبـأـ بـهـ أـحـدـ . وـمـضـىـ بـعـضـ الـوقـتـ وـكـلـ شـىـءـ يـجـرـىـ عـلـىـ هـوـاـهاـ . توـذـلـ جـيشـهاـ
فـيـ بوـهـيـمـياـ وـاستـولـ عـلـىـ بـرـاغـ ،ـ بـيـمـاـ هـدـدـ الـبـقـارـيـوـنـ ثـيـبـيـنـاـ وـدـبـرـ اـنـقـالـ التـاجـ
الـإـمـبرـاطـورـيـ الـذـيـ ظـلـ حـكـرـاـ لـأـسـرـةـ هـاـپـسـبـورـجـ أـكـثـرـ مـنـ ثـلـاثـةـ عـامـ إـلـىـ شـارـلـ أـلـبـوتـ
مـلـكـ بـقـارـياـ الـذـيـ نـازـعـ مـارـيـاـ تـرـيـزاـ أـحـقـيـتـهـ فـيـهـ ،ـ وـصـبـمـ عـلـىـ أـنـ يـغـيرـ عـلـىـ أـمـلاـكـهـاـ .
وـلـمـ يـحـدـثـ مـطـلـقاـ فـيـ تـارـيـخـ الـمـنـسـاـ الطـوـيلـ المـعـقدـ حـتـىـ السـنـةـ الـأـنـخـيـرـةـ مـنـ الـحـربـ
الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـىـ أـنـ هـوـتـ الـمـنـسـاـ إـلـىـ ذـلـكـ الدـرـكـ كـمـاـ حـدـثـ فـيـ أـوـاـلـ الصـيفـ مـنـ
عـامـ ١٧٤١ـ .

ولـكـنـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ تـلـاـ ذـلـكـ انـقلـابـ مـلـحوـظـ فـيـ الـأـقـدارـ . فـيـ سـاعـةـ مـحـنـتهاـ
ناـشـدـتـ مـارـيـاـ تـرـيـزاـ لـاءـ رـعـاـيـاهـاـ الـجـبـرـيـيـنـ ،ـ فـاقـبـتـ اـسـتـجـابـةـ نـارـيـةـ لـذـيـ هـذـهـ
الـأـسـتـقـراـطـيـةـ الـتـيـ تـمـلـئـهـاـ رـوـحـ الـفـرـوسـيـةـ وـحـبـ الـحـربـ . فـطـرـدـ الـبـقـارـيـوـنـ مـنـ مـيـونـيـخـ
وـفـرـنـسيـوـنـ مـنـ «ـ بـرـاغـ »ـ . وـهـكـلـاـ اـضـطـرـتـ سـخـرـيـةـ مـنـ سـخـرـيـاتـ الـقـدـارـ

شارل ألبرت الإمبراطور الجديد أن يوقع معاهدة يتخلّى فيها عن ادعائه في الإرث النسوي ، ويتنازل عن أملاكه الوراثية للملكة المجر وذلك ريثما يتم إبرام الصلح العام . وهكذا لم يقبل صيف ١٧٤٢ حتى كانت عجلة القدر قد أتمت دورتها كاملة ، فانقلب سياسة فرنسا العدوانية عليها ؛ واضططرت وهي المهاجمة في بوهيميا أن تنصرف إلى الدفاع عن الأنازاس واللورين . وألقت إنجلترا وسردينيا بقلهما إلى جانب النساء ، وشجعت موقعة « ديتنجن » Dettingen الموقعة ، (يولية ١٧٤٣) وهي آخر معركة امتنق فيها ملك إنجليري الحسام ، فكرة أن غزو فرنسا يمكن أن يتحقق على يد جيشين يتقدم أحدهما من منتصف الرين والأخر من أعلىه .

أما السبب الرئيسي للذك الانقلاب المفاجئ في الأقدار فيعزى إلى حركات الملك البروسي . كان فرديريك ينوي الاحتفاظ بسيليزيا ، على أنه لم يكن على استعداد لتبديد مال بروسيا ودمائها في سبيل الحصول عليها إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة . لذلك كان في كل وقت توافقاً إلى الاتفاق مع ملكة المجر على أن يضم لنفسه دائماً الاحتفاظ بسيليزيا . وعلى هذا الأساس خرج من الحرب في أكتوبر ١٧٤١ ، وعلى هذا الأساس خرج مرة ثانية من الحرب في يولية ١٧٤٢ آخذناً معه في هذه المرة سكسونيا من بين صفوف أعداء النساء . ولكن ماريا تريزا وقد تخلصت في صلح برلين (يولية ١٧٤٣) من أقوى خصومها ، وقد أبهجتها انتصارات مدهشة متتالية أحرزتها قواتها ، صممت على استغلال نجاحها إلى النهاية ، فراق تخاها المتوقد أكثر الاحتمالات بهراً للأنظار : وهي ضم بشاريا وغزو الأنازاس واللورين واسترجاع نابولي وسيليزيا . وهكذا تحولت الحرب التي بدأت بمحنة لتدمر النساء ، إلى حرب لتجزئة فرنسا . ذلك أن ملكة المجر في سورة غضبها وبهجة انتصاراتها ازدرت نداء السلام .

وفي هذا الموقف العيني الذي وقفته ماريا تريزا أوصيت إنجلترا أذنها عن نصيحة أحكم سياسي منها فأخذت جانب الملكة ؛ فإن والبول الذي اعترض على الحرب ضد إسبانيا لم يكن أقل كراهية لما يدعو إلى قطع العلاقات مع فرنسا ، لأنه كان يتمنى بأن أول نتيجة لمثل هذا الاشتباك قيام ثورة يدبرها العاقبة ، قد تزعزع مركز أسرة هانوفر من أساسها . ولكن السلام لم يعد أمراً مرغوباً فيه فأقصى والبول عن أصول التاريخ الأوروبي

الحكم ليفسح الطريق لمستشارين يكونون أكثر تجاوباً مع المزاج المتّهيج الذي كان يسود البلاد والملك . وتولى كرتريت Carteret زمام الحكم (فبراير ١٧٤٢) وهو من أكثر الرجال حنكة وإن لم يكن من أشدّهم حذراً، فورط البلاد في حرب في القارة بالاشراك مع مولاًه الذي كان قبل كل شيء هنوفريياً . فعقدت معاهدة « ورمز » Worms (ديسمبر ١٧٤٣) بين إنجلترا والمنسا وسردينيا وفيها بعث مشروع محالفه عظمى تعزّزها الأموال الإنجليزية ضدّ مطامع فرنسا .

وهكذا اتفق الحلفاء جمِيعاً دون أن يلقوا بالـ فردريلك . راقب ذلك الملك الفطن بقلق متزايد انتصارات النمسا في الغرب ولاحظ « إنه خطأ فاحش في السياسة أن تأمن عدوًّا قد تصاححت معه » . ولم يكن فردريلك ليطمئن لنواباً ماريا تريزا . فبدلاً من أن يصدق أن الملكة قد تصاححت معه حقاً في صلح برلين ، كان مقتنعاً بأنها إنما تدبر خطة للانتقام . وعلى ذلك فبینما كان أحد الجيوش الإمبراطورية بقيادة شارل أمير اللورين منشغلًا في الألزاس ، نقض فردريلك الصلح ضارباً بالمبادئ عرض الحائط ، وغزا بوهيميا وضع يده على براج (٦ سبتمبر ١٧٤٤) . وسرعان ما تبدلت أوضاع الحرب كلها . فقد وضع دخول فردريلك الحرب من جديد النمسا موضع المدافعة عن نفسها مرة أخرى ، وخاض فرنسا من خطر بلغ . وعندئذ لاحت سلسلة من المغريات الفتّنة أمام حكومة لويس الخامس عشر تدعوها للتتدخل : غزو بلجيكا ، وخلع الملك بجورج عن عرش إنجلترا ، وإقامة أسرة كاثوليكية على عرش إنجلترا فدخل أحد الجيوش الفرنسية بقيادة الأمير موريس ساكس Maurice de Saxe القديرة الأرضي المنخفضة المنسوبة ، وأضطر الإنجليز للرُّضوخ للهزيمة مرتين (إحداهما في فونتنوي Fontenoy ١١ مايو ١٧٤٥ ، والأخرى في لوفلد Lauffeld في ٢ يوليه ١٧٤٦) .

ويرجع فساد الخطة الفرنسية الكبيرة إلى رجحان القوة الإنجليزية بحراً واستمرار الشعب الإنجليزي في تعلقه بقضية البروتستانية . ففرقت عواصف بحر المانش شامل أسطولها مهاجم . وقضى المغامرون الإنجليز على التجارة الفرنسية . وقدر لشارل إدوارد الذي رفع علم أسرة استيوارت في مرفوعات أسكوتلند عام ١٧٤٥ أن يواجه الحقيقة المرة وهي أن ملكاً هنوفريياً غير محظوظ لا يزال في وسعه أن يعتمد على

تأييد سلبي من شعبه الذي وإن كان بليدًا ، كان شديد الممكث بعذبه البروتستانتي . وفي ساحة « كولودن » Colloden (١٦ أبريل ١٧٤٦) انهارت قضية العاقبة التي أثارت كثيراً من ضروب الآمال واللاء . ولكنها باتت في خطر حقيق من الملحظة التي اتضحت فيها أن الإنجليز لم يكونوا على استعداد للانضمام إلى الأمير « شارلي » Prince Charlie عندما أخذ يتقدم جنوباً من « كارليل » Carlisle إلى « دربي » Derby . ومهما كان ضئيلاً نصيب جورج الثاني من محبة رعاياه فإن عرشه قد توطد على داعم راسخ بحيث لا يقوى على قلبه جيش صغير من الغاليين ^(١) ، من حملة السيف المتوجهين أتوا من مرتفعات أسكوتلند . وإن الحاطرة الطائشة التي مجدها عبقرية سير ولتر سكوت Sir Walter Scott ^(٢) قد عاونت على تقوية مركز الملكية البروتستانتية ، وبسط نفوذها على كثير من الوهاد البرية المعزولة حتى الطرف الشمالي لكيثنيس Caithness ^(٣) . وكان إخضاع إقليم المرتفعات في أسكوتلند من التأثير الراسخ والدائمة لحركة ١٧٤٥ . ثم جاءت الطرق التي أنشأها المارشال « ويد » Marshal Wade ، وفرق رجال المرتفعات التي كونها « بت » Pitt فأكملت قانون الاتحاد ، وفتحت أمام سكان شمال أسكوتلند الكاثوليكي فرصة الإفاده من الموارد الوفيرة والإمكانيات المتنوعة لإمبراطورية عظيمة .

وفي الميدان الشرقي للحرب لم يتحقق أي فريق كسباً حاسماً . وإن كان فرديرك قد اضطر إلى أن يرخي قبضته عن بوهيميا ، فإنه كان لا يزال في مركز يمكنه من أن ينزل بعده في « هohenfriedberg » Hohenfriedberg وفي « سوهر » Sohr من المざام ما أدى - بالإضافة إلى قوة هذه الانتصارات الشخصية والنصر القيم الذي حصل

(١) Caelic : الغالي . وهي صفة تطلق على أحد فروع اللغة الكلتية ، الإيرلندية الموجودة في مرتفعات أسكوتلند ، وفي جزيرة (أيل أوف مان) .

(٢) Sir Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) . شاعر وروائي أسكوتلندي الأصل كتب عدداً من الروايات الرومانسية وعدداً من الروايات التاريخية من أشهرها ويفري ، اليوريتان ، إيفانهو ، روب رو ، سجين أدنبيره . وتعكس كتاباته روح البطولة الإنجلizi والأسكوتلندي في عهد الفروسية .

(٣) Caithness مقاطعة في شمال أسكوتلند مشهورة بالزراعة وصيد الأسماك .

عليه حلفاؤه السكسونيون — إلى قبول النساء توقيع صلح في درسدن^٢ ضمن له امتلاك سيليزيا وجلاتز Glatz (ديسمبر ١٧٤٥) .

وعلى هذا النحو من الوحشية وعدم الحسم كان الصراع الدائم لسيطرة الذى وقع جنوبى الألب حيث انضمت النساء وساقوى ضد مملكتى البوابون . وكما حدث فى ألمانيا اضطر النساء فى النهاية إلى التنازل عن موضع لأعدائهم . فصلح « إكس لاشابل » (١٧٤٨) الذى أنهى الحرب ، منح دوقية بارما لدون فيليب الإسبانى .

لم تحصل أى دولة في هذه الحرب التي اقترنت بتقلبات حادة انتصارات دون أن تقابلها هزائم خطيرة ، وأخيراً جاءت النهاية وقد أدى إليها الغضب أكثر من الرضا . والحق أن صلح « إكس لاشابل » لم يسو شيئاً ، لم يسو الصراع البحري والتجارى بين إنجلترا وملك البوابون ، ولا الصراع على سيليزيا بين النساء وبروسيا ، كما أنه لم يحسم مسألة الصراع للسيطرة على إيطاليا ، ولم يقرر مصير الأرضى المنخفضة ؛ وإذا كان الصلح قد نص على إرجاعها إلى النساء فلن تثبت أن تستولى عليها من جديد جيوش فرنسا الثورية . أما فى الهند فقد تكبّدت إنجلترا خسائر كثيرة قبل أن يمضى وقت طويل حتى تستعيض عنها بالانتصارات الباهرة . وعند مدخل كندا وضعت إنجلترا يدها على ثغر لويسبرج الحصين ، وهى قاعدة فى جزيرة « كيب بريتون » Cape Breton ، وقد أبان الاستيلاء عليها عن خطط تالية .

لم يكن الإنجليز قط جبأً كبيراً لحرب الوراثة المنسوية ، فأعادت المعارضة وعلى رأسها « وليم بت » William Pitt الخطيب الناري الشاب الذى سيغدو وزيراً عظيماً للحربية ، منتقدة المساعدات المالية التى قدمت لفرق هانوفر وهس ، واحتجت — وهو احتجاج لا يخلو من أساس — أن دفة السياسة البريطانية تسيرها أيد هنوفرية ، وببدأ أن قوة المال البريطانى قد أوى استخدامها بتمويل حرب فى القارة كان يشك فى أن غرضها الأساس هو حماية هانوفر ، وكانت نتيجتها الرئيسية احتياج الفرنسيين للأراضى المنخفضة وغزو رجال مرتفعات أسكوتلاند لإنجلترا . كما أن فرنسا لم تكن راضية عن انهيار تجاراتها الخارجية نتيجة لنهب القراصرة الإنجليز والكوراث الذى نزلت بأسطولها ، وفشل حركة العياقبة التى دبرتها فى إنجلترا ، ووفرة أموال الإنجليز

الذين كانوا مستعدين عندما نزلت المزينة بجيشه مرتين في سهول الفلاندر — لاستئجار جيش روسي لإعادة التوازن . ولكن الحكومة الفرنسية أثرت أن تجنح إلى الصالح على أن تواجه هذا الجيش الروسي وتعداده ثلاثون ألف مقاتل ، وقبلت سحب جنودها من هولندا والأراضي المنخفضة في مقابل استرجاع لويسبرج .

إن الدبلوماسية تميز عن سائر الفنون العملية بأنها أكثر محافظة . في حرب الوراثة النمساوية أدى الولاء لتقاليد قديمة إلى وقوف إنجلترا حليفة للنمسا وفرنسا عدوة لها . وجريأاً على ما كان في الماضي كان يظن أن الأمر يجب أن يكون كذلك دائماً . فذكريات الخصم القديم عندما اختبر « تورين » Turenne و « كونديه » Condé قواتهما ضد الجيش الإمبراطورية . أو عندما واجه « موليرا » و « يوجين » Eugene ماريشالات لويس الرابع عشر ، قد لونت أخيلة رجال الدولة ، وشكلت سياستهم . على أنه عندما تبين أن الحرب الطويلة الطائلة النفقات التي شنت وفقاً لهذا الأنموذج الدبلوماسي لم تؤد إلى أي نتيجة حاسمة ، تساعل الناس بطبيعة الحال عما إذا كان هناك خطأ تاريخي في هذا الأنموذج الدبلوماسي ؟ ماذا جنت النساء من تحالفها مع إنجلترا ؟ وما السبب الذي جعل فرنسا ترحب بتوسيع بروسيا ؟ وأى الدولتين : النمسا الكاثوليكية أم بروسيا البروتستانتية بقيادة ملكها الجندي تكون أكثر نفعاً لإنجلترا في صراعها الشيشي الذي لا مناص من وقوعه مع فرنسا على التوسيع الاستعماري . ومن هذه الشكوك وهذا التبرم نشأ انقلاب دبلوماسي ؛ فمنذ تاريخ مبكر من عام ١٧٥١ كانت ماريا تريزا تبعث برسائلها إلى : « سيدتي ، أختي العزيزة بجدًا » محظية ملك فرنسا صاحبة الأمر والنهاي .

والشخصية عامل له أهميته على الدوام في العلاقات الدبلوماسية . كان فردريليك يكره النساء وقد وجد في السيدات الثلاث صاحبات الأمر والنهاي في أيامه مجالاً دائماً للنكت البذرية التي كانت تلقى رواجاً كبيراً . ماريا تريزا الإمبراطورة الورعة الحقدود ، ومدام بومباردور Pompadour خليلة لويس الخامس عشر صاحبة النفوذ ، وإليزابيث قيسرة بروسيا الداعرة ، محتسية الفودكا ، وقد أفسحن المجال للسخرية القارصة التي انتشرت في أرجاء أوروبا . وأثارت موجة من السخط الشديد في بلاطات فيينا وفرنسا وسان بطرسبرج . وإذا كانت الإهانات الطائشة التي قذف بها

فرديريك : « الحيزبون الرسولية » (يقصد ماري تريزا) و « الانسة سملك » Melle Poisson (إذ قيل إن مدام بومبادور كانت ابنة امرأة من السوق) لم تصنف الانقلاب الدبلوماسي فإنها على الأقل قد ساعدت على تمهيد الطريق له . كانت القيصرة إليزابيث صلبة ، ومع ذلك فلابد أن يكون قد أثارها في فترات صحوها الاسم التهكمي الذي نعتها بأحط صفات البهيمية والفجور والرذيلة .

لم يرض الجمهور الفرنسي منذ البداية عن المحالفه مع النساء التي تعارضت بشدة مع تقاليد فرنسا الدبلوماسية ؛ ولا كانت سبباً في إحداث الاضطراب ، فإنها وسعت شقة الخلاف بين الملكية والأمة . ومع ذلك فليس هناك ما يبعث على الظن بأن المعاهدات التي عقدتها فرنسا مع النساء جاءت نتيجة خياله جريحة لأمرأة جميلة . فإن الأساس التي قامت عليها المحالفه الفرنسية النسوية كانت سليمة بما فيه الكفاية ، فإن من الأمور المعقولة أن يظن أن دولة ألمانية بالقوة التي ظهرت بها بروسيا في عهد فرديريك قد تبلغ من القوه بحيث تهدد صفو فرنسا .

ومهما يكن من شيء فإن الأمر الذي تعرض للنقد لم يكن المعاهدة الفرنسية النسوية الأصلية (أغسطس ١٧٥٦) التي كانت دفاعية فقط ، ولكن الوثيقة التالية التي تعهدت فرنسا بمقتضاهما بعقد محالفه هجومية دفاعية مع ماري تريزا . ولاشك أن مصالح فرنسا – في هذا الموقف الفاصل من التاريخ – قد أسيء إليها في هذه الحرب الأوربية الثانية ؛ إذ كان مواطنوها ينضالون فعلا ضد عدوهم القديم في غابات أمريكا المحلفية . وفي سهول الكارابانات ؛ لذلك كان من الأوفق لها أن تركز جهودها للدفاع عن أملاكها فيما وراء البحار التي كان يهددها فعلا النشاط المائي الذي كان يبديه منافسونهم الإنجليز . ومع ذلك فما هو بجدير بالاعتبار أن الرأي العام الفرنسي كان قليل الإدراك لطبيعة الحرب الحقيقية التي كان ساسة فرنسا يقودون الأمة إليها . فإن الأقلية من الفرنسيين التي كانت تهتم بالسياسة بدلا من أن يوجهوا اهتمامهم بمصير الهند أو كندا أو جزر الهند الغربية ، استغرق اهتمامهم الشقاق بين الملك والبرلنات ، بين المبادئ الحرة بجماعة الإنجانستن والمعتقدين في وجود الله ، وبمبادئ طائفة الجزوiet القائمة على الاضطهاد الكاثوليكي ، كما استغرق اهتمامهم أيضاً تلك المشاكل الدستورية المعقده التي أثارتها المقارنة

بين النظم الحرة في إنجلترا ونظام الحكم الأتوقراطي السرى الذى كان يقوم فى فرنسا . وبلغ من شدة استياء الفرنسيين من الملكية وكرههم لرجال الدين واستبداد روح النقد والثورة أن عدداً من مهرة المراقبين من أمثال « دارجنسون » Marquis d'Ar- genson و « إيرل شستر فيلد » Earl of Chesterfield من كتبوا فى منتصف القرن الثامن عشر حذروا بواحد الثورة الوشيكة . لذلك لم يكن متوقراً فى مثل هذا الجو أن توجه تلك الحرب الكبرى توجهاً قوياً واعياً . فبینما كانت طبقة الأدباء مشغولة بخوض غمار معركة التسامح والحرية ، كان رجال القانون فى برلن باريس يقاومون مقاومة عنيفة كل محاولة لتوسيع الأساس الذى يقوم عليه فرض الضرائب . وكان هؤلاء القانونيون اللامعون — وإن كانوا قصار النظر — يعوزهم تماماً تصور أغراض الحرب والاستعداد لتحمل أعبائها ، والقدرة على منح الشعب الفرنسي وحدة التوجيه التى يحتاج إليها المجهود الحربى فى أي حرب كبيرة ؛ فإن ما انهمكوا فيه من صنوف الجدل الحاد قد حجبت عنهم قضايا العصر الأكثر أهمية .

إن تقدم بروسيا فى سكسونيا (سبتمبر ١٧٥٦) الذى بدأ به حرب السنوات السبع قد شبه بغزو الألمان لبلجيكا الذى أشعل طيف صراع أكبر . وإن كانت المقارنة غير دقيقة لأن سكسونيا وإن كانت فى الظاهر بريئة، لا يمكن تبرئتها من سوء التدبير . وإن يكن حقاً أن العمل الذى أقدم عليه فرديريك بتسخير قواته فجأة تندفع فى أراضى دولة المجاورة له مسالمة ، ووضع يده على عاصمتها وخزانتها ، وضم جيشها عنوة إلى جيشه قد بدا لمعاصريه اتهاكاً فاضحاً للقانون الدولى ، بل إن اكتشاف أصول حلف معاد لبروسيا فى درسدن لم يكن له أثر فى التخفيف من الحقيقة الواضحة وهى أن ملك بروسيا كان أول من هدم السلام . فحرمه مجلس اللاهوت Aulic Council ^(١) فى قيمينا من أملاكه وألقابه ودعا الدايت الألمانى ليبعث بجيشه يقوم بتنفيذ الحكم ضد المجرم .

(١) Aulic Council : جهاز من أجهزة الإمبراطورية الرومانية المقدسة استمر من ١٤٩٧ - ١٨٠٦ ، مهمته الأصلية تنفيذية ، ولكن أصبحت له سلطات قضائية ؛ إذ أصبح يتلقى الاتهامات الموجهة للملك فأصبح بذلك بمثابة محكمة قضائية عليا . وهو يقابل مجلس الملك فى إنجلترا فى المصور الوسطى . وبوصفه من أجهزة الحكم الإمبراطورى ، حدثت معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ طريقة تكرينه واختصاصاته . وثبتت عندئذ أن سلطاته تنفيذية وقضائية .

وكانت الأخطار والصعاب التي واجهت فرديريك إذ ذاك هائلة . فهناك حلقة من الأعداء الأشداء كانت تهدده من كل جانب : في الجنوب النسوين ، وفي الشرق الروس ، وفي الغرب الفرنسيون والإمبراطوريون وفي الشمال السويديون : كان فرديريك الأكبر في مركز بالغ الخطورة إزاء هذه التجمعات التي كانت تستمد قوتها من موارد بشرية لا تكاد تعرف حدوداً . فهي قادرة في التو على أن تبعث إلى ميدان المعركة جيوشاً يبلغ ضعف عدد جيشه . بينما كان في وسع الروس والنسوين أن ينزلوا جيشاً جديداً مكان جيش يتحطم في المعركة ، لم يكن في وسع فرديريك أن يعوض خسائره من الجندي .

ووسط هذا الحشد من الأعداء ، وجد فرديريك في إنجلترا حليفأً . وقد قال عنه جورج الثاني : «إن ملك بروسيا شرير خبيث ، صديق مؤذ ، حليف سيء ، قريب طالح ، وجار سوء ، وهو في الحقيقة أخطر أمير في أوروبا وأخوبهم طوية» . على أن جورج الثاني لم يكن عندئذ الموجه لسياسة إنجلترا وإنما كان وليam Pitt الذي استحال ملك بروسيا في خياله الملهب بقدرة ساحر إلى بطل من أبطال الحرية في أوروبا ، دعامة العقيدة البروتستانتية . لم يرسل «پت» جيشاً إنجليزياً في الجبهة الشرقية للحرب ، ولكنه أمد الحرب في القارة بالعونات المالية الإنجليزية ، بينما عاونت الغارات الإنجليزية على شواطئ فرنسا ، ومعونة الإنجليز وهانوفر لفرديناند أمير «برنزويك» Ferdinand of Brunswick الذي كان يدافع عن قضية فرديريك في غرب ألمانيا — «عاونت إلى درجة بعيدة في تخلصه من الضغط الذي كانت فرنسا — لولا ذلك — قامت به على حدوده الغربية» .

على أن فرديريك ، وفرديريك وحده هو الذي أنقذ بروسيا من الفناء : فالجيش البروسى على الرغم من أن غالبيته كانت من الأجانب ، قد صاغ منه قائده الملحد وحدة تدربت على أن تبذل في إيمان بكل تضحيه . وحين كان الجندي يسيرون إلى الحرب وقد شدت عزائمهم فصاحة مليكيهم الملهم الذي صنعوا على يمينه وبالأتم حماسة موسيقى التراتيل اللوثرية اعتقادوا أنه إلى البروتستان وإنما يحارب معهم . ولا كانت أفلح الخسائر قد عجزت عن النيل من الأهداف الحديدية التي ربها ، فقد فشلت في تشبيط عزائم الجنود والشجعان الذين وقعوا تحت تأثير سحره . وعلى

الرغم من أن جيش فرديريك قد هبط إلى ثلث قوته الأصلية بعد صراع العام الأول العنيف ، فقد استمر يدافع عن حق الأمة البروسية في البقاء ضد قوات هائلة . لم يلق البروسيون بالا لنهب برلين إثر إغارة الأعداء عليها ١٧٥٧ ، ولالأعمال الجحش الروسية الوحشية التي اشتهر بها خلال شهور عديدة في سنوات الحرب التالية . فإن الروح البروسية لم تتعلق بمكان وإنما كانت متركزة في رجل كان وراء مواهبه المسطحة وأفضاله وثقافته وأخانه وأشعاره الفرنسية وتأملاته الفلسفية كان يختفي الإرادة الصلبة التي عرف بها شعبه الحارب من قديم . لم ييد فرديريك قط من المقاومة الباهرة في القتال ما أبداه في العام الأول من الحرب . انتهى غزوه لبوهيميا بكارثة وانتصر في براج ولكنه هزم في « كولن » Kolin ، وأضطر إلى سحب فلول جيشه بعد أن أصابته هزيمة فادحة إلى شمال « إربز جبرج » Erbz Gibirge . وعندما حاطت به شبكة من الأعداء ، من الفرنسيين والإمبراطوريين والنمساويين والروس والسويديين في أواخر الصيف من تلك السنة ، فكر في الانتحار مع اخته العزيزة . ولكن عندما جد الجلد انقضعت حالة اليأس من نفسية الرجل المتقلب المزاج . فأسرع غرباً متوجلاً في أراضي سكسونيا مقابلة الفرنسيين ، ففاجأ جيش الأمير سويس في روسباخ Rossbach (نوفمبر ١٧٥٧) ، وهناك أُنزل به هزيمة ساحقة ، ذلك هو الانتصار الذي احتفل به - بحق - الواقع المفوه لكنيسة « المؤديست » السيد « وايت菲尔د » Mr. Whitefield بوصفه الانتصار الذي توج القضية البروتستانتية . وفي تلك الأثناء كان القائد « دون » Daun في سيليزيا ، وهناك في موقعه « لوشن » Luthen الحامية الوطيس (ديسمبر ١٧٥٧) ، في جو ديسمبر القارس البرودة ، دحر فرديريك قوات ذلك القائد المسؤول القدير الذي كان قد اضطرب إلى قبول المذلة قبل ذلك ببضعة شهور .

وقد أثارت إعجاب العسكريين في كل العصور التالية همة فرديريك ومهارته في طرد أعدائه من سكسونيا وسيليزيا في معارك ذلك الخريف العجيب بجيش ضعفه ونالت منه هزائم سابقة ، وقد عد نابليون وهو أعظم العسكريين قاطبة - عد « لوشن » بحركاتها ومناوراتها وتصميمها عملاً فنياً خالداً . وتلك وحدتها شهادة كافية لكي تضع فرديريك في مصاف القواد ذوي الشهرة الحالية .

على أن هذه الانتصارات لم تغير الطابع الأساسي لمشاكل الحرب في الشرق .
إذ لم يكن في الإمكان أن تأمل بروسيا أن تحمى نفسها حماية فعالة من الغزو الأجنبي ؛ فقد كانت حدودها عرضة للهجوم بدرجة كبيرة . فكانت المشكلة الوحيدة هي ما إذا كان [في] وسق الملك فرديريك [صاحب] هذه الدولة [الصغيرة الفقيرة القليلة السكان أن يحتفظ بجيش قائم ضد القوى المتحدة لإمبراطوريتين عظيمتين ، في استطاعة كل منها أن تنزل إلى الميدان جيشاً يفوق جيشه عدداً ومرونة . وإذا كان فرديريك قد استطاع ذلك فإن ذلك لا يرجع فقط إلى عبقريته العسكرية التي مكتبه مرة بعد أخرى كما في واقعة « ليجنتز » Liegnitz (في ١٤ أغسطس ١٧٦٠) وفي « ترجاو » Torgau (٣ نوفمبر ١٧٦٠) ، وفي « شيفينتنز » Schweidnitz (٩ أغسطس ١٧٦٢) من مهاجمة عدوه وهزيمته ، وإنما يرجع أيضاً إلى عدم اتحاد خصومه من الروس والنسوين اتحاداً كاملاً ، والأحقاد المتبادلة بينهما ، وكذلك إلى بعض الشوائب الخاصة التي استطاع أن يستغلها تماماً ؛
فلو كانت القوة المعنوية عند الروس تعادل قوة جيوشهم ، لو أن فرمور لم يتوجه شرقاً بعد موقعة « زورندروف » Zorndorf المتعادلة (١٧٥٨) ، حيث حقن عدداً كبيراً من أرواح البروسيين ، ولو أن « سليتكوف » Soltikov لم يستسلم للعبث بعد انتصاره الساحق في « كنرزدورف » Kunersdorf (١٧٥٩) ، ولو بادر النسويون بقيادة « دُن » Daun إلى استغلال هذا النصر الروسي النسوين الرائع لكان لا مناص لفرديريك من تناول تلك الجرعة المهلكة – جرعة الانتحار – التي كان يدخلها بديلاً لصلح شائن . على أنه يبدو أن في الخلق الروسي نقصاً فطرياً في القدرة على المثابة . في حرب السنوات السبع توغل الروسيون المرأة تلو الأخرى في الأرضي البروسية . فوضعوا أيديهم على « كولمار » Colmar واستقروا في « بوميرانيا » البروسية Prussian Pomerania وتوجلوا حتى فرانكفورت على الأودر Frankfort-on-Oder ، بل حتى برلين كذلك وحاربوا البروسيين في ثلاثة معارك وحشية وأنزلوا بهم خسائر فظيعة . ولكنهم لم يحافظوا فقط على ثرات انتصارتهم . وعندما توفيت القيصرة إليزابيث في ٥ يناير ١٧٦٢ ، كان لا يزال بهم بين تلال سيليزيا قائد قصير القامة ، هزيل ، قذر الوجه ، يرتدى ملابس قديمة ملوثة بالشحوم والنشوق الإسباني ، ولكنه

مع ذلك كان يجد فراغاً من الوقت للناي والشعر الفرنسي . كان قادراً — كما أثبت في واقعة « شفايدنتر » Schweidnitz على توجيه الضربات الوحشية نحو خصمه ، كان لا يزال يهم بين تلال سيليزيا يتبعه عدد من المغاربين المحنكين ، وقد نالت منهم الحرب ، ولا يقلون عنه قوطاً ورثاته . وكان في موت إليزابيث خلاص فرديك ، فقد خلفها على عرش روسيا صديق له . كان بطرس الثالث شديد الإعجاب بالملك . أما وقد انسحبت القوات الروسية ، وأمام تهديد الأتراك لحدودها الشرقية ، اضطررت ماريا تريزا في النهاية أن توقيع صلح « هيوبورتسبرج » Hubertsburg (١٥ فبراير ١٧٦٣) . وهكذا ظهر أن فكرة إمكان الحكم على بروسيا بالزوال على يد مجمع ديني Aulic Council حتى إن أيدته جيوش أعظم ثلاث دول في أوربا كانت أضيقات أحلام .

أما في الميدان الغربي والبحري فإن إنجلترا البحرية بتوجيه من عبقرية وaim پت قدرها أن تضمّن للتحالف البروتستانتي انتصاراً عظيماً . وعلى حين اتسمت النتيجة الرئيسية في الميدان الشرقي — أي في حروب القارة — بروح الحافظة ، كانت نتائج الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ثورية لدرجة فاقت كل ما كان متوقعاً . لقد حال فرديك بجهوده العظيمة دون إحداث تغيير عنيف في توازن القوى في ألمانيا . فأنقذ بروسيا من الملاك واحتفظ بسيليزيا ، ولكن إنجلترا كسبت إمبراطورية جديدة في الشرق وفي الغرب . وهنا كان التبدل العظيم في معايير العالم وموازينه . في نهاية الحرب أمن الأنجلوسيكسون لأنفسهم التوسيع في قارة أمريكا الشمالية والحكم في الهند . فالفرنسيون الذين هددوا المستعمرين الإنجليز بالوقوف سداً دون تقدمهم غرباً في أمريكا الشمالية قد طردوا من مواقعهم على امتداد نهر الأهيو Ohio ؟ ورفف العلم البريطاني على قلعة كوميك ، وهكذا تقرر مصير قارة ضخمة . وفي الهند وضع « كلايتش » Robert Clive وهو ضابط شاب في خدمة شركة الهند الشرقية ، أسس ذلك النظام الحكومي العجيب الذي جمع تحت لواء التوجيه السياسي لشعب بروتستانى من شعوب الشمال أكثر من ثلاثة مليون شرقى قدموا بما يهم من فروق لا حصر لها في الجنس واللغة والدين لسادتهم المحايدين فرصة للعمل ومشكلة للحل .

في بداية الأمر سارت الأمور سيراً سيناً بالنسبة للإنجليز ، فقد فاز الفرنسيون في كندا وحلفاؤهم من الهند الحمر في الأعمال الحربية الأولى . في البحر المتوسط فقدت إنجلترا منورقة (يولية ١٧٥٦) مما ألهب نار الغضب والعار في هذا الشعب الذي لم يعتد كثيراً على المرايام البحرية . ثم سقطت كلكتا في أيدي أعدائهم ، وأصيروا بالهزيمة أمام « روشفور » Rochfort كما أعجزت العاصفة أسطولاً بريطانياً أمام لويسبرج Louisburg . ولكن حينئذ ، وكما يحدث غالباً عندما تدخل إنجلترا في الحرب ، أخذ احتياطها من القوة المعنوية والمادية في التكتل ، وبدأت النتيجة تبدو بفضل جهود قائد عظيم .

وبدأت عمليات الهجوم الواسعة المشتركة ضد فرنسا في كافة أنحاء العالم تؤتي ثمارها . فسقطت في أيدي الإنجليز لويسبرج مفتاح كندا ، وحصن « دوكين » Duquene (المركز الأمازي للجيش الفرنسي على نهر الأاهيو ونقطة الوصول بين كندا الفرنسية ولويزيانا الفرنسية ونواة الإمبراطورية الفرنسية المحتملة في الغرب الأوسط من أمريكا الشمالية) . وكذلك استولت إنجلترا على جوريه Goree ومعها تجارة العبيد الفرنسية في غرب أفريقيا . كما أرسلت إنجلترا معوناتها المالية وجندوها لمساعدة الدوق « فرديناند برنيزويك » Duke Ferdinand of Brunswick الذي كان يدافع عن القضية البروتستانتية في منطقة هانوفر ؛ وقد سهلت مهمته كثيراً الغارات البحرية التي نشط الأسطول البريطاني للقيام بها على ساحل فرنسا . وكان الانتصار الحاسم على جيش فرنسي أكثر عدداً في كريفلت Crevelt (٢٣ يونيو) إعلاناً بأن موهبة عسكرية جديدة من نوع ممتاز قد جندت لخدمة القضية البروسية الإنجليزية . وكانت أمريكا الهدف الرئيسي لجهود « بٍت » . وإن أعظم أمجاده كرجل دولة أنه فطن إلى أهميتها واعتبر سائر عمليات الحرب عاملاً مساعداً للاستيلاء عليها . لقد كانت « ينبوع ثروتنا ، وعصب قوتنا ، ونواة قوتنا البحرية وقادتها » .

كانت خطة بٍت العظمى لتحطيم النفوذ الفرنسي في كندا تتلخص في هجوم ثلاثي يوجه من الغرب والجنوب والشرق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن من المستطاع تنفيذ هذه الخطة كاملة فقد دلت على تفكير ارتفع إلى مستوى الهدف الذي ترمي إليه . الواقع أن التوفيق كان حليفها ؛ فلم يقع ما ينقض الانتصار الذي أحرزه وولف « Wolfe في « مونتكالم » Montcalm على مرتفعات « أبراهام » Abraham »

(٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وانتقلت إلى حكم الإنجليز كندا الفرنسية التي ظلت دواماً متنعة على عقيدة الإنجليز ولغتهم ونظرتهم إلى الحياة انتقلت إلى القيادة الإنجليزية ، حطاماً من فرنسا القديمة مطموراً في جليد الشمال . وحافظت إنجلترا بقوها البحرية على هذا الفتح .

ولما كان ميزان القوة البحرية في ذلك الوقت أمراً معروفاً فإنه لم يكن من المستطاع أن تجئ نتيجة الحرب في الميدانين الغربي والشرقي مخالفة لذلك . فعلى الرغم من أن سكان كندا الفرنسية كانوا مدربين للحرب أعظم تدريب، فقد كان يفوقهم عدداً سكان المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة المردهرة المتداة على طول الحيط الأطلسي . فليونان من الأنفس لهم ميزة التفوق على خمسين ألفاً ، وهي ميزة كان لابد لها أن تؤكّد وجودها في النهاية . على أن المستعمرات الإنجليزية لم يكن يعوزها الشجاعة أو الإقدام وإنما قوة الاتحاد . كان للإنجليز أسطول وكان لهم جيش ، وكان لديهم خطة للحرب ، استغلت موارد كانت موجودة منذ أمد بعيد وبكتها من إظهار تأثيرها الحق .

وإلى البريان الإنجليزي يعود نصيب من الانتصارات البحرية والاستعمارية الكبرى التي أحرزتها إنجلترا في ذلك العهد ، فقد أفسح المجال للاستماع إلى مشاعر الملائين والتجار والمستعمرات وإلصقاء إلى أطماعهم ومظالمهم . فاستحال على لندن ، ولكن لم يكن من غير المستحيل على باريس إهمال حاجيات المواطنين فيها وراء البحار .

ثم إن الدوائر الانتخابية في إنجلترا كان لها مصالح وفروع استعمارية : فثلاً كان أعضاء « بول » Poole أبطال الاستعمار في نيوفنلاند Newfoundland ؟ أما منطقة (ديفيزز) Devizes فكانت تضع نصب عينيها مصالح مستعمرات كارولينا . أما في باريس فلم يكن ثمة شيء من هذا ، إذ كان يعوزها مثل هذه الأداة لتركيز أصوات المستعمرات عبر البحار ، فبقيت إدارة البحرية الفرنسية تحت رحمة أفضials البلاط . ومن ثم قدر لوزراء أكفاء أمثال ماشوت Machault أن يسقطوا دون أن يرتفع صوت لللاحتجاج ، كما قدر لوزراء طالحين أمثال « مورا » أن يبقوا في الحكم دون معارضة . في سنة ١٧٥٩ الحرج عقل « بسكوبين »

سير أسطول البحر المتوسط الفرنسي في «لا جوس» Lagos ودمر «هوك» Hawke في خليج «كويبرن» Quiberon جزءاً كبيراً من أسطول المحيط الأطلسي الفرنسي . حتى وإذا افترضنا فشل الحرب التي خاضها «ولف» Wolfe فقد كان في هاتين المعركتين البحريتين الكفاية لتقرير مصير الحرب الأمريكية .

أما في الهند حيث أفسح انحلال الإمبراطورية المغولية مجالاً واسعاً للمطامع الأوربية ، فقد حالف الحظ فرنسا في البداية ثم تخلى عنها بعد ذلك لأسباب مماثلة . وإذا قارنا موقعناً بموقع الإنجليز كانت تمتاز على موقع خصومهم : فبومباي Bombay كانت ثغراً أصلح من ما هيء Mahé ، ومدراس Madras أكثر توسيطاً من «بندتشيري» Pondicherry ، وكلكتا أكثر ملاءمة للتجارة من المحطة الفرنسية في «شندرناجور» Chandernagor ؛ على أن الفرنسيين تفوقوا أولاً في السباق على التفوز والسلطان السياسي . في أثناء حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨) كان التفوز الفرنسي مسيطرًا في جنوب الهند في وقت كان «لابوردونيه» La Bordonnais يتولى قيادة الأسطول الفرنسي ، ودوبليه Dupleix يعمل في «بندتشيري» على تكوين إمبراطورية . عن طريق التحالف مع الهند وجيشه من السباهية Sepoy ، «بسى» Bussy اللامع الملم باللغات الشرقية يحييك المؤامرات السياسية في «حيدر آباد» بل أن مدراس نفسها انتقلت لحكم فرنسا لبعض سنوات :

ولكن الأوضاع انقلبت بعد صلح «إكس لاشابل» Aix-la-Chapelle فغدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية أقوى في التجارة والمال بدرجة فائقة من شركة الهند الشرقية الفرنسية . كان إنجلترا في ميدان العمل رجال أصلح ، كما كانت على استعداد لتقديم لهم من وطنهم تأييداً ومساعدة أكبر . واستدعت فرنسا «لابوردونيه» و«دوبليه» بينما اكتشفت إنجلترا «روبرت كلایف» Robert Clive و«سترينجر لورنس» Laurence Stringer Coote ، و«إيركوت» Eyre Coote . وعلى حين امتنعت السفن الفرنسية عن عبور المحيط الهندي من قاعدتها البعيدة في جزائر مورييس Mauritius في فصل الرياح الموسمية ، كانت المساعدات البحرية حاضرة لتأييدصالح البريطانية في كل فصل من فصول السنة . ثم إن فكرة إمكان حفنة من الفرنسيين الطموح إلى التحكم في إقليم «الدكن» Deccan كانت تبدو لرجال

السياسة في باريس ضرباً من الجنون بينما اندفعت حفنة من الإنجليز بقيادة روبرت كلايف ونجحت في البرهنة على أنه من الممكن فعلاً تحقيق خطة لبسط السيطرة السياسية أكثر جرأة وعلى نطاق أوسع . وإن سيرة روبرت كلايف (١٧٢٥ - ١٧٧٩) وهو ابن أحد أعيان الريف من أخني عليهم الدهر ، وقد بدأ حياته كاتباً لحسابات أحد التجار في خدمة شركة الهند الشرقية ، ثم أصبح مؤسساً للإمبراطورية ، تكون إحدى قصص العالم الخالية . ومات كلايف بيده^(١) في سن التاسعة والأربعين . ولا تتعذر كل المدة التي قضتها في خدمة بلاده في الهند ، وقد تخللتها زيارات إنجلترا الثانية عشر عاماً . في الدور الأول جعل إنجلترا تتفوق في الكرنات وفي الدور الثاني استرد كلكتا من سراج الدولة^(٢) (سلطان المغول) Suraj-ud Dawlah ، فهزم جيشه في « بلاسي » Plassey ، وهزم المسلمين وطرد الفرنسيين من البنغال وشمال « سرکار » Circare ، وقضى على نفوذهم في حيدر أباد وأقام النفوذ البريطاني في وادي نهر الكنج Canges . وفي الدور الثالث ولم يكن أقل أدوار خدماته العامة مجدًا ، نظم إدارة البنغال المدنية وظهورها . وقد تميزت عملياته الحربية بجرأة غير عادية . في سن السادسة والعشرين قاد خمسين رجلاً إلى « أركوت » Arcot [عاصمة الكرنات حيث احتفظ بقلعة متداعية أمام عشرة آلاف من الهند توّيدها قوات فرنسيّة ملدة حسين يوماً (١٧٥٧) وفي قلعة « بلاسي » Plassey الخامسة قاد ثلاثة آلاف جندي ، منهم تسعمائة فقط من الأوربيين ، ضد قوة من أربعين ألفاً من المشاة وخمسة عشر ألفاً من الفرسان ، وهي قوات أعدائه متkickداً خسارة تقل عن مائة نفس .

(١) موت كلايف : قائد وسياسي بريطاني . التحق بخدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وميز نفسه في خدمتها وأحرز انتصارات باهزة على الفرنسيين في الهند وأهانها انتصاره عليهم في معركة بلاسي (١٧٥٧) . ولكنه أتهم عقب عودته إلى بريطانيا في ١٧٦٧ بقوله رثاوي وهدايا كبيرة . وبع أن البرلمان أبرأه من هذه التهم بعد محاكمة مثيرة ، إلا أنه انتحر (١٧٧٤) .

(٢) سراج الدولة مهراجا البنغال ، استحوذ على أملاك الإنجليز في كلكتا سنة ١٧٥٦ ووضع أسراء منهم البالغ عددهم ١٤٦ في السجن وضعهم في حجرة مساحتها ١٨ قدماً مربعاً فمات عدد كبير منهم اختناقًا نتيجة نساد الهواء حتى عرف السجن باسم « حجر كلكتا الأسود » . وقد ألقى كلايف برأس الدولة هزيمة ماحقة .

وقد تكشفت له أسرار عظمة حكم بريطانيا السياسي في الهند باستثناء سر واحد . لقد رأى أن قائدًاً أوربيًّاً يقود قوات هندية يستطيع أن يصنع المعجزات بمساعدة رجاله إذا كان على استعداد لتعريف شخصه للمخاطر البالغة ؛ كما تحقق من أنه لا يمكن الحصول على نتائج سياسية عظيمة دون التعاون مع المندو ومحالفتهم ، ورکز جهوده لخاربة الفساد ونماضيل لجمع شامل كافة ممتلكات شركة الهند الشرقية المعتبرة يوماً ما تحت حكم سياسي واحد . وإن الوصمة الكبرى التي لطخت شهرة ذلك الرجل الجسور البارد الطبع أنه قد غدر بأحد المندوكيين النصابين . كان أوميشنڈ Omichund محتالاً ، ومع ذلك فإنه لم يكن من الواجب أن يتسبب محتال في إقامة دليل واحد على الغدر البريطاني .

وفي أبريل ١٧٦١ لم يبق للفرنسيين شيء من إمبراطوريتهم في الهند . وكان آخر حاكم لها الإيرلندي الأصل ، حارب في صفو^{إف} العاقبة^{إف} في حركة ١٧٤٥ في إنجلترا ؛ وكان لا يزال لديه من رصيد الكراهة ضد الإنجليز ما يصبه عليهم . كان « تولنداال » Tolendal كسائر أبناء جنسه شجاعاً في غير أناة ولكنه أساء إلى شعور الجميع وارتكب كافة الأخطاء ، إذ لم يعرف شيئاً عن الهند أو عن شعبها ، كما أنه كان حاد المزاج وكثير الظن . فكان مثل ذلك الإيرلندي قادرًا على القضاء على أية قضية . فتسبب « ليلي » التعس في فقدان الهند في موقعة « ونديواش » Wandewash الحامية الوطيس . حقًا لا يمكن الطعن في شجاعته أو ولائه ولكنه وجد في « إيركوت » Eyre Coote جنديًّا لا يكاد يفوقه إلا كلايف نفسه بقليل . ولما لم تكن الساحة إزاء الكوارث من فضائل الفرنسيين ، رأينا في عام ١٧٦١ ، أي بعد مرور ست سنوات على سقوط بنديشيري، جمهورًا متوجهًا يتجمع في ميدان « لاجريف » La Grève ، ليمنع أنظاره بالنزاعات الأخيرة يجود بها هذا القائد الحاد الطبع ابن « إيرن » Erin تحت بطليجlad باريس القليلة . حيث كفر عن فشله في القيام بوظيفة الحاكم . أما كلايف فقد كرمته بلاده المعرفة بفضله المتقدلة لبعض أعماله بوسام وتمثال ومرثية نبيل إيرلندي .

وعندما وضعت الحرب في النهاية أوزارها بصلاح باريس ١٧٦٣ منحت شروط الصلح (على الرغم من أنها جاءت أقل مما كان يرضي پت) إنجلترا مستعمراتها

ممتلكات من الاتساع بحيث تغير مجرى تاريخها . أخرجت فرنسا من الهند ، ولم يبق لها إلا بعض المراكز التي كانت في يادها في يناير ١٧٤٩ . كما انتقلت كندا والسنغال إلى إنجلترا ، واستردت إنجلترا جزيرة منورقة — وتنازلت لها إسبانيا عن فلوريدا . وازادت مجموعة جزائر الهند الغربية الإنجليزية بإضافة كل من الجزر الآتية : سانت فنسان St. Vincent ، توبياجوه Tobago ودومينيكا Dominica وجرونادين The Grenadines . كان صلحًا عظيمًا بالنسبة لإنجلترا على الرغم من سماحة الفرنسيين بالاحتفاظ بحقوق الصيد على شواطئ نيوفوندلاند ونهر سانت لورانس واستعادتهم لبعض جزائر الهند الغربية القيمة . وقد كان أحد المعاصرين محققًا عندما نعته بأنه « أشرف صلح عقدته هذه الأمة » .

وقد مكن إنجلترا الأزيداد العظيم في رفاهيتها التجارية من تحمل أعباء حرب طويلة كثيرة النفقات دون كلل ، وفي نهايتها — كما قال آدم سميث Adam Smith بعد ذلك : « ازدهرت الزراعة فيها ، وتقادمت الصناعة ، واتسعت التجارة على نحو لم تعرفه من قبل » . وعلى نقىض ذلك تماماً كانت أحوال حليةة إنجلترا في أوربا . فكتب فرديريك : « إن سكان بروسيا قد نقصوا بمقدار ٥٠٠,٠٠٠ نسمة خلال حرب السنوات السبع وإن هذا النقص فادح بالنسبة لمجموع السكان البالغ ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . لقد نهب البناء والفلاحون وفرضت عليهم الفدية على أيدي جيوش متعددة حتى لم يبق عندهم شيء سوى الخرق البالية التي تستر عريهم . لم يبق لديهم من المال ما يمكن حاجاتهم اليومية . ولم يعد هناك بوليس للمدن ، فحلت الفوضى والمصالح الخاصة محل سيادة روح العدل والنظام . وتخلى القضاة وعمال الضرائب عن أعمالهم بسبب تولي هجوم الأعداء ، ووقف حكم القانون وحل محله روح عدم المبالاة والغضب وقد رفع البناء والتجار والفالاحون والعمال والصناع أجورهم وأثمان منتجاتهم لأقصى درجة . ولاح وكأن كل شخص مكلف بخراب الآخر بابتزاز ماله . تلك كانت بعد انتهاء الحرب الحالة الفظيعة التي سادت أقاليم كانت مزدهرة جداً قبل ذلك . فكانت حال الأقاليم تشبه أحوال برندنبورج عقب انتهاء حرب الثلاثين عاماً ». وإن الإرادة البروسية ، وقد صهرها طيب الضراء ، قد باتت في صلابة الصلب وتعللت إليها بلاطات ألمانيا الأكثر ترفهاً حيث ازدهرت

الفنون كبلد بربى متأخر ينذر بالخطر .

ولإذا قورنت تصحيات إنجلترا في حرب السنوات السبع بالتصحيات الهائلة التي دفعها البروسيون ثمناً لسيلزيا بدا للألمان بصورة واضحة البون الشاسع في حظوظ المتحاربين . فلم يسقط من الأوربيين إلا عشرون في معركة « بلاسي » Plassey ومائة وأربعة وتسعون في « فاندواش » Wandewash ، ثم إن تكاليف غزو أكندا ، وفقاً لتقدير بت ، لم تتجاوز ألفاً وخمسمائة من الأرواح . وإن الأرواح التي فقدتها بروسيا في معارك فرديريك الكبرى لتزيد على خمسة أضعاف ما فقدته إنجلترا في الحصول على هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين . على أنه إذا كان المبنى على إنجيلترا الذي أدهنه إنجيلترا — فإذا قيس بعدد القتلى — منخفضاً فقد كانت تتظرها اضطرابات كثيرة . وبعد بضع سنوات انفجر في الأرض الأمريكية ذلك النضال الهائل بين الوطن الأم والمستعمرين الإنجليز وأدى في النهاية إلى تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia (1858-65).
- B. Williams : The Life of William Pitt, Earl of Chatham (1914).
- J.R. Seely : The Expansion of England (1885).
- A. duc de Broglie : Frédéric II et Marie-Thérèse. 2 Vols. (1883).
- A.G. Bradley : The Fight with France for North America (1900).
- A.C. Lyall : Warren Hastings (1889).
- A.C. Lyall : The Rise & Expansion of the British Dominion in India (1907).
- Macaulay's Essays (Clive, Warren Hastings, Chatham), (1852).
- L.B. Namier : The Structure of Politics at the Accession of George III. 2 Vols. (1929).
- J.S. Corbett : England in the Seven Years' War (1907)

الفصل الثامن والعشرون

حرب الاستقلال الأمريكية

نتيجة الاستيلاء على كندا - المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية - القيد على التجارة - الضرائب المباشرة - عناد الملك جورج - حفلة الشاي في بوسن - مؤتمر فيلادلفيا - سوء قيادة القوات البريطانية في أمريكا - جورج واشنطن - دخول فرنسا وإسبانيا الحرب - إنجلترا تواجه الأخطار - الأوهام الناتجة عن هزيمتها .

من الأسباب الرئيسية لحرب الاستقلال الأمريكية تلك الانتصارات ذاتها التي تم لبريطانيا الحصول عليها في غير عناء كبير . إن طرد الفرنسيين من كندا والإسبانيين من فلوريدا خلص المستعمرات من هذين الجارين الخطيرين ولكنه أضعف اعتمادهم على الوطن الأم . فغدا المستعمرات وقد قلت حاجتهم للمعونة الإنجليزية عن ذى قبل - أكثر استعداداً لتحدي ادعاءات إنجلترا . لقد حمل الكثيرون منهم السلاح بمحض رغبتهم أثناء تلك الحرب الكبرى ضد فرنسا . ولكن قليلاً منهم قبلوا المشاركة في تصفية المشكلات المالية التي تربت على تلك الحرب . وعندما اقترح جورج جرانثيل فرض ضريبة التبغ لوفاء جانب من تكاليف الجيش الذي استخدم لحماية المستعمرات نهضت مقاومتها دوافع مختلفة منها ما قام على العناد والحرص وضيق الأفق ، ومنها ما كان يتصل بأحسن ما ورثه الجنس الأنجلوسكوسنوني من تقاليد سياسية .

كانت المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية أوفر المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد حظاً من الحرية . فعلى الرغم من تبعيتها للنظام البريطاني والبرلمان ، فقد تتيح لها في الواقع بتدبير شؤونها الخاصة دون تدخل كبير من البرلمان البريطاني باستثناء مسألة معينة . فقد كان الاتجاه مع المستعمرات خاصاً لنظام رواعي فيه أن يتحقق فائدة متبادلة للوطن الأم ومستعمراته . إن « التخطيط الاقتصادي » على نطاق واسع لا يتوقع له النجاح على الإطلاق خلال فترة قصيرة

من الزمن : ويقدم لنا نظام الاستعمار الإنجليزي القديم مثلاً طيباً للاحتكاك الذي يمكن أن ينشأ عن محاولة سليمة الفصل لتتنظيم الحياة التجارية والصناعية ل المجتمعات مبعثرة من قاعدة بعيدة عنها . حرم على سكان المستعمرات أن ينشئوا صناعات قد تناقض صناعة الدولة الأم ، كما ألزموا بشحن صادراتهم على سفن بريطانية أو سفن للمستعمرات على أن يكون ثلثا رجالها من البحارة البريطانيين أو بحارة المستعمرات ، ووضع قائمة طويلة من سلع معينة . ومنها سلع من منتجات المستعمرات وألزموا بـلا ينزلوها إلا في ثغور بريطانية . ومن ناحية أخرى حرم على الإنجليز أن يدخلوها إلا تبعاً مما تنتجه أمريكا وبرمودة . كما منحت مساعدات مالية لقطاع الخشب في نيوزيلندا لتشجيع صناعة المعدات البحرية .

ولم تكن هذه التنظيمات ثقيلة الوطأة ، أو ما لا يتحمل في مرحلة التفاوض الاقتصادي الذي بلغته المستعمرات الإنجليزية في بداية حكم جورج الثالث (١٧٦٠) ولم يكن الوقت قد حان بعد لتقديم الصناعة في المستعمرات . وطالما كان أهل المستعمرات على استعداد للسماح للدولة الأم بتزويدتهم بالبضائع المصنوعة ، فلم يكن مما يشق عليهم أن يشحذوا المواد الخام إلى الموانئ الإنجليزية للحصول في مقابلتها على منتجات المصانع الإنجليزية .

ومع ذلك كان هناك قيد واحد سبب حنقاً عظيماً للغاية . وإذا كان ورع سكان نيوزيلندا قد قام مستهدفاً من الإنجليز ، فإن رخاءهم كان يقوم بدرجة كبيرة على تجارة الروم . وقد صدر قانون العسل الأسود Molasses Act في عام ١٧٣٣ . وقد حرم استيراد السكر المزروع في مزارع فرنسية ، كما منع استيراد العسل الأسود والروم لخدمة مصالح المزارع الكبيرة من البريطانيين وقد أصاب هذا القانون معامل التكرير في نيوزيلندا بضررها بالغة ، ولو لا نشاط حركة التهريب في المستعمرات لكانت هذه الضربة في حد ذاتها كافية لإحداث القطيعة بين إنجلترا ومستعمراتها . وإنه لأمر غريب يدعوا إلى التأمل ، أنه لو لا نشاط مهربى الخمور (١)

(١) Bootleggers : اصطلاح يطلق على مهربى الخمور المحرمة قانوناً . وهو اسم قديم يرجع إلى العصر الذى كانت الخمور تهرب فيه في الأحذية الواسعة التى كان يستعملها المهربون . وأعيد استعمال هذا الاصطلاح فأطلق على مهربى الخمور في الولايات المتحدة فى السبعينات حظر احتساؤها (١٩٢٠ - ١٩٣٠).

في القرن الثامن عشر لأصبح الدافع الأول الذي أدى إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية هو القيد الذي فرضه محتسو التبليد من رجال البرلمان الإنجليزي على متاجرة الأمريكيين في الروم مع الأهالي المفروذ.

ولكن القطيعة وقعت بسبب الضرائب المباشرة . لقد تشاوخر الإنجليز دائمًا بسبب المال . وإن المستعمرين الإنجليز في أمريكا (إذ كان العنصر الأيرلندي عندئذ لا يذكر) الذين قاوموا ضريبة التبغة التي فرضها «جرانشيل» Grenville كانوا أوفياء لتقاليدهم أجدادهم . وعلى أساس النزاع القديم المعتمد وهو «لا ضرائب دون تمثيل» احتجوا على ضريبة كانت صغيرة في حد ذاتها ، ولكنها كبيرة بالنسبة لميزانيتهم الشحيحة . وهكذا كانت قضية إنجليزية انقسم بشأنها الإنجليز على جانبي المحيط الأطلسي . بل وجد في أمريكا أنصار لحزب التوري أو المؤولون للدولة الأم؛ بينما وجد في إنجلترا أنصار للأمريكيين أو حزب الهويج . وقد اعترض أعظم المسasse البريطانيين الثلاثة في ذلك الوقت وهم «تشاتام» Chatham «وېرک» Burke و«فوكس» Fox على إلزام المستعمرات بدفع الضرائب وأيدوه في الرأي فريق لا يستهان به من الطبقة الوسطى البريطانية . كانت طبيعة هذا النزاع في مراحله الأولى أهلية ، حتى إن ضباطاً في الجيش الملكي والبحرية الملكية آثروا الاستقالة من الخدمة العسكرية دون أن تتحقق بهم وصمة عار على أن يحملوا السلاح ضد معارفهم وذوى قرباهم في الجانب الآخر من المحيط .

ويسلم المؤرخون الأمريكيون اليوم بأن جانب الإنجليز في القضية كان له من الحجج أكثر مما سلم به أسلافهم بصفة عامة . فإن مستقبل أمريكا الشمالية لم يؤمن بعد؛ إذ كان خططر المفروذ ماثلاً على الدوام . ونظراً لتعقيدات السياسة الأوروبية فقد كان هناك احتمال لمعاودة فرنسا وإسبانيا الهجوم عليها . ومن ثم بدا أن تكوين قوة للدفاع عن المستعمرات، كييفما كان أعدادها أصوب ضمان ضد مخاطر كثيرة ليست في الحسبان . وظل تمويل ذلك المشروع أمراً غير ممكن حتى ذلك الوقت بسبب الأحقاد المتباينة بين المستعمرين . ولم يكن ثمة ما يدعوه إلى الظن بأن محاولة الفرنسيين التي فشلت في عام ١٧٤٥ عندما كان الخطير الفرنسي في أعلى درجاته قد تنجح بعد ذلك بعشر سنوات عندما طرد الفرنسيون بصورة حاسمة من الميدان .

أكان إذن أمراً مثيراً للحنق أن يمارس البرلنان البريطاني حقوق سيادته فيفرض ضريبة على المستعمرين لتنفق في المستعمرات على تكوين جيش لا غرض منه إلا الدفاع عنها؟

وفجأة واجهت المشرعين من رجال الطبقة العليا في بريطانيا الحالي البال المترفين تلك المشكلة الغريبة، مشكلة حكم إمبراطوريات نائية . ولم يكن لديهم من المؤهلات ما يكفي لفهم تلك الديمقرطية الصلبة التي كانت لا تزال عبر الخط الأطلنطي تعزز في حماسة بالمثل العليا التي عرفتها إنجلترا أيام كرموليل؛ وأخطر من ذلك عدم إدراك الملك للموقف عندما ظن أنه قد جعل من نفسه صاحب الكلمة العليا في مجلس الوزراء والبرلنان . ونظراً للاحتجاج الصارخ الذي قوبلت به ضرائب جرانفيل ، فإن أبسط أنواع الخدر كانت تقضي بالتخلي عنها والتنازل عن أي أمل في الحصول على موارد مالية من المستعمرات إلا ما توافق عليه مجالس المستعمرات بمطلق حريتها . أما جورج الثالث فكان لا يرى إلا وسيلة واحدة لمعاملة المستعمرين الثنائيين . وهي وسيلة القوة . فلم يكن على الإطلاق مستعداً للتنازل في مسألة كان يعدها مسألة مبدأ . فأرق سحب ضريبة التبغ في عام ١٧٦٥ بإعلان من البرلنان ينص على أن بريطانيا الحق المطلق في فرض الضرائب على مستعمراتها ، وفي الوقت نفسه قررت الحكومة البريطانية بعض الضرائب التافهة على الزجاج والرصاص والورق والشاي وقد فرضها «شارل تاونسند» Charles Townshend في عام ١٧٦٧ والغرض منها تأكيد المبدأ أكثر من تحصيل دخل ذي قيمة . ولكن ذلك أثار سعير السخط في المستعمرات فوصل إلى أعلى درجات الهياج . وقد أبى الملك أن يتنازل عن مبدئه حتى عندما اتضح بخلافه أن نفقات جبائية الضرائب الجديدة كانت تزيد بكثير على قيمتها ، وأنها كانت تدفع ولاية «ماساشوستس» Massachusts . بسرعة نحو الثورة . فقررت وزارة لورد نورث Lord North بأغلبية صوت واحد أن تستيق ضريبة الشاي بعد أن تخلت عن ضرائب تاونسند الأخرى . ومن الصعب أن نتصور عملاً أكثر خرقاً من ذلك . فقد قدر أن أقصى ما يمكن تحصيله من هذه الضريبة هو ١٦,٠٠٠ جنيه سنوياً ؛ وأعلنت الوزارة عمداً في مايو ١٧٦٩ بخيبة استرضاء الرأي العام أنها لن تقترح فرض ضرائب أخرى على أمريكا بقصد تحصيل إيراد . فكان

رد الأميركيين تلويحاً بالحرب . وفي ١٦ ديسمبر ١٧٧٣ تسلقت مجموعة من الرجال المتشكرين في زى الهنود الموهرك Mohawk Indians ثلات سفن في ميناء بosten ، وألقوا بكل حمولتها من الشاي في الماء . وقابل مجلس الوزراء البريطاني ذلك العمل بالشل ، فأغلق ميناء بosten [١] وأعاد تشكيل دستور ماساشوتس وأصدر قانوناً يخول لامتهمين بجرائم كبيرة في هذه الولاية أن يحاكموا في مستعمرة أخرى أو في بريطانيا إذا ثبتت أنه لا يمكن محاكمة عادلة في ولايهم .

وتجمعت المستعمرات حول ماساشوتس في مقاومتها لهذه الإجراءات التأديبية . فتكون تحالف وميثاق مقدس يلزم المشتركين فيه بالامتناع عن تبادل التجارة مع بريطانيا إلى أن تبطل أوامرها البغيضة . وفي ٥ سبتمبر ١٧٧٤ تقابل مئتان للاشتى عشرة ولاية في مؤتمر فيلادلفيا Philadelphia ليتفقوا على إجراءات المقاومة ضد الناج البريطاني . وأنحد كل جانب يقدر أوجه الضعف والانقسام في الجانب الآخر .

ولم تكن إدارة بريطانيا للحرب أكثر توفيقاً من تلك السياسة التي جعلت الحرب أمراً لا معدى عنه . وكان في المستعمرات جماعة ذات شأن تحجد بصورة فعالة الإبقاء على الارتباط ببريطانيا ، بينما كان هناك كذلك فريق أكبر من المستعمرين لا يكتفى بال موقف ولم يكن لنفسه رأياً ثابتاً بعد ؛ كذلك كان يتحمّل السياسة البريطانية أن يجعل أحد أهدافها الأساسية كسب هؤلاء الأصدقاء أو المترددin ، واحترام ممتلكات كل صديق أمريكي ، وتشغيل الموالين من الأميركيين في مهام الحكومة المدنية كلما أمكن ذلك . ولكن لم يحدث شيء من هذا . ومن سوء الطالع أن البريطانيين طلبوا معونة الهند ، ولكن هؤلاء نفروا كل رجل على الحدود باعتدائهم ، هذا بينما كان جيش اللورد « هاو » Howe ، وغالبية جنوده من هس وهانوفر ينهب بيوت الناس دون تفرقه بين عدو وصديق . ويكون لتفسير سلوكهم المؤسف أنه لم يتقدم من الموالين للتطوع في صفوف القوات البريطانية أكثر من ٢,٥٠٠ طوال الحرب .

ومع ذلك فإنه لولا دخول فرنسا وإسبانيا الحرب إلى جانب الأميركيين لخسر سكان المستعمرات الحرب . إذ لم يكن في استطاعة جورج وشنطن العبرى

نفسه—وكان أعظم الرجال شأنًا في كلا الجانبيين—أن يجنب الثورة الأمريكية سلسلة هزائم ساحقة. فكانت موقعاً «لونج آيلند» Long Island ، وترنتون Trenton ، وبرياند برياند Brandywine أيامًا حالكة في التاريخ العسكري «لأبناء الحرية». وليس في ذلك ما يدعو إلى التعجب ، فالدولة الأمريكية كانت في طور التكوين. في فيلادلفيا عاصمة الاتحاد الغنى حيث كان كل شيء فجئاً ، وفي مرحلة التجربة ، وحيث لم يكن قد تكون بعد الإحساس بالدولة ، والولاء للدولة ، وتماسك الدولة ، لم يكن في مقدور المدنين أن يلقوا دروساً على الجنود. وقد كان وشنطن وحده هو الذي استطاع في معسكر «فالل فورج» Valley Forge وسط مشقات الشتاء القطبي القارس أن يجعل من جيش سيء الإعداد غاية في الاضطراب جيشاً على قدر من الكفاءة والتدريب ، وأداة من أدوات النصر . ما كانت الثورة—إلا في القليل—من صنع شعب متهدّم مقطوع بها ، ولا أدل على ذلك من أن جيش وشنطن لم يزد تعداده على عشرين ألف جندي في أي وقت طوال الحرب .

وفي ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ أجبرت قوة إنجليزية تحت قيادة الجنرال «برجوين» Burgoyne أثناء تقدمها جنوباً نحو نيويورك على التسلیم في «سراتوجا» Saratoga . وقد أثار فرنسا «المملكة» ذلك الخبر الذي دوى في جنبات العالم ، فدخلت الحرب لتأسيس «جمهورية» أمريكية تدفعها عوامل الغيرة الوحشية وحب الانتقام والحماسة .

ولن تجد سياسة كذلك أكثر مجازفة بالنسبة للويس السادس عشر وماري أنطوانيت وأتل بصرًا بالعواقب ؛ ذلك لأن الحرب الأمريكية لم تدفع الصراع المتدااعي للمالية الفرنسية دفعة الأخيرة فيحسب ، بل إن انتصار الديقراطية وخلع حكم الملكية فيما وراء المحيط الأطلسي قد أضاء في كافة الأذهان التقديمية في فرنسا صورة أوربا . وقد سويت خلقاً جديداً على نمط الأنماط الأمريكية أي على أساس الحرية الجمهورية . ثم إن إتمام تحرير المستعمرات الأمريكية بمساعدة فرنسا قد تسبب في إحداث تغيير كبير في شعور الناس نحو ذلك النضال على جانبي المحيط الأطلسي . لم تعد الحرب الأمريكية نزاعاً محلياً وإنما أصبحت نزاعاً عالياً . إذا استتجدت المستعمرات بأعداء إنجلترا وحصلت على مساعدتهم . وإن ثورة

المستعمرات التي اعتبرت في أساسها نزاعاً داخلياً صغيراً ، لم تثبت أن تحولت إلى تحالف رهيب أرهق موارد بريطانيا في كل ركن من أركان العالم . وكأن بريطانيا لم تكفيها عداوة دول البوربون الملكية فانضم الهولنديون ضد منافسيهم القدماء في ميدان التجارة ، وتكون تحالف من الدول الشالية المحايدة ، على رأسه كاترين قيصرة روسيا ، وكان يهدد بالتدخل ضد الأسطول البريطاني إذا استمر في مضايقة تجارة الدول المحايدة في البحار . ولم تتعرض بريطانيا مطلقاً في كل تاريخها لعزلة أو خطأ أشد مما تعرضت له إذ ذاك . فإذا كانت قد اضطررت أن تحارب الهولنديين على ساحل كرومندل Coromandel وفي سيلان : وفي سومطرة وإذا كان حيدر على قد غمر إقليم الكرنات في الدماء ، وإذا كانت إنجلترا قد خسرت ثمانية من جزائر الهند الغربية على أيدي الأسطول الفرنسي الذي ارتفعت كفاعته إلى درجة بعيدة ، وإذا كانت « مينورقا » و« فلوريدا » قد انتزعتا من الإنجلiz فإن السبب الرئيسي لهذا كله هو عناد أبنائهما المستعمررين أنفسهم . لم يكن تشاتام Chatham الصديق البريطاني الوحيد القضية الأمريكية ، الذي شعر عندما ناشد الثوار معونة الدولة الأجنبية بأنه لن يكون — منذ الآن — ثمة مجال للإذعان .

والحرب ميلان خصصت ترتع فيه الأوهام . فالفرنسيون يرون الكمال في جمهورية مالكة للعبيد دون أن يفهموا معنى الحرية والمساواة ، والأمريكيون يرون في الفرنسيين — وقد كانوا مختلفون عنهم بدرجة كبيرة في كل النقاط الأساسية خلقاً وطبعاً — فرساناً مغاوير ويرونهم أقرب إليهم وأكثر تجانساً معهم من الإنجليز الذين ناصبواهم العداء والذين استقو المستعمررون منهم أصلهم ولغتهم وأدابهم ودستورهم . وثمة وهم آخر كان له نتائج أحضر — فإن هزيمة إنجلترا في الحرب الاستعمارية قد ولدت اعتقاداً عاماً بأن تاريخ إنجلترا قد أشرف على نهايته ، وقرن بريطان وستانستير بدايات وارسو ، وقرن الأحزاب السياسية في إنجلترا بالشيع المدama في بولندا .

وكان الظن بأن نجم إنجلترا قد أفل اعتقاداً راسخاً لدى حكام على قدر كبير من القوة والذكاء من أمثال فردريلك ملك بروسيا، وكاترين قيصرة روسيا ، وچوزيف إمبراطور النمسا ، وأن مكانة إنجلترا التي بلغت مبلغاً عظيماً في عام ١٧٦٣ ، قد

هبطت إلى الحضيض — فوق ما تستحق — عند تسلیم يورکتون Yorktown بعد ذلك التاريخ بثمانية عشرة عاماً . وقد كان قیاس مبلغ قوّة إنجلترا دائماً من الأمور العسيرة .

ولما كانت فرنسا الثورة — مثلها في ذلك مثل ألمانيا الإمبريالية في أيامنا الحالية^(١) — قد بدأت نشاطها متاثرة بتقدير خاطئ لقوّة خصومها ، فقد قدر لها أن تصdem صلعة عنيفة .

حقاً كان هناك ما يؤيد هذا التقدير الخاطئ من وجهة النظر السياسية البحتة . فقد كانت الحكومة الإنجلizية (١٧٧٠ — ١٧٨٢) التي أصاعت المستعمرات الأمريكية عاطلة عن كل عمل مجید أو كفاعة متواضعة . لم يكن لورد نورث North رئيس الوزراء يؤمن بالحرب ولكنّه سمح للملك بأن يسيطر على إرادته . فتحطم نظام مجلس الوزراء وأصاب الانحلال حزب الهويج . وهوى إلى الأبد عام ١٧٧٨ نجم شاتام بعد صعود وهبيط . ولم يتألق في الأفق بعد عقلية ابنه الجباره الرصينة . أديرت الحرب إدارة سيئة ، وكرهها الناس وحالها الفشل . وكانت خطب شارل فوكس اللامعة المعارضة وحدها هي التي أبقيت على هليب من الخيال السياسي في برمان وستمنستر ؛ ومن ثم تزايد القلق في البلاد من نظام سمح بهذا القدر من الفساد والعجز والفشل ، وارتقت صيحة تنادي بالتحرر السياسي للمدن الصناعية ، وأخرى تدعى إلى تقييد قدرة الملك على إفساد البرمان . ولكن عندما استعاد الهويج أخيراً الحكم في عام ١٧٨٢ ووقعوا صلح فرسای (يناير ١٧٨٣) مع أمريكا ، معرفين باستقلال الجمهورية الأمريكية ، لم تر أوربا في ذلك غير مجرد فقدان إنجلترا لإمبراطوريتها ، ولكنها لم تدرك أن دستوراً هو الدستور الإنجليزى قد أنقذ ، والحق إنه لكتلك ، فإن إخفاق سياسة الملك الأمريكية قد جر معه تحطم آخر محاولة فعالة للحكم الشخصي وقعت في بريطانيا .

بل إن أمراً آخر أعظم من ذلك من دون أن يسترعى الاهتمام ؛ فإن ذلك البلد المهزوم — كان يهدو بسرعة بتأثير سلسلة من التغييرات الاقتصادية التي لم يسبق لها مثيل من قبل ليُصبح مصنعاً العالم والمراكز الرئيسي لأمواله .

(١) صدر كتاب فشر في سنة ١٩٣٦ .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century. 8 Vols. (1878-1890).
- James Truslow Adams : The Founding of New England (1921).
- G.B. Hertz : The Old Colonial System (1905).
- G.L. Beer : Commercial Policy of England towards the American Colonies (1893).
- J.L. Hammond : Charles James Fox (1903).
- Sir George Trevelyan : The American Revolution (1905).
- S.E. Morison : The Oxford History of the United States, (1783-1917), 2 vols. (1927).
- Cambridge Modern History, Vol. VII.

الفصل التاسع والعشرون

إنجلترا مصنوع العالم

إرساء أسس مكانة إنجلترا في عالم التجارة – بنك إنجلترا والقرض الوطني – نتائج حصر وراثة العرش في البروتستانت ونمو الصناعة – الخشب والفحم المحمولان عبر البحار – إنجلترا تصبح مصنوع العالم – سخاء الطبيعة – إهمال الحكومة – الروح الإبوريتانية – الختنون – تحسن وسائل الواصلات – عهد الرأسمالية الجديدة – الجانب الرقائى – نكبات الحروب الفرنسية . إهمال الشؤون الداخلية . آدم سميث Karl Marx Adam Smith

كان تأسيس بنك إنجلترا (١٦٩٧) والقرض الوطني فيها من النتائج التي تم خصت عنها حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر ، وكانت بداعاً ثار حولها جدل عنيف في ذلك الوقت ؛ إلا أن آثارها العمرانية كانت من القوة بحيث إنه بدونها كان يتعدى على تلك الجزيرة الفقيرة نسبياً في الزراعة ، على الرغم من برivity مخترعاتها الميكانيكية وغناها في الموارد المعدنية ، أن تغدو مصنوع أوروبا والسوق الرئيسية للقرض في العالم . وقد وضع أساس سليم لنظام الائتمان المصرفي في عهد وليم الثالث وبفضل هذا النظام أمكن استغلال النتائج الاقتصادية لمقاطرة البخارية ، ودولاب الغزل إلى أقصى درجة . ولو كانت العمليات المالية في إنجلترا على مثل ما كانت عليه في فرنسا من القصور ، لما أمكن على الإطلاق تحقيق ذلك التقدم . وإن الآلات البخارية : التي عرفتها إنجلترا أيام الثورة الصناعية ، وهي الآلات التي جعلت إنجلترا من التراء والقوة بحيث استطاعت أن تصمد لإرهاق الحروب النابليونية ، إنما كانت تدار « بزيت » المال ، وفي مركز الدائرة من النظام المالي الإنجليزي يقوم المصرف (البنك) .

كانت المصارف وكان المصرفيون من الأمور المألوفة في أوروبا عرقتها منذ زمن بعيد . فاستبدال العملة وتوفير النقود واقتراض المال كلها عمليات قديمة قدم أسواق بابل ومصر . عرفت أوروبا من قديم صراف اليونان والرومان والمغاربة اليهود الذين ظهروا بعد غارات المتبربرين ، ثم عرفت بنك جنوة الذي قام بتمويل الحروب

الصلبيّة ، واللهمّارِ الدّين سمى باسمه شارع مشهور في إنجلترا ، وأل مدّيتشي في فلورنسا الذين زادوا في دخُل البابوية وأل فوجرز Fuggers من أوجز بورج الذين دعموا بمال إمبراطورية شارل الخامس ، وصياغ لندن الذين كانوا يدخلون أموال تجارها ، وقدموا القروض لشارل الثاني : وكل هذه الوكالات كانت تؤدي بدرجات متفاوتة بعض وظائف البنك الحديث ، فسهلت عمليات التجارة وشجعت على تكديس الثروة . على أن العمليات التجارية والماليّة لم تبدأ تتجذر طابعها الحديث إلا منذ تأسيس بنك أمستردام في ١٦٠٩ . في تلك المدينة المزدهرة الآهلة بالسكان كانت الأسماء والسنادات تشتري وتباع ، وتقوم مضاربات على الصعبود وأخرى على النزول ، وتبادل العملات ، وتعقد القروض ل الحكومات ؛ وفيها كان مقدار متزايد من التجارة يمر في عملية أعادت على تداوله بطريقة ملائمة وسريعة . وما لبث هذا المثال أن أثر في الشعب الإنجليزي الذي دخل مع الهولنديين في أوّل العلاقات الاقتصادية . إذ شاهدت لندن أمامها ذلك المنظر العجيب منظر بلد صغير جار لها وقد اصططع وسائل لتمويل أساساً وجيوش ومشروعات تجارية عظيمة لا تناسب مساحته الصغيرة وعدد سكانه القليل . وقد أدرك سير وليم تمبل Sir William Temple وهو من أحكم ساسة عهد شارل الثاني ، القوة التي استمدتها هولندا من إنشاء قرض وطني وبنك وطني ، وود لوحذت إنجلترا حدو هولندا . فلهذا النظام مزايا قيمة لا جدال فيها . إذ كانت تقدم للمواطن العادي مجالاً آمناً لتشغيل مدخراته ، وبذلك حفّرت الأفراد على الاقتصاد . كما مكنت شعوباً من الحصول على الأموال بسهولة ، وبالتالي مكّتها من تحمل أعباء مشروعات واسعة ، كما أمدت التجارة برأسم مال ساهم فيه أفراد ليسوا تجاراً ، وبذلك أحلت نظاماً مالياً قائماً على الانتظام والترتيب محل نظام قائم على الهوى والتقلب . ولقد ظلت الحكومات الأوروبيّة في حالة خلل مستمر حتى اصططاع نظام البنك وعقد القروض طويلة الأمد للدول . وقد قدمت إليزابيث وهي حقاً أكثر الملكات شحّاً بحيلها مثلاً نادراً وفريداً في المقدرة على تحمل الأعباء الماليّة . على أن الهولنديين على ما عرّفوا به من التوسيع في الإنفاق استطاعوا خلال القرن السابع عشر بأكمله أن ينهضوا بكلّة أعبائهم الماليّة ، وذلك لأنّهم اصططعوا وسيلة سديدة لتمويل نفقات الدولة .

وقد عزز مثال الهولنديين ما كان من ضغط عملة مختلة ونفقات حرب باهظة . وقد نفذ شارل مونتاجو Charles Montagu (إيرل هاليفاكس Earl Halifax) في عام ١٦٩٤ فكرة بنك الدولة التي ألح بها على الحكومة وليم بترسون William Patterson وهو أسكتلندي حاذق واسع الخيال جمع ثروة في لندن . فإذا ما احتاجت الحكومة إلى قرض لتمويل الحرب ، تكون هيئة باسم محافظ وشركة بنك إنجلترا لإصدار ذلك القرض ، وتضمن فائدة قدرها ٨٪ بكافالة الضرائب . ووافق البرلمان على مشروع الهويج لإنشاء بنك إنجلترا على الرغم من المعارضة الشديدة . على أن شكرك رجال السياسة التي شاركتم فيها مدينة لندن كانت من التفاهة بحيث إنه اكتب في مبالغ القرض كله وهو ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عشرة أيام من تاريخ افتتاحه . ولو لا ذلك القرض لما استطاعت البحرية الإنجليزية أن تخرج إلى عرض البحر .

وقد تصور أعيان الريف من حزب التوري أن النظام المالي الجديد الذي وضعه حزب الهويج ليس إلا خطة شبيهة قصد بها الإضرار بمصالح أصحاب الأرضي ، وأنها بالتأكيد ستجلب الخراب على البلاد . ولكن البنك كان أقوى من خصومه . فيفي قاماً على الرغم من مهاجمة الصياغ ومنافسة بنك للأراضي أقيم خصيصاً للقضاء عليه . وحصل على حق إصدار العملة الورقية (في ١٦٩٧) ثم منح احتكار ذلك حتى عام ١٨١٠ . ومن أقوى الأسباب التي وطدت حصر وراثة العرش الإنجليزي في البروتستانت الاعتقاد العام بأن العاقبة (أنصار أسرة استيوارت) لو استعادوا العرش سينبذون القرض الوطني الذي مكن مولبرتا من إحراز انتصاراته . وقد خطت إنجلترا خطواتها الأولى في الطريق إلى الثورة الصناعية التي نشرت نظام المصانع في أنحاء العالم وبذلك ضاعفت من ثرواته وسكانه ، عندما أقيم نظام الاتمام فيها على أساس عصرية .

إن موسيقى الغابات المعمرة بالحن في ألمانيا تعيد إلى ذهاننا عهداً . كانت فيه الحضارة المادية للدول شمال أوروبا ووسطها تكاد تعتمد كل الاعتماد على الغابات . سكن الناس في أكثر جهات العالم خلال أكثر نصف عام في بيوت أكثرها من الخشب ، وجالوا البحار في مراكب خشبية ، وطلبو الدفء لأنفسهم على نيران من الخشب ، كما استخرجوا من الغابات المواد التي صنعوا منها الأدوات العادية

للحياة المنزلية ، وكذلك أدوات الزراعة والصناعة . واستمرت المدن الكبرى في شمال أوروبا وقد صنعت أكثر منازلها من الخشب وقتاً طويلاً حتى بعد أن استخدم الإيطاليون الحجارة والأجر والرخام ؛ وبعد أن اكتشف أهالى « كاكسين » صناعة الطوب التي عرفتها روما القديمة معرفة تامة . وكانت لندن التي دمرتها التيران في عهد شارل الثاني مصنوعة من الخشب ، وكذلك كانت موسكو عندما أحرقها أهلها بأيديهم فاستحالت رماداً أمام ناظري نابليون . وبلغ من إصرار التقاليد الريفية علىبقاء أول آلة بخارية وضعت في عربة من الخشب كما استخدم الثور في إدارة أول نول .

وكانت مشكلة الحفاظة على خشب الغابات موضع الاهتمام من وقت لآخر منذ القرن الخامس عشر ؛ ذلك لأن الأشجار كانت تقطع بكثرة غير عادلة لوقفاء بعض الحاجات الاستثنائية مثل تعدين الفضة أو صناعة الخزف والزجاج . على أن الخشب بالنسبة للدول غرب أوروبا البحرية ، عندما نمت في القرن السابع عشر ، لم يعد مجرد وسيلة من وسائل الراحة المحلية ، وإنما غداً أمراً أساسياً لا غنى عنه لقوة الدولة . وبعد قطع مليون شجرة من أشجار البلوط لبناء أسطول الكومنولث ، تساعل « جون إفلين » John Evelyn ، أرق الإنسانيين ، في كتابه « سيلفا » Silva ، وهو من أمعن الكتب ، عن كيفية المبادرة بالحفظة على مستقبل إنجلترا البحري باصطناع الطرائق العلمية لإنعماء الغابات . وإنه لافتراض يدعوه إلى التأمل أن أسطول نلسن كان مصنوعاً من خشب الفضل فيه لهذا السيد الريفي الظريف من « سري » Surrey . على أن إنجلترا في أمر حيوي مثل هذا لم تقنع بالاعتماد على مواردها المحلية ؛ فلجمأت إلى غابات ماساشوتس البكر تعرّض بها الغابات البائدة في وندسور Windsor ، وفي « هتفيلد » Hatfield ، وفي « سلود » Selwood . وهكذا دُعى العالم الجديد في هذا الشأن ، كما دُعى في شئون أخرى ، يمد العالم القديم بما قصر عنه .

وكان ثمة حينذاك مصدراً آخر من مصادر الوقود عرفته أوروبا منذ العصور الوسطى ، وقد أصبح بيت القصيد في الأغراض التجارية : في القرن السابع عشر شاع في لندن استخدام الفحم الذي كان يجلب من نيوكاسل . وإنه لأمر بالغ الأهمية لهذا العهد الجديد من التاريخ الأوروبي الذي آذن فجره ، أن إنجلترا – وكانت إذ ذاك أكثر الشعوب البحرية والتجارية تقدماً – قد أعادت بناء عاصمتها بالحجارة

والآجر ، وأسست فيها بنكاً للدولة للإصدار والإيداع . وتوسعت في استخدام القسم ، وبذلك أعلنت في أوسع نطاق عن مصدر القوة الذي سيغير عما قبل التكوين الاقتصادي للعالم .

وقد سبقت إنجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوروبا باتخاذها طابع الدولة الحديثة ذات المستوى العالي في الصناعة . لم تعداد إنجلترا أرض الفلاحين الزراعي ولا موطن الصناعات المنزلية الصغيرة ، ولم تعدد بلداً تبلغ طرفة من السوء أن الرحلة من « يورك » York إلى لندن كانت تستغرق أسبوعاً ولو كان ذلك على ظهور الجياد ، وهي إذ ذاك وسيلة النقل الوحيدة المأمونة . كما أخذ يزول بصورة متزايدة نظام الفلاحة المسرف الذي يرجع إلى العصور الوسطى . وكان يقوم على تقسيم الأرض الزراعية في الحقول الواسعة إلى ملكيات متباينة ، ويصل محله نظام جديد للفلاحة يقوم على الملكيات الزراعية الكبيرة ذات الأسيجة من حولها يملكونها ملوك يعملون على تحسين زراعتهم ويصطفون دورة علمية للمحاصيل عن طريق التجديد في استخدام زراعة النباتات ذات الجذور والخشائش . وقد أدى ذلك إلى زيادة المواد الغذائية ، وبالتالي زيادة عدد السكان . وقد غيرت القوة المائية أولاً ، ثم قوة البخار ثانياً، من ظروف الحياة الاقتصادية . ووجدت صناعة الحديد التي واجهها خطر محدق في عهد الملكة آن Anne من جراء نفاد الوقود ، وجدت في مقدار الفحم الوفيرة في وسط إنجلترا وثمامها قوة دافعة لم تتوقعها للتتوسع السريع . وحل الصلب محل الخشب ، وعمال المناجم محل وقادى فحم الخشب . وتلا عهد الأسواق الدورية والباعة المتجولين عهد آخر تمت فيه تجارة التجزئة في دكاكين (محل) في القرى والمدن في كافة أنحاء البلاد . وفي ما يلي نصف قرن (١٧٦٠ إلى ١٨٢١) ازداد عدد سكان إنجلترا من ستة ملايين وثلاثة أربعين مليوناً إلى اثنى عشر مليوناً . لم يشهد العالم من قبل مثلاً لهذا المشهد الذي مثلته إنجلترا بعد أربعة أجيال من الاختراع والدأب مشهد وسائل المواصلات وقد أصبحت سريعة بما يفوق أكثر الأحلام بعداً عن الحقيقة ، ومشهد المصانع وقد ازدهرت بالآلات البارعة الموفرة للجهد الإنساني ، ولوث دخانها الهواء الطافق ، ومشهد الصناعات وقد جلبت مواردها الأولية من أحد نصفي الكورة الأرضية ، بينما بعثت بضائعها المصنوعة إلى النصف

الآخر ، ومشهد المدن الضخمة البشرية وقد بنيت على عجل ، ومشهد سكان أصبح رين جرس المصانع يتحكم فيهم منذ طفولتهم المبكرة ، كما ألموا باتباع نظام عمل كثيف م frenzied .

وترجع بعض العوامل التي جعلت من بريطانيا رائدة في الرأسمالية الصناعية إلى سخاء الطبيعة ؟ فإن مناخها رطب وهو يلائم الصناعات القطنية ؟ كما كانت القوى المائية متوفرة في المناطق الشمالية والشمالية الغربية من إنجلترا ؟ وأهم من هذه العوامل جميعها وفرة الفحم والحديد وتقرب مناطقهما ، وسهولة نقلهما باستخدام الطرق المائية . كما كانت حقول الفحم في بريطانيا أعظم ما اكتشف منها في فرنسا وألمانيا ، وأقرب إلى الموارد الخامسة . وهكذا على أساس الحديد والفحم والمنسوجات ، شيدت بريطانيا أسلوبًا من الحضارة لم يلبث أن احتذى فيسائر أنحاء العالم .

وإذا كانت هذه الفرص الطبيعية قد استغلت تماماً فإن ذلك لم يكن راجعاً إلى مستوى عال من الثقافة العامة وإنما إلى وجود الجو الملائم للاختراع في الصناعة على وجه الخصوص ، ولالمبادرة باستغلال نتائجه . كانت الأرستقراطية التي في يدها مقاييس الحكم في إنجلترا تهم بشئون التجارة بخلاف طبقة النبلاء في فرنسا . فلم يكن لورادات الهويج ، في رغبتهم في المال لتوفير رفاهية العيش يحتقرن ثروة تأثيرهم من مصنع أو منجم أو استثمار المال في الهند . هذا إلى أن هؤلاء اللورادات وقد نجحوا في تقويض سلطان الملك ، لم يكونوا على استعداد لمشاهدة حكومة أو قرطاطية تبعث من جديد في صورة أخرى . قد يؤخذ على البريان الإنجلزي في القرن الثامن عشر أنه لم يعمل إلا القليل ، والحق أن من الصعب مهاجمته لإنجازه الشيء الكثير . ومع ذلك فإن أعضاء البرلمان لم يضعوا أيّاً من العرائض التي يمكن عدّها خطيرة في طريق شعب عرف بالاعتماد على نفسه ، وحبه للمال .

في مثل هذا الجو من الحرية النسبية . ولعله من الملاحظ أن بريطانيا قد أصبحت عقب اتحادها مع أسكوتلندا أوسع منطقة لتجارة الحرفة في أوروبا — استرد خلفاء عصر البيوريتان مكانتهم . فعندما أقصى المخالفون للعقائد الرسمية Nonconformists عن الاهتمام الفعلي بالأمور السياسية حتى عام ١٨٢٨ ، حولوا نشاطهم وكدهم إلى السعي في طلب الثورة — فاعتبروا العمل شيئاً مقدسًا ، واللهو خطيئة ، وجمع المال دليلاً أصول التاريخ الأوربي

على قبول الإله لصلواتهم . وشاركوا بعزم قوى في كل نوع على وجه التقرير من المشاريع الصناعية والتجارية وإن كان الجديد قد اجتذبهم بوجه خاص ، وبذلك ساهموا بنصيب وافز في صنع إنجلترا جديدة ، وهي وإن كانت قد أصبحت أقل هدوءاً وجمالاً فقد غدت أكثر ثراء وأوسع سلطاناً عما كانت عليه من قبل .

وعز ذلك فإنه لم يكن من الممكن إحداث هذه التغيرات بدون الاحتراعات . فإن حفنة صغيرة من الأسكتلنديين والإنجليز الجديرين بالاعتبار ، أقل عدداً مما تحتاج إليه مباراة لكرة القدم نجحت في أن تغير ببراعتها حياة البلاد الاقتصادية . وما لاشك فيه أنهم قد استمدوا التأييد والإلهام من جو العصر الذي عاشوا فيه . فقد كان العلم ينشر سلطانه منذ أن بشر فرانسيس بيكون Francis Bacon بقيمة الطريقة الاستقرائية ، وكان من رجال العلم بعض المخترعين وخاصة جيمس وات James Watt (١٧٣٦ - ١٨١٩) الذي كان أول من قرر الأهمية الحاسمة للفانطازة البخارية في مجال الصناعة . ولكن ربما كان أهم من التدريب العلمي فعلاً الفكرية التي عاونت الجمعية الملكية على نشرها ومضمونها أن المعرفة شيء ينمو ويتعرّج وأن في وسع الإنسان — عن طريق الملاحظة والتجربة — الكشف عن حقائق جديدة . وهكذا ما إن ثار في الإنجليز روح التطلع والبحث حتى أصبح لا مفر من أن يرجه نحو أهم أمر كان يشغل بال الشعب الإنجليزي في ذلك الوقت . ولم يكن هذا الأمر — كما كان في عهد البيوريتان — أمر عقيدة أو دين ، ولكنه السعي في طلب المال عن طريق الصناعة والتجارة .

كان بعض المخترعين العظام عملاً فقراء لم ينالوا حظاً من ثقافة أو تعلم ولكن هدتهم في معالجة أجهزة الصناعات التي يعملون فيها مهارة ميكانيكية شملت إلى حد العبرية . ومن هؤلاء كان « كي بيوري » Kay of Bury . الذي أدى اختراعه للمكوك في ١٧٣٣ إلى مضاعفة العمل الذي كان في استطاعة النساج إنجازه ، بالإضافة إلى تجويد صنفه . وكذلك « جيمس هارجريفز » James Hargreaves من ضاعف دولاب الغزل الذي اخترعه في ١٧٥٤ القوة الإنتاجية للنساج إلى ثمانية أمثالها وأكثر ؛ ومن هؤلاء أيضاً كان « ريتشارد آركرايت » Richard Arkwright of Preston (١٧٣٢ - ١٧٩٢) مخترع إطار آلة الغزل ، ومؤسس صناعة المنسوجات

القطنية في إنجلترا ، ومنشئ نظام المصانع .

ولن تجد كثيرين من الإنجليز فاقوا في أثرهم الحضاري العميق ذلك اللانكستري الممتلئ حيوية ، الذي عمل في شبابه صبياً لخلاق ، ثم صانعاً للشعر المستعار ثم قام بسلسلة من الاختراعات لنصف القطن وغزله ، مما جعل الإنتاج على نطاق واسع أمراً ممكناً ؛ ثم طبق في المصانع التي أنشأها ليستغل اختراعه نظاماً يقوم على الإنتاج الجماعي المقنن ، وهو النظام الذي يميز عهد الرأسمالية .

ولما كانت المصانع الأولى لصناعة المنسوجات تعتمد على المياه لإدارة قوتها الحركة ، فقد أقيمت على مقربة من مساقط المياه ، وبصفة عامة على أرض سبخة موحشة ، بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان . ولا يزال النظر يقع في مثل هذه البقاع على هيكله الأبنية هزيلة مرتفعة المداخن ، وتد كانت يوماً ما مسرحاً لنشاط والحركة ، ولكنها هجرت منذ أمد بعيد . فإن الاستعاضة بالبخار عن الماء في القوة الحركية لمصانع القطن قد جعلت من الأربع تركيز المصانع في المدن . ولما أصبح في الإمكان عندئذ توليد القوة في أي مكان مناسب ، لم يعد من الضروري نقل العمال إلى المناطق المائية النائية . وحل مصنع القرية محل صناعات المنزل الريفي الصغير ، وأصبح كلاهما في عداد الآثار القديمة ، إذ أن استخدام البخار في إدارة المصانع قد أدى مباشرة إلى قيام مصنع المدينة .

ولم يكتشف «جيمس وات» James Watt المهندس من «جرينوك» Greenock استخدام البخار كقوة محركة ، كما أنه لم يكن منشئ القاطرة البخارية . ولكن أثناء تأمله في عيوب قاطرة بلغت من العمر ثمانية وخمسين عاماً اهتمى هذا العبقري الرقيق الغضوب الحزين إلى سرّ جهاز تكثيف الهواء المنفصل (١٧٦٩) ، ذلك الجهاز الذي مكن قوة البخار من إحداث انقلاب في ميدان الصناعة . كانت مضخة «نيوكون» Newcomen تستعمل في نزح الماء من المناجم ، ولكنها كانت عديمة الفائدة في المستويات العميقة ، كما أنها في جميع المستويات كانت قاصرة في قوتها ، غير مسؤولة في عملها بسبب فقدان الحرارة وأسباب أخرى . وقد عالج «وات» Watt هذه العيوب باختراعه المكشاف المنفصل . وهكذا قدمت فكرة نيرة واحدة للإنسانية ، أداة السيطرة على دنيا المناجم ، مع ما يتبع مثل هذا الفتح

من توفير مزيد من القوة المحركة والآلات والإضاءة والدفء ومستوى أعلى من وسائل الراحة لعدد كبير من الناس. ثم أدخلت الآلة البخارية في مصانع القطن بفضل الاختراع التالي الخاص بالحركة الدائرية ، تقليداً لحركة العجلة المائية . وحدث هذا في عام ١٧٨١ وهو نفس العام الذي سلم فيه البريطانيون في « يوركتون » Yorktown . ولم يلحظ أحد إذ ذاك أن مخترعاً خجولاً صنع روابط جديدة بين الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر نفعاً من روابط الاحتكار الاستعماري ، في القرن التالي انطلق القطن الأمريكي المنسوج في مصانع « لنكشير » Lancashire يجوب أنحاء العالم .

على أن هذه الأفكار الميكانيكية لم تكن لتتحقق ثمارها فعلاً لولا مشاركة وثيقة تقوم بين المخترع أحد كبار رجال الأعمال من يؤمنون بالبخار ولا تعوقه خسارة مادية أو مخاوف . فلولا مساعدة « ما�يو بولتون » Mathew Boulton صاحب مصنع البضائع الحديدية في برمنجهام لكان متحملاً أن تبقى اختراعات « وات » مهملاً لا يستخدمها أحد . دعا « بولتون » « وات » لمساعدته في ١٧٧٥ ، وركز اهتمامه في صنع الحركات البخارية وبيعها ، فجمع رأس المال وجمع العمال وأقام المصانع ثم أقنع بالجمهور في النهاية . وبفضل همة بولتون وحماسه ووعي نشاطه الذي لا ينضب ، وكذلك بفضل المخترعات الميكانيكية التي اخترعها صديقه الرقيق الشعور ، تم في عشر سنوات انقلاب ربما استغرق في ظروف أخرى قرناً من الزمان . وقد أخرجت مصانع « سوهو » Soho أول آلة بخارية في عام ١٧٧٦ . وبعد أربع سنوات أرسلت الأربعون آلة إلى مناجم كورنوال . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى أصبح للبخار السيطرة في معظم الصناعات الرئيسية في إنجلترا .

وكانت وسائل المواصلات في النصف الأول من القرن الثامن عشر عائداً كبيراً في سبيل التموي الصناعي في بريطانيا . ففيما كانت فرنسا تملك من الطرق والترع ما كان موضع إعجاب كافة الرحالة ، كانت الطرق الإنجليزية التي كان يشرف عليها طائفة من موظفي الأبروشية لا يتقادرون أبداً في حالة مخزية ؛ أما القنوات فلم يكن لها وجود . ولم يكن في الإمكان أن تحظى الصناعة بتوسيع كبير طالما بي الحال على هذا النحو ، وطالما بي كثير من الطرق غير صالح للسفر إلا في أشهر الصيف وطرق أخرى غير صالحة لمرور عربات النقل وعجلات السفر إذ كانت

لا تسمح إلا بمرور حصان نقل واحد . ولكن الشعب في النهاية بدأ في منتصف القرن يلاحظ ذلك الفوضى الذي تغاضى عنه دهراً طويلاً . فسنت قوانين بإنشاء مداخل للطرق تدفع عندها رسوم معينة ، استخدمت في إجراء تحسينات قيمة وإن لم تكن منتظمة . وقام وليم « برنلي » William Brindley الأعمى النابغة بإنجازه الهندسة الفنية المائية بين ليثربول وماشستر، ويفضل الجهد المتدافع الذي قام بها ثلاثة من المهندسين العظام : « متکالف Metcalfe » و « تلفورد Telford » (ومکدام Macadam) أزيلاً الخرابات التي تراكمت منذ أمد بعيد . وزُودت البلاد بنظام من الطرق والجسور والقنوات لا يقل عن أحسن نظام في أوروبا . ودخل عهد التخلص بالبضائع في ذمة التاريخ ، وببدأ عهد عجلات السفر القصير الأمد . فكتب « جوزيف آستون » في تاريخه عن منشطير الذي نشره ١٨١٦ : « في عام ١٧٧٠ لم يكن هناك سوى عربة واحدة فقط للمسافرين إلى لندن وأخرى إلى ليثربول . وكانت هذه تبدأ من « آستون » إلى منشطير ، وكانت تقطع مرتين فقط في الأسبوع ، أما الآن فيوجد سبعون عربة مختلفة تبدأ رحلتها من هنا ، ومنها أربعة وخمسون عربة تساخر يومياً ، وستة عشرة أخرى ثلاث مرات أسبوعياً ، كل إلى مقاصدها المختلفة . وفي عام ١٧٥٤ أُعلن عن العجلة « الطائرة » وكانت موضعًا للفرح ؛ إذ قيل إنه مهما يهدو ذلك بعيداً عن التصديق فإن هذه العربة باستبعاد الحوادث الطارئة ستصل فعلاً إلى لندن بعد أربعة أيام ونصف من مبارحتها منشطير ، والآن تقطع عربات البريد دائمًا هذه المسافة في ثلاثين ساعة ، وفي مناسبات كثيرة عندما كان بونابرت يتزوج نحو النهاية . وعندما وصلت أنباء المعركة النهاية في « ووترلو » وصلت عربات معينة وهي Telegraph, the Traveller, the Defiance ، في ثماني عشرة ساعة » .

هذا العهد الذهبي للأسفار في إنجلترا — وإن كان عهداً قصيراً — خالده « شارل ديكنز » في صفحات كتابه « بيكوبيك » Pickwick عندما كان الحصان في عنفوان مجده . وعندما كان المسافر يجد متسعًا من الوقت ليتمتع نفسه بمناجاة الريف وخواطر الطريق . ثم جاء اختراع ستيفنسون Stephenson للقطار (في عام ١٨٢٩) فوضع حدًا للذلك الفصل من تاريخ إنجلترا ، وببدأ عهداً أكثر حرقة وأكثر ثراء وأكثر إزعاجاً للجنس البشري .

وما وافت نهاية الحروب النابليونية (١٨١٥) حتى أصبح طابع المجتمع الرأسمالي، كما شاع في ذلك الوقت، أمراً واضحاً في بريطانيا. على أن الرأسمالية قد وجدت في صور مختلفة منذ فجر التاريخ وتميزت الرأسمالية الجديدة عما كانت عليه في العصور السابقة بأنها لم تكن زراعية أو تجارية على وجه الخصوص ، بل أصبحت رأسمالية صناعية إلى حد كبير . وقد ترتب عليها الفصل بين رأس المال والعمل في جانب كبير من النشاط الاقتصادي حيث قام الاتصال عادة بين رأس المال والعمل . فلم يكن للصانع في المصانع الجديدة ، التي كان دخانها يظلم الجو ، شيء غير عمله يقدمه ليتقاضى عليه أجراً . وهكذا بينما كانت الطبقة العاملة تتبع العمل ، كانت طبقة أصحاب العمل تشرىء . وحل محل العلاقات القديمة التي قامت على العرف وأكسبتها العاطفة الإنسانية حلاوة ، علاقة المال بين العامل وصاحب العمل .

لم تشعر الأمة بالشروع التي نجمت عن هذا التصنيع السريع الذي لا روح فيه حتى الأربعينيات من القرن التاسع عشر . كانت المشاكل التي أثارتها جديدة ومن نوع لم يكن البرلمان الإنجليزي الذي يسيطر عليه أعيان الريف الأغنياء منها لتقديرها . وعجز عن اجتناب اهتمام أعضاء البرلمان أو إثارة عطفهم ما كان يجري في «لنشير» Lancashire «وبلاك كنتر» Black Country من عرق النساء وكذبح صغار الأطفال ، والمساكن المخجلة وإهمال جميع وسائل الراحة ، والتفاوت بين الأجور والأرباح ، وتوقع البطالة حتى إن «بيرك» Burke نفسه الذي وسع خياله الملتهب قضياها الهند وأمريكا ، والدلالات الكبرى للثورة الفرنسية ، أغمض عينيه عن رؤية المشاكل الداخلية الملحة التي نجمت عن الثورة الصناعية . ولما كان القانون يحروم تكوين اتحادات العمال ، فقد عجزوا عن تنظيم أنفسهم ، فلم يسمع لهم حسّ .

ومع أن الحرب الطويلة ضد فرنسا لم يكن لها أثر في إيقاف التوسيع الصناعي والتجاري في إنجلترا فإنها من كافة الاعتبارات الأخرى كانت بلاع صرفاً على بريطانيا والعالم . ذلك لأنها بسبب الحرب أهملت دراسة مشاكل المجتمع الصناعي الجديد التي كان لها من الأهمية والحدة ما يكفي لتجرس لها حكومة عاملة وعاقلة كل قواها . وهو درس كان من الممكن أن يكون مجدياً على أي حال . فبيها كانت

الحكومة الإنجليزية تناضل للحفاظ على كيانها ضد فرنسا في عهد الثورة ونابليون ، وقد أصاب الطبقة الحاكمة فيها الذعر من خطر الروح الثورية في إنجلترا ، كان من العبث أن تتوقع أن ينظر بعين العطف إلى حاجات تلك الطائفة الجديدة من الناس ، المشغولين بالصناعة ، وهم لا يعرفهم أحد ويحيطون حياة نصف همجية ؟ وكان عددهم يزيد بسرعة في الظروف الغريبة التي تقوم فيها الصانع في الجزء الشمالي من الجزيرة البريطانية . بل إن « وليم بت » نفسه ، وقد أظهر في لحظة ما وبيضاً حقيقياً من الاهتمام والإدراك ، تراجع عن واجب التخفيف من شقاء تلك الفئة الكادحة من السكان التي تشقي لتكتسب رزقها . وإن العقلية التي عضدت بقاء تجارة الرقيق حتى عام ١٨٠٧ كانت أحد العناصر التي شكلت الجو العقلي الذي كان يسود في تلك الأيام . كما كان الخوف من الثورة عنصراً آخر ، وكلا العنصرين لم يجدا معالجة المشكلات الاجتماعية التي تربت على الثورة الصناعية معالجة حكيمة.

وإن آدم سميث Adam Smith مرجحاً في كتابه «ثروة الأُمم» ببروز فجر العصر الحديث—عصر الصناعة (١٧٧٦) — يحمل لازدياد الثروة الذي أصبح أمراً ممكناً في ظل نظام يقوم على حرية التجارة وتعظيم الآلات ، وتقسيم العمل تقسيماً دقيقاً ؛ وفي هذا البحث الفريد الذي اعتبر إنجيلاً يبشر بمبادأ التجارة الحرة ؛ فطن آدم سميث ، هذا الأستاذ الحكيم من أبناء جلاسجو ، إلى القوى الاقتصادية الهائلة الكامنة في الشعب البريطاني التي يستطيع نظام قائم على الحرية أن يطالعها من عقلاها . وقد أيدت الحوادث في وقتها هذه الثقة الرزينة التي آمن بها ذلك الاقتصادي ، إذ آتت التجارة الحرة ثمارها . فالتصنيع أصبح مصدراً لرفاهية مادية متزايدة ؛ وكيفما كانت الاختبارات التي تقاس بها الثروة القومية فإن نموها طوال القرن التاسع عشر سار دون عائق . على أنه بعد نشر كتاب «ثروة الأُمم» بإحدى وتبعين سنة ، عندما بلغ النظام الرأسمالي في بريطانيا غاية نضجه ، ومضى ينتشر بسرعة في كافة أنحاء أوروبا، نهض يهودي ألماني^(١) يقيم في لندن هو كارل ماركس Karl Marx وسخر ذكاوه الداقد للدرس نتائج ذلك النظام الرأسمالي . فيبينا لم ير فيه سميث إلا ضوء الشمس ، لم ير «ماركس» إلا ظلالاً عكسها على مسرح الشر : ممارسة الفرد لحريرته

(١) كانت أسرة كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) أسرة يهودية اعتنقت المسيحية .

دون عائق ، وتقسيما للعمل بلغ من حدته أن عوق نمو الذكاء والحياة الفارغة الحالية من المتعة التي يحياها أرباب الحرف . ولم ير إلا هوة تزداد اتساعاً في كل يوم بين الثروة والفقر ، وقد دان لشعور بالاستقرار والبقاء الذي كان يميز الأنواع القديمة من المجتمعات ، واستغلال أصحاب الأعمال للطبقة العاملة دون رحمة . وهذه صورة بالغ في رسماها ماركس ، كما أنها لم تكن مطابقة ل الواقع من بعض الوجوه المأمة . ولكن الاهتمام اتجه إلى معالجة العيوب الخطيرة التي لا شاك فيها ، وهي وإن لم تكن تبرر الثورة كانت في حاجة ماسة إلى الإصلاح :

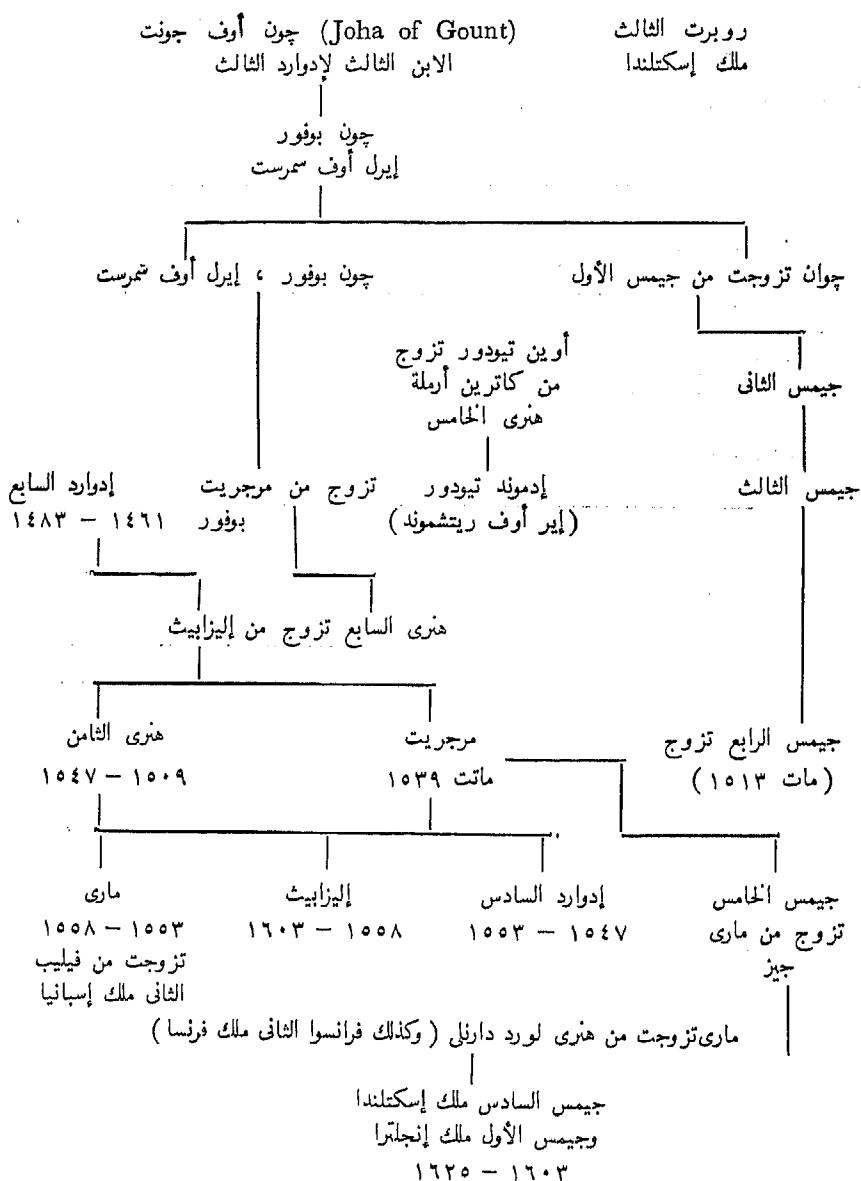
كتب يمكن الرجوع إليها

- P. Mantoux : La Révolution industrielle au XVIIIe siècle. tr. M. Verson. (1928) (Excellent bibliography).
- J. Aston : A Picture of Manchester, (1804-1826)
- Edward Baines : History of the Cotton Manufacture in Great Britain. (1835).
- R.N. Boyd : Coal Pits and Firemen : A short History of the Coal Trade & The Legislation affecting it. (1892).
- R.E. Prother : The Pioneers & Progress of English Farming. (1888).
- R.H. Thurston : A Century's Progress of the Steam Engine. (1901).
- S. Smiles : The Lives of the Engineers. 5 Vols. (1874).
- C. Beard : The Industrial Revolution. (1901).
- J.L. & B. Hammond : The Town Labourer. (1917).
- J.L. & B. Hammond : The Skilled Labourer. (1919).
- J.A. Hobson : The Evolution of Modern Capitalism. (1894).
- A Toynbee: Lectures on the Industrial Revolution of the Eighteenth the Century in England. Ed. Lord Milner. (1908).

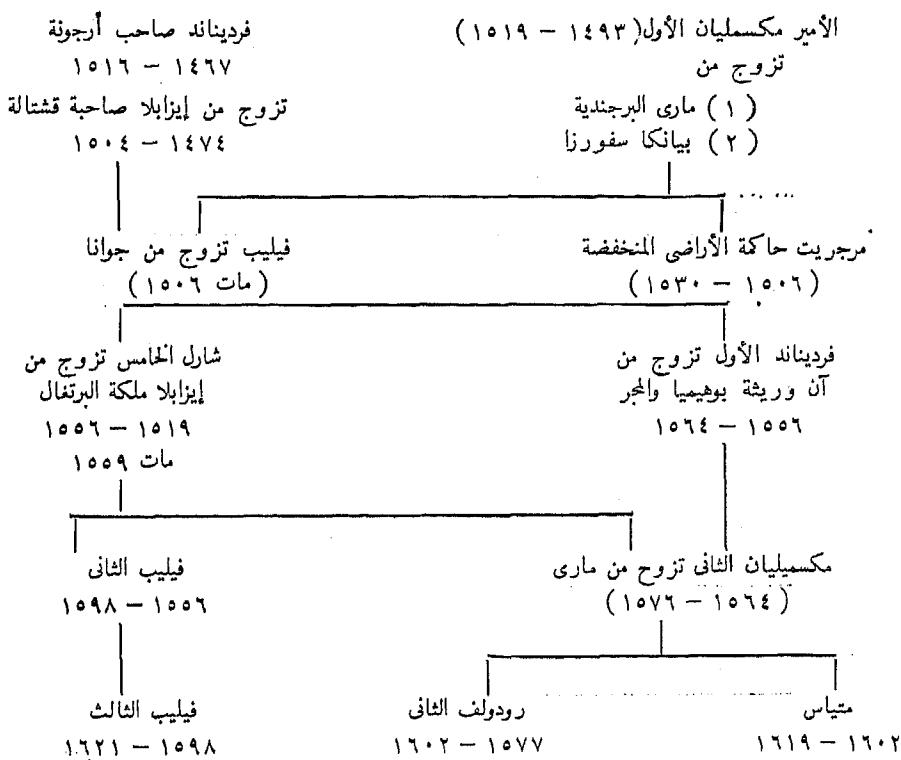
جداول ترتيب تسلسل الأسر المالكة

- ١ - أسرة التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت .
- ٢ - إمبراطورية شارل الخامس :
- ٣ - آخر ملوك الثالوا وتولية هنري نافار العرش .
- ٤ - المطالبون بالعرش الإسباني .
- ٥ - أسرة استيوارت وتولية أسرة هانوفر العرش :
- ٦ - أسرة رومانوف :
- ٧ - أسرة هوهنزيلن :

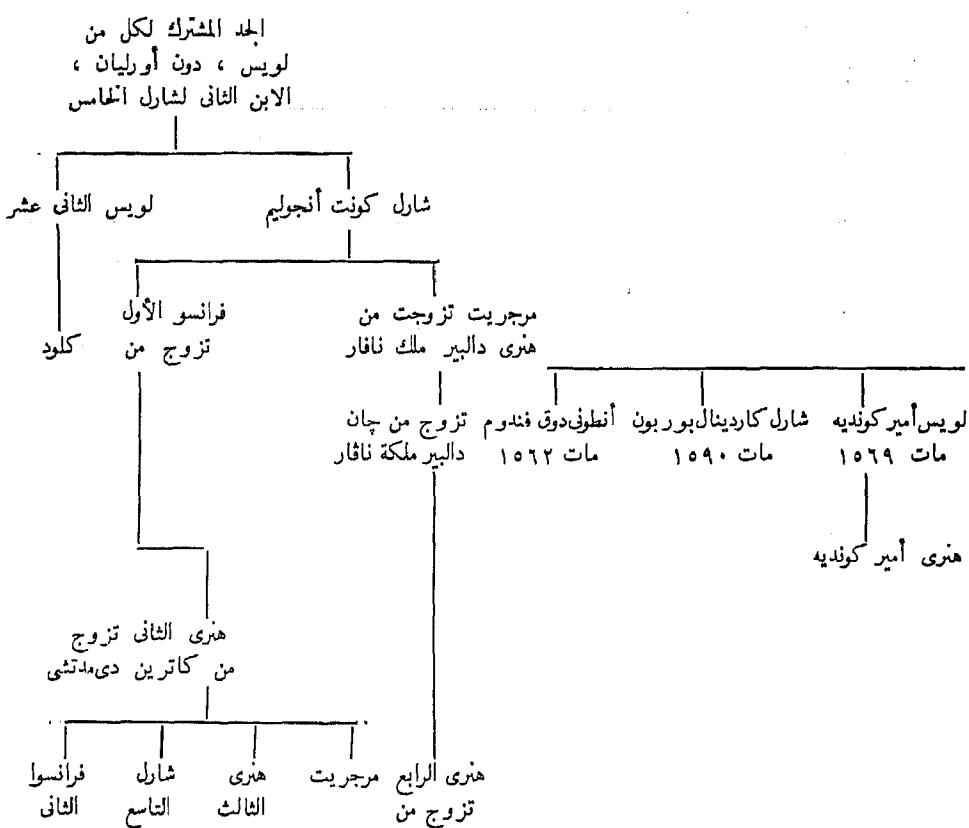
١ - أسرتا التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت العرش



٢ - إمبراطورية شارل الخامس



٣ - آخر ملوك أسرة الفالوا وتولية هنري نافار العرش



٤ - المطاليبون بالعرش الإسباني

فليب الثالث ملك إسبانيا مات ١٦٢١

آن تزوجت من لويس الثالث عشر

الإمبراطور فريديريك الثالث
ماريا تزوجت من ماريا

إلي فورموفيرج تزوجت الإمبراطور فرديناند الثاني
مات ١٧٥٥
ماريا تزوجت الإمبراطور فرديناند الثاني
مات ١٧٠٣
ماريا تزوجت الإمبراطور فرديناند الثاني
مات ١٧٣٩
ماريا تزوجت الإمبراطور فرديناند الثاني
مات ١٧٣١

ماريا فرناندا تزوجت من ملك
مانويل صاحب بباريس

لويس الرابع

الدوقان الكبير
فليب الخامس
لويس الرابع
برمنديا
لويس الخامس عشر

شارل يطال بـأن
الإمبراطور جوزيف
مات ١٧١١

جوزيف فوديناند
أمير بفاريا المستخب
مات ١٦٩٩

شارل يطال الثالث
يسيج إسبانيا ؛ فيما
بعد الإمبراطور
شارل السادس
مات ١٧٤٠ - ١٧١١

٥ — أسرة استيوارت وولية أسرة هانوفر العرش

جيمس الأول تزوج من آن من الدانمارك (١٦٢٥ - ١٦٣٠)

آن ١٦١٢ مات هنري ، مات شارل الأول تزوج من هنريتا فاريا (١٦٤٩ - ١٦٦٥) (ابنة هنري الرابع ملك فرنسا)

البرازيل تزوجت من فردرريك الخامس منتخب البرازيل

شارل الثاني (١٦٦٠ - ١٦٨٥) ماري تزوجت من جيمس الثاني (١٦٨٨ - ١٦٨٩) ولهم ثلاثة أبناء

شارل الثالث تزوجت من كاثرين من برتغال

صوفيا منتخبة هانوفر منتخب ألمانيا

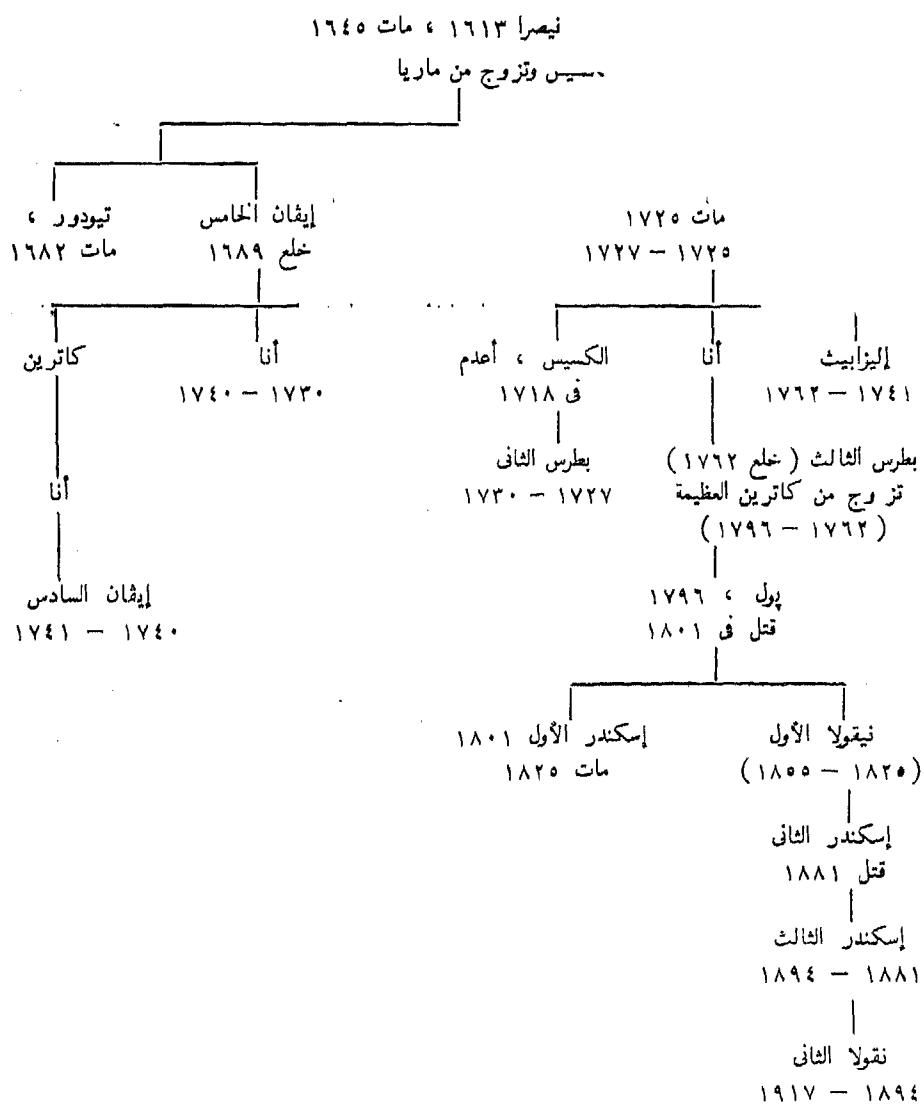
جورج الأول (١٧١٤ - ١٧٤٦)

آن ١٧٠٢ - ١٦٩٤ تزوجت ولهم الثالث (١٦٨٩ - ١٧٠٢)

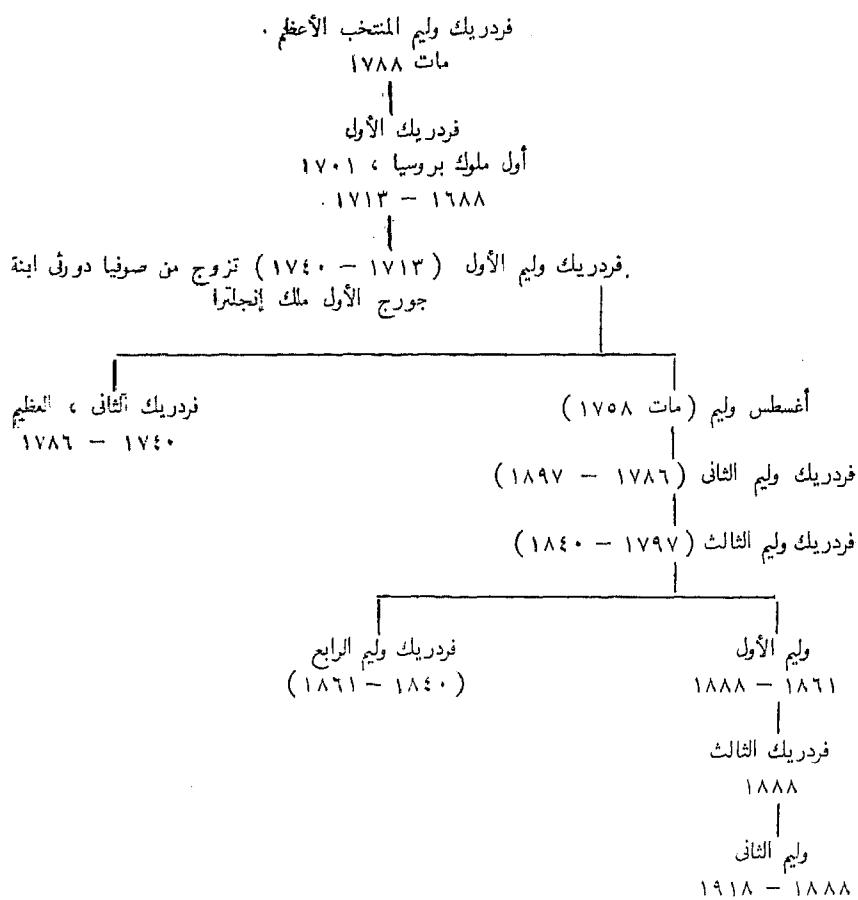
شارل إدوارد

ولهم ذوق جلوسمر مات ١٧٠٠

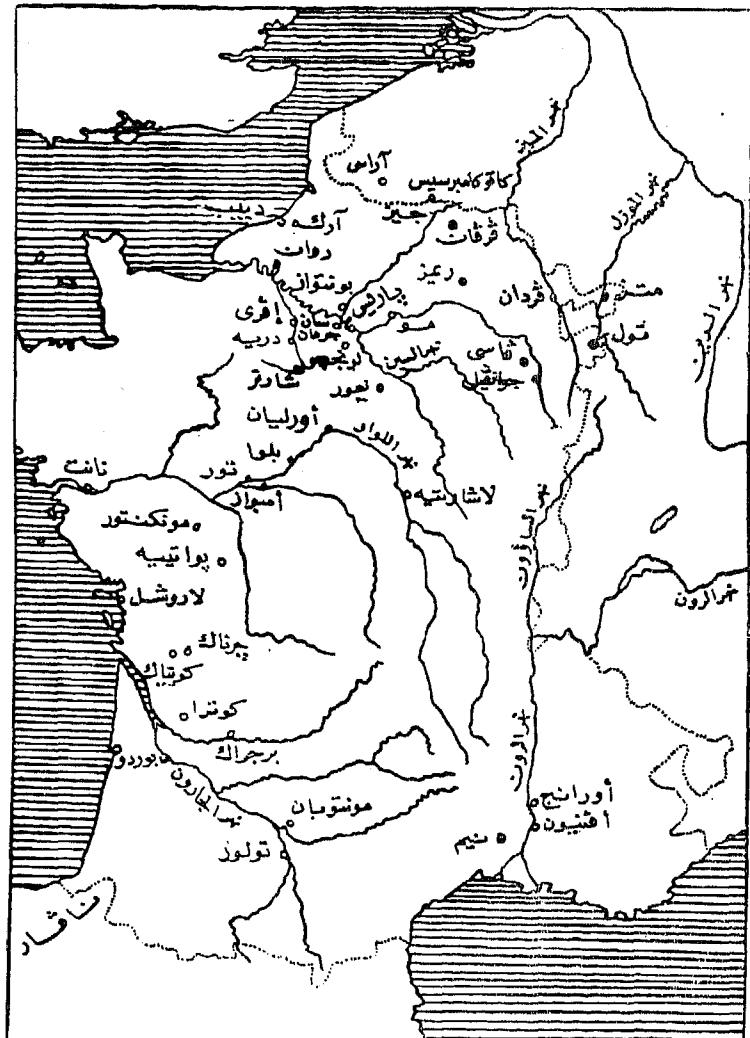
٦ - أسرة رومانوف



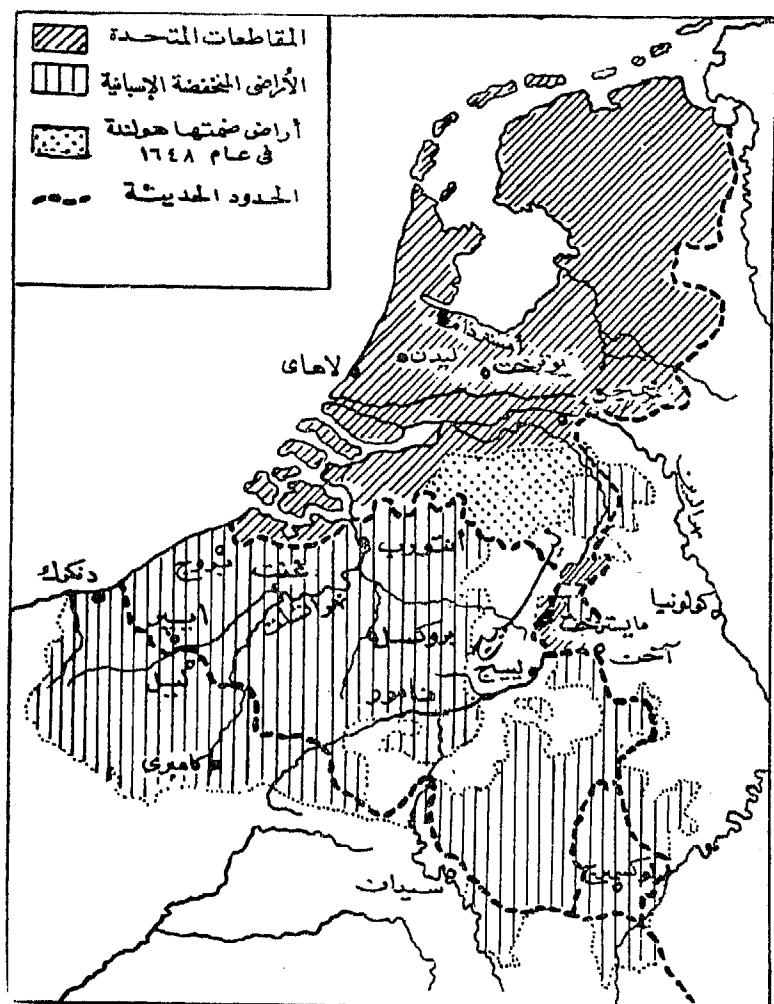
٧ - أسرة هوهنتزلن



الخرائط

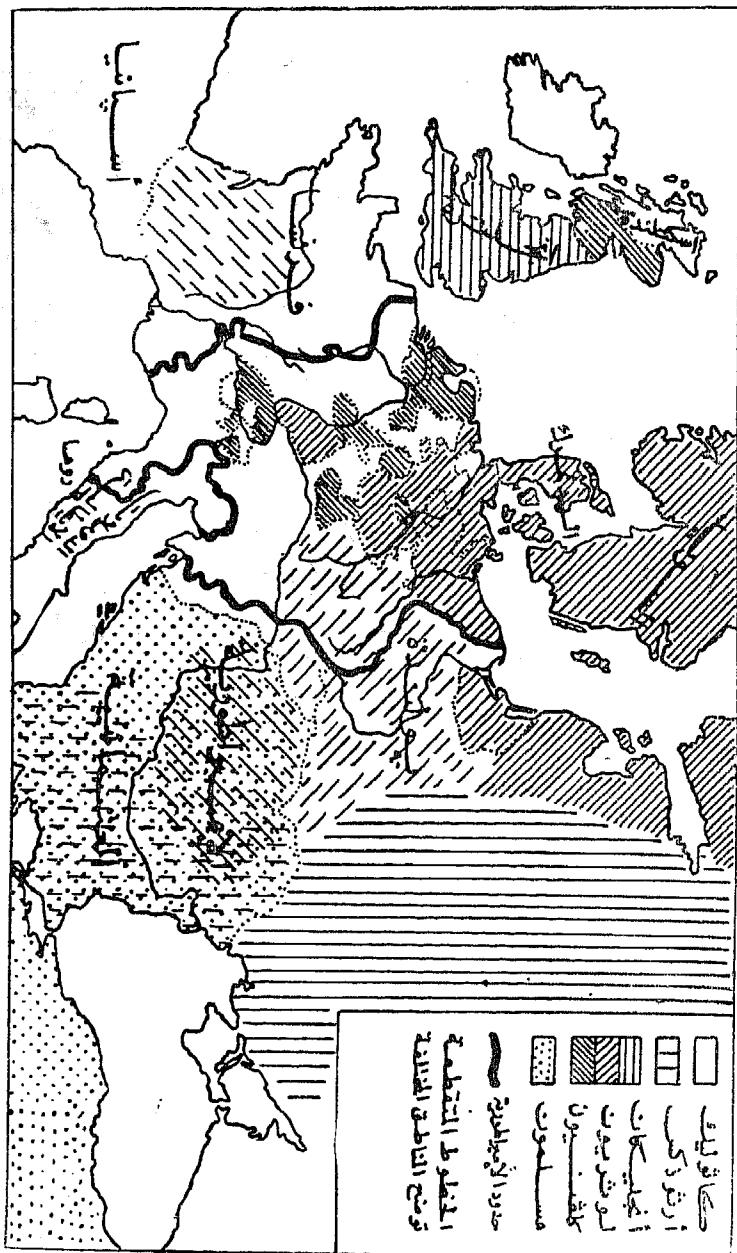


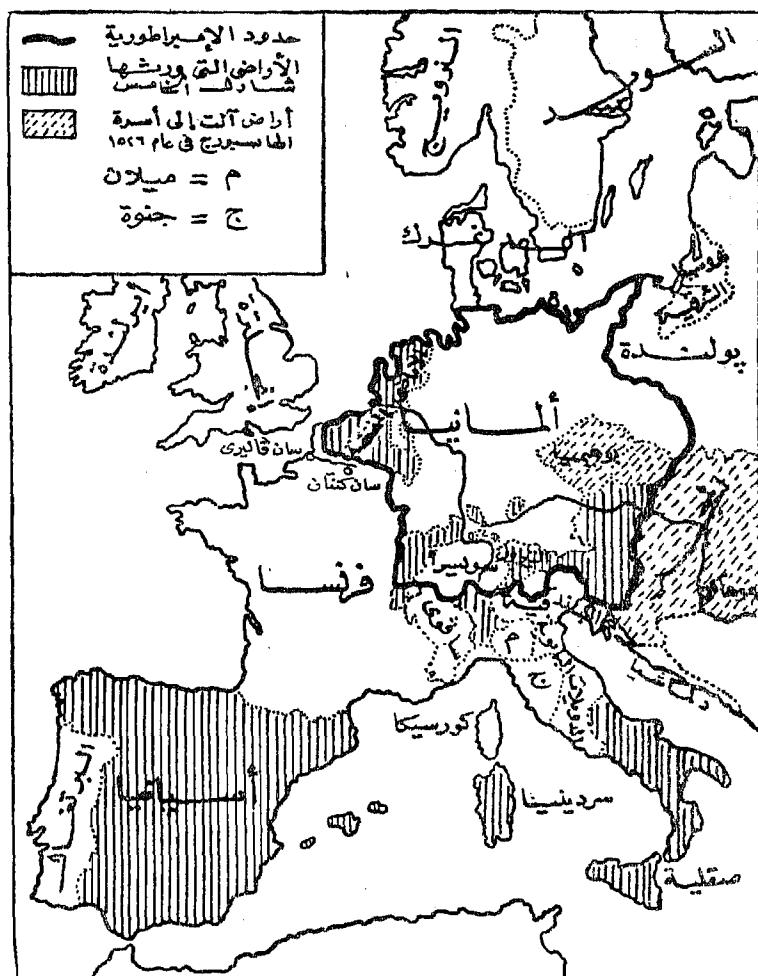
فرنسا اثناء الحرب الدينية



شورة الأراضي المنخفضة

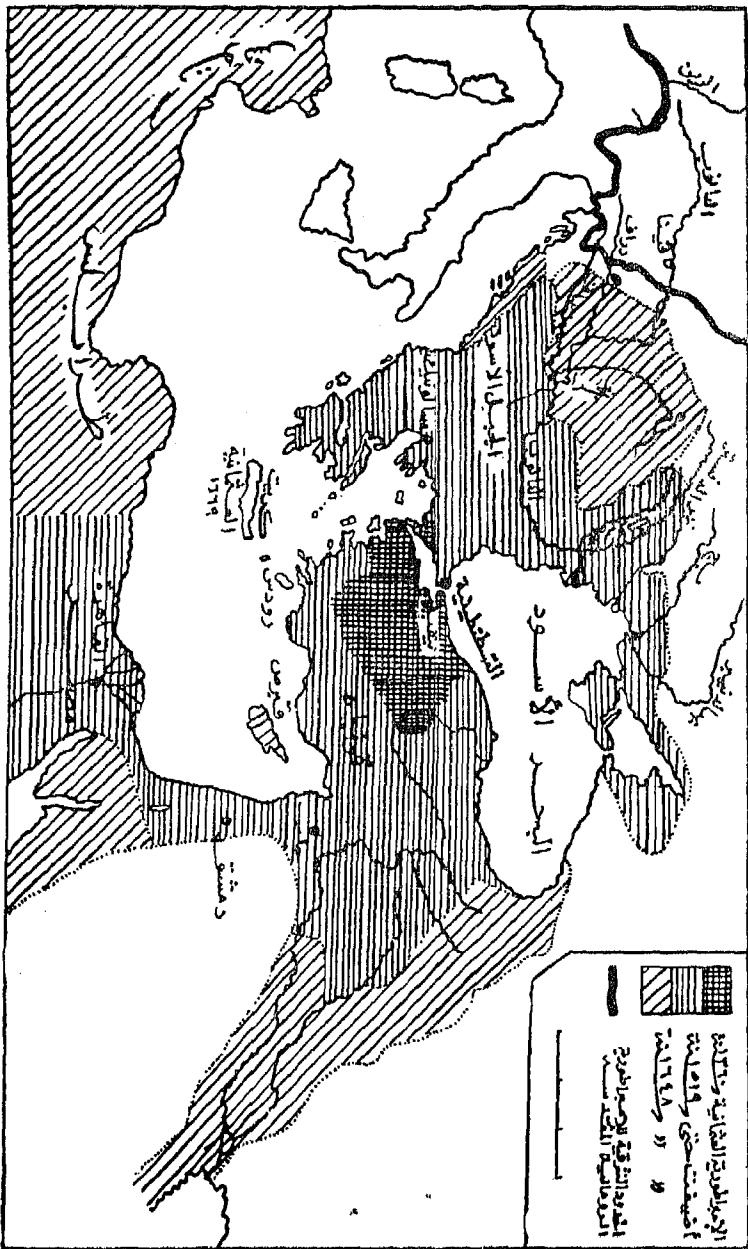
قديح الحاشلياكي والبروتستانت في أوروبا في عام 1610



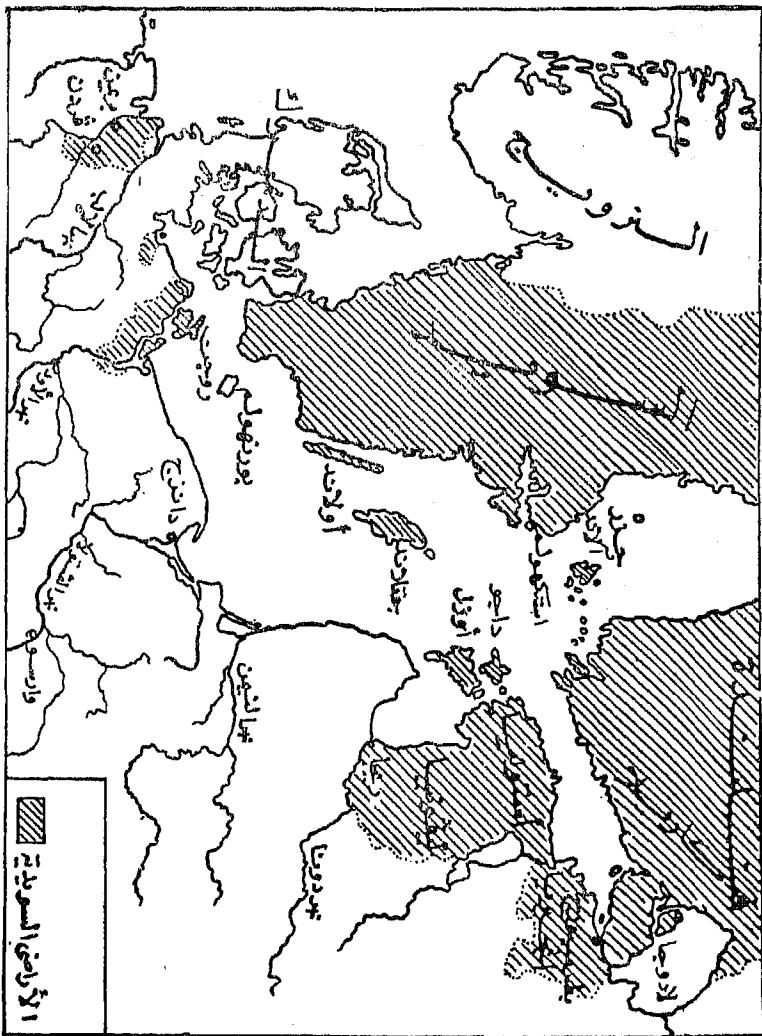


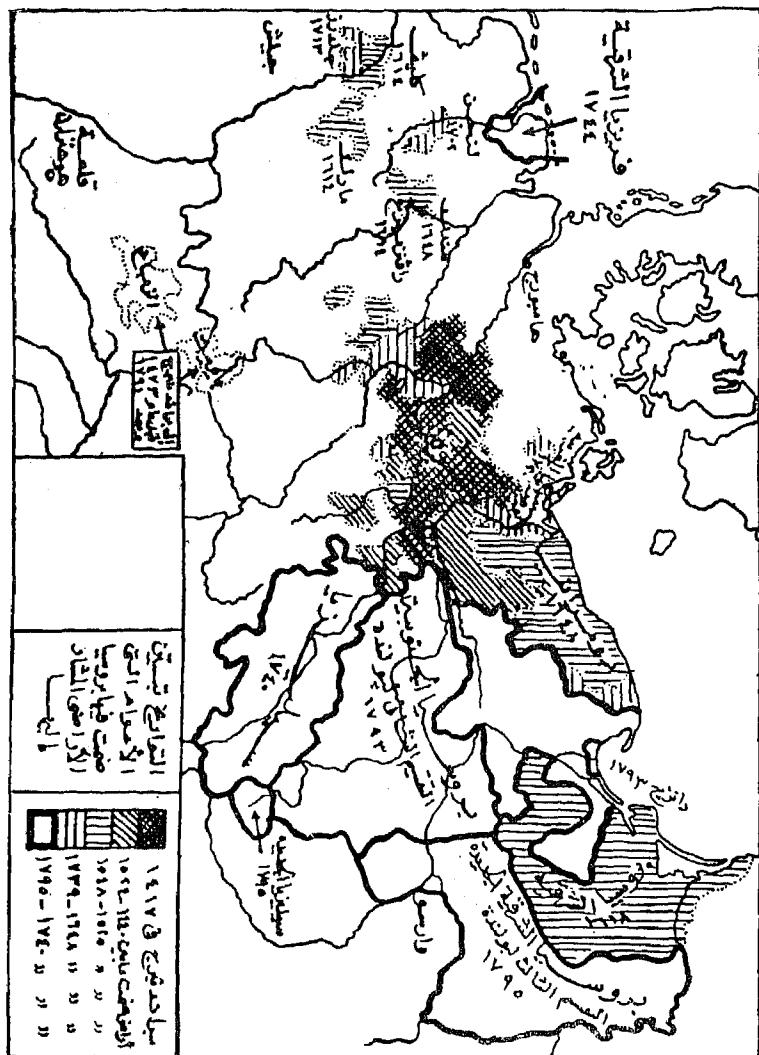
امبراطورية شارل الخامس في عام ١٥٥٥

توضيح الاممياتية المكانية إلى ملائمة



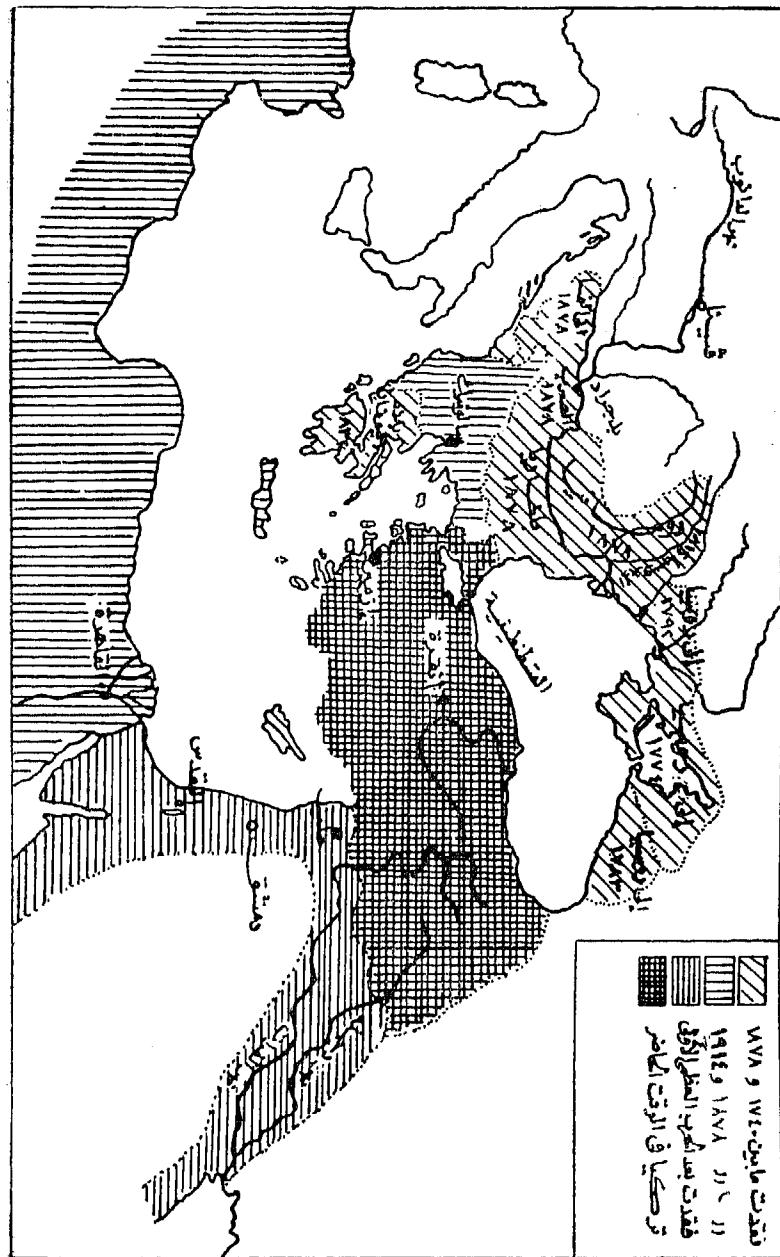
أولاد السوسيد في عام ١٩٦٩





القناught رقعة براوند شيرج بيجروسيما

ضعف الإمبراطورية العثمانية



مطبوع دار المعارف بمصر

١٩٧٠

أصول التاريخ الأوروبي الحديث

يتناول هذا الكتاب بالعرض والتحليل تاريخ أوروبا منذ عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ، فهو يعرض لفترة نمت فيها المقومات المادية والمعنوية التي أخرجت أوروبا إلى حيز القمة ودفعت بها دفعاً إلى خارج حدودها : في الأمريكتين وفي آسيا وإفريقيا وأستراليا . وهو ليس سرداً للتاريخ حضاري صرف ، أو عرضاً تارخياً جافاً ، وإنما هو مزاج لذلك كله في إطار جميل من البيان الناصع .

وبنشر هذا الكتاب تم مجموعة كتب تاريخ أوروبا لهربرت فيشر بعد ترجمتها إلى اللغة العربية .

١١٠

